Terran Williams

كيف يرى
الله
المرأة

نهاية النظام الأبوي

كيف يرى الله المرأة

نهاية النظام الأبوي

Terran Williams



The Spiritual Bakery Publications

كيب تاون، جنوب أفريقيا

Copyright © Terran Williams, 2022

ترجمة عن الإنجليزية، 2026، بإذن من المؤلف — تنزيل مجاني على www.hans-joerg-ronsdorf.de

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز نسخ أي جزء من هذا المنشور أو تخزينه في نظام لاسترجاع البيانات أو نقله بأي شكل أو بأي وسيلة، إلكترونية كانت أو آلية أو بالتصوير الضوئي أو بالتسجيل أو بغير ذلك، دون إذن خطي مسبق من صاحب حقوق النشر.

الاقتباسات الكتابية، ما لم يُذكر خلاف ذلك، مأخوذة من The Holy Bible, New International Version® NIV®

Copyright © 1973, 1978, 1984, 2011 by Biblica, Inc. TM

استُخدمت بإذن. جميع الحقوق محفوظة في أنحاء العالم.

جميع عناوين المواقع الإلكترونية الواردة في الحواشي، وهي في الغالب مختصرة بصيغة www.bit.ly، جرى التحقق في نوفمبر 2021 من أنها تتيح الوصول إلى المحتوى.

الرقم الدولي المعياري للكتاب (ISBN) لطبعة Amazon الورقية: 9798401047878

ماذا يقولون عن كتاب «كيف يرى الله المرأة»

يقدّم تيران ويليامز (Terran Williams) نظرة صادقة ومتينة إلى ما يقوله الله حقًّا، في الكتاب المقدس، عن المرأة وعن العلاقة بين الرجل والمرأة. سيُشعر هذا الكتاب بعض الناس بعدم الارتياح، ولعلّه ينبغي له أن يفعل ذلك، لأن ويليامز يبني حجة دقيقة على أن البوصلة الأخلاقية لله تشير دائمًا إلى وحدة الرجال والنساء، في الخليقة، وفي الكنيسة، وفي المسيح. إنه مرجع رائع لكل من يصارع هذا الموضوع.

—د. مايكل بيرد (Michael Bird)، العميد الأكاديمي ومحاضر العهد الجديد في Ridley College، ملبورن، أستراليا؛ مؤلف كتاب Evangelical Theology

بدلًا من أن يكتفي تيران ويليامز بعرض موقفه من المرأة والخدمة والدفاع عنه، يأخذنا معه في رحلة، فيروي لنا تحوّله اللاهوتي والتفسيري والجماعي والشخصي، رواية تحمل ملاحظات ثاقبة وبصيرة وتنبيهات حكيمة. وروايته مفيدة على نحو خاص لأنها تُظهر مسار نقده لأبحاث واسعة ودمجه إياها، مع التزام لا هوادة فيه بسلطان الكتاب المقدس. ومع ذلك فإن أسلوبه الحواري الجذّاب يجعل الأبحاث والتفسيرات المعقدة في متناول القارئ.

—د. سينثيا وستفول (Cynthia Westfall)، أستاذة باحثة في McMaster Divinity College، أونتاريو، كندا؛ مؤلفة كتاب Paul and Gender: Reclaiming the Apostle's Vision for Men and Women in Christ

بمنطق صارم وصادق لا يكلّ، وبفهم من الداخل لكلا الموقفين، يقدّم تيران ويليامز حجة محكمة البناء ومكتوبة بأسلوب جذّاب لصالح تبادلية الرجل والمرأة. وقد اكتسبت رؤى جديدة وأنا أقرأ الأدلة التي يُظهر أنها ألزمته بتغيير رأيه هو.

—د. كريغ كينر (Craig Keener)، أستاذ الدراسات الكتابية في Asbury Theological Seminary، كنتاكي، الولايات المتحدة الأمريكية؛ محرر The NIV Cultural Backgrounds Study Bible؛ رئيس The Evangelical Theological Society في 2018–2020

في كتاب من الكتب الفارقة في جيلنا، يسبر تيران ويليامز أعماق الكتاب المقدس ليستعيد المرتفعات التي دُعيت إليها النساء (والرجال).

—ستارلا ودانيال وبستر (Starla and Daniel Webster)، راعيا City Lights Church، دبي

هذا كتاب في وقته، ويستحق أن يقرأه كثيرون. لقد فقد المجتمع إلى حد بعيد قدرته على النقاش بحيوية والجدال بلياقة، ولا سيما حين يتعلق الأمر بقضايا محورية مثل الجنس (النوع الاجتماعي)، والإدماج، والمساواة، والانتماء العرقي. ولذلك فمن المنعش أن نقرأ كتابًا مكتوبًا بنعمة وكرامة. إن فصوله تترك لدى القارئ انطباعًا واضحًا بأن من كتبها ليس شخصًا لطيفًا حقًّا فحسب، بل مفكر واضح الذهن أيضًا، عازم على أن يعرض النص الكتابي عرضًا أمينًا. وتيران ويليامز هو ذلك الشخص — واسع الاطلاع، فصيح، دقيق في صياغة الفكرة، ومملوء نعمة. وأرجو على وجه الخصوص أن يستوعب الإخوة رسالته وأن يعيشوا داخل جماعة الإيمان الحياة المملوءة نعمة التي أرادها الله لهم دائمًا.

—د. بول ألكسندر (Paul Alexander)، رئيس Trinity Bible College and Graduate School، داكوتا الشمالية، الولايات المتحدة الأمريكية؛ رئيس World Alliance for Pentecostal Theological Education

هذا الكتاب صادق، متواضع، علمي، ومتحدٍّ. وبينما كنت أقرؤه لم أستطع إلا أن أفكر أن ما سعى لي ستروبل (Lee Strobel) إلى فعله بالإلحاد حين كتب The Case for Christ، يفعله تيران ويليامز هنا

باللاهوت التكاملي: إذ يجعله موقفًا يزداد تعذّر الدفاع عنه لدى كل من يسعى إلى أن تشكّله الأدلة. إنني ممتنة له امتنانًا عميقًا — فهو سيشكّل مشهد كنائسنا تشكيلًا رائعًا. اقرؤوه، واختبروه، وعيشوه، وانظروا الملكوت يأتي من خلاله.

—د. كاتيا آدامز (Katia Adams)، راعية The Table، بوسطن، الولايات المتحدة الأمريكية؛ مؤلفة كتاب Equal

هذا العمل الشامل في الموضوع، بما فيه من توازن حسن بين التحليل ونقد باحثين بارزين، يمثّل جهدًا دؤوبًا يبذله تابع ملتزم ليسوع للوصول إلى تقييم صادق لقضية سبّبت كثيرًا من الانقسام ووجع القلب للمسيحيين وللكنيسة وللمجتمع. وحسنًا نفعل إن انتبهنا إليه!

—د. كوينتون هويت (Quinton Howitt)، أحد مؤسسي South African Theological Seminary و The School of Leadership

هذا الكتاب، المكتوب بحسّ رعوي وفطنة لاهوتية، يلهمني أن أقود مؤسسة لا كأنني رجل، بل كشريكة كاملة في الإنجيل. لقد جئت في الأصل من طائفة كانت تُقصي النساء عن الوعظ والقيادة، ولذلك يمنحني هذا الكتاب أنا وزوجي بداية جديدة ونحن نغرس كنيسة جديدة.

—مينا كويلا (Minah Koela)، المديرة التنفيذية لـ Beautiful Gates، كيب تاون، جنوب أفريقيا

هذا الكتاب لا غنى عن قراءته لكل مؤمن يتطلع إلى توسيع فهمه لكيف خلق الله الرجال والنساء ليخدموا معًا في ملكوته. لقد فعل تيران ويليامز ما أرجو أن يفعله كل مسيحي (وبالتأكيد كل راعٍ) — أن يدرس بنفسه ما تقوله الأسفار المقدسة عن الجنسين وعن قيادة المرأة، بما في ذلك فهم الآراء من جميع الأطراف. إن كيف يرى الله المرأة رواية مقنعة لبحث متواضع عن الحق قام به لاهوتي متفانٍ، وهو في الوقت نفسه دراسة شاملة للاهوت التكاملي واللاهوت المساواتي وممارساتهما.

—كادي كول (Kadi Cole)، المديرة التنفيذية لـ Kadi Cole and Company، فلوريدا، الولايات المتحدة الأمريكية؛ مستشارة في القيادة؛ مدرّبة تنفيذية؛ مؤلفة كتاب Developing Female Leaders

يمكنك أن تعرف متى يحب أحدهم الكتاب المقدس. سمعت تيران يتكلم أول مرة أمام مجموعة من راكبي الأمواج الشبان قبل 20 عامًا. كانت عيناه تلمعان، وكان يزداد حماسة شيئًا فشيئًا وهو يشرح بوضوح كبير كيف كان ملكوت الله يقتحم عالمنا وكيف كان متاحًا لهم. وأنا أقرأ هذا الكتاب، الشيء الوحيد الذي تغيّر هو أن تيران يبدو أكثر حبًّا لكلمة الله من ذي قبل. لقد أحببت كل صفحة، ووجدت نفسي أقول: نعم! نعم! نعم! إن كنتم شغوفين بالحق وبالحرية وبكل ما دعا الله الكنيسة لأن تكونه، فأظن أنكم قد تتجاوبون بالطريقة نفسها. أوصي بهذا الكتاب للجميع، أيًّا كان الجانب من السياج الذي تقفون عليه الآن.

—بول فان كولر (Paul Van Coller)، قائد Hope Church، جورج، وAssociation of Related Churches in Southern Africa، وZambia Project

هذا الكتاب يحمل إلحاحًا إرساليًّا — فقد أسكتنا أحيانًا الجزء الأكبر من الكنيسة ومنعناه من أن يعيش دعوته الكاملة لرؤية العالم يتغيّر. ولأنني نشأت في جنوب أفريقيا زمن الأبارتهايد، فإنني أعرف عن تجربة مباشرة كيف أن أيديولوجيا يباركها لاهوت خاطئ أنتجت مجتمعًا يتشدّق بالمساواة لكنه ظلّ يضطهد الملوّنين من أمثالي. وبالمثل رأيت لاهوت «متساوون لكن بأدوار مختلفة» يُنتج نساءً ورجالًا محطّمين. يقدّم كتاب تيران حجة لاهوتية وعلمية ساعدتني على أن أتعمّق أكثر في الطريقة التي ينبغي أن أنظر بها إلى زوجتي وإلى سائر النساء وأن أحبهن.

—جوليان آدامز (Julian Adams)، راعٍ في The Table، بوسطن، الولايات المتحدة الأمريكية؛ مدير Frequentsee؛ مؤلف كتاب Terra Nova

هذا نداء يقظة واضح الصوت. إن كنتم تكنّون تقديرًا عاليًا للكتاب المقدس، وتملكون عقلًا صارمًا، ومستعدين للقيام بعمل عميق، فسيجد صدى في نفوسكم. إن سعي تيران وراء الحق مألوف لكثيرين، غير أن المكان الذي تقودنا إليه هذه الحقائق الكتابية قد يكون أرضًا غير مألوفة. ومهما كان مغريًا أن نتشبّث بمواقفنا، فقد يكون هذا بالضبط ما نحتاج إليه لنغيّر رأينا.

—جيس وتوم باسون (Jess and Tom Basson)، راعيا Grace Family Church، ديربان، جنوب أفريقيا

كما في كتابه السابق، يكتب تيران بسلاسة وبأسلوب في متناول القارئ، فيتناول الحجج الحاسمة دون أن يلجأ إلى التعقيدات التقنية. إنه واسع البحث، ويستكشف الطيف الكامل للحجج التكاملية والمساواتية. والقصة التي يرويها عن رحلته مع زوجته جولي (Julie) نحو زواج وخدمة قائمين على المساواة التامة بين الشريكين، ترسّخ حجته في الواقع. ومن بين الأعمال التي قرأتها والتي تساعد التكامليين على إعادة النظر في المسألة، هذا العمل من أكثرها إقناعًا.

—د. ديريك مورفيو (Derek Morphew)، مؤسس Vineyard Bible Institute الدولي؛ مؤلف كتاب The Kingdom Reformation

كيف يرى الله المرأة كتاب قوي ورائع! إنه يحترم سلطان الكتاب المقدس ويقدّم نقدًا حاسمًا للاعتقاد بأن الرجال هم من ينبغي أن يقودوا. يستعين تيران ويليامز بتخصصات متنوعة — اللاهوت، والتنمية، والعلوم الاجتماعية، على سبيل المثال — ليتحدّى عرقلة اللاهوت التكاملي لازدهار الإنسان. إن عمله منطقي بقدر ما هو شامل. وهو في متناول القارئ على نحو رائع، ويعالج القضايا المعقدة بنعمة ومهارة.

—د. ميمي حداد (Mimi Haddad)، رئيسة CBE International ومديرتها التنفيذية؛ مستشارة في اللاهوت وقضايا الجنسين لدى World Relief وWorld Vision International

هذا، في رأيي، أفضل كتاب في الجدل بين التكامليين والمساواتيين الإنجيليين. إنه كتاب ممتاز ومن الطراز الأول، وينبغي أن يقرأه الإنجيليون على نطاق واسع. اشتروا نسخًا لأصدقائكم، وأعيروه لكثيرين. إنه يبرز الحق بأن الإنجيل يحرّر المظلومين. فالكتاب المقدس من أوله إلى آخره خبر سارّ للرجال والنساء.

—د. كيفن جايلز (Kevin Giles)، مؤلف كتاب What the Bible Actually Teaches on Women

إهداء

أهدي هذا الكتاب أولًا إلى جولي، توأم روحي وشريكتي التي صقلتها المعارك، في الحياة، وفي تربية الأولاد، وفي تغيير العالم.

وأهديه أيضًا إلى آيفي (Ivy)، ابنتنا، الأنثوية والجسورة، الصغيرة سنًّا والمشبعة مع ذلك بإحساس بدعوة إلهية. لعلّكِ تركضين في السباق الذي دُعيتِ إليه بفرح وثقة، ومن دون أيّ من الشكوك في النفس التي اضطرت نساء كثيرات قبلكِ إلى احتمالها.

في سهول السافانا في قارتنا، تزأر الأسود واللبؤات معًا لتُظهر قوة القطيع. وكما في البرية، كذلك في عائلتنا، وكذلك في كنيستنا — وكذلك في عالمنا.

وأخيرًا، أكرّس هذا الكتاب لكل شخص يرغب في أن يجيب من جديد عن سؤال يسوع الذي يفحص النفس في لوقا 7: 44:

«أتنظر هذه المرأة؟»

المحتويات

تقديم 10

تمهيد: كيف يرى الله المرأة 13

1 تغيير رأيي 16

الجزء الأول – سقوط المرأة ونهوضها 23

2 الجنس الأدنى 24

3 صعود التكاملية (ومزالقها) 43

4 شراكة صُنعت في الفردوس 66

5 فداء العلاقة بين الرجل والمرأة 90

الجزء الثاني – نساء (غير) مقيَّدات 107

6 نساء كورنثوس 108

7 1 تيموثاوس 2: 11-15 135

8 أيتها الزوجات، اخضعن 172

9 الله الذي يتنازل 205

الجزء الثالث – خدمة النساء 223

10 نساء مؤثّرات في العهد القديم 224

11 نساء مؤثّرات في الأناجيل 239

12 نساء مؤثّرات في الكنيسة الأولى 255

13 الموهبة (رومية 12) مقابل الجنس (1 تيموثاوس 3) 284

الجزء الرابع – إطلاق طاقات المرأة 301

14 الأنوثة والرجولة في الكتاب المقدس 302

15 حواء ليست للبيت وحده 318

16 تطبيقات عملية للكنائس 328

17 الشعب ضد النظام الأبوي 340

خاتمة: كيف يرى يسوع المرأة 359
الملحق 1: هل الله ذكر؟ 362
الملحق 2: آدم وحواء قبل السقوط (تابع) 370
الملحق 3: ماذا تعني kephalē 375
الملحق 4: هل يجوز للنساء أن يعلّمن؟ 381
الملحق 5: حجّتان أخريان من 1 تيموثاوس 3 386
الملحق 6: لماذا قد لا تغيّر الحقائق آراءنا 394
شكرًا جزيلًا 404
مراجع مختارة 406
كتب أخرى لتيران ويليامز 409



تقديم

طوال معظم حياتي كنت تابعة للمسيح.

وطوال حياتي كلها كنت امرأة.

والموضع الذي يتقاطع فيه هذان الوصفان كان رحلة من التخلّي والالتقاط ... التخلّي عن توقعات العائلة، وتوقعاتي أنا، وتوقعات المجتمع، بل حتى توقعات الكنيسة، بشأن من أكون. واستعادة قدرتي على الفعل (التي نسيتها أحيانًا)، وغايتي، وسلطاني، وإدراكي لمن هو الله، ولمن يقول هو بدوره إني أكون.

هذا الكتاب، وبالتحديد الرجل الذي كتبه، أدّى دورًا محوريًّا في تلك الرحلة. التقينا أول مرة عندما كنت في السابعة عشرة فقط — أنا، القادمة الجديدة المندهشة الواسعة العينين، وهو، القائد ذو الشعر الأشعث في الكنيسة التي صارت بيتًا لكلينا طوال العقدين التاليين.

وبعد خمسة أولاد، و4 بيوت، و18 عامًا من الزواج، وحالة احتراق نفسي واحدة، ما زلت أشعر بالاندهاش ذاته، وصار شعر كلينا الآن أشعث! ومع ذلك، تحت هذه الملامح الجسدية، يكمن قلبان مثخنان بندوب المعارك، تعلّما ونسيا ما تعلّماه، ليرى كل منهما الآخر على نحو أقرب إلى الطريقة التي يرى بها الله الآخر.

والطريف أنه عندما شرع زوجي أول مرة في هذه الرحلة نحو تغيير لاهوته في شأن المرأة، كنت أشدّ ناقديه. فقد درس كلانا اللاهوت من قبل، وكنت قد صارعت شخصيًّا هذا الموضوع بعينه قبل ذلك بسنوات كثيرة — بل كنت قد شهدت كيف كلّمني الله في تلك المرحلة المضطربة من إيماني، وهمس بلطف لقلبي المتعب: «لماذا تتصارعين على مكانة وأنتِ جالسة أصلًا في حضني؟»

في تلك اللحظة رأيت نفسي كما كنت حقًّا.

لم أكن خادمة من نوع ما، مستخفًّا بقيمتها، تحتاج إلى المطالبة بحقوقها. كنت ابنة محبوبة للعليّ. لم أكن بحاجة إلى أن أدفع وأزاحم لأشق طريقي إلى جانب إخوتي، فقد كنت جالسة مع الله أصلًا، قريبة من قلبه، حيث كنت أتوق أكثر ما أتوق أن أكون — بصرف النظر عن الأدوار والقيود.

وبعد ذلك اللقاء، كنت قد ارتضيت عن طيب خاطر الدور الذي يُفترض أن الله أعطاني إياه، دور المُعينة. وبصراحة، بعد سنوات من الصراع مع مكاني في الكنيسة، كان ذلك راحة.

وبعيدًا عن الشعور بالقهر، توالت فرص الخدمة بكثرة وسرعة. وعظتُ، وقدت اجتماعات، وشاركت في قرارات قيادية حاسمة، وشاركت زوجي في غرس الكنائس، وشاركت في استضافة لقاءات نسائية وصلت إلى الآلاف.

ومع ذلك ها هو زوجي — بعد كل هذه السنين — يقول لي إنه يظن أننا كنا مخطئين! وإننا، بطريقة ما، كنا نظلم النساء ونسيء إلى شهادة الكنيسة بلاهوتنا.

قاومت. زمنًا طويلًا.

فمن ناحية، لم أكن أنا أشعر بأنني مظلومة على نحو خاص. وإن غيّرت موقفي، ألا يُظهر ذلك، على سبيل المفارقة، أن زوجي ما زال رأس بيتنا، وأن له زوجة لا تفعل سوى أن تتبع قناعات زوجها كظلّه؟ لم يضغط تيران بقوة، لكن مع مرور الوقت، وبعد مزيد من التأمل، بدأت شيئًا فشيئًا أدرك أن علاقتنا (وكنيستنا) لم تكن أصلًا، منذ البداية، علاقة تكاملية نموذجية.

لقد نشأت في بيت فيه أمّ كانت قادرة ومجتهدة بقدر أبي تمامًا. والتحقت بمدرسة رائعة للبنات — لم نكن فيها بحاجة حتى إلى أن يقال لنا إننا نستطيع أن نفعل أي شيء بحياتنا وطاقاتنا، فقد كنا نفترض ذلك مسبقًا! ثم حققت نجاحًا مبكرًا في تعليمي الجامعي، وفي مسيرتي المهنية، وفي الخدمة — ولم أشعر قط بأنني أدنى من الرجال الذين عملت وخدمت وعشت إلى جانبهم.

والمفارقة أن إصراري على التمسّك بلاهوتي التكاملي (النابع من قناعتي بأن عليّ أن أكوّن رأيي بنفسي)، وردّ فعل تيران الهادئ غير المكترث بذلك، برهنا على أننا كنا في الواقع أكثر مساواةً في شراكتنا بكثير مما أردت أن أعترف به في البداية.

ليس الرجل الذي بجانبي فحسب، بل هذا الكتاب أيضًا، كان من أعظم عطايا الله لي. لقد استخدمه الله ليعيد تشكيل نظرتي إلى نفسي كامرأة، وبذلك أيضًا نظرتي إلى الله.

ومع أنني لم أشعر قط بأن الآخرين همّشوني في كنيستنا التكاملية السابقة، فإنني أدرك الآن أنني، بطرق خفية، كنت قد همّشت نفسي بالإفراط في الإذعان للآخرين — فكففت عن أن أحلم أحلامًا أكبر، وقلّلت من صوتي وطاقاتي. ولعلّ الأشدّ إيلامًا أنني أرى الآن أنه بينما لم أُحرَم قط من مكان إلى المائدة، فقد حُرمت منه كثيرات من أخواتي اللواتي يملكن مواهب مماثلة، لمجرد كونهن عازبات، أو لأنهن متزوجات برجال ليسوا قادة. إن فكرة أنني كنت راضية بلاهوتنا زمنًا طويلًا لأنه كان ينفعني بينما يجرح كثيرات غيري، تحزنني الآن. ومع ذلك، هناك الكثير مما يدعو إلى الشكر والرجاء. فالله لم ينتهِ بعد من أيّ منا!

ومع أن كثيرًا من ذهني وقلبي ما زال يحتاج إلى التجديد، فإن ذلك الهمس من الله قبل عقود صادق اليوم كما كان آنذاك. إنني بالفعل جالسة في حضن الله، ولا أحتاج قط إلى التشبّث بمكانة. إنني مساوية بكل معنى لإخوتي في الملكوت. غير أن لاهوتي الآن يتوافق مع ممارستي ومع خبرتي المعيشة.

أصلّي أن يكون هذا الكتاب نعمة مماثلة لكم، أيها القرّاء الأعزاء. وكالكلمة التي نحبها جميعًا، لعلّ كلماته تنير أذهانكم، وتمكّنكم من أن تروا لا أنفسكم بوضوح أكبر فحسب، بل الله أيضًا — الذي في عينيه تتّقد صورتكم المنعكسة بمحبة جسورة محرِّرة.

—جولي ويليامز



تمهيد: كيف يرى الله المرأة

طوال معظم تاريخ الكنيسة، اعتقد الناس أن النساء، أيًّا كان ما يكنّ عليه غير ذلك، أدنى من الرجال. وكون عدد النساء المذكورات في الكتاب المقدس أقل بكثير من عدد الرجال (200 فقط من بين 3,000 شخصية مذكورة بالاسم) يفسّر جزئيًّا الافتراض الذي ساد قرونًا طويلة دون أن يعترض عليه أحد، وهو أن النساء أقل أهمية من الرجال. لكن الإله الذي يختار رحم امرأة ليزور عالمه من خلاله لم يكن يومًا معنيًّا بالإحصاءات أو بالأحجام. وحتى في أجزاء الكتاب المقدس التي يؤدي فيها رجل الدور الرئيسي، هناك نساء ينقلن، على الرغم من أدوارهن الأصغر، من رؤية الله لشراكة الرجل والمرأة أكثر بكثير مما قد ندرك للوهلة الأولى.

خذوا إبراهيم مثلًا. إنه أول يهودي على الإطلاق — ذكر، رجل حرّ، وصاحب مكانة اجتماعية ومقدرة مالية. ويَعِده الله بأن أولاد أولاده سيُحدثون أثرًا عظيمًا. ومع ذلك يبقى رجلًا ابن زمانه: فاختياره لا يلغي معاملته الفظيعة لجاريته المصرية هاجر. فبطلب من زوجته العاقر، يستخدم هاجر لينجب ولدًا. وما إن تحمل حتى يسمح لزوجته الغيورة بأن تسيء معاملتها إلى أن تهرب هاجر إلى البرية.

قصتها مفجعة: ما لم ينقذها أحد هي وجنينها، فسيموتان كلاهما. وهنا يدخل الله إلى المشهد. يتدخل لينقذها، ويعيدها مع تأكيد أنه سيحمي كليهما، هي وابنها. وهو وعد يردّد صدى الوعد الذي قطعه من قبل لإبراهيم: «تكثيرًا أكثّر نسلكِ فلا يُعدّ من الكثرة».[1]

لنتأمل في دلالة هذا: في عالم يهيمن عليه الذكور، يبدأ الله بإعلان خطته العظيمة للفداء لإبراهيم، أول آباء الكتاب المقدس. ومع ذلك، وهو يفعل هذا، يقف إلى جانب امرأة أيضًا. وليست أيّ امرأة، بل امرأة في أدنى درجات السلّم الاجتماعي — جارية. ضائعة في برية الصحراء، بقلب مكسور، وروح يائسة، وجسد منتهَك، يرى الله هاجر

1. **تمهيد: كيف يرى الله المرأة** تكوين 16: 10

وينادي من خلالها بعظمة آتية كان ينبغي للظروف الاجتماعية السائدة أن تجعلها شبه مستحيلة.

وتستجيب لتأكيد الله لها بأن تكون الشخص الوحيد في الكتاب المقدس كله الذي يسمّي خالقه «الإله الذي يراني».[2] إن انطلاقتها تأتي من لاهوت أفضل. فللمرة الأولى ترى نفسها، لا كما يراها إبراهيم أو سارة أو مجتمع ذلك الزمان، بل كما يراها الله. إنها بذرة غُرست مبكرًا في قصة الكتاب المقدس الطويلة، وستؤتي ثمرها يومًا ما في المسيح، الذي سيرفع إلى العظمة في ملكوته لا اليهود فقط بل الأمم أيضًا، لا الأحرار فقط بل العبيد أيضًا، لا الأغنياء فقط بل الفقراء أيضًا، ولا الرجال فقط بل النساء أيضًا.

لماذا أكتب (ولمن)

أكتب للنساء. هل ترغبن في إكرام الكتاب المقدس وفي أن تبذلن كل ما لديكن لله ولكنيسته؟ إذن فلنفتح عنوة أبواب التعليم المقيِّد غير السليم؛ ولنحطّم السقوف الزجاجية؛ ولنفتح أقفاص الشك في النفس التي عاشت فيها كثيرات زمنًا طويلًا جدًّا. فلنفعل ذلك بالرجوع إلى الكتاب المقدس لنكتشف من جديد كيف يراكنّ الله حقًّا.

أكتب للرجال. سواء أكنتم مدركين لذلك أم لا، فلديكم أصلًا لاهوت عن المرأة. وهو يحدّد كيف ترون نصف البشرية، وأكثر من نصف عروس المسيح. ولذلك فهو لا ينفصل عن إنسانيتكم وتلمذتكم أنتم. إن رؤية النساء كما يراهن الله لن تكون عطية للنساء اللواتي تعملون وتخدمون وتعيشون إلى جانبهن فحسب، بل ستكون أيضًا جزءًا جوهريًّا من خبرتكم أنتم في الحرية والتقديس. هذه على الأقل كانت خبرتي.

أكتب للمتشككين الصادقين. هل لديكم شكوك حقيقية في ما إذا كان يمكن للنساء، وهل يجوز لهن، أن يكنّ على قدم المساواة الكاملة مع الرجال، ولا سيما حين يتعلق الأمر بقيادة الكنيسة؟ أرجو أن أفتح الكتاب المقدس بتواضع بطريقة تساعدكم على الانتباه إلى أحكامكم المسبقة ومعتقداتكم الموروثة. وهذا يتطلب تحليلًا مفصّلًا، نقطة نقطة، للتفسيرات الكثيرة للكتاب المقدس التي نُشرت عبر مجموعة لا تكاد تنتهي من المواقع الإلكترونية والمنظمات والكتب، بل وحتى عبر كتاب مقدس دراسي.

أكتب لقادة الكنائس. إن كنتم قادة كنائس تكامليين، كما كنت أنا طوال معظم حياتي البالغة، فعليكم أن تتأكدوا من أن ما تؤمنون به وتمارسونه وتمنعونه في ما يخص

2. تكوين 16: 13

النساء في كنيستكم مبنيّ على لاهوت مدروس بعناية، يستند إلى الكتاب المقدس كله. فموقفكم اللاهوتي، في نهاية المطاف، لا يؤثر فيكم وحدكم — بل يؤثر في عدد لا يحصى من الآخرين، وفي بعض الحالات يغيّر مسار حيوات بأكملها.

ومع أنني مضطر إلى أن أتحدّى افتراضات كثيرة راسخة منذ زمن طويل، فلا رغبة لي في تقسيم الكنيسة. وكما كتب بولس إلى أهل كورنثوس، وُلد هذا الكتاب «من حزن كثير وكآبة قلب، وبدموع كثيرة — لا لكي تحزنوا، بل بسبب محبتي العميقة للكنيسة».[3] ورجائي أن تختبروا، وأنتم تقرؤونه، شيئًا مما اختبرته أنا — نشوة سقوط القشور عن عيون متعبة، ونعمته التي لا نستحقها.

لست ثائرًا بأي حال، أهبّ للدفاع عن النساء. والحق يقال، أشعر مع الأسف بأنني تأخرت عن الحفل — كصبيّ قارع طبول يضيف مساهمته قرب نهاية المعركة — حين صارت الحرية لأخواتي على مرمى البصر. ومع ذلك شعرت بما يشبه الإلزام المقدس بأن أرفع صوتي، وأن أقرع طبلي، حتى في هذه الساعة. ففي السنوات الأخيرة، بينما خطت كنائس كثيرة خطوات كبيرة إلى الأمام، شهدت العواقب المقلقة بعمق و«عدد الضحايا» المتزايد (وإن لم يُصرَّح به) الذي خلّفته كنائس حسنة النية تتمسك بلاهوت أبوي. وفي أعقابها ترقد هاجرات كثيرات. إنهن النساء اللواتي لا يُحصين، اللواتي أُجبرن على الخروج إلى البرية، بأرواح منكسرة، وطاقات لم تولد، وأحلام أُجهضت. وبمعنى ما، هذا الكتاب هو رحلتي إلى البرية نفسها — لا بوصفي الضحية، بل بوصفي معتديًا سابقًا. لقد كانت حجًّا من ثقة فجّة متهوّرة، مرورًا بتعقيد مربك، ثم إلى خشوع متواضع، وأنا أرى ما كان في الأسفار المقدسة طوال الوقت: ما يراه الله حين يرى امرأة.

ومع أنني أكتب أساسًا بنظرة مملوءة رجاءً إلى كنيسة المستقبل، كنيسة أكثر فاعلية وأكثر إكرامًا للمسيح، فإنني أكتب أيضًا بنظرة إلى الوراء مثقلة القلب، إذ أعترف بالطرق التي قوّضت بها، دون أن أدري، الكنائس نفسها التي ساعدت في قيادتها. ولذلك فهذا الكتاب اعتذاري لكل النساء اللواتي ربما جعلت عوالمهن أضيق دون قصد، ومحاولتي لإصلاح ما كان لي دور فيه من أخطاء.

3. 2 كورنثوس 2: 4



1
تغيير رأيي

«أن نغيّر رأينا لا يعني أننا تخلّينا عن مبادئنا. قد يعني أننا تعلّمنا شيئًا». آدم غرانت (Adam Grant)

يعرّف Oxford Dictionary النظام الأبوي بأنه «أي شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي يملك فيه الرجال السلطة الغالبة». وبحسب هذا التعريف، كنت في ما مضى المعبّر الرئيسي عن عقيدة أبوية في كنيستي.[4] وبصفتي الراعي الرئيسي المسؤول عن التعليم، كنت أقف مرات عدة في السنة أمام مئات الأعضاء الجدد وأشرح لماذا كان أمرًا كتابيًّا، بمشيئة الله، أن يحمل الرجال مسؤولية أكبر في الكنيسة وفي الزواج. كنت أشرح:

بحسب الكتاب المقدس، خلق الله آدم وحواء ليكمّل أحدهما الآخر في أدوار متساوية لكنها متمايزة. وأكثر من ذلك، أدخل الله هذا التكامل إلى الكنيسة، بحيث إنه، مع أن معظم الأدوار مفتوحة للنساء، قد عيّن الله الرجال وحدهم ليكونوا شيوخًا ورعاة. ومع أن هناك ضغطًا ثقافيًّا هائلًا لإعادة النظر في هذا، فإننا ملتزمون بأن نأخذ توجيهنا من الكتاب المقدس لا من الثقافة.

وهكذا ببساطة، كان معظم الناس يقبلون موقفنا. وحين لم يقبله بعضهم واختاروا المغادرة، كنت أعزّي نفسي بأن الأمانة ليسوع هي الأهم.

ثم قبل بضع سنوات، بعد أن طفت المسألة على السطح مرة أخرى وأدركنا أن الأدلة التي قدّمناها في الماضي كانت ضعيفة بعض الشيء، قرّر فريقنا القيادي الأساسي أن يعيد النظر في هذه العقيدة وأن يصوغ لها بيانًا ودفاعًا وافيين. ومع أننا تكلمنا عن

4. مع أنني لم أستخدم قط كلمة «النظام الأبوي» (patriarchy) لوصف موقفي السابق، فإنني لا أجد في اللغة الإنجليزية كلمة أخرى أقرب منها إلى ما كنت أعلّمه.

المسألة بذهن منفتح، لم يكن لدى أيّ منا شك حقيقي في أننا قد نكون مخطئين في تفسيرنا السابق للكتاب المقدس. ففي نهاية المطاف، كان لدينا قادة مسيحيون محترمون مثل جون بايبر (John Piper) وتيموثي كيلر (Timothy Keller) دافعوا عن طريقتنا في قراءة الكتاب المقدس في شتى المسائل — بما فيها الجنسان والقيادة. وكان الله قد بارك كنيستنا عدديًّا ما دامت هذه العقيدة قائمة.

وبصفتي واحدًا من أكثر القادة تأهيلًا من الناحية اللاهوتية، كُلّفت مع آخرين بكتابة بحث في الموضوع. فانكببت عليه بحماسة واندفاع، مستعدًّا لتقديم دفاع واضح ومدروس عن موقفنا. وعلى الرغم من تعليمي اللاهوتي، كانت هذه أول مرة أستكشف فيها بعمق الحجج المعارضة لقيادة النساء في الكنيسة والمؤيدة لها. ولأنني لم أخشَ الحقائق يومًا، قرأت كل ما استطعت قراءته في الموضوع.

وفي أثناء ذلك — ولم أتخيّل قط أن هذا قد يحدث — تحوّلت ثقتي إلى غبار. فكلما ازداد فهمي لما كنت أؤمن به، ولكيفية دفاع كثيرين من أشهر المدافعين عن هذا الاعتقاد وأعلاهم صوتًا عن موقفهم، اتّضح لي أكثر كم كنت مخطئًا حين افترضت أن قناعاتي مبنية على تفسير كتابي راسخ كالصخر.[5] كيف يمكن أن يكون هذا؟ كيف يمكن أن يكون كثيرون من المؤلفين والباحثين الذين احترمتهم، والذين ظننت أنهم محصّنون من فخاخ الثقافة، قد وقعوا هم أنفسهم أسرى ثقافة قديمة بالية، وغير كتابية بالقدر نفسه؟ إن رحلتي لكشف الإجابة عن هذا السؤال هي ما يبسطه هذا الكتاب.

لم أغيّر رأيي باستخفاف. وقد طبّقت على وجه الخصوص مشورة سفر الأمثال: «الأول في دعواه محقّ، فيأتي رفيقه ويفحصه».[6] ولكي أتأكد مرتين وثلاثًا، قلّبت كل حجر — كل نص وكل حجة — ونظرت إليه من جميع الجوانب، مرة بعد مرة بعد مرة. وعند التأمل، تبيّن أنها كانت من أكثر الرحلات تحريرًا.

5. هذه الخبرة شائعة. فعلى سبيل المثال، يقول أندرو بارتليت (Andrew Bartlett) في «Men and Women in Christ»: «حين بدأت الكتابة لم أكن متأكدًا من المكان الذي سأنتهي إليه. ... أما في ما يخص خدمة النساء، فقد ظننت أنني قد أجد حججًا قوية إلى حد معقول ومتوازنة توازنًا دقيقًا على كلا الجانبين، ما يعني أن أي استنتاج في تلك المسألة لا يمكن أن يكون إلا مؤقتًا. كنت مخطئًا ...» (ص. 15)
6. أمثال 18: 17

تعريفات ولحظات فاصلة

اسمحوا لي أن أعرّف بعض المصطلحات التي أستخدمها في هذا الكتاب. أقصد بـالنظام الأبوي أو التراتبية بين الجنسين الافتراضَ أن الرجال، في أيّ مجال يجري الحديث عنه — سواء أكان البيت أم الكنيسة أم المجتمع — مكلَّفون بأن تكون لهم السلطة العليا. وخلافًا لإيحاءات ثقافتنا العلمانية التي تصوّر الرجال متنمّرين ومفترسين ومتهرّبين من المسؤولية ومتعطّشين إلى السلطة، فإنني حين أستخدم هذين المصطلحين لا أعني أن الرجال ظالمون دائمًا، أو أن رجولتهم سامّة لا محالة. ومما يبعث على التشجيع أن كنائس أبوية كثيرة، يتزايد عددها، تكتشف حكمة الإصغاء إلى أصوات النساء. ومع ذلك، فبينما تمنح هذه الكنائس النساء رأيًا، يبقى من المفهوم أن الرجال لهم الكلمة الأخيرة.

وفي هذا الكتاب سأشير أساسًا إلى شكل معيّن من أشكال النظام الأبوي يُسمّى التكاملية. وهي نسخة حديثة وشديدة التأثير من النظام الأبوي المعدَّل، اختُرعت في الكنيسة الأمريكية في الربع الأخير من القرن الماضي. ومع أنها تدّعي المساواة بين الجنسين، فإنها تُقصي النساء عن الوعظ وعن القيادة الرعوية في الكنائس؛ وتتمسّك بخضوع الزوجة في الزواج؛ وتشكّك، بدرجة أقل، في قيادة المرأة في المجتمع. كما أنها تميل إلى أن تقدّر في المقام الأول الدور المنزلي للنساء، بوصفهن داعمات لأزواجهن، وربّات بيوت، ومربّيات للأولاد.

ومما يزيد تاريخ التكاملية القصير تعقيدًا بعض الشيء أن نسبة صغيرة من الكنائس حاولت في الآونة الأخيرة أن تلطّف نتائجها الأشد قسوة — فسمحت للنساء بأن يعظن (لكن ليس بسلطان). ويمكن للنساء أيضًا أن يقدن رجالًا في الكنيسة (لكن في المستويات الدنيا من القيادة فقط). ويمكنهن أن يكنّ قائدات من الصف الأول في المجتمع (لكن لا قائدات كبيرات في الكنيسة). ويمكنهن أن يتخذن القرارات مع أزواجهن (لكن حين يقع الخلاف يكون الزوج صاحب الكلمة الفاصلة). ويُسمّى هذا التكاملية الليّنة.

طوال عقدين كنت سأصف نفسي بأنني تكاملي ليّن. ومثل قادة كثيرين آخرين يجدون أنفسهم في أوساط كنسية مماثلة، قدّرت نساء موهوبات كثيرات وعملت إلى جانبهن

— ممتنًّا لكوني جزءًا من كنيسة سليمة لا يبدو أنها تقيّد دعوتهن أو مساهمتهن أو تُسكتها أو تكبتها.

غير أنني، وأنا أدرس الكتاب المقدس من جديد، اضطررت إلى الاعتراف بأنه إن كانت مناهج التكاملية الأصلية في تفسير الكتاب المقدس صحيحة، فإن التكاملية الليّنة أقل قابلية للدفاع عنها بكثير مما كنت أرجو. فهي ببساطة لم تعد تملك حجة كتابية سليمة لممارساتها الأكثر انفتاحًا. فاستنتجت أنه إما أن نمارس ما نؤمن به — فلا ندع النساء يعظن أو يقدن أو حتى يشاركن الرجال في القيادة — وإما أن ننظر عن كثب إلى ما نؤمن به، ولماذا نؤمن به. (ففي نهاية المطاف، إن كانت التكاملية خاطئة، فحتى شكلها الليّن ليس مقبولًا أكثر مما يكون شكل ليّن من العنصرية مقبولًا.)

وبعد أن فعلت ذلك بالضبط، متفحّصًا عن قرب كل واحد من المصادر الأولية والثانوية، زعزعني ما اكتشفته زعزعة عميقة. فعند التدقيق، ذُهلت حين اكتشفت أن لاهوتيين محترمين (مثل واين غرودم (Wayne Grudem)، وتوم شراينر (Tom Schreiner)، وأندرياس كوستنبرغر (Andreas Köstenberger))، وكذلك رعاة محبوبين (مثل جون بايبر وتيموثي كيلر)، قدّموا جميعًا تحليلات كتابية معيبة على نحو خطير وحججًا غير متوازنة ليصلوا إلى استنتاجاتهم بشأن إقصاء النساء عن أدوار كثيرة عظيمة الأثر. بل إنني لم أستطع أن أجد حجة كتابية واحدة محكمة لإقصاء الإناث عن القيادة العليا. ومهما كثرت الحجج التي يمكن تقديمها، فإن في كل واحدة منها خللًا كبيرًا. ومجرد جمعها معًا لا يجعلها أمتن، كما أن تكديس أوراق لعب واهية كثيرة لا يصنع إلا بيتًا من ورق.

وفي المقابل، ذُهلت بالقدر نفسه حين وجدت حججًا كتابية جوهرية، بل مقنعة، تبيّن لماذا ينبغي أن تُشرك النساء. والتزامي بمقاربة الموضوع من خلال الكتاب المقدس كله هو ما جعلني أستقر في النهاية على لاهوت تبادلية الرجل والمرأة.[7] وأنا أقدّر المصطلح المرادف المساواتية، وأقف كتفًا إلى كتف مع معظم الباحثين في الكتاب المقدس الذين رفعوا رايتهم على هذه السارية — فهم محقّون في قولهم إن الكتاب المقدس يؤيد فكرة أن الرجال والنساء متساوون ويستحقون حقوقًا وفرصًا متساوية. غير أنني أفضّل ألا أستخدم هذا المصطلح في هذا الكتاب لثلاثة أسباب: أولًا، يدّعي التكامليون أيضًا أنهم يؤمنون بالمساواة بين الجنسين؛ وثانيًا، يرتبط المصطلح أحيانًا،

7. في البداية اخترت «تبادلية الجندر» (gender mutualism)، لكنني أدركت بعد ذلك أن كلمة «gender» في الثقافة الغربية، حين تُستخدم صفةً، لم تعد تشير إلى الذكر والأنثى فقط. وبدا أن «تبادلية الجنس» (sex mutualism) مستبعدة أيضًا، فاستقررت على العبارة غير الجذّابة «تبادلية الرجل والمرأة» (male–female mutualism).

حين يُطبَّق على الجنسين، بنفي كل الفوارق بين الرجال والنساء؛ وثالثًا، المساواة ليست الفكرة الحاسمة الوحيدة — فالشراكة المتبادلة والوحدة القائمة على التعاون لا تقلّان عنها أهمية. ومع وضع هذا في الحسبان، إليكم تعريفي العملي والموقف الذي سأشرحه بتوسّع في هذا الكتاب:

تبادلية الرجل والمرأة هي الموقف اللاهوتي، المستنير بالكتاب المقدس، الذي يقول إن الرجال والنساء متمايزون ومع ذلك متساوون، وقد خُلقوا ليخدموا ويتشاركوا جنبًا إلى جنب في كل مجالات الحياة. وسلطان كل شخص ومواهبه وخبرته التي أعطاه الله إياها يمكن، بل ينبغي، أن يُعترف بها ويُحتفى بها، بصرف النظر عن جنسه.

وأخيرًا، ملاحظة حول كلمة اللاهوت. في أبسط حالاته وأنقاها، ينبغي أن يتشكّل لاهوتنا بسعي متواصل إلى الاقتراب قدر الإمكان من نظرة الله إلى كل مسألة وأي مسألة. ولذلك فإن كيف يرى الله المرأة هو لاهوت عن المرأة — أي ما يعلّمه الكتاب المقدس عن النساء، حين يؤخذ ككل وتُضمّ أجزاؤه بعضها إلى بعض على النحو الصحيح.

في إصلاح دائم

جاء الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر بمراجعة كانت الحاجة إليها ماسة لتعاليم الكنيسة. ومع ذلك فإن هذا الإصلاح نفسه نادى بمبدأ «الكنيسة في إصلاح دائم» (من العبارة اللاتينية ecclesia semper reformanda). فكالفن ولوثر (Calvin, Luther)، على سبيل المثال، لم يتخيّلا أنهما قالا الكلمة الأخيرة في أي مسألة ذات شأن كتابي، بل سلّما إلى الأجيال اللاحقة المهمة المستمرة، مهمة التأمل بجدّ في عقائدنا ومدى توافقها مع الأسفار المقدسة. فقد كانا يعلمان جيدًا أنه في كنيسة عمرها قرون، من السهل أن تلتقط أشياء غريبة — مخلّفات قديمة لا صلة لها بالحاضر من عصور غابرة — ينبغي التخلّي عنها لا احتضانها، إن كان للكنيسة أن تنتقل بحرية من مجد إلى مجد.

أعتقد أن هذا واحد من الإصلاحات الحاسمة في جيلنا. وأنا أقرأ تاريخ الكنيسة، تعجّبت من الطريقة التي يواصل بها الروح قيادة الكنيسة إلى وضوح متزايد في تعاليمها وممارساتها في طائفة واسعة من المسائل. فإن كان الإصلاح الأول قد سعى إلى إعادة كلمة الله إلى الناس العاديين الذين حُرموا طويلًا من قوتها المغيّرة للحياة، فإن

الإصلاحات اللاحقة ما فتئت، ببطء لكن بثبات، تعيد عمل الله إلى كل شعب الله — بصرف النظر عن أعمارهم أو أعراقهم أو طبقاتهم أو جنسهم.

الإصلاحات تتطلب جهدًا. طوال معظم تاريخ الكنيسة، ترك المسيحيون لقلّة مختارة من المتعلّمين أن يحدّدوا ما نؤمن به جميعًا. بل إنه قبل الإصلاح البروتستانتي، وقبل ظهور المطبعة سنة 1436، كان معظم الناس يرون اللاهوت، وكثيرًا من الكتاب المقدس، كلامًا متعاليًا غير مفهوم — لا يفهمه إلا الكهنة الذين كانوا يقرؤون اللاتينية ويتكلمونها، والذين كانت في متناولهم نسخة نادرة من الكتاب المقدس. ومع أن أشياء كثيرة تغيّرت منذ ذلك الحين، فإن مؤمنين كثيرين (بل قادة كنائس كثيرين أيضًا) ما زالوا يوكلون تقييم هذا الموضوع الحاسم إلى غيرهم، معتمدين على آخرين ليقوموا عنهم بالعمل التفسيري الشاق. وحين أخبرت زميلًا راعيًا بتغيّر موقفي، قال متحسّرًا: «بصفتي راعيًا مشغولًا، لا أعرف متى يُفترض أن أجد وقتًا للتأمل في لاهوتي». وهو محقّ: فالأمر يحتاج إلى وقت وجهد! غير أنه مسعى يستحق مثل هذا الاستثمار.

الإصلاحات لا يلزم أن تُهين أحدًا. وراء المعسكرات المتناحرة والصور الكاريكاتورية المزدرية التي يرسمها بعضنا لبعض — هناك طريق أفضل. ولا أقصد هنا «الجانبين» الواضحين في هذا الجدل فحسب، بل أقصد أيضًا جنسينا — اللذين كثيرًا جدًّا ما يوضعان أحدهما في مواجهة الآخر، كأن الرجال جميعًا حثالة، أو كأن النساء جميعًا إيزابل. وفي هذا السياق، أنا فخور جدًّا بالرجال والنساء الكثيرين الذين أعرفهم (على جانبي هذا الحوار) والذين يبذلون كل ما في وسعهم لبنيان الجسد ولإكرام بعضهم بعضًا. قالت لي إحدى الراعيات: «أسلك في طريق يسوع الذي رفع النساء دون أن يحطّ من قدر الرجال». وبهذه الروح نفسها أرغب أيضًا في إكرام أولئك القادة واللاهوتيين (مرة أخرى، في كلا المعسكرين) الذين كرّسوا حياتهم للسعي الصادق وراء الحق والعدل. ومع أنني قد لا أتفق مع أمثال تيم كيلر وجون بايبر في هذه المسألة بالذات، فإنني لا أراهما صورتين دعائيتين مسطّحتين للنظام الأبوي. فكثير مما أنا عليه اليوم قد شكّلاه، وما زلت أتعلّم منهما بطرق كثيرة.

على الكنائس التي تقيّم لاهوتها أن تقول لا لـ«الحروب الثقافية» في العقود الماضية، وكذلك لأساليب التشهير الشخصي من أجل فرض تغيير في القيم. ومع الإصغاء بتعاطف إلى أصوات المجتمع، وإلى الألم الذي اختبرته النساء، يجب أن يكون دافعنا الأول في هذا الحوار فهمًا صحيحًا للاهوت الكتابي وتطبيقًا فدائيًّا له.

الإصلاحات تتطلب تواضعًا. من الممكن أن نفعل الصواب، لكن بطريقة تُحدث من الضرر أكثر مما تُحدث من النفع. وأينما انتهى بكم المطاف، فاحرصوا على أن تضيفوا إلى قناعاتكم اللطف والوداعة والصبر.

لا أجد متعة في الجدل، ولا ينبغي أن تجدوا أنتم أيضًا. ومع أنني صرت الآن أؤمن على نحو مختلف، فإنني ما زلت أكنّ لكثير من القادة التكامليين ولكنائسهم أعلى تقدير، بوصفهم إخوتي وأخواتي في المسيح — فمهما كانت اختلافاتنا في الفهم، فإن ما نشترك فيه أعظم بكثير. وبما أنني كنت تكامليًّا طوال معظم سنوات خدمتي في القيادة المسيحية، فسيكون من التقصير مني أن ألمّح إلى أن الذين ما زالوا يتمسكون بالتكاملية ناقصون روحيًّا أو فكريًّا بطريقة ما.

وكما سأكشف لاحقًا بمزيد من التفصيل، لعلّ تعامل الكنيسة مع الظاهرة الثقافية الجديدة نسبيًّا، أي مساواة المرأة، هو أعظم دراسة حالة أُتيحت لنا يومًا لنستجوب على النحو الصحيح: كيف تشرّبت الكنيسة التاريخية افتراضات ثقافية في قراءتها لنصوصها هي. ويعبّر تيم كيلر عن هذا ببراعة:

إن فهم[نا] للكتاب المقدس قد يكون خاطئًا بالتأكيد — بل هو دائمًا خاطئ جزئيًّا — ولذلك يجب أن يبقى دائمًا منفتحًا على التصحيح. ... وبسبب الغشاوات الثقافية على أعيننا، يجب ألا نكتفي بأن نكلّم [ثقافة جديدة]؛ بل يجب أن نصغي إلى [أهلها] أيضًا. نحتاج إلى أن نصغي إلى ما يقولونه، وأن نأخذ بجدية أسئلتهم، واعتراضاتهم على ما نقوله، وآمالهم وتطلعاتهم. وفي أغلب الأحيان، يُرينا هذا التفاعل مع ثقافة جديدة أمورًا كثيرة يعلّمها الكتاب المقدس — أمورًا إما فاتتنا كليًّا وإما ظنناها غير مهمة، وربما حتى طرقًا أسأنا بها قراءة الكتاب المقدس من خلال عدسة افتراضاتنا الثقافية الخاصة.[8]

وبحسب بولس الرسول، في أفسس 5، يعمل يسوع دائمًا على تجميل كنيسته «بغسل الماء بالكلمة»، جاعلًا إياها أكثر بهاءً على الدوام وبلا عيب. وفي ضوء نعمته أقدّم هذا الكتاب، ومع أنه بلا شك معيب في مواضع شتى لا أدركها الآن، أصلّي أن يؤدي مع ذلك دورًا صغيرًا في عمل الروح المجدِّد لتجميل كنيسة يسوع.

8. Timothy Keller, Center Church, الفصل 8.



الجزء الأول

سقوط المرأة ونهوضها



2

الجنس الأدنى

«المرأة هي سبب سقوط الإنسان ... فكيف نشتهي أن نعانق، ولو بأطراف أصابعنا، كيسًا كهذا من الروث؟» أودو الكلوني (Odo of Cluny)، 936 م[9]

نفترض بسذاجة أن ما تؤمن به الكنيسة اليوم عن النساء هو ما آمنت به دائمًا. وكما ستكتشفون الآن، ليس الأمر كذلك! في هذا الفصل، لنستكشف لماذا تتفوّق إجابتنا المعاصرة عن السؤال: «كيف يرى الله المرأة؟» تفوقًا كبيرًا على الإجابة التي كان معظم المسيحيين عبر التاريخ سيقدّمونها.

ومع أننا سندرس الكتاب المقدس أساسًا في هذا الكتاب كله، فإنني أريد في هذا الفصل والفصل الذي يليه أن أستكشف الوضع الذي نجد أنفسنا فيه. إن معرفة أين أخطأنا في تاريخ الكنيسة، قديمًا وحديثًا، حين احتضنّا بغير حكمة النظام الأبوي على أنه «تصميم الله الصالح»، أمر مثير ومخيف في آن.

حتى وقت قريب جدًّا في التاريخ، كانت فكرة أن على الرجال أن يحكموا النساء «لمصلحتهن» مبدأً مقبولًا عالميًّا لا يُسأل عنه. فقد علّمتها كل الأديان الكبرى، وما زال معظمها يعلّمها. وكلما كان تفسير الدين أكثر محافظة، ازداد ميل الرجال إلى حصر النساء في مجالات معيّنة دون غيرها. ومن المؤسف أن العالم المسيحي، على الرغم مما يملكه من موارد كامنة فيه وطاقة خامدة لإسقاط مثل هذا القهر، قد تمسّك إلى حد بعيد بفكرة تفوّق الذكور — مفسّرًا أسفاره المقدسة بطريقة تدافع عن فكرة نظام أبوي «مسيحي».

وسبب ذلك أن الكنيسة، طوال معظم تاريخها، آمنت بدونيّة الإناث المتأصلة. إن كتابًا بحجم الكتاب المقدس وتعقيده يمكن، بوجه عام، أن يُستخدم لتأييد أي استنتاجات

9. مقتبس من Patralogia Latina في Christine Klapish-Zuber (ed), A History of Women، الفصل 1.

مسبقة يتوصّل إليها المرء عن الواقع. وبصفتي مسيحيًّا أبيض من جنوب أفريقيا، فأنا أعرف ذلك جيدًا. ففي بلدي، قبل بضعة عقود فقط، قرأ بعض أكثر لاهوتيينا «الكتابيين» علمًا عنصريتهم في الكتاب المقدس، بدلًا من أن يتركوا الكتاب المقدس يفضح عنصريتهم. لقد استعملوا النصوص بطريقة تلوي معناها — فأنشؤوا نظرة إلى الأعراق قوامها «منفصلون لكن متساوون»، سُمّيت الأبارتهايد. وأيّد المسيحيون الأمريكيون شيئًا مشابهًا في سياسات الفصل العنصري في أوائل القرن العشرين، على الرغم من الحجج الواضحة والمقنعة التي قدّمها معارضون مثل جون مارشال هارلان (John Marshall Harlan)، وهو مالك عبيد سابق كان قد أدرك خطأ طرقه. وبوصفه صوتًا منفردًا في أوساطه اللاهوتية في ذلك الوقت، أصرّ على أن «الفصل التعسفي بين المواطنين على أساس العرق شارةُ عبودية لا تتفق مع المساواة».[10] ومع أن المسيحيين في ذلك الوقت ربما أبدوا احترامًا شكليًّا لفكرة المساواة بين السود والبيض، فإنهم بعزلهم السود في مناطق مخصصة وبحرمانهم من حق التصويت كانوا يقوّضون مساواتهم وينزعون عنهم إنسانيتهم.

وبصفتي مسيحيًّا اليوم، يمكنني أن أقول شيئًا مماثلًا عن التمييز بين الجنسين في الكنيسة، وهو تمييز ربما كان أكثر تفشّيًا. فقد قبلت الكنيسة كلها تقريبًا، في كل القارات تقريبًا وفي كل القرون، تعليم قادتها بأن الأنثى «مختلفة وأدنى». ومهما كانت المحاولات الأخيرة للكنيسة التكاملية لتعديل هذا إلى «متساوون لكن بأدوار مختلفة» نبيلة، فإنني أودّ أن أردّد مشاعر هارلان وأطبّقها على الجنسين: إن الفصل بين أعضاء الكنيسة على أساس الجنس شارةُ عبودية لا تتفق مع المساواة.

ومع أنني سأوضح هذه النقطة بتوسّع أكبر في الفصل التالي، فإن ادّعاء التكامليين أن موقفهم هو الموقف التاريخي للكنيسة يكشف عن فقدان خطير للذاكرة التاريخية. فمع أن كل المسيحيين والكنائس اليوم يصرّحون تصريحًا قاطعًا بأن النساء مساويات للرجال، لا يكاد أحد منهم يتذكّر أن فكرة المساواة بين الرجل والمرأة لم تصبح عقيدة مقبولة في الكنيسة إلا في الآونة الأخيرة جدًّا.[11]

ولعلّ هذه هي خطية الكنيسة التاريخية الأكثر تفشّيًا ودوامًا: أن الاعتقاد بأن النساء أدنى من الرجال في جوهرهن ظلّ حتى الستينيات من القرن العشرين بلا اعتراض يُذكر. وعندئذ فقط، بعد نجاح حركة تحرير المرأة، «اكتشف» المجتمع أن للنساء حقًّا

10. https://bit.ly/3mzfAEq

11. الفضل في ذلك لويليام ويت (William Witt) الذي ساعدني في «Icons of Christ» (الفصل 3) على أن أرى هذا على النحو الصحيح للمرة الأولى — فدراسته للاهوت دونيّة المرأة بوصفه عقيدة للكنيسة طوال معظم تاريخها كانت نقطة انطلاقى فى كتابة هذا الفصل.

ذكاءً مساويًا لذكاء الرجال، وأنهن قادرات تمامًا مثلهم على تقديم قيادة ذات شأن. ولم تبدأ الكنيسة في العالم كلهفي مراجعة عقائدها عن المرأة مراجعة سريعة إلا عند هذه النقطة. فطوال ما يقارب ألفي عام، كانت لدى جميع معلّمي الكنيسة الكبار تقريبًا نظرة متدنّية ومقيِّدة إلى المرأة. وكما سأبيّن لكم، فقد ورثوا هذه النظرة من الثقافات المحيطة بهم، وبدلًا من أن يتحدّوها بالكتاب المقدس، سمحوا لكراهية النساء في ثقافتهم بأن تتحكم في قراءتهم للأسفار المقدسة.

والسبب الذي يدعوني إلى الإلحاح على هذه النقطة هو أن أبرز أن التكاملية، بتعليمها «متساوون لكن بأدوار مختلفة»، خروج عن الموقف التاريخي للكنيسة لا يقلّ في شيء عن خروج تبادلية الرجل والمرأة عنه.[12] فكلا الموقفين لم يكن موجودًا قبل 60 عامًا فقط! إنهما مجرد طفلين رضيعين في تاريخ تفسير الكتاب المقدس، ولذلك فليس للتكاملية حقّ في الأسبقية أكثر مما لتبادلية الرجل والمرأة. بل إن موقفي السابق، التكاملية الليّنة، أحدث بكثير من كليهما — وله أقل سابقة تاريخية بين كل هذه المواقف.

دونيّة المرأة تعليمًا كنسيًّا معتمدًا

صحيح أن المسيحية اجتذبت جموعًا من النساء إلى كنائسها في القرون الأولى من وجودها. فمعاملة يسوع الرائدة للنساء، والإناث اللواتي أدّين أدوارًا قيادية في أقدم الكنائس، والمكانة المتساوية للرجال والنساء في المسيح بحسب رسائل بولس — كل هذا وضع الكنيسة على مسار منح النساء مكانة جديدة لم يعرفنها في أي مكان آخر، ولا في أي حقبة سابقة من الحضارة. ومع ذلك، وعلى الرغم من نظرة الكنيسة الأولى الرفيعة إلى النساء ومعاملتها لهن، لم يكن كل شيء على ما يرام في كنيسة ما بعد الرسل. فمع أنهم رأوا النساء في ضوء أكثر إيجابية (بقليل) مما رآهن جيرانهم اليونانيون الرومانيون، سرعان ما ترسّخت فكرة دونيّة المرأة.

وما يلي مختارات من كتابات بعض قادة الكنيسة ومفكريها «العظماء» عبر التاريخ، تكشف عن هذه النظرة الواسعة الانتشار.

طبّق أب الكنيسة أوريجانوس (Origen) (253–184 م) تعليم بولس: «قبيحٌ بالنساء أن تتكلم في كنيسة»[13] بأن دعا إلى صمت تام للنساء، حتى لو أردن أن يقلن شيئًا ممتازًا

12. يصل أندرو بارتليت، في «Men and Women in Christ» (ص. 6–10)، إلى الاستنتاج نفسه: «حين يدّعي التكامليون أن موقفهم "تاريخي"، فهذا تصوّر خاطئ».

أو مقدسًا، لمجرد أن كلامهن «يخرج من فم امرأة».[14] وبالمثل، منع أب الكنيسة يوحنا الذهبي الفم (John Chrysostom) (347–407 م) النساء من تعليم أي شيء لأن «المرأة علّمت آدم مرة وعلّمته تعليمًا رديئًا. ... فلتنزل إذن عن كرسي الأستاذ! إنها الآن خاضعة للرجل بسبب الخطية».[15] وقد حذّر الرعاة الذكور على وجه الخصوص من قدرة المرأة على إغوائهم، ناصحًا هؤلاء الرجال بأن يتحلّوا «بحذر مسبق أشد، بسبب ميل الأنثى إلى الخطايا ... لأن عين المرأة، لا الفاجرة فحسب بل المحتشمة أيضًا، تخترق الذهن وتقلقه».[16]

أما ترتليانوس (Tertullian)، أبو المسيحية اللاتينية (160–225 م)، فكان أشد قسوة: «المرأة هيكل مبنيّ فوق مجرور». وقد خاطب الإناث مباشرة:

ألا تعلمين أنكِ (كل واحدة منكنّ) حواء؟ إن حكم الله على جنسكِ هذا ما زال قائمًا في هذا الدهر: فلا بد أن يبقى الذنب قائمًا أيضًا. أنتِ باب الشيطان. أنتِ أول من فرّ من الناموس الإلهي. أنتِ التي أقنعتِ ذاك الذي لم يكن الشيطان شجاعًا بما يكفي ليهاجمه. لقد دمّرتِ بسهولة بالغة صورة الله، الإنسان. وبسبب ما استحققتِه، كان على ابن الله نفسه أن يموت.[17]

وكان وراء تنديداته المسمومة نساء في جماعات يعرفها كنّ يعلّمن الآخرين ويعمّدنهم. ولم يكن راضيًا عن هذا على الإطلاق: «لا يُسمح للمرأة بأن تتكلم في الكنيسة، بل ولا يُسمح لها بأن تعلّم، ولا أن تعمّد، ولا أن تقرّب، ولا أن تطالب لنفسها بنصيب في أي وظيفة رجالية [أو] منصب كهنوتي».[18] وقد أدخل ترتليانوس الأساليب السياسية الرومانية إلى بنى الكنيسة، فنقل الكنيسة في زمانه من جماعة حيّة عضوية إلى هيئة سياسية لا يستطيع فيها إلا الذكور أن يساهموا مساهمة كاملة في أي نوع من القيادة. وحثّ أيضًا على عفّة الإناث. فالنساء، كما قال، لسن مسؤولات عن طهارتهن الجنسية فحسب، بل عن طهارة الرجال أيضًا. وكتب رسائل طويلة عن تجنّب النساء للجاذبية — فلا ينبغي لهن أن يغسلن أجسادهن القذرة، بل أن يغطّينها من الرأس إلى القدمين بثياب داكنة لا شكل لها، وأن يبقين بعيدات عن الساحات العامة لئلا يُغوين رجلًا. ومع أنه كان يمكن أن يفتديهن المسيح، فإنهن كنّ مقيّدات بالخطية على نحو خاص، وكان الأفضل عزلهن وجعلهن تابعات.

14. مقتبس في Patricia Cox Miller (ed), Women in Early Christianity
15. مقتبس في Elizabeth A. Clark, Women in the Early Church
16. مقتبس في Philip Schaff (ed), St. Chrysostom
17. مقتبس في Alexander Roberts (ed), Tertullian, Minicius Felix, Commodian, Origen
18. مقتبس فى Karen Jo Torjesen, When Women Were Priests

وعلى المنوال نفسه، اعتقد أب الكنيسة أوغسطينوس (Augustine) (354–430 م) أن المرأة لا كرامة متأصلة لها بمعزل عن الرجل: «بصفتها مُعينة، وهي وظيفة تخصّها وحدها، ليست هي صورة الله. أما [الرجل] فهو بمفرده صورة الله صورةً تامة كاملة، كما هو حين يجتمع هو والمرأة فيصيران واحدًا».[19] ومع مضيّ القرون لم تتحسّن هذه النظرة المتدنية إلى النساء. فعلى الرغم من شهرة توما الأكويني (Thomas Aquinas) (1225–1274 م) بوصفه المفكر العظيم التالي للكنيسة بعد أوغسطينوس، فإنه عجز عن أن يلمح أي ذكاء مماثل في النساء اللواتي عرفهن. وأسهم في لاهوت الكنيسة عن الجنسين بإحياء فكرة أرسطو (Aristotle) السخيفة بأن الإناث كائنات بشرية معيبة، نتيجة عارض أصاب المنيّ الذكري، الذي كان سينتج ذكرًا آخر في الظروف العادية. ومؤدّى ذلك أن «النساء خاضعات للرجال بالطبيعة، لأن العقل يغلب في الرجال».[20]

لقد أقرّ الأكويني بأن المرأة تشارك الرجل في الطبيعة البشرية (وكان ذلك تجديدًا مرحّبًا به في الفكر)، وبأنها «مُعينة» الرجل، لكنه سرعان ما قيّد ذلك بقوله إنه، خارج نطاق التناسل الجنسي، «يكون رجل آخر دائمًا أكثر عونًا». ويردّ الرجل العون القليل الذي يتلقاه من المرأة بأن يقودها: «إن الأعلى يستخدم مَن هم تحت إمرته لنفعهم وخيرهم. ... فقد كان النظام الصالح سيكون ناقصًا في الأسرة البشرية لو لم يُحكَم بعضهم بآخرين أحكم منهم».[21]

ومهما كان العقل الذي امتلكه الأكويني عن الله عظيمًا، فقد ملأه للأسف بأفكار مريعة عن النساء معلّمُه ألبرتوس الكبير (Albert the Great)، اللاهوتي الدومينيكاني، الذي كتب:

المرأة رجل فاسد التكوين، ولها طبيعة معيبة وناقصة مقارنة بطبيعته. ولذلك فهي غير واثقة بنفسها. وما لا تستطيع نيله، تسعى إلى الحصول عليه بالكذب وبالخدع الشيطانية. ولذلك يجب على المرء أن يحترس من كل امرأة، كما لو كانت أفعى سامة وشيطانًا ذا قرون ... وفي الأعمال الشريرة والمنحرفة قد تكون أبرع من الرجل، أي أكثر مكرًا منه. إن مشاعرها تدفعها نحو كل شر، تمامًا كما يدفع العقل الرجل نحو كل خير.[22]

أما مارتن لوثر، المصلح البروتستانتي (1483–1546 م)، الذي كان دائمًا رجل جدل، فقد خطا بعض الخطوات الإيجابية في الاعتراف بإنسانية المرأة. ومع ذلك بقيت

19. Augustine, De Genesis ad litteram, vol. 9.

20. Aquinas, Summa Theologica, 1.92.1. www.bit.ly/3CD8B2V

21. ويقدّم الأكويني في موضع آخر هذا سببًا لعدم قبول المرأة الدرجات الكهنوتية في الكنيسة، ولعدم أدائها دورًا مهمًّا: «المرأة في حالة خضوع، ولذلك لا يمكنها أن تنال سرّ الكهنوت».

22. Filthaut Ephrem (ed), Albertus Magnus: Quaestiones Super De Animalibus, vol. 15, q. 11.

الأفكار القديمة عالقة: «إن كلمة الله وأعماله واضحة تمامًا، وهي أن النساء خُلقن إما ليكنّ زوجات وإما ليكنّ عاهرات». «لا ثوب يليق بالمرأة أسوأ من الرغبة في أن تكون حكيمة». «للرجال صدور عريضة واسعة وأوراك صغيرة ضيقة، وفهم أكثر من النساء، اللواتي لهن صدور صغيرة ضيقة وأوراك عريضة، لكي يبقين في البيت، ويجلسن في سكون، ويدبّرن البيت، ويلدن الأولاد ويربّينهم». وفي تعليقه على آية تحذّر من النساء الزانيات، اتّخذ لوثر منها فرصة ليُفرغ أفكاره عن الرجال والنساء:

لقد خُلقت لتكون حول الرجل، لتعتني بالأولاد وتربّيهم ... ولتكون خاضعة للرجل. أما الرجال فقد أُمروا بأن يحكموا ويتسلّطوا على النساء وعلى سائر أهل البيت. فإن تركت المرأة وظيفتها وتولّت السلطة على زوجها، فإنها (تعمل) عملًا ينبع من خطئها هي ومن الشر. لأن الله لم يخلق هذا الجنس للحكم، ولذلك فهنّ لا يحكمن بنجاح أبدًا.[23]

ومهما كانت أفكار كبار قادة الكنيسة هؤلاء عبر التاريخ مدمّرة، فإن جون نوكس (John Knox)، المصلح الاسكتلندي ومؤسس المشيخية، يفوز بالجائزة بوصفه أكبر كاره للنساء في الكنيسة. ففي هجومه العنيف على الملكتين الكاثوليكيتين، ماري دي غيز (Mary of Guise) في اسكتلندا وماري تيودور (Mary Tudor) في إنجلترا، أسّس حججه، كما قال، على الكتاب المقدس: «لقد أعلن الله أن تملك امرأةٌ وتكون لها سيادة فوق الرجال أمرٌ أشدّ من أن يكون مسخًا في الطبيعة».[24] فالنساء بطبيعتهن، كما قال نوكس، ضعيفات، هشّات، نافدات الصبر، واهنات، متقلّبات، قاسيات، وتعوزهن المشورة. وهذا هو السبب في أنه لا يجوز لهن أن يقدن، بل إن الرجال الذين يخضعون لمشورتهن وقيادتهن ينبغي أن يُحرموا هم أنفسهم بذلك من الوظائف العامة. ومستشهدًا ببولس، قال إن المرأة، حتى في أكمل كمالها، خُلقت مع ذلك لتكون خاضعة للرجل. ولا رحمة تُبدى نحو النساء اللواتي قد يتألمن في الولادة وفي هذا الخضوع للرجل — فذلك جزاؤها العادل في حواء. ولذلك يجب أن تُسلم كل رغباتها وإرادتها لزوجها ولمشيئته. ولكل هذا، كما يقول نوكس، تبعات على دور النساء، لا في البيت والكنيسة فحسب، بل في المجتمع أيضًا: «إن امرأة تُرفَّع لتعلّم، أو لتقضي، أو لتملك فوق الرجل، لهي أمر في غاية المنافاة لمشيئة الله وترتيبه».

وكتب زميله المصلح كالفن: «ليس من السخف في شيء أن يأمر الرجل ويطيع في الوقت نفسه في علاقات مختلفة مع رجال آخرين. لكن هذا لا ينطبق على النساء،

23. Luther's Works، المجلد 15، تفسير جامعة 7: 26، ص. 130.
24. John Knox, First Blast of the Trumpet Against the Monstrous Regiment of Women. www.bit.ly/3EG88xc

اللواتي يولدن بالطبيعة (أي بحسب ناموس الله العادي) للطاعة فقط، لأن كل الحكماء رفضوا دائمًا gynaikokratian، أي حكم النساء، بوصفه مسخًا مخالفًا للطبيعة».[25]

ويكتب البيوريتاني جون دود (John Dod) في شرحه للوصايا العشر سنة 1603: «كما يجب على الكنيسة أن تخاف المسيح يسوع، كذلك يجب على الزوجات أن يخفن أزواجهن. وهذا الخوف الداخلي يجب أن يظهر في وداعة واتّضاع خارجيين. لأنه إن لم يكن في الأدنى خوف ومهابة، فلا يمكن أن يُقدَّم للأعلى إكرام سليم أو ثابت».[26]

وقد واصل ريتشارد هوكر (Richard Hooker) (1600–1554 م)، أحد أبرز اللاهوتيين الأنجليكانيين، هذا التقليد البائس والمستمر في الاستعلاء على النساء. ففي كتابه The Laws of Ecclesiastical Polity قال إن «أحكام» النساء «تكون في العادة الأضعف بسبب جنسهن».[27] وشرح لماذا يسلّم الأب العروس إلى زوجها في مراسم الزفاف: «إن ضعف طبيعتها وجنسها نفسه يُلزمها بأن تكون دائمًا موجَّهة ومقودة ومدبَّرة من قِبل آخرين».[28]

أما جون ويسلي (John Wesley)، مؤسس الحركة الميثودية (1703–1791 م)، فقد أتاح فرصًا ذات شأن للنساء ليخدمن في كنائسه، لكنه مع ذلك رأى أن خدمة المرأة الأساسية تكون في البيت. ففي رسالة كتبها إلى زوجته في إحدى جولاته الخدمية الخاطفة، نصحها بأن تقبل نصيبها بوصفها امرأة لازمة لبيتها: «لا تتنازعي بعد الآن على السيادة، أو على السلطة، أو المال، أو المديح. اقنعي بأن تكوني شخصًا خاصًّا لا شأن له، يعرفه الله وأنا ويحبّانه. ... ما أهمية شخصيتكِ للبشرية لو دُفنتِ الآن؟ أو لو أنكِ لم تعيشي قط، فأيّ خسارة كانت ستلحق بقضية الله؟»[29]

أورد كل هذه الاقتباسات لأبيّن نقطة: إن الموقف التاريخي للكنيسة — سواء لدى آباء الكنيسة، أو في العصور الوسطى، أو لدى الكاثوليك، أو البروتستانت، أو البيوريتانيين، أو الأنجليكانيين، أو الميثوديين — كان دائمًا أن النساء «مختلفات وأدنى»، ولذلك فهنّ في الغالب غير صالحات لمساهمة ذات شأن خارج التناسل الجنسي وتدبير البيت.

25. John Calvin, The Second Epistle of Paul the Apostle to the Corinthians and the Epistles to Timothy, Titus and Philemon. (في تفسيره لـ 1 تيموثاوس 2: 12.)
26. John Dod, A Plaine and Familiar Exposition of the Ten Commandements
27. Richard Hooker, The Laws of Ecclesiastical Polity، المقدمة 3.13.
28. Richard Hooker, The Laws of Ecclesiastical Polity، الكتاب 5، 43.5. كانت كلمة «imbecility» (ضعف) في الإنجليزية القديمة تشير إلى شخص ضعيف أو غير مكتمل النمو.
29. www.bit.ly/3nQszRt

إن كل مقطع كتابي كان يمكن ليّه على نحو معقول لتأييد دونيّة النساء وتبعيتهن قد استُخدم لهذا الغرض. فطوال معظم تاريخ الكنيسة، لو سألت امرأة قادة كنيستها كيف يراها الله، لتلقّت جوابًا مهينًا ومذلًّا. لم تكن تبعية النساء للرجال موضع اعتراض، لأنها كانت قائمة على افتراض لا يُسأل عنه: أن النساء أدنى من الرجال في جوهرهن. إن الاعتقاد بأن النساء، في طبيعتهن وجوهرهن، أقل ذكاءً، وأكثر خطية، وأكثر قابلية للتجربة، وأقل استقرارًا من الناحية العاطفية، قاد إلى الاستنتاج الذي لا يُطعن فيه بأنهن عاجزات أيضًا عن ممارسة القيادة في البيت والكنيسة والمجتمع.

فمن أين جاءت هذه الأفكار الرهيبة يا ترى؟

الثقافة تتغلّب على الكتاب المقدس

من أكثر الأخطاء شيوعًا التي ما زالت الكنيسة ترتكبها أن تقرأ الكتاب المقدس من خلال عدسة الثقافة بدلًا من أن تقرأ الثقافة من خلال عدسة الكتاب المقدس. وهذا يفسّر التحيّز ضد المرأة وكراهية النساء في تاريخ الكنيسة. وبوجه خاص، شكّلت كتابات أرسطو (384–322 ق.م) الافتراضات الثقافية الكامنة في جذور العالم اليوناني الروماني، الذي استوعبته بدوره الأفهام المسيحية المبكرة للفوارق بين الجنسين. لقد صرّح أرسطو بأن النساء ذكور مشوّهون، وبأن أدوارهن في المجتمع تتحدّد بناءً على ذلك. ووصف أرسطو النساء بأنهن «مظلمات، خفيّات، دائمات الحركة، غير متماسكات في ذواتهن، وبلا حدود»، في مقابل الرجال الذين هم «مضيئون، صادقون، صالحون، مستقرون، متماسكون في ذواتهم، ومحدودون بحدود راسخة».[30]

وقد تحكّمت هذه الأفكار في المواقف والتصرفات الثقافية في أرجاء الحضارة اليونانية الرومانية كلها. فقد كان النظام الأبوي مبنيًّا في الحمض النووي للإمبراطورية الرومانية. ومع أن آباء الكنيسة الأوائل عبّروا عن بعض النظرات الإيجابية إلى النساء، فإنهم دمجوها مع ذلك بالأفكار القديمة القبيحة. وبينما تصف كتب تاريخ الكنيسة هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الكنيسة بأنها «سعي وراء الحق»، ولا سيما في ما يخص هوية يسوع وطبيعته، فنادرًا ما تُذكر الأكاذيب التي كانت تتسرّب في الوقت نفسه وبخفاء إلى عقيدة الكنيسة عن طبيعة المرأة.

30. Kayla Huber, “Everybody’s a Little Bit Sexist” مقتبس في Mathews, “Gender Roles and the People of God,” الفصل 10.

وفضلًا عن ذلك، كان جانب من الفلسفة الأفلاطونية، يُسمّى الثنائية، تحدّيًا مبكرًا للكنيسة، وقد عزّز الحطّ من شأن النساء. ففي هذه الهرطقة ينقسم الواقع إلى جسد أو مادة (يُعتقد أنها شريرة في ذاتها) وروح أو عقل (وهو صالح في ذاته). وقد أُلبست هذه الطريقة المضلّلة في رؤية العالم أيضًا فئاتِ الجنسين: فالرجال، الذين كانوا يُعدّون أكثر عقلانية، كانوا صالحين في ذواتهم ومخلوقين على صورة الله، بينما النساء، اللواتي كنّ يُعرَّفن بأجسادهن لا بعقولهن، كنّ يُعدَدن لذلك جسديات ومخلوقات على صورة الرجل فحسب. ومع تسرّب هذه الثنائية غير الكتابية إلى التفكير المسيحي، صارت النساء يُقرنَّ باللاعقلانية، وبالجسد، وبشهواته الخاطئة. وقد وضعت هذه الفكرة الهرطوقية، فكرة الخطية المتأصلة في جنسانية المرأة، الكنيسةَ على مسار رهيب. فصار الجنس نفسه يُعدّ نتيجة من نتائج السقوط. وقاد يوحنا الذهبي الفم قرّاءه إلى أن يتخيّلوا جنة عدن قبل السقوط مكانًا فيه «نُزعت الرغبة في العلاقات الجنسية ... من نفوسهما».[31] أما بعد السقوط، فقد صار الجنس شرًّا لا بد منه. فهو ضروري لإنجاب الأولاد، لكنه صار أيضًا الطريق الذي تنتقل به «الخطية الأصلية» إلى أولئك الأولاد. فكانت الخطية نوعًا من الأمراض المنقولة جنسيًّا. وهذا الفهم المحزن للجنس، ولا سيما لدى النساء اللواتي كانت هويتهن كلها تدور حول التناسل الجنسي، أدّى إلى تقدير مبالغ فيه للبتولية، وإلى تجنّب نسكيّ للجنس داخل الزواج، وإلى هوس ببتولية مريم العذراء، ولاحقًا إلى بتولية الكهنة.

كان على الرجال أن يتجنبوا النساء، وكان على النساء أن يتجنبن أنفسهن. ويروي المؤرخ القديم بالاديوس (Palladius) (430–386 م) خبر 20,000 امرأة كنّ يعشن في الفقر والعفّة والعزلة ناسكاتٍ في الصحارى المحيطة بمصر، وكنّ على ما يبدو يرزحن تحت عبء جنسهن المذموم. وهذه الحياة النسكية، التي تبنّاها الرجال والنساء كلاهما، تطوّرت لاحقًا إلى جماعات رهبانية خاصة بكل جنس، انتظمت حول نذور البتولية والفقر والخدمة في الأديرة. وفي هذه الثقافة كانت النساء «الأكثر تقوى» يتجنّبن الزواج؛ ويتجنّبن، إن أمكن، الجنس داخل الزواج؛ ويجعلن أنفسهن أقل جاذبية قدر الإمكان. تقول المؤرخة إليزابيث كلارك (Elizabeth Clark):

إن أنسب كلمة لوصف موقف آباء الكنيسة من النساء هي التناقض الوجداني. كانت النساء خليقة الله، وعطيته الصالحة للرجال — ولعنة العالم. كنّ ضعيفات في العقل وفي الخُلق — وأظهرن شجاعة لا تلين، وأنجزن مآثر هائلة في العلم. مغرورات، مخادعات، طافحات بالشهوة — قُدن الرجال إلى المسيح، وهربن من اللقاء الجنسي،

31. Elizabeth A. Clark, Women in the Early Church، ص. 122–23.

ولم يتزعزعن أمام تهديدات الجلّادين، وتزيّنّ بالمسوح والرماد.[32]

ومع سقوط الإمبراطورية الرومانية ببطء، انتقلت هذه الأفكار اليونانية الرومانية، وقد اندمجت الآن في لاهوت الكنيسة، إلى كنيسة العصور الوسطى. وكما في السابق، بقي التناقض الوجداني تجاه النساء: فمن جهة، صُوّرت النساء شريرات وأدنى، ومن جهة أخرى، مُدحن نماذجَ للفضيلة والقداسة (إن استطعن بطريقة ما أن يمحين جنسانيتهن).

ثم جاء دور مطاردة الساحرات. ومع هذا التناقض الوجداني المتجذّر تجاه النساء، ليس من المستغرب أن ينطلق المجتمع والكنيسة إلى فصل التبن عن القمح. فلكي تُكتشف ساحرة وتُدان، لم يكن يلزم سوى العثور على امرأة لا تعترف بتواضع بمكانتها التابعة؛ ثم ترك المحقّقين يعذّبونها حتى «تعترف» بأيّ شيء اتُّهمت به؛ ثم إحراقها حتى الموت دون محاكمة. وقد أبدى أحد رؤساء دير للرجال قليلًا من التعاطف مع النساء اللواتي كان من السهل جدًّا شيطنتهن: «إن شرّ النساء أعظم من كل شرّ آخر في العالم. إن سمّ التنانين أيسر علاجًا وأقل خطرًا على الرجال من مخالطة النساء. ومن أجل سلامة نفوسنا سنتجنّبهن كما نتجنّب الحيوانات السامة».[33]

حتى عصر الإصلاح، كان أفضل أمل للمرأة في أن تُعَدّ تقيّة هو أن تتجنّب العلاقة الجنسية والأدوار المنزلية تمامًا. فبوصفهن راهبات، كان بإمكانهن أن يتعلّمن وأن يذقن شيئًا من الاستقلال. وكانت قلّة منهن تُرقّى لتصبح رئيسة دير للراهبات. ويروي تاريخ العصور الوسطى أن رجالًا أصغوا روحيًا إلى بعض النساء من هذا النوع. فبعد أن تركت هيلدغارد البينغنية (Hildegard of Bingen) وكاترينا السيانية (Catherine of Siena)، على سبيل المثال، الأدوار المنزلية من أجل المسيح، تكلّمتا باسم المسيح بصوت تردّد فيه صدى السلطان الروحي الذي لم يكن يملكه من قبل إلا الرجال.

وخارج هذه الأدوار الروحية القائمة على التخلّي عن الأنوثة، لم يكن هناك سوى العبودية والعار. فقد قال كليمندس (Clement) في القرن الثاني: «إن مجرد وعي النساء بطبيعتهن يجب أن يثير فيهن مشاعر الخجل»[34] — وكل ذلك لأن آباء الكنيسة أجابوا إجابة خاطئة عن سؤال: كيف يرى الله المرأة؟ إذ قرأوا في النصوص الكتابية افتراضات ثقافتهم المتحيّزة ضد المرأة. ومع ذلك، لاح بصيص من الأمل في القرن الخامس عشر.

32. Elizabeth A. Clark, Women in the Early Church، ص. 15.
33. مقتبس في Karen Jo Torjesen, When Women Were Priests، ص. 223.
34. القديس كليمندس، Pedagogues II, 33, 2.

الإصلاح والتنوير

أتاح الإصلاح، الذي مهّدت له ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات المحكية وطباعته، فرصةً للكنيسة كي تتوب عن كراهيتها العقائدية للمرأة وتبدأ من جديد. فمؤسّسه، مارتن لوثر، انفتحت عيناه لا على إنجيل الكتاب المقدس فحسب، بل أيضًا على صلاح الزواج والعلاقة الجنسية. وإذ قوّض لوثر وكالفن ما يسمّى القيمة الروحية للتبتّل، واحتفيا بالزواج والعلاقة الجنسية، قلبا تعليم الكنيسة الممتد على 1400 سنة رأسًا على عقب، فتزوّج الكهنة السابقون والقساوسة، وصارت «زوجة القسّ» دعوةً جديدة لها كرامتها الروحية. ونالت النساء المسيحيات كرامة جديدة بوصفهن زوجات وأمهات ومدبّرات للبيوت. فقد ربّت زوجة لوثر، كاترينا فون بورا (Katherine von Bora)، أولاده الستة، و«أدارت الحظيرة وبركة السمك والبستان، وجمعًا من الخدم والأولاد والزوار المرضى والطلاب المقيمين وقادة الكنيسة، في ديرهم الأوغسطيني الضخم الذي كان فيه أربعون غرفة في الطابق الأول وحده».[35]

ولكن على الرغم من كل هذه المكاسب، فإن التعاليم المتحيّزة ضد المرأة التي ظلّ لوثر وكالفن ونوكس يتمسّكون بها ضمنت أن يبقى النظام الأبوي بمنأى عن أي تحدٍّ. ففي ذهن لوثر، ظلّت خطية حواء تجعل دور المرأة دورًا تابعًا. وأصدرت كل منطقة بروتستانتية قانونًا للزواج يشدّد على طاعة الزوجة.[36] وفوق ذلك، ربط لوثر دعوة المرأة بالبيت ربطًا وثيقًا، لا بالكنيسة ولا بالمجتمع الأوسع: «فكما أن الحلزون يحمل بيته معه، هكذا ينبغي للزوجة أن تبقى في البيت وتعتني بشؤون الأسرة، بوصفها مَن حُرمت القدرة على إدارة الشؤون التي هي في الخارج والتي تخصّ الدولة».[37]

تكتب ليندال روبر (Lyndal Roper): «كان إرث البروتستانتية بالنسبة إلى النساء ملتبسًا إلى حدّ بعيد. فقد خفّ شيء من العار الملازم للأنوثة، لكن التبعية بقيت، وازداد حصرهن في البيت. وبينما كان في وسع الإصلاح أن يؤكّد المساواة الروحية بين النساء والرجال، فإنه بدلًا من ذلك أدخل "نزعة أبوية متجدّدة" وضعت النساء المتزوجات بثبات تحت رئاسة أزواجهن».[38] وبدلًا من مريم، التي كانت النساء الكاثوليكيات يقدّرنها لجلوسها عند قدمي يسوع، بدا أن لوثر يمجّد مرثا التي كانت

35. Barbara MacHaffie, Her Story، ص. 63.
36. Beth Allison Barr, The Making of Biblical Womanhood، الفصل 4.
37. Susan C. Karant-Nunn and Merry E. Wiesner-Hanks, Luther on Women
38. Lyndal Roper, The Holy Household، ص. 1–2، مقتبس فى Barr، الفصل 4.

تعمل في المطبخ. ومع إغلاق لوثر وكالفن للأديرة، لم تعد متاحة الآن أيّ فرص للاستقلال والخدمة كانت تلك الأماكن قد وفّرتها يومًا لبعض النساء.

وحتى بعد الإصلاح، بقيت فكرة دونية المرأة على حالها: فحملات مطاردة الساحرات الوحشية التي اجتاحت أوروبا وأمريكا من القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر دليل على أن الكنيسة لم تُصلح نظرتها المتدنية إلى المرأة. فقد أدّى مرسوم أصدره البابا إينوسنت الثامن (Innocent VIII) سنة 1484 بملاحقة الساحرات إلى إعدام نحو 200 ألف امرأة اتُّهمن زورًا في العقود التالية. وكتب اللاهوتيون الذين أيّدوا هذا الأمر وثيقةً عنوانها مطرقة الساحرات ليشرحوا لماذا تميل النساء إلى هذا الحد إلى تسليم أنفسهن للشيطان: فهن سريعات التأثّر، وألسنتهن زلقة، وقد خُلقن في نهاية المطاف من «ضلع معوجّ». فحواء هي التي جرّبها الشيطان أولًا، ولأن العلاقة الجنسية كانت تُعدّ ناقلة الخطية الأصلية، تُخيّل أن كل ساحرة عقدت رباطًا مع الشيطان لتغوي الأبرياء بالخطية. «ولأنها بسبب هذا العيب (الضلع المعوجّ) حيوان ناقص، فهي تخدع دائمًا ... فالنساء يتحرّين ألوانًا من الانتقام ويطِلن التفكير فيها وينزلنها، إما بالسحر وإما بوسيلة أخرى. فلا عجب أن يوجد في هذا الجنس هذا العدد الكبير من الساحرات ... فكل سحر يأتي من الشهوة الجسدية، التي لا تشبع في النساء».[39] وإذ لم تقع سوى 6% من حالات الموت هذه في البلدان الكاثوليكية — إسبانيا وإيطاليا والبرتغال وأيرلندا — فإن أبناء الإصلاح، الذين ظلّوا كارهين للمرأة بثبات، فاقوا الكاثوليك في حرق الساحرات: فقد استأثرت ألمانيا لوثر بنسبة 40% من الإعدامات. واستأثرت بلدان أخرى بروتستانتية في معظمها، مثل سويسرا وإنجلترا وهولندا، بنسبة 35%.

وكان المرء يأمل أنه حيث أخفق قادة الإصلاح في رفع مكانة المرأة في الكنيسة، كان يمكن لمفكّري التنوير أن ينجحوا في المجتمع الأوسع. غير أن مثقفي التنوير، مع أنهم طرحوا فكرة جديدة هي المساواة الشاملة بين جميع الناس، تمسّكوا بتحيّزهم ضد المرأة.[40] فجان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau، 1712–1778م)، الذي أسهمت أفكاره عن المساواة لاحقًا في تحرير العبيد، لم يقدّم أي عون للنساء في محنتهن: «ينبغي أن يُخطَّط تعليم المرأة كلّه بالنسبة إلى الرجال. أن تُرضي الرجال، وأن تكون نافعة لهم، وأن تكسب محبتهم واحترامهم ... هذه هي واجبات النساء في كل العصور، وهذا ما ينبغي أن يتعلّمنه منذ الطفولة». وكذلك لم تشمل آراء إيمانويل كانط (Immanuel Kant، 1724–1804م) في الحقوق الشاملة وإلغاء التراتبيات الاجتماعية

39. H. Kramer and J. Sprenger, Malleus Maleficarum

40. الفضل في هذا القسم عن مفكّري التنوير يعود إلى Alice Mathews, Gender Roles and the People of God، الفصل 11.

النساءَ. فقد أوضح أن للزوج «حقًّا في امتلاك [زوجته]، وأن واجب الزوجة في طاعة زوجها مطلبٌ من مطالب القانون الطبيعي، كما أنه التزام أخلاقي». بل إن Encyclopédie (الموسوعة) التي وضعها دنيس ديدرو (Denis Diderot، 1713–1778م)، والتي عُرفت في زمنها بآرائها التقدمية، وصفت النساء بأنهن «ضعيفات، جبانات، ماكرات، شريرات، حقودات، سطحيات، مخادعات» — أي أنهن في جوهرهن أدنى، وموجودات لخدمة نظرائهن من الرجال.[41]

إنني أحزن وأنا أكتب هذا الفصل. فطوال الوقت — كما سيبيّن هذا الكتاب — كانت الكنيسة جالسة على منجم ذهب من القوة التي تحقّق المساواة، موجود هناك في كتبها المقدسة نفسها. وأخيرًا، بعد قرون من إخضاع المرأة، شقّت بعض أفكار الكتاب المقدس التي تساوي بين الجنسين طريقها إلى الوعي الثقافي الأوسع. ولكن حين بدأت الثقافة الأوسع تطبّق ما يترتّب على هذه الأفكار الموحى بها من الله، اختارت غالبية الكنيسة أن تتشبّث بالنزعة الأبوية كأن خلاصها متوقّف عليها — فصارت، ويا للمفارقة، آخر معقل لمبدأ عفا عليه الزمن وغير كتابي.

نهوض المرأة

كما سيشهد أي مؤرّخ معاصر، قاومت النساء في أنحاء العالم خلال القرنين الأخيرين الدونيةَ والتبعيةَ والأدوارَ المقصورة على البيت، التي كانت نصيبهن منذ اليوم الأول. وكانت هذه المقاومة بطيئة لكنها ثابتة، ولم تخلُ من انتكاسات. ويتجلّى نجاحها في أن معظم المجتمع يقرّ الآن بأن الاعتداء الجنسي والاغتصاب والعنف ضد المرأة وعدم تكافؤ الفرص في التعليم والعمل وعدم المساواة في الأجور والقوانين التي تميّز على أساس الجنس كلها أمور خاطئة.

ومع أن الكنيسة حصرت تاريخيًا أفكار الكتاب المقدس عن «الحرية» في الخلاص الشخصي، فإن التطورات اللاهوتية في القرون الأخيرة بدأت تطبّقها تطبيقًا أوسع على الحرية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وإذ تسلّح كثير من المسيحيين بفهم مكتشف حديثًا لاهتمام الله بالتحرير، وقفوا في طليعة بعض الحركات الاجتماعية

41. ولحسن الحظ، زُرعت بذور التحرّر اللاحق للمرأة، وإن حجبها صوت الأغلبية: فقد كتب الماركيز دي كوندورسيه (Marquis de Condorcet، 1743–1794) رسالة يدعو فيها إلى دخول المرأة الكامل في المجال العام، بما في ذلك حق التصويت وتولّي المناصب العامة. وأشارت أوليمب دو غوج (Olympe de Gouges، 1748–1793) إلى التناقض في وجود تراتبية بين الجنسين داخل نظام يُفترض أنه قائم على المساواة الشاملة: «إن الحرية والعدالة تقومان على ردّ كل ما يخصّ الآخرين؛ ولذلك فإن الحدود الوحيدة على ممارسة النساء لحقوقهن الطبيعية هي طغيان الرجل الدائم؛ وهذه الحدود يجب أن تُصلح بقوانين الطبيعة والعقل».

الكبرى، مثل الديمقراطية، وإلغاء العبودية، وحقوق العمال، والرعاية الاجتماعية، والمساواة العرقية، والاقتراع العام، ومساواة المرأة في مكان العمل. خذوا تصويت النساء نموذجًا للتقدّم الذي أُحرز في تكريم المرأة. فقد كانت أوائل المناضلات من أجل حق الاقتراع مسيحيات في الغالب. ومع أنه لم يسمح أي بلد ديمقراطي للنساء بالتصويت قبل أن تفعل ذلك جزر بيتكيرن سنة 1838، فإن كل دولة في العالم تجري انتخابات ديمقراطية تسمح الآن للنساء بالتصويت، منذ أن سمحت المملكة العربية السعودية أخيرًا للنساء بالتصويت في الانتخابات البلدية سنة 2015.

وبالطبع، مع أن البذور الأولى لهذه الثورة تعود إلى معاملة يسوع للنساء وإلى ماغنا كارتا البشرية التي أعلنها بولس في غلاطية 3: 28، فإن عوامل أخرى كثيرة أسهمت في التحرّر التدريجي للمرأة. ففي القرن التاسع عشر بدأت النساء، ومعظمهن مسيحيات، يؤسّسن شتى أنواع المنظمات الاجتماعية الناشطة ويقدنها — وهي متعة لم تكن تُختبر من قبل إلا في أديرة الراهبات والرهبانيات النسائية — لمعالجة شتى أنواع العلل الاجتماعية. فأنشأت النساء مدارس الأحد ليعلّمن الأطفال عن الله ويعلّمنهم القراءة. واعتنين بالأطفال الأيتام وبالأرامل. وعلّمن نساء أخريات القراءة والكتابة والحساب وأمور الدين. وسعين لدى أصحاب القرار من أجل السلام، والاعتدال في شرب الخمر، وإصلاح السجون، وإغلاق بيوت الدعارة. وفي هذا كله كان شيء أعمق يجري: كانت النساء يكتشفن قدرتهن على تغيير العالم.

ومن ثمّ بدأن أيضًا يطالبن بحقوق المرأة، في حركة اجتمعت فيها نساء من كل العقائد والثقافات والأعراق ليؤكّدن أن الحرية الاقتصادية والنفسية والاجتماعية ضرورية كي تتجاوز النساء وضعهن مواطناتٍ من الدرجة الثانية في مجتمعاتهن. وسعين إلى تغيير نظرة ثقافاتهن إلى المرأة، وبذلك إلى إعادة تعريف أدوار المرأة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع. وكان كثير من القادة والعلماء المسيحيين في طليعة هذه الحركة في أيامها الأولى — حتى إنه يمكن القول إن «تحرير المرأة كما ازدهر في ستينيات القرن العشرين كانت له جذور إنجيلية وكتابية عميقة».[42]

42. Kevin Giles, What the Bible Actually Teaches on Women، ص. 39: «كانت هذه حركة قادها إنجيليون آمنوا بأن الكتاب المقدس يعلّم بوضوح المساواة بين الرجال والنساء في المسيح. وكانوا يعارضون العبودية وإخضاع المرأة على السواء. ومن بين قادة "نسويات الموجة الأولى" الإنجيليون ويليام وكاثرين بوث (William and Catherine Booth)، مؤسّسا جيش الخلاص، وسوجورنر تروث (Sojourner Truth)، وأماندا بيري سميث (Amanda Berry Smith)، وكاثرين بوشنل (Katherine Bushnell)، وأ. ج. غوردون (A. J. Gordon)، وفريدريك فرانسون (Fredrik Franson)».

وفي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين خاصةً، وفي واحدة من أعظم الثورات الاجتماعية على الإطلاق، جاء أخيرًا دور النساء لينلن أعظم حرياتهن. وقد ساعدت قضيتَهن عوامل أخرى.

فصعود التصنيع الحديث جعل النساء يجدن عملًا خارج البيت. ومع أن أفضل الوظائف والأجور كانت محجوزة للرجال، بدأت النساء يتذوّقن العمل غير المنزلي. وفي الحرب العالمية الثانية دُفعت أعداد غفيرة من النساء، بحكم الضرورة، إلى وظائف رجالهن الغائبين المقاتلين: فأدرن الشركات، وتعلّمن الحِرف، وشغّلن المصانع، وقدن الشاحنات، وصنعن الأسلحة. وبعد الحرب بدأت طبيعة العمل تتغيّر هي أيضًا. فقد نما قطاع الأعمال المكتبية مع ازدياد أهمية العقل على العضلات. وربما واجهت النساء، في المتوسط، صعوبة في الوظائف الأشد إجهادًا للجسد، لكنهن كنّ قادرات بالتأكيد على العمل الفكري. والدليل على ذلك أن عدد النساء اللواتي يتخرّجن اليوم في الجامعات يفوق عدد الرجال.

كذلك جعل اختراعُ حبوب منع الحمل في خمسينيات القرن العشرين النساءَ يتحكّمن في موعد إنجاب أولادهن وعددهم — ومع قلة الأولاد صار لديهن وقت أكثر. وبحلول الستينيات كانت حركات التحرّر والاحتجاجات العامة تجتاح الكوكب. وحقّقت حركات الحقوق المدنية انتصارات كبيرة، فجاءت في أعقابها اللحظة المثالية لتزدهر حركة المرأة أيضًا. ففي ستينيات القرن التاسع عشر، حين كانت العبودية تُلغى، بدأت النساء، ومعظمهن إنجيليات، يتحدّين وضعهن التابع. ولم يؤخذن في البداية على محمل الجد. فالأفكار التي تغيّر المجتمع تحتاج عادةً إلى وقت حتى تكتسب زخمًا. ولكن أخيرًا، بعد قرن من الزمن، وبينما كانت الحقوق المدنية تُنتزع للأعراق غير البيضاء في البلدان التي يهيمن عليها البيض، استثمرت النساء الزخم الاجتماعي ونجحن في الإطاحة بوضعهن الأدنى. إننا مدينون كثيرًا لهؤلاء النساء الشجاعات اللواتي سبقننا. فبفضلهن إلى حد كبير تتمتّع النساء اليوم بمكانة متساوية.

يصعب أن نبالغ في وصف عمق التحوّل الذي حدث. ففي غضون عقود قليلة فقط، أفسحت افتراضات دونية المرأة، التي دامت آلاف السنين ولم يشكّك فيها أحد، المجالَ لعالم تبدو فيه القاضيات ومطوّرات البرمجيات والجرّاحات والسياسيات والرئيسات والأستاذات الجامعيات والجنرالات من النساء والمديرات التنفيذيات أمرًا طبيعيًا تمامًا.

وبالنظر إلى ضلوع الكنيسة تاريخيًا في إخضاع المرأة وفي تحريرها على السواء، كيف ستستجيب الآن لهذه التغيّرات المجتمعية الزلزالية؟

العالم المسيحي يصطدم بتحرير المرأة

كان موقف الكنيسة تاريخيًا أن النساء لا يمكنهن القيادة في الكنيسة ولا في البيت ولا في العمل لأنهن أدنى. وفي كل قرن سبق القرنين العشرين والحادي والعشرين، كانت الثقافة الأبوية متفقة مع الكنيسة في هذا. أما الآن فقد جاءت ثقافة جديدة تتحدّى هذه الافتراضات. وطريقة استجابة الكنيسة في البداية صارت تاريخًا — وإن كان تاريخًا حديثًا جدًا — إذ لا يزال كثير من كبار مفكّريها والمؤثّرين فيها أحياء، ولا تزال أصواتهم مرتفعة كما كانت حتى اليوم.

ومن المؤسف أن استجابة الكنيسة الأولى لنجاح حركة تحرير المرأة كانت في معظمها ردّ فعل. فقد كانت أكبر جماعة كنسية — الروم الكاثوليك — ومعها الكنائس الإنجيلية والمُصلَحة المحافظة، الأشدّ عداءً للتغيير، متمسّكةً بفكرة دونية المرأة. وردًّا على أولى الصيحات المطالبة بعدم إخضاع المرأة وبمساواتها، قرأ المسيحيون وقبلوا الأجوبة التي قدّمها مؤلفون مثل جون رايس (John Rice). ففي كتابه Bobbed Hair, Bossy Wives, and Women Preachers (1942) حاول أن يهدّئ النساء، مدّعيًا أنه «يحسم أسئلتهن بكلمة الله»:

الرجل مخلوق على صورة الله. والله إله مذكّر. فضمير المذكّر يُستعمل لله في كل موضع من الكتاب المقدس ... الله ليس مخنّثًا. والرجل مخلوق على صورة الله. أما المرأة فهي على صورة الرجل وقرينة له ... طوبى للمرأة التي تتذكّر هذا؛ فمجدها أن تكون عونًا للرجل، وفي خضوعها لزوجها أو لأبيها.[43]

وبصورة أقل شعبية لكن أكثر علمية، رأى الإنجيلي دونالد غوثري (Donald Guthrie) في تفسيره لرسالة 1 تيموثاوس ضمن سلسلة تفاسير تيندال (Tyndale)، في وقت متأخر هو سنة 1957، أن «أسبقية خلق الرجل تضعه في موضع التفوّق على النساء».[44] وتوصّل عالم الكتاب المقدس الشهير تشارلز رايري (Charles Ryrie) إلى استنتاج مماثل سنة 1958: «إن فكر الله بشأن النساء ... سيعني التبعية والكرامة في البيت، والصمت وتقديم العون في الكنيسة».[45]

43. John Rice, Bobbed Hair, Bossy Wives, and Women Preachers، ص. 68.
44. Kevin Giles, What the Bible Actually Teaches on Women، ص. 175.

ومع أن المسيحيين كانوا متسلّحين بهذه الدفاعات «اللاهوتية» المبكرة، فإن كثيرًا من المقاومة التي أبدوها للتغيّرات الجارية في المجتمع كان يغذّيه تصوّر خاطئ بأن «الأسرة المسيحية» تتعرّض للهجوم. وربما شكّلت التعاليم النسوية اللاحقة تهديدًا حقيقيًا للأسرة المسيحية، لكن حركة تحرير المرأة في شكلها المبكر لم تكن في الواقع إلا تهديدًا لظاهرة اجتماعية دينية كان فيها الرجال، بسبب الثورة الصناعية، يعملون خارج البيت طوال النهار، بينما يُتوقّع من الزوجات أن يبقين في البيت ويعتنين بالمنزل والأولاد. وما يبدو أن المسيحيين نسوه آنذاك هو أن الأب في الثقافات المسيحية الأقدم كان هو أيضًا يبقى في البيت في الغالب: فالأسرة نفسها كانت وحدة اقتصادية تشكّل فيها العائلة كلها قوة العمل، فتعتني بالحيوانات والحقول، وتمارس صناعات صغيرة مثل الغزل والنسج والنجارة.

كذلك بدت الزيجات «المساواتية» الجديدة التي كان المجتمع يتبنّاها — والتي يمارسها اليوم على نطاق واسع في الغرب حتى المسيحيون الذين يعلنون أنهم تكامليون — بدت آنذاك كأنها إطاحة بالزواج «المسيحي»، إذ كان الناس يعتقدون أن التعليم الرئيسي للكتاب المقدس بشأن الزواج هو السلطة والخضوع.

اتفاق، ثم مفترق طرق

يقول الباحث التكاملي دانيال دورياني (Daniel Doriani) إن اللاهوتيين حتى ستينيات القرن العشرين كانوا يفترضون «الدونية الوجودية» للمرأة.[46] فاللاهوتيون ورجال الدين وسائر الناس حتى ذلك الوقت كانوا ينظرون عمومًا إلى النساء على أنهن «أدنى» وإلى الرجال على أنهم «أعلى». وكانوا يحتجّون بأن الكتاب المقدس يقول ذلك.

ولكن بعد ذلك فُرض على الكنيسة سؤال جديد: «ماذا يقول الله عن هذا النهوض غير المسبوق للمرأة في المجتمع، وهو حركة اجتماعية تطالب بالمساواة الكاملة بين النساء والرجال؟» ولفترة قصيرة تحصّنت الكنيسة حول عقيدتها التاريخية. ولكن على الرغم من صدام أوّلي مع الثقافة حول مسألة المساواة بين الجنسين، استقرّ في جزء كبير من الكنيسة، من الستينيات حتى التسعينيات، إدراك رائع: «مهلًا، لقد أخطأنا ... النساء متساويات حقًا مع الرجال».

ولا يزال هذا من أشدّ التحوّلات إثارة في تاريخ اللاهوت المسيحي. فقد ظلّت الكنيسة قرونًا تردّد صدى الثقافات الأبوية الكارهة للمرأة، فتقرأ تلك المواقف والأفكار في النص الكتابي. أما الآن، فبفضل تحوّل ثقافي كبير، وبفضل مسيحيين روّاد مثابرين

46. Kevin Giles, What the Bible Actually Teaches on Women، ص. 176.

بين أبنائها، عادت الكنيسة إلى النص الكتابي ووجدت أن في الكتاب المقدس فعلًا الكثير مما يؤكّد المساواة الجوهرية للمرأة.

يقول تيم كيلر، كما اقتبست سابقًا: «في أغلب الأحيان ... يكشف لنا التفاعل مع ثقافة جديدة أمورًا كثيرة يعلّمها الكتاب المقدس — أمورًا إما فاتتنا تمامًا وإما حسبناها غير مهمة، وربما أيضًا طرقًا أسأنا فيها قراءة الكتاب المقدس من خلال عدسة افتراضاتنا الثقافية».[47] وهكذا، حين قُرئ الكتاب المقدس بعناية أكبر، تبيّن أنه لا يعلّم في نهاية المطاف أن النساء أقل عقلانية، أو أكثر عرضة للخطية، أو عاجزات عن القيادة، أو غير قادرات على العمل خارج البيت. ومع أن بذور مساواة المرأة كانت موجودة في الكتب المقدسة، ولم تظهر في تاريخ الكنيسة إلا لحظات عابرة، فإن الكنيسة لم تبدأ إلا مؤخرًا، وأخيرًا وبصورة رسمية، تتبنّى هذه المساواة على نطاق واسع وبفخر بوصفها جزءًا من عقيدة الكنيسة. وكل من اتّخذ هذا نقطة انطلاق صار الآن جزءًا من يوم جديد تمامًا في اللاهوت المسيحي بشأن المرأة — قطيعةً مع لاهوت الكنيسة الذي دام آلاف السنين.

إن كنتم تتعجّبون حين تقرأون أن الكنيسة بلغت وضوحًا جديدًا في ما يعلّمه الكتاب المقدس بعد آلاف السنين من نشأتها، فاطمئنوا: هكذا كان الأمر دائمًا. فحين كانت الثقافة تعتقد أن الأرض مسطّحة، علّم اللاهوتيون ذلك من الكتاب المقدس. وحين ظنّ الناس أن الشمس تدور حول الأرض، أثبتت النصوص الكتابية ذلك. وإلى أن تعلّم العلماء تحديد عمر الأرض، كان الناس يعتقدون أن الله خلقها في سبعة أيام حرفية قبل بضعة آلاف من السنين فقط. وبالمثل، اقترن إلغاء المجتمع للعبودية وتغلّبه على معاداة السامية بقراءة الكنيسة للنصوص الكتابية بطريقة جديدة (وأفضل). فقد تلقي الاكتشافات الجديدة في الثقافة ضوءًا جديدًا على ما هو موجود فعلًا في الكتاب المقدس (وما ليس موجودًا فيه). والأمر نفسه يصحّ على اكتشاف المجتمع الأوسع أن النساء متساويات في جوهرهن مع الرجال. ويا للعجب، فقد تكلّم الكتاب المقدس فعلًا عن المساواة الجوهرية بين الجنسين في الخلق وفي المسيح! لقد كان ذلك موجودًا فيه طوال الوقت.

والكنيسة الكاثوليكية أيضًا، مع أنها تكتّلت في البداية ضد مساواة المرأة، غيّرت لاهوتها. ففي سنة 1987 عبّر البابا يوحنا بولس الثاني (John Paul II) عن صوت كبار اللاهوتيين الكاثوليك في ذلك الوقت، إذ أصدر تعليمًا ملزمًا للكنيسة[48] رفض الرأي

47. Timothy Keller, Center Church، الفصل 8.
48. John Paul II, Mulieris Dignitatem: On the Dignity and Vocation of Women.

الذي ساد قرونًا — وهو أن الله في الخلق جعل النساء تابعات للرجال — وأصرّ بدلًا من ذلك على «مساواتهن الجوهرية».

وماذا عن الكنائس الإنجيلية؟ على غرار المثال الكاثوليكي، خرجت قلّة من النفوس الشجاعة بجرأة لتأييد تحرير المرأة، محتجّةً بأن المساواة الكاملة والتبادلية بين الرجال والنساء في الكنيسة والبيت والمجتمع هي ما قصده الكتاب المقدس دائمًا. غير أنه — ولهذا السبب لا بد من كتابة هذا الكتاب — عارضهم إنجيليون آخرون سعوا، مع أنهم رفضوا هم أيضًا التعليم التاريخي للكنيسة عن دونية المرأة، إلى التمسّك بشكل من أشكال تبعية المرأة.

وما تلا ذلك كان جدالًا دام عقودًا بين هاتين الجماعتين، التراتبيين والتبادليين، وكلتاهما مخلصة للكتب المقدسة بالقدر نفسه، كما تشهد على ذلك وفرة من الكتب التي كتبها مؤلفون ومؤلفات من الجانبين ردًّا بعضهم على بعض. وبعد أن اتفقت الجماعتان على طرح فكرة دونية المرأة من عقائدهما، سلكتا طريقين مختلفين، حتى إن بعض الطوائف اليوم تتبنّى الرأي الأول بينما تأخذ طوائف أخرى بالثاني. وإليكم النقطة الجوهرية: كان كلا الرأيين جديدًا تمامًا في تاريخ الكنيسة. فقد استبدل دعاة النظام الأبوي بالعقيدة السابقة القائلة إن «النساء أدنى، ولذلك فهن تابعات للرجال» عقيدةً تقول إن «النساء متساويات، ومع ذلك فهن تابعات للرجال»، بينما اختار التبادليون بدلًا من ذلك أن «النساء متساويات، ولذلك فهن لسن تابعات للرجال».

واستمر الحوار، الحادّ أحيانًا والودّي أحيانًا أخرى، حتى سنة 1987. ثم حدث في الولايات المتحدة أمر أعتقد أنه وضع للحوار نهاية مبكرة بطريقة غير مشروعة: فقد صيغ بيان دانفرز (Danvers Statement) بتعليمه الجديد المسمّى «التكاملية». وقد بلغ هذا التعليم من الشعبية حدًّا جعل كثيرًا من الإنجيليين يعدّونه الفائز في الجدال. وبالطبع، ربما انتصر هذا الرأي لأنه صحيح. ولكن إن كنا نعرف شيئًا عن تاريخ الكنيسة، فمن الممكن أيضًا أن يفوز رأي لأسباب أخرى. فاسمحوا لي أن أشارككم كيف أفهم «انتصار» التكاملية.



3

صعود التكاملية (ومزالقها)

«إننا مقتنعون بأن إنكار [سلطة الرجل وخضوع المرأة] أو إهمالها سيؤدي إلى عواقب مدمّرة على نحو متزايد في عائلاتنا وكنائسنا وفي الثقافة عمومًا». جون بايبر[49]

هل سمعتم قصة الأم التي كانت تعجن العجين وتشكّله، ثم تقطع طرفيه وترميهما قبل أن تضع ما تبقّى من العجين في الفرن؟ وحين سألها أولادها عن السبب، أوضحت أن هكذا كانت أمها تفعل، وهكذا كانت تفعل جدتها من قبلها. «هكذا نصنع الخبز ببساطة — إنها تقاليدنا». ولم يقتنع الأولاد تمامًا بجواب أمهم، فألحّوا على جدتهم ليعرفوا السبب. فنبشت في ذاكرتها وتذكّرت أن جدتها كانت تخبز الخبز في قالب صغير — صغير جدًا حتى إنها كانت تحتاج إلى قطع طرفي العجين ليتّسع له. فركض الأولاد عائدين إلى أمهم: «أمي، بما أننا لم نعد نستعمل ذلك القالب الصغير نفسه، فلسنا بحاجة إلى قطع الطرفين!»[50]

تذكّرني هذه القصة الصغيرة بالفرق بين التكاملية والتبادلية. فالأولى تتمسّك بما يُسمّى «الحجة المستمدة من تاريخ الكنيسة»، وتحتجّ بأن تبعية المرأة هي تصميم الله الصالح، إذ إن «الكنيسة علّمت ذلك دائمًا وعملت به بهذه الطريقة» في نهاية المطاف. أما الثانية فتردّ بأنه لا شيء معقول أو صالح في ذاته في جعل النساء تابعات، لأن الأسباب التاريخية التي جعلت الكنيسة تتبنّى هذه العقيدة لم تعد قائمة. ففي آلاف السنين التي كانت فيها دونية المرأة أمرًا مفترضًا لا يُشكّ فيه في المجتمع والكنيسة، ربما كان لتبعية المرأة معنى. أما في العالم الذي نعيش فيه الآن، وفي كنيسة لم تعد تتمسّك بفكرة دونية المرأة، فلا معنى لها على الإطلاق.

49. The Danvers Statement, www.bit.ly/2Y6Xhgg
50. أشكر William Witt في «Icons of Christ»، الفصل 3، على هذا التوضيح الطريف.

ومع ذلك، حين شهدت كنائس تدافع عن التكاملية، لاحظت كم منها يحتكم إلى فكرة «تاريخ الكنيسة» هذه. فهم يحتجّون بأنه ما دام هذا هو التعليم التاريخي للكنيسة، فلا بد أن الخروج عنه خطر ومثير للانقسام. ولكن ما يغفل عنه معظمهم هو أن التعليم التاريخي للكنيسة حتى ستينيات القرن العشرين كان أن النساء تابعات للرجال لأنهن أدنى من الرجال.

وكان النجاح الذي حقّقته بعد ذلك حركة تحرير المرأة حافزًا رئيسيًا ساعد الكنيسة، للمرة الأولى في تاريخها، على العودة إلى كتبها المقدسة ومساءلة فكرة دونية المرأة. وفي أثناء ذلك غيّرت رأيها عن حق. في تلك اللحظة رمت الكنيسة قالب الخبز! ومنذ ذلك الحين تخبز معظم الكنائس عقيدتها في الجنسين والقيادة انطلاقًا من الافتراض نفسه: أن النساء متساويات مع الرجال ولسن أدنى منهم. وبذلك تبنّت هذه الكنائس تعليمًا جديدًا تمامًا في هذه المسألة — لا يزيد عمره على 50 أو 60 سنة.

ثم توصّل لاهوتيون، كثير منهم لا يزالون أحياء اليوم، إلى عقيدتين تنقيحيتين متنافستين، تفترض كلتاهما الآن المساواة المتأصّلة بين الرجال والنساء. الأولى، التي ستُسمّى لاحقًا التكاملية، هي شكل منقّح من النظام الأبوي. فهي تختار التمسّك بتبعية المرأة، لكنها ترفض السبب التاريخي الحقيقي لذلك. وبدلًا منه وجد مؤسّسوها حججًا جديدة من الكتاب المقدس تدعم رأيهم. أما الرأي الثاني، المعروف عمومًا باسم المساواتية، والذي أفضّل أن أسمّيه التبادلية، فقد طرح التراتبية بين الجنسين جانبًا كليًا. فبما أن فكرة دونية المرأة صارت الآن مرفوضة على نطاق واسع، احتجّ أصحابه بأن فكرة تبعية المرأة لم يعد لها هي الأخرى أساس يُعتدّ به.

وإليكم عرضًا بيانيًا لمختلف الآراء:

	دونية المرأة؟	تبعية المرأة؟
التراتبية التاريخية (100–ستينيات القرن العشرين)	نعم	نعم، لأن النساء أدنى
التكاملية (من الستينيات فصاعدًا)	لا	نعم، لأسباب جديدة
التبادلية (من الستينيات فصاعدًا)	لا	لا

في هذا الفصل سأستكشف صعود (ومزالق) التراتبية المنقّحة بين الجنسين التي صيغت في السبعينيات، ثم قُدّمت في الثمانينيات في الولايات المتحدة في غلاف اسمه التكاملية، والتي صارت تهيمن على كنائس وطوائف كثيرة جدًا حول العالم.

وبوصفي شخصًا يعيش في أقصى جنوب أفريقيا، أستطيع أن أشهد أنه حين تعطس أمريكا يُصاب بقيتنا بالزكام. ويصحّ هذا على سياستها واقتصادها، لكنه يصحّ أيضًا على عقائدها. فبسبب العدد الهائل من المسيحيين هناك، والموارد المتاحة لهم، وهيمنتهم على وسائل الإعلام والإنترنت، سرعان ما تكتسب اللاهوتيات المولودة في أمريكا زخمًا في سائر أنحاء العالم. ولأنها ملتزمة بسلطة الكتاب المقدس، فهذا أمر جيد في الغالب، لكن من حين إلى آخر يُصدَّر شيء أكثر خطورة. خذوا مثلًا لاهوت الازدهار: ففي قارتي تؤمن كنائس كثيرة بأن الثروة والصحة يمكن المطالبة بهما بالإيمان، وبزرع «بذرة مالية» عند «رجل الله». والنتيجة: قساوسة أثرياء جدًا يقودون كنائس في بعض أفقر المجتمعات في أفريقيا. وعلى المنوال نفسه، صدّرت أمريكا فعليًا لاهوتها التكاملي أيضًا. فقد نشأ لاهوت الازدهار حين حاول معلّمو الكتاب المقدس، سعيًا وراء «نمو الكنيسة»، أن يزاوجوا بين المسيحية والمادية. ونشأ التكامليون بدورهم حين حاول معلّمو الكتاب المقدس، سعيًا وراء «نقاء الكنيسة»، أن يزاوجوا بين المسيحية والنظام الأبوي الخيّر. والأول من السهل دحضه كتابيًا، أما الثاني فتمسكه معًا شبكة متطوّرة من الحجج الكتابية، ومن هنا طول هذا الكتاب.

وما يجمع بين هذين اللاهوتين أنهما عقيدتان حديثتان نسبيًا. فالتكاملية حركة اجتماعية دينية أطلقها في أمريكا جون بايبر وواين غرودم وآخرون في نهاية القرن الماضي، وهي تتبنّى طريقة معيّنة في ربط نصوص مختارة من الكتاب المقدس بعضها ببعض. إنها ترفض التعليم التاريخي عن دونية المرأة، لكنها تجد مع ذلك أسبابًا جديدة للتمسّك برئاسة الرجل وخضوع المرأة، ولا سيما في البيت والكنيسة. وقد أعاد صُنّاع عباراتها بناء التراتبية بين الجنسين بطريقة لا يكاد معها التكامليون يدركون أن هذا هو في الواقع جوهر معتقداتهم. ولكن إنصافًا، لا يشترك جميع أنصارها في الالتزام نفسه بجعل التكاملية مستساغة للأذن الحديثة: فراسل مور (Russell Moore)، مثلًا، الرئيس السابق للجنة الأخلاق والحرية الدينية (Ethics and Religious Liberty Commission) التابعة للمؤتمر المعمداني الجنوبي (Southern Baptist Convention)، يفضّل كلمة النظام الأبوي على كلمة التكاملية.[51]

51. انظروا www.bit.ly/2ZUrOPf

صانعو التكاملية

ككل عقيدة، لهذا الشكل المنقّح من النظام الأبوي مجموعة محدّدة من الآباء المؤسّسين. ففي الأصل، ابتكر جورج نايت الثالث (George Knight III) طريقة التكاملية المميّزة في ربط نصوص معيّنة من الكتاب المقدس بعضها ببعض، في كتابه الصغير الصادر سنة 1977 The New Testament Teaching on the Role Relationship of Men and Women. وفيه تخلّى عن رأي الكنيسة التاريخي في دونية المرأة، واختار عبارة «متساوون لكن بأدوار مختلفة».

قال نايت إن الله في الخلق خصّص لكل جنس «أدوارًا» مختلفة ملزمة إلى الأبد. واعترف بأن غلاطية 3: 28 تتكلّم عن المساواة في المسيح بين الجنسين، لكنه أصرّ على أنها لا تحمل أي مضامين اجتماعية بالنسبة إلى التراتبيات بين الجنسين في المجتمع والكنيسة. وأغفل أي تعليم عن يسوع أو من يسوع في هذه المسألة. وبعد أن احتجّ بأن التبعية كانت موجودة قبل السقوط، احتجّ بأن ثلاثة نصوص (1 تيموثاوس 2: 11-14؛ و1 كورنثوس 11: 3؛ و1 كورنثوس 14: 33-35) تُظهر تأييد بولس لما سمّاه «نظام الخليقة» في الكنائس.

واحتجّ بأن قول بولس «رأس المرأة هو الرجل» في 1 كورنثوس 11: 3 يشير إلى «الرتبة الأعلى» للرجل، وأن كلمة authentein في 1 تيموثاوس 2: 12 (التي يقول إنها يجب أن تُترجم «يمارس السلطة») كلمة إيجابية تشير إلى السلطة التي يمارسها القساوسة الرجال. وقدّم أيضًا إعادة تفسير مبتكرة للآية: «وآدم لم يُغوَ، لكن المرأة أُغويت» (ع 14)، التي ظلّت قرونًا تُقرأ دليلًا على دونية المرأة الأخلاقية والفكرية. فقال إن حواء، في عمل من أعمال «قلب الأدوار»، تجاهلت سلطة آدم وتخطّتها، مما أدّى إلى نتائج كارثية. وسمّى كل هذا «التعليم الواضح للكتاب المقدس».

وقد اعترض لاهوتيون آخرون على آراء نايت، واحتدم الجدال بينما بدأت طوائف قليلة ترسم نساءً في مناصب القيادة، في حين واصل معظمها مناقشة المسألة.

وفي أواخر الثمانينيات حثّ نايت نجمين صاعدين في الكنيسة واللاهوت، جون بايبر وواين غرودم، على خوض المعركة والتصدّي لهذا الذي سُمّي «التعليم الكاذب» الآخذ في الانتشار في الكنيسة. وعلى مدى اجتماعين سنة 1987، جمعا مجموعة صغيرة من القساوسة الآخرين، التقت أولًا في دالاس ثم في دانفرز، لمناقشة المسألة والمصادقة

على بيان عقائدي عن أدوار الجنسين، سمّوه بيان دانفرز. وأسّسوا أيضًا منظمة سمّوها مجلس الرجولة والأنوثة الكتابية (Council of Biblical Manhood and Womanhood). وبعد سنة، على مائدة الإفطار، قرّر المجلس اسمًا للرأي الذي عبّر عنه بيان دانفرز، فاختار ألّا يستعمل مصطلحي النظام الأبوي أو التراتبية، بل مصطلح التكاملية، لأنه يشدّد على «المساواة والاختلافات النافعة للطرفين».[52]

وفي سنة 1989 أطلقوا مبادرتهم بعقد مؤتمر صحفي، وتوزيع كتيّبات، ونشر بيان دانفرز في مجلة Christianity Today — وكل ذلك على أمل أن «يحظى بقبول واسع». ولمزيد من نشر هذا الرأي، عقد المجلس العزم على «نشر الكتب والمقالات والكراسات، وعقد حلقات دراسية للعلماء، ومؤتمرات كبيرة لعامة المؤمنين».[53] وكان أول عمل كبير ثمرةً لجهوده مجموعة المقالات الصادرة سنة 1991 بعنوان Recovering Biblical Manhood and Womanhood، بتحرير جون بايبر وواين غرودم.[54]

وقد لقي رأيهم قبولًا واسعًا، واستخدمه كثير من قادة الطوائف لإنهاء كل جدال. وفي نهاية الألفية صادقت طوائف مثل الكنيسة المشيخية الأمريكية (Presbyterian Church of America)، وأكبر طائفة، أي المؤتمر المعمداني الجنوبي، على بيان دانفرز، عازمةً على ألّا تعبث مرة أخرى أبدًا بفكرة الزيجات المساواتية، أو رسامة النساء قسيسات، أو وقوف النساء على المنبر.

ولأن النص الأكثر محورية بالنسبة إلى التكاملية كان 1 تيموثاوس 2: 12-15، نشر أندرياس كوستنبرغر وتوماس شراينر، وهما عالمان مرموقان في الكتاب المقدس في معاهد اللاهوت المعمدانية الجنوبية، العمل العلمي Women in the Church لدحض كل محاولة لقراءة هذا المقطع قراءة غير تكاملية. ومن الأعمال الرئيسية الأخرى الداعمة للتكاملية كتاب واين غرودم الشعبي Evangelical Feminism، الذي ادّعى فيه أنه يدحض أكثر من مئة حجة مضادة قدّمها غير التكامليين. ونشر أندرياس كوستنبرغر أيضًا كتابه God’s Design for Man and Woman سنة 2014.

غير أن أكثر ما أنتجه المعسكر التكاملي تأثيرًا هو ترجمة الكتاب المقدس ESV الصادرة سنة 2001، وكذلك ESV Study Bible (التي حرّر واين غرودم حواشيها)، وبوابة

52. John Piper and Grudem, Wayne (eds), Recovering Biblical Manhood and Womanhood، ص. 11.
53. كما ذكر بايبر وغرودم في إعلان في Christianity Today، 13 يناير 1989.
54. عدّته Christianity Today كتاب العام سنة 1992.

المحتوى على الإنترنت ائتلاف الإنجيل (The Gospel Coalition)، التي أسّسها جون بايبر ود. أ. كارسون (D.A. Carson) وتيم كيلر. وبدلًا من أن يكون الائتلاف منصة مسكونية، فإن التكاملية مدمجة في إقرار الإيمان الخاص به. ومع مجلته الأكاديمية Themelios، ينتقد الائتلاف بانتظام كل عمل كبير تقريبًا يتحدّى التكاملية. وقد ساعدت أيضًا دار النشر العملاقة Crossway — فكل عمل تكاملي كبير تقريبًا صادر عنها.[55]

والحق أن التكاملية كانت حركة قوية وفعّالة إلى حدّ أن مجرد التفكير في آراء أخرى بشأن هذه المسألة يبدو، في نظر معظم الكنائس المتأثرة بها، حماقة واضحة أو هرطقة. وأنا أعرف ذلك جيدًا — فمع أنني كنت أتخيّل نفسي متمكّنًا لاهوتيًا، لم يخطر لي حتى أن أمحّص هذا الموقف قرابة 20 سنة. ومع ذلك، إن كان موقفًا معيبًا، فلماذا شهد هذا الصعود كله؟

متساوون، ولكن «الأدوار» مختلفة

لاقت عبارة جورج نايت البارعة «متساوون لكن بأدوار مختلفة» رواجًا فوريًا لدى الأذن الحديثة. فهي أفضل بكثير من التصوّر القديم قِدم الدهر: «أدنى، ولذلك تابع». فقد حلّت كلمة «متساوون» محل كلمة «أدنى»، وهذا تحسّن كبير، بينما حلّت عبارة «أدوار مختلفة» محل فكرة التبعية. ولكن عند الفحص الدقيق يتبيّن أن هذه العبارة أشبه بخفّة يد. ذلك لأن مروّجيها، في معظم الحالات، لا يحتاجون حتى إلى شرح ماهية تلك الأدوار المختلفة. فمجرد قول عبارة «متساوون لكن بأدوار مختلفة» يُرضي معظم الذين يسمعون الفكرة للمرة الأولى، ولا سيما إذا أضاف المرء تحفّظًا مفاده أن الله في نهاية المطاف خلق الرجال والنساء مختلفين.

غير أن المشكلة هي أن ما هو مكتوب على علبة التكاملية ليس ما في داخل العلبة! ففكرة «الأدوار» بناء اجتماعي حديث لم يشع إلا في الستينيات، حين بدأت مجالات النشاط المتوقّعة من النساء تتغيّر بسرعة. ويشير المصطلح إلى تقسيم للعمل، يتولّى فيه شخص أمورًا معيّنة ويتولّى آخر أمورًا أخرى. فلو قلت لأولادي مثلًا في يوم الأعمال المنزلية إنني سأوزّع عليهم أدوارًا مختلفة، فسيتوقّعون جميعًا أن أعطيهم مسؤوليات مختلفة.

55. للاطلاع على تاريخ مفصّل ومرتّب زمنيًا وعلى نظرة عامة إلى الأعمال اللاهوتية، انظروا الفصل 2 من أطروحة الدكتوراه المتميّزة لجامين هوبنر (Jamin Hübner): www.bit.ly/3BNaSY8

أما في التكاملية، فلو طرحتم السؤال (الذي لا يبدو أن كثيرين يطرحونه): «ما هي هذه الأدوار المختلفة بالضبط؟» فسيكون الجواب (إذا اختُزل إلى جوهره) أن الرجال في البيت والكنيسة يقودون، وأن النساء في كليهما يخضعن ويساعدن. ولكن انظروا، ليس هذا توزيعًا للأدوار. إنه مجرد تسلسل قيادي بسيط. فزعيم القبيلة الذي يتجوّل ومعه مساعده ليس في «اعتماد متبادل جميل» — بل هو في تراتبية من شخصين.

إن فكرة «الأدوار» تحمل في طيّاتها فكرة قابلية العكس. فقد ينظّف أحد الأولاد المسبح وينظّف آخر غرفة الجلوس، وفي الأسبوع التالي قد تُتبادل هذه الأدوار. أما «الدور» التكاملي فهو على العكس من ذلك علاقة سلطة دائمة لا رجعة فيها تقوم على جنس المرء. ففي التكاملية تُقصى النساء من أدوار معيّنة في الكنيسة لمجرد أنهن نساء، بينما لا يُقصى الرجال من أي دور لمجرد أنهم رجال. وليس في هذا الترتيب أي تكامل.

ومع أن فكرة الأدوار تتوافق مع المساواة، فإن فكرة علاقات السلطة الدائمة المحدّدة عند الولادة إعلانٌ لعدم المساواة. وكان التحدي أمام التكامليين دائمًا أن يُظهروا كيف يمكن لشخصين أن يكونا متساويين حقًا، بينما يُقدَّر لهما على نحو لا يتغيّر، استنادًا إلى صبغياتهما وحدها، إما أن يقودا وإما أن يتبعا. ويجيب المدافعون عن التكاملية بعقد مقارنة مع العلاقات في الثالوث (وسنتناول ذلك بالتفصيل لاحقًا). ويختارون أيضًا بعناية تشبيهات مثل الضابط والجندي في الجيش، والمدير والعامل، والرئيس والمواطن، أو القسّ وعضو الكنيسة. ويحتجّون بأن لا شيء من هذه يتضمّن تفوّقًا متأصّلًا، وهذا صحيح. لكنها ليست تشبيهات منصفة أو ملائمة[56] — ففي جميع الحالات يمكن أن تتغيّر الأدوار، وصاحب السلطة إنما يملكها بحكم كفاءة أو خبرة خاصة. فقيادته ليست محدّدة عند الولادة استنادًا إلى جسده. فالقسّ مثلًا قد يقود بسبب شخصيته الخاصة ودعوته وتدريبه ومواهبه — لكن من الممكن أن يتنحّى القسّ يومًا ما، وأن يصبح عضو الكنيسة قسًّا.

لم أجد تشبيهًا واحدًا مقبولًا يبيّن كيف تكون السلطة أو التبعية محمّلة في صبغيات المرء أو جسده. وأقرب التشبيهات هي نظام الطبقات الهندوسي، الذي تتحدّد فيه مكانة المرء من حيث السلطة بالطبقة أو العائلة التي يولد فيها، أو نظام الفصل العنصري (الأبارتهايد)، الذي كان فيه لون بشرة المرء يحدّد حقوقه السياسية. وكلا هذين النظامين اللذين يحدّدان الأدوار والرتبة عند الولادة — كما سيوافق جميع

56. أشكر Kevin Giles, What the Bible Actually Teaches on Women، الفصل 3، على الحجج المضادة التالية.

التكامليين بلا شك — مثالان على عدم المساواة. فكيف تختلف التكاملية بالضبط عن نظام الطبقات أو الأبارتهايد؟

المساومة والاستسلام

كثيرًا ما احتجّ التكامليون بأن التبادليين يساومون على الكتاب المقدس. وما لا يدركونه أو لا يعترفون به هو أنهم، مع تمسّكهم عن حق بالسلطة الإلهية للكتاب المقدس، يدمجون تفسيرهم للكتاب المقدس بالكتاب المقدس نفسه. إن كلمة الله حق، لكننا نحتاج إلى التواضع لنعترف بأن تفسيراتنا لها قد لا تكون صحيحة دائمًا. فكلمة الله معصومة حقًا. أما نحن فلسنا كذلك.

ففي مقطع فيديو،[57] يشرح فيه بايبر وغرودم وكيلر لماذا تُعدّ التكاملية جزءًا من البيان العقائدي لمنظمتهم، يحذّر بايبر من أن التعامل مع الكتاب المقدس بطريقة «تتهرّب من الرئاسة والخضوع ... ينذر بالسوء للإنجيل». ويتدخّل كارسون قائلًا: «إن الالتفاف على ما يقوله الكتاب المقدس بوضوح لا لبس فيه وبتكرار ... ليس إصغاءً إلى ما يقوله الله. إنه طريقة لعدم الارتعاد أمام كلمة الله». أما كيلر، الأكثر اعتدالًا في عباراته، فيردّد مع ذلك الشيء نفسه: إن المساواتية «تؤثّر في الطريقة التي نقرأ بها الكتاب المقدس. إنها تُرخي فهمنا للكتاب المقدس».

في نظر التبادليين الإنجيليين، هذا الادعاء سخيف. فمن الظلم التام الإيحاء بأن مئات من علماء الكتاب المقدس الذين أفنوا أعمارهم، والذين دعوتهم أن يفسّروا كلمة الله تفسيرًا صحيحًا سنة بعد سنة، لديهم نظرة متدنية إلى الكتاب المقدس. فكثير من أفضل علماء الكتاب المقدس المحافظين في العالم — الذين كانوا تكامليين ولم يعودوا كذلك — يدينون باستنتاجاتهم الجديدة لا لإهمال كلمة الله، بل لدراستها بعناية أكبر. ومنهم ف. ف. بروس (F.F. Bruce)، وليون موريس (Leon Morris)، ون. ت. رايت (N.T. Wright)، وغوردون في (Gordon Fee)، وريتشارد بوكهام (Richard Bauckham)، وفيليب باين (Philip Payne)، ووالتر كايزر (Walter Kaiser)، وبن ويذرينغتون (Ben Witherington)، وستانلي غندري (Stanley Gundry)، وكينيث بيلي (Kenneth Bailey)، وعايدة سبنسر (Aida Spencer)، ووالتر ليفلد (Walter Liefeld)، وجويل غرين (Joel Green)، وسينثيا وستفول، وميريام أدني (Miriam Adney)، وكورنيليوس بلانتينغا (Cornelius Plantinga)، وجون ستاكهاوس (John

57. www.vimeo.com/44525286

Stackhouse)، ومايكل بيرد، وغيرهم كثيرون.[58] بل إن ما لا يقل عن سبعة من التبادليين انتُخبوا في السنوات الأخيرة رؤساءَ للجمعية اللاهوتية الإنجيلية (Evangelical Theological Society)، وهي جمعية لا يمكن الانضمام إليها إلا بتوقيع إقرار سنوي بالإيمان بعصمة الكتاب المقدس من الخطأ.[59] وكل ما أريد قوله هو أن هذا الجدال، خلافًا لادعاءات تكاملية كثيرة، يدور حول تفسير الكتاب المقدس، لا حول سلطة الكتاب المقدس.[60]

وقد مال التكامليون إلى تصوير التبادليين على أنهم يستسلمون للثقافة. فبعد أن أدان اللاهوتيون التكامليون الحركات الاجتماعية النسوية بوصفها تهديدًا للأسرة المسيحية، صاروا يتّهمون بانتظام لاهوتيين آخرين بالتواطؤ مع النسوية. وإليكم ردّ فعل ج. إ. باكر (J.I. Packer) على الذين اقترحوا إنهاء تبعية المرأة في الكنيسة: «إن الضغط الحالي لجعل النساء [قسيسات] يعود إلى عوامل علمانية وبراغماتية واجتماعية أكثر مما يعود إلى أي اعتبار لسلطة الكتاب المقدس. ومن المرجّح أن ترى الأجيال القادمة في هذا التحريض محاولة أخرى لتعميد الثقافة العلمانية في المسيح، كما سعت الكنيسة الليبرالية دائمًا أن تفعل».[61]

هذه كلمات قوية ومضلّلة، لكنها تلقى صدى لدى الذين سئموا «المساومين». فأندرياس كوستنبرغر يحتفي بالتكامليين بوصفهم أبطال الساعة في مواجهة تعليم غير كتابي يحذّر من أنه «سيقلّل حتمًا من فاعلية الكنيسة، ويُضعف تدريجيًا تقدّم رسالة الله في عالمنا. إن التكاملية، أي التعليم الكتابي الحق، مخالفة للثقافة مخالفة عميقة، إن لم تكن غير مقبولة ثقافيًا. وإن أنكرنا حقيقة الخلق هذه، فسنصبح حتمًا متواطئين في تقويض سلطة كلمة الله ومَن أعطانا إياها».[62]

ومع أنه ينبغي لنا جميعًا أن نصغي إلى قلقه من الاستسلام للثقافة، فإن كوستنبرغر سيُحسن صنعًا لو طبّق كلماته على آرائه هو. لكنه بدلًا من ذلك يبدو غافلًا تمامًا عن أن التكاملية رأي لاهوتي حديث نسبيًا، نشأ مباشرة من موافقة التكاملية على رفض الثقافة لدونية المرأة. وفوق ذلك، يبدو أنه لا يرى احتمال أن تكون التكاملية نفسها استسلامًا لثقافة غير كتابية حقًا: الثقافة الأبوية المفرطة في المحافظة التي تمجّد

58. أشكر Kevin Giles, What the Bible Actually Teaches on Women، الفصل 2، على هذه القائمة.
59. إن ما لا يقل عن سبعة من رؤساء الجمعية اللاهوتية الإنجيلية، وهم روجر نيكول (Roger Nicole)، وكينيث كانتزر (Kenneth Kantzer)، ووالتر كايزر، وستانلي غندري، وآلان ف. جونسون (Alan F. Johnson)، وميلارد إريكسون (Millard Erickson)، وكريغ كينر، كلهم تبادليون.
60. Kevin Giles, What the Bible Actually Teaches on Women، الفصل 9.
61. J. I. Packer, "Let's Stop Making Women Presbyters," Christianity Today، 11 فبراير 1991
62. www.bit.ly/3bAU0ZG

الصور النمطية للجنسين في أمريكا ما بعد الحرب في الخمسينيات — حيث كانت المرأة في أفضل حالاتها ملكة منزلية خاضعة تربّي الأولاد وتساند زوجها العامل. وخلاصة القول إن التكامليين يتّهمون منافسيهم اللاهوتيين زورًا بالمساومة على الكتاب المقدس والاستسلام للثقافة. ومن المؤسف أن تشويههم للحقائق لا يقف عند هذا الحد.

التمايز «الجميل»

كنت عدة مرات في السنة، على مدى عقد تقريبًا، أشرح للمئات الذين يجتمعون في دورة العضوية في كنيستنا لماذا كنا تكامليين في لاهوتنا. وكنت أقول:

هناك أربع طرق لعيش الزواج. ففي الزواج الذكوري المتسلّط يهيمن الرجل، بينما تتبعه الزوجة تبعية ذليلة. وفي الزواج النسوي المتطرّف تهيمن الزوجة، ويطيع الزوج السلبي كل أوامرها. ولا يمثّل أيّ من هذين الخيارين مساواة حقيقية. وفي الزواج المساواتي يكون الزوجان متساويين، لكن لا توجد فروق بين الرجل والمرأة. أما في الزواج التكاملي فهما متساويان، والفروق التي رسمها الله بينهما يُحتفى بها وتُكرَّم.

وكان كل الحاضرين تقريبًا يقبلون هذا الموقف، كما قبلته أنا. ولكن حين بدأت أتأمّل بعناية أكبر في معتقداتي وموقفي، أدركت أنني كنت أكسب الناس بتشويه الموقف المساواتي. لم تكن معركة عادلة. ففي الواقع تتفق المساواتية (أو التبادلية) تمامًا مع التكاملية على أن الرجال والنساء مخلوقون متمايزين ليكمّل بعضهم بعضًا. ولم ألتقِ حتى الآن لاهوتيًا تبادليًا يقول إن الرجال والنساء، بحسب تصميم الله أو في المتوسط، متماثلون في الجسد أو في الخصائص النفسية. ومع ذلك فهكذا يواصل كثير من كبار التكامليين تصوير خصومهم اللاهوتيين تصويرًا خاطئًا. ففي كتابهما عن التكاملية يحتجّ الزوجان كوستنبرغر بأن التبادليين يتبنّون فكرة «المساواة غير المتمايزة».[63] والواقع أن التبادليين لا يعدّون الجنس الذكري والأنثوي أمرًا سائلًا أو قابلًا للتبادل. فهم لا يعترضون مثلًا على الفهم القائل إن الرجال وحدهم يمكن أن يكونوا آباء وأبناء وإخوة، والنساء وحدهن يمكن أن يكنّ أمهات وبنات وأخوات.

من منظور التسويق، إن كانت عبقرية نايت في ابتكار عبارة «متساوون لكن بأدوار مختلفة»، فإن عبقرية بايبر كانت في التوصّل إلى اسم «التكاملية» لهذا الرأي — وهو

63. يقول أندرياس ومارغريت كوستنبرغر (Andreas and Margaret Köstenberger) ذلك في «God's Design for Man and Woman».

اسم مشتقّ، بحسب كلماته، «من التكامل الوارد في تكوين 2: 18 حيث يعطي الله حواء لآدم معينًا نظيره». ولكن بعد أن درست الفرق الحقيقي بين التكاملية والتبادلية، أرى أن التعريف الأكثر إنصافًا للأولى هو «تكامل مع تراتبية»، وللثانية «تكامل بلا تراتبية».[64] ولو عرضت الأمر بهذه الطريقة على الناس في دورة الأعضاء الجدد في كنيستنا، فأتخيّل أن عددًا أكبر منهم كانوا سيتوقّفون للتفكير قبل الانضمام إلى كنيستنا.

وفي الحوارات بين التبادليين والتكامليين، أقترح أن الطريقة الأفضل للحديث عن خلافاتنا هي أن نتفق أولًا على أن الله خلق الذكور والإناث عن قصد، ومتساوين، وعلى نحو يكمّل بعضهم بعضًا. وهذا يعطينا قدرًا مدهشًا من الأرضية المشتركة. أما الخلاف الحقيقي فيكمن في تحديد ماهية هذه الفروق التي قصدها الله بين الرجال والنساء بالضبط، وما يترتّب عليها من نتائج. هل فروقنا حقًا كبيرة إلى حدّ يستلزم مجالات منفصلة تمامًا، يكون فيها الرجال دائمًا أصحاب السلطة؟ أم يمكننا أن نرى في التكامل دعوة إلى العمل معًا، جنبًا إلى جنب، في البيت والمجتمع والكنيسة؟

ففي الخدمة الكنسية، يوحي تعليم التكاملية عن التكامل بأن أدوارًا مختلفة توزَّع على الجنسين، لكن ليس هذا ما يجري فعلًا في الكنائس التكاملية، حيث تُقصى النساء من خدمات معيّنة، بينما لا يُقصى الرجال من أي خدمة! فأي رجل يمكنه من حيث المبدأ أن يقوم بخدمة أي امرأة، لكن العكس ليس صحيحًا. هذا ليس تكاملًا — هذا إقصاء.

انهيار المجتمع

لا يكتفي التكامليون بتصوير التبادليين زورًا على أنهم مساومون ومستسلمون وطامسون للفروق بين الجنسين، بل يحمّلونهم أيضًا بعض المسؤولية عن انهيار الثقافة نفسها.

وإن كانت إحدى الاستراتيجيات السياسية المعتادة هي تحميل الآراء المنافسة مسؤولية انهيار المجتمع، فإن بايبر وغرودم يستخدمان هذه الحيلة بفاعلية كبيرة. فعلى سبيل المثال، وبينما يومئ كيلر وكارسون إلى جانبه موافقَين، يشرح بايبر لماذا يرفض

64. استخدمت طبعة 2005 من «Discovering Biblical Equality»، التي حرّرها غروتهايس وبيرس وفي (Groothuis, Pierce, and Fee)، عبارة «تكامل بلا تراتبية» شعارًا لها. ويحزنني أن أرى طبعة 2021 تتخلّى عن هذا المصطلح، على ما يبدو لأن التكاملية صوّرت التكامل بفاعلية كبيرة، وإن على نحو مضلّل، على أنه أمر يتنافى مع المساواتية.

ائتلاف الإنجيل (The Gospel Coalition) المساواتية، رابطًا بين الإخفاق في جعل الرجال قادة خدّامًا في البيت والمجتمع وبين «مجتمع ذكوري وحشي»، و«السلبية»، و«الارتباك بشأن الرجولة»، و«انفجار الرجال في لحظات غضب»، و«قضية المثلية الجنسية كلها»، و«الإساءة إلى النساء»، و«إهمال الأطفال».[65] وبالطبع، معظم هذه الأمور ليست من مُثُل الله على الإطلاق. ولكن هل يستطيع بايبر حقًا أن يثبت أن مطالبة الرجال بأن يكونوا قادة خدّامًا والنساء بأن يتقبّلن قيادة الرجال هي الحل لكل علل المجتمع؟

وبالمثل، يندب غرودم الكوارث التي ستتوالى إذا سمحت الكنيسة بالمساواة الحقيقية بين الرجال والنساء في البيت والكنيسة والمجتمع، وبما يسمّيه «إلغاء الفروق».[66] ففي الزواج، كما يقول، سيحوّل ذلك «الأزواج إلى ضعفاء خانعين والزوجات إلى مغتصبات للسلطة». وفي تربية الأولاد، «سيُربّى الأولاد على قدر ضئيل جدًا من التأديب وقدر ضئيل جدًا من احترام السلطة». وفي الأسرة، «ستُقسَّم جميع المسؤوليات بحسب المواهب والاهتمامات، لا بحسب الأدوار التي يحدّدها الكتاب المقدس». وفي مجال الجنسانية البشرية، سيصبح الرجال «غير رجوليين وغير جذّابين للنساء»، وستصبح النساء «غير أنثويات وغير جذّابات للرجال»، وسيكون كلاهما «متذبذبًا تجاه العلاقة الجنسية». وفي الرياضة، سيقف الناس «ضد المنافسة ويعدّونها شرًّا لا خيرًا». وفي الاقتصاد، «لن يُسمح لأحد بأن يكون ثريًا جدًا، وسيكون هناك اعتماد واسع النطاق على دولة الرعاية وعلى الحكومة». وفي التعليم، سوف «يستأصلون بالقوة أي أنماط من التفضيلات والميول الطبيعية لدى الصبيان نحو بعض أنواع النشاطات، ولدى البنات نحو أنواع أخرى».

أنا لا أختلق هذا. هذه كلمات غرودم في أشهر دفاع له عن التكاملية. ومع أن مجتمعنا الحديث يواجه بالتأكيد تحديات حقيقية جدًا، فمن المخادع وغير الأمين أن يُلقى اللوم فيها كلها على آراء الخصم. ولعلّ أقوى دليل على أن بيان دانفرز أدب سياسي هو سطره الأخير: «إننا مقتنعون بأن إنكار هذه المبادئ أو إهمالها سيؤدي إلى عواقب مدمّرة على نحو متزايد في عائلاتنا وكنائسنا وفي الثقافة عمومًا».[67]

وتشرح المحلّلة الاجتماعية الدينية كريستين دو ميز (Kristin Du Mez)، في كتابها Jesus and John Wayne، لماذا لقيت هذه الادعاءات كل هذا الرواج في أمريكا

65. https://vimeo.com/44525286
66. هذا الاقتباس والاقتباسات التالية في الفقرة مأخوذة من Wayne Grudem, Evangelical Feminism، الفصل 1.
67. www.bit.ly/3CFM0CC

الإنجيلية في نهاية قرن تميّز بصعود النسوية والعلمانية وما بعد الحداثة، وبفقدان المعنى والهوية، وبنجاح الثورة الجنسية: «لقد أجّج هذه المخاوفَ بنشاطٍ قادةٌ إنجيليون كانت لهم مصلحة مباشرة في تأجيج المخاوف من أجل توطيد سلطتهم، ونحن نرى ذلك في تاريخ الإنجيلية المحافظة».[68]

ولا يزال هناك سبب آخر يجعل هذا العدد الكبير من المسيحيين المتأمّلين والملتزمين يتمسّكون بالتكاملية دون مساءلة. وكل ذلك بفضل تشبيه بارع، لكنه مضلّل في نهاية المطاف.

التبعية في الثالوث

قبل سنوات كُلّفت زوجتي بكتابة شيء لزوجات القساوسة من زميلاتها اللواتي ربما يجدن صعوبة في تقبّل قيادة الرجل في البيت والكنيسة. وكما سبق أن بيّنت، فإن الفكرة الأساسية للتكاملية فكرة يصعب استيعابها: كيف يمكن للمرء أن يكون مساويًا وفي الوقت نفسه تابعًا. وقد عانت زوجتي في فهم السبب الكامن وراء ما يسمّى أدوارنا المختلفة، إلى أن قرأت تشبيه كاثي كيلر (Kathy Keller) البارع، فأدرجته بعد ذلك ذروةً لورقتها الخاصة. فبحسب كيلر، توضع زوجة القسّ، التي تختار الخضوع لزوجها في البيت والكنيسة على السواء، في ضوء تبعية يسوع لأبيه:

إن يسوع في خدمته الخاضعة، إذ أخذ دور الخادم لكي يؤمّن خلاصنا (فيلبي 2: 5-11)، يُظهر أن خضوعه للآب كان عطية، لا شيئًا انتُزع منه قسرًا. ولم تكن مساواته للآب موضع تساؤل في أي وقت ... إن مساواة الابن [الجوهرية] للآب، ومع ذلك خضوعه [الوظيفي] من أجل الخلاص حين أخذ دور الخادم، يقودانا إلى قلب سرّ الثالوث. فكيف يمكن أن يُنقل هذا، ولو في بدايته، من دون لاعبين بشريين يجسّدون الحقائق نفسها والأدوار نفسها؟[69]

تحتجّ كيلر بأن يسوع مساوٍ للآب، ومع ذلك تابعٌ له. وبعد أن قرأت زوجتي هذا، ومعها كثير من زوجات القساوسة الأخريات، سعدن بأنهن حسمن المسألة في قلوبهن. فقد عقدن العزم على أنهن، بقبولهن الدور الذي أعطاه الله، أي الخضوع لشخص «مساوٍ» لهن، يُظهرن للعالم حياة الثالوث الجميلة والعجيبة.

68. من الحلقة 5 (عند الدقيقة 13) من البودكاست «The Rise and Fall of Mars Hill»، المتاح هنا: www.bit.ly/3CEBjAm.
69. Kathy Keller, Jesus, Justice, and Gender Roles، الفصل 2.

لكن هذا التشبيه معيب عيبًا قاتلًا. فالكتاب المقدس لا يعلّمنا في أي موضع أن نجعل خضوعنا لأي إنسان (سواء أكان قسًّا أم ملكًا أم زوجًا أم والدًا) على مثال خضوع يسوع للآب. والنص الذي تشير إليه كيلر في فيلبي 2، حيث يصير المسيح، مع أنه معادل لله، خادمًا يموت على الصليب، يصف أساسًا تواضع يسوع وخدمته للآخرين، وهذا أمر يستطيع جميع الناس أن يقتدوا به في تعاملهم مع جميع الناس.[70]

إن قول كيلر إن الثالوث يتعذّر فهمه ما لم «يجسّد لاعبون بشريون الأدوار نفسها» قول خطير. فعلى الرغم من محاولات حديثة كثيرة يقوم بها أناس ليقرأوا علاقاتهم الاجتماعية المثالية في الثالوث، لا توجد علاقة أرضية يمكنها أن تصوّر العلاقات في الثالوث تصويرًا صحيحًا. ويقترح مايكل بيرد، بطرافة ليست طريفة تمامًا، أنه لو كان علينا أن نجد علاقة كهذه، لكانت زواجًا ثلاثيًا بين رجل أكبر سنًا ورجل أصغر سنًا وخصيّ. ومراد بيرد أن من الخطأ الجسيم أن نربط أدوار الزوج والزوجة بأدوار الآب والابن.[71]

إن كانت ضربة نايت البارعة هي عبارة متساوون لكن مختلفون، وضربة بايبر هي مصطلح تكاملي، فإن إسهام غرودم كان هذا التعليم عن التشبيه بين الثالوث والزواج. فهو الذي نقل، في كتابه Systematic Theology الصادر سنة 1994، فكرة نايت التي طرحها سنة 1977 إلى التيار السائد، وهي أن الثالوث يمثّل منذ الأزل وإلى الأبد مثالًا كتابيًا على مساواة حقيقية في الشخص واختلاف في الأدوار.[72] وردًّا على الذين احتجّوا بأن الثالوث مثال ممتاز على نوع الخضوع المتبادل الذي يتصوّرونه بين الرجال والنساء، ذهب غرودم إلى أقصى الاتجاه المعاكس، محتجًّا بأن الأدوار المتمايزة هي في الواقع في صميم العلاقات الأزلية داخل الثالوث. وأدخل مصطلح التبعية الوظيفية الأزلية (Eternal Functional Subordination) ليحتجّ بأن الابن، قبل دهور من شروعه في رسالته إلى الأرض، كان تابعًا للآب أصلًا. وكان مهمًّا لغرودم أن يبيّن أن تبعية الابن للآب لم تكن مؤقتة. فقد احتجّ قائلًا: «هل يقول الابن للآب: "ليس من العدل أن تكون أنت صاحب الأمر لمجرد أنك الآب"؟ هل يقول الابن للآب: "لقد كنت

70. هذا صريح في عبارته الافتتاحية التي تعلن: «بتواضع، حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم. لا تنظروا كل واحد إلى ما هو لنفسه، بل كل واحد إلى ما هو لآخرين أيضًا. فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضًا...» (فيلبي 2: 3-5)

71. انظروا هذا الفيديو القصير لمزيد من التفاصيل: www.bit.ly/3waFKAs

72. في الواقع، كان جورج نايت الثالث، في كتابه الصغير الصادر سنة 1977 «The New Testament Teaching on the Role of Women»، أول من توصّل إلى هذا التشبيه، لكن غرودم طوّره وروّج له بوصفه لاهوتًا مصوغًا صياغة رسمية في كتابه «Systematic Theology»، وهو الكتاب الدراسي الأوسع استخدامًا في كليات الكتاب المقدس حول العالم لتلخيص التعليم الكتابي.

صاحب الأمر خمسة عشر مليار سنة، والآن جاء دوري في الخمسة عشر مليارًا القادمة"؟ لا! قطعًا لا!»[73]

ويبدو أن تيم وكاثي كيلر يتوقّفان دون الإيمان بتبعية الابن الأزلية، لكنهما صارا مع ذلك أشهر المروّجين لفكرة أن الثالوث نموذج للزواج التكاملي، بل احتجّا في كتاب من الأكثر مبيعًا بأنه «بما أن أدوارنا [الزوجية] المحدّدة متجذّرة في طبيعة العلاقات داخل الثالوث، فليس من حقّنا بالتأكيد أن نعبث بما يقصده الله في الزواج من [السلطة والخضوع]».[74] ولكن من دون حجة غرودم الإضافية القائلة إن تبعية الابن أزلية، لا يصمد تشبيه الزوجين كيلر بين الثالوث والزواج. ففي تجسّد الابن يصير أحد أقانيم الثالوث إنسانًا مدة 33 سنة، ويتطوّع طوال تلك المدة لتلقّي الأوامر من الآب والروح. وحين نضع هذا على خلفية مساواتهم وتبادليتهم الأزلية، نرى التجسّد على حقيقته: حدثًا لا يتكرّر في تاريخ الوجود كله. فليس من المسؤولية ولا من اللائق أن نتّخذ هذه اللحظة في وجود الله الأزلي معيارًا دائمًا لا يتغيّر لأدوار الجنسين في الزواج البشري. فخلافًا للمدة التي كان فيها الابن على الأرض بينما كان أبوه في السماء، تقف الزوجة والزوج كلاهما على الأرض نفسها.

ولهذا عزّز غرودم الحجة. وتبعًا له، بدأ معظم اللاهوتيين التكامليين يتكلّمون عن العلاقات الأزلية داخل الثالوث على أنها علاقات مساواة و«أدوار». وطرح لاهوتيون تكامليون آخرون، مثل جون ستارك (John Starke)، وبروس وير (Bruce Ware)، ورودريك دورست (Rodrick Durst)، ومالكوم يارنل (Malcolm Yarnell)، ومايكل أوفي (Michael Ovey)، نماذج للثالوث تشدّد على التراتبية لا على المساواة بوصفها سمته المحدِّدة. «الآب هو سلطة المسيح، وكان كذلك دائمًا ... لا ثالوث من دون نظام السلطة والخضوع»،[75] هذا ما قاله أوين ستراكان (Owen Strachan) في كتابه الصادر سنة 2016 The Grand Design: Male and Female He Made Them، الذي يهديه «إلى واين غرودم ... الذي أرانا وأرى كثيرين غيرنا التصميم العظيم لله في المسيح».

وإذ كان غرودم واثقًا بحجته الجديدة لتبعية المرأة، راهن عليها بكل ما يملك، قائلًا إن «الفهم الصحيح للثالوث قد يتبيّن أنه العامل الأكثر حسمًا في البتّ نهائيًا» في مكانة النساء وأدوارهن.[76] ولكن في سنة 2016 تضافرت جهود لاهوتيين تكامليين آخرين

73. Wayne Grudem, Evangelical Feminism and Biblical Truth، الفصل 1.
74. Timothy and Kathy Keller, The Meaning of Marriage، الفصل 6.
75. Owen Strachan and Gavin Peacock, The Grand Design: Male and Female He Made Them
76. Wayne Grudem, Evangelical Feminism and Biblical Truth، ص. 411، الحاشية 12.

موثوقين لمواجهة المزالق الخطيرة في صيغة غرودم للثالوث. وإنصافًا، كان أول لاهوتي انتقدها هو التبادلي كيفن جايلز في عمله الصادر سنة 2002 The Trinity and Subordinationism.[77] لكن العقيدة لم تسقط أخيرًا وبصورة حاسمة إلا حين تحدّى عدد كافٍ من اللاهوتيين التكامليين هذه الهرطقة عبر سلسلة من المدوّنات والنقاشات التي تلتها على الإنترنت سنة 2016. وأدّى ذلك إلى توبة واسعة عن هذه الفكرة غير القويمة التي استفاد منها التكامليون خطأً طوال تلك السنوات في الدفاع عن موقفهم من التراتبية بين الجنسين. وقد تطلّب الأمر توبة بالتأكيد: إذ إن التبعية الوظيفية الأزلية التي قال بها غرودم تنحو في اتجاه مشابه لهرطقة الأريوسية القديمة، وإن لم تذهب إلى المدى نفسه، وهي الهرطقة التي يكون فيها الابن في جوهره الأزلي أدنى من الآب.[78] وقد رفضت الكنيسة الأولى هذه الهرطقة أول مرة في مجمع أكّد الوحدة الجوهرية والمساواة في العلاقات الأزلية للثالوث. وكما قال ليام غوليغر (Liam Goligher) في منشور له أثناء الجدال: «إن القول بوجود أولوية حقيقية للآب أو تبعية للابن داخل الثالوث الأزلي هو خروج من العقيدة المسيحية القويمة».[79] بل إن ائتلاف

77. Kevin Giles, The Trinity and Subordinationism: The Doctrine of God and the Contemporary Gender Debate

78. «إن "التبعية الوظيفية الأزلية" تشبه صنفًا من شبه الأريوسية يُسمّى "الهوموميانية" (homoianism)، بحكم ثلاثة أمور: 1) الاعتماد المفرط على الثالوث التدبيري في الكتاب المقدس لصياغة العلاقات داخل الثالوث الجوهري، 2) مما يؤدي إلى مذهب تبعية (subordinationism) صارم يتّسم بتراتبية داخل اللاهوت، 3) ومن ثمّ تعريف الابن بأنه يملك مجدًا وجلالًا أدنى من الآب». Michael F. Bird and Scott Harrower, ed, 2009:) "Trinity without Hierarchy: Reclaiming Nicene Orthodoxy in Evangelical Theology"، الفصل 1.) ويسمّي ماثيو تينكهام (Matthew Tinkham) هذه الهرطقة «مذهب التبعية الجديد» (neo-subordinationism) — انظروا www.bit.ly/3PXG1jT

79. المصدر: www.bit.ly/3wdix0I لاحظ علماء آخرون كيف خلط غرودم بين لغة «الأدوار المختلفة» والسلطة والخضوع. لكنه في هذه المرة قرأ عقيدته عن «متساوون لكن بأدوار (جنسية) مختلفة» في الثالوث. ومع أن دراسة العهد الجديد تُظهر يسوع والروح القدس والآب «يقومون بأمور مختلفة»، فلا ينبغي أن يُخلط هذا ببساطة بأفكار السلطة والخضوع. وقد بدأت حجج غرودم القائلة إننا، بمعزل عن تراتبية أزلية، لا نملك طريقة للتمييز بين الآب والابن والروح تبدو واهية جدًا. صحيح أن الآب في طليعة التخطيط للفداء، بينما يسوع في طليعة تحقيق الخلاص، والروح في طليعة تطبيق الخلاص. لكن هذه «الأدوار» المختلفة لا تدلّ على تراتبية، وإن دلّت على ترتيب. فبينما كان يسوع على الأرض كان يتلقّى التوجيهات من الآب والروح. وحين عاد يسوع إلى السماء أُرسل الروح من الآب والابن. لكن هذا «الخضوع» من أحدهم للآخرين تقتضيه شراكتهم الفريدة تمامًا في الرسالة؛ وليس علامة على تراتبية أزلية في العلاقات بين الآب والابن والروح. ومع أن الآب يوجّه الأعمال، فإن الآب في الوقت نفسه — لأن الله هو في آن واحد الآب والابن والروح بمشيئة واحدة مشتركة — يُجري أعماله هو في الابن وفي الروح. فلأن للاهوت جوهرًا واحدًا، فإن له مشيئة واحدة مشتركة — وهذه حقيقة لا تسمح بأي كلام ذي معنى عن السلطة والخضوع بالمعنى الأزلي. ولعلّ أوضح نفي لتبعية يسوع الحالية للآب نجده عند بولس الذي يقول في 1 كورنثوس 15: 28: «فحينئذ الابن نفسه أيضًا سيخضع للذي أخضع له الكل، كي يكون الله الكل في الكل». فبحسب هذه الآية، يسوع المسيح ليس خاضعًا للآب في الدهر الحاضر، فلا يمكن أن يكون صحيحًا أنه تابع منذ الأزل. أما ما سيكون عليه هذا «الخضوع» المستقبلي بالضبط في نهاية الدهر، فأمر يختلف فيه العلماء. وأقترح أننا حين ننظر إلى السياق في الأعداد 24-27، حيث يُقتبس المزمور 8، نجد أنه يشير إلى يسوع في دوره الفريد بوصفه آدم الحقيقي، لا إلى طبيعته بوصفه ابن الله الأزلي. فبوصفه الإله المتأنّس، أي اللاهوت الذي اتّخذ الناسوت في ذاته، سيحقّق أخيرًا الوحدة الأخروية لكل الأشياء. وحينئذ ستأخذ البشرية المفديّة التي يمثّلها مكانها كاملًا بوصفها ملوكًا وملكات للخليقة المجدّدة، في خضوع لإلهها لا في تمرّد عليه بعد الآن — إله مثلث الأقانيم سيُعلن ذاته، في تلك المرحلة، إعلانًا رائعًا من دون أن تعيقه الخطية أو الشيطان أو الموت، فى كل شؤون البشر وفى الكون أيضًا.

الإنجيل نفسه نشر بعد ذلك مقالًا أعاد النظر في تعليم أوغسطينوس عن الثالوث، وبيّن رفضه للسلطة والخضوع بوصفهما سمة من سمات العلاقات الأزلية داخل الثالوث.[80] وكان تحوّل الرأي في العالم اللاهوتي جذريًا ومفاجئًا إلى حد أنه صار مقبولًا الآن على نطاق واسع في الأوساط التكاملية المحافظة أن العلاقات الاجتماعية المحدّدة، ومنها الزواج، لا ينبغي أن تُقرأ في الحياة الداخلية للثالوث.[81] وبعد أن انحرف كثير من العلماء الإنجيليين عن المسار بسبب نايت وغرودم، أوضحوا رفضهم «للسردية التكاملية [عن الثالوث] التي طعّمتها مجموعة صغيرة من اللاهوتيين لدعم ادعاءاتهم بشأن أدوار الجنسين»، وجدّدوا التزامهم «بالإيمان الرسولي والإنجيلي الذي يعترف بإله واحد وثلاثة أقانيم متساوين، [لا] يتمايزون ... بدرجات من السلطة».[82]

يا له من اختراق رائع! والحق أن التطبيق المشروع الوحيد للعلاقات داخل الثالوث على جماعة بشرية هو الذي أشار إليه يسوع في صلاته أن يكون أتباعه واحدًا بعضهم مع بعض كما أنه هو والآب واحد.[83] وحين نختبر فيض ما بين الآب والابن من ابتهاج لا حدّ له أحدهما بالآخر، ومن إكرام ومحبة متبادلين،[84] ندرك أن أفضل طريقة لتصوير العلاقة بين الآب والابن في جماعاتنا الأرضية (وفي زيجاتنا) ليست من خلال تسلسل قيادي، بل من خلال روابط الفرح والإكرام والمحبة المتبادلة.[85]

ومع ذلك، ومع أنني أحيّي القادة الذين اعترفوا علنًا بأخطائهم، فقد وقع بالفعل ضرر كبير. فكثير من الناس العاديين، ومنهم كثير من القادة الذين أعرفهم، أُقنعوا بالتكاملية بطريقة غير مشروعة من خلال كتب غرودم والزوجين كيلر الصادرة قبل 2016، التي تبنّت توازيًا مشكوكًا فيه بين الثالوث والزواج.[86]

80. انظروا www.bit.ly/3x2GWX6
81. انظروا ملخّص وايت غراهام (Wyatt Graham) لخمسة أسباب رُفضت لأجلها في ذلك الوقت عقيدة التبعية الأزلية للابن (Eternal Subordination of the Son): www.bit.ly/3mCmusv
82. Michael F. Bird and Scott Harrower, ed, 2009: "Trinity without Hierarchy: Reclaiming Nicene Orthodoxy in Evangelical Theology"، الفصلان 1 و2.
83. يوحنا 17: 21-23
84. متى 3: 16-17، يوحنا 14: 31، لوقا 10: 21، رومية 5: 5
85. يوحنا 13: 34
86. مثل كتاب غرودم «Systematic Theology» وكتابي الزوجين كيلر «The Meaning of Marriage» و«Jesus, Gender and Justice».

إغراء التكاملية الليّنة

بعض الكنائس تكاملية ملتزمة لأنها تفهم تمامًا التكاملية الأصلية والرسمية التي طرحها بايبر وغرودم وآخرون وتوافق عليها. وربما رسّخت قناعاتها أوراقُ المواقف التكاملية ومعاهدُ اللاهوت والولاءاتُ الطائفية. لكن كنائس أخرى، مثل الكنيسة التي ساعدت في قيادتها، عرّفت نفسها في البداية بأنها تكاملية لأننا، حسنًا، لا أظن أننا فهمناها حقًا فهمًا كاملًا!

أحب أن أظن أنني ما كنت لأقبل أبدًا التكاملية بكامل الحزمة التي قدّمها غرودم، والتي أعارضها في هذا الكتاب. فقبل أن أبحث المسألة كما ينبغي، وما دمت أعتقد أن التكاملية الليّنة في كنيستي هي، بقدر أو بآخر، الشيء نفسه الذي هو الصيغة الأصلية، كنت سعيدًا بأن أسمّي نفسي تكامليًا.

ولكن انظروا، هذا يضع التكامليين الليّنين في موضع حرج. فممارساتهم تبادلية، لكنهم يدّعون أنهم تكامليون في اللاهوت. فلا عجب أن يواصل صانعو التكاملية — مثل بايبر وغرودم وشراينر وكوستنبرغر — رفض هذه الصيغ الأكثر ليونة. فعلى سبيل المثال، يندب راسل مور في مقال له اتجاهات في الجماعات الكنسية التكاملية، يُزعم أنها وقعت في شَرَك الثقافة النسوية، بحيث «تُتّخذ القرارات العملية في معظم البيوت الإنجيلية من خلال عملية تفاوض وخضوع متبادل وتوافق». ويروي قصة كنيسة فيها امرأة يعرفها «لا تتذكّر أن قسّها علّم يومًا عن رئاسة الرجل». ويخشى أن «هذا اللاهوت الشعبي المؤنَّث قد يكون في طريقه إلى الصعود نحو الأوساط الأكاديمية وقيادات الطوائف».[87] وبالمثل يحذّر كوستنبرغر من حدوث الشيء نفسه في القيادة داخل الكنيسة:

وإذ يتوقون إلى إظهار أن التكاملية لا تسيء إلى الثقافة، بل إنها ذات صلة بها، فقد يحاولون أن يكيّفوا تعليمهم وممارستهم مع الثقافة إلى حدّ يجعلها لا تكاد تتميّز عن المساواتية. وقد يضع التكامليون نساءً أقل تشدّدًا في القيادة ليتجنّبوا الإحساس بقيادة نسائية صاخبة أو عدوانية أو ربما أكثر إساءة من النوع النسوي.[88]

87. المصدر: www.bit.ly/3GL5lom
88. المصدر: www.bit.ly/3CIkVyG

وحين أقرأ هذه الأقوال أدرك الآن كم كنت تكامليًا رديئًا! والواقع أنني حين أسأل نفسي كيف قبلت التكاملية مدة طويلة في الكنيسة التي ساعدت في قيادتها، أدرك أن ذلك كان إلى حد كبير لأننا كنا ببساطة تكامليين غير متّسقين حقًا. فلم نكن نمارس ما قلنا إننا نؤمن به. سمحنا للنساء بأن يعظن. ولم نكتفِ بتعيين شيوخ: بل كنا نتكلّم عن الثنائيات الزوجية في المشيخة، ونوضّح أنه مع أن الزوج وحده هو الشيخ من الناحية الفنية، فإن الله، لأن الزوج وزوجته جسد واحد، حين يدعو زوجًا يعطي الزوجة نعمة مقابلة. وكانت الزوجات يحضرن اجتماعات مجلس الشيوخ عندنا، وكانت أصواتهن مرحّبًا بها في بعض قراراتنا.

ومع أنني لا أستطيع أن أتكلّم باسم المتزوجين الآخرين، فإن زواجي أنا أيضًا كان أكثر مساواتية بكثير مما كان غرودم أو بايبر يرغب فيه. وكان لاهوتنا بشأن الشمّاسات يعني أننا كنا مرتاحين لقيادة النساء للرجال في خدمات ومجموعات صغيرة متنوعة. وقد ازدهرت القائدات خصوصًا في خدماتنا للعدالة الاجتماعية. (إن كنتم كنيسة تكاملية، ولستم مستعدين للتخلّي عن التكاملية، لكنكم تعرفون في أعماقكم أن شيئًا ما قد يكون خاطئًا فيها، فإنني أوصيكم من كل قلبي أن تفكّروا في «المساومة» بهذه الطرق أيضًا!)

ومع ذلك، حين أتأمّل في رحلتي الخاصة، أرى أن العيش في هذا الانفصام بين موقف المرء المزعوم وممارسته الفعلية ليس مثاليًا أبدًا. فإذا كان ما «نعرفه في أعماقنا» يختلف عمّا نقول إننا نؤمن به، وهذا بدوره يختلف عن ممارساتنا، فلدينا مشكلة. ومن حقّ أنفسنا علينا أن يكون لنا لاهوت وممارسة متّسقان.

وأشكّ في أنني كنت سأشعر بأنني مضطر إلى إعادة فحص موقفي لو لم تحدث ثلاثة أمور: الأول أن كثيرًا من قساوستنا ووعّاظنا بدأوا يستخدمون ترجمة ESV وESV Study Bible. ومع أنني أحب معظم تلك الترجمة، وجدت نفسي أتألّم كلما قرأوا أيًّا من المقاطع الكثيرة في العهد الجديد التي يخاطب فيها رسولٌ «brothers» (الإخوة) فقط، لا «brothers and sisters» (الإخوة والأخوات) كما في ترجمة NIV. وحين صدرت ESV أول مرة أوصيت بنسختها الدراسية — ثم بدأ كثير من قرّائها يسألونني لماذا نسمح للنساء بأن يعظن، بينما تعترض حواشيها الدراسية على ذلك بضراوة!

والثاني أن بعض الشيوخ الأصغر سنًا وزوجاتهم كانوا يتلقّون جزءًا كبيرًا من تعليمهم اللاهوتي من موقع بايبر الشخصي ومن ائتلاف الإنجيل. وكثير منهم، في محاولتهم مراعاة الشيوخ الأقدم، تحلّوا بالشجاعة ليعترفوا بأنهم صاروا الآن لا يؤمنون بأنه ينبغي

للنساء أن يعظن. بل إن إحدى جماعاتنا العشر مُنحت إذنًا بألّا تعظ النساء في كنيستها.

والثالث والأخير أننا، على مدى سنوات كثيرة، انضممنا إلى حركة متنامية من الكنائس، وصرنا منخرطين فيها أكثر فأكثر. وكانت هذه الحركة قد تبنّت التكاملية تبنّيًا كاملًا منذ أيامها الأولى. ولكن خلافًا لكنيستنا، كانت معظم الكنائس في هذه الحركة تمارس فعلًا ما تعظ به. فلم تكن هناك واعظات. ولم يُرسم شيوخًا إلا الرجال. ولم يكن هناك كلام عن «الثنائيات الزوجية في المشيخة». وأبدى كثير من القادة في هذه الحركة قلقهم من ممارسات كنيستنا التي بدت مساواتية — وكان ذلك مفهومًا: فقد كنا ندّعي أننا تكامليون.

وفي إحدى المرات، زارت كنيستنا واحدة من أقدم زوجات القساوسة في الحركة كلها، وشجّعت زوجات قساوستنا على أن تلزم كل واحدة منهن حدودها؛ وشرحت نهجها: «هو مدعوّ إلى قيادة الكنيسة، وأنا مدعوّة إلى خدمته». ومع أنني متأكد من أن بعض الزوجات في ذلك الاجتماع شعرن بتشجيع كبير من هذا، فإنني أعرف أن كثيرات منهن خرجن مذهولات. فبعد أن وقفن معنا جنبًا إلى جنب وكتفًا إلى كتف عقودًا، لم يُنظر إلى زوجاتنا قط من قبل على أنهن مجرد سند للزوج. فكل واحدة منهن، بطريقتها الخاصة، كرّست بعضًا من أفضل سنواتها لبناء كنيستنا وتقويتها على الخطوط الأمامية لحياة الخدمة. وفي الوقت نفسه ظللت ألتقي نساءً مجروحات تركن كنائسهن في هذه الحركة أو كنّ يتركنها، لأنهن شعرن بأن النساء مقيّدات في الخدمة أو لا يسمعهن قادتهن الرجال.

ثم في خضمّ هذا كله، قرّرت كنيستنا أن تعيد النظر في الأساس العقائدي لفهمنا للجنسين والمشيخة، وبدأت أقرأ من جديد الحجج اللاهوتية والكتابية لبايبر وغرودم وشراينر.

ومثل تلميذة السينتولوجيا التي تستمتع بديانتها إلى أن يأتي اليوم الذي تُدعى فيه إلى فتح الظرف السري، فتكتشف أنها في الحقيقة «ثيتان» (Thetan) محبوس في هذا الكون، كنت أحب التكاملية إلى أن فهمت فعلًا بعض تعاليمها الداخلية. ومهما يكن نجاح التكاملية في الانتشار عبر الكنائس في كل أنحاء العالم، فإنها عند الفحص الدقيق تبدو أقل شبهًا بالإعلان الإلهي وأكثر شبهًا بكثير ببناء لاهوتي متطوّر يخفي شكلًا آخر من أشكال القهر.

الخوف من الإقصاء

هناك سبب آخر جعل التكاملية تنتصر في هذا العدد الكبير من الطوائف والكنائس، ومنها كنيستي. فقد أظهرت دراسة حديثة عن التحيّز في العلوم السلوكية أننا، في أغلب الأحيان، لا نصدّق ما هو صحيح، بل نصدّق ما لا يُفقدنا تحالفاتنا.[89] قد يبدو هذا مشؤومًا، لكنه في الحقيقة تحيّز لاواعٍ. فنحن البشر، مسيحيين وغير مسيحيين، نستقبل كل فكرة جديدة بالسؤال الغريزي نفسه: «ماذا سيحدث لمكانتي الاجتماعية ولموقعي في هذا العالم لو قبلتُ هذا؟» لا نسأل: «هل هذا صحيح؟» بل: «ماذا سيفعل هذا بحياتي؟» (أتناول هذا بتعمّق أكبر بكثير في الملحق 6: لماذا قد لا تغيّر الحقائق آراءنا.)

فكّروا كيف يمكن أن يجري هذا في الكنائس التي قد تقرّر مراجعة عقيدتها في تبعية المرأة. فالكنائس والطوائف قبل ستينيات القرن العشرين كان يقودها في العادة رجالٌ يتقاضون رواتب، إذ كانوا يعتقدون أن النساء غير مؤهَّلات لهذه المهمة. وكانت الكنائس كلها تقريبًا تتبنّى هذا الرأي. ثم غيّرت معظم الكنائس والطوائف رأيها فجأةً إلى حدٍّ بعيد، فأكّدت أن النساء والرجال متساوون في القدرة. وصار النقاش الآن يدور حول الموقف الذي ستنتهي إليه كل كنيسة أو طائفة: هل تُشرك النساء في القيادة وعلى المنبر أم تستبعدهن؟

لا شك أنه كان هناك، وسط هذا كله، بحثٌ صادق عن الحق، لكن لا ينبغي أن نكون سُذَّجًا في نظرتنا إلى الطبيعة البشرية. فالذين كان عليهم أن يحسموا المسألة هم في الأساس رجال الدين الذين يتقاضون رواتب، لا الجالسون على المقاعد. ضعوا أنفسكم مكان قائدٍ كنسي في ذلك الوقت يحاول أن يتخذ قرارًا. ما الذي يكمن تحت كل فكرة من أفكاركم؟ أنا أعرف ذلك جيدًا، فقد كنتُ طوال حياتي خادمًا يتقاضى راتبًا: «لا أريد أن أخسر مكانتي في هذه الكنيسة، ولا وظيفتي». ومرةً أخرى، لستُ أتّهم أحدًا. فمن المستحيل ببساطة ألّا نفكّر أبدًا في الأثر الشخصي لقراراتنا الجماعية وفي تبعاتها علينا.

وما يحدث بعد ذلك، بحسب خبراء العلوم السلوكية، هو ظهور بعض المتبنّين الأوائل. وفي هذه الحالة هم الذين يبدأون بالتصريح بأنهم اقتنعوا من الكتاب المقدس بأن

89. أخصّص الملحق 6 لموضوع التحيّز المعرفي.

النساء أيضًا يمكنهن القيادة. فبماذا يفكّر بقية القادة الآن؟ «حسنًا، أنا معجبٌ بشجاعتك، لكنني سأتريّث حتى أرى أين ستستقر الأغلبية». طبعًا لا يقولون هذا — لكنهم يدركون بالحدس أن الأقلية ستخسر مكانها، وعلى الأرجح وظيفتها أيضًا.

وفي خضمّ هذا الغموض، حيث لم يكن معظمهم قادرين على تغيير رأيهم حتى يعرفوا أن الأغلبية ستفعل ذلك، جاء صوتٌ واضحٌ صافٍ كالبلّور من نجمين صاعدين في العالم الإنجيلي: «لا تُصغوا إلى النسويين الإنجيليين. إنهم مساومون على الكتاب المقدس، ومستسلمون للثقافة، ومدمّرون للثقافة، ولا يميّزون بين الجنسين. ثم إننا: متساوون لكن مختلفون؛ ونحن نؤكّد التكامل؛ وسلطة الرجل وخضوع المرأة منعكسان في الثالوث؛ وموقفنا هو الموقف التاريخي؛ وها هو موقعٌ إلكتروني، وترجمةٌ للكتاب المقدس، ومجلسٌ، ومؤتمرٌ، ووعّاظٌ أقوياء جذّابون، ومؤلفاتٌ مرجعية إن كان لا يزال لديكم أي شك».

والمدهش أنه من منتصف الستينيات حتى أواخر الثمانينيات كان هناك نقاشٌ صحي ومفتوح، يحتجّ فيه الطرفان حول التفسير الأرجح للنصوص القليلة المختلَف عليها. ثم جاء أولئك الذين زعموا، عبر بيان دانفرز، أن التبادليين ينكرون سلطان الكتاب المقدس ويختارون بدلًا من ذلك أن يلووا الكتاب المقدس ليوافق أجندتهم النسوية. ويقول الذين اعترضوا على الموقف التكاملي: «كانت هذه نهاية أي نقاش أو حوار حول ما يعلّمه الكتاب المقدس فعلًا».[90]

كانت جهود التكامليين ورسائلهم بارعةً وماهرةً سياسيًّا إلى حدّ أنها كسبت المتردّدين بسهولة. فالمعارضون الأشدّاء لإشراك المرأة صاروا الآن في هذا النقاش مقتنعين تمامًا. أما الذين في الوسط، الحريصون على الاحتفاظ بمكانهم في العالم، فقد اتُّخذ القرار عنهم. وأما رجال الدين غير التكامليين، ما لم يحالفهم الحظ بأن يكونوا في كنيسة أو طائفة مساواتية، فكان عليهم إمّا أن يعملوا في الخفاء، وإمّا أن يرحلوا ويبدأوا من جديد في مكان آخر — وكلا الأمرين محنةٌ مؤلمة.

إن هذا الخوف من الإقصاء قويٌّ إلى حدّ أنه قادر على أن يُصِمّ ويُعمي. فعندما أقرأ للقلّة القليلة جدًّا من الباحثين التكامليين المكلَّفين بمراجعة مؤلفات مَن هم خارج معسكرهم، أتعجّب مرةً بعد مرة من نبرتهم الاستخفافية، ومن صممهم عمّا يُقال، ومن مدى ضعف حججهم. ومع ذلك فإن هؤلاء الرجال أنفسهم، المكلَّفين بنقد

90. انظروا Kevin Giles, What the Bible Actually Teaches on Women, الفصل 2. ويروي جايلز القصة، وهو في طليعة هذا النقاش منذ منتصف السبعينيات.

المؤلفات التي تتحدّى رأيهم، هم في العادة في أعلى مراكز القيادة الأكاديمية في طوائفهم ومعاهدهم اللاهوتية ومؤسساتهم التكاملية. خذوا مثلًا المعاهد اللاهوتية الستة كلها التابعة للمؤتمر المعمداني الجنوبي (Southern Baptist Convention) في الولايات المتحدة: ففي كل سنة يتعيّن على أعضاء هيئات التدريس أن يوقّعوا على بيان دانفرز لكي يحتفظوا بوظائفهم. كل. سنة. لا مكان للشك في هذه المسألة. وهكذا ارتقت التكاملية، وواضعوها لا يزالون أحياء، حتى صارت حقيقةً مسلَّمًا بها كأنها الإنجيل نفسه.

ومع ذلك لا يزال قادةٌ ولاهوتيون يغادرون الحظيرة التكاملية. فإن كان الصمت هو ثمن الجلوس إلى الطاولة، فقد يكون ثمنًا باهظًا جدًّا. وبيث مور (Beth Moore)، التي كانت هي نفسها لسنوات طويلة الشخصية النسائية الأبرز في طائفة المعمدانيين الجنوبيين، أدركت مؤخرًا هذا الخلط المؤسف بين التكاملية وسلطان الكتاب المقدس في طائفتها، وتركتها علنًا. وقد تحدّت مؤخرًا واضعي هذا النظام قائلةً: «لا يمكننا أن نشارك في بناء نظامٍ ثم نجلس إلى مكاتبنا غافلين عمّا يفعله كثيرون باسمه. إن كنتَ قد ساعدتَ في بناء شيء تحوّل إلى فرانكنشتاين، فاذهب وأحضر وهقك يا فيكتور، واسحب ذلك الوحش إليك».[91] ولا تزال تصدر كتبٌ من الأكثر مبيعًا، بأقلام خبراء تكامليين سابقين في مجالاتهم الأكاديمية، تقول الشيء نفسه.[92] وإن كان هناك وقتٌ للخروج من هذا اللاهوت الساقط والمتهاوي، فهو الآن.

وبعيدًا عن تاريخ التكاملية، حان الوقت لنغوص في النصوص الكتابية الرئيسية. وعندما نفعل ذلك في الفصل التالي، سنكتشف سريعًا أين تخطئ التكاملية — إن الخطأ يبدأ من البداية نفسها ...

91. انظروا تغريدات بيث مور على تويتر في 8 أبريل 2020.
92. وأحدث ذلك كتاب بيث أليسون بار (Beth Allison Barr) «The Making of Biblical Womanhood»، وكتاب كريستين دو ميز «Jesus and John Wayne: How White Evangelicals Corrupted a Faith and Fractured a Nation».



4

شراكة صُنعت في الفردوس

«ليست حواء أعلى من آدم ولا أدنى منه، بل هي مساويةٌ له. إنها نصف قطبيةٍ واحدة، قطبٌ جنوبي لقطبٍ شمالي. إنها أقوى حليفٍ له في السعي إلى مقاصد الله، وأول حاجزٍ في طريقه حين ينحرف عن مساره». فيكتور هاميلتون (Victor Hamilton)[93]

عندما يلتقي البطريق مامبل (Mumble) في فيلم هابي فيت (Happy Feet) بالعرّاف لوفليس (Lovelace)، يلاحظ غلافًا بلاستيكيًّا ملتفًّا حول عنقه. ويصرّ لوفليس على أنه «تعويذته المقدّسة» التي منحته إياها «الكائنات الغامضة»،[94] ومن ثَمّ فهي أساس قواه. وبالطبع نحن نعرف ما يشكّ فيه مامبل فقط: إن ما يلتفّ حول عنقه قطعةٌ من النفايات لا بد أنه سبح فيها حين كان بطريقًا أصغر سنًّا. وعندما يجده مامبل وأصدقاؤه الغريبو الأطوار مرةً أخرى، يكون لوفليس عاجزًا عن التنفّس والكلام إلا بصعوبة.[95] فيستنتج مامبل: «الشيء الذي على عنقه ضيّق جدًّا. إنه يخنقه!» في البداية يستمدّ لوفليس نوعًا من القوة من قطعة البلاستيك، لكنه لا يتحرّر منها أخيرًا إلا حين يعترف بمدى ما فيها من تدميرٍ وتقييد. إنها ليست بركة، بل لعنة.

وعلى المنوال نفسه، فإن النظام الأبوي «المسيحي»، الذي تقول التكاملية إنه نتيجة «تصميم الله الصالح» في تكوين 2-3، يدّعي أنه تعويذةُ حقّ، ومبدأٌ إلهي لسلطة الرجل وخضوع المرأة يجلب بركة الله حين يُطبَّق في البيت وفي الكنيسة. وكما سأُبيّن لكم في هذا الفصل، فهو ليس على الإطلاق جزءًا من قصد الله الأسمى للعلاقات بين الرجل والمرأة — لا في البيت، ولا في الكنيسة، ولا في أي مكان آخر. بل هو نتيجة علاقاتٍ بين الرجل والمرأة أفسدها العالم الساقط وخنقها.

93. Victor Hamilton, The Book of Genesis: Chapters 1–17, ص. 181.
94. انظروا هذا المقطع المصوَّر من المشهد: www.bit.ly/3BzJGvK
95. انظروا هذا المقطع المصوَّر من المشهد: www.bit.ly/3mCpcyb

تبدأ قصة الكتاب المقدس في جنّة تتجلّى فيها مقاصد الله للبشرية وللخليقة بمجد. ثم تحلّ الفوضى. فالشيطان يجرّب حواء وآدم ليتخلّيا عن كرامتهما الرفيعة بوصفهما حاملَين لصورة الله. ولكن، والشكر لله، يأتي الفداء لاحقًا في يسوع، صورة الله الحقيقية، الذي يواجه تجربة الشيطان، في جنّة هو أيضًا، لكنه هذه المرة يصمد أمام أكاذيبه. وتنتهي القصة حين يُكمل يسوع في مجيئه الثاني ما بدأه في مجيئه الأول — فيُقيم مدينةً هي جنّة بديعة تنتصر فيها مقاصده الأصلية للبشرية وللخليقة. لا يمكن فصل اللاهوت المسيحي عن قصة العالم العظيمة. فإن كان الفداء النهائي هو استعادة الخليقة الأصلية، فلا بد أن نفهم بداية الأمور فهمًا صحيحًا. ولهذا يولي البحث اللاهوتي وزنًا كبيرًا جدًّا للأصحاحات الأولى (والأخيرة) من الكتاب المقدس. ولهذا أيضًا يبدأ بيان دانفرز، البيان التأسيسي للتكاملية، من حيث يبدأ الكتاب المقدس، فيقدّم هذه العبارات:

خُلق آدم وحواء كلاهما على صورة الله، متساويَين أمام الله بوصفهما شخصين، ومتمايزَين في رجولتهما وأنوثتهما. ... إن الفروق بين الأدوار الذكورية والأنثوية قد رسمها الله جزءًا من النظام المخلوق، وينبغي أن تجد صدًى في كل قلب بشري. ... إن رئاسة آدم في الزواج أسّسها الله قبل السقوط، ولم تكن نتيجةً للخطية.

وبعد كل عبارة من هذه العبارات يورد البيان نصوصًا يستشهد بها دليلًا، وأكثرها تكرارًا وبروزًا آياتٌ من تكوين 1-3. بل إن آيةً واحدة تُستخدم لدعم العبارات الثلاث كلها — وهي آيةٌ تحمل من الثقل العقائدي ما لا تحمله آية أخرى: «وقال الرب الإله: "ليس جيدًا أن يكون آدم وحده، فأصنع له معينًا نظيره"» (تكوين 2: 18).

وبناءً على هذه القراءة لتكوين 1-3، ولتكوين 2: 18 خصوصًا، مضى التكامليون إلى الدفاع عن «رئاسة الرجل» في البيت وفي الكنيسة، وكذلك في المجتمع الأوسع،[96] حيث يتعيّن على النساء، مع أنهن «متساويات في الكرامة والقيمة»، أن يخضعن مع ذلك للرجال أصحاب السلطة.[97] بل إن تسعة عشر من المؤلفين الاثنين والعشرين لكتاب Recovering Biblical Manhood and Womanhood يبنون حجّتهم لتبعية المرأة على الخلق أو على نظام الخليقة.

96. لا يقول جميع التكامليين إن سلطة الرجل تمتدّ إلى المجتمع الأوسع، مع أن أبرزهم، مثل جون بايبر وأندرياس كوستنبرغر، يقولون ذلك بالتأكيد. وكما يقول الأخير: «الإصرار على أن النساء يمكنهن الانخراط في أي نشاط خارج البيت من دون أي اهتمام تقريبًا أو بأدنى اهتمام بقصد الله المحدَّد من خلق كل جنس. هذا مخالفٌ للتعليم الكتابي وإشكاليٌّ للغاية». (المصدر: www.bit.ly/3by3zsy)

97. ويقول الزوجان كيلر الشيء نفسه: «إن السلطة الرقيقة الخادمة لرئاسة الزوج، وهبة خضوع الزوجة القوية الكريمة، تُعيداننا إلى ما قُصد أن نكونه في الخلق». (Tim and Kathy Keller, The Meaning of Marriage, الفصل 6.)

ومع أن قلّةً منا اليوم قد يعترضون على أن الكتاب المقدس يعلّم المساواة في الكرامة بين الرجال والنساء، فإن السؤال هو: هل ينبغي أن نعترض على فكرة أن سلطة الرجل وخضوع المرأة جزءٌ من الخليقة قبل السقوط؟ وسنخصّص هذا الفصل كله لنعرف الجواب.

تكوين 1 — ملك الخليقة وملكتها

يحتوي سفر التكوين على روايتين للخلق، إحداهما في تكوين 1 والأخرى في تكوين 2. وكلٌّ منهما تقدّم ترتيبًا مختلفًا للأحداث وتركيزًا مختلفًا في الموضوعات، ومع ذلك تجمع بينهما بعض الأفكار المشتركة. ففي الأصحاح الأول يأتي البشر خليقةَ الله في اليوم السادس: «وقال الله: "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. ..." فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم».

في أيام الخلق الخمسة الأولى يأمر الله قائلًا: «ليكن ...»، أما هنا فيقول: «نعمل ... على صورتنا». وفي هذا العمل الخلّاق الأخير، البشر بلا شك قمّة خليقته. فلا الملائكة ولا المجرّات ولا أيٌّ من الكائنات الواعية التي تجوب كوكبنا تحمل صورته. فماذا يعني أن نحملها؟

يعني ذلك أننا خُلقنا لنكون علامةً تدلّ على الله. فبما أن لنا علاقةً فريدة بالله، وعلاقةً فريدة بعالم العجائب الذي نجد أنفسنا فيه، فنحن نقف بين الله وخليقته ممثّلين للطرفين. نمثّل الخليقة بوصفنا كهنة الخليقة، فنعطي صوتًا، نيابةً عن بقية الخليقة، لعبادتها الصامتة لخالقها. ونمثّل الله بوصفنا نوّابه على الخليقة، فنعكس صلاح طبع الله على الخليقة كلها. فالله لا يخطّط لأن يعتني بالخليقة ويقودها وحده فحسب، بل مع البشرية ومن خلالها. ولهذا يجب أن يعكس «تسلّطنا» طبعَ الله. ومن الأنفع أن نفكّر في الصورة التي نحملها على أنها مهمةٌ أُعطيت لنا على نحوٍ فريد، لا على أنها نوعٌ من العلامة الكامنة المخبّأة في أعماق نفوسنا. ويعبّر ن. ت. رايت عن هذه الفكرة تعبيرًا جيدًا حين يقول إننا مدعوّون لأن نكون «مرآةً مائلة: اضبطوا الزاوية، فترون أشياء تكون لولا ذلك غير مرئية لكم. ودعوتنا بوصفنا حاملي الصورة هي أن نعكس معلوماتٍ عن الله للناس من حولنا بطريقة عيشنا وتصرّفنا».[98]

98. مقتبس في Alice Mathews, Gender Roles and the People of God, الفصل 13.

لاحظوا خصوصًا المساواة الجوهرية بين الرجال والنساء، بين الذكر والأنثى. ففي عالمٍ حطّ فيه الرجال من قيمة النساء، يقدّم هذا النص كلمةً مُصحِّحة، إذ يربط قيمة الله الذي خُلقت المرأة على صورته بقيمة المرأة نفسها. فلسنا نحن الرجال وحدنا، بل كلانا مخلوقان على صورة الله، لكي نمثّل كلانا محبة الله وحكمته وقدرته أمام كل ما صنعته يداه.

وقال الله: «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض ...» وباركهم الله وقال لهم: «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض، وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض». (تكوين 1: 26-28)

هناك طريقتان نبارك بهما العالم: أن ننجب الأولاد، وأن نكون وكلاء أمناء على الأرض. فنحن معًا، ذكورًا وإناثًا، مخلوقون لنعكس شبه الله، وقد أُعطينا سلطانًا على مملكة الحيوان، وأُوكل إلينا أن نملأ الكوكب بمزيدٍ من الناس الذين سينضمّون إلينا في تحويل المزيد والمزيد من خليقة الله الصالحة إلى عدن.

لاحظوا خصوصًا أنه مع أن الذكور والإناث قد يختلفون في المظهر، وأن أحدهما قادرٌ على ولادة الأطفال وإرضاعهم والآخر غير قادر، فإن هذا النص لا يضع مجموعتين مختلفتين من التعليمات للرجال وللنساء. فليس الرجال وحدهم مَن أُعطوا السلطان بوصفهم نوّاب الله، بل النساء أيضًا، وهذا وجهٌ من وجوه إنسانيتنا الكاملة. إن عكس صورة الله الكاملة يتطلّب الرجال والنساء معًا. هذه هي بركة التحالف. ومهما يكن ما يتميّز به كل جنس بيولوجيًّا أو نفسيًّا، فالمقصود أن كلًّا منا يجلب ذاته كلها إلى الدعوة كلها التي يريدها الله لنا بوصفنا الجنس البشري. فالله لا يضع حكمًا «ذكوريًّا» معيارًا وخطةً للبشرية. كلا، بل الذكر والأنثى معًا يحملان صورة الله. «لا يقدر أن يوفي الله، الذي نحمل صورته، حقَّه إلا هذا النوع من المشاركة في تمثيل ملكه أمام العالم».[99]

بل إن فكرة الله أن يخلق اتحادًا كاملًا بين الرجل والمرأة تأتي مفاجأةً في سياق الأصحاح. ففي أيام الخلق السابقة يفرض الله النظام على عالمٍ فوضوي بالفصل بين الجلد والمياه واليابسة. بل إن النجوم نفسها تحدّد أوقاتًا متمايزة، وأيامًا وسنين، والشمس تحكم النهار، بينما القمر حارس الليل. وإذ يُعطى البشر قيادة بقية الخليقة، «يعرف» كلُّ واحد وكلُّ شيء «مكانه». ولكن عندما يصل الأمر إلى خلق الذكر والأنثى،

99. تقتبس سارة بيسي (Sarah Bessey) هذا القول عن جيه. آر. دانيال كيرك (J. R. Daniel Kirk) في «Jesus Feminist»، الفصل 5.

يتوقف الله عن رسم الحدود، ويربطهما بدلًا من ذلك معًا شريكَين كاملَين، من دون أدنى تلميح إلى أدوار أو تراتبية قائمة على الجنس. كان يمكن أن يقول الله لآدم: «أنتَ أخضِع الأرض»، ولحواء: «أنتِ ربّي الأولاد». لكنه بدلًا من ذلك يؤكّد تعاونهما الكامل بوصفهما والدَين معًا، وكاهنَين معًا، وحاكمَين معًا. وفي التاريخ اللاحق سنعيّن نحن البشر قلّةً مختارة ملوكًا وملكات، لكن تعيين الله الأصلي لكل امرأة ولكل رجل هو أن تكون ملكةً وأن يكون ملكًا.

هذا الأصحاح الافتتاحي في كتاب الله الصالح يؤطّر كل أصحاح لاحق وبقية القصة. وحتى الآن على الأقل، لا توجد أدوار للجنسين أعلنها الله. ولم يجرِ أي حديث عن سلطة أحد الجنسين على الآخر. فالرجال والنساء يحكمون أرض الله معًا — وهو تحالفٌ يصوّره سي. إس. لويس (C.S. Lewis) تصويرًا جميلًا حين يجلس إدموند وسوزان وبيتر ولوسي على عروش نارنيا الأربعة.

يقول التكاملي: «كل هذا جيدٌ جدًّا حتى الآن. انتظروا حتى نصل إلى الأصحاحين الثاني والثالث، الرواية الثانية». وفي العقود الكثيرة الأخيرة جمع التكامليون قائمةً طويلة من الحجج على قيادة آدم المزعومة لحواء قبل السقوط. وسأعرض هذه الحجج وأردّ على كلٍّ منها بالترتيب، مبيّنًا أن أيًّا منها ليس صريحًا في النص. ومع ذلك فإن هذه القائمة مقنعةٌ جدًّا لمن يسمعها أول مرة حتى إنه يظن أن القضية محسومة. وأنا أعرف قوة هذه القائمة: فبتأثيرٍ من سلسلة عظات قدّمها مارك دريسكول (Mark Driscoll)، القسّ اللاهوتي الشهير آنذاك وواعظ إحدى الكنائس الضخمة، وعظتُ أنا نفسي ذات مرة ببعض النقاط من هذه القائمة بعينها. وبوصفي معلّمًا للكتاب المقدس يدّعي أنه «يعلّم الحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق»، أنظر الآن إلى الوراء بقدرٍ غير قليل من الندم لأنني انجرفتُ وراء هذا النهج المتكلَّف في قراءة الأصحاحات الأولى من الكتاب المقدس.

في هذا الفصل سأعرض الاستنتاجات الخمسة الأبرز التي يستخدمها وعّاظ وباحثون تكامليون مختلفون في محاولتهم إثبات قيادة آدم لحواء قبل السقوط. وفي الملحق 2 أردّ على ست حجج أخرى.

الحجة الأولى: آدم جُبل أولًا ثم حواء

يحتجّ التكاملي بأنه في تكوين 2 خُلق آدم أولًا وحواء لاحقًا، وهذا يدلّ على أن الرجل هو قائد المرأة. بل إن بولس في 1 تيموثاوس 2: 13 لفت الانتباه إلى هذه الحقيقة: «لأن

آدم جُبل أولًا ثم حواء».

سأتناول كلمات بولس إلى تيموثاوس تناولًا كاملًا في الفصل 7. أما الآن فلاحظوا أن بولس لا يقول: «كان آدم مسؤولًا عن حواء»، وهذا ليس إلا تفسيرًا واحدًا لما قصده بولس. وبناءً على قراءة متأنّية لـ 1 تيموثاوس 2، سأقدّم تفسيرين آخرين في الفصل 7. وبغضّ النظر عمّا قصده بولس في 1 تيموثاوس 2، ينبغي أن يُقرأ تكوين 2 أولًا في ضوئه الخاص. وحتى لو افترضنا أن بولس استخدم تكوين 2 لدعم تبعية المرأة (وأنا متيقّن أنه لم يفعل)، فلن يعني ذلك بالضرورة أن تكوين 2 بحدّ ذاته يعلّم هذا. ويشرح دوغلاس مو (Douglas Moo) أن كتّاب العهد الجديد يستخدمون أحيانًا نصوص العهد القديم لا بوصفها قراءات نهائية أو براهين، بل بوصفها حججًا ظرفية، أو وسائل تعبير، لتدعيم النقطة التي يريدون إيصالها، أيًّا كانت.[100]

كان يمكن أن يخلق الله الجنسين في الوقت نفسه، لكنه لم يفعل. لماذا؟ هناك جوابٌ يتقدّم على غيره: جُبل آدم أولًا ثم حواء، لأن الله يريد أن يُري آدم (وأبناءه) كم هو وحيدٌ وناقصٌ وقاصرٌ على نحوٍ يائس من دون حواء (وبناتها) — خليقة الله الأخيرة. ففي تكوين 1، بعد نشأة البحار والبذور، والنجوم وكائنات البحر، والطيور والبهائم، تأتي خليقة الله المتوِّجة: «الإنسان ... ذكرًا وأنثى». ولاحظوا أن هذا الإحساس نفسه بالترقّب المتزايد يتكرّر في الأصحاح التالي، حين يهب عملُ الله الخلّاق العبقري الأخير جنّةَ عدن — بكل نباتها وحيوانها ورجلها الوحيد الموجود فيها أصلًا — امرأةً رائعة الجمال. وبالتوازي مع تصاعد الخلائق في تكوين 2 نحو ذروتها، يتعمّق شوق آدم أكثر فأكثر إلى نظيرته. فلم يكن أيٌّ من الحيوانات (وقد مرّ بها جميعًا!) رفيقَ روحه. ولكن عندما يلتقي بأعظم عطايا الله، الكائن الوحيد الذي صُنع من مادةٍ حيّة أصلًا، ينفجر بنشيد حبٍّ يبدأ بالكلمات التي تبلغ الذروة: «هذه الآن ...!» (Zōt happa’am ... !)

وهكذا فإن القراءة المباشرة لتكوين 2 لا تتدرّج من سلطة الرجل إلى خضوع المرأة، بل من نقص الإنسان إلى اتحادٍ وشراكةٍ عميقين. ومع ذلك يبدو أن التكامليين مصمّمون على أن يقرأوا في النص أكثر مما فيه. خذوا مثلًا جيمس هيرلي (James Hurley) الذي طرح في عام 1981 الحجة القائلة إن القرّاء الأوائل كانوا سيفهمون أسبقية آدم على أنها سلطته، بسبب الفكرة القديمة عن البكورية، التي يرث فيها الابن البكر في العائلة ضعف ما يرثه كلٌّ من إخوته من التركة، ويتولّى قيادة العائلة.[101] لكن آدم لم

100. D.A. Carson (ed) Hermeneutics, Authority and Canon, ص. 188
101. Man and Woman in Biblical Perspective, Zondervan, ص. 207

«يُولَد»، وحواء لم تكن أخته. ولا يطبّق الكتاب المقدس في أي موضع حقَّ البكورية على نظام الخليقة أو على العلاقة بين الزوج والزوجة.

وكانت للثقافات الأبوية الشديدة المحيطة بإسرائيل قصص خلقٍ خاصة بها، مثل قصة الخلق الرافدينية «أتراحاسيس» (Atrahasis)، التي توصف فيها تيامات (Tiamat) وتكون موجودةً قبل مردوخ (Marduk)، ومع ذلك ظلّ النظام الأبوي يُدافَع عنه في تلك الثقافة.[102] ومن الواضح أنه بالنسبة إلى القرّاء القدماء لقصص الخلق المختلفة، لم يكن لأسبقية الرجل أو المرأة في الوجود أي تأثير في افتراضاتهم عن التراتبية. ثم إن بقية سفر التكوين تُظهر الله وهو يقلب عمدًا حقَّ البكورية السائد في الثقافة القديمة، ويبارك بدلًا من ذلك المولودين لاحقًا بسلطة القيادة (يعقوب على عيسو، ويوسف على إخوته).

الحجة الثانية: المرأة خُلقت «من الرجل» و«من أجل الرجل»

يقول بولس ذلك فعلًا في 1 كورنثوس 11: 8-9. ومع أننا سنتناول 1 كورنثوس 11 بتعمّق في الفصل 6، فلنتذكّر الآن أنه يقيّد العددين 8-9 بالعددين 11-12: «غير أن الرجل ليس من دون المرأة، ولا المرأة من دون الرجل في الرب. لأنه كما أن المرأة هي من الرجل، هكذا الرجل أيضًا هو بالمرأة».

في 1 كورنثوس 11، ومع تمسّك بولس بالتكامل بين الرجل والمرأة، لا يحتجّ لتبعية النساء للرجال، بل يؤكّد الإكرام المتبادل الذي ينبغي أن يقدّمه النساء والرجال بعضهم لبعض. وهو على حقّ في ذلك — فكون حواء «من» آدم يصوّر الرجل مصدرًا للمرأة يستحق الإكرام، وكون حواء «من أجل» آدم يعني أن المرأة تكميلٌ للرجل يستحق الإكرام. والدرس للقارئ وللقارئة واحد: لقد صنع الله كل جنس ليُعزّ الآخر ويعتمد عليه اعتمادًا متبادلًا.

لقد صُنعت حواء «من أجل» آدم الذي كان قاصرًا وحده. وهذا لا يعني أن له سلطانًا عليها، كما أنني لو جئتُ بمعلّمٍ خصوصي «من أجل» ابني، لما صار هذا المعلّم تابعًا لابني.[103]

102. كما يحتجّ ريتشارد هيس (Richard Hess) في «Discovering Biblical Equality»، الفصل 4.
103. أشكر صديقي أندرو بارتليت على هذا التشبيه — فهو يستخدمه في نقدٍ لمايك وينغر (Mike Winger).

إن الخالق الذي يصنع حواء «من» آدم هو وحده صاحب السلطان عليها. فصُنع حواء لم يكن كإنجاب طفل. قد يأتي الطفل من أجسادنا بمعنى أنه «يخصّنا» ويكون في البداية تحت سلطتنا. أما نشأة حواء فمختلفة. فأول اتصالٍ لها كان بخالقها. إنها تعرف الله قبل أن تعرف نظيرها. والرجل لا يشارك في خلقها ولا يُبدي فيه رأيًا. إنه نائمٌ بينما تُكوَّن. وتُقدَّم إليه كاملة الصنع.

إن جعل الرجل صاحب سلطان عليها لأنها صُنعت من جزءٍ من جسده يعني أن على آدم أن يدعو التراب سيّده، لأنه صُنع من تراب. ثم إنه إن كان كلٌّ من الرجل والمرأة عملًا مباشرًا وشخصيًّا ومقصودًا من الخالق، فلنا أن نسأل عمّا يقوله تكوين 2 عن السبب في أنها صُنعت منه لا من التراب. ففي موضع سابق من الأصحاح لا يخلق الله آدم وحده من الأرض، بل البهائم والطيور أيضًا. فلو خلق الله حواء بالطريقة نفسها، فما الذي كان سيربطها بآدم تحديدًا؟ إن كونها صُنعت منه هو بالضبط ما استوقف آدم في حواء حين أعلن أنها عظمٌ من عظامه ولحمٌ من لحمه.

وبالحديث عن جنبه، فإن المترجمين الذين يختارون كلمة «ضلع» مخطئون على نحوٍ شبه مؤكَّد. فكل الاستعمالات الأخرى تقريبًا للكلمة العبرية tsela تشير إلى «جانب» الشيء، وعادةً إلى أحد نصفيه.[104] لقد صُنعت من جنبه. وفي عام 1157، قبيل أن يصبح رئيس أساقفة في باريس، علّق بطرس اللومباردي (Peter Lombard)، وهو من المعارضين النادرين جدًّا للنظام الأبوي القديم، على هذه الآية تعليقًا صائبًا: «لم تُؤخذ حواء من قدمَي آدم لتكون تابعةً له، ولا من رأسه لتكون سيّدته، بل من جنبه لتكون شريكته».[105]

الحجة الثالثة: «هذه تُدعى امرأة»

يحتجّ غرودم بأن آدم، حين يلتقي حواء ويقول: «هذه تُدعى "امرأةً" لأنها من امرءٍ أُخذت»، يعطيها اسمًا، وهذا مهمّ في نظر غرودم، لأنه كما يمارس الله سيادته على الخليقة بتسميتها، كذلك يُظهر آدم قيادته للحيوانات بتسميتها، ومن ثَمّ يُبرهن آدم على سلطته على المرأة بتسميتها.

ليس بهذه السرعة. صحيحٌ أن الكلمة نفسها لـ«دعا» أو «سمّى» (kara) تُستعمل لتسمية الله للأشياء في تكوين 1 («نهارًا»، «ليلًا»، «سماءً»، «أرضًا»، «بحارًا»)

104. انظروا www.bit.ly/3mH7w4E
105. Peter Lombard, The Sentences

ولتسمية آدم للبهائم والطيور (تكوين 2: 19-20). لكن تصنيف شيءٍ ما أو نوعٍ ما ليس تعبيرًا تلقائيًّا عن السلطة — إلا إذا كان قد ثبت مسبقًا أن الذي يسمّي له سلطان على ما يسمّيه.[106] فمثلًا، بعد 13 أصحاحًا فقط،[107] نجد هاجر، وهي جارية، تعطي الله اسمًا حين تكتشف شيئًا عنه. ومن المؤكد أنها ليست صاحبة سلطان على الله. وعليه فإن دعوة آدم المرأةَ «امرأةً» ليست بالضرورة دليلًا على التراتبية.

أما ما يُثبته فعلًا فهو أنه يميّز فئتها الفريدة — كائنٌ مثله. ففي اللغات القديمة كانت الأسماء أوصافًا للشيء أو الشخص أو النوع الذي يُسمّى. وكون الرجل (ish) في تكوين 2 يدعوها «امرأة» (ishsha) يجعل من غير المرجّح بوجهٍ خاص أنه يمارس سلطة. لاحظوا التشابه بين الاسمين — فآدم يعترف بأنها، بخلاف الحيوانات، كائنٌ مثله ورفيقةٌ تليق به. إن ما يُبرَز هو تشابهها، لا خضوعها. فأن تقول: «أنتِ التي تشبهينني، وأنتِ تكمّلينني» يختلف كثيرًا عن أن تقول: «أنا المسؤول عنكِ». ومن غير المرجّح أن يكون المقصود أن نلاحظ تسلسلًا قياديًّا بين الذكر والأنثى في هذا النص، ولا سيما في اللحظة نفسها التي يكون فيها آدم في نشوةٍ غامرة — فبعد أن مرّ بموكب السيرك الطويل من الحيوانات، وجد أخيرًا الواحدة المنشودة.

ثم إن قلّةً من المترجمين أصلًا يعدّون كلمة «امرأة» اسم علم. بل هي اسمٌ عام يعرفه جميع القرّاء القدماء، ومجرّد تسميةٍ للجنس الأنثوي. ولا «يسمّي» آدم امرأته حواء إلا في تكوين 3: 20 (بكلمة أخرى: vaiyokra). وكون هذه التسمية تحدث بعد السقوط يعني أننا لا نستطيع أن نستنتج منها شيئًا عن التراتبية المزعومة في العلاقات قبل السقوط.

الحجة الرابعة: «أين أنت؟»

بعد أن يأكل الزوجان من الثمرة المحرّمة، يختبئان في الجنّة، وعندئذٍ ينادي الله الرجل: «أين أنت؟» (تكوين 3: 9) ولكن لماذا يتوجّه الله إلى الرجل وحده، لا إلى المرأة أيضًا؟ يستنتج التكامليون أن الله، وهو عالمٌ بالخطية، يحاسب آدم. فبعد كل شيء، كما تقول الحجة، لم يجعل الله أحدًا مسؤولًا سوى آدم.

106. «حين يُطلق الله اسمًا على شيءٍ ما فإنه يفعل ذلك بصفته الحاكم صاحب السيادة، لكن qārā’ لا توحي في حدّ ذاتها بالتفوّق. ولذلك فمن المبالغة القول إن الإنسان، بتسميته الحيوانات، يمارس السيادة عليها. ولكي يكون ذلك واضحًا، يحتاج المرء إلى ما يوازي "أخضعوها" و"تسلّطوا" في الأصحاح 1. ... فالإنسان، بقيامه بدور المسمّي، يُظهر صفة التمييز». (Victor Hamilton, New International Commentary on the Old Testament)
107. «فدعت اسم الرب الذى تكلم معها: "أنت إيل رُئى" [أى: أنت الإله الذى يرانى]». (تكوين 16: 13)

لكن الحوار لا يجري على هذا النحو إطلاقًا. فهو لا يقول: «ماذا فعلت!» بل «أين أنت؟» ففي الأصحاحين الثاني والثالث من سفر التكوين يقدّم الكاتب الله بصورةٍ بشرية. فالله يتمشّى في الجنّة. ويصنع آدم بيديه. وهنا هو فضوليٌّ حقًّا لمعرفة لماذا لا يستطيع أن يجدهما. بالطبع يمكننا لاهوتيًّا أن نؤكّد أن الله متعالٍ ويعلم كل شيء، لكن هذه الرواية تُبرز قدرة الله على علاقةٍ حقيقية معنا، وهذا يتطلّب أن يطرح أسئلةً بقدرةٍ حقيقية على الاستفسار. بل إنه، بعد جواب آدم، يُتبع ذلك بسؤالين آخرين: «من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟» (ع 11). وتستمرّ مهمّته في تقصّي الحقائق حين يسأل حواء شيئًا (ع 13).

ويبقى السؤال: لماذا يكلّم الله آدم أولًا، وآدم وحده؟ قد يأتي الجواب من تقدير أداةٍ أدبية يستخدمها الراوي ببراعة طوال رواية الجنّة: فالله لا يكلّم آدم وحواء والشيطان إلا واحدًا تلو الآخر. وهناك ترتيبٌ محدّد لكل هذه التفاعلات في تكوين 3: الحيّة تخدع المرأة، والمرأة تُضلّ الرجل. ثم يخاطب الله الرجلَ، فيلوم المرأة، ثم المرأةَ، فتلوم الحيّة. وأخيرًا يعلن الله العواقب للحيّة، ثم للمرأة، ثم للرجل. فالترتيب هو: الحيّة، المرأة، الرجل؛ الرجل، المرأة، الحيّة؛ ثم الحيّة، المرأة، الرجل. ولو كلّم الله المرأة أولًا، أو كلّم الرجل والمرأة معًا، لاختلّت هذه الأداة الأدبية.

كما أن كون الله يستجوب آدم ثم حواء يتيح لسلسلة تبادل الاتهام أن تتوالى كقطع الدومينو — فيكشف ذلك عدم ندمهما، وكذلك أثر الخطية المدمِّر في علاقة الزوجين.

وأخيرًا، فإن أي حجة تقول إن ترتيب مَن يكلّمهم الله يدلّ على اعترافه بتسلسلٍ للسلطة تنهار من تلقاء نفسها حين نضع جولتَي تفاعل الله مع الثلاثة جنبًا إلى جنب. فبعد استجواب الله الأول للرجل الذي يشير إلى المرأة، ثم للمرأة التي تتّهم الشيطان، يعلن العواقب لكلٍّ من الثلاثة — لكنه هذه المرة يعكس الترتيب ويخاطب آدم أخيرًا. فالذين يحتجّون بأن مخاطبة الله لآدم أولًا (أو أخيرًا) تعني شيئًا عن تراتبيةٍ مزعومة، عليهم أن يفسّروا لماذا لا تعني شيئًا من هذا القبيل حين يكلّمه أيضًا أخيرًا (أو أولًا).

الحجة الخامسة: Ezer Kenegdo

«وقال الرب الإله: "ليس جيدًا أن يكون آدم وحده، فأصنع له معينًا نظيره"».[108] هذه الآية هي الحجة الأولى التي يستخدمها كثيرون للاحتجاج بأن النساء يُقصد بهن أن يكنّ

108. تكوين 2: 18

تحت قيادة الرجال بوصف ذلك جزءًا من تصميم الله الصالح والأصلي. وكما قلتُ سابقًا، فإن بيان دانفرز، الذي صاغ جون بايبر نسخته الأولى، يتضمّن عشر عبارات «عقائدية» عن دور الرجال والنساء، ويستخدم هذه الآية الوحيدة دليلًا لما لا يقلّ عن أربع من هذه العبارات. ويشرح جون بايبر فهمه للآية قائلًا: «يعلّمنا الله أن المرأة هي "معينة" الرجل بمعنى مساعدةٍ وفيّة ولائقة في حياة الجنّة».[109] وبالمثل يقول جورج نايت: «من اللائق ببساطة ... أن نؤكّد أنه إذا خُلق إنسانٌ ليكون معينًا لإنسانٍ آخر، فإن الذي ينال هذه المعونة له سلطانٌ معيّن على مَن هو معينه».[110]

لكن نايت وبايبر مخطئان في هذا الاستنتاج. بالطبع يمكن أن يكون المعين أدنى منزلة، لكنه يمكن أيضًا أن يكون مساويًا، بل أعلى منزلة. فأين يكون الأولاد من دون «معونة» أمهاتهم، أو الطلاب من دون «معونة» معلّميهم؟ لكن الأمر المدهش حقًّا هو أن هذه الكلمة لا تدلّ أبدًا على التبعية في العهد القديم. بل إن الكلمة المترجمة «معين» (بالعبرية: ezer) تُستعمل في الكتاب المقدس في الغالب عن الله حين يعين شعبه. فمن بين مواضع ورود ezer التسعة عشر في العهد القديم خارج تكوين 2، تُستعمل 16 مرة عن الله[111] في علاقته بإسرائيل بوصفه «معينًا»، وثلاث مرات للدلالة على الدعم العسكري، كالتعزيزات التي لولاها لخُسرت المعركة. وفي 18 من المواضع التسعة عشر، ليس المُعان قائدًا للمعين.[112] وفي ثمانية من هذه الاستعمالات يكون «المعين» «مخلّصًا» أو «حاميًا» أو «منقذًا». وفي المواضع الباقية تكون طبيعة المعونة تقديمَ القوة، وكثيرًا ما تكون ذات طابع عسكري. فأن تكون ezer لشخصٍ ما يعني إذن أن تسدّ ما ينقصه بتقديم قوّتك أو تدخّلك.

ولهذا السبب فإن الكلمة الإنجليزية «helper» (مُساعِد) قاصرةٌ على نحوٍ ميؤوس منه عن نقل المعنى الحقيقي لكلمة ezer. ففي أيامنا توحي فكرة «المساعد» في العادة بتابعٍ أقلّ كفاءة، كمتدرّبٍ لدى كهربائيةٍ يناولها المفكّ المناسب. لعلّها تستطيع أن تقوم بالعمل وحدها، لكن وجود مَن يساعد في المهام الصغيرة أمرٌ مفيد. كلا! بل ينبغي

109. John Piper and Wayne Grudem (eds), Recovering Biblical Manhood and Womanhood, ص. 79

110. George Knight, The New Testament Teaching on the Role Relationship of Men and Women, ص. 43

111. انظروا خروج 18: 4؛ تثنية 33: 7، 26، 29؛ مزمور 20: 2؛ 33: 20؛ 70: 5؛ 89: 19؛ 115: 9، 10، 11؛ 121: 1، 2؛ 124: 8؛ 146: 5؛ وهوشع 13: 9.

112. قد يكون الاستثناء الوحيد حزقيال 12: 14، حيث يتحدّث عن ملك الكلدانيين الذي لا يكون حوله أحدٌ يعينه في المعركة. ومع ذلك فإن ما يُشدَّد عليه في ذلك النص ليس سلطة الملك على هؤلاء المعينين، بل ضياعه التام من دونهم.

أن تُترجم Ezer «معينًا قويًّا»، أو الأفضل من ذلك «شريكًا» — كما تفعل ترجماتٌ كثيرة، مثل REB وNAB وNRSV وCEV.

فبأيّ طريقة إذن تُعين حواء آدم؟ يستخدم بعض التكامليين هذه الآية ليقولوا إنها أعانته بأن تكون أمًّا لأولاده وربّةً لبيته أيضًا. لكن هذا أبعد ما يكون عن الطريقة الأساسية التي تُعين بها آدم في تكوين 2، حيث يُعطى المعنى الأول: «ليس جيدًا أن يكون آدم وحده، فأصنع له معينًا نظيره». إنها تُعينه بإنقاذه من وحدته. إنها رفيقته. ثم إن تأمّلًا أوسع قليلًا يدلّ على أنها تشاركه في القيام بما نعرفه أصلًا من تكوين 1: فقد كُلّف حاملا الصورة كلاهما أن يعكسا الله للعالم، وأن يملآ الكوكب ويحوّلاه إلى عدن.[113] وحواء أيضًا مدعوّة لأن تشارك آدم في المهمة التي أُعطيت له، أي العناية بالجنّة.

فهي في جوهر الأمر لم تُخلق لتخدمه، بل لتخدم إلى جانبه. وإن كان هناك أي شك، فما عليكم إلا أن تتأمّلوا الكلمة المترجمة «suitable» (لائق؛ بالعبرية: kenegdo). فهي ليست مجرّد ezer له، بل هي ezer kenegdo له. فماذا تعني هذه الكلمة؟ يتبيّن أن الكلمة الإنجليزية «suitable» ترجمةٌ قاصرة للكلمة kenegdo بقدر ما أن «helper» ترجمةٌ قاصرة للكلمة ezer. إن Kenegdo عبارةٌ مركّبة معناها مثيلٌ مقابلٌ له. وتقول كاثي كيلر: «الذكر والأنثى كقطعتين من أحجية تتلاءمان معًا، لأنهما ليستا متطابقتين تمامًا ولا مختلفتين اختلافًا عشوائيًّا، بل متمايزتان على نحوٍ يجعلهما قادرتين معًا على تكوين كلٍّ متكامل».[114]

إنها شريكته وحليفته التي لا غنى عنها. فما ينقص الرجل تملكه المرأة وتقدّمه. إنها ليست فكرةً لاحقة عابرة، ولا مساعدةً اختيارية لرجلٍ مستقلّ مكتفٍ بذاته. إنها رفيقته، ومكمّلته، ونظيرته، وشريكته في العمل.

إن كان في حرب، فهي رفيقته في السلاح. وإن كان يحوّل العالم إلى عدن، فهي شريكته في العمل. وإن كان يربّي الأولاد، فهي شريكته في الوالدية.[115] هذه العلاقة بين الرجل الأول والمرأة الأولى تتحدّد بالدعم المتبادل، والتقدير المتبادل، وتقاسم كلٍّ

113. يشير بعض الباحثين إلى أن كلمة ezer تستبق المعونة القصوى التي ستقدّمها للرجال: ففي الأصحاح التالي يُقال لنا إن «نسل» حواء سيُنقذ الجنس البشري، بمن فيه جميع الرجال. وفي تلاعبٍ لفظي لافت، فإن الكلمة العبرية لـ«نسل» في تكوين 3: 15 تشبه في لفظها كلمة ezer. وبهذا المعنى هي مخلِّصته، لأنها ستلد مخلّص العالم.

114. Tim and Kathy Keller, The Meaning of Marriage, الفصل 6.

115. والحقيقة أن كونك ezer kenegdo لشخصٍ ما يعني ضمنًا أنه هو أيضًا كذلك بالنسبة إليك. فالذي يُفترض أن تُعينه هو أيضًا مثيلك المقابل لك، وشريكك في تحويل العالم إلى عدن، وحاملٌ معك للصورة، وشريكك في الوالدية، ورفيقك في السلاح، تمامًا كما أنت بالنسبة إليه، إذ يقدّم كل ما لديه من نقاط قوة تحتاج إليها هي أيضًا لاكتمالها.

منهما نقاط قوته ليكمّل الآخر، والاعتراف بما هو متشابه وما هو مختلف في أقرب صديق. لقد عرف الله أنه ليس جيدًا لنا، نحن الأبناء والإخوة والأزواج والأصدقاء، أن نكون وحدنا، فأعطانا أفضل حلفائنا حين وهبنا بناتٍ وأخواتٍ وزوجاتٍ وصديقاتٍ وزميلاتٍ في العمل. فلم نعد متروكين لنقوم بعمل الله وحدنا — في بيتنا أو كنيستنا أو عالمنا — بل صار بإمكان رجالٍ مثلي الآن أن يقفوا بسرور وتواضع وامتنان إلى جانب شريكاتهم ورفيقاتهم في السلاح. هذا هو معنى تكوين 2: 18.

هل ترون كيف يقوّض هذا التكاملية؟ إن أربعًا من العبارات «العقائدية» في بيان دانفرز تبقى متأرجحة إن كانت (كما أعتقد) قد بُنيت على تفسيرٍ معيب لتكوين 2: 18 بوصفه نصّها الاستدلالي المتكرّر. ولعلّ تكوين 2: 18 «معينٌ غير لائق» للتكاملية! وبعيدًا عن النكات التفسيرية الباهتة، أرجو أن تروا لماذا يتبيّن أن البحث عن علامات قيادة الذكر للأنثى في عالم سفر التكوين قبل السقوط ليس إلا مطاردةً لسراب.

أمثلة على الإسقاط على النص

في مجال التفسير، يجب تجنّب الإسقاط على النص (eisegesis). فلا ينبغي أن نحقن النص بمعنى لم يضعه فيه لا كاتبه البشري ولا كاتبه الإلهي. بل ينبغي أن نُحسن استخراج المعنى من النص (exegesis) وأن نميّز معناه الصحيح.

عندما قرأتُ سفر التكوين أول مرة وأنا مراهق، لم ألحظ شيئًا عن سلطة آدم على حواء حتى تكوين 3: 16. لكن ما إن سمعتُ بعض الاستنتاجات الخمسة التي تناولتُها في هذا الفصل (والستة في الملحق 2) حتى بدا لي أكثر فأكثر أن آدم كان هو المسؤول. غير أن والتر بروغمان (Walter Brueggemann) يقول في Genesis: A Bible Commentary for Teachers and Preachers، إن «مثل هذا التفسير يخون النص، وهو مثالٌ جيد على الطرق التي تتحكّم بها افتراضاتنا ... المسبقة في تفسيرنا».

ولكي أوضّح قوة الاستنتاجات المحتملة على التضليل، تخيّلوا أنني تعلّمتُ أن حواء قبل السقوط كانت أعلى من آدم وسيّدته، بناءً على الحجج التالية: 1) في تكوين 1 يسود آخِرُ مَن يُخلق، ومن ثَمّ تسود حواء التي خُلقت أخيرًا في تكوين 2. 2) تُدعى حواء «معينًا» — وهو لفظٌ يُستعمل غالبًا عن الله الذي يأتي لينقذ الضعفاء. 3) صُنع آدم من تراب، وحواء من لحم. 4) في الثقافات التي يسكن فيها الزوجان عند أهل الزوج، كانت النساء يتركن والديهن ليُطعَّمن في عائلة أزواجهن، لكن تكوين 2: 24 يقول إن الرجل

هو الذي يترك عائلته ليلتصق بامرأته. 5) يعرف الشيطان أنه لكي يبدّد الخراف عليه أن يضرب الراعي — وهذا ما يفعله. 6) إسقاط حواء يتطلّب قوةً تفوق قوة البشر، أما إسقاط آدم فلا يتطلّب إلا قليلًا من الضغط البشري. 7) يُعلن الله الحكم أولًا على حواء ثم على آدم، لأنها بوصفها القائدة هي الأكثر مسؤولية. 8) عاقبة الخطية لحواء هي أنها لن تعود تسود؛ بل الآن هو سيسود عليها.

لو كان هذا تعليم الكنيسة منذ زمن طويل، فلعلّ طوائف بأكملها كانت ستؤمن به. فتكديس الحجج وتكرارها مرةً بعد مرة يبدو أنه يُضفي عليها الشرعية. غير أن قائمة الحجج التكاملية وهذه القائمة الثُّمانية كلتيهما مثالان على الخطأ نفسه: الإسقاط على النص. فعندما نصل بين نقاطٍ لم يُقصد أن يُوصل بينها، تظهر صورةٌ مشوّهة.

«نظام الخليقة» ينطبق على الخليقة كلها

إن كان التكاملي يستخدم «نظام الخليقة» أساسًا لمنع النساء من القيادة، أو من القيادة المشتركة مع الرجال، في الكنيسة والبيت — فإن هذا ينطبق على المجتمع كله أيضًا. فالخليقة، لاهوتيًّا، تمتدّ إلى كل مجال. لم يكن آدم وحواء العائلة الأولى والكنيسة الأولى فحسب، بل كانا أيضًا أول جماعة بشرية، بذرة المجتمع نفسه. وتخلص معظم الدراسات العلمية حول 1 كورنثوس 11 و1 تيموثاوس 2 إلى أن بولس يستخدم آدم وحواء قبل السقوط نموذجًا أوليًّا للعلاقات بين الرجل والمرأة بوجهٍ عام.

ومع أنني لا أوافق على رأي جون بايبر، فإنني أُثني عليه لأنه متّسق: فالخليقة، في رأيه، تقيّد النساء في البُنى الكنسية وكذلك في البُنى المجتمعية. وهو يقتبس مؤيّدًا لاهوتيًّا آخر: «إن تكوين 2 ... يُقنعني بأن العلاقة بين الرجل والمرأة غير قابلة للانعكاس في جوهرها. ... [إن] مديرةً [لديها] سكرتيرٌ ذكر ... ستُرهق إنسانية الطرفين كليهما ... وهذا جزءٌ من ... الخليقة، حقيقةٌ مُعطاة لن يغيّرها شيء».[116]

وفي مقالٍ بعنوان «How Should Women Lead?»[117] يحتجّ بايبر بأن النساء لا يجوز لهن أن يقدن الرجال إلا «بطريقة غير شخصية». فيمكنهن أن يمارسن تأثيرًا في الرجال عن بُعد — كمخطِّطة مدن أو مهندسة معمارية تصمّم الطرق أو المباني التي يعبرها الرجال، مثلًا، لكن لا كرقيبة تدريب عسكري. ويمكنهن أن يقدن الرجال «بطريقة غير توجيهية» مثل أبيجايل التي «أقنعت داود بالعدول عن قتل نابال» «بضبطٍ للنفس

116. John Piper, Recovering Biblical Manhood and Womanhood, ص. 37
117. www.bit.ly/3LPBXQV

وخضوعٍ مدهشين». (وبالمثل، لا يجوز للمرأة أن تعلّم رجلًا العقيدة وجهًا لوجه، بل فقط من خلال كتابٍ تكتبه، وفي هذه الحالة «لا تكون ناظرةً إليّ، ولا ... توجّهني بسلطان بوصفها امرأة».[118])

وعلى المنوال نفسه يحتجّ كيفن دي يونغ (Kevin De Young) بأن تصميم الخليقة يدعم مثال قيادة الرجل في المجتمع.[119] فإن كانت القراءة التكاملية لتكوين 2-3 صحيحة، فلا نجرؤ على تشجيع بناتنا في تطلّعهن إلى أن يرتقين إلى قيادة الرجال قيادةً مباشرة وشخصية — لا في الكنيسة فحسب، بل في مكان العمل وفي الحكومة أيضًا. بل إن دي يونغ ينصح بناته، اللواتي قد يجدن أنفسهن في أي مستوى من «الهيكل التنظيمي لشركة»، بأن يقبلن أن خطة الله هي «أن يقود الذكر وأن تُعين الأنثى». فعليهن أن يعتنقن «الأنوثة» وأن يدعن الرجال «يقودون بمحبة» بينما هنّ «يُعِنّ بتواضع».[120]

يا له من قيدٍ ثقيل يفرضه هذا التفسير على خيارات بناتنا المهنية! وبارتياح أقول إنني مقتنع بأن بايبر ودي يونغ يُسيئان قراءة تكوين 2. ولو من أجل ازدهار النساء في دعواتهن المهنية فقط، فإنني أحثّ أصدقائي التكامليين على أن يأخذوا في الاعتبار على الأقل أن التراتبية بين الجنسين قد لا تكون موجودة في تكوين 2. والانتقال إلى تكوين 3 يساعدنا على أن نصل أخيرًا إلى هذه النتيجة.

تكوين النظام الأبوي

إن لم يكن النظام الأبوي جزءًا من التصميم الذي قصده الله، فلماذا مارسته كل الثقافات تقريبًا عبر التاريخ؟ يقدّم تكوين 3 جوابًا لاهوتيًّا.

118. يجيب جون بايبر عن السؤال: «Do You Use Bible Commentaries Written by Women?» (هل تستخدم تفاسير للكتاب المقدس كتبتها نساء؟) قائلًا: «هناك تدخّل هذه الظاهرة التي تُسمّى الكتاب والكتابة، الذي يضع المرأة بوصفها مؤلِّفةً بعيدًا عن نظر القارئ، ويُزيل بمعنًى ما بُعدَ شخصيتها الأنثوية».

119. أنتقد مقالة كيفن دي يونغ «Death to the Patriarchy?» هنا: www.bit.ly/3LQLN4W.

120. في كتاب «Men and Women in the Church»، الفصل 9، يكشف دي يونغ ما يعلّمه لأولاده: «إن قيادة الذكر ومعونة الأنثى هما ما ينبغي أن يحرص الرجال والنساء على إيجاده، وأن يتوقوا إلى قبوله. وحتى في مكان العمل، حيث قد يضع الهيكل التنظيمي لشركةٍ ما الرجال والنساء في كل مستوى، أعتقد أنه لا تزال هناك طريقة يعتنق بها المسيحيون الرجولة والأنوثة بطرقٍ لائقة. ... فالرجل الذي يقود بمحبة يجعل الأمر أسهل بكثير على المرأة لكي تُعين بتواضع». هذه رسالة متضاربة تُبطل فيها عبارةٌ عبارةً أخرى: 1) قد تجد النساء أنفسهن يقدن الرجال في المجتمع. 2) لكن النساء في الواقع ينبغي أن يشجّعن الرجال على القيادة. (ثم يمضي في إساءة فهمٍ خطيرة لقصة دبورة، مشيرًا إلى أنها كانت تحاول أن تنقل قيادتها إلى باراق — وسأردّ على هذا التفسير الخاطئ في الفصل 10.)

وبينما لا يزال العصير يقطر من ذقنَي آدم وحواء، يخاطب الله الحيّة والمرأة والرجل. فهو يحذّرهم من عواقب أفعالهم ويهيّئهم لها. ويقول للمرأة: «وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك».[121] فما الذي يحدث هنا؟

يقول التكامليون إن سيادة الرجل الخيّرة على امرأته قبل السقوط تتحوّل الآن، بسبب السقوط، إلى طغيان. وفي هذا الرأي تعني كلمة «يسود» (بالعبرية: mashal) هنا السيادة القمعية. فبدلًا من أن يقدّم قيادةً تقيّة، سيتسلّط عليها. وما كان صالحًا في الماضي (قيادته المُحبّة لها) قد تحوّل إلى شيء وحشي واستغلالي.

ولكن هل هذا حقًّا ما يقوله الله؟ إن ما يُقال بوضوح هو أن آدم، نتيجةً للسقوط، سيتولّى الآن القيادة على حواء (وبالامتداد، سيتولّى الرجال القيادة على النساء). لقد كشف تكوين 1: 26-28 أن مثال الله هو أن يسود الرجال جنبًا إلى جنب مع النساء. فما أشدّ ظلمة أن يسود الرجل، في الخليقة الساقطة، على المرأة!

إن الكلمة العبرية mashal لا تعني القمع، كما يحتجّ بعض التكامليين. بل تعني يملك، ويسود، ويحكم، ويكون سيّدًا، ويقود. ففي مواضع ورودها الـ81 في العهد القديم تعني ببساطة القيادة أو الحكم: في أول موضع «تحكم» الشمس على الليل والنهار؛ وفي آخر موضع «يسود» ملكٌ كاهن على شعب الله.[122] وكلا القاموسين الرئيسيين للعبرية الكتابية اللذين يحلّلان كل موضع للكلمة في العهد القديم لا يذكران لها معنًى سلبيًّا واحدًا. وما لم تقترن بلفظٍ مقيِّد مثل «بقسوة»، فإن مفهومها الدلالي الأساسي لا يتضمّن القمع أو الطغيان. يقول الله إن من علامات أن العالم قد فسد أن الرجال سيتولّون السيادة على النساء لمجرّد أنهن نساء. ومع أن سيادة الرجل المسيئة أسوأ من سيادة الرجل الخيّرة، فليست أيٌّ منهما مثالَ الله. إن مجرّد كون العلاقة بين الرجال والنساء قد صارت، نتيجةً للسقوط، علاقةً غير متكافئة قائمةً على القوة أمرٌ مروّع بما فيه الكفاية في حدّ ذاته.

وفي الآيتين التاليتين تكون العاقبة التي على آدم أن يواجهها أن الأرض نفسها التي أُخذ منها في الأصل لن تُخرج الطعام بعد الآن إلا على حساب دمه الذي يسيل من وخز الشوك وعرق جبينه. وإذا وُضعت عاقبتا حواء وآدم جنبًا إلى جنب، ظهر أنهما متوازيتان: فآدم سيكون الآن خاضعًا لمصدره (الأرض)، بينما ستكون حواء الآن خاضعةً

121. تكوين 3: 16
122. تحقّقوا بأنفسكم: www.bit.ly/3nVjfvA.

لمصدرها (آدم). هذا هو التكوين الحقيقي للنظام الأبوي — وضعٌ افتراضي كارثي يتجلّى في كل مجتمع ساقط يتولّى فيه الرجال السيطرة على النساء.

ما هو «اشتياق» حواء؟

ماذا يعني أن حواء «ستشتاق» (بالعبرية: teshuqah) إلى آدم؟ يقترح دارسو الكتاب المقدس ثلاثة خيارات رئيسية. فلنتناول كلًّا منها.

الاشتياق الطبيعي. يرى هذا الرأي أن اشتياق حواء إلى رجلها أو تعلّقها به أمرٌ طبيعي، بل مرسومٌ من الله. فالسياق في الأعداد 16-19 يوحي بأنه اشتياقٌ طبيعي، وإن كان محبَطًا: فالمرأة تأتي بالأولاد إلى العالم، وهذا أمرٌ صالح، لكن بعد السقوط هناك ألمٌ رهيب. وبالمثل يستخرج الرجل الطعام من الأرض، كما من قبل، لكن أشواكها الآن تعيقه — بل إنها ستبتلعه الآن في الموت. فكلٌّ من هذين يُنبئ بأن سعيًا وهبه الله سينحرف عن مساره. وعلى المنوال نفسه إذن، فإن اشتياقها إلى شريكها طبيعي، لكنه للأسف يُحبَط بإصراره على أن يسود عليها.

الاشتياق المُفرِط. يعدّل هذا الرأي الرأي السابق، إذ يقترح أن اشتياق المرأة إلى رجلها أو تعلّقها به، الذي وهبه الله، يصير بعد السقوط عبادةً للأوثان. فكأميرة ديزني التي تنتظر أن ينقذها حبيب قلبها الحقيقي، يقترح هذا الرأي أن هذا هو السبب في أن المرأة كثيرًا ما تتشابك اجتماعيًّا مع رجلٍ تشابكًا مَرَضيًّا، فتجد هويتها الأساسية في قبوله وذراعيه بدلًا من قبول الله وذراعيه. وهذا إمّا أن يجعلها كثيرة المطالب، وإمّا، كما اقترح كالفن، خانعة: مستسلمةً بلا صلابة لكل رغبة من رغبات زوجها.

الاشتياق المتمرّد. بحسب هذا التفسير، هي تشتاق إلى أن تتسلّط عليه، وهو يردّ بالمثل — فتبدأ حرب الجنسين. ويقول غير التكامليين الذين يتبنّون هذا الرأي إن «الاثنين اللذين ملكا يومًا كواحدٍ يحاولان [الآن] أن يسود كلٌّ منهما على الآخر»،[123] وإن كان الرجل هو الذي سيغلب. أما التكامليون فيقرأونه على أنه تمرّد حواء على سيادة آدم السابقة المرسومة من الله، التي تصير الآن طاغية. يقول غرودم: «كان التشويه أن حواء ستتمرّد الآن على سلطة زوجها. فلديها دافعٌ ونزعةٌ داخلية لمعارضة آدم، ولمقاومة قيادة آدم. إن نزعتها ورغبتها وإرادتها موجّهةٌ ضد زوجها». ولما كان غرودم

123. Victor Hamilton, New International Commentary on the Old Testament.

عضوًا في لجنة ترجمتها، فليس غريبًا أن تترجمها ESV هكذا: «سيكون اشتياقكِ ضدّ زوجكِ» (Your desire will be contrary to your husband).

فأيّ الآراء هو الصحيح؟ لقد تردّدتُ بين الأول والثاني، لكنني أشكّ جديًّا في الثالث، ولا سيما في صيغته التكاملية. وذلك لستة أسباب، أرتّبها تقريبًا بحسب وزنها تصاعديًّا:

أولًا، إن تبعات هذا التفسير خبيثةٌ على نحوٍ خفي. فهو يوحي بأن السبب في أن آدم يمارس السيطرة على حواء هو أنها لا تكفّ عن افتعال الشجار معه. وبحسب هذا الرأي، مع أن سيادته قد تكون قاسية، فهي مفهومة — إذ كيف يتعامل المرء بطريقة أخرى مع تابعٍ متمرّد؟

ثانيًا، في الآية السابقة، حيث يوصف صراعٌ على الهيمنة في الاتجاهين، يوضّح الله ذلك: «وأضع عداوةً بين [الحيّة] وبين المرأة». فإن كانت «حرب الجنسين» الموازية في الاتجاهين هي ما يوصف في تكوين 3: 16، فلماذا لا يقول الله أيضًا: «ستكون عداوةٌ بين المرأة والرجل»؟ ففي هذا النص تبدو الهيمنة سائرةً في اتجاهٍ واحد فقط.

ثالثًا، إن «الرغبة في السيطرة» ترجمةٌ مستحدثة. فالترجمات الحديثة القليلة (مثل NLT) التي اختارت «الرغبة في السيطرة» تتبع مقالةً نُشرت عام 1975 بعنوان What is Woman's Desire?[124] وتلاحظ المقالة أن الكلمة النادرة نفسها للاشتياق في تكوين 3: 16 تُستعمل مرةً أخرى في تكوين 4: 7 حين يُقال لقايين إن الخطية رابضةٌ عند الباب وهي تشتاق إليه، لكن عليه أن يسود عليها. وتخلص المقالة إلى أن الكلمة في الحالتين لا بد أن تعني «الرغبة في السيطرة». غير أن سياقَي النصّين مختلفان كثيرًا.[125] فمثلًا، في الأول تُحذَّر حواء من أن آخر سيسود عليها نتيجةً لخطيتها. وفي الثاني يُؤمَر قايين بأن يسود، لكي يمنع الخطية. ومن المجازفة أن نستخدم السياق لنقرأ في كلمةٍ ما معنًى في نصٍّ ما، ثم ننقل هذا المعنى إلى نصٍّ آخر له سياقٌ مختلف.[126]

رابعًا، إن اختيار ESV لعبارة «اشتياق ... ضدّ» ليس غريبًا وخاطئًا على الأرجح فحسب،[127] بل إنه يقلب المعنى: فالمضادّة موجودة في الرجل تجاه المرأة. فكما تُعقّد

124. انظروا www.bit.ly/3mHetTi

125. انظروا www.bit.ly/2YguUMU

126. ومع ذلك فإن واين غرودم يعرف هذا: فهو يكتب عن نصٍّ آخر أن «من الأخطاء الأساسية في التفسير» أن «يُستورَد سياق كلمةٍ مستعملة في حالةٍ ما إلى استعمال تلك الكلمة في حالةٍ أخرى». (Evangelical Feminism, 5.10)

127. إن استبدال الكلمة «for» (إلى) بالكلمة «contrary» (ضدّ) في هذه الحالة ترجمةٌ خاطئة لحرف الجرّ العبري el. وتنتقد ماري كونفوي (Mary Convoy) ومات لينش (Matt Lynch) هذا الخطأ نقدًا جيدًا — انظروا www.bit.ly/3T8fjGz و www.bit.ly/3MNDPdz

آلام الولادة إتيانها بالأولاد إلى العالم، كذلك فإن دوره المتسلّط بوصفه سيّدها يضادّ اشتياقها إليه أو تعلّقها به، سواءً كان طبيعيًّا أو وثنيًّا. والعذاب في الحالة الثانية لا ينشأ من آلام الولادة، بل من سيادته المفروضة.

خامسًا، مع أن ذلك ممكن، فمن غير المرجّح أن تعني الكلمة شيئًا عند كاتب سفر التكوين وشيئًا آخر تمامًا عند كاتب نشيد الأنشاد. فإن حاولنا التوفيق بين المعنى الأساسي لكلمة teshuqah في تكوين 4: 7 وفي نشيد الأنشاد 7: 10 — «أنا لحبيبي، وإليّ اشتياقه [teshuqah]» — نستنتج أنها تشير على الأرجح إمّا إلى اشتياقٍ طبيعي قوي وإمّا إلى تعلّقٍ أحادي التوجّه، لا إلى رغبةٍ في الهيمنة (إلا إذا ظننّا أن نشيد الأنشاد يحتفي بشكلٍ من الجنس أو الحب قائمٍ على القوة). ثم إنه، مع اختلاف سياقَي تكوين 3: 16 ونشيد الأنشاد 7: 10، فكلاهما يشير إلى علاقةٍ بين امرأة ورجل.

سادسًا، يكاد جميع المفسّرين والمترجمين في الماضي والحاضر يفهمون كلمة teshuqah بمعنى إمّا «التحوّل نحو» وإمّا «الاشتياق».[128] ويشير والتر كايزر إلى أنه قبل أن يترجمها الراهب الإيطالي بانيينو (Pagnino) عام 1528 بمعنى «الاشتياق»، اختارت جميع الترجمات القديمة المعروفة الاثنتا عشرة معنى «التحوّل نحو».[129] ومع أن تأثير بانيينو هو السائد في الترجمات الحالية، فإن باحثًا بارزًا في العبرية الكتابية، هو أندرو ماكنتوش (Andrew Macintosh)، يحتجّ بأنها تعني «المتفاني» (بمعنى توجيه الانتباه نحو شيء بتركيزٍ أحادي).[130] وهذا يُكمل الاستعارة المشؤومة في تكوين 4: 7: فالخطية، كحيوانٍ مفترس رابض، «قد ثبّتت نظرها على هدفها»، وقابيل، وقد حُذِّر الآن، عليه أن يسيطر على مَن يتربّص للهجوم عليه. وهي تنسجم كذلك مع نشيد الأنشاد — «إنه متفانٍ لي وحدي». وأما بخصوص تكوين 3: 16، فهي تدعم الرأي الثاني: «ستتحوّلين [عن الله] نحو زوجكِ».[131] وإذا قُرئت هذه النصوص على هذا النحو، فلا يدلّ أيٌّ منها على الهيمنة.

أليست هذه هي المأساة الحقيقية لقوة الخطية في العلاقات بين الرجل والمرأة؟ بحسب الرأي الثاني — وهو اختياري — حدث انقلابٌ رهيب لجمال اللقاء الأول بين الزوجين: كان الرجل قد احتفل يومًا بأنه وجد الشريكة المساوية له التي كان يبحث

128. انظروا مقالتين لمارغ موفتشكو (Marg Mowczko): www.bit.ly/3ghuPAZ و www.bit.ly/3yW4kI3
129. Hard Sayings of the Bible, ص. 98.
130. “The Meaning of Hebrew תשוקה,” Journal of Semitic Studies LXI/2 (2016), ص. 365-87.
131. تبنّت هذا الرأي كاثرين بوشنل، وهي مُرسَلة إلى الصين في مطلع القرن العشرين. فبدلًا من «الاشتياق» فضّلت أن تترجم الكلمة بـ«التحوّل». وقد ترجمت الآية هكذا: «إنكِ منصرفةٌ إلى رجلكِ، وهو يسود عليكِ». قبل السقوط كان آدم وحواء كلاهما خاضعَين لسلطان الله. وبعد السقوط، وبسبب الخطية، صارت النساء يتحوّلن أولًا إلى أزواجهن. (المصدر: Kristen Du Mez, A New Gospel for Women, ص. 121)

عنها، بوصفها عطية الله، أما الآن فستتألّم هي إذ تجد سيّدًا في الرجل الذي تتطلّع إليه بديلًا عن الله. فبدلًا من أن يحكم الرجل الساقط مع شريكته في حمل الصورة (تكوين 1)، ويتعاون مع نظيرته المساوية له (تكوين 2)، سيتسلّط الآن على المرأة التي تتوق إليه بوصفه اكتمالها (تكوين 3: 16). وإذ أفسدتهما الخطية، سيخسر كلٌّ من المرأة والرجل شيئًا من الشراكة الحميمة التي قصدها الله في الأصل.

سؤالٌ أخير عن تكوين 3: 16. هل هو لعنة، أم أمرٌ مفروض، أم وصف؟ إنه ليس لعنة. فالحيّة والأرض ملعونتان بسبب خطية البشر، أما الرجل والمرأة فلا. وهو ليس أمرًا مفروضًا أيضًا. فالله لا يأمر الرجال بأن يظلموا النساء، ولا النساء بأن يتألّمن في الولادة. بل هو وصف. فنتيجةً لانهيار العلاقة بين البشر والله في الجنّة، هذا تشويهٌ محدّد سيصير شائعًا في العلاقات البشرية.

ومهما يكن الفشل في العلاقة بين الجنسين رهيبًا، فإنه يمكن مقاومته، بل يجب. ينبغي أن نفعل ما في وسعنا لإزالة الهيمنة، والشعور الساحق بالدونية، والتفوّق السام، والوثنية من علاقاتنا، بالقدر نفسه الذي نسعى به إلى جعل ولادة الأطفال أقلّ خطرًا وألمًا، وكما نسمّد الأرض ونقتلع الأعشاب الضارة حين نفلحها.

الرجل والمرأة

في النهاية سيتطلّب الأمر «نسل» حواء لاستعادة العلاقات بين الرجل والمرأة. وسنصل إلى ذلك في الفصل 5. وحتى ذلك الحين، لا ننسَ مثال الله: ففي معركتنا ضد التراتبية بين الجنسين لدينا مثالٌ مُلهم نطمح إليه: اللقاء الأول الرائع بين آدم وحواء. ويلاحظ ريتشارد ديفيدسون (Richard Davidson) في دراسته الضخمة عن الجنسين والجنسانية في العهد القديم:

إن خلق الرجل في بداية الرواية وخلق المرأة في نهايتها يوازن أحدهما الآخر توازنًا تامًّا. فالراوي يستخدم بالضبط العدد نفسه من الكلمات (في العبرية) لوصف خلق الرجل ولوصف خلق المرأة. والحركة في تكوين 2 ليست من الأعلى إلى الأدنى، أو من القيادة إلى الخضوع، بل من النقص إلى الكمال. فالمرأة تُخلق بوصفها الذروة، وتتويج القصة، ومساويةً لآدم مساواةً تامة.[132]

132. Richard Davidson, Flame of Yahweh, الفصل 2.

لا يُعطى الرجل في أي موضع من تكوين 2 سلطانًا عليها، ولا يُقال له أن يقودها، ولا يُقال لها أن تطيعه. وما هو واضح أنه بحلول نهاية تكوين 2 صارت له شريكةٌ تخلّصه من وحدته وتتعاون معه في الدعوة نفسها التي كان قد تلقّاها من قبل.

تأمّلوا الخاتمة اللاهوتية في نهاية تكوين 2. لو كانت القراءة التكاملية لهذا الأصحاح صحيحة، لكان الأرجح أن تقول: «لذلك يكون الرجل ... صاحب الأمر على امرأته». لكن الخلاصة بدلًا من ذلك هي تلك التي تُقتبس في كل عرسٍ مسيحي: «لذلك يترك الرجل ... ويلتصق بامرأته ويكونان جسدًا واحدًا». فكلمتا «يلتصق» و«جسدًا واحدًا» تؤكّدان أن الأصحاح يعلّم التبادلية والاكتمال، لا السيادة أو الرئاسة.

ويبدو أن بولس يؤكّد هذه البصيرة: فبعد أن أشار إلى تكوين 2: 24 في 1 كورنثوس 6، وبعد ذلك ببضع آيات فقط، في 1 كورنثوس 7، يحدّد قائلًا: «ليس للمرأة تسلّطٌ على جسدها، بل للرجل. ... وكذلك الرجل أيضًا ليس له تسلّطٌ على جسده، بل للمرأة». فبحسب قراءة بولس لتكوين 2، بما أن الزوجين جسدٌ واحد، فلكليهما الحقّ نفسه في هذا الجسد الواحد والسلطان نفسه عليه.[133]

وهكذا فإن تكوين 2 لا يعلّم أن القيادة متأصّلة في الذكورة، وأن الخضوع متأصّل في الأنوثة. بل إن ما يؤكّده هو الوحدة والتبادلية والمساواة بين الرجال والنساء — لا التراتبية.

إن أول ذكرٍ لأي تبعية للنساء للرجال يرد في تكوين 3: 16، حين يُقال إن الرجل «يسود» على المرأة نتيجةً للخطية. لو كان الله قد خطّط لأن يقود الرجالُ النساءَ، أفما كان سيُدرج ذلك في هذه النصوص، بنصف الوضوح على الأقل الذي يمنحه للموضعين الآخرين اللذين يذكران السلطة: سلطة البشرية غير الساقطة الخيّرة على الخليقة، وسلطة الرجال الساقطين المتسلّطة على النساء؟ إن غياب أي شيء آخر عن السلطة يوضّح أنه، بحسب مثال الله، الله وحده له السلطان على البشر؛ وللرجال والنساء سلطانٌ مشترك وهبه الله ليخدم بعضهم بعضًا لا ليستغلّ بعضهم بعضًا، وليخدموا، في شراكةٍ بعضهم مع بعض، بقية الخليقة.

أن نكفّ عن الرؤية، ثم أن نرى

عندما نبدأ في أن نرى شيئًا غير موجود في نصٍّ كتابي، نحتاج إلى معونة الله لكي نكفّ عن رؤيته. ونظرًا إلى تعليم الكنيسة التاريخي أن «النساء تابعات لأنهن أدنى»، فإن

133. أشكر أندرو بارتليت الذي ساعدني، في تواصلٍ مباشر معي، على رؤية هذه الصلة بين 1 كورنثوس 6: 16 و7: 4.

معظم المفسّرين القدماء قرأوا دونيةَ المرأة في روايات ما قبل السقوط هذه، لكي يثبّتوا رفضهم لقيادة المرأة في الكنيسة والمجتمع. أما نحن فنعرف الآن، من موقعنا المميّز، أن الأجيال السابقة كانت تقرأ النص فحسب بعيون ثقافاتها الأبوية الكارهة للنساء. فبدلًا من أن يقفوا في وجه الثقافة السائدة من حولهم، استسلموا لها.

ومع ذلك، بنعمة الله، لم يرَ أبُ الكنيسة يوحنا الذهبي الفم[134] وحده تكوين 2-3 بوضوح كافٍ، بل لوثر أيضًا، مؤسّس البروتستانتية. فعلى الرغم من نظرة لوثر المتدنّية إلى النساء عمومًا، استطاع مع مرور الوقت أن «يكفّ عن رؤية» ما لم يكن في تكوين 2-3، وأن يقدّر تمامًا ما كان فيه. ففي عام 1523، وكان لا يزال شابًّا غير متزوج، وعظ في سفر التكوين، متقبّلًا من دون تساؤل الرأي القديم الراسخ بأن حواء خُلقت للخضوع لزوجها. وفسّر تسمية آدم لحواء علامةً على اعتمادها عليه. وكتب عنها بوصفها «امرأةً صغيرة ضعيفة» يطغى عليها عقل زوجها، وألقى باللوم في سقوط آدم على قابليتها للانخداع ببدعة الشيطان.

ولكن حين صار أكبر سنًّا بكثير ومتزوجًا، وعظ في النص نفسه مرةً أخرى. وفي هذه المرة رآه على نحوٍ مختلف. وكما يلخّص أحد المؤرّخين رسالته: «لقد صارت حواء امرأةً بطلة، وفيلسوفةً بارعة، تؤدّي دورًا مساويًا في البيت، وتحكم الخليقة في شراكةٍ متساوية مع زوجها. وفي تأكيده الطرقَ التي كانت فيها حواء مساويةً لآدم قبل السقوط، ذهبت تأمّلات لوثر أبعد من تأمّلات أيٍّ من أسلافه اللاهوتيين».[135]

وبنعمة الله، فإن ما استطاع لوثر، الغارق حتى عنقه في ثقافته الكارهة للنساء، أن يلمحه في تكوين 2، قد مُنحتُ أنا أيضًا أن أراه. ففي كثير من رحلاتي اللاهوتية جاءت التحسينات في فهمي للكتاب المقدس حين اعترفتُ بأنني كنت أقرأ في الكتاب المقدس شيئًا لم يكن فيه أصلًا.

أتذكّر بوضوح الليلة التي رأيتُ فيها أخيرًا التعليم الفعلي لتكوين 2. كنتُ متيقّنًا جدًّا من أن قيادة الرجل كانت موجودة في الجنّة غير الساقطة، لكنني (للمرة الأولى) كنتُ منفتحًا على الأقل على سماع لماذا قد لا يكون الأمر كذلك. وإذ كنتُ قد بدأتُ أكتب جزءًا من الورقة البحثية لكنيستنا في هذا الموضوع، شرعتُ في إعداد جدولٍ بالحجج

134. فمثلًا يلاحظ يوحنا الذهبي الفم في تكوين 2 أن «حواء لم تُخضَع حالما صُنعت؛ ولا حين أتى الله بها إلى الرجل سمعت هي شيئًا كهذا من الله، ولا قال الرجل لها كلمةً كهذه: بل قال إنها عظمٌ من عظامه ولحمٌ من لحمه». (1 Corinthians, Homily 26)

135. Mickey Mattox, Defender of the Most Holy Matriarchs: Martin Luther's Interpretation of the Women of Genesis, ص. 252-53 (يستشهد به ديفيدسون في Flame of Yahweh, الفصل 2، الحاشية 23.)

المؤيّدة والمعارضة — غير مستعدٍّ على الإطلاق لما حدث بعد ذلك. فبينما كنتُ أتأمّل كل حجة، بدأ إدراكٌ يبزغ ويتشكّل، فهتفتُ بصوتٍ عالٍ: «يا إلهي — إنه ليس هنا. حواء مساويةٌ لآدم في كل شيء!»[136] وعندئذٍ مرّت زوجتي بجانبي، وقد حيّرها قليلًا انفجاري المفاجئ. أردتُ أن أشرح لها ما كنتُ أختبره، وما كنتُ قد رأيتُه لتوّي في الكتاب المقدس — أو بالأحرى ما كففتُ عن رؤيته — لكن قبل أن تخرج الكلمات من فمي، انهمرت الدموع على وجنتيّ. فقد كانت تقف أمامي امرأةٌ رأيتُها مراتٍ لا تُحصى، ومع ذلك كنتُ أراها كأنني أراها للمرة الأولى. «أنتِ ezer kenegdo لي — معينتي القوية ونظيرتي الكاملة. أنتِ عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي»، قلتُ لها. «أنتِ قويةٌ حيث أنا ضعيف». وإذ أُزيلت من عين ذهني خشبةٌ من سوء الفهم لمثال الله، لمحتُ زوجتي كما يراها الله.

هل أُغامر هنا بتفسيراتٍ شاذّة لتكوين 1-2 تبنّاها يوحنا الذهبي الفم ولوثر والآن أنا على نحوٍ غير مشروع؟ كلا على الإطلاق — ففي ما لعلّه أكثر الكتب رصانةً، من تأليف باحثٍ محافظ لاهوتيًّا، عن الجنسين والجنسانية في العهد القديم، يتبنّى ريتشارد ديفيدسون الرأي نفسه تمامًا الذي قدّمتُه في هذا الفصل، ويستشهد بخمسين دراسة علمية كبرى عن تكوين 2 تصل إلى النتيجة نفسها.[137] بل إن «معظم المفسّرين يرفضون الآن أن يكون تكوين 1-2 يُخضع المرأة قبل السقوط».[138] فمثلًا، يصف The Book of Genesis: New International Commentary On The Old Testament علاقة الزوجين حتى تكوين 3: 16 بأنها «مُلكُ أندادٍ متساوين ...» «يحكمان كواحد». وبالمثل يرى Genesis: NIV Application Commentary أن «تكوين 2 ... لا يقدّم أي تأسيسٍ لأدوار الجنسين أو صياغةٍ لها. وبغضّ النظر عن الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها عن المسألة ككل بعد النظر في نصوص العهد الجديد، فإن هذا النص معنيٌّ بأدوار البشر، لا بأدوار الجنسين. فالرجل والمرأة يخدمان معًا».

بل إن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وهي أكبر قسمٍ من الكنيسة في العالم، تعلّم الآن المساواة «الجوهرية» و«الأساسية» بين الجنسين، وتنسب تبعية النساء للرجال إلى السقوط بالكامل. ويقول البابا يوحنا بولس الثاني: «إن التغلّب على هذا الإرث

136. لقد أذهلني تمامًا كيف أمكن أن تُكتب وثيقةٌ مثل تكوين 1-3 في عالمٍ أبويٍّ إلى هذا الحدّ الجذري، ومع ذلك تكون خاليةً من النظام الأبوي. قارنوها مثلًا بقصة النشأة «أتراحاسيس» (Atrahasis) من حقبةٍ زمنية مماثلة، التي تنشأ فيها الخليقة حين يمزّق الإلهُ الذكر مردوخ الإلهةَ تيامات إربًا، فتصير أجزاء جسدها كوننا المادي.
137. منذ أن كتب كتابه «Flame of Yahweh» ازداد هذا العدد. وخارج كليات الكتاب المقدس التكاملية، هذا هو الإجماع المقبول لدى معظم باحثي العهد القديم.
138. كما يقول كيفن جايلز في What the Bible Actually Teaches on Women، الفصل 2.

الشرير»، الذي يتحدّث عنه تكوين 3: 16، «هو مهمة كل مسيحي».[139] ليس النظام الأبوي تعويذةَ حقّ؛ بل انزلق إلى عنق البشرية حين تسلّل الشرير أول مرة إلى وسطنا. ولكن الحمد لله الذي، بعد السقوط مباشرة، يعد بأن نسلًا من حواء[140] سيأتي يومًا ليحرّر شعب الله من النير، فيزيل قيود الظلم ويفكّكها، تلك القيود التي تدمّر العلاقات، وتكبّل كثيرين، وتشوّه طريقة رؤيتنا بعضنا لبعض.

139. John Paul II, Mulieris Dignitatem, ص. 36–41
140. انظروا تكوين 3: 15.



5

فداء العلاقة بين الرجل والمرأة

«من دون أيّ ضجّة أو دعاية، أنهى يسوع لعنة السقوط، وأعاد إلى المرأة ما فقدته جزئيًّا من نُبلها، واسترجع لجماعة ملكوته الجديدة بركة الخليقة الأصلية: المساواة بين الجنسين.» جون ستوت (John Stott)[141]

أعيش في كيب تاون، وهي مدينة ساحلية كبرى على الطرف الجنوبي لأفريقيا. تخيّلوا الآن لو أنّ السفن كان عليها أن تحدّد اتجاهها لحظة مغادرتها ميناء المدينة، ثمّ لا يُسمح لها بعد ذلك بتغيير مسارها؛ لكانت مُلزَمة بأن تصل إلى حيثما يقودها اتجاهها الأول في نهاية المطاف. وفارقُ بضع درجات فقط قد يعني الفرق بين الوصول إلى ريو دي جانيرو أو إلى ميامي.

في الفصل السابق قارنّا بين القراءة التكاملية والقراءة التبادلية لسفر التكوين 2 و3، واكتشفنا أنّ التكامليين يفترضون أنّ علاقة السلطة والخضوع بين الرجل والمرأة كانت دائمًا جزءًا من خليقة الله الصالحة، بينما يرى أنصار التبادلية أنّ هذا النوع من التراتبية لم يظهر إلا بعد السقوط. وكما تدركون بلا شكّ، فهاتان نقطتا انطلاق مختلفتان جدًّا. فبحسب ما تختارون أن تنحازوا إليه، ستتأثّر تأثّرًا كبيرًا طريقتكم كلّها في رؤية القصة الكبرى للكتاب المقدس، بل والنتائج التي ستصلون إليها في النهاية. إن أخطأتم الاتجاه الأول في العلاقة بين الرجل والمرأة، فلن ينتهي بكم المطاف في ريو فحسب، بل في القطب الجنوبي (مجازيًّا بالطبع)! وهذا هو المأساوي جدًّا (في رأيي) في التكاملية: ما يحزن الله عليه، تجعله قطاعات واسعة من الكنيسة مثالًا أعلى.

كيف يمكننا أن نتيقّن من أنّ خطة الله الصالحة للعلاقة بين الرجل والمرأة هي أن نتّجه شمالًا نحو التبادلية، لا جنوبًا نحو التكاملية؟ لحسن الحظ، لدينا الكثير غير ذلك في

141. John Stott, Issues Facing Christians Today, الفصل 13.

القصة الكتابية، ولا سيّما حين يظهر الفداء بكامل صورته، ممّا يؤكّد هذا الاتجاه الأول.

حين يتعلّق الأمر باستخلاص اللاهوت من الكتاب المقدس، فليس المهمّ أساسًا عدد النصوص التي تتناول موضوعًا ما، بقدر ما هو تحديد الأجزاء الكبرى التي يقوم عليها البناء في الكتاب المقدس. فعلى سبيل المثال، اكتشفنا من قبل كم هي حاسمة وغنية باللاهوت الأصحاحات الثلاثة الأولى من الكتاب المقدس. وعلى نحو مماثل، حين يتعلّق الأمر باستخلاص لاهوت شامل عن الرجل والمرأة في العهد الجديد، فهناك بضعة أقسام كبرى أخرى لها ثقل هائل.

وأقترح أنّ هذه الأقسام تشمل: معاملة يسوع للنساء؛ وانسكاب الروح على النساء يوم الخمسين؛ ورؤية بولس للبشرية المفديّة في غلاطية 3: 28؛ ومكانة النساء في الخليقة الجديدة.

صديقٌ للنساء

في الفصل 11 سندرس خدمة النساء في الأناجيل. أمّا الآن فلننظر تحديدًا في الطريقة التي عامل بها يسوع النساء. فمن أكثر جوانب خدمته على الأرض إدهاشًا الطريقةُ التي قلب بها التراتبيات بين الجنسين وقوّض بها التمييز ضدّ المرأة. بل إنّ الكرامة الجذرية التي منحها للنساء لم يكن لها سابقة لدى أيّ قائد ديني في العالم القديم. لي صديقة آمنت حين اكتشفت هذا عن يسوع. كانت نسوية راديكالية تدرس النظام الأبوي عبر التاريخ، وكان يثير فضولها كيف روّج كلّ واحد من مؤسّسي الأديان لهيمنة الذكور — فإذا بها تفغر فاها دهشةً حين اكتشفت في الأناجيل أنّ يسوع هو أوّل محرّر بارز للنساء في التاريخ. مَن هذا الرجل؟ تساءلت. وهي الآن ترنّم له إلى جانبي في الكنيسة، وقد أحبّته حبًّا عميقًا.

قارنوا معاملة يسوع للنساء بالرابي أليعازر (Eliezer) من القرن الأول، الذي حذّر قائلًا: «الأَولى أن تُحرق كلمات التوراة من أن تُسلَّم إلى امرأة. ومَن يعلّم ابنته التوراة فكأنّما يعلّمها الفجور.»[142] قد نظنّ، نحن المعاصرين، أنّ يسوع كان لطيفًا مع النساء فحسب، لكنّه كان أكثر من ذلك بكثير — كان ثوريًّا. فبسبب قراءة خاطئة لتلك الأصحاحات الأولى من سفر التكوين، مقرونةً بالنظام الأبوي الذي تلاها وغلّف كلّ زاوية من العالم المعروف، كان الكتبة والفرّيسيون يحمّلون النساء إلى حدّ كبير مسؤولية الشرّ في

142. المشناه، سوطاه 3: 4، 19a؛ 21b

العالم، ويعزلونهنّ عزلًا صارمًا عن كثير من الحياة الاجتماعية والدينية التي كان أزواجهنّ وآباؤهنّ وإخوتهنّ يشاركون فيها بحرية. وقد شارك ابنُ سيراخ (Ben Sirach) أليعازرَ في احتقاره: «لا تجلس بين النساء؛ فإنّه من الثياب يخرج العثّ، ومن المرأة يخرج خبثُ المرأة. خبثُ الرجل خيرٌ من لطف المرأة؛ والنساء يجلبن الخزي والعار.»[143]

أمّا في الأناجيل فالنساء من أقرب أصدقاء يسوع وأتباعه. ففي جولة خدمة واحدة على الأقل، ترافقه يونّا وسوسنّة ومريم المجدلية إلى جانب تلاميذه الاثني عشر. وكان قد حرّر هذه الأخيرة من حياة مضطربة. وهي، المذكورة ما لا يقلّ عن 14 مرة في الأناجيل، أوّل شخص يلتقي يسوع بعد قيامته. وحين يلقاها يوم قيامته، تسمع أوّل كلمة تخرج من فم الرب القائم: «يا امرأة ...» في البداية لا تكون متأكّدة أنّه هو، لكن حين ينطق باسمها، بطريقة لا يقدر أحد غيره أن ينطقه بها، تدرك أنّ الموت ليس النهاية، وأنّها لا بدّ أن تكون من أقرب أصدقائه.

كان يسوع الناصري رائدًا في إكرام النساء. ففي الأناجيل، وكما فعل إيليا النبي من قبل، يقيم من الموت الابنَ الوحيد لأرملة، مدركًا انكسارها لفقدان ابنها، وما سيلحق بها بعد ذلك من هشاشة في المجتمع.[144] وفي مناسبة أخرى يلتقي امرأةً تعاني منذ 12 سنة نزيفًا مزمنًا. وفي مخالفة لشرائع الطهارة التي تعدّها نجسة، تلمس سرًّا هُدب ثوبه. فيتجاهل يسوع الاعتقاد بأنّ هذا يجعله الآن «نجسًا»، بل يمدح الإيمان الشجاع الذي تجرّأ على أن يمتدّ إليه ويستمدّ منه قوة الشفاء. ثمّ، في ذلك اليوم الأشدّ هولًا، يوم الجمعة، يطلب يسوع من أعزّ أصدقائه أن يعتني بأمّه، في اللحظة نفسها التي يجوز فيها سيفٌ في قلبها بإعدام ابنها.

وعلى خلاف الرابيين، الذين تجنّبوا حتى ذكر النساء، يملأ يسوع عظاته بشخصيات نسائية. ففي ما بدا فضيحةً في زمانه، يشبّه فرح الله بخلاصنا بفرح أرملة تجد درهمها المفقود.[145] وفي موضع آخر يؤكّد أنّ الجرأة التي نحتاج إليها في الصلاة هي جرأة أرملة تسعى وراء العدالة.[146]

ويُبرز أيضًا نساءً معيّنات كنّ مثالًا للاستجابة الصحيحة لرسالته. فهو يستخدم فعل المحبة الذي قامت به زانية غُفر لها ليُخجل سلوك فرّيسيّ لم يُحسن الضيافة.[147]

143. يشوع بن سيراخ 42: 12-14. ويقول ابن سيراخ في موضع آخر إنّ الابنة خسارة كاملة ومصدر محتمل دائم للعار.
144. لوقا 7: 11-15
145. لوقا 15: 3-10
146. لوقا 18: 1-8
147. لوقا 7: 36-50

ويلفت النظر إلى سخاء أرملة فقيرة[148] ويُثني على أمّهات يأتين بأولادهنّ ليباركهم، على الرغم من ردّة فعل تلاميذه الذين نفد صبرهم.

بل إنّ يسوع يتحدّى الأعراف والشرائع التي لم يكن أحد يشكّك فيها، والتي تركت النساء عرضةً لأهواء الرجال. تحاول جماعة دينية متشدّدة أن توقع يسوع: «هل يحلّ للرجل أن يطلّق امرأته لكلّ سبب؟» فيجيب يسوع على هذا الناموس المنحاز إلى أحد الجنسين بالاستشهاد بقصد الله الأصلي من الزواج: «يلتصق الرجل بامرأته، ويصيران جسدًا واحدًا.» فيسألونه لماذا أوصى موسى بأن يعطي الرجلُ امرأته كتابَ طلاق ويصرفها. فيأتي جواب يسوع كالصاعقة: «إنّ موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلّقوا نساءكم. ولكن من البدء لم يكن هكذا.»[149] وفي وضعٍ كانت فيه الزوجات تُعَدّ ملكًا للرجل، وكان في وسع الرجال أن يطلّقوا زوجاتهم لأنهنّ أفسدن العشاء أو لأنهنّ لسن جميلات بما يكفي، وكانت المطلّقات يلقين في المجتمع مصيرًا قاسيًا، يتحدّى يسوع الرجال أن يروا زوجاتهم كما يراهنّ هو: نفوسًا لها قيمة أصيلة لا تنفصل عنها ولا يمكن تعويضها. فما كانت حواء لآدم قبل السقوط — نظيرةً عزيزة ورفيقةً مساوية له — ينبغي أن تكون زوجاتهم لهم. وفي هذا كلّه لا يسمح يسوع للثقافة الساقطة التي يعيشون فيها بأن تغيّر تعريف الزواج، ولا بأن تمنح الرجال امتيازات خاصة تخوّلهم ببساطة أن يتخلّصوا من ezer kenegdos لهم.

النساء بشرٌ أيضًا

النساء لسن في جوهرهنّ «آخَر» مختلفًا عن الرجال. فهنّ يشاركن الرجال إنسانيتهم الكاملة. ولا ينبغي أن يُعامَلن معاملة خاصة، بقدر ما ينبغي أن يُعامَلن معاملة إنسانية. وقد جسّد يسوع ذلك بتقليله من أيّ ضجّة حين كان يتعامل مع النساء. ففي الأناجيل النساء موجودات ببساطة. أحيانًا تُذكر أسماؤهنّ، وأحيانًا يكنّ في الخلفية. أحيانًا يأخذن، وأحيانًا أخرى يعطين. ويسوع يعاملهنّ مساوياتٍ للرجال. والمذهل بالنسبة إلى زمانه أنّه لا يوجد موضع في الأناجيل يخاطب فيه يسوع الرجال بوصفهم ذكورًا أو النساء بوصفهنّ إناثًا. ولا يقدّم أيّ تعليم على الإطلاق عن أدوار الجنسين أو عن البقاء ضمن الدوائر المناسبة لكلّ جنس. تقول الكاتبة الكندية سارة بيسي:

148. مرقس 12: 41-44
149. متى 19: 1-8

في سجلّات الأناجيل كلّها رأيتُ كيف أنّ يسوع لم يعامل النساء معاملة مختلفة عن الرجال، وقد أعجبني ذلك. لم نكن مدلّلاتٍ إلى حدٍّ يفوق الوصف، ولا رقيقاتٍ كالخزف الصيني الفاخر. لم نُمنح إعفاءً مجانيًّا، ولم يُبدِ أحدٌ قلقًا رقيقًا بشأن قدرتنا على الفهم أو المساهمة أو العمل. لم تكن النساء أرقّ أو أضعف من أن يبكّتهنّ الروح القدس، ولا أكثر تلاعبًا وميلًا إلى الغيرة وانعدام الأمان والخداع من أن يدحرن مملكة الظلمة. لم يكن يسوع يعامل أحدًا بفوقية، ولم يكن ينظر إلى أحد من علٍ.[150]

وتردّد بيسي بعض ما شعرت به دوروثي سايرز (Dorothy Sayers)، وهي باحثة من أكسفورد:

ربّما لا عجب في أنّ النساء كنّ أوّل الحاضرين عند المذود وآخرهم عند الصليب. فهنّ لم يعرفن قطّ رجلًا مثل هذا الرجل — لم يكن هناك قطّ آخر مثله. نبيّ ومعلّم لم يتذمّر منهنّ أبدًا، ولم يتملّقهنّ أو يستدرجهنّ أو يعاملهنّ بفوقية ... أخذ أسئلتهنّ وحججهنّ بجدّية، ولم يرسم لهنّ قطّ دائرتهنّ، ولم يحثّهنّ قطّ على أن يكنّ أنثويّات، ولم يسخر منهنّ لكونهنّ إناثًا؛ لم تكن له مصلحة خاصة يسعى إليها، ولا كرامة ذكورية قلقة يدافع عنها؛ أخذهنّ كما وجدهنّ، وكان خاليًا تمامًا من الانشغال بنفسه.[151]

ورواة الأناجيل لا يكتفون بجعل حضور النساء في المجتمع والخدمة أمرًا طبيعيًّا، بل يقدّمونهنّ أيضًا في أفضل صورة ممكنة. خذوا إنجيل يوحنا مثالًا. حين نستعرض تعامل يسوع مع النساء في أصحاحاته، نجد امرأة واحدة (مرثا) خاب أملها فيه، لكنّ معاملته لها لطيفة جدًّا، وكما سنرى في الفصل 11، يقابل انكسار قلبها بعد ذلك بأعلى إكرام. وعلى خلاف المجتمع الغارق في ذمّ النساء ولومهنّ، لا تظهر أيّ امرأة تقاوم مبادرة يسوع، أو تخفق في الإيمان، أو تهجره أو تخونه. قارنوا ذلك بالطريقة التي يعرض بها يوحنا رياء تلاميذ يسوع الذكور، وغرورهم، وتقلّبهم، وبلادة فهمهم، وعدم إيمانهم المتعمَّد، وشرّهم المستحكم.[152]

أو خذوا إنجيل لوقا. هناك 27 موضعًا في سيرة يسوع التي كتبها لوقا يُذكر فيها الرجال والنساء مقترنين، بدءًا بالملاك الذي يظهر للرجل زكريا ثمّ لمريم، وصولًا إلى حضور رجال ونساء يشهدون موت يسوع وقيامته ويتفاعلون معهما. وإذا أخذنا في الحسبان الجهد الكبير الذي يبذله لوقا في بناء تحفته، فسيكون من المؤسف أن تفوتنا نقطته:

150. Sarah Bessey, Jesus Feminist, الفصل 1.
151. Dorothy Sayers, Are Women Human? Essays on the Role of Women in Society, ص. 68.
152. انظروا يوحنا 12: 1-5؛ 13: 2، 27-40، 37-38؛ 9: 24-35؛ و16: 18، 31-32.

مع مجيء يسوع تأتي الكرامة الكاملة للنساء. وربّما نتلقّى هذه النقطة على أفضل وجه حين نتأمّل معاملة يسوع لثلاث نساء على وجه الخصوص:

المرأة عند البئر. في عالم كان يُرى فيه تعليم اللاهوت لامرأة أمرًا ليس غير ضروري فحسب، بل غير أخلاقي أيضًا، نجد يسوع في يوحنا 4 يخطّط رحلته عمدًا لتتقاطع طريقه مع امرأة منبوذة عند بئر في السامرة. ولأنّ الرابيين لم يكونوا يكلّمون علنًا النساء من عائلاتهم، فضلًا عن الغريبات، تتحيّر المرأة من طلبه الصريح للمساعدة ومن تعامله معها. وسرعان ما يقود هذا إلى حوار شخصي ولاهوتي عن تاريخ علاقات هذه المرأة وعن حاجتها إلى الله. وبوصفها امرأة أساء إليها رجال كثيرون، تكشف قصتها أنّ رجلًا لم يعاملها بهذه الطريقة من قبل قطّ. وفي حوارهما، وهو أطول حوار مسجَّل بين يسوع وأيّ فرد، يتناول أسئلتها اللاهوتية بجدّية. وحين يقول لها أن تذهب وتدعو زوجها، نلاحظ تجاهله الخفيّ، كما يبدو، لرأي ذلك الزمان القائل بأنّ الزوجة ينبغي أن تتبع زوجها لا أن تقوده. ونتيجة هذا الحوار أنّها تصبح أوّل شخص في إنجيل يوحنا يكتشف أنّ يسوع هو المسيّا، وأوّل مبشّرة له على نطاق واسع.

المرأة التي أُمسكت في زنا. يطرح جمعٌ من الرجال عند قدمَي يسوع امرأةً أُمسكت في الفراش مع رجل ليس زوجها. ومع أنّ ناموس موسى كان يُدين الرجل الزاني أيضًا، فإنّه غائب عن هذه القصة — وعلى الأرجح أُخلي سبيله. ويحاول الجمع أن يستخدموا عارها وذنبها الظاهر ليوقعوا بيسوع. وها هي ملقاة هناك، ووجهها في التراب، مكشوفةً ومُذلّة، تنتظر أن يضربها الحجر الأول. لكنّ يسوع يرسم حولها دائرة حماية.[153] يخيّم الصمت، ويبلغ التوتر ذروته. ثمّ يتكلّم. لكنّ صوته، على خلاف كلّ الأصوات الأخرى، ليس مُشبَعًا بالغضب والكراهية. فتحدّيه بأن يرميها بالحجر الأول مَن كان منهم بلا خطية يصيب الرجالَ، لا المرأة، بين أعينهم تمامًا. وواحدًا تلو الآخر ترتخي القبضات المشدودة وتُفلت الحجارة الثقيلة. وتنهض المرأة من انطوائها، وهو ينتظرها — يغطّيها بلطف بنعمة مغيِّرة لم يُسمع بمثلها.

مريم التي من بيت عنيا. في الشرق الأوسط لم يكن الرجال والنساء يختلطون اجتماعيًّا. وكان يوسي بن يوحانان (Jose ben Johanan) من أورشليم قد علّم: «مَن يُكثر الكلام مع امرأة يجلب الشرّ على نفسه، وفي النهاية يرث جهنّم.»[154] لكنّ يسوع يصدم أتباعه إذ يسمح لمريم بأن «تجلس عند قدميه»، وهو تعبير اصطلاحي يعني أن يكون المرء تلميذًا لشخص ما. وبكونه أوّل رابي على الإطلاق يفعل ذلك، يخالف يسوع

153. شكرًا لسارة بيسي، الكاتبة البارعة، على هذه الجملة.
154. پِركى أفوت (Perkei Avot) 1: 5

مرة أخرى أعراف الجنسين. فقد كان دور النساء القيام بالأعمال المنزلية، ودور الرجال التحاور مع الرابي الضيف والجلوس تحت تعليمه. وفضلًا عن ذلك، كان كون المرء تلميذًا لرابي يضعه على مسار تدريب قد يفضي إلى أن يصير هو نفسه رابيًا. ومع ذلك، حين يُعترض على يسوع لأنّه أعطى مريم مكانة الإكرام هذه، يُظهر أنّه لا يكتفي بالتسامح مع جلوسها عند قدميه، بل يشجّعه. بل إنّه يعاتب مرثا المنشغلة بجلي القدور: «أنتِ تهتمّين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، ولكنّ الحاجة إلى أمور قليلة — بل إلى واحد فقط. وقد اختارت مريم ما هو أفضل.»[155]

ونلتقي مريم التي من بيت عنيا مرة أخرى في الأناجيل. فقبل اعتقاله بستّة أيام فقط، وظلُّ الصليب مخيّمٌ فوق رأسه، يكون يسوع ضيفًا على عشاء، فإذا بالتي جلست من قبلُ عند قدميه تدخل الآن ومعها قارورة من المرمر مملوءة طيبًا غالي الثمن. تطوف بهدوء في الغرفة حتى تقف خلف يسوع، فتكسر القارورة، وتسكب ما فيها، وهو لا يُقدَّر بثمن، على رأسه وقدميه.

لم يقدّر الضيوف الذكور هذه اللفتة ولا العطر الجميل الذي ملأ الغرفة الآن. بل أدانوا تضحية مريم بوصفها إتلافًا لا عقل فيه: «اتركوها!» يقول يسوع، «لماذا تزعجونها؟ قد عملت بي عملًا جميلًا! قد سبقت ودهنت بالطيب جسدي للتكفين. ... حيثما يُكرز بالإنجيل في العالم كلّه، يُخبَر أيضًا بما فعلته هذه.»[156] ففي إنجيل مرقس لا ينال أيّ شخص إكرامًا أعلى من هذا، ويمنحه يسوع مخاطرًا بسمعته هو، إذ يتجاهل استياء الرجال الجالسين إلى المائدة. ويا لها من لحظة مقدّسة لكلّ واحد منّا الآن: إذ نقرأ هذه الآيات، نصير نحن تحقيقًا لوعد يسوع — فنعترف بالمرأة نفسها التي أكرمها يسوع ونكرمها.

النساء وروح الإرسالية

في يوم الخمسين يشرح بطرس للجمع الحائر معنى انسكاب الروح على 120 رجلًا وامرأة. ويؤكّد أنّ ذلك يتمّم نبوّة يوئيل التي أُعلنت قبل قرون: «يقول الله: ويكون في الأيام الأخيرة أنّي أسكب من روحي على كلّ بشر، فيتنبّأ بنوكم وبناتكم، ويرى شبابكم رؤى، ويحلم شيوخكم أحلامًا. وعلى عبيدي أيضًا، رجالًا ونساءً، أسكب من روحي في تلك الأيام فيتنبّأون.»[157]

155. لوقا 10: 42
156. مرقس 14: 1-9
157. أعمال الرسل 2: 17-18؛ يوئيل 2: 28-29

في الكتاب المقدس العبري كلّه لا يوجد سجلّ لانسكاب الروح على عبد، أو على أمميّ، أو على امرأة — بل على الذكور اليهود الأحرار وحدهم. وبعبارة أدقّ، لم ينل هذا النوع من البركة إلا الملوك والأنبياء. ومع ذلك فإنّ نبوّة يوئيل، التي يمكن القول إنّها أجرأ تنبّؤ نطق به نبيّ يهودي، تعلن أنّه سيأتي وقت يُعطى فيه الروح لا لملوك اليهود وأنبيائهم فحسب، بل «لكلّ بشر»، بمن فيهم الأمم، و«العبيد» من ذوي المكانة الوضيعة، بل حتى «البنات» و«النساء».

ثمّ يوثّق سفر أعمال الرسل انتشار روح الله كالنار في الهشيم، منطلقًا من تلك العلّية في أورشليم، إذ يفعل ما وعد بأن يفعله: يملأ النساء والعبيد والأمم أيضًا ويمنحهم القوة. حتى بطرس، المُبتلى بالتعصّب العرقي اليهودي الذي نشأ عليه، يُصدَم لاحقًا في بيت كرنيليوس حين يرى الروح ينسكب على الأمم. وعندها فقط يقدر أخيرًا أن يؤمن بأنّ الأمم أيضًا يمكن أن يُضَمّوا إلى شعب الله.[158] وحين نقرأ الكتاب المقدس من أوّله إلى آخره، ينبغي أن نشعر برهبة مماثلة لتلك التي اختبرها بطرس في بيت كرنيليوس، ونحن نشهد أنّ ما كان يُعطى للذكور وحدهم صار يُعطى يوم الخمسين للنساء أيضًا!

غير أنّ هذا بالضبط هو ما كان يسوع يقود الأمور نحوه. فتعامله الجذري مع النساء في حياته على الأرض، على سبيل المثال، بلغ كماله بموته على الصليب، وهي أيضًا اللحظة التي انشقّ فيها حجاب الهيكل إلى اثنين،[159] وانسكب حضور الله القدّوس، الذي كان يسكن قدس الأقداس، إلى الشوارع. وكان مجمّع الهيكل اليهودي في زمن موته يتألّف من مناطق متّحدة المركز، تسمح، من الأعمق إلى الأبعد، بدخول الرجال اليهود وحدهم إلى الدار الداخلية، والأمم إلى دار الأمم، ثمّ بعد ذلك النساء إلى دار النساء. والرمزية واضحة بما يكفي: فالدُّور تمثّل أقرب ما يمكن أن يبلغه مختلف أصناف الناس من حضور الله. ولم يكن يُسمح إلا للرجال العبرانيين بدخول الهيكل نفسه، ولم يكن يُسمح إلا لذكر يهودي واحد، مرة واحدة في السنة، بدخول قدس الأقداس.

فاشعروا إذن بالدهشة: فبينما كان الدم ينسكب من جنب يسوع، فاض روح الله من قدس الأقداس — طافحًا فوق ضفافه، شاقًّا الحجاب الفاصل إلى اثنين، وفاتحًا الطريق أمام الجميع إلى قلب الأمور ذاته! لن تكون هناك بعد الآن أيّ دوائر «للذكور فقط» أو «لليهود فقط» في بُنى شعب الله.

158. أعمال الرسل 10: 44-48
159. متى 27: 5

إنّ عطية الروح لا تُعطى بوصفها جانبًا من خلاص المرء الكامل وانضمامه إلى شعب الله فحسب، بل أيضًا من أجل مشاركته الكاملة في إرسالية الله. فكلّ من يوئيل في نبوّته وبطرس في وعظه يربطان الروح بالدعوة التي تخرج إلى العالم: «كلّ من يدعو باسم الرب يخلص.»[160] ومغزى كلام يوئيل وبطرس هو أنّه حين يأتي المسيّا، فإنّ الحرّ والعبد، والشيخ والشابّ، والغنيّ والفقير، واليهوديّ والأمميّ، والرجل والمرأة، سيخلصون على قدم المساواة ويُرسَلون على قدم المساواة بقوة الروح ليقوموا بالإرسالية. ففي المسيح سنكون جميعًا، رجالًا ونساءً، ملوكًا وأنبياء وكهنة ومبلِّغين ومُرسَلين.

وتبدأ نبوّة يوئيل تؤتي ثمارها مع انطلاق الكنيسة الأولى. ففي أعمال الرسل 1، قبل أن يُمنح الروح، يُقال لنا إنّ «هؤلاء كلّهم كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة، مع النساء ومريم أمّ يسوع، ومع إخوته. وفي تلك الأيام قام بطرس في وسط المؤمنين (وكانوا جماعة عددها نحو مئة وعشرين) وقال: "أيّها الإخوة والأخوات ..."»[161] لماذا كانت النساء، لا الرجال وحدهم، يستعددن؟ ببساطة شديدة، لأنّ يسوع القائم كان قد كلّفهنّ هنّ أيضًا. فأعمال الرسل 1 يأتي مباشرة بعد لوقا 24، حيث يتناول يسوع، قبل صعوده إلى السماء بأيام، وجبة مع تلاميذه — ومنهم الرسل «والذين معهم»[162] — ويوصيهم بأن يكونوا شهودًا ليسوع لجميع الأمم، ولكن فقط بعد أن ينالوا قوة من الأعالي. مَن هم «الذين معهم»؟ إنّهم يشملون نساء كثيرات — ففي العدد 10 يدور الكلام على «هنّ»، أي على نساء، ثمّ تصير «هنّ» جزءًا من «هم» في الأعداد 33 و50-53 وفي أعمال الرسل 1: 14. وماذا يحدث حين ينال «هؤلاء» (ومنهم نساء كثيرات) الروح؟ يبدأون «جميعًا» يتحدّثون «بعظائم الله»[163] على مرأى من المتفرّجين — لا الرجال وحدهم، بل النساء أيضًا في طليعة إرسالية الله.[164]

إن كانت أعظم بركة أُعطيت للكنيسة هي الروح، وكان أهمّ عمل للكنيسة هو المناداة بيسوع لعالم ضالّ ومُحتضر، فعلينا أن ننتبه إلى أنّ النساء في الكنيسة الأولى — على

160. أعمال الرسل 2: 21، يوئيل 2: 32
161. أعمال الرسل 1: 15-16
162. لوقا 24: 33
163. أعمال الرسل 2: 11
164. وعلى نحو مماثل، نجد النساء مرة أخرى في أعمال الرسل 4، في كنيسة أورشليم نفسها، في طليعة إرسالية الإنجيل. فبعد أن يُطلَق بطرس ويوحنا من السجن، يذهبان إلى رفقائهما ويقودانهم إلى وقت من الصلاة. «ولمّا صلّوا تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه، وامتلأ الجميع من الروح القدس، وكانوا يتكلّمون بكلام الله بمجاهرة.» (أعمال الرسل 4: 31) مَن هم «الجميع» الذين يصلّون ويكرزون؟ لا يوجد سبب لافتراض أنّ النساء المذكورات في أعمال الرسل 1 و2 كنّ مستبعدات. ويتّضح هذا حين نرى نتيجة إعلان الرجال والنساء صلاحَ الله: «وكان مؤمنون ينضمّون للرب أكثر، جماهير من رجال ونساء.» (أعمال الرسل 5: 14)

عكس اتّجاه العهد القديم تمامًا — شاركن مع الرجال مشاركة كاملة في القوة وفي الإرسالية. فلا تفُتنا هذه النقطة الحاسمة: مع أنّ اليهود والذكور والأسياد يهيمنون على أفق السرد الكتابي، فإنّ نبوّة يوئيل واستشهاد بطرس بها يُظهران أنّ مكانًا مساويًا في برنامج الله يُعطى للأمم والعبيد والإناث. وهاكم مقطعًا آخر صغيرًا لكنّه يحمل ثقلًا كبيرًا، يقول شيئًا مشابهًا جدًّا.

لا يهودي ولا أممي

قبل أن يلتقي بولس يسوع، كان على الأرجح، مثل جميع اليهود، يتلو صلاة الصباح التي يسبّح فيها الله لأنّه لم يُخلق أمميًّا ولا عبدًا ولا امرأة. وحين كانت تُتلى في مجمع بحضور نساء، كانت النساء بدورهنّ يشكرن الله «لأنّك صنعتني بحسب مشيئتك» — وبذلك كنّ يُقرِرن بدونيّتهنّ في عيني الله، ويقبلن امتيازاتهنّ الأقلّ في الحياة اليهودية القديمة.

قد نفكّر في الختان، علامة العهد في العهد القديم، بوصفه أمرًا مؤلمًا جدًّا كان على الرجال اليهود أن يحتملوه. لكنّه في الواقع كان رمزًا لمكانتهم يحملونه في أجسادهم، ويميّزهم بوصفهم أصحاب أعلى مرتبة دينية — مرتبة كانت تستبعد الأمم والنساء معًا. تخيّلوا الآن نشوة المساواة التي جاءت بها علامة العهد في العهد الجديد. فلم يعد ختان الذكور (الذي كان بطبيعته يستبعد) هو العلامة، بل المعمودية هي طقس كلّ مؤمن، تُمنح لليهودي والأممي، للذكر والأنثى.

يقول لنا كثير من الباحثين إنّ الكلمات التالية في غلاطية 3: 28، التي تقابل ببراعة صلاة الصباح التي كان بولس يتلوها قبل اهتدائه، كانت تُستعمل صيغةً شفهية للمعمودية: «ليس يهودي ولا أممي، ليس عبد ولا حرّ، ليس ذكر وأنثى، لأنّكم جميعًا واحد في المسيح يسوع.»[165] والعبارة المفتاحية فيها هي «في المسيح يسوع». فمع أنّ يسوع الناصري يمثّل مَن كان اليهود يعتقدون أنّ له أعلى مكانة في شعب الله — أي الذكر اليهودي الحرّ — فإنّ جميع الذين يعتمدون باسمه يرثون فيه المكانة الثمينة نفسها. هذه الآية لا تنزل بالبشرية كلّها إلى المستوى نفسه، بل ترفع البشرية المفديّة إلى العلوّ نفسه. فلا عجب أنّ هذه الآية سُمّيت أكثر نصوص الكتاب المقدس تفجّرًا من الناحية الاجتماعية، والماغنا كارتا للبشرية عند بولس. وإذا قرأنا غلاطية 3: 28 في

165. السياق المباشر يوضّح هذه الصلة: «لأنّ كلّكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غلاطية 3: 27). فالمؤمنون الجدد، وهم ينزلون إلى مياه المعمودية، كانوا يعبّرون عن هويّتهم ووحدتهم الجديدة في المسيح.

سياق الرسالة كلّها، نرى أنّ ما يريد بولس قوله هو أنّ لله عائلة واحدة، لا عائلتين. فالعائلة التي وعد الله بها إبراهيم تتألّف من جميع الذين يؤمنون بيسوع — أبناء إبراهيم وبناته على السواء، أي الذين ورثوا جيناته، وهم اليهود المؤمنون، والذين اقتدوا بإيمانه، وهم الأمم المؤمنون. يكتب بولس هذا ليعالج العلاقات المتأزّمة بين اليهود والأمم. فقد افترض اليهود طويلًا أنّهم أسمى من الأمم، ومع أنّهم صاروا الآن يشتركون في المخلّص نفسه، ظلّوا يفترضون أنّهم المفضَّلون عند الله. وكان كثير من المسيحيين اليهود يعتقدون أنّه إن أراد الأمم أن يقفوا أمام الله نظراءَ حقيقيين لهم، فعليهم أوّلًا أن يُختتنوا. لكنّ بولس يرفض ذلك رفضًا قاطعًا. فهو يعلن أنّ التمييز بين المختونين وغير المختونين لا أهمّية له. فلليهود والأمم كليهما وصول كامل إلى الدائرة الداخلية لإبراهيم: «ليس يهودي ولا أممي»، يقول. وبحسب بولس، فإنّ أيّ فوارق عرقية واجتماعية قائمة «هناك في العالم» لا وزن لها «هنا في الكنيسة».

ومع أنّ تركيز الرسالة إلى أهل غلاطية ينصبّ على الدونية التي كان اليهود يرونها في الأمم، فإنّ بولس يذكر عرضًا أنّ المبدأ نفسه ينطبق على تراتبيّتي «الحرّ والعبد» و«الذكر والأنثى». ونقطته الأساسية هي أنّ الإنجيل يُلغي أنظمة القيمة والامتياز التراتبية المتجذّرة في العرق والمكانة الاجتماعية والجنس.

لا عبد ولا حرّ

في رسالة غلاطية يقدّم بولس لاهوتًا جذريًّا يُحدث ما يشبه زلزالًا ثقافيًّا، وإن لم يُختبر في البداية إلا هزّةً أولى. وعلى نحو مماثل، ترشد رسالته إلى فليمون أيضًا سيّدًا مسيحيًّا إلى كيفية مراجعة الطريقة التي سيعامل بها عبده العائد. يشجّع بولس قائد كنيسة البيت هذا في كولوسي على أن يستقبل من جديد عبده الهارب أنسيمس. فمنذ هروبه كان أنسيمس قد آمن، ولذلك يعيده بولس الآن، ومعه هذه الرسالة، إلى «مالكه»، ولكن على أساس أنّ الوضع القائم في علاقتهما سيتزعزع. ويتحدّى فليمون أن يستقبل أنسيمس «لا كعبد في ما بعد، بل أفضل من عبد: أخًا محبوبًا. هو عزيز جدًّا عليّ، ولكنّه أعزّ بكثير عليك، إنسانًا وأخًا في الرب معًا.»[166] وإذا وضعنا رسالة غلاطية ورسالة فليمون جنبًا إلى جنب، نلاحظ أنّ بولس يتعامل مع التوتّرات بين اليهود والأمم وبين الأحرار والعبيد بالطريقة نفسها: فمن دون أن ينكر الفوارق الاجتماعية، يسعى إلى تذويب التراتبية قدر الإمكان، بتطبيق قوة الإنجيل التي توحّد وتساوي.[167]

166. فليمون 1: 16

167. وعلى نحو مماثل، في معالجة التوتّرات بين الأغنياء والفقراء في كنيسة كورنثوس، في 1 كورنثوس 11: 17-

وفي كلّ هذه الأمثلة يقلب بولس التراتبيات الاجتماعية قلبًا جذريًّا في الطريقة التي يرى بها المؤمنون بعضهم بعضًا ويعامل بها بعضهم بعضًا: اليهود مع اليونانيين في كنيسة غلاطية، والسيّد مع العبد في كنيسة كولوسي. قد لا يمحو بولس فوارقهم الاجتماعية،[168] لكنّ صليب المسيح وعطية الروح قد بدآ يذيبان أشكال التمييز والعداوات والإقصاء والأعراف التراتبية التي ظلّت طويلًا مقبولة ومحترمة.

وفي جميع رسائل بولس يهتمّ اهتمامًا خاصًّا بالفرق الذي يُحدثه الإنجيل فعلًا في الحياة العملية للجماعة. فالكنيسة ليست مدعوّة إلى مجرّد الإيمان بالإنجيل. بل إنّ الكنيسة موجودة لكي تتلمّس، داخل جماعتها ومن خلالها، أفضل طريقة لكي يتعامل الناس بعضهم مع بعض ويعملوا جنبًا إلى جنب. إنّها المكان الوحيد في العالم الذي يُراد فيه أن يشارك الجميع على قدم المساواة.

وإذ يفوت كثيرًا من الباحثين التكامليين هذا الأمر كلّيًّا، فإنّهم يقرأون غلاطية 3: 28 على أنّها مجرّد عبارة عامة عن مكانة المرء أمام الله، وينكرون أنّ بولس يهتمّ اهتمامًا خاصًّا بالتطبيق العملي والجماعي لهذا اللاهوت الحاسم. غير أنّ مكانتنا أمام الله، في فكر بولس، ستشكّل علاقاتنا الملموسة والصورة التي تتّخذها الكنيسة. فإنجيل المسيح يفتح طريقة جديدة للعلاقة لا مع الله فحسب، بل بعضنا مع بعض أيضًا. والعالم اليهودي، الشديد التراتبية، الذي نشأ فيه بولس، قد انقلب في المسيح. وهذا الوجود الجديد في المسيح ينبغي أن يقود إلى اختبار جديد للجماعة، كما تقول غلاطية 3: 28.

ماذا يعني هذا بالنسبة إلى الرجل والمرأة؟

لا ذكر ولا أنثى

بعد أن ذكر بولس الوحدة والمساواة بين «اليهودي والأممي» و«المولود حرًّا والعبد»، يضيف زوجًا ثالثًا: «الذكر والأنثى». وهذا لا يعني أنّ بولس يقول إنّنا نصير كائنات لا ذكورًا ولا إناثًا، بلا جنس، حين نعتمد. بل إنّ علاقات القوة المتوتّرة هي التي يجب أن

168. ولهذا ما زال بولس، على المستوى الرعوي والإرسالي، يختار نهجًا مختلفًا في تبشير اليهود والأمم ورعايتهم في ما يخصّ مسألة ناموس موسى الذي كان اليهود متمسّكين به. (انظروا 1 كورنثوس 9: 17-23، رومية 14-15) فقد يكون اليهود والأمم قد بلغوا «الوجهة نفسها، لكنّهم جاؤوا من طرق مختلفة جدًّا، ويحتفظون بذاكرات ومخيّلات ثقافية مختلفة جدًّا.» (N.T. Wright — المصدر: www.bit.ly/3q7vQid)

تزول — فـ«هناك في العالم» قد تكون التراتبية والوضع القائم بين الذكر والأنثى صارخين، لكنّ نظامًا جديدًا يبدأ بالظهور «هنا في الكنيسة».

وماذا عن القيادة في الكنيسة؟ هذا موضوع سنصل إليه لاحقًا بمزيد من التفصيل، لكن لاحظوا الآن هذه الملاحظة الثاقبة التي أبداها الباحث في العهد الجديد ف. ف. بروس:

إنّ مساواة بولس بين مكانة الذكر ومكانة الأنثى في المسيح لا تتضمّن أيّ قيدٍ أكثر ممّا تتضمّنه مساواته بين مكانة اليهودي ومكانة الأممي، أو بين مكانة العبد ومكانة الحرّ. فإن كان الوجود في المسيح يتجلّى في الحياة العادية علانيةً في شركة الكنيسة، فإن كان يجوز لأمميّ أن يمارس القيادة الروحية في الكنيسة بالحرية نفسها التي يمارسها بها اليهودي، أو لعبدٍ بالحرية نفسها التي يمارسها بها المواطن، فلماذا لا يجوز ذلك للمرأة بالحرية نفسها التي يمارسها بها الرجل؟[169]

ومع أنّ بعضنا قد يجد صعوبة في قبول نقطة بروس، فإنّها في رأيي تتّفق مع الملاحظة التي يبديها بولس — وهي تُبطل أيّ محاولة للتمسّك بالامتياز أو السلطة أو الرتبة بحجّة الجنس أو المكانة الاجتماعية أو العرق. ويحاول بروس أن يسلّط الضوء على تناقض واضح لدى كثير جدًّا من باحثي الكتاب المقدس، الذين يسرّهم أن يتناولوا مقتضيات لاهوت بولس بالنسبة إلى العلاقات العرقية (بين اليهودي والأممي) والاجتماعية الاقتصادية (بين العبد والحرّ)، لكنّهم يُهملون تطبيقه على العلاقات بين الذكر والأنثى. أمّا في عبارة بولس اللاهوتية الموجزة، فالأزواج الثلاثة متوازية.

وأقلّ ما يمكن قوله هو أنّه مع أنّ بولس في غلاطية لا يستخلص ما يعنيه هذا كلّه بالنسبة إلى النساء والعبيد كما يفعل بالنسبة إلى الأمم، فإنّه يهدم بوضوح الحواجز التي تمنح بعض الناس امتيازًا وتظلم آخرين. فهو يرى النساء والعبيد والأمم يختبرون التحرّر من التراتبيات الثقافية، والوحدة والمساواة في جسد المسيح، حيث ينبغي أن تُقلَّص الفوارق تقليصًا عميقًا، وإن لم تُمحَ تمامًا. وهذه فكرة جذرية حقًّا.

ولكن إلى أين يتّجه هذا كلّه؟ سنستكشف أدوار النساء في الخدمة في الكنيسة الأولى في الفصل 12، لكن لنقفز الآن إلى نهاية القصة.

169. F.F. Bruce. The Epistle to the Galatians

كما في السماء

إنّنا نعيش الآن في زمن تتحقّق فيه التنبّؤات القاتمة في تكوين 3: 16، إذ يسارع الرجال إلى التسلّط على النساء، لكنّ النظام الأبوي سيُبتلع في النهاية بمجيء يسوع (Parousia). وفي ختام رسالة بولس إلى أهل غلاطية، التي سعى فيها إلى أن يبيّن كيف يُلغي الإنجيل الانقسامات والتراتبيات في شعب الله، يقول: «ليس الختان شيئًا ولا الغُرلة، بل المهمّ هو الخليقة الجديدة.»[170] والخليقة الجديدة تشير إلى وعد الله بأن يعيد تشكيل الجنس البشري والكون. ففي إعادة الله صنعَ العالم في المستقبل، لن تعود الانقسامات والتراتبيات موجودة، لكنّ هذا المستقبل صار حاضرًا منذ الآن في الكنيسة بعمل المسيح وحضور الروح، الذي يمنح الجميع مواهب القيادة والتعليم، لكي يملك الرجال والنساء من جديد جنبًا إلى جنب (لوقا 22: 30).[171]

غير أنّ بعض الباحثين التكامليين يدّعون أنّه حتى في العالم الآتي سيملك الرجال لا النساء. صحيح أنّ يسوع وعد رسله الذكور باثني عشر كرسيًّا في المستقبل، مكافئًا إيّاهم يومًا ما بكرامة عظيمة على تضحياتهم،[172] لكن حين نقرأ المقاطع التي وردت فيها هذه الوعود، نجد أنّ يسوع يمدّ وعدًا مشابهًا إلى جميع أتباعه، لا إلى الاثني عشر وحدهم.[173] أمّا الشيوخ الأربعة والعشرون في رؤيا يوحنا الجليانية، فلا ينبغي أن نذهب بالرمزية الجليانية أبعد ممّا تحتمل — فحتى لو كان الأربعة والعشرون هم أبناء إسرائيل الاثني عشر والرسل الاثني عشر، فإنّ ما يمثّلونه هو شعب الله كلّه. ثمّ إنّ مشكلة القول بأنّ أعلى كرامة محفوظة لأربعة وعشرين ذكرًا يهوديًّا حرًّا إلى أبد الآبدين هي أنّ لذلك مقتضيات لا على النساء فحسب، بل على العبيد والأمم أيضًا: أفيبقون في أسفل السلّم إلى الأبد؟ كلّا بالتأكيد — فلن نصل إلى مثل هذا الاستنتاج إلا إذا ارتكبنا

170. غلاطية 6: 15

171. وبحسب نبوّة يوئيل عن الملكوت الآتي، حين يُسكب الروح كالطوفان ويجد جموع من كلّ أمّة أنفسهم يدعون باسم الرب المسيّا، سيكون الرجال والنساء معًا المشاركين الرئيسيين فيه.

172. متى 19: 28 ولوقا 22: 30

173. ففي متى 19، بعد وعده المجازي الواضح للاثني عشر بأنّهم سيجلسون على اثني عشر كرسيًّا، جزاءً لتضحياتهم من أجله، يتكلّم فورًا عن أنّ «كلّ» من يضحّي من أجله سيُكافأ في هذه الحياة وفي الآتية، حتى إنّ كثيرين من الآخِرين على الأرض سيكونون أوّلين في السماء. وعلى نحو مماثل، في لوقا 22، قبل أن يذكر يسوع بقليل جلوس تلاميذه على اثني عشر كرسيًّا يدينون إسرائيل (وهي مرة أخرى صورة رمزية جدًّا)، يقول يسوع إنّ خادم الجميع في ملكوته سيكون أعظم الجميع — وهذا لا يشير إلى الاثني عشر وحدهم، بل قد يشمل أيّ إنسان. وفي الحالتين، الكراسي الاثنا عشر رمزية، والفكرة حاضرة بأنّه قد يكون هناك أناس يُكافأون في السماء بكرامة أعلى حتى من كرامة الرسل.

الخطأ التفسيري الشائع جدًّا، وهو قراءة العبارات الرمزية في الكتاب المقدس قراءة حرفية.

أمّا الواضح في تعليم يسوع فهو أنّ الذين على أدنى درجة في العالم الساقط سيُعطَون أعلى المراتب في العالم المفديّ. ففي مثل الوزنات يربط يسوع الأمانة هنا بالمكافأة السماوية وبالسلطان في السماء. وكانت الشهيدة المسيحية بلاندينا (Blandina) من القرن الرابع، «أَمَةً ضئيلة واهنة محتقرة»، على حقّ حين آمنت بأنّ أمانتها حتى الموت قد تعني أنّها «ستُوضع بين نخبة السماء، جالسةً في قلب بهاء قصر الله المتألّق، متقدّمةً على الذين كانوا في العالم الساقط أعلى منها مقامًا بما لا يُقاس».[174]

كيف نعرف أنّ الرجال والنساء سيكونون، في السماوات الجديدة والأرض الجديدة، شركاء متساوين في الميراث؟ في العهد القديم كانت هناك ثلاث وظائف «قيادية» خصّها الله بمسحة خاصة: الأنبياء والكهنة والملوك. ويلتقط العهد الجديد هذه الأدوار الثلاثة ويمدّها — وإن في صورة متطوّرة — إلى الأبدية.

النساء نبيّات، وسيبقين نبيّات. لقد رأينا من قبل النساء يوم الخمسين يتنبّأن مع الرجال. ومع أنّ النبوّة كما نعرفها ستنتهي، فمن المرجّح أن يستمرّ شعب الله في إعلان أقوال الله إلى الأبد. وعلى نحو مماثل، النساء ملوك وكهنة، وسيبقين كذلك. فبطرس يُدخل النساء في الكنيسة التي يكتب إليها حين يقول لهم إنّهم «جنس مختار، وكهنوت ملوكي».[175] ويوحنا، وهو أيضًا يشمل النساء، يسبّح الله لأنّ هذه الأدوار ستستمرّ إلى الأبد: «وجعلتَهم لإلهنا ملكوتًا وكهنة، وسيملكون على الأرض.»[176]

مدّوا خيالكم إلى أبعد آفاق الزمن، وستلاحظون أنّه حين نرى التحقّق الكامل لغلاطية 3: 28 في السماوات الجديدة والأرض الجديدة، فإنّ التراتبيات القائمة على الجنس، التي هيمنت حتى الآن على تاريخنا البشري، ستؤدّي فقرة اختفائها الأخيرة. وأيّ تنافس بين الجنسين، وأيّ إذلال من أحدهما للآخر، سيُفسح المجال أخيرًا لتقدير شامل كلّ منهما للآخر وتعاون كامل بينهما.

وهذا لا ينبغي أن يفاجئنا: فالخليقة الجديدة هي استعادة الخليقة الأصلية وتفتّحها الكامل. كان قصد الله الأول أن يكون آدم وحواء كلاهما أمينين على كلمة الله، وأن يملكا كلاهما على الأرض ملكًا وملكة، وأن يعملا كلاهما في الجنة التي هي هيكل،

174. Tom Holland, Dominion: The Making of the Western Mind, الفصل 4
175. 1 بطرس 2: 9
176. رؤيا يوحنا 5: 10

بوصفهما كاهنين. وإلى الأبد، سيعمل الرجال والنساء المفديّون جنبًا إلى جنب، في التحقيق النهائي للخليقة الأولى، شركاءَ في النبوّة، وشركاءَ في المُلك، وشركاءَ في الكهنوت. فإن كان هذا هو ما يتّجه إليه كلّ شيء بالنسبة إلى كنيسة يسوع، فلماذا نرضى بأقلّ من ذلك الآن؟

أمورٌ كبيرة في آياتٍ صغيرة

من بين آلاف الأشخاص المذكورين بأسمائهم في الكتاب المقدس، الغالبية العظمى ذكور يهود أحرار — بل لا يوجد في الكتاب المقدس كلّه إلا 200 امرأة مذكورة باسمها. وبعد بداية رائعة كهذه للنساء في قصة الكتاب المقدس، وفي قصة البشرية، يدفعنا سقوط أبوينا الأوّلين في اتّجاه كارثي. فمعظم الشخصيات الرئيسية في الكتاب المقدس أحرار لا عبيد، ويهود لا أمم، وذكور لا إناث. فماذا نستنتج من هذا؟ هل نستنتج إذن، بمجرّد الإحصاءات الكتابية، أنّ الله يفضّل الذكور اليهود الأحرار؟

حاشا. فالسبب في أنّنا نجد أساسًا قصصًا عن اليهود هو أنّهم كانوا الشعب الذي دعاه الله دعوة خاصة لكي ينتظر المسيّا ويستضيفه ويشاركه مع العالم. وعلى نحو مماثل، نجد الذكور الأحرار عند كلّ منعطف لأنّ الظروف الاجتماعية القديمة في عالم البحر المتوسط أبقت العبيد والنساء غير مرئيّين عمليًّا، بعيدًا عن المجال العام — وهو المكان الذي يجري فيه جزء كبير من السرد الكتابي.

وهكذا، فإنّ الخلل الإحصائي الظاهر في الكتاب المقدس ليس نتيجة اختيار الله المفضَّل للرجال لمعاملة خاصة أو لمهامّ في ملكوته، بل هو نتيجة عالم ساقط يهيمن عليه الذكور (كما تنبّأ الله في تكوين 3)، كيّف الله فيه، برحمة وصبر، مقاصده في الإعلان والفداء.

وفوق ذلك، إذا نظرنا إلى التركيز الهائل على اليهود، لا في العهد القديم فحسب بل في العهد الجديد أيضًا، فلا يمكننا أن نستنتج أنّ اليهود أعلى مرتبة في تدبير الله إذا أخذنا في الحسبان عبارات كتابية حاسمة تحمل وزنًا لاهوتيًّا هائلًا — مثل الوعد لإبراهيم بأنّ نسله «سيبارك أمم العالم»، أو الإعلان عن الكنيسة أنّه «ليس يهودي ولا أممي في المسيح». ومع أنّ هذه العبارات قليلة ومتباعدة، فإنّها العوامل الحاسمة في تفسير الكتاب المقدس وفي ما تقبله الكنيسة من إيمان وممارسة.

والسرد الكتابي، وإن هيمن عليه الذكور اليهود الأحرار، ليس عن الذكور اليهود الأحرار وحدهم. فمن الناحية اللاهوتية تحدث أمور كبيرة في آيات صغيرة. فليست كلّ النصوص متساوية في الوزن. ومع أنّ الأحجار الكريمة قد تكون منثورة في أنحاء الأرض، فهناك أماكن توجد فيها بكمّيات هائلة. ومع أنّ الكتاب كلّه موحى به، فإنّنا نلاحظ كمّيات هائلة من العقيدة المهمّة تتراكم في مواضع معيّنة: فحين يتعلّق الأمر بالكشف عن مكانة المرأة في قلب الله، وفي الكنيسة، وفي مستقبل العالم وذروة التاريخ، فإنّ أجزاء الكتاب المقدس التي تتكلّم بأعلى صوت هي في الغالب: بداية القصة الكتابية ونهايتها تمامًا، وما بينهما: معاملة يسوع للنساء، وانسكاب الروح الذي لا يميّز بين الجنسين تحقيقًا ليوئيل 2، ورؤية بولس الجذرية في غلاطية 3: 28 عن مساواة روحية تبدأ ببطء ولكن بثبات تتجلّى في مساواة اجتماعية ووظيفية في الكنيسة — وهي حقيقة تظهر بوضوح خاص في رومية 16 (التي سنفصّلها في الفصل 12) وفي رومية 12 (التي سنستكشفها في الفصل 13).

وبعد أن صارت هذه الإحداثيات في مكانها، صرنا أقدر بكثير على أن نتّجه شمالًا لا جنوبًا في تقديرنا للنساء، وعلى أن نفهم كذلك ثلاثة مقاطع كتابية بعينها تهبّ كالرياح المعاكسة، وتبدو في القراءة السطحية كأنّها توحي بدونيّة المرأة أو بتبعيّتها. وإلى هذه المقاطع الشديدة الإثارة للجدل ننتقل الآن.



الجزء الثاني

نساء (غير) مقيَّدات



6

نساء كورنثوس

«غير أنّ الرجل ليس من دون المرأة، ولا المرأة من دون الرجل في الرب.» 1 كورنثوس 11: 11

إليكم نصيحة: إن لم يكن العمل التقني لفهم المقاطع الكتابية الصعبة ممّا تحبّونه حقًّا، فتجاوزوا هذا الفصل والفصل الذي يليه، وعودوا إليهما في النهاية. قالت لي زوجتي، وهي أوّل من قرأ مسوّدتي الأولى: «كلّ فصل في هذا الكتاب متعة للقراءة»، ما عدا هذا الفصل والذي يليه، فهما «عمل شاقّ جدًّا». ومن أجل القارئ أتمنّى لو كان هذان الفصلان أقلّ تعقيدًا — لكن بما أنّ التكاملية شبكة بالغة التعقيد من الحجج «الكتابية»، فإن كنّا نريد أن نرى أناسًا وكنائس يتحرّرون منها، فعلينا أن نفكّ هذه الشبكة خيطًا خيطًا.

وكلمحة عامة موجزة، فإنّ النقطة الرئيسية المعروضة في هذا الفصل والذي يليه هي، بصراحة، أنّ التكامليين قرأوا ثلاثة مقاطع في رسائل بولس قراءة خاطئة (1 كورنثوس 11: 3-16، و1 كورنثوس 14: 33-35، و1 تيموثاوس 2: 11-15). فهم يستنتجون أنّ بولس يعلّم تبعيّة المرأة في جميع الكنائس وفي كلّ الأزمنة. لكنّ بولس في هذه المقاطع يتعامل مع وضع تاريخي محدّد أو مع حساسية خاصة بثقافة معيّنة. ومع أنّ هذه النصوص محمّلة بشذرات من اللاهوت عن الرجل والمرأة يمكن أن تفيدنا اليوم، فلا واحد منها يدعم تراتبيةً بين الجنسين تُعمَّم على الجميع.

نتناول المقطعين الأولين في هذا الفصل والثالث في الفصل التالي، محاولين في كلّ مرة أن نفهم التفسير التكاملي وننقده، ثمّ ننتقل نحو تفسير أفضل. يعلّق بطرس بأنّ في رسائل بولس «أشياء عسرة الفهم».[177] وهذه المقاطع الثلاثة لا بدّ أن تتصدّر

177. 2 بطرس 3: 16

القائمة. (وأمر آخر قبل أن نغوص: لكي لا أُثقل هذا الفصل والذي يليه، أودعتُ كثيرًا من المحتوى المهمّ جدًّا في الحواشي الختامية، فلا تتردّدوا في التنقيب هناك أيضًا.)

1 كورنثوس 11: 3-16

المقطع الأول يتعلّق بتغطية الرأس — فلا تتردّدوا في أن تعتمروا قبّعة التفكير لهذا المقطع. لقد حاولتُ مرات عدّة في حياتي، ولأيام في كلّ مرة، أن أعرف رأسه من قدميه، فخرجت ببصيرة أكثر قليلًا، ولكن أيضًا بأسئلة أكثر ممّا بدأت بها. دعوني أُطلعكم على ما وصلت إليه في هذا المقطع.

اقرأوا هذا المقطع قراءة سريعة (فقد تحتاجون إلى الرجوع إليه مع تقدّم الفصل)، ولا تتفاجأوا إن بدأ رأسكم يدور وأنتم تقرأونه:

3 ولكن أريد أن تعلموا أنّ رأس كلّ رجل هو المسيح، وأمّا رأس المرأة فهو الرجل، ورأس المسيح هو الله. 4 كلّ رجل يصلّي أو يتنبّأ وله على رأسه شيء، يشين رأسه. 5 وأمّا كلّ امرأة تصلّي أو تتنبّأ ورأسها غير مغطّى، فتشين رأسها، لأنّها والمحلوقة شيء واحد بعينه. 6 إذ المرأة، إن كانت لا تتغطّى، فليُقصّ شعرها. وإن كان قبيحًا بالمرأة أن تُقصّ أو تُحلق، فلتتغطَّ.

7 فإنّ الرجل لا ينبغي أن يغطّي رأسه لكونه صورة الله ومجده. وأمّا المرأة فهي مجد الرجل. 8 لأنّ الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل. 9 ولأنّ الرجل لم يُخلق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل. 10 لهذا ينبغي للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها، من أجل الملائكة. 11 غير أنّ الرجل ليس من دون المرأة، ولا المرأة من دون الرجل في الرب. 12 لأنّه كما أنّ المرأة هي من الرجل، هكذا الرجل أيضًا هو بالمرأة. ولكنّ جميع الأشياء هي من الله.

13 احكموا في أنفسكم: هل يليق بالمرأة أن تصلّي إلى الله وهي غير مغطّاة؟ 14 أم ليست الطبيعة نفسها تعلّمكم أنّ الرجل إن كان يُرخي شعره فهو عيب له؟ 15 وأمّا المرأة إن كانت تُرخي شعرها فهو مجد لها، لأنّ الشعر قد أُعطي لها عوض برقع. 16 ولكن إن كان أحد يظهر أنّه يحبّ الخصام، فليس لنا نحن عادة مثل هذه، ولا لكنائس الله.

دعوني أصرّح بأكثر نقاطي إثارةً للجدل أوّلًا: إن كان التفسير التكاملي لهذا المقطع صحيحًا، فهذا يعني — مع أنّ بعض التكامليين ينكرون ذلك — أوّلًا، أنّ كلّ امرأة بالغة يُراد لها أن تعيش تحت سلطة رجل، يكون عادةً أباها أو زوجها؛ وثانيًا، أنّ النساء لا يُراد لهنّ أن يكنّ قائدات للرجال في أعلى المستويات في الكنيسة وفي المجتمع أيضًا، بل من المحتمل جدًّا ألّا يُراد لهنّ كذلك أن يكنّ قائدات للرجال في المستويات الأدنى؛ وثالثًا، أنّ جميع النساء يُراد لهنّ، بوجه عام، أن يكنّ خاضعات لجميع الرجال، سواء الأخوات للإخوة أو الزميلات للزملاء. وحتى حين كنت تكامليًّا لم أكن أدّعي هذا، لكنّني عند التدقيق أكثر أدركت أنّ هذه في الواقع نتيجة التفسير التكاملي المتّسق للمقطع. فإن كان هذا ما يقوله الله في هذا المقطع، فنحن بحاجة إلى أن نعرف ذلك يقينًا. وإن لم يكن هذا ما يقوله، فأنا متأكّد أنّنا نريد أن نعرف ذلك يقينًا أيضًا. فلندخل في الموضوع.

في التعليم الوحيد عن تغطية الرأس في الكتاب المقدس، يهتمّ بولس بأمر نساء يُرسلن شعورهنّ في أثناء العبادة الجماعية أو لا يلبسن الخمار،[178] وكذلك بأمر رجال يُطيلون شعورهم. في الثقافة الغربية الحديثة لن يكون أيّ من هذين الأمرين مشكلة، لكنّه في تلك الثقافة كان يبعث برسالة لم يرَ بولس أنّها حكيمة. ولذلك يخصّص له قسمًا طويلًا في رسالته. وكما يفعل في مواضع أخرى من رسالته، لا يكتفي بولس بالأمر بسلوك أفضل، بل يكدّس عدّة أسباب. لكن ما إن نوشك أن نُقلع بطائرة التفسير عن المدرج، حتى نصطدم بمطبّات عديدة يختلف حولها أفضل الباحثين.[179] فلنبدأ بالوضع الذي يعالجه بولس.

178. إنّ الجدل العلمي حول ما إذا كان بولس يشير إلى رأس مغطّى 1) بقلنسوة أو خمار، أو 2) بشعر طويل أو غير معقوص، جدلٌ مُضجر. ويستعرض تفسير أنتوني ثيسلتون (Anthony Thiselton) البارع لرسالة كورنثوس الأولى الحجج على الجانبين، ويميل بفارق ضئيل إلى أنّ المقصود غطاء للرأس، أي خمار أو قلنسوة. وأنا أتبعه في ذلك.

179. يذكر ويليام ويت في Icons of Christ، الفصل 8، الأسئلة التي يجيب عنها الباحثون إجابات مختلفة: هل يتكلّم بولس عن نوع من غطاء الرأس أو لباس الرأس (شال، أو قلنسوة، أو رداء، أو خمار) أم عن تسريحات الشعر (شعر طويل أو غير معقوص)؟ ماذا تعني الكلمة اليونانية التي تعني «الرأس» (kephalē)؟ كيف يستطيع بولس أن يقيم أوجه شبه بين مجموعات مختلفة إلى هذا الحدّ: الله بوصفه رأس المسيح، والمسيح بوصفه رأس الرجل، والرجل بوصفه رأس النساء؟ هل يشير «الرجل» و«المرأة» إلى الرجال والنساء عمومًا، أم إلى الأزواج والزوجات خصوصًا؟ ما المقصود بأنّ الرجال مجد الله، بينما المرأة مجد الرجل؟ ماذا يعني بولس حين يكتب أنّه ينبغي أن يكون للمرأة «سلطان» على رأسها؟ ما معنى الإشارة إلى الملائكة؟ ماذا نفهم من قول بولس إنّ «الطبيعة تعلّم» أنّ الرجال ينبغي ألّا يكون لهم شعر طويل؟ وحين يقول بولس «ليس لنا عادة مثل هذه»، فإلى أيّ عادة يشير؟

الوضع ولماذا أقلق بولس

يبدو أنّ بعض النساء لم يكنّ يلبسن الخمار في اجتماعات كنيستهنّ، بل كنّ يكشفن شعورهنّ ليراها الجميع، وأنّ بعض الرجال كانوا يُطيلون شعورهم. ولذلك يطلب بولس من النساء أن يغطّين رؤوسهنّ بخمار، ومن الرجال أن يُبقوا شعورهم قصيرة حين يشاركون في الصلاة والتنبّؤ في اجتماعات العبادة في الكنيسة. ولا يصل بولس إلى حدّ إصدار أمر — بل يقدّم مناشدة مبنيّة على حجج كثيرة، منها الحساسية الثقافية.

لماذا تخلع النساء خمارهنّ، ولماذا يُطيل الرجال شعورهم؟ قد يكون ذلك تمرّدًا منهم، مع أنّ الأرجح أنّهم افترضوا أنّ المساواة المسيحية بين الجنسين التي كان بولس يكرز بها (بحسب غلاطية 3: 28) تعني أنّه لا فروق بين الرجال والنساء، ولذلك تجاهلوا آداب ثقافتهم في ما يخصّ الجنسين. ومن الدوافع المحتملة الأخرى لدى النساء الرغبة في تجاوز مكانتهنّ الثانوية في المجتمع بالتصرّف كالرجال. أمّا خلع النساء خمارهنّ، فهل كان الرجال أم النساء وراء ذلك؟ يقول معظم المفسّرين إنّ النساء كنّ يخلعن خمارهنّ بمبادرة منهنّ. وقد احتجّت مؤخّرًا سينثيا وستفول، استنادًا إلى العدد 10 الذي سنصل إليه بعد قليل، بأنّ النساء في الواقع تعرّضن لضغط من الرجال ليفعلن ذلك. وأيًّا كان الرأي الذي نتبنّاه، فإنّ بولس لا يعالج في هذا المقطع مواقف خاطئة — بل يكتفي بتقديم حجج للحفاظ على الحساسيات الثقافية في ذلك الزمان. وبغضّ النظر عن دوافعهم، لا يرى بولس أنّه من الحكمة أن تكشف النساء رؤوسهنّ أو أن يُطيل الرجال شعورهم. فلديه عدّة مخاوف.

أوّل ما يقلقه، استنادًا إلى الرواية في تكوين 1 و2، هو أنّ الله خلق الرجال والنساء متساوين في القيمة، لكنّه لم يخلقهم متطابقين. وبما أنّ «ذكرًا وأنثى خلقهما الله»، يرى بولس أنّه من غير الحكمة أن يُدمَجوا في كتلة واحدة لا ملامح لها.

ومصدر قلقه الثاني هو أنّ المرأة في ثقافتهم، حين كانت تُرسل شعرها الطويل خارج البيت، كان ذلك يدلّ على مكانة وضيعة وعلى أنّها متاحة جنسيًّا. وتوثّق سينثيا وستفول أنّ الإماء والبغايا في العالم اليوناني الروماني كنّ ممنوعات من لبس الخمار.[180] أمّا النساء المتزوّجات فكنّ يغطّين رؤوسهنّ رمزًا لمكانتهنّ المحترمة بوصفهنّ متزوّجات، ولحشمتهنّ وعفّتهنّ. فغطاء رؤوسهنّ كان يعبّر عن مكانتهنّ

180. Cynthia Westfall, Paul and Gender, 25.

المكرَّمة.[181] وفي فكر بولس إذن، حين كانت جميع النساء يغطّين رؤوسهنّ في اجتماع الكنيسة، كان ذلك يعبّر تعبيرًا جميلًا عن أنّ جميع النساء — عازبات كنّ أو متزوّجات، إماءً أو حرائر — مكرَّمات في المسيح وفي الكنيسة، حتى اللواتي لم يلقين إكرامًا خارج الكنيسة. وإذا تذكّرنا أنّ كنيسة كورنثوس كانت تتألّف في معظمها من نساء ذوات مكانة وضيعة في المجتمع — «ليسوا حكماء، ولا أقوياء، ولا شرفاء»[182] — ندرك كيف أنّ إصرار بولس على تغطية الرأس منح في الواقع، على عكس ثقافة ذلك الزمان، نظرةً رفيعة إلى جميع النساء في المسيح.

ومصدر قلقه الثالث، وهو مرتبط بالسابق، هو أنّ كشف المرأة شعرها علانية كان، في تلك الثقافة، أمرًا مُخزيًا. بل إنّ بولس يستعمل الفعل «يشين/تشين» مرتين، ولفظة «قبيح» مرة — وكلاهما يمكن أن يُترجَم «عار» — في الأعداد 4-6. ففي ثقافة الشرف والعار، كان الرأس المكشوف يلفت الانتباه إلى المرأة بطريقة تقوّض احترامها لنفسها، واحترام الجماعة لها، و— في عيون المتفرّجين — احترامَ الإله الذي يُعبَد.

ومصدر قلقه الأخير هو أنّ كلّ ما سبق سيقوّض «ترتيب» الكنيسة. فهذا الجزء من التعليم يندرج في قسم أكبر من الرسالة إلى أهل كورنثوس، مخصّص على نحو خاص لترتيب كنيسة كانت قد فقدت ترتيبها،[183] وهو قسم يُختتم بالكلمات: «وليكن كلّ شيء بلياقة وبحسب ترتيب.»[184] وفي مواجهة ما يبدو أنّه ميل لدى كنيسة كورنثوس إلى الحرية والتعبير عن الذات، يسعى بولس إلى مساعدتهم على إعادة التفكير في طريقة قيامهم ببعض الأمور (ومنها غطاء الرأس، وعشاء الرب، والمواهب الروحية) لكي يُبنى جميع المؤمنين، ويُجتذَب جميع الزائرين بلطف، وفوق كلّ شيء، يتمجّد المسيح.

حقائق لا يحدّها زمن

اليوم لا تكاد توجد كنائس تُصرّ على تغطية الشعر. ويتّفق الباحثون على أنّ نصيحة بولس كانت تنطبق على ثقافة لم تعد موجودة. فهل في هذا المقطع إذن شيء يمكن أن نتمسّك به بوصفه حقيقة لا يحدّها زمن لجميع الكنائس في كلّ مكان؟

181. Cynthia Westfall, Paul and Gender, 27.
182. 1 كورنثوس 1: 26
183. 1 كورنثوس 11-14
184. 1 كورنثوس 14: 40

في الإجابة عن ذلك، يجب أن نعترف أوّلًا بأنّ بولس لا يهتمّ أساسًا في هذا المقطع بأن يقدّم لنا لاهوتًا متطوّرًا جدًّا عن الرجل والمرأة. بل يركّز على معالجة ممارسة خاصة بثقافة معيّنة. ومع ذلك تشعّ منه لمحات من لاهوت عن الرجل والمرأة. وإليكم قائمة سريعة بعبارات حقّ ما زال في وسعنا أن نتمسّك بها اليوم.

على النساء والرجال كليهما أن يشاركوا في الخدمات الكلامية تجاه الله (حين «يصلّون») وتجاه بعضهم بعضًا (حين «يتنبّأون»). ففي هذا المقطع يفرح بولس بأنّ هذه هي ممارسة الكنيسة، حتى وهو يحذّر من الهيئة غير اللائقة التي يظهر بها النساء والرجال وهم يفعلون ذلك. وإن كانت أيّ كنيسة اليوم تريد أن تصير كلّ ما يمكن أن تكونه، فهي بحاجة إلى الإسهام الكلامي الفعّال والمتساوي من النساء والرجال معًا.

الرجال والنساء، وإن كانوا متساوين في المسيح، فهم مع ذلك مختلفون في الخلق. لقد خلق الله جنسين: ذكرًا وأنثى. وهما ليسا متماثلين؛ بل يُراد لهما أن يكمّل أحدهما الآخر. ولا بدّ من كليهما للتعبير الكامل عن صورة الله.

ينبغي أن تُمنح النساء أعلى مكانة ممكنة. فإن كانت نظرة المجتمع إلى النساء متدنّية أو مشوّهة، فينبغي أن تكون الكنيسة المكان الذي تُقدَّم لهنّ فيه أعلى كرامة، بغضّ النظر عن مكانتهنّ الماضية أو الحاضرة في المجتمع الأوسع.

ينبغي أن ننتبه إلى الرسالة التي تبعث بها أفعالنا. ففي أيّ ثقافة وأيّ جيل قد توجد تصرّفات معيّنة تبعث برسالة خاطئة إلى الآخرين، ولا تخدم شهادة الكنيسة، حتى لو كانت لدينا أسبابنا الوجيهة لتجاهلها أو للقيام بها.

النظرة التكاملية

كيف ينظر التكامليون إلى هذا المقطع؟ ليسوا جميعًا يتّخذونه أساسًا لعقيدتهم. فحين يدرس اللاهوتيون التكامليون في Village Church هذا المقطع (والمقطع التالي) ضمن مسحهم للنصوص المتعلّقة بالرجل والمرأة، يفعلون ذلك بطريقة لا تدعم أيّ تعليم عن سلطة الذكر.[185] وهم محقّون في ذلك — فأعلى التفاسير تقييمًا لرسالة كورنثوس الأولى لا ترى سلطة الذكر في 1 كورنثوس 11.[186]

185. www.bit.ly/3CFKgJO. انظروا الصفحات 33-37.

186. يصنّف موقع www.bestcommentaries.com تفاسير رسالة كورنثوس الأولى لغوردون في (NICNT)، وأنتوني ثيسلتون (NIGTC)، وديفيد غارلاند (David Garland) (BECNT) على أنّها الأفضل، بتقييم 4,91 و4,88 و4,88 من 5.0 على التوالي. «كثيرًا ما يُفهم المجاز في 11: 3 على أنّه يرسي بنى للسلطة. لكن لا شيء في المقطع يوحي بذلك» (Fee) «خلافًا لغوردون، لا يبدو أنّه يدلّ على علاقة "تبعيّة" أو "سلطة على."» (Thiselton) «بولس، لا

غير أنّ كثيرين من التكامليين يحتجّون بأنّ هذا المقطع يعلّم أنّ النساء، بحسب تصميم الله، تحت سلطة الرجال. ومع أنّني حاولت للتوّ أن أبسّط معنى المقطع، دعوني أكرّر أنّ هذا المقطع معقّد جدًّا، وما زال يُحبط المفسّرين المعاصرين. ويزداد تعقيده حين يتحوّل المفسِّرون إلى مُقحِمين—يُقحمون في المقطع معاني إضافية. وهذا ما أعتقد أنّ الباحثين التكامليين فعلوه حين ادّعوا: «إنّ المبدأ الثابت في 1 كورنثوس 11: 2-16 هو خضوع المرأة لسلطة الذكر. فهو يعلّم أنّ المرأة يجوز لها أن تشارك في الصلاة والتنبّؤ في الكنيسة تحت قيادة الذكر الروحية وسلطته.»[187] وهم يبنون هذا على بعض هذه الادّعاءات الأربعة أو عليها كلّها: 1) كلمة الرأس تعني رأسًا على غيره، أي السلطة؛ 2) رأى بولس تراتبية في زواج آدم وحواء قبل السقوط؛ 3) النساء أقلّ من الرجال، بطريقة ما، في كونهنّ على صورة الله؛ 4) كان على نساء كورنثوس أن يلبسن على رؤوسهنّ رمزًا لسلطة الذكر. سأردّ الآن على كلّ واحد من هذه الادّعاءات، وإن كنت سأقضي معظم الوقت على الأول.

هل تعني كلمة «الرأس» السلطة؟

هل تعني «الرأس» «رأسًا على» غيره؟ في الإنجليزية الحديثة تُستعمل كلمة «head» (رأس) مجازيًّا بمعنى المدير، أي الشخص المسؤول. لكن هل هكذا كان الناطقون باليونانية الذين تسلّموا رسالة بولس سيفهمون مجاز «الرأس»؟ يقول معظم التكامليين: نعم. فالله يريد، كما يقولون، أن تكون جميع النساء في خضوع لرأس ذكر — ولذلك يجب على الزوجات أن يخضعن لأزواجهنّ، ولا يجوز للنساء أن يقدن في الكنيسة.

العدد 3 محوريّ للتفسير التكاملي. فماذا يعني بولس بقوله: «رأس كلّ رجل هو المسيح، وأمّا رأس المرأة فهو الرجل، ورأس المسيح هو الله»؟

كثيرون من التكامليين، إذ يقرأون «الرأس» (kephalē) بمعنى «رأس على» (أي «صاحب سلطة على»)، يفهمونها على أنّ الرجال (بوصفهم «الرأس») ينبغي أن يمارسوا السلطة على النساء بالطريقة نفسها التي يمارس بها الله (بوصفه «الرأس») السلطة على المسيح، ويمارس بها المسيح (بوصفه «الرأس») السلطة على الرجال. وبقراءته على هذا النحو، يبدو أنّ بولس يساوي بين سلطة الله الآب على المسيح وسلطة الرجل على النساء. وبربط هذا التشبيه بوصف للحياة الداخلية للإله الثالوث،

187. Köstenberger and Köstenberger, God’s Design for Man and Woman, ص. 160.

يستنتجون أنّ التراتبية بين الجنسين لا بدّ أن تكون شاملة، لا مجرّد أمر ثقافي أو نتيجة للسقوط.

لكن، كما سأبيّن لكم، حين يُحدَّد المعنى بسياق الأعداد التالية، فإنّ «الرأس» هنا لا تعني السلطة، بل شيئًا مثل مصدر الحياة المكرَّم — أي الشخص الذي يستمدّ منه المرء حياته أو هويّته. بل إنّ فكرة أنّ kephalē تعني السلطة كانت في زمن بولس نادرة جدًّا، إن لم تكن غائبة — وأحثّكم على قراءة الملحق 3: ماذا تعني kephalē، الذي أعرض فيه حجّتي على ذلك.

يُحيل الباحثون التكامليون عادةً إلى أفسس 5 («الرجل هو رأس المرأة»)، وهو الموضع الآخر الوحيد الذي يستعمل فيه بولس كلمة kephalē للإشارة إلى العلاقات بين الذكر والأنثى. ثمّ يحتجّون بأنّه بما أنّ الرأس تعني السلطة في أفسس 5، فلا بدّ أنّها تعني السلطة في 1 كورنثوس 11.[188] لكن، كما سنفصّل في الفصل 8، فهي على الأرجح لا تعني السلطة هناك أيضًا.[189] وخلافًا لاتّهام التكامليين بأنّ فهم kephalē بمعنى مصدر الحياة ابتكار حديث في دراسات الألفاظ، فإنّ آباء الكنيسة الناطقين باليونانية، كيرلس الإسكندري، وثيودوروس المصيصي، وأثناسيوس، ويوسابيوس، فهموا كلّهم kephalē هنا بمعنى المصدر.[190] فلا عجب إذن أنّ باحثين كثيرين جدًّا يستنتجون أنّ بولس قصد المصدر لا السلطة في 1 كورنثوس 11: 3.[191]

ومع ذلك، ومهما بدا الأمر غير مرجّح، فمن الممكن نظريًّا أن يكون بولس قد قصد السلطة هنا. فكيف نعرف يقينًا؟ إنّ الطريق إلى تحديد ما يقصده بولس في كلّ حالة

188. على سبيل المثال، يقول شراينر: «بما أنّ بولس يستعمل "kephalē" للدلالة على السلطة حين يتكلّم عن الأزواج والزوجات في أفسس 5: 22-24، فمن المرجّح أنّ الفكرة نفسها في ذهنه في 1 كورنثوس 11: 3.» (المصدر: www.bit.ly/31rylBA)

189. كثير من الحجج التكاملية التي قرأتها، والتي تدّعي أنّ «الرأس» في أفسس 5 تعني «السلطة»، تبني ادّعاءها على تفسيرها لمعناها في 1 كورنثوس 11: 3. وفي حالةٍ نموذجية من مسألة الدجاجة والبيضة، يُستعمل تفسير ضعيف لدعم الآخر حتى لا نعود متأكّدين أيّهما جاء أوّلًا. ومن أسباب وجوب الحذر في نقل المعاني من موضع إلى آخر أنّ بولس يستعمل كلمة «الرأس» استعمالًا مختلفًا تمامًا: ففي 1 كورنثوس 11 يتكلّم عن آدم بوصفه رأس حواء، وهي لا توصف بأنّها جسد آدم، بينما في أفسس 5 يتكلّم عن الزوج بوصفه رأس زوجته، وهي جسده.

190. Payne, Man and Woman, One in Christ، الفصل 7. على سبيل المثال، كتب كيرلس الإسكندري (الذي توفّي سنة 444 م): «لوقا [3: 38، "آدم من الله"] ... يشرح مصدر الإنسان، أي الله الخالق. ولذلك نقول إنّ "رأس (kephalē) كلّ رجل هو المسيح"، لأنّ الإنسان صُنع به وأُتي به إلى الوجود ... "وأمّا رأس (kephalē) المرأة فهو الرجل"، لأنّها أُخذت من جسده، ولذلك فهو حقًّا مصدرها. وعلى نحو مماثل، "رأس (kephalē) المسيح هو الله"، لأنّه منه بحسب الطبيعة: فالكلمة وُلد من الله الآب.»

191. Payne, Man and Woman, One in Christ، الفصل 7، الحاشية 7، يذكر أربعين عملًا علميًّا تحتجّ بأنّ kephalē تعنى «المصدر» فى 1 كورنثوس 11: 3. وقد نُشر هذا الكتاب سنة 2009؛ والقائمة الآن أطول بكثير.

هو السياق.[192] سننظر بعناية في الأعداد 4-16، لكن لنفهم أوّلًا عبارات «الرأس» الثلاث المتوازية في 1 كورنثوس 11: 3.

حكاية ثلاثة رؤوس

يكتب بولس أنّ «رأس كلّ رجل هو المسيح، وأمّا رأس المرأة فهو الرجل، ورأس المسيح هو الله». والمفتاح لفهم هذه السطور الثلاثة فهمًا صحيحًا يكمن في الترتيب الذي يذكرها به بولس. فللوهلة الأولى قد يظنّ المرء أنّه كان على بولس أن يضع السطر الأخير أوّلًا فيصير: «الله رأس المسيح، الذي هو رأس الرجل، الذي هو رأس المرأة». لكنّه لا يفعل. فلماذا هذا الترتيب إذن؟ الجواب هو أنّ بولس يتّبع خطًّا زمنيًّا.

ومع أنّ معنى «kephalē كلّ رجل هو المسيح» ليس حاسمًا لنقاشنا، فإنّه يبدو أنّه يستند إلى لاهوت بولس عن المسيح بوصفه الواسطة التي خُلق بها كلّ شيء. وبهذا المعنى، خلق الله في تكوين 2 آدمَ بالمسيح، وبمعنى مشتقّ، كلَّ رجل جاء بعده.

والعبارة التالية، «kephalē المرأة هو الرجل»، تشير إلى ما حدث بعد ذلك في جنّة عدن: من جنب آدم صنع الله حواء. ونعرف أنّ بولس يشير إلى آدم وحواء لأنّه يستعمل المفرد «المرأة» لا «النساء»، و«الرجل» لا «الرجال»، ثمّ يعود في العدد 8 وفي العدد 12أ ليذكر أنّ حواء (التي يسمّيها «المرأة») جاءت من آدم («الرجل»). وتأكيدًا للتفسير القائل بأنّ العدد 3 يتكلّم عن آدم بوصفه مصدر حواء، يذكر بولس أخيرًا أنّه بمعنى آخر جاء كلّ واحد من أبناء آدم من إحدى بنات حواء — أي من أمّه (ع 12ب)، وبمعنى آخر أيضًا جاء كلّ إنسان من خالقه (ع 12ج).

والعبارة الأخيرة، «kephalē المسيح هو الله»، تشير على الأرجح إلى تجسّد المسيح. ففي خدمته على الأرض كان «صورة الله غير المنظور»، يمثّل الآبَ، مصدرَه، أمام عالم يراقب.[193]

192. على سبيل المثال، يجري آلان جونسون دراسةً تحليلية جامعة لـ17 دراسة كبرى، من جميع الأطراف، حول كلمة kephalē، ويخلص إلى أنّه «يبدو أنّ هناك اتّفاقًا متزايدًا على أنّ kephalē بوصفها مجازًا يمكن أن يكون لها معنى مختلف في سياق مختلف.» (المصدر: www.bit.ly/3GJ9Vnc)

193. كولوسي 1: 15 وعبرانيين 1: 3. ولفهم هذا السطر الثالث يجب أن نفهم أنّ السطور الثلاثة في ع 3 تشبيهات متوازية على وجه التقريب. وليست معادلات دقيقة. ففي تك 2 خلق الله آدم حرفيًّا. ويمكن القول إنّ آدم «جاء من» الله. وحواء أيضًا «جاءت من» آدم، ولكن ليس بالطريقة نفسها التي جاء بها آدم من الله. وأخيرًا، الابن «جاء من» (أو «يأتي من») الآب. وكما يقول بولس في موضع سابق من رسالته إلى أهل كورنثوس: «صار لنا حكمة من الله . . . وفداء» (1 كو 1: 30). لكنّ هذا لا يشير البتّة إلى أنّه خُلق من الآب — بل يشير على الأرجح إلى الطريقة التي يستمدّ بها حياته وهويّته من الآب. فقد أعلن يسوع: «كما أنّ الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضًا أن تكون له حياة في ذاته» (يوحنا 5: 26 NIV). والباحثون الذين يعتقدون أنّ السطر الأخير لبولس قد يكون إشارة إلى

وقد نسأل: لماذا لا يقول بولس إنّ المسيح هو أيضًا kephalē كلّ امرأة؟ الجواب يكمن في سؤال آخر: لماذا يجمع بولس أصلًا هذه العبارات اللاهوتية الغريبة والمفكّكة في ظاهرها؟ إنّ العددين 4-5 يقدّمان بعض الأجوبة المقنعة: فباستعمال أداة تعليمية مبتكرة، يربط بولس بين معاملة المرأة والرجل لرأسيهما الجسديّين وبين الطريقة التي يعامل بها كلّ منهما رأسه المجازي. وبعبارة أخرى، يضع بولس في العدد 3 مقدّمةً مفادها أنّ لكلّ إنسان رأسًا مجازيًّا، لكي يحتجّ في العددين 4-5 بأنّ ما يفعله الرجال والنساء برؤوسهم الجسدية في العبادة ينعكس على kephalē المجازي المذكور في العدد 3 — فبالنسبة إلى «كلّ رجل» (ع 4) هو «المسيح» (ع 3)، وبالنسبة إلى «كلّ امرأة» (ع 5) هو «الرجل» (ع 3).

ومهما بدا هذا غريبًا على الآذان الحديثة، فإنّ بولس ينتقل بين الاستعمال الحرفي والاستعمال المجازي لكلمة kephalē. فقد أكرمت حواء آدم بوصفه kephalē لها، ولذلك ينبغي لكلّ ابنة من بنات حواء أن تُكرم أبناء آدم بإكرام رأسها الجسدي (وذلك بتغطية رأسها). وكذلك أكرم آدم المسيحَ بوصفه kephalē له، ولذلك ينبغي لكلّ ابن من أبناء آدم أن يُكرم المسيح بإكرام رأسه الجسدي (وذلك بإبقاء شعره قصيرًا).

ومع قوّة العبارات الثلاث في العدد 3، فمن الواضح أنّ العددين 4-5 ليسا لاهوتًا متطوّرًا. هذا هو بولس، المفكّر العبقري المبتكر، يقيم روابط ليقوّي حجّته. فهو لا يحاول أساسًا أن يعلّمهم (ولا أن يعلّمنا) لاهوتًا متطوّرًا عن الرجل والمرأة، بقدر ما يحاول أن يدعم حجّته بأنّ على النساء أن يتغطّين في العبادة.

والآن، إذ نتأمّل الأعداد التي تلي العدد 3، سندرك أنّ بولس لا يمكن أن يقصد «السلطة» في العدد 3 — ونعرف هذا لأنّ الفكرة الجامعة، من أوّل المقطع إلى آخره، هي إكرام المرء لمصدره، لا الخضوع لقائد: فعلى سبيل المثال، بعد أن يقول «الرجل هو kephalē المرأة» (ع 3)، يبدو أنّ بولس يعيد صياغة النقطة نفسها في العدد 8 بقوله «المرأة من الرجل» — وهي إشارة إلى آدم بوصفه مصدر حواء لا سلطةً عليها.[194] وأيضًا، إذ ينتقل من الكلام عن المسيح بوصفه الخالق («kephalē كلّ رجل هو المسيح»)، يتكلّم بولس بعد ذلك عن الله بوصفه الخالق في العدد 12، حين يقول: «جميع الأشياء [أو جميع الأشخاص] هي من الله». وهنا أيضًا يركّز بولس على الله لا بوصفه السلطة، بل بوصفه مصدر الذين يخلقهم.[195] وهذا يساعدنا كذلك على فهم

194. تقول سينثيا وستفول في «Paul and Gender» (الفصل 1): «إنّ الإشارات إلى رواية الخلق في المقطع، ولا سيّما في 11: 8، يستعملها بولس ليستأنف عبارته اللاهوتية في 11: 3 ويشرحها ويوسّعها. وفي السياق القريب، تشير العبارة القائلة بأنّ المرأة جاءت من الرجل وبأنّ المرأة خُلقت من أجل الرجل إلى أنّ أصل حياة الرجل والمرأة هو المقصود في 11: 3.»

الكيفية التي يُقال بها إنّ المسيح هو kephalē «كلّ رجل» في العدد 3 — فليس كلّ الرجال يتّخذونه سلطةً عليهم، لكنّهم جميعًا لهم فيه الخالقُ والمصدر.

ومما يزيد هذا الأمر وزنًا أن عبارة «الله هو kephalē المسيح» لم تُفهَم قطّ، من حيث الإيمان القويم، على أنها تعني أن الآب هو صاحب السلطة على المسيح. وكما بيّنتُ في الفصل 3، فإن اللاهوتيين التكامليين هم الذين حاولوا مرارًا أن يُلصقوا بالعلاقات الأزلية داخل الثالوث تراتبيةً مزعومة، ليدعموا فكرتهم عن تراتبية دائمة في العلاقات بين الرجل والمرأة. فالأوصاف القويمة لعلاقة الابن بالآب، حتى حين كان على الأرض، لا تصوّر الآب يفرض «سلطته» على الابن بقدر ما تتحدث عن الابن الذي يخضع، في محبة باذلة لذاتها، لمشيئة الآب، وهي في الحقيقة مشيئته هو أيضًا.[196]

تعترف كاثي كيلر بأن «أول لقاء لها بفكرتي الرئاسة والخضوع [في الزواج] كان صادمًا لها فكريًا وأخلاقيًا»، لكنها حين «وجّهها بعض المعلمين الموهوبين إلى [أن ترى كيف] أخضع الأقنوم الثاني في اللاهوت نفسه، واتخذ دور الخادم»، قبلت عندئذ أن تؤدي «دور يسوع» في زواجها. وهي تقدّم سندًا كتابيًا لهذا الربط: «في 1 كورنثوس 11: 3 يقول بولس ... إن علاقة الآب بالابن نموذج لعلاقة الزوج بزوجته»، وفي هذه العلاقة «يُدعى الذكر والأنثى إلى أن يعكسا ... السلطة المُحبّة والخضوع المُحبّ».[197] ومن المؤسف أن كتاب الزوجين كيلر الأكثر مبيعًا عن الزواج، مع ما في كثير منه من ألمعية، قد أسهم في نشر لا تفسير خاطئ لـ1 كورنثوس 11: 3 فحسب، بل تطبيق خاطئ له أيضًا، يجعل الزوجات يظنن أنهن مكلَّفات تكليفًا خاصًا بأن يعكسن خضوع الابن للآب من خلال خضوعهن لأزواجهن.

لا توجد آية واحدة تؤسّس «أدوارنا المحدَّدة» على الثالوث، وبالتأكيد ليست 1 كورنثوس 11: 3. ويتضح هذا أكثر ما يتضح في أن بولس لا يقدّم سطرين متوازيين فحسب، بل سطرًا ثالثًا أيضًا. فالتكامليون الذين يحبون أن يقارنوا كون الرجل رأس المرأة بكون الله رأس المسيح، يبدو أنهم ينسون السطر الأول: المسيح رأس الرجل. قد يستطيع المرء أن يستخلص، بشيء من التكلّف، وجهًا من الشبه بين الله والمسيح من جهة، والرجل والمرأة من جهة أخرى («متساويان في الجوهر، لكن أحدهما تابع

196. فنّد أحد آباء الكنيسة، يوحنا الذهبي الفم، النظرة التبعية إلى الثالوث في هذا المقطع بقوله: «ولد الآبُ الابنَ لا عبدًا تحت أمره، بل حرًّا يقدّم الطاعة. [الابن] ليس عبدًا، بل له الكرامة نفسها التي للذي ولده». والثالوث، كما فُهم تقليديًا، يُبرز علاقات محبة متبادلة، لا علاقات سلطة. ويتحدث اللاهوتيون الشرقيون الأوائل عن الآب بوصفه «ينبوع الألوهة». فالآب يلد الابن منذ الأزل، والروح ينبثق من الآب. أما اللاهوتيون الغربيون فيفضّلون لغة اللوغوس (الكلمة) الذي يلده الآب، والروح القدس بوصفه المحبة المتبادلة التي تنبثق من الآب والابن كليهما.

197. Tim and Kathy Keller, The Meaning of Marriage، الفصل 6.

للآخر في الوظيفة» هو ما يقدّمه التكامليون)، ولكن لو كان هذا ما أراد بولس أن يعلّمه، لما أضاف السطر الأول عن المسيح والرجل، لأنه لا يوجد رجل مساوٍ للمسيح.

يبقى سؤال واحد في هذه النقطة المتعلقة برأس حواء. ففي الآية 5 يقول بولس إن المرأة التي تشين رأسها الجسدي تشين أيضًا رأسها المجازي، وهو بحسب الآية 3 «الرجل». فالسؤال إذن: إلى أي رجل أو رجال قد يشير بولس؟ يميل التكامليون، مثل كوستنبرغر، إلى الإجابة بأن المقصود هو القيادة الروحية الذكورية. وكثير من الرعاة التكامليين يضخّمون هذا فيقولون إن على كل امرأة أن تكون تحت رأس ذكر، سواء أكان زوجها أم أباها أم فريقًا رعويًا من الرجال.

لكن مفتاح الإجابة الأسلم يكمن في الآية السابقة: على «كل رجل» أن يُكرم «رأسه» (ع 4). هذه الصياغة تعيدنا إلى الآية 3، حيث نجد أن الإجابة مُعطاة مسبقًا: «المسيح» هو رأس كل رجل. وكذلك على «كل امرأة» أن تُكرم رأسها (ع 5)، وهذا أيضًا يعيدنا إلى الآية 3، حيث نجد أن «الرجل» المشار إليه هو آدم، الذي يمثّل رمزيًا جميع الرجال. بعبارة أخرى، من غير المرجح أن يشير بولس إلى رجل معيّن، بل إلى جميع بني آدم.

ومع أن كل هذا الحديث عن الإكرام قد لا يلقى صدى قويًا لدى من لم يعودوا منا يعيشون في ثقافة الشرف والعار، فإن قرّاء رسالة بولس كانوا سيفهمونه تمامًا. ففي هذا المقطع يجمع بولس بين مفهومَي kephalē والإكرام. بعبارة أخرى، يبدو أن استعمال بولس لكلمة kephalē في الآية 3 يجمع المفهومين اللذين يسريان في هذا المقطع كله: المصدر والإكرام.

فلنُجِب إذن عن السؤال الحاسم الذي طُرح سابقًا: ماذا تعني الآية 3؟ إنها تعني أن المسيح هو المصدر الجدير بالإكرام للرجل (بصفته خالقه)؛ والرجل (آدم) هو المصدر الجدير بالإكرام للمرأة (حواء)؛ والله هو المصدر الجدير بالإكرام للمسيح (في تجسده).[198]

أخلص إلى ما يلي: الآية 3 لا تقول شيئًا على الإطلاق عن تبعية المسيح أو تبعية الأنثى.

198. وقد تكون الإجابة الأطول أن الآية 3 تعني ما يلي: في تكوين 2، استمد آدم (وكل رجل) هويته أو وجوده من المسيح، الذي هو لذلك جدير بإكرامه. وفي موضع لاحق من تكوين 2، استمدت حواء (وكل امرأة) هويتها أو وجودها من آدم، ولذلك فهو (وكل رجل) جدير بإكرامها. وأخيرًا، في التجسد (أو ربما في الأزل)، يستمد المسيح (أو استمد) هويته أو وجوده من الآب، الذي هو لذلك جدير بإكرامه. ويمكننا أيضًا أن نسأل: إن كان الشخص أ هو kephale الشخص ب، فماذا يكون الشخص ب بالنسبة إلى الشخص أ؟ حسنًا، إن كان الشخص ب يستمد وجوده أو هويته من الشخص أ، فهناك طريقة أخرى للتعبير عن ذلك، وهي أن الشخص ب هو صورة الشخص أ. وكون بولس يقول بعد قليل: «الرجل صورة الله ومجده، وأما المرأة فهي مجد الرجل» (1 كورنثوس 11: 7) قد يدل على أن بولس قصد هذا ضمنًا. بعبارة أخرى، من النتائج اللاهوتية الأنيقة المترتبة على الآية 3 أن نقول إن الرجل مخلوق على صورة المسيح وشبهه، وإن حواء صُنعت على صورة آدم وشبهه، وإن المسيح هو صورة الله وشبهه. ومرة أخرى، لا شيء من هذا يدل على تبعية المرأة ولا على تبعية المسيح.

هل يرى بولس تراتبيةً في الجنة؟

في الفصل 4 احتججتُ بأن الدراسة المتأنية لتكوين 1-3 تكشف أن التراتبية بين الجنسين جاءت بسبب السقوط، لا من خلال تصميم الله الصالح في الخليقة. وعلى خلاف هذا الرأي، يستخدم التكامليون الآيات التالية ليحتجّوا بأن بولس رأى تراتبيةً قبل السقوط: «لأن الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل. ولأن الرجل لم يُخلق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل» (ع 8-9). ويقول شراينر في حديثه عن هاتين الآيتين: «من الواضح أن بولس فسّر تكوين 2 على أنه يكشف تمييزًا في الأدوار بين الرجال والنساء» — ويقصد بذلك أدوار السلطة والخضوع.[199]

ولكن هل ترون لماذا ليس هذا واضحًا على الإطلاق؟ فنحن لا نستنتج أن بولس رأى تراتبيةً قبل السقوط إلا إذا افترضنا أنه يتحدث في الآية 3 عن تبعية المرأة. أما في هاتين الآيتين فهو لا يفعل أكثر من أن يستخرج ما سبق أن قاله في الآية 3 عن تكوين 2: «kephalē [حواء] هو [آدم]» — فيذكر أبرز نقطتين. أولًا، صُنعت حواء من آدم، أي خُلقت حرفيًا من جنبه — ولهذا ينبغي للنساء الكورنثيات أن يُكرمن الرجال في الكنيسة، الذين هم، إذا رجعنا إلى الجنة، مصدرهن.[200] ثانيًا، صُنعت حواء من أجل آدم، لتكون معينته وشريكته، ezer kenegdo، لتكمّله وتقف إلى جانبه — ولهذا ينبغي للنساء الكورنثيات، إذ يتذكّرن الجنة، ألا يَشِنَّ الرجال الذين خُلقن ليكنّ شريكات لهم. (ومن جهة أخرى، لا ينبغي للرجال الكورنثيين أيضًا أن يشينوا النساء، اللواتي لا يكتملون من دونهن.)

باختصار، يُبرز كلٌّ من سفر التكوين وبولس التمييز بين الجنسين، والحاجة إلى اعتماد متبادل يُكرم فيه كلٌّ منهما الآخر — لكن لا يقول أيٌّ منهما شيئًا عن «الأدوار» التراتبية التي يزعم شراينر أنه يجدها في هذا المقطع.

199. يقول ذلك توم شراينر في "Recovering Biblical Manhood and Womanhood"، ص. 133.
200. «لأن الرجل ليس من المرأة» (ع 8) — يمكن الاحتجاج من تكوين 2 بأن على آدم أيضًا أن يُكرم حواء، لكن بولس يبيّن أنه لا يمكن القول إنها كانت مصدره.

هل النساء حاملات لصورة الله بالقدر نفسه؟

وماذا عن قوله: «الرجل ... صورة الله ومجده. وأما المرأة فهي مجد الرجل» (ع 7)؟ إنصافًا، لا يكاد أحد من التكامليين يستخدم هذه الآية لتقوية حجته. والسبب في أن غرودم لا يستخدم هذه الآية للاحتجاج لتبعية المرأة هو أنها، في ظاهرها، تبدو مناقضة لقناعتنا المشتركة بأن الجنسين ليسا مختلفين فحسب، بل «متساويان» أيضًا. والواقع أن هذه الآية كانت نصًّا برهانيًا استُخدم في معظم تاريخ الكنيسة للدفاع عن تعليم لم يكن أحد يعترض عليه، وهو أن النساء أدنى من الرجال بطبيعتهن.

هل يقول بولس إن النساء خُلقن على صورة الله بقدر أقل من الرجال؟ كلا.[201] فالقول، كما قالت الكنيسة في جزء كبير من تاريخها، إن حواء لا تستمد من آدم إلا بعضًا من صورة الله، يناقض تكوين 1، الذي يعترف بالصورة الإلهية في الجنسين بالتساوي. وما يبدو أن بولس، العارف جيدًا بتكوين 1، يفعله هو أنه يواصل حجته بأن الله/المسيح هو المصدر المُكرَّم لآدم، وآدم هو المصدر المُكرَّم لحواء. فهي تستمد وجودها وهويتها لا من الله فقط، بل من آدم أيضًا. وبلبس غطاء الرأس ذاك في العبادة، تُكرم النساءُ الرجالَ.

وقد يلمّح بولس أيضًا إلى انعكاس اتجاه الإكرام — فآدم هو مجد الله وصورته (أي صورته المجيدة). وكذلك حواء هي الصورة المجيدة لآدم. وهذا يتفق جيدًا مع كلمات البهجة التي نطق بها آدم حين رأى نفسه منعكسًا في حواء أول مرة: «هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي». فإن كان على النساء أن يُكرمن مصدرهن في آدم، فعلى الرجال أن يُكرموا صورتهم في النساء.

وبدلًا من قراءة كلمات بولس على أنها تصوّر تناقصًا في القيمة (من آدم إلى حواء)، ربما ينبغي أن نقرأها تصاعدًا متناميًا في المجد. فآدم هو صورة الله ومجده فقط، أما حواء فهي صورة الله وآدم كليهما ومجدهما. أليس هذا ما نقرؤه في تكوين 1 و2؟ ففي كلا الأصحاحين تأتي ذروة خليقة الله في النهاية. في الأصحاح 1 هي البشرية، وفي الأصحاح 2 هي المرأة. صُنع آدم من التراب، أما حواء فصُنعت من لحم.[202] وفي عالمٍ

201. تطرح لوسي بيبيات (Lucy Peppiatt) (في "Women and Worship at Corinth") وغيرها من علماء الكتاب المقدس فرضية أن بولس يكتب هذا فعلًا، لكنه في الحقيقة يقتبس في هذا الموضع كلام معلمين كذبة في الكنيسة، كما يفعل في مواضع أخرى من 1 كورنثوس. وحرصًا على أن يبقى هذا الفصل بطول معقول، قررت ألا أشرح هذه الفرضية، بل أن أعتمد على تفسير سينثيا وستفول الذي أجده أكثر إقناعًا.

202. إذا تتبعنا حجة بولس هنا بعناية، لكنا أميل إلى القول إن آدم أدنى من حواء منا إلى القول بالعكس. وبالطبع،

حُطّ فيه من قيمة النساء إلى هذا الحد، تأتي كلمات سفر التكوين وبولس هنا مخالفةً للثقافة السائدة أشدّ ما تكون المخالفة.

هل على النساء أن يلبسن «رمزًا» للسلطان؟

والآن إلى آيتي المفضلة في هذا المقطع: «لهذا ينبغي للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها، من أجل الملائكة» (ع 10). وتبعًا للترجمة المستحدثة التي جاءت بها الترجمة الإنجليزية Revised Version (RV) سنة 1881، تترجم الترجمة الإنجليزية ESV هذه الآية هكذا: «لذلك ينبغي للزوجة أن يكون لها رمزُ سلطانٍ على رأسها، من أجل الملائكة». وبما أن ESV تدّعي أنها ترجمة حرفية، لا ترجمة ديناميكية مثل NIV التي اقتبستُ منها من قبل، فستفترضون أن ترجمة ESV هي الأكثر حرفية بين الاثنتين. لكنكم ستكونون مخطئين. فالأصل اليوناني لا يذكر أي نوع من العلامة أو الرمز.

لماذا تفعل ESV ذلك؟ يناسب التكامليين أن يحتجّوا بأن غطاء رأسها رمز لـ«سلطان» الرجال (باليونانية: exousia)، أو ربما سلطان زوجها، عليها. لكن بولس لم يقل ذلك قط. ومع أن علماء الكتاب المقدس يتجادلون في جوانب متعددة من هذه الآية، فإن السؤال الحاسم الذي يجب أن نطرحه هو: من يملك «السلطان» الذي يتحدث عنه بولس هنا؟ إن كان لها مجرد «رمز سلطان»، فمعنى ذلك أن الرجال عمومًا، أو ربما رجالًا معيّنين، لهم سلطان عليها. لكن النص اليوناني يقرر أن المرأة نفسها «لها سلطان على» رأسها. والصياغة نفسها ترد حين يمنح يسوع تلاميذه «سلطانًا على» (epi ... exousian) الشيطان. وفي جميع المواضع الأخرى التي ترد فيها كلمة exousia في العهد الجديد، وعددها 102، بما فيها مواضعها التسعة في 1 كورنثوس، تشير الكلمة إلى سلطان يملكه صاحبه.[203] وما يقصده بولس هو أنه إن كان الله في الخليقة قد أعطى حواء وبناتها نوعًا من السلطان، فليس لأي رجل (ولا لمترجمي الكتاب المقدس) أن ينتزعه منها. لكن هذا هو عكس ما توحي به ترجمة ESV تمامًا. وهنا تكمن أكبر نقطة ضعف في القراءة التكاملية لـ1 كورنثوس 11: الموضع الوحيد الذي يذكر فعلًا أي نوع من السلطان يتحدث عن سلطان المرأة. صحيح أن لسلطانها علاقة ما بغطاء رأسها، لكن النقطة التي يبدو أنها موضع التشديد هي حقها، غير المفروض عليها، في أن تلبسه أصلًا. فلماذا يضيف بولس هذه النقطة عن حقها في لبس غطاء الرأس؟ الباحثون غير متأكدين، وإن كانت سينثيا وستفول تحتج بأن بعض

203. Philip Payne, Man and Woman, One in Christ، الفصل 10.

الرجال، لا النساء أنفسهن، هم الذين ضغطوا على النساء الكورنثيات ليكشفن رؤوسهن. ومع أننا لا نستطيع أن نجزم، فإن كان الأمر كذلك، فبولس يشجع النساء على أن يتحدّين أولئك الرجال الذين يحاولون أن يضعوهن في موقف محرج.

يقدّم بولس سببين لسلطان المرأة الذي تملكه هي نفسها. الأول، الذي تشير إليه الكلمة في بداية الآية 10 («لهذا»)، يعيدنا إلى الآيتين 8 و9، حيث تأتي هي، ذروة الخليقة، إلى جانب آدم شريكةً له، ولذلك ينبغي ألا تجلب عليه العار. ألا تستطيع، كما يحتج بولس، من هي قمة الخليقة ونظيرة آدم أن تقف على قدميها؟ والسبب الثاني هو «من أجل الملائكة». فماذا يعني ذلك؟ يقدّم الباحثون اقتراحات كثيرة. أقنعها عندي اثنان: فإما أن تكون إشارة إلى الملائكة الذين كانوا حاضرين في الخليقة (الذين كانوا هناك حين جاءت حواء بكل مجدها)، وإما، وهذا ربما أرجح، أن تكون متصلة بقول سابق لبولس في الرسالة نفسها يتعلق بالملائكة، وهو مقطع يقول فيه إن القديسين سيدينون الملائكة يومًا ما[204] — وفي هذه الحالة يكون من المنطقي تمامًا أن تتولى النساء أمر لباسهن بأنفسهن، لأن حواء وبناتها من سلالة ملكية، وسيملكن يومًا ما، إلى جانب الرجال، على الكون كله.

وهذا السلطان المعطى من الله هو بالتحديد السبب في أن الرجال لم يكونوا وحدهم القادرين على المشاركة في الصلاة والنبوة، بل النساء أيضًا، كما تذكر الآيتان 4-5 عَرَضًا.

غير أنه في الرب

حتى هذه النقطة من المقطع، قال بولس أمورًا يمكن أن تُفسَّر، وقد فُسّرت فعلًا، على أنه يرفع من شأن الرجال (ع 3-6) ومن شأن النساء أيضًا (ع 7 و10). أما في النهاية فيوضح تمامًا أن الجنسين، في الإنجيل وفي الكنيسة، متساويان، ويعتمد كل منهما على الآخر بالقدر نفسه: «غير أن الرجل ليس من دون المرأة، ولا المرأة من دون الرجل في الرب» (ع 11). في الآية 3 قرّر أن آدم هو المصدر البيولوجي لحواء (ولذلك ينبغي لجميع النساء أن يُكرمن جميع الرجال)، أما الآن فيُبرز أيضًا أن كل رجل يجد أصله البيولوجي في أمٍّ: «لأنه كما أن المرأة هي من الرجل، هكذا الرجل أيضًا يولد من المرأة» (ع 12)، ولذلك ينبغي لجميع الرجال أن يُكرموا جميع النساء. فبمزجه ملاحظةً عن كيفية مجيء حواء إلى الوجود في تكوين 2 بملاحظةٍ عن كيفية مجيء كل ذكر إلى هذا العالم،

204. 1 كورنثوس 6: 1-2

يوضح بولس أن الإكرام يُراد له أن يسري في الاتجاهين — وهذا يترك لنا فرصة أقل للدفاع عن التراتبية بين الجنسين على أساس نظام الخليقة. التبادل والمساواة والوحدة، مع التمييز بين الجنسين في الوقت نفسه: هذا ما يبدو أن الله قد تصوّره منذ البدء.

يحتج بعض الباحثين بأن بولس لا يتناول في هذا المقطع إلا الأزواج والزوجات، لا العلاقات العامة بين الرجال والنساء. وهذا ممكن، وإن كان احتمالًا بعيدًا. فالكلمتان اليونانيتان لـ«رجل» و«امرأة» يمكن أن تُترجما أيضًا «زوج» و«زوجة»، إن كان هذا ما يتحدث عنه المقطع. غير أن معظم الباحثين يحتجون بأننا إذا قرأنا المقطع كله، وجدنا بولس يشير إلى الطريقة التي يتعامل بها جميع الرجال وجميع النساء بعضهم مع بعض، وهذا يشمل المتزوجين ويتجاوزهم.[205]

ومع ذلك، إن كانت الأقلية من الباحثين على حق في أن بولس يخاطب المتزوجين فقط، فيمكننا أن نستنتج أن رأس المرأة المجازي في الآية 5 يشير ربما إلى paterfamilias الخاص بها، أي ربّ الأسرة، الرجل «المسؤول» عنها بحسب الثقافة اليونانية الرومانية. وفي هذه الحالة يطلب منها بولس أن تُكرمه، لكنه لا يقدّم أي سند لكونها تابعة له — بل إن المقطع كله يتجه نحو المساواة بين الجنسين. واللافت أن بولس، في الموضع الآخر الذي يتحدث فيه عن الزوج بوصفه kephalē (في أفسس 5)، يضع العلاقة بين الزوج والزوجة في إطار المفهوم الشامل لـالخضوع المتبادل. وكذلك هنا في 1 كورنثوس 11، يختم بتعليم عن الاعتماد المتبادل.

وسواء أكان هذا المقطع يشير إلى العلاقات بين جميع الرجال والنساء، أم (وهذا أقل احتمالًا) بين الأزواج والزوجات فقط، فأظن أننا نستطيع بثقة أن نطرح جانبًا الزعم التكاملي القائل: «يريد بولس من النساء أن يلبسن غطاء الرأس ليُظهرن أنهن خاضعات لرئاسة الرجل».[206] وهذا لمعظمنا خبر رائع! تخيّلوا أن الله أراد أن تخضع جميع النساء لجميع الرجال، وهذا ما كان سيعنيه كلام بولس ضمنًا، ما دام يؤسس حجته على الخليقة. فهذا سيشمل خضوع المرأة للرجال في الزواج، وفي العلاقات العائلية، وفي جماعات الأصدقاء، وفي علاقات العمل، وفي المجتمع، وفي الكنيسة. إني لأرتجف حين أفكر في الأثر المُقعِد الذي تركه هذا التعليم الخاطئ عبر العصور في

205. إلا إذا تصوّرنا أن غير المتزوجات والأرامل صرن الآن ينزعن غطاء رؤوسهن، وهو الشيء نفسه الذي يمنحهن الكرامة. لكن أقوى حجة هي أن بولس يقول في الآية 12: «كل رجل يولد من المرأة» — وهذا لا معنى له إن قُرئ: «كل زوج يولد من زوجته». ويلاحظ ثيسلتون أن «الأغلبية الساحقة من الكتّاب يحتجون بإقناع بأن المسألة تتعلق بالعلاقات بين الجنسين ككل، لا بتلك التي داخل دائرة الأسرة الأضيق فقط»، في “1 Corinthians (NIGTC)”.

206. يقول ذلك شراينر فى “Recovering Biblical Manhood and Womanhood”، ص. 132، 135.

النساء اللواتي أسأن تفسير هذا المقطع، ظنًّا منهن أنه يعلّمهن أن يكون لهن موقف خاضع تجاه الرجال. ومن المؤسف أن هذا ما يزال بايبر يعلّمه في الفصل الافتتاحي من Recovering Biblical Manhood and Womanhood: «المرأة الناضجة ... ستؤكد قوة الرجال وقيادتهم بشكل ما في جميع علاقاتها مع الرجال الجديرين».[207] والحمد لله أن يسوع، ومعه دراسة جادة لهذا المقطع، يضعان حدًا حاسمًا لما ألحقه هذا التفسير الخاطئ بالنساء من تشويه وأذى.

وكلما تفحّصنا كل حجة يطرحها التكامليون لقراءة هذا المقطع قراءةً قائمة على السلطة والخضوع، ازددنا رؤيةً لسبب وجوب رفض كل واحدة منها بوصفها تحريفًا بائسًا لمقطع يرفع في الحقيقة من شأن النساء رفعًا رائعًا، ولا يحطّ من قدرهن ولا يجعلهن تابعات.

فلنستكشف الآن المقطع الثاني من مقاطع بولس الثلاثة التي يبدو، للوهلة الأولى، أنها تؤيد الاستنتاجات التكاملية.

1 كورنثوس 14: 33-35

كما رأينا للتو في 1 كورنثوس 11، يُضفي بولس على النساء كرامة عظيمة. فهو لا يمتدح مشاركة النساء في الصلاة والنبوة فحسب، بل إن ملاحظاته عن أغطية الرأس نابعة من رغبته في أن يرى جميع النساء مُكرَّمات كما ينبغي. لكن في موضع لاحق من الرسالة نفسها يوجد مقطع آخر يبدو، عند القراءة الأولى بالتأكيد، مناقضًا للمقطع السابق:

33 لأن الله ليس إله تشويش بل إله سلام، كما في جميع كنائس القديسين. 34 لتصمت النساء في الكنائس، لأنه ليس مأذونًا لهن أن يتكلمن، بل يجب أن يكنّ في خضوع، كما يقول الناموس أيضًا. 35 وإن كن يردن أن يستفسرن عن شيء، فليسألن أزواجهن في البيت، لأنه قبيح بالمرأة أن تتكلم في الكنيسة.

وبما أن الباحثين يتجادلون في هذا المقطع بلا نهاية، فسأعرض المواقف الخمسة الرئيسية التي طرحها باحثون مختلفون. (والواقع أن هناك ستة مواقف، لكني سأبيّن أن أحدها تطوير لموقف آخر، ولذلك سأعالجه بوصفه موقفًا فرعيًا.) وأسمح لنفسي أيضًا، بناءً على تقييمي الشخصي للحجج، بأن أرتّبها من الأضعف إلى الأقوى في رأيي.

207. يقول ذلك جون بايبر في "Recovering Biblical Manhood and Womanhood"، ص. 21.

الموقف 1: على النساء أن يصمتن في اجتماعات العبادة

لقد عانى الباحثون في محاولة فهم كيف يمكن لبولس أن يسمح للنساء بالكلام في اجتماعات الكنيسة في الأصحاح 11، ثم يبدو أنه يمنع هذا النشاط نفسه في الأصحاح 14. وحتى ستينيات القرن العشرين، حين كانت دونية المرأة وتبعيتها ما تزالان عمومًا أمرًا لا يُناقَش، كان الباحثون، منذ زمن أحد آباء الكنيسة مثل أوريجانوس وصولًا إلى المفسّر تشارلز رايري، يعتقدون أن بولس أراد للنساء أن يصمتن بوصف ذلك القاعدة العامة. وقد أضاف رايري، سنة 1958، على الأقل أنه قد تكون هناك استثناءات يمكن فيها للنساء أن يتكلمن.

ولكن إن كان سائر الكتاب المقدس هو دائمًا خير مفسّر لنص كتابي معيّن، فلا بد من رفض هذا الموقف التاريخي. فبولس، في الأصحاح 11 وفي معظم الأصحاح 14، أيّد كلام النساء في الكنيسة. ولذلك لا يمكننا أن نفهم تعليماته في هاتين الآيتين على أنها تعني أن على جميع النساء أن يصمتن في جميع الكنائس.

إن عدم معقولية هذا الموقف، الذي زاده اكتشاف مساواة المرأة بعد الستينيات حدةً، أدى إلى محاولات أكثر بكثير لفهم هذا المقطع.

الموقف 2: على النساء ألا يقيّمن النبوات

يربط هذا الموقف إسكات بولس للنساء بتعليمه قبل ذلك ببضع آيات: «فليتكلم اثنان أو ثلاثة من الأنبياء، وليقيّم الآخرون ما يقال بعناية» (ع 29). ويحتج بأن بولس لا يُسكت النساء إلا جزئيًا. فمع أن الأنبياء، رجالًا ونساءً، يجوز لهم أن يتكلموا، يستنتج هذا الموقف أن النساء لا يجوز لهن أن يقيّمن الرسائل النبوية.[208]

واستنادًا إلى الإشارة إلى الأزواج (ع 35)، يرى هذا الموقف أنه كان سيكون أمرًا محرجًا ثقافيًا، ومن ثم انتهاكًا لـ«الترتيب» الذي يلمّح إليه بولس، أن تقيّم امرأة في العالم القديم نبوات زوجها أو نبوات رجال آخرين علنًا.

208. ليس من المؤكد ما الذي قصده بولس بالضبط بـ«تقييم» النبوات. هل يشير إلى التمييز الروحي لمصدر النبوة، أم إلى النقد العقائدي لمضمونها، أم ربما إلى التأمل فيما قد يقوله الله من خلال مجموعة من النبوات، أم إلى تقرير كيفية تطبيق ما يقال؟

في هذا الموقف عدة نقاط ضعف. أولًا، «الآخرون» المذكورون في الآية 29 هم كل الحاضرين الذين يستمعون إلى نبوة شخص ما. هؤلاء هم من يقومون بالتقييم، وهذه الجماعة تشمل نساءً أخريات. ثانيًا، الآية 29 بعيدة بعض الشيء عن الآيتين 34 و35. والآيات التي بينها تنقل الموضوع من تقييم النبوات إلى ضبط الأنبياء أنفسهم بانتظار دورهم (ع 30-32). ولا يتكرر شيء من عبارة الآية 29 في الآيتين 34-35، ولا رابط بين العبارة المتعلقة بتقييم النبوة وتعليمات بولس للنساء بأن يصمتن. كما أن اقتراح بولس أن تتعلم النساء ويطرحن أسئلتهن في البيت لا علاقة له بتقييم النبوات. وأخيرًا، يتطلب تقييم النبوات موهبة التمييز الروحية، التي يمنحها الله للرجال والنساء على السواء (12: 10).

ومع أن هذا الموقف بعيد الاحتمال إلى هذا الحد، فإن كثيرين من الباحثين التكامليين ما زالوا يروّجون له ويطوّرونه.

الموقف 2أ: على النساء ألا يغتصبن دور الشيوخ الذكور

سمّيت هذا الموقف 2أ لأنه فرع أحدث من الموقف السابق. وهو أيضًا الموقف التكاملي السائد، الذي يتبناه غرودم وكارسون والزوجان كيلر. وهذا الموقف، وإن كان لا يُسكت النساء، يجد طريقة لجعلهن تابعات على نحو شامل. فهو يتفق مع الموقف 2 في أن بولس يمنع النساء من تقييم النبوات، ثم يقدّم هذا السبب الإضافي: الوحيدون الذين يمكنهم تقييم النبوات هم شيوخ الكنيسة، ولهذا لا يريد بولس أن تقوم النساء بذلك.

في رأيي، هذا الموقف أضعف حتى من الموقف الأصلي، لأنه يقوم بقفزة مزدوجة. فهو لا يقفز فوق الآيات 30-32 إلى الآية 29 فحسب، بل يقفز إلى سبب لا يرد في أي موضع من الرسالة كلها. فالمسوّغ الذي يقدّمه غرودم هو أن النساء يستطعن أن يتنبأن، أي أن يشاركن بإعلان تلقائي، لكن تقييم النبوات يتطلب سلطة عقائدية، وهي من اختصاص شيوخ لا يكونون إلا رجالًا. ثم يقفز هذا الموقف مرة أخرى، إلى 1 تيموثاوس 2: 12، التي تقول إن النساء غير مأذون لهن أن يعلّمن الرجال. وبالربط بين هذه الآية والآية السابقة، تُفهم الإشارة إلى أن على النساء أن يكنّ «في خضوع، كما يقول الناموس أيضًا» على أنها تعني الخضوع للشيوخ الذكور، كما تعلّم أدوار الجنسين في تكوين 2.

كل نقاط الضعف المذكورة في الموقف 2 تنطبق هنا أيضًا، لكن هذا الموقف استجلب نقدًا أكثر لعدة أسباب. فبولس لا يذكر الشيوخ في أي موضع من هذه الرسالة كلها. ومن دون بهلوانيات تكاملية جدية، لا شيء على الإطلاق في 1 كورنثوس يدل ضمنًا على سلطة الرجل، أو يلمّح إلى أن التعليم وظيفة مقصورة على الرجال.

ومع أن الكنائس الكاريزماتية الحديثة قد لا تسمح إلا للشيوخ بتقييم النبوات، فإن بولس في 1 كورنثوس 14 يثق بنضج الكنيسة كلها في تقديم الكلمات النبوية وتقييمها معًا. بل إن الإشارة الوحيدة الممكنة في الرسالة إلى قيادة ينبغي الخضوع لها هي إشارة إلى «بيت استفاناس» كله — الذي ينبغي للكورنثيين أن «يخضعوا» له. والواقع أن هذا البيت، مثل كل البيوت، كان سيضم بعض الإناث، ولذلك ربما تكون الحجة لصالح مناشدة الرجال الكورنثيين أن يخضعوا لنساء بيت استفاناس أقوى من الحجة لصالح السماح للشيوخ وحدهم بتقييم النبوات![209]

أما الربط بين 1 كورنثوس 14 و1 تيموثاوس 2: 12، فالآية الثانية كُتبت بعد ذلك بزمن طويل، ولذلك لم يكن أحد من قرّاء هذه الرسالة يعرفها. لم تكن موجودة في ذلك الوقت. ثم إن التكامليين يفسّرون 1 تيموثاوس 2: 12 تفسيرًا غير صحيح (كما سأبيّن في الفصل التالي)، وهذا يضمن أن أي ربط بين النصين لن يزيد تفسير هذا المقطع إلا ظلامًا لا نورًا.

أما كلمة «خضوع»، فلاحظوا أنه لا مفعول شخصي لها. فافتراض أنها تعني أن على النساء أن يخضعن للشيوخ الذكور هو تحميل للنص ما ليس فيه. والأفضل أن نرجع إلى المقطع الأوسع، ثم نفترض أن الخضوع هو لمبدأ «الترتيب» الذي يوجّه جميع تعليمات بولس في الأصحاحات 11-14. وحتى لو كان «الناموس» يشير إلى تكوين 2 (وهذا غير مرجح، لأن تكوين 2 لا يعلّم خضوع المرأة)، فإن الوصية الوحيدة في تكوين 2 هي وصية عدم الأكل من الثمرة. ومرة أخرى، يُستخدم تفسير خاطئ لمقطع آخر لتحريف قراءة هذا المقطع.

ولعل أوضح عيب في الموقف 2 والموقف 2أ هو أن الآية 35 لا تذكر التنبؤ ولا تقييم النبوات. بل تمنع النساء من طرح الأسئلة بدافع الرغبة في التعلم — وهذا موضوع مختلف كليًا.[210]

209. غير أن بولس في 1 كورنثوس 16: 15-16 ربما لا يتحدث عن بيت استفاناس بوصفهم شيوخًا، بل فقط بوصفهم خدّامًا (diakonia) وعاملين (sunergeo) ملهمين، يستحقون خدمة متواضعة من شعب الله أنفسهم.

210. لنقد أكثر تفصيلًا لهذا الموقف انظروا J. Greenbury, “1 Corinthians 14:34-35: Evaluation of Prophecy Revisited,” Journal of the Evangelical Theological Society 51 (2008): 721–31

الموقف 3: بولس يفنّد من يقولون إن النساء لا يجوز لهن الكلام

يحتج كثير من الباحثين بأنه كانت في كورنثوس جماعة ناموسية تعارض بولس، وأن بولس في الواقع يقتبس كلامها في الآيتين 34-35 ثم يفنّده في الآيات 36-38. وبهذا يتحدى بولس الطريقة التي كانت هذه الكنيسة تفرض بها قيودها الثقافية الخاصة على النساء. بعبارة أخرى، يُراد منا أن نتخيل علامتي تنصيص على جانبي الآيتين 34-35، إذ يُدرج بولس كلام هذه الجماعة الناموسية.

وما يجعل هذا الموقف معقولًا أن بولس يقتبس فعلًا في مواضع أخرى من الرسالة كلام أناس يعارضون رأيه، ثم يصحّحه. فمثلًا يكتب في 1 كورنثوس 6: «"كل الأشياء تحل لي"، تقولون — لكن ليس كل الأشياء توافق. "كل الأشياء تحل لي" — لكن لا يتسلط عليّ شيء».[211]

وبحسب هذا الموقف، يأتي تصحيح بولس مباشرة بعد اقتباسه كلام هؤلاء الناموسيين. ومع وضع هذا في الاعتبار، يمكن أن تكون الترجمة الممكنة للآية 36: «ماذا! أمنكم خرجت كلمة الله؟ أم إليكم وحدكم انتهت؟» وبعد هذا السؤال الذي يدحض به كلامهم، يوضح أن الرجال ليسوا وحدهم، بل الجميع، يستطيعون أن يصلّوا بألسنة ويتنبأوا (ومن هنا «يتكلمون») ما دام ذلك يتم بترتيب (ع 37-40).

ومما يعطي هذا الموقف مصداقية أيضًا أن الآيتين 34-35 تشبهان إلى حد كبير الطريقة الشائعة في معاملة النساء في الإمبراطورية الرومانية. فمثلًا يسجّل المؤرخ الروماني ليفيوس (Livy)، من القرن الأول، خطبةً لشيشرون (Cicero): «لقد احمرّ وجهي خجلًا حين مررت قبل قليل وسط جماعة من النساء ... يركضن في الأماكن العامة، ويسددن الشوارع، ويكلّمن أزواج نساء أخريات! ألم يكن في وسعكن أن تسألن أزواجكن الشيء نفسه في البيت؟ أأنتن أكثر فتنةً في العلن مع أزواج الأخريات منكن في البيت مع أزواجكن؟»[212]

ومع أن هذا الموقف ممكن، فإن نقطة ضعفه الرئيسية أن أيًّا من الاقتباسات الأخرى في الرسالة لكلام هؤلاء الناموسيين أو المعلمين الكذبة ليس بهذا الطول.

211. 1 كورنثوس 6: 12. انظروا أيضًا 1 كورنثوس 6: 13 و7: 1.
212. مقتبس في M. Lefkowitz and M. Fant, Women's Life in Greece and Rome، ص. 171.

الموقف 4: بولس لم يكتب هذا قط

يحتج كثير من علماء النقد النصي بأن هذه الآيات المتعلقة بصمت المرأة المفروض عليها لم تكن موجودة في رسالة بولس الأصلية.[213] بل إن قارئًا أو ناسخًا قديمًا — كان على الأرجح يحمل نظرة تجعل المرأة تابعة — خطّها في الهامش. ثم أدخلها نسّاخ لاحقون في نص الرسالة نفسه.

وقد حدد الباحثون في أقدم النسخ مرات كثيرة اختلافات بين المخطوطات جعلتهم يشككون في أصالة نصوص مختلفة، ويسمّونها إقحامًا. وإن لم تكونوا قد سمعتم بهذا من قبل، فقد يُقلقكم. وقد تتساءلون هل يمكننا أن نثق بالكتاب المقدس الذي بين أيدينا. ومع ذلك، بفضل عمل نقّاد النصوص الممتد عبر قرون، يمكننا أن نعرف بيقين نسبته 99.9% أن لدينا الصياغة الأصلية لـ99.9% من نصوصنا الكتابية. غير أن هذا المقطع قد يندرج في نسبة الـ0.1% غير المؤكدة.

تأملوا ثلاثة أدلة تؤيده. أولًا، لا أحد يعرف يقينًا أين يقع هذا المقطع فعلًا في الرسالة — بل إن الآيتين 34-35 لا تظهران في موضعهما الحالي من الأصحاح إلا في المخطوطات الشرقية. أما أقدم المخطوطات الغربية فتضع هاتين الآيتين نفسيهما بعد الآية 40. فكّروا في ذلك: حتى غيّر إيرونيموس (Jerome) ذلك في القرن الرابع، كانت الكنيسة الناطقة باللاتينية تنتقل مما هو الآن الآية 33 إلى الآية 36. وبحسب هذا الموقف، بعد أن كتب أحد النسّاخ الأوائل ما هو الآن الآيتان 34-35 في الهوامش، أدخله ناسخان لاحقان، كانا ينسخان تلك النسخة، في كلام بولس — أحدهما في موضع، والآخر في موضع آخر.

ثانيًا، هذا يفسّر التناقضات. لماذا يناقض بولس مناقضة صريحة ما قاله في المقطع المتعلق بأغطية الرأس، حيث النساء يصلّين ويتنبأن بفرح مع الرجال؟ ولماذا يستعمل الكلمة نفسها، «الصمت»، التي ترد في موضع سابق من الأصحاح، ثم يحمّلها فجأة معنى مختلفًا جدًا؟ ففي الآيتين 28 و30 يكون الصمت مؤقتًا ولا يمنع أحدًا من ممارسة المواهب، أما في الآية 34 فيبدو الصمت مشدَّدًا ودائمًا. وكما ذُكر سابقًا، يقول بولس «الجميع» و«كل واحد منكم»[214]، وهو بذلك يدعو النساء إلى أن يرفعن

213. باحثون مثل غوردون في في "The First Epistle to the Corinthians"، وريتشارد هايز (Richard Hays) في "First Corinthians, Interpretation"، وفيليب باين في "Man and Woman: One in Christ"، كلهم يتبنون هذا الموقف.
214. انظر١١ الآيات 23-24 و36 و31.

أصواتهن. كما يبدو أن خط الفكر في الأصحاح يسري على نحو أفضل بكثير من دون الآيتين 34-35. ولكن انتبهوا، فهما لا تتلاءمان على نحو أفضل بعد الآية 40 أيضًا.

ثالثًا، استعمال عبارة «كما يقول الناموس أيضًا» ليس من أسلوب بولس كثيرًا. فلا توجد وصية في العهد القديم تأمر بصمت المرأة أو خضوعها. وبولس عادةً يستعمل «مكتوب» للإشارة إلى نصوص كتابية محددة. وفي المرتين اللتين يستعمل فيهما «كما يقول الناموس» للإشارة إلى وصية من الناموس، يستعمل فعلًا آخر (legō) ويقتبس تلك الوصية.

ورغم هذه الحجج الوازنة وغيرها،[215] لا يقبل جميع الباحثين هذا الموقف. فكلمتا «الكلام» و«الصمت» مستعملتان فعلًا في الأصحاح 14 (وإن كانتا مستعملتين بطريقة مختلفة)، وهاتان الآيتان تظهران فعلًا في جميع المخطوطات القديمة التي بين أيدينا، وإن كان موضعهما غير مؤكد. ومن منا يريد أن يكون مذنبًا بطرح شيء ربما أوحى به الله جانبًا؟ ومع أنني أميل إلى تبنّي هذا الموقف، فلا بد لي أن أسأل هل يمكن أن يكون هناك حل آخر للصعوبات التي نجدها فيه.

الموقف 5: المتعلّمون المُخِلّون يقوّضون الترتيب

يفترض هذا الموقف أن بولس يعالج مشكلة فريدة خاصة جدًا بكنيسة كورنثوس، ولذلك فكلامه ليس أمرًا لجميع الكنائس، وإن كانت فيه بعض الدروس الدائمة لجميع الكنائس.[216]

ومفتاح هذا الموقف أن الأصحاحات 11-14 تركّز على الترتيب اللائق في العبادة. ففي 11: 3-16 يركّز بولس على اللباس المناسب. وفي 11: 17-34 يُصلح بولس ممارسات خاطئة تتعلق بعشاء الرب. وفي 14: 11-32 يعالج الاستعمال غير المنتظم للمواهب الروحية — وتحديدًا، يصحّح ثلاث فئات من الناس يتكلمون في غير أوقاتهم: الشخص

215. مثلًا، لا يستشهد بولس في أي موضع آخر بالناموس ليضع قاعدة للعبادة المسيحية، التي هي تعبير عن كوننا في الروح، لا تحت الناموس. كذلك فإن جميع الأوامر الأخرى في الرسالة موجهة إلى كنيسة كورنثوس. أما الآية 34 فتوجّه أمرًا إلى «النساء في الكنائس»، وهذا، بما أنه يأتي مباشرة بعد «جميع كنائس القديسين»، قد يشير إلى النساء في جميع الكنائس. فهذا الأمر في غير موضعه على ما يبدو. كذلك لا يوجد مقطع طويل آخر يظهر في موضعين مختلفين تمامًا في مخطوطات قديمة مختلفة من دون أي سبب ظاهر. كل هذا يجعل من المعقول أن يكون المقطع إضافة لاحقة.

216. مع أن بعض الترجمات تُلحق عبارة «كما في جميع كنائس القديسين» ببداية هذا التعليم الذي يُسكت النساء، فإن هذا الموقف يرى أنها تتلاءم أكثر مع نهاية العبارة السابقة عن أولوية الترتيب. وتنقسم تسع وعشرون ترجمة إنجليزية فى هذا الأمر إلى نصفين تقريبًا. انظروا www.bit.ly/3mGpFPT

الذي يتكلم علنًا بلسان من دون وجود مترجم (ع 28)، والشخص الذي لديه كلمة نبوية ولا ينتظر دوره (ع 30-32)، وأخيرًا النساء اللواتي يتكلمن في غير الوقت المناسب أو بطريقة غير مناسبة (ع 34-35). وفي الحالات الثلاث كلها، لا يهتم بولس بمضمون الكلام بقدر ما يهتم بالطريقة غير المنتظمة التي يُقال بها.

ومع أننا لا نستطيع أن نعرف يقينًا ما السلوك الذي كان بولس يصحّحه بالضبط لدى النساء الكورنثيات المجتمعات في اجتماعات العبادة، فيمكننا مع ذلك أن نخمّن، استنادًا إلى معرفتنا بالثقافات القديمة، أن النساء كنّ «يثرثرن في الكنيسة» بطريقة تُخلّ بالاجتماع. ففي ثقافة أوسع لم تكن فيها أي امرأة تقريبًا متعلمة، وكان التعلم فيها يتم شفهيًا لا بالقراءة، ولم يكن يُسمح فيها للنساء عادةً بالمشاركة في الاجتماعات الدينية، صارت هؤلاء النساء المسيحيات، اللواتي ربما كنّ قد أخذن دورهن في مشاركة نبوة، يتكلمن الآن في غير دورهن. فبدلًا من الإصغاء، كنّ يسألن بحماس من حولهن عما يقال أو عما يعنيه. ولذلك يطلب منهن بولس أن يكففن عن الإخلال بالاجتماع، وأن يؤجلن الحديث إلى أن يكنّ مع أزواجهن في البيت. يقول بولس: «إن كن يردن أن يستفسرن عن شيء فليسألن أزواجهن في البيت» — فأزواجهن، الذين كانوا على الأرجح في جميع الحالات تقريبًا أكثر تعلمًا منهن، ربما استطاعوا أن يجيبوا عن أسئلتهن الكثيرة.

بعبارة أخرى، هذا الأمر بالصمت ليس مبنيًا على «نظام خليقة» متأصل في النساء، ولا على عقيدة السلطة والخضوع بين الرجل والمرأة، بل غايته أن يعيد الترتيب إلى اجتماع كنسي كان سيكون لولا ذلك فوضويًا ومضطربًا. وبحسب هذا الموقف، وخلافًا للحجج التكاملية، ليس ما يقلق بولس أن النساء يعلّمن، بل أنهن يتعلّمن بطريقة لا تخدم ترتيب الاجتماع.[217] وتلتقط الصياغة التفسيرية الحرة The Message التي وضعها يوجين بيترسون (Eugene Peterson) هذا المعنى: «على الزوجات ألا يُخللن بالعبادة، فيتكلمن حين ينبغي أن يُصغين، ويطرحن أسئلة يكون من الأنسب أن يطرحنها على أزواجهن في البيت».

وبالنسبة إلى بولس، يقتضي الحفاظ على الترتيب في الكنيسة مراعاة الحساسيات الثقافية المحلية. فكما كان «قبيحًا» (11: 6) بالنساء ألا يلبسن أغطية الرأس، ربما كان

217. شارك يوحنا الذهبي الفم بولسَ رأيه بعد ثلاثة قرون: «في ذلك الحين كانت النساء، بفضل مثل هذا التعليم، يلزمن الصمت؛ أما الآن فكثيرًا ما تكون بينهن ضجة كبيرة، وصخب شديد وكلام كثير، ولا يكون ذلك في أي مكان بقدر ما يكون في هذا المكان [الكاتدرائية] ... وهكذا يعمّ الاضطراب كل شيء، ويبدو أنهن لا يفهمن أنهن إن لم يهدأن فلن يستطعن أن يتعلّمن ما هو نافع. فحين يجاهد كلامنا [عظتنا] ضد الثرثرة، ولا يلتفت أحد إلى ما يقال، فأي خير يمكن أن يعود عليهن منه؟» (مقتبس في Homily IX, Nicene and Post-Nicene Fathers.)

«قبيحًا» (14: 35) في تلك الثقافة أن يُخلّ الناس، ولا سيما النساء، ببيئة التعلم.

ولمن قد يتهم منا بولسَ بالتمييز ضد المرأة هنا، فلنتذكر أن بولس كان يسعى إلى غرس كنائس تتمسك بقيم الإنجيل، وكان في الوقت نفسه «يصير للكل كل شيء» لكي يربح بعضهم.[218] لم يكن بولس يجعل من الثقافة التي كانت الكنيسة تسعى إلى الوصول إليها مثالًا أعلى، بل كان، بدافع كرازي، يحاول أن يتكيف مع آدابها الاجتماعية من دون أن يساوم على القيم الأساسية. وبالطبع كان يعرف أنه حيث يكون التعلم أمرًا حاسمًا، يحتاج المتعلمون المُخِلّون إلى بعض الإرشادات لخير الجميع.

ومن اللافت أننا إذا طبقنا هذا الاهتمام بالحساسية الثقافية في سياق غربي حديث، فمن الحكمة أن نحرص على أن تشارك النساء وتتعلم بالطريقة نفسها التي يشارك بها الرجال ويتعلمون. بل سيكون من «القبيح» ألا نفعل ذلك.

هل هذا هو الموقف الصحيح؟ أظن أنه قد يكون كذلك.[219] لكننا لا نستطيع أن نكون متأكدين تمامًا، وهذا يقودنا إلى ملاحظة أخيرة.

مقطع غير واضح

مع أن على الكنيسة أن تواصل مساءلة تفسيراتنا للكتاب المقدس وأن تتقدم نحو مستويات متزايدة من الوضوح والاقتناع، فمن المهم أن نعترف بأن هذا المقطع ما يزال يثير من الأسئلة أكثر مما يقدّم من أجوبة. وحتى أقوى المواقف مواقف مبدئية غير قاطعة. ولذلك يلزمنا التواضع.

إن اخترنا، خوفًا من عصيان كلمة الله، التفسير الأكثر محافظة (الموقف 1)، فإن إسكات النساء التام ينبغي أن يشمل أيضًا امتناعهن عن الترنيم، لأن بولس يذكر الترنيم بوصفه نوعًا من الكلام.[220] أما أن ندّعي المحافظة ثم نكتفي بمنع النساء من تقييم النبوات أو من الوعظ، فيبدو لي اعتباطيًا تمامًا وغير متسق. وما دمنا نتحدث عن الاتساق، فإن كنا نتبع النهج المحافظ، فلنكن متسقين حقًا ولنطلب من جميع النساء أن يُعددن أغطية رؤوسهن للاجتماع الكنسي القادم! وبما أن باحثين مرموقين

218. 1 كورنثوس 9: 23

219. ومع ذلك لا بد لي أن أعترف، مع من يفضّلون الموقف 4 عليه، بأن الدعوة إلى صمت النساء، التي تُذكر ما لا يقل عن ثلاث مرات من دون أي تقييد، قد تشكّل حظرًا مطلقًا (لا حظرًا خاصًا بموقف معيّن فحسب) لكل مشاركة صوتية من النساء في الاجتماعات.

220. انظروا كولوسى 3: 16-17

ينتهون في دراستهم لهذا المقطع إلى مواقف مختلفة إلى هذا الحد، فإن الأمر الوحيد الذي يمكننا جميعًا أن نتفق عليه بالتأكيد هو أن هذا المقطع مقطع غير واضح. ولذلك — بحسب أي منهج تفسيري سليم — ينبغي ألا يكون أساسًا لاستنتاج عقائدي أو لأمر عام في ممارسة كل كنيسة في كل مكان.

لا 1 كورنثوس 11 ولا 1 كورنثوس 14 يستبعدان إمكانية أن تقود النساء في الكنيسة والمجتمع، أو أن يقفن إلى جانب أزواجهن شريكات لهم، أو أن يعظن الرجال. وكل هذا رغم أن التكامليين قدّموا هذه الآيات نفسها دفاعًا عن موقفهم. ويبقى لنا مقطع حاسم آخر لنبحث فيه.



7

1 تيموثاوس 2: 11-15

«كثيرًا ما تقوم معارضة خدمة النساء على أساس نص واحد لبولس يكاد يكون وحده — 1 تيموثاوس 2: 11-12. ومهما كان معنى هذا النص الصعب وسياقه، فلا بد من وزنه في ميزان جميع النصوص الكتابية الأخرى المتعلقة بالمسألة نفسها. وهذا يبيّن، في تقديري، أن نص 1 تيموثاوس يخاطب موقفًا محدودًا.» ديفيد شولر (David Scholer)[221]

قرب نهاية هاري بوتر والأمير الهجين (Harry Potter and the Half-Blood Prince)، يحيط الأعداء بدمبلدور (Dumbledore). فيتوسل إلى البروفيسور سناب (Snape): «سيفيروس ... أرجوك!» ويقتل سناب دمبلدور فيحطم قلوبنا، ونستنتج أن سناب كان طوال الوقت عميلًا خائنًا لفولدمورت (Voldemort).

ولكن مهلًا. ففي الكتاب الأخير فقط نكتشف (مع هاري) أن الأمور لم تكن كما بدت. فحين يكشف هاري ذكريات سناب (التي سُكبت في حوض الذكريات السحري) يتبيّن أن سناب أحبّ أم هاري حين كان شابًا، وأنه، مهما كان بغيضًا، كان مخلصًا لدمبلدور وهاري طوال الوقت.

بل إن دمبلدور، الذي كان يعلم أنه يحتضر بسبب لعنة لا شفاء منها، كان قد حثّ سيفيروس مسبقًا على أن يقتله ليضمن لسناب ثقة فولدمورت، فيستطيع سناب بدوره أن يستغلها لمصلحة هاري.

والآن وقد عرفنا القصة، تكتسب عبارة «سيفيروس ... أرجوك!» معنى مختلفًا تمامًا. فهي ليست، كما ظننا من قبل، توسّل دمبلدور اليائس إلى سناب أن يعفو عنه، بل أن

221. https://www.fuller.edu/womeninministry/

يقتله. وبعيدًا عن أن تكون هذه اللحظة انتصارًا للشر، فإنها ستقود في الحقيقة إلى الانتصار النهائي على الظلام.

أذكر هذا التشبيه[222] لأبيّن أهمية أن نكون متشبعين بخط القصة قبل أن نحاول أن نفهم فهمًا صحيحًا سطرًا هنا أو آية هناك، قد يُساء فهمها تمامًا إذا انتُزعت من سياقها.

يقع الباحثون التكامليون في خطأ أخذ ثلاثة سطور صغيرة من قصة طويلة جدًا (المقاطع الكتابية الثلاثة التي نعمل عليها حاليًا) وانتزاعها من سياقها. وبما أنهم ملتزمون بسلطان الكتاب المقدس (وهذا أمر حسن)، فهم مستعدون للتمسك بتفسير لمقطع ما مع أن الكتاب المقدس ككل لا يؤيد ذلك التفسير. وإذ يناقضون خط القصة الرئيسي لخطة الله الاسترداية، فإنهم يجعلون من النظام الأبوي مثالًا أعلى ويسعون إلى تخليده، مع أن مؤلف القصة الكبرى يخطط للقضاء عليه.

والواقع أنه لا يوجد مقطع آخر يُستشهد به بانتظام وتأكيد أكثر لإثبات أن الترتيب التراتبي هو مشيئة الله من كلمات بولس لتلميذه في 1 تيموثاوس 2: 8-15. فحين تفشل جميع الحجج الكتابية الأخرى، يكون هذا هو المقطع الذي يلجأ إليه التكامليون في النهاية. بل إن بعض الباحثين التكامليين يعدّونه المقطع الموثوق الوحيد الذي يقف بين النساء وسيامتهن لقيادة الكنيسة.[223]

تحذير سريع قبل أن نمضي أبعد: ما تبقى من هذا الفصل هو الأكثر تقنية والأطول في هذا الكتاب. فإن لم تكونوا قادرين على احتمال هذا القدر من التعقيد التفسيري، فلا حرج عليكم أن تقفزوا مباشرة إلى الفصل التالي، لكن اعلموا أنني سأبيّن أن 1 تيموثاوس 2: 11-15، النص الحصين الأول للتكاملية، لا يؤيد التكاملية في الواقع.

ها هو المقطع، مع الآيات المجاورة له، التي تمنحه شيئًا من السياق:

8 فأريد أن يصلي الرجال في كل مكان، رافعين أيادي طاهرة، بدون غضب ولا جدال. 9 وكذلك أريد أن تتزين النساء بلباس الحشمة، مع ورع وتعقل، لا بضفائر أو ذهب أو لآلئ أو ملابس كثيرة الثمن، 10 بل بأعمال صالحة، كما يليق بنساء متعاهدات بتقوى الله.

222. الفضل في هذا التشبيه لريبيكا ماكلافلين (Rebecca McLaughlin) في "Confronting Christianity" (الفصل 8).
223. «لا توجد إلا حجة واحدة صحيحة ضد سيامة النساء ... وهي المنع الوارد في 1 تيموثاوس 2: 12»، كما تقول سوزان فوه (Susan Foh) في "Women in Ministry: Four Views" (1989)، الفصل 2.

11 لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع. 12 لست آذن للمرأة أن تعلّم ولا أن تتولّى السلطة على الرجل؛ بل عليها أن تكون في سكوت. 13 لأن آدم جُبل أولًا ثم حواء. 14 وآدم لم يكن هو المخدوع، بل المرأة هي التي خُدعت فصارت خاطئة. 15 ولكن النساء سيخلصن بولادة الأولاد، إن ثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل.

3: 1 صادقة هي الكلمة: إن ابتغى أحد الأسقفية، فيشتهي عملًا صالحًا.

النظرة التكاملية

الآيات الأساسية التي تدعم اللاهوت التكاملي هي: «لست آذن للمرأة أن تعلّم ولا أن [تمارس] السلطة على الرجل ... لأن آدم جُبل أولًا ثم حواء». ويفسّر التكامليون هذه الآيات على أنها تعني في جوهرها ما يلي:

بصفتي رسولًا، أقرّر أنه في جميع الكنائس وفي جميع المواقف، لا يجوز للمرأة أن تعلّم رجلًا أو أن تمارس عليه سلطة رعوية، لأنه لا يليق إلا بالرجل أن يعلّم رجلًا آخر أو أن يمارس عليه السلطة. والسبب أن آدم خُلق قبل حواء، ولذلك فهو يقود حواء بحق. و«نظام الخليقة» هذا ينطبق على جميع الجماعات التقية في المستقبل — فالسلطة الروحية الذكورية هي المعيار الذي يفضّله الله.

بعبارة أخرى، حين تعلّم امرأة الرجال في كنيسة أو تكون في موقع سلطة على رجل، فإنها تتحدى كلًّا من توجيه رسولي دائم وشامل و«نظام الخليقة».

ومن المهم أن نلاحظ أن التكامليين منقسمون حول ثلاث مسائل: هل ينطبق هذا المبدأ التراتبي على البيت والكنيسة فقط أم على المجتمع أيضًا؛ وهل تشير عبارة «تعلّم أو تمارس السلطة» إلى نشاطين (التعليم والقيادة) أم إلى نشاط واحد (التعليم بأسلوب القائد)؛ وهل تُستبعد الإناث من القيادة العليا في الكنيسة فقط أم من جميع مستويات القيادة في الكنيسة حيث يكون الرجال تابعين. وفي المسائل الثلاث كلها، ينتهي معظم كبار التكامليين، مثل كوستنبرغر وشراينر، إلى التفسيرات الأكثر تشددًا. فمثلًا يكتب كوستنبرغر: «كان في وسع بولس بسهولة أن يقول: "لا أسمح للمرأة أن تكون شيخًا"، لكنه قال بدلًا من ذلك: "لا أسمح للمرأة أن تعلّم أو تمارس السلطة على الرجل"، مما يدل على أن هذه الوظائف هي ما ينبغي ألا تقوم به، لا المنصب الذي يتم فيه هذا التعليم وممارسة السلطة فحسب».[224]

224. المصدر: www.bit.ly/3mG7n13

ماذا تعني كلمة «يعلّم» (باليونانية: didaskein)؟ يقول شراينر إنها «نقل مادة ذات سلطان». وعليه، فما يقلق بولس ليس فقط أن تعلّم النساء الرجال الضلال، بل أن يعلّمنهم أصلًا. فليس من اللائق أن تعلّم النساء الرجال حتى الحق. يجوز للنساء في الكنيسة أن يعلّمن نساءً أخريات وأطفالًا،[225] لكن لا الرجال البالغين. وتُفسَّر آية واحدة، أعمال 18: 26، بطريقة تسمح باستثناء يجيز للنساء تعليم الرجال: خارج الاجتماع الكنسي الرسمي، وعلى انفراد، قد يُسمح لامرأة بأن تعلّم رجلًا.

وبحسب الحجة التكاملية، فإن ممارسة السلطة في 1 تيموثاوس 2: 12 (باليونانية: authentein) لا تشير إلى استعمال سلبي للسلطة، بل إلى نوع إيجابي منها يمارسه الرعاة الذكور في الكنيسة.

ويقدّم بولس المسوّغ لتوجيهه الرسولي: «لأن آدم ...». وأداة الربط «لأن» (باليونانية: gar) تفيد التعليل، كما يقول الباحثون التكامليون. فسبب بولس هو أن «آدم جُبل أولًا ثم حواء». وكلمتا «أولًا» و«ثم» تتضمنان ترتيبًا في المرتبة. وهذا، كما يقولون، يثبت أن بولس قرأ تكوين 2 على أنه تعليم عن سلطة آدم على حواء قبل السقوط.

ويتابع بولس: «وآدم لم يكن هو المخدوع، بل المرأة هي التي خُدعت فصارت خاطئة» (ع 14). ويميل التكامليون إلى تفسير هذا على أنه إشارة إلى تعاون حواء مع مساعي الشيطان لقلب نظام الخليقة (إذ إن الشيطان، مع أن آدم كان صاحب الأمر، تجاوز سلطته بمخاطبة حواء، وحواء، متجاوزةً سلطة آدم، تعاملت مع التجربة من دون الرجوع إلى آدم).

ويذكّرنا التكامليون بحق بأن تقسيم الأصحاحات كما هو بين أيدينا الآن غير موجود في رسالة بولس الأصلية. والواقع أن تسلسل الفكر يستمر. فبولس ينتقل مباشرة إلى موضوع من يمكن أن يكونوا أساقفة في الكنيسة (3: 1). ويتخيل التكامليون أن بولس يلمّح بذلك إلى ما يلي: «لقد ذكرت أن النساء لا يجوز لهن أن يعلّمن الرجال أو يمارسن السلطة عليهم، فلا بد أنك تتساءل من يمكنه أن يفعل ذلك. والجواب هو ... الأساقفة الذكور».

وإلى جانب أن هذا تفسير جديد كليًا تقريبًا، اختُرع قطعةً قطعة منذ سبعينيات القرن العشرين،[226] اسمحوا لي أن أعرض عدة مخاوف لديّ إزاء التفسير التكاملي (كما عُرض

225. انظروا تيطس 2: 3-4 و2 تيموثاوس 1: 5؛ 3: 15 أمثلةً على ذلك.

226. كثيرًا ما يعترض التكامليون على التفسيرات التبادلية لـ1 تيموثاوس 2: 11-14 بحجة أنها جديدة. لكن هذه التهمة سيف ذو حدين. فبما أن معظم معلمي الكتاب المقدس في تاريخ الكنيسة حتى النصف الثاني من القرن العشرين كانوا يقرؤون النصوص الكتابية المتعلقة بالنساء تلقائيًا من خلال عدسة النظام الأبوي أو كراهية النساء

أعلاه).

كنيسة متضررة بشدة

هذه الرسالة لم تُكتب إلينا، بل من أجلنا. وهي بالطبع كتاب موحى به، ولذلك تحوي حقًا خالدًا لجميع الكنائس، لكن هذه الحقائق يجب أن تُستخرج بعناية على أساس الموقف الفريد الذي كانت الرسالة تعالجه. وحين نغفل عن النظر في هذا الموقف التاريخي المحدد، ونفترض ببساطة أن الكلمات موجهة إلينا، نكون أكثر ميلًا إلى إساءة فهم معناها وتطبيقها. فما الموقف الذي قد يكون بولس يعالجه في 2: 11-15؟

لا نحتاج إلا إلى أن نقرأ مقطعنا في ضوء جميع الآيات التي تسبقه. فبعد التحية الافتتاحية، يدخل بولس في صلب رسالته بتكليف تيموثاوس: «امكث في أفسس لكي توصي قومًا أن لا يعلّموا تعليمًا آخر، ولا يُصغوا إلى خرافات وأنساب لا حد لها» (1: 3-4). ثم يبقى هؤلاء «القوم» حاضرين في المشهد طوال بقية الرسالة، إذ يكتب بولس أن «قومًا قد زاغوا» عن «قلب طاهر، وضمير صالح، وإيمان بلا رياء»، و«انحرفوا إلى كلام باطل» (1: 5-6). ورجال مثل «هيمينايس والإسكندر» قد «انكسرت بهم السفينة من جهة الإيمان». وقد بلغ هؤلاء الرجال من البعد حدًا جعل بولس «يسلّمهما للشيطان لكي يؤدَّبا حتى لا يجدّفا» (1: 19-20).

وبعد هذا الوصف للمعلمين الكذبة مباشرة، يقول بولس: «أطلب إذن ...» (2: 1) — و«إذن» تعني «لذلك» — ثم يقدّم تعليمات عن استعادة الكنيسة لحسّ الرسالة بالصلاة (2: 1-7)؛ وعن امتناع الرجال عن الغضب والجدال (2: 8)؛ وعن تجنّب النساء المظهر المتباهي والمغري (2: 9-10)؛ وعن تعلّم المرأة (بصيغة المفرد) بخضوع (2: 11)، وعدم تعليمها الرجل أو تولّيها السلطة عليه (2: 12).

وحين يتعلق الأمر بتفسير رسائل بولس، يجب أن نتذكر أننا نستمع إلى طرف واحد فقط من مكالمة هاتفية، يتحدث فيها بولس إلى شخص آخر، لا إلينا. وأحيانًا يتعين علينا أن نخمّن، مستعينين بالأدلة في الرسالة نفسها، كيف ستُصلح كل تعليمة من تعليمات 1 تيموثاوس 2 الكنيسةَ وتعالج آثار المعلمين الكذبة. وحين نفعل ذلك ندرك مثلًا أنه بما أن الكنيسة التي يمزقها التعليم الكاذب قد تفقد حسّ الرسالة، فيمكننا أن نفهم التعليمة المتعلقة باستعادته بالصلاة. وربما أدت البدعة والانقسام إلى أن يتصرف الرجال بغضب تجاه رجال آخرين أو تجاه نساء مخدوعات أو غير محترمات،

ومن هنا تعليمة بولس بأن يرفع الرجال أيادي طاهرة في الصلاة «بدون غضب ولا جدال». وكذلك ربما شجعت البدعة بطريقة ما مواقف وتصرفات متباهية ومتكبرة وغير قابلة للتعلم ومستقلة، ولا سيما لدى بعض النساء الثريات، تجاه الرجال خصوصًا، ومن هنا التعليمات بأن تتعلم النساء من كلمة الله بخضوع، وأن يتعاملن مع الرجال بمزيد من الإكرام. والنقطة التي أريد بيانها هي أن بولس يعطي توجيهات تعالج موقفًا صعبًا محددًا يعرف عنه أكثر مما نعرف، وإن كان في الرسالة بعض الأدلة على ماهيته. وإلا فلماذا يُشجِّع الرجال وحدهم على الصلاة؟ ولماذا يُطلب من النساء وحدهن أن يتعلّمن؟

عند هذه النقطة، يتضح من 1 تيموثاوس 1 أن بعض الرجال يسيئون التصرف، ولكن خارج 2: 9-15، إلى أي حد يمكننا أن نتأكد أن النساء قد تجاوزن الحدود؟ يقدّم 1 تيموثاوس 5 جوابًا: فبعض النساء تخلّين عن «تكريسهن للمسيح» بسبب «شهواتهن الحسية» (ع 11). وكثيرات منهن «بطّالات يطفن في البيوت»، «مهذارات وفضوليات، يتكلمن بما لا يجب» (ع 13). وهن يعطين المقاوم «علةً من أجل الشتم» (ع 14). «فإن بعضهن قد انحرفن وراء الشيطان» (ع 15) — وهذه إشارة إلى الاستسلام للبدعة.[227] وكلمات بولس الأخيرة في رسالته تبيّن أن التعليم الكاذب هو أصل المشكلة: «أعرض عن الكلام الباطل الدنس، ومخالفات العلم الكاذب الاسم، الذي إذ تظاهر به قوم زاغوا من جهة الإيمان» (6: 20-21). نحن لا نعرف بالضبط كيف أدى التعليم الكاذب إلى سوء تصرف بعض النساء، لكن هناك صلة أكيدة، أوضح ما تكون في الطريقة التي يقارن بها بولس هؤلاء النساء الأفسسيات بحواء التي «خُدعت» هي نفسها من الشيطان.[228]

فاللافت إذن لدى معظم الباحثين التكامليين الذين كتبوا عن 1 تيموثاوس 2: 11-15 هو قلة من يعترفون منهم بأن أثر التعليم الكاذب هو الهمّ الملحّ في رسالة بولس كلها، بما في ذلك هذا المقطع. فكاثي كيلر، مثلًا، تقتبس كلمات بولس: «أكتب إليك هذه التعليمات حتى إن كنت أبطئ، تعلم كيف يجب أن يتصرف الناس في بيت الله»، وتستنتج: «[يمكن] النظر إلى الرسالة كلها ... على أنها دليل لغرس الكنائس — كيف تؤسَّس كنيسة ... بحسب مبادئ بيت الله».[229] وهذا غير صحيح، كما يلاحظ حتى شراينر.[230] ويبدو أيضًا أنها تغفل عن عبارة — «إن كنت أبطئ» — تكشف، مع

227. في رسالتي بولس إلى تيموثاوس، تتعلق الإشارات إلى الشيطان في الغالب بالتعليم الكاذب والحياة الفاسدة التي يروّج لها — انظروا 1 تيموثاوس 1: 20؛ 2: 14؛ 4: 1؛ 2 تيموثاوس 2: 23-25.

228. 1 تيموثاوس 2: 14

229. كاثي كيلر في "Jesus, Gender and Justice." 1 تيموثاوس 3: 15.

230. التفاسير القديمة جدًا لـ1 تيموثاوس ، مثل ، تفسير ج. ن. د. كيلي (J.N.D. Kelly) لسنة 1963 وتفسير دونالد

مؤشرات أخرى في كل قسم رئيسي من الرسالة، عن جهود بولس الملحّة لإصلاح كنيسة نهبها المعلمون الكذبة. أما كوستنبرغر وغرودم، فمع اعترافهما بأن بولس يكتب الرسالة لمكافحة البدعة وآثارها، فإنهما على نحو غريب يعاملان هذا المقطع بوصفه استطرادًا عن هذه الأولوية[231] — كأن بولس يتوقف عن همّه الرئيسي وعن تسلسل فكره السابق ليواجه الآن بعض النساء اللواتي كنّ، في خضم التعليم الكاذب، يحاولن أن يعلّمن الرجال الحق. غير أنه ليست المقاطع السابقة واللاحقة وحدها، بل الآية 12 نفسها تحوي علامات على أن بولس يصحّح موقفًا كانت فيه بعض النساء يخطئن.

لستُ آذنُ في الوقت الحاضر

فلنستكشف كلمة بولس epitrepō، التي تترجمها الإنجليزية بعبارة من أربع كلمات (I do not permit) لوصف السلوك الذي يجري تصحيحه: «"لست آذن" [epitrepō] للمرأة أن تعلّم ولا أن تتولّى السلطة ...»

لاحظوا أولًا أن الفعل في زمن المضارع، وهذا يجعل فرضية أن بولس يصدر هذا المنع لهذا الموقف بعينه معقولة جدًا. ومع ذلك يصرّ غرودم على أن «قوة النص اليوناني» تعني أن هذه واحدة من «الوصايا التي تنطبق على جميع المسيحيين في جميع الأزمنة».[232] وفي هذا الإصرار مبالغة. فكما يقول الباحث دوغلاس مو، وهو تكاملي مثله: «أما زمن الفعل المضارع، فلا يسمح لنا إلا باستنتاج أن بولس كان وقت الكتابة يصرّ على هذه المحظورات».[233] وهذا الاعتراف وحده كافٍ لإضعاف أي تصريحات بأن بولس يطلق مرسومًا عامًا. وبما أن الكلمات الإنجليزية "I do not permit" («لست آذن») توحي بأن مرسومًا خالدًا وعامًا يصدر هنا، يقترح مو نفسه أن ترجمة أفضل هي "I am not permitting ..." (أي «لستُ آذنُ في الوقت الحاضر ...»).[234]

وإضافة إلى ذلك، فإن دراسة استعمال هذه الكلمة في مواضع أخرى من الكتاب المقدس تؤكد أن هذا على الأرجح منع خاص بموقف معيّن. ففي جميع مواضع استعمال epitrepō في الترجمة اليونانية للعهد القديم، وكذلك في الأغلبية الساحقة

231. كوستنبرغر في "Women in The Church," ص. 152-155، وغرودم، Evangelical Feminism and the Biblical Truth، ص. 280-284. الفضل لأندرو بارتليت في "Men and Women in Christ." (ص. 390).
232. Wayne Grudem, Evangelical Feminism and the Biblical Truth، ص. 301
233. يقول ذلك دوغلاس مو في "Recovering Biblical Manhood and Womanhood," الفصل 9.
234. «ترجمة إنجليزية أكثر أمانة للاستعمال اليوناني للكلمة هي "I am not permitting" ("لستُ آذنُ في الوقت الحاضر")، مما يدل على أمر جديد خاص بحالة بعينها، جاء ردًّا على مشكلة في أفسس، ولا يحمل ثقل التقليد الكنسي». Moo, 202

من المواضع السبعة عشر الأخرى التي ترد فيها في العهد الجديد، تشير الكلمة إلى قرار يُتخذ لموقف محدد.[235] ويُقرّ مو: «لا بد من الاعتراف بأن الفعل لا يُستعمل كثيرًا في الكتاب المقدس للوصايا التي تنطبق انطباقًا عامًا».[236] فإن كان بولس يقصد أن يقرّر مثالًا عامًا لجميع الكنائس في كل مكان، فلماذا لم يكتب ببساطة: «لا يجوز للنساء أن يعلّمن أبدًا»؟ فمثلًا، ما كان ليكتب قط: «لستُ آذنُ في الوقت الحاضر لكم أن تزنوا». كلا، بل كان سيكون أكثر صراحة: «لا تزنوا!» فلماذا إذن يستعمل هنا صياغة لينة ومخالفة للمتوقع إلى هذا الحد؟

خلاصة القول، إن تقديم بولس للمنع بكلمة epitrepō يعطينا سببًا للاعتقاد بأنه ربما يخاطب موقفًا محليًا.

Authentein

جوهر التفسير التكاملي أن بولس يقول للنساء ألا يفعلن ما لا يجوز أن يُسمح به إلا لـ(بعض) الرجال: أن يعلّموا الآخرين ويمارسوا عليهم سلطة رعوية. بعبارة أخرى، فإن التعليم وممارسة السلطة، كما يتحدث عنهما النص هنا، نشاطان رتّبهما الله — ما دام الشخص الصحيح هو من يقوم بهما. لكن هذه القراءة تنهار من داخلها حين يمكن أن نبيّن أن بولس يمنع النساء من فعل شيء لا يريد للرجال أيضًا أن يفعلوه. وبتعبير آخر، إن ثبت أن أحد هذين النشاطين أو كليهما خاطئ، فالقراءة التكاملية مخطئة.

فموضع الجدل تحديدًا إذن هو الفعل «authentein». ويظهر هذا الجدل في تنوع الترجمات الإنجليزية: فعبارة «أن تمارس السلطة» (to exercise authority، في ESV) تدل على أمر مشروع، أما «أن تتولّى السلطة» (to assume authority، في NIV) فقد تدل على فعل سلبي. فمثلًا، إذا وجّهت معلمة المتعلمين في الصف، فهي «تمارس السلطة»، أما إذا حاول أحد المتعلمين أن يستولي على الدرس، فهو «يتولّى السلطة» على نحو خاطئ. ومن الترجمات الأخرى: «أن يكون لها سلطان» (ASV)، و«أن تتحكم» (CEB)، و«أن تتسلط» (NEB)، و«أن تتسيّد على» (TLB).

235. انظروا Philip Payne, Man and Woman, One in Christ، ص. 201-202. انظروا أيضًا https://biblehub.com/greek/strongs_2010.htm. والاستثناءان الوحيدان هما 1 كورنثوس 14: 34 «ليس مأذونًا لهن» ومرقس 10: 4 «موسى أذن». أتناول الأول في الفصل 6 وأخلص إلى أن هذه الكلمات كانت على الأرجح إقحامًا، أو أن بولس في الحقيقة كان يقدّم مشورة لموقف محدد جدًا في كنيسة كورنثوس. أما في حالة الثاني، فإن جواب يسوع في مرقس 10: 5-12 يبيّن أنه رأى أمر موسى خروجًا مؤقتًا عن مثال دائم.
236. المصدر: https://bit.ly/3mExipX (ص. 199)

ومن الأمور التي تجعل ترجمة الكلمة أصعب أن authentein كلمة لا تُستعمل إلا مرة واحدة في الكتاب المقدس كله.[237] ولذلك لا نستطيع أن نرى كيف استعمل بولس الكلمة في مواضع أخرى، ولا كيف استعملها أي كاتب كتابي آخر. ومع أن كتّابًا في الأدب اليوناني القديم استعملوها في القرون التي سبقت استعمال بولس لها هنا سنة 62 م والتي تلته، فقد بقيت كلمة نادرة للغاية. بل إننا لا نملك منها، في المئة سنة التي سبقت خدمة بولس والمئة سنة التي تلتها، إلا خمسة شواهد في الأدب القديم الباقي. فكيف يمكننا إذن أن نأمل في معرفة ما إذا كانت دلالتها إيجابية أم سلبية؟

يقدّم التكامليون سببين لترجمتهم الإيجابية. أولًا، كلمة didaskein (يعلّم) إيجابية، كما يزعمون، ولذلك تستلزم معنى إيجابيًا لـauthentein. ويحتج كوستنبرغر بأنه، استنادًا إلى مواضع ورود مصدرين متجاورين في الأدب اليوناني القديم، يكون الفعلان didaskein وauthentein إما إيجابيَّين معًا أو سلبيَّين معًا. ويزعم التكامليون أن didaskein كلمة إيجابية دائمًا. فمثلًا، يزعم شراينر أن didaskein في رسائل بولس الرعوية إلى تيموثاوس وتيطس تعني دائمًا «نقل التقليد ذي السلطان في [العبادة العامة للجماعة المجتمعة]، لا المشاركة غير الرسمية».[238] والاستثناء الوحيد، كما يقولون، هو حين تُستعمل كلمات سلبية إضافية تصفه بأنه تعليم كاذب. ولذلك يستنتجون أن المعنى الإيجابي لـauthentein في 1 تيموثاوس 2: 12 يُستدل عليه من ارتباطها بـdidaskein.

ثانيًا، يحتج لغويون تكامليون مثل هنري بالدوين (Henry Baldwin) بأن الكلمة كثيرًا جدًا ما تُستعمل في الأدب القديم استعمالًا إيجابيًا، بينما يحتج آل وولترز (Al Wolters) بأنها لم تكن تُستعمل استعمالًا سلبيًا تقريبًا قط.

وبما أن معنى هذه الكلمة ثبت أنه حاسم إلى هذا الحد في تفسير 1 تيموثاوس 2: 12، فعلينا أن نقبل أننا ربما لن نصل أبدًا إلى إجماع علمي على معناها. وحين أتتبع الدراسة العلمية لهذه الكلمة القديمة على مدى العقود الأخيرة، ألاحظ أن باحثين من الطراز العالمي ما زالوا يفنّدون مزاعم بعضهم بعضًا. ومع ذلك، وبعد أن قضيت أيامًا كثيرة أقرأ وأعيد قراءة أعمال علمية حديثة حول هذه الكلمة، أخلص إلى أن الكلمة في الأدب القديم تُستعمل أحيانًا استعمالًا إيجابيًا وأحيانًا استعمالًا سلبيًا. وعلى أي حال، إليكم ثمانية أسباب تجعل عبارة «تمارس السلطة» في هذه الآية على الأرجح غير صحيحة، وتجعل ترجمة للكلمة ذات دلالة أكثر سلبية أدق:

237. المصطلح التقني لذلك أنها hapax legomenon.
238. Women in the Church, 3rd Edition، ص. 175

أولًا، قد يكون «التعليم» (didaskein) في هذا المقطع نوعًا سلبيًا من التعليم، وقد لا يشير إلى تعليم إيجابي ولا إلى تعليم رسمي. فشراينر يحتج، متجاوزًا الأدلة الكتابية، بأنه في رسائل بولس إلى تيموثاوس وتيطس عمل إيجابي دائمًا، وتحديدًا عمل رسمي يتم في اجتماعات العبادة الأسبوعية. لكن الكلمة في الرسائل الرعوية ليست مقصورة بالضرورة على التعليم العقائدي ذي السلطان في العبادة الجماعية، بل تُعدّ أحيانًا نوعًا خاطئًا من didaskein.[239]

ثم إنه من غير المتسق أن نحتج لمعنى ثابت لـdidaskein (بوصفه تعليمًا رسميًا إيجابيًا) ولمعنى يحدده السياق لـauthentein — بل إن أبسط مبادئ التفسير هو أن ندع السياق يكشف معنى الكلمتين كلتيهما.[240] فمثلًا، حين يُمنع أناس معيّنون في كنيسة من didaskein، يمكننا أن نفترض أن ذلك يشير إلى خلل خطير في أولئك المعلمين أو في تعليمهم.[241] ومع أن هناك أمثلة أخرى على أشكال من التعليم غير مسموح بها،[242] تأملوا الموضع الآخر في الرسائل الرعوية الذي يُمنع فيه didaskein،

239. كلمة «يعلّم» تُستعمل استعمالات مختلفة في مقاطع مختلفة. وليس لدى شراينر حجة جوهرية تسوّغ زعمه أن كلمة didaskein يجب أن تُقرأ دائمًا في الرسائل الرعوية على أنها وعظ عقائدي رسمي يقوم به قادة روحيون في اجتماع عبادة، أو أنها تشير دائمًا بالضرورة إلى تعليم مضمون سليم. ومع أن didaskein قد تعني ما يقوله شراينر في مواضع أخرى من الرسائل الرعوية، فإنها تأخذ أحيانًا معاني أخرى: فخلافًا لشراينر، تشير أحيانًا إلى المشاركة غير الرسمية خارج العبادة الجماعية. وربما يقصد بولس باستعماله didaskein في 1 تيموثاوس 2: 12 شيئًا مثل التحدث إلى الآخرين بهدف تشكيل ما يؤمنون به أو كيف يعيشون. وهذا يشمل المشاركة غير الرسمية والوعظ الأكثر رسمية على السواء. فمتى وأين، إن كان لا يجوز للنساء بحسب المعايير التكاملية أن يعلّمن الرجال، يُفترض أن تعلّم النساء نساءً أخريات إن كان هناك رجال دائمًا في العبادة الأسبوعية (تيطس 2: 3-5)؟ وهل يجوز للمرء أن يعلّم «المقاومين» ويؤدّبهم في اجتماعات العبادة فقط (2 تيموثاوس 2: 24-25)؟ وكيف يمكن القول إنه في العبادة الجماعية يحاول شخص واحد فقط («امرأة») أن يعلّم شخصًا واحدًا آخر فقط («رجلًا») (1 تيموثاوس 2: 12)؟ وكيف يمكن أن يحدث تدفق للتعليم، يعلّم فيه شخصٌ تعلّم أناسًا آخرين سيعلّمون بدورهم آخرين، إن كان المقصود هو التعليم في العبادة الجماعية فقط (2 تيموثاوس 2: 2)؟ وماذا عن التعليم الذي كان يؤثر في بيوت بجملتها (تيطس 1: 10-11)؟ وكذلك، خلافًا لشراينر، قد تشير إلى نوع خاطئ من التعليم. فمثلًا، يستعمل بولس الكلمة نفسها didaskein لوصف الأفعال الكلامية لأولئك الذين لا يشاركون التقليد الرسولي ذا السلطان، بل مضمونًا هرطوقيًا (تيطس 1: 11).

240. إن didaskein في ذاتها ليست سلبية ولا إيجابية. فالمعنى في كل حالة يحدده السياق — فمثلًا، قد يعلّم المرء بطريقة متعجرفة أو قسرية، أو قد يعلّم الضلال. وخلاصة القول، بدلًا من الافتراض، كما يفعل الباحثون التكامليون، أنها إيجابية في جوهرها ولذلك يجب أن تحكم الكلمة المرافقة لها authentein، فمن المنطقي أكثر أن ندع أي كلمات مرافقة، والسياق الأوسع، تحدد معناها. والباحثون التكامليون الذين يقولون إن didaskein «إيجابية دائمًا ما لم توجد كلمة مقيِّدة تنص على أن المقصود تعليم كاذب»، يخلقون قاعدة تفسيرية مصطنعة — كلا، السياق هو الذي يحدد المعنى دائمًا.

241. انظروا متى 5: 19أ، وتيطس 1: 11، ورؤيا يوحنا 2: 14، 20، حيث تُستعمل في سياق سلبي.

242. ولا سيما في سياق أفعال يمنعها يسوع أو الرسل، قد يرشدنا فعل سلبي مرافق لكلمة «يعلّم» إلى افتراض أن المقصود نوع خاطئ من التعليم. فمثلًا، في رؤيا يوحنا 2: 20 يوبّخ يسوع الكنيسة في ثياتيرا لأنها تسمح لامرأة شبيهة بإيزابل في الكنيسة بأن «تعلّم» (didaskein) «وتغوي» (kai plana) عبيده. فإن كان أهل ثياتيرا قد تساهلوا مع تعليم خاطئ من امرأة، فإن بولس لن يفعل الشيء نفسه في كنيسة أفسس — «لستُ آذنُ في الوقت الحاضر ...». غير أن ما يجب ملاحظته، وهو أمر حاسم، هو أن ما يُمنع في الموضعين ليس إلا نوعًا خاطئًا من تعليم النساء. فالسياق التصحيحي والفعل المرافق «تغوي» يبيّنان أن يسوع لا يمنع المرأة الثياتيرية من التعليم الصالح، بل من نوع مخادع وهرطوقي منه. وكذلك فإن السياق التصحيحي والفعل المرافق authentein (الذي قد يعني «يتسلّط») يبيّنان أن بولس كان يمنع النساء الأفسسيات لا من تعليم صالح، بل من نوع مُهين وعدواني منه.

فيكون بذلك موازيًا قريبًا لـ1 تيموثاوس 2: 12. يقول بولس لتيطس إن جماعة يسمّيها «الذين من الختان»، ويصفهم بأنهم «يتكلمون بالباطل ويخدعون العقول»، «يجب سد أفواههم، فإنهم يقلبون بيوتًا بجملتها، معلّمين ما لا يجب».[243] ففي تقييم بولس، كان هناك خلل في هؤلاء المعلمين وفي تعليمهم — ولذلك ينبغي إيقافهم وإيقاف نوع كلامهم. وكذلك، مع استمرار دراستنا لمقطع 1 تيموثاوس 2، سنكتشف أنه كان من الواضح أن هناك شيئًا منافيًا للتقوى لدى جماعة من النساء في الكنيسة، ولا سيما في موقفهن وتصرفاتهن تجاه الرجال، مما سوّغ تصحيح بولس للطريقة التي كنّ يخاطبن بها الرجال في ما يجب أن يؤمنوا به وكيف يجب أن يعيشوا.[244]

ثانيًا، لا يوجد إجماع بين الباحثين على أن كلمة authentein كانت تُستعمل دائمًا في العصور القديمة للدلالة على فعلٍ إيجابي. ففي الطبعتين الأولى والثانية من الكتاب التكاملي الرئيسي عن معنى 1 تيموثاوس 2: 12، وهو كتاب Women in the Church، كُلِّف بالدوين بكتابة الفصل الخاص بمعنى هذه الكلمة، وخلص إلى أنها، بحسب السياق، قد تعني «يحكم أو يملك، أو يتحكّم أو يهيمن، أو يتصرّف باستقلال، أو يحرّض».[245] وفيما يخصّ 1 تيموثاوس 2: 12 يضيف أن «معنيَي يتحكّم أو يهيمن ... ممكنان تمامًا»، وأن معنى «يتولّى السلطة على» «قد يكون مناسبًا». واللافت أن فصله حُذف الآن من الطبعة الثالثة واستُعيض عنه بعمل وولترز، الذي يزعم أن authentein لا تحمل معنى سلبيًا أبدًا تقريبًا[246] — وهي نتيجة تخدم ما يفضّله التكامليون أكثر بكثير. ومع ذلك يعترف شراينر بأن الكلمة قد تُستعمل أحيانًا بمعنى سلبي.[247] ويستعمل بطليموس (Ptolemy) الكلمة في كتابه Tetrabiblos (148–127 م) ليتحدث عن كوكبٍ يتحكّم في كوكب آخر — وهنا يحمل المعنى ظلًّا سلبيًا لا يمكن إنكاره: فمعظم الباحثين الذين قرأت لهم، ومنهم بالدوين وغرودم، يترجمونها هنا بـ«يهيمن».[248]

243. تيطس 1: 10-11

244. والواقع أنه يمكن أن نبيّن أن الأفكار الثلاث كلها التي كانت تقلق بولس بشأن الأشخاص الذين على تيطس أن يُسكتهم (التمرد، والمضمون غير النافع، والخداع) قد تتصل بمخاوفه بشأن النساء اللواتي يصحّحهن في 1 تيموثاوس 2: 12-14.

245. Grudem, Evangelical Feminism، الملحق 7

246. Albert Wolters, “A Semantic Study of Αὐθέντης and its Derivatives,” Journal for Biblical Manhood and Womanhood 1.11 (Spring 2006): pp. 44-65, 45.

247. في «Two Views on Women in Ministry» يقول شراينر: «من الممكن بالتأكيد أن يحمل المصطلح في سياقات معيّنة ظلًّا سلبيًا».

248. يقف وولترز وحده حين يترجم الكلمة عند بطليموس بـ«gain mastery» («يُحرز السيادة») أو «assume authority» («يتولّى السلطة»). ومع ذلك فإنه بذلك يعترف بالظلّ السلبي الذي يعترف به بالدوين وغرودم حين يترجمانها بـ«يهيمن». غير أن وولترز يبالغ في الاعتماد على كون فعل بطليموس في زمن الأوريست (aorist)، وأنه لذلك لا يدلّ إلا على البدء الآن في امتلاك قدرة الغلبة. لكن سياق الجملة هو الحَكَم الحقيقي في تحديد معناه: فكما يبيّن وولترز نفسه، تُستعمل authentein بالتوازي مع نُحَل الذي «يأخذ السيطرة» — التلمة» على النفس البشرية ويحوّل

صحيحٌ أن الكنيسة في الحقبة التي تلت قسطنطين (من القرن الرابع فصاعدًا) كثيرًا ما صارت تستعمل كلمة authentein بمعنى إيجابي، لكن معاني authentein المتأخرة بقرون كثيرة كهذه ليست وثيقة الصلة بهذا النقاش.[249] بل إن إحدى مشكلات دراستَي بالدوين ووولترز (كما هو الحال في دراسات غرودم اللغوية لكلمة kephalē) هي أن جميع الأمثلة المدروسة تقريبًا تعود إلى ما بعد عصر العهد الجديد بقرون، ولذلك فائدتها محدودة في تقدير معنى الكلمة حين كُتبت رسالة 1 تيموثاوس.[250]

ويلخّص فيليب باين ما توصّل إليه بشأن التطوّر التاريخي للكلمة: «المعنى الوحيد لـauthentein الذي يتّفق مع 1 تيموثاوس 2: 12 والثابت أيضًا أنه كُتب قبل زمن بولس هو "يتولّى السلطة". أما "يهيمن" فيظهر معنىً بعد زمن بولس بقليل، في حين أن "يمارس السلطة" معنىً لا يمكن إثباته إلا في وقت متأخر جدًا».[251] ويقول باين إن أول الأمثلة الثابتة على هذا المعنى تأتي في القرن الرابع، في الحقبة التي تلت قسطنطين. ومع ذلك استمرّ الاستعمال السلبي للكلمة أيضًا — فقد نهى أبو الكنيسة يوحنا الذهبي الفم الأزواجَ عن أن يمارسوا authentein على زوجاتهم.[252]

وبما أن معاني الكلمات تتغيّر مع الزمن، علينا أن نبحث عن استعمالها في أقرب حقبة زمنية. ولذلك فإن الاستعمالين الثابتين للكلمة اللذين بين أيدينا من قبل زمن بولس هما الأهمّ لدراستنا، لأنهما يعكسان على أفضل وجه الفهمَ السائد في زمن بولس. وأول استعمال لها على الإطلاق نعرفه ورد في apologia (رسالة دفاعية) من سنة 27 ق.م.[253] وهذا النص الذي تشتهر صعوبة ترجمته يبدو أنه يروي قصة رجل يُدعى تريفون (Tryphon) يشرح في رسالة إلى أخيه أسكليبيادس (Asklepiades) كيف أنه مارس authentein على أنتيلوخوس (Antilochus)، الذي يبدو أنه كان تابعًا لأسكليبيادس أو عبدًا له. كان تريفون وأنتيلوخوس على متن عبّارة، وحين رفض أنتيلوخوس أن يدفع

249. ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار أن الكنيسة، في القرون القليلة الأولى من وجودها، وقد تأثّرت بكراهية أرسطو للنساء، صارت تقرأ 1 تيموثاوس 2: 12-14 على أنه حظر شامل يمنع النساء من قيادة الرجال في أي وقت وفي جميع المجالات على أساس دونيّة حواء. ولذلك يُرجَّح أن كثيرين في الكنيسة صاروا يفترضون أن authentein تعني ممارسة إيجابية للقيادة — وهذا يلقي الضوء أيضًا على الموضعين في الكتابات الكنسية في القرن الرابع اللذين يُقال فيهما إن الله يمارس authentein بوصفه ربًّا.

250. وولترز صريح بشأن هذه المشكلة: «معنى "يمارس السلطة" قائم في المقام الأول على الاستعمال المتأخّر للفعل. ... ومن المؤسف أنه لا توجد شواهد أكثر على authentes من الفترة المحيطة بمطلع العصر الميلادي».

251. Philip Payne, Man and Woman, One in Christ، الفصل 20

252. John Chrysostom, Hom. Col. P. 27–31.

253. البردية BGU 1208. انظروا www.bit.ly/3BKHl0Q. لن أذكر الاستعمال الثاني على الإطلاق، لأنه يبدو أنه يحمل معنى مختلفًا تمامًا عن المعنى الوارد في 1 تيموثاوس 2: 12. ففي عمل للنحويّ أريستونيكوس (Aristonicus) يعلّق على مقطع من إلياذة هوميروس (Homer) ليتحدّث عن «authentein» (بمعنى «المؤلّف» أو «المُنشئ») للخطاب.

للنوتيّ أجرة عبوره، مارس تريفون authentein عليه ليدفعها. بعبارة أخرى، أجبره على الدفع.[254] قد يبدو هذا لآذان المعاصرين تصرّفًا لائقًا، لكنه كان في تلك الثقافة من غير المقبول أن يأمر المرء تابعَ غيره، تمامًا كما أنه من غير المقبول اليوم أن يأمر المرء ولدَ غيره — ومن هنا حاجة تريفون إلى رسالة يشرح فيها ما فعل. والمعنى الوحيد الذي لا يمكن أن تحمله authentein هنا هو «يمارس السلطة»، لأن الرسالة محاولة لشرح سبب إقدامه من تلقاء نفسه على فعل ما لم يكن من حقّه بوضوح أن يفعله. ولذلك فإن أي زعم بأن الكلمة في العصور القديمة «تُستعمل دائمًا بمعنى إيجابي» للتعبير عن «ممارسة السلطة» زعمٌ مضلِّل.[255]

ثالثًا، يمكن فهم authentein على أنها فعل سلبي حين ننظر في الأجزاء التي تتركّب منها. صحيح أن المورفيمات (الوحدات الصرفية) التي تتألّف منها الكلمة ليست أفضل وسيلة لتحديد معناها، لكنها تبقى تمرينًا مفيدًا حين يقلّ الإجماع، كما هو الحال هنا.[256] ففي هذه الحالة يعني الجزء الأول من كلمة («aut») authentein الذات، ويُستعمل غالبًا في الكلمات الكتابية للإشارة إلى أفعال موجَّهة نحو الذات أو متمركزة حول الذات.[257] وحتى لو أمكن إثبات أن authentein استعمالٌ إيجابي للسلطة من قِبَل حكّام غير مسيحيين، فمن الأرجح بكثير أن بولس، الذي كان يفضّل أن يتحدّث عن نفسه بوصفه شخصًا لا يسود على الآخرين، بل هو خادم للجميع من أجل المسيح،[258] قد اختار هذه الكلمة التي كانت قد دخلت اللغة اليونانية حديثًا ليصف ضروب السلوك التسلّطي الخاطئة التي تميل نحو الكبرياء (الموجَّهة نحو الذات لا نحو الله) و/أو الأنانية (المتمركزة حول الذات لا حول الآخرين).

254. ردًّا على الباحثين الذين يزعمون أن أنتيلوخوس كان في الأصل خاضعًا لسلطة تريفون المشروعة، يصعب أن نفهم كيف أو لماذا يكرّس تريفون، في ثقافة قائمة على الشرف والعار، جزءًا كبيرًا كهذا من رسالته للدفاع عن تصرّفه — فتصرّفاته نفسها كانت ستكشف ضعفه وتجلب له العار لأنه فقد السيطرة على خادمه أو عبده، ولكان هو شخصيًا مسؤولًا عن الإهانة التي لحقت بالنوتيّ.

255. يقول شراينر في Two Views of Ministry (ص. 108): «تُظهر الدراسات الحديثة لـهـ. سكوت بالدوين وآل وولترز أن المصطلح يدلّ على استعمال إيجابي للسلطة». اقرؤوا دراسة جامين هوبنر عن الطريقة التي يسيء بها الباحثون التكامليون تفسير دراساتهم اللغوية هم أنفسهم: «على أقلّ تقدير، يُظهر كل هذا أن التكامليين مرتبكون بشكل ملحوظ بشأن ما أظهرته الدراسات التكاملية (وغيرها) لـauthenteō». انظروا www.bit.ly/3EKqWM8 (ص. 17)

256. هذا ما يقوله د. أ. كارسون في «Exegetical Fallacies»: «مع أن علم أصل الكلمات (الإتيمولوجيا) "أداة خرقاء نوعًا ما لتمييز المعنى"، فإنه مفيد مع ذلك، "ولا سيما في محاولات فهم معاني الكلمات الفريدة الورود (hapax legomena)"». (ص. 33)

257. مثل authadēs = «راضٍ عن نفسه»، authairetos = «من تلقاء نفسه»، autarkeia = «الاكتفاء الذاتي»، autarkēs = «مكتفٍ بذاته»، autokatakritos = «محكوم عليه من نفسه»، autocheir = «بيده هو»، aucheō = «أفتخر». المصدر: www.bit.ly/3EKqWM8 (ص. 18)

258. انظروا 2 كورنثوس 4: 5.

وحتى لو قبلنا زعم وولترز بأن الكلمة تعني أن يكون سيّدًا على، فإن كون الفعل إيجابيًا أو سلبيًا يتوقّف في كل حالة على هوية السيّد. فإذا «ساد» الله أو ملكٌ قديم أو مالكُ عبيدٍ قديم على شعبه، فقد يكون ذلك مقبولًا، لكن من المحظور عمومًا على أي تابع ليسوع، حتى لو كان راعيًا، أن يحاول أن يكون ربًّا أو سيّدًا على أي تابع آخر ليسوع.

رابعًا، الأصحاح كلّه تصحيحي. يوضح علماء اللغة أنه إذا كان يمكن أن تُستعمل الكلمة أحيانًا بمعنى إيجابي وأحيانًا بمعنى سلبي، فإن السياق هو الذي يحدّد المقصود. ولأن الهدف هو ترميم كنيسة خرّبها المعلّمون الكذبة، وهو سياق يثبته 1 تيموثاوس 1 بوضوح، فمن المرجّح إذن أن بولس يواصل في الأصحاح 2 تصحيح سلوكيات خاطئة.

ففي أوامره السابقة يصحّح بولس الأفعال الخاطئة المحدّدة لرجالٍ أفسسيين غاضبين ومجادلين لا يصلّون، أيديهم غير طاهرة (ع 8)، ولنساءٍ أفسسيات غير محتشمات، بتسريحات شعر متكلّفة وثياب باهظة الثمن، يفتقرن إلى اللياقة والأعمال الصالحة، ويحتجن إلى أن يكففن عن إثارة الفوضى وأن يُخضعن أنفسهن من جديد للتعلّم (ع 9-11). وكون بولس لا يخاطب في هذه الأوامر إلا جنسًا واحدًا في كل مرة دليلٌ على أنه يخصّ بالذكر إخفاقاتهم الخاصة في هذا الموقف المحدّد. وبهذا المعنى، لا يُقبل من الرجل أن يمارس authentein على المرأة أكثر مما يُقبل منه أن يلبس بتباهٍ، أو من المرأة أن تكون بلا صلاة أو غاضبة أو محبّة للجدال.

كذلك ينسجم الفهم الذي يرى في authentein ظلًّا سلبيًا انسجامًا جيدًا مع كون الأمر السابق في الآية 11 هو نقيض ما ينهى عنه بولس في الآية 12. فبولس يريد لهؤلاء النساء الأفسسيات، مثل مريم التي من بيت عنيا التي جلست مرة عند قدمَي يسوع، أن يتعلّمن بهدوء (الكلمة اليونانية هي hesychia، وتعني هنا بسلام) وبخضوع (ع 11)، وألا يعلّمن بطريقة تفرض الذات أو تتسلّط (ع 12أ)،[259] لأن ذلك لن يجلب إلا عكس «الهدوء» تمامًا (hesychia مرة أخرى) (ع 12ب).[260]

خامسًا، الآية 12 نهيٌ. بل إن صياغة الآية 12 نفسها توحي بمعنى سلبي. فلو وضع المرء الشخص أ مكان «امرأة»، والشخص ب مكان «رجل»، والحرف x مكان

259. حرف العطف «de»، مع أنه غائب في معظم الترجمات، يربط الجملتين، فيصل مجرى الفكر بين الآيتين 11 و12. والأرجح أنه يعني «و» لا «لكن» — ولا سيما لأن بولس في الآية نفسها يستعمل «alla» حين يريد أن يقول «لكن».

260. بالنظر إلى صياغة موازية سابقة في 1 تيموثاوس، هذه هي القراءة الطبيعية: «لاحظوا أن تسلسل فكر بولس في الآية 12 (ألا تعلّم ولا تتغلّب على الرجل، بل تكون في هدوء) لا يختلف كثيرًا عن تسلسل فكره في الموضوع نفسه، موضوع التعليم، في 1: 3-4 (ألا يعلّموا تعليمًا آخر ولا يُصغوا إلى خرافات وأنساب لا حدّ لها تُسبّب مباحثات دون بنيان الله الذي في الإيمان). الاثنان الأوّلان من هذه يُنظر إليهما نظرة سلبية، والأخير نظرة إيجابية». (Andrew Bartlett, Men and Women in Christ، ص. 340)

didaskein والحرف y مكان authentein، لصارت الجملة: «لست آذن للشخص أ أن x ولا أن y على الشخص ب».[261] ومن يقرأ هذا وحده يستنتج أن x وy على الأرجح فعلان سلبيان. وهكذا فإن السياق هو الذي يصنع المعنى — فحتى لو أمكن أن تُستعمل الكلمة استعمالًا إيجابيًا في موضع آخر، فإنها في هذا السياق ستكون سلبية على الأرجح.[262] والغريب أن دراسة وولترز تغفل عن أنه من بين كل المواضع الأولى التي وردت فيها الكلمة في الأدب القديم، لا تُستعمل في سياق نهيٍ إلا في رسالة بولس.

ثم إن وولترز يترجم كلام بولس على أنه ينهى المرأة عن أن تكون «سيّدةً على الرجل» — لكن هذا لا يتّفق مع أمر بولس اللاحق للعبيد بأن يحترموا سادتهم[263] (ونحن نعلم أن كثيرين من العبيد كانوا ذكورًا، وأن كثيرين من السادة كانوا إناثًا). وبالنظر إلى الوجود المرجّح لعبيدٍ ذكور في البيت، فإن بولس يوصي بعض النساء بأن يكنّ سيّداتٍ (oikodespotein) على رجال.[264]

سادسًا، حين نوسّع بحثنا عن الاستعمال القديم للكلمة ليشمل صيغة الاسم أيضًا (authentein هي صيغة الفعل من الاسم authentas)، نجد أن دلالاتها السلبية لا يمكن إنكارها. ففي الاستعمال القديم للاسم تكثر المعاني السلبية من أشدّ الأنواع — إذ يشير أقدم استعمال للكلمة إلى القتل. ويوثّق وولترز أربعين استعمالًا قديمًا للاسم بهذا المعنى، لكنه يبيّن بعد ذلك أيضًا أن هذا المعنى كان قد خفت إلى حدّ بعيد بحلول زمن بولس، إذ طغت عليه معانٍ أخرى، أبرزها «السيّد». ومع ذلك تستمرّ هذه الفكرة حتى زمن بولس، وربما وصلت إلى ما كان يقرؤه: فسفر حكمة سليمان[265] يتحدّث عن إهلاك الله للوالدين الذين «يقتلون» (authentas) أولادهم.[266] ومع أن المعنى الأقدم للاسم، أي «القتل»، قد خفت تقريبًا، فمن المعقول، وإن لم يكن مؤكّدًا، أن يبقى ظلٌّ سلبي ملتصقًا بالكلمة مع تطوّر معناها[267] — فهناك في نهاية المطاف

261. شكرًا لجيمين هوبنر على هذه الفكرة.

262. بعبارة أخرى، لو كان بولس يمتدح سلوكًا إيجابيًا، وكان التعليم أحد الأمور المُثنى عليها، لما كان هناك أي احتمال أن يكون التعليم المقصود شكلًا سلبيًا من التعليم. ولكن لأن بولس يصحّح سلوكًا سلبيًا، فإن ذلك يفتح الباب لاحتمال أن يكون هذا شكلًا سلبيًا من التعليم.

263. 1 تيموثاوس 6: 2

264. في 1 تيموثاوس 5: 14 يقول للمتزوّجات حديثًا أن «يدبّرن البيوت» — والكلمة المترجمة هنا «يدبّرن» تعني حرفيًا «مستبدّ البيت».

265. كُتب على الأرجح قبل مطلع العصر الميلادي بعقدين أو ثلاثة، وهو جزء من الترجمة اليونانية للكتاب المقدس العبري، ومن المحتمل جدًا أن بولس كان مطّلعًا على هذا الأدب (انظروا www.bit.ly/3EKKrE4 لمناقشة هذه المسألة).

266. حكمة سليمان 12: 6. أرى أن حجّة وولترز بأن الكلمة في سفر الحكمة لا تعني إلا «قاتل ذوي القربى» لا «قاتل» لا تقدّم ولا تؤخّر — ففي الحالتين يُقصد فعلٌ سلبي إلى أقصى حدّ.

267. يحاول بالدوين خطأً أن يفصل صيغة الفعل عن الاسم الذي اشتُقّت منه، قائلًا إن صيغة الاسم من كلمة ما

تداخل مفهومي على الأقل بين «أخذ حياة الآخر» و«أخذ زمام السيطرة على حياة الآخر».[268]

سابعًا، لو كان بولس يقصد ممارسة إيجابية للسلطة، لكان في وسعه أن يستعمل كلمات يونانية معروفة على نطاق واسع تقول ذلك صراحة — كالكلمة التي استعملها قبل عشر آيات للذين هم في منصب (hyperochē)؟ فمعجم Louw and Nida's Lexicon for the New Testament يورد 12 كلمة تعني «يمارس السلطة» و47 كلمة تعني «يحكم» أو «يسوس»، لكن بولس لم يستعمل أيًّا منها. وفي 1 كورنثوس 7، حين أشار إلى السلطة المشروعة التي قد تكون لأحد الجنسين على الآخر، اختار كلمة exousia، وهي كلمة استعملها 28 مرة في رسائله.[269] وإن كان يشير تحديدًا إلى القيادة الرعوية، كما يصرّ الباحثون التكامليون، فلماذا لم يستعمل الكلمة التي استعملها لاحقًا في الرسالة للقيادة الرعوية (proestōtes) (5:17)؛ أو الكلمة الخاصة برعاية الكنيسة (poimainō)؛[270] أو تلك التي استعملها كاتب الرسالة إلى العبرانيين لقادة الكنيسة (hegoumenōn)؟[271]

أما أنه اختار بدلًا من ذلك كلمة نادرة إلى هذا الحدّ، ذات ظلّ دلالي مميّز جدًا،[272] فهذا يجعل من المرجّح أنه أراد أن يحدّد بدقة سلوكًا خاطئًا محدّدًا كان شائعًا بين النساء في كنيسة أفسس، وأن يصحّحه.

ثامنًا، يعترض باحثون آخرون اعتراضًا جادًّا على استنتاجات الباحثين الملتزمين مسبقًا بالتكاملية. ففي سبعة على الأقل من المراجع المعيارية التي يستعملها علماء الكتاب المقدس، يقدّم معظمها ترجمة سلبية بوضوح (مثل: يتسلّط، يُملي)، وحتى تلك التي تقدّم ترجمات أكثر إيجابية تبقى، من منظور مسيحي، ذات إيحاءات سلبية (مثل:

268. يفترض وولترز أن كلمة «authentēs» بمعنى «قاتل» والكلمة نفسها بمعنى «سيّد» قد يكون لهما أصلان اشتقاقيان مختلفان. ومن جهة أخرى، قد لا يكون الأمر كذلك. وأقصى ما يستطيع قوله هو أن «الباحثين اقترحوا مرارًا أن لهما أصلين اشتقاقيين مختلفين» — لكن باحثين آخرين اقترحوا خلاف ذلك. ويبدو أن الفكرة المشتركة هي فكرة استعمال المرء ما لديه من قوة ليفرض نفسه على الآخر.

269. لعلّ أحد الفروق المهمة بين exousia واستعمال بولس لـauthentein هو أن الأولى استعمالٌ لسلطة يملكها المرء فعلًا، مثل سلطة (exousia) المرأة في أن تعاشر زوجها هي جنسيًا (1 كورنثوس 7: 4)، في حين أن الثانية (كما نجد في رسالة تريفون) قد تدلّ على ادّعاء سلطة لا يملكها المرء بحقّ، مثل امرأة تعاشر زوج امرأة أخرى.

270. انظروا يوحنا 21: 16، وأعمال 20: 28، و1 بطرس 5: 2.

271. انظروا عبرانيين 13: 7، 17، 24.

272. لفهم ما أعنيه بقولي إن للكلمة «ظلًّا دلاليًا مميّزًا»، قارنوا الفعل الإنجليزي «to teach» («يعلّم») بـ«to pontificate» («يتكلّم بتعالٍ كمن يُصدر أحكامًا قاطعة») أو «to harangue» («يخطب في الناس بعنف وتقريع»). أو قارنوا «to lead» («يقود») بـ«to drive» («يسوق») أو «to compel» («يُرغم»). فالأفعال الأخيرة، في الحالتين، تحمل الفكرة الجوهرية نفسها التي يحملها «to teach» أو «to lead»، لكنها تضيف ظلالًا إضافية. وقد سعيت إلى أن أُثبت أن «authentein»، حتى لو كانت تتضمّن فكرة «قيادة» شخص ما، كلمةٌ ذات ظلال إضافية — فهي مشتقّة من كلمة أقدم تعنى «القتل»، وفيها المورفيم «aut» (الذات).

سلطة مستقلّة، سلطة متمركزة حول الذات). فعلى سبيل المثال، يعرّف معجم Analytical Lexicon of the Greek NT الكلمة هكذا: «[تُقال] عن الذي يتصرّف بسلطته الخاصة؛ ومن ثَمّ: يسيطر على، يتسلّط، يسود على». ويعرّفها Nida and Louw بأنها «يسيطر، يكبح، يتسلّط»، بمعنى «يصرخ بالأوامر في وجه»، أو «يتصرّف كزعيم تجاه»، أو «ينبح على». وعلى نحو مشابه، يترجمها BDAG[273] بـ«يتّخذ موقف السلطة المستقلّة، يُصدر الأوامر إلى، يُملي على».

فلا عجب إذن أن سينثيا وستفول، بعد أن أنجزت دراستها الخاصة للكلمة،[274] تستعمل قاعدة البيانات نفسها[275] التي يستعملها وولترز، فتجد أنه «حين تُستعمل authentein مع فاعلٍ شخصي و[متلقٍّ] شخصي، يأتي التقييم سلبيًا ما لم يكن للفاعل سلطة إلهية أو نهائية».[276] ومع أن الباحثين التكامليين يصرّون على أن الكلمة تعني يمارس السلطة الرعوية، تبيّن وستفول أنه في كل استعمالات الكلمة في قاعدة البيانات، لا يشير أيٌّ منها إلى أي نوع من الرعاية الرعوية المُحبّة لفرد أو جماعة يقوم بها راعٍ أو مسؤول كنسي.[277] وتختم دراستها بقولها:

بما أن كلمة «authentein» هي المصدر الأساسي المستخدَم لإقصاء النساء عن ... القيادة في الكنيسة، فإن اختيار معناها أمرٌ حاسم. ... [إن أخذَها] بمعنى «امتلاك السلطة» فحسب، ثم تفسيرها كما لو كانت تصف القيادة الخادمة أو الرعاية الرعوية، أمرٌ مضلِّل إلى أقصى حدّ. وينبغي أن يكون من عمل الكنيسة أن تبلور فهمًا لهذه الكلمة قائمًا على علم معاجم سليم ومنهجية لغوية سليمة، لكي تمضي في هذا النقاش بحذر. ... لقد بلغت الكنيسة سنّ المساءلة؛ وقد حان الوقت لتتحمّل المسؤولية (أو التبعة) عن إقصاء النساء عن مناصب القيادة الكنسية استنادًا إلى كلمة authentein.

وأكثر ما يقلقني أن كبار التكامليين، حين يُكلَّفون بمراجعة عمل وستفول اللغوي، يتجنّبون ببساطة نتيجة دراستها الواسعة بالزعم أن عمل وولترز أرقى منه.[278] وفي

273. وهو اختصار لـThe Bauer, Danker, Arndt, and Gingrich Greek-English Lexicon of the New Testament.

274. www.bit.ly/2prxkqm

275. تضمّ قاعدة بيانات Thesaurus Linguae Graecae أكثر من 300 استعمال للكلمة تغطّي مدة 1200 عام.

276. Westfall, Paul and Gender، الفصل 9

277. Westfall, Paul and Gender، الفصل 9

278. لا يتعامل نقد توم شراينر لكتاب وستفول تعاملًا كافيًا مع ما تطرحه من ادّعاءات بشأن دراستها لـauthentein، بل يكتفي بالزعم أنها «لا يبدو أنها قامت بالقدر نفسه من التفسير الدقيق الذي قام به وولترز لكلمة “authentein”». والواقع أنها تقدّم نقدًا متينًا جدًا، وإن كان محترمًا، لعمل وولترز. وعلى غرار شراينر، كلّف موقع www.cbmw.org كيسي هاو (Casey Haugh) بمراجعة كتاب وستفول، فقارن دراستها التفسيرية بدراسة وولترز وقال: «لا تُبدي وستفول اهتمامًا مماثلًا بفهمها لـauthentein». أما وولترز فنبرته على الأقل مختلفة: «ومع أنني

المقابل، يراجع جامين هوبنر عملها باحترام، إلى جانب بحثه الخاص في authentein، ويخلص إلى أن الظلّ السلبي للكلمة كما تُستعمل في 1 تيموثاوس 2: 12 «شبه مؤكّد».[279]

أما عن معنى الكلمة، فبحسب وستفول: «في المدوّنة اليونانية يشير الفعل إلى طيف من الأفعال [يكون فيها] الأشخاص الذين تستهدفهم هذه الأفعال متضرّرين، أو مُرغَمين على ما يخالف إرادتهم (مُكرَهين)، أو تُتجاوَز مصلحتهم الذاتية على الأقل، لأن هذه الأفعال تنطوي على فرض إرادة الفاعل، وتتراوح بين الإهانة والقوة المميتة».

وتتّفق نتيجتها مع كون إيرونيموس، في ترجمته اللاتينية الفولغاتا في القرن الرابع، قد ترجم authentein في 1 تيموثاوس 2: 12 بـdominari — وهي من عائلة الكلمة نفسها التي استعملها في موضع آخر يقول فيه بولس، رغم سلطته الروحية المشروعة، إن النوع الوحيد من القيادة الذي لا يلجأ إليه أبدًا هو أن يسود على من يقودهم.[280]

وسواء أكانت الكلمة تعني أن يتولّى السلطة على (ترجمة باين)، أم أن يكون سيّدًا على (ترجمة وولترز)، أم أن يفرض نفسه على الآخر ويتجاوز إرادته (ترجمة وستفول)، فلا ينبغي للنساء المسيحيات ولا للرجال المسيحيين أن يفعلوا ذلك — ولذلك تسقط القراءة التكاملية لـ1 تيموثاوس 2: 12.

ومع أن الله وحده يعلم ما قصده بولس تحديدًا بـauthentein، فإنني، بالنظر إلى الثقل الكبير لهذه الحجج المؤيّدة لظلٍّ سلبي، أخلص إلى أن القراءة التكاملية وترجمتها الشائعة («exercise authority» — «يمارس السلطة») غير صحيحتين على الأرجح. فترجمة NIV المحدَّثة («assume authority» — «يتولّى السلطة»)[281]، وفي هذه الحالة على الأقل الترجماتُ الإنجليزية الأقدم («usurp authority» — «يغتصب السلطة»)،[282] هي المفضَّلة، وإن كنت أظنّ أن «to control» — «يسيطر» (CEB)، أو

279. www.bit.ly/340JLIS

280. 2 كورنثوس 1: 24: بالإنجليزية: «lord it over» («يسود على»)؛ وفي الفولغاتا اللاتينية: «dominamur». ومع أن إيرونيموس استعمل كلمة dominari في مواضع أخرى من الفولغاتا للحكم المطلق لله وليسوع، فإنه يبدو مدركًا أنها ليست كلمة مناسبة للقيادة الرعوية. بل إنه يستعمل الكلمة نفسها ليترجم تحذيرات يسوع وبطرس للقادة المسيحيين من أن «يسودوا» (أو «يتسلّطوا») على الآخرين — انظروا مرقس 10: 42-43؛ 1 بطرس 5: 3. ومع وضوح هذه الدلالات على السلطة المطلقة في فهم إيرونيموس، يبعد جدًا أن يكون قد استعمل الكلمة في 1 تيموثاوس 2: 12 للإشارة إلى مجرّد سلطة رعوية تقيّة. صحيح أن إيرونيموس في إحدى رسائله الشخصية يقارن بين حكم (dominari) الأسقف وحكم الملك، لكن المقارنة تُظهر كيف أن السلطة الكنسية والسلطة السياسية صارتا تسكنان دور الأسقف في رومية في أواخر القرن الرابع.

281. بترجمتها على هذا النحو تترك NIV للقارئ أن يقرّر هل تشير الكلمة إيجابيًا إلى إعمال سلطة لائقة، أم سلبيًا إلى سلطة يُستولى عليها بغير حقّ. وتأييدي لهذه الترجمة يفترض المعنى السلبي.

282. انظروا على سبيل المثال: “I permit not a woman to … vsurpe authoritie ouer the man.” Bishop (1589): “I suffer not a woman to … vsurpe auctoritie ouer ye Geneva (1560 edition):

«to domineer» — «يتسلّط» (NEB)، أو «to lord it over» — «يسود على» (TLB) قد تكون أدقّ.

جميع مجالات الحياة

لعلّ أكبر نقطة ضعف في فكرة أن بولس يحصر النهي في الاجتماعات الكنسية هي أنه يبني حجّته، كما يقول جميع التكامليين، على «نظام الخليقة». غير أنه لا يمكن للمرء أن يقول إن بولس يؤسّس نهيه عن قيادة المرأة في الكنيسة على «نظام الخليقة»، ثم ينكر ما يترتّب على «نظام الخليقة» في جميع العلاقات والمجالات. فلا توجد ببساطة أي طريقة لتفسير هذا المقطع على أنه ينهى عن قيادة النساء للرجال في الكنيسة (بالاحتجاج بنظام الخليقة) من دون أن يُلقي أيضًا ظلًّا من عدم الرضا الإلهي على النساء اللواتي يقدن رجالًا خارج الكنيسة — في ميادين الحكم أو الأعمال أو الخدمة المدنية.

فكيف يتملّص بعض التكامليين مما يفرضه إيمانهم بـ«نظام الخليقة» من قيود على الإمكانات المهنية لبناتهم اللواتي — بما أن العمل جانب من جوانب الخليقة — لا يجوز لهن أن يقدن رجالًا؟ إنهم يحتجّون بأن هذا المقطع لا ينطبق إلا على المجال الكنسي، وتحديدًا على الاجتماعات الكنسية الرسمية. فيقرؤون «فأريد أن يصلّي الرجال في كل مكان» على أنها تعني «أريد أن يصلّي الرجال في جميع الاجتماعات الكنسية». ويشيرون إلى أن 1 تيموثاوس 2: 1 تتحدّث عن الصلاة، كما تفعل هذه الآية. والآية 11 تتحدّث عن تعلّم النساء تحت الكلمة المُعلَّمة. وكذلك يتحدّث الأصحاح التالي عن قادة الكنيسة (3: 1-12)، وعن الطريقة التي توصي بها هذه الرسالة الناس بأن يتصرّفوا في بيت الله (3: 15). ويقولون إن هذا كلّه يحصر تطبيق النهي عن تعليم النساء وقيادتهن في الاجتماعات العامة الأسبوعية للكنيسة التي يحضرها رجال.

وأردّ أولًا بالقول إن اجتماعات الصلاة لم تكن مقصورة على اجتماعات العبادة الأسبوعية للكنيسة. فسفر أعمال الرسل يصف بالتفصيل اجتماعات صلاة كانت تُعقد في العلّيات خلف الأبواب المغلقة، وعلى شاطئ البحر، وفي زنزانات السجون. لا شكّ أن الاجتماعات الكنسية مشمولة في ما يقوله بولس في الأصحاح 2، لكن الحياة اليومية للكنيسة، مجتمعةً ومتفرّقة، هي أيضًا في الحسبان: فمع كل هذا الكلام عن الأيدي الطاهرة، والتحرّر من الغضب والجدال، والمظهر الجسدي؛[283] والأعمال

283. بعد أن درسنا 1 كورنثوس 11، نعلم أن بولس كان يفضّل أن تغطّي النساء رؤوسهن في الاجتماعات الكنسية، ومع ذلك فإن حديثه هنا عن تسريحات الشعر يُظهر أنه يتحدّث عن مظهر النساء في الحياة اليومية أيضًا.

الصالحة، والتعلّم، وولادة الأولاد؛ والإيمان والمحبة والقداسة، يضع بولس الحياة كلّها في الحسبان. فإن كان بولس، كما يقول التكامليون، ينهى النساء عن قيادة الرجال وتعليمهم، فإن ذلك ينطبق على كل الأماكن والمنابر.

وردّي الثاني هو أن أترك مايكل بيرد يصيب جوهر المسألة:

أظنّ أن من المفيد الإشارة إلى أن التكامليين أنفسهم يقيّدون النتائج الكاملة لرأيهم أو يخفّفونها، وهنا تكمن نقطة ضعف موقفهم. فعلى سبيل المثال، يسمح بعض التكامليين للمرأة بأن تعلّم الرجال بطريقة غير مباشرة من خلال الكتب والإذاعة والمواقع الإلكترونية، لكنهم لا يسمحون لها بأن تعلّم الرجال وجهًا لوجه. يمكن للمرأة أن تكتب تفسيرًا للرسالة إلى العبرانيين يقرؤه الرجال، لكنها لا تستطيع أن تعظ الرجال أو تعلّمهم في الرسالة إلى العبرانيين. يمكن للمرأة أن تكون رئيسة دولة، أو رئيسة وزراء، أو مديرة تنفيذية، أو جنرالًا، أو ضابطة شرطة، لكنها لا تستطيع أن تخدم راعيةً. يمكن للمرأة أن تعلّم الرجال اللغة الفرنسية أو تعطيهم دروسًا في البيانو، لكن لا الكتاب المقدس ولا اللاهوت. يمكن للمرأة أن تعلّم الكتاب المقدس والعقيدة لرجال غير مؤمنين، لكن لا لرجال مسيحيين.

المشكلة التي أراها هنا هي أن بعض التكامليين يحتكمون إلى سفر التكوين وإلى نظام الخليقة ليبيّنوا أنه من الخطأ في جوهره أن تكون المرأة في موقع سلطة على الرجل، ومع ذلك لا يطبّقون هذا القيد إلا على الحياة الكنسية أو على عبادة يوم الأحد. لكن هذا أشبه بالقول إنه لا بأس أن يرتكب المرء الزنى ما دام لا يفعل ذلك يوم الأحد أو في قاعة الكنيسة. أو أشبه بالقول إنه لا بأس أن ترتكب الزنى ما دمت تفعله مع شخص غير مؤمن. فإن كان من الانتهاك الواضح إلى هذا الحدّ لترتيب الله للخليقة أن تكون للمرأة سلطة على الرجل، فينبغي أن ينطبق هذا على جميع مجالات الحياة، سواء أكانت الأعمال أم الحكم أم السياسة أم الخدمة المدنية أم الكنيسة، لأن الله صاحب السيادة على كل المؤسسات، والحياة كلّها تُعاش أمام الله وتحت سلطانه.[284]

فإن تمسّكنا بالقراءة التكاملية ولكننا لم نكن مستعدّين لأن نحظر قيادة النساء للرجال حظرًا تامًّا وفي كل مكان، فإنني أقترح أن علينا أن نعترف بعدم اتّساقنا، لأننا لا نضيّق إلا على النساء المسيحيات اللواتي يقدن في الكنيسة. وأقترح حلًّا أفضل: أن نراجع طريقة قراءتنا لهذه الآيات.

284. Mike Bird, Bourgeois Babes, Bossy Wives and Bobby Haircuts: A Case for Gender Equality

لأن آدم جُبل أولًا ثم حواء

بعد 1 تيموثاوس 2: 12، فإن النص البرهاني الرئيسي الذي يقدّمه التكامليون على «نظام الخليقة» هو الآية التي تليها: «لأن آدم جُبل أولًا ثم حواء». ويقولون إن هذا دليل على أن بولس رأى في علاقة آدم وحواء قبل السقوط سلطةً للرجل. فهل هذه حجّة محكمة لا ثغرة فيها؟

لنبدأ بكلمة «لأن» (gar). يقول الباحثون التكامليون إنها هنا تعليلية، أي بسبب أنّ. بعبارة أخرى، ينهى بولس عن قيادة المرأة «بسبب» أن آدم جُبل أولًا. غير أن كلمة gar لا تعني دائمًا «بسبب». إنما معناها أن مادة تفسيرية أو داعمة للعبارة السابقة على وشك أن تُقدَّم.[285] وبولس على وجه الخصوص يقدّم في كتاباته كل أنواع المواد الداعمة، ومنها، كما يبدو أنه يفعل هنا، أمثلة توضيحية. ومع وضع هذا في الاعتبار، يمكن أن تُقرأ الآية هكذا: «لستُ آذنُ في الوقت الحاضر للمرأة أن تتولّى السلطة على الرجل، فبعد كل شيء، آدم جُبل أولًا ...» (بعض المترجمين يختارون الكلمة الإنجليزية indeed لترجمة gar — وهي تعني فبعد كل شيء أو في واقع الأمر.) ومع أن هذا ليس حاسمًا لحجّتي،[286] فالأرجح أن gar هنا تربط نهيه لا بسبب، بل بسابقة تاريخية.[287]

ويستعمل بولس في رسائله، على وجه الخصوص، قصص العهد القديم وصوره استعمالًا توضيحيًا ليدعم فكرة يطرحها. فهو يستعمل قصة هاجر وسارة ليوضّح الصدام بين العهد القديم والعهد الجديد، وهو ما كان يعيشه المؤمنون الغلاطيون من غير اليهود الذين كانوا يُسخَر منهم لأنهم لم يُختتنوا الختان اليهودي.[288] وفي موضع آخر يستعمل صور عبور البحر الأحمر، والمنّ، والسحابة، والصخرة، والضربة التي حلّت

285. «مناقشة ماونس (Mounce) لـgar في Pastoral Epistles، 131–35، حيث يستعرض باختصار استعمالات بولس لـgar ويخلص إلى أن: الدليل على أنها تقدّم سببًا في 1 تيموثاوس 2: 13 دليلٌ ساحق، لأن استعمالها الأكثر تكرارًا هو "للتعبير عن السبب أو العلّة" (131). غير أن العلاقة المنطقية في كل حالة يجب أن تُستنتج من السياق، وgar نفسها لا "تعبّر عن السبب أو العلّة". فإسهامها الدلالي الأدنى يشير إلى مادة داعمة، قد تشمل أمثلة وأنماطًا واقتباسات وأشكالًا أخرى من الدعم، فضلًا عن السبب؛ ... ولا يمكن تحديد تفسيرات نصوص بعينها بناءً على "الاستعمال الأكثر تكرارًا"». (Cynthia Westfall, Paul and Gender، الفصل 4)

286. ولكن حتى لو كانت gar تعني هنا «بسبب»، فإن كلا التفسيرين للآيتين 13-14 اللذين سأقدّمهما بعد قليل يبقيان منطقيين. فعلى سبيل المثال، كون النساء، بحسب القصة النموذجية الأولى لجنّة عدن، مدعوّات إلى إكرام الرجال (ع 13) وإلى عدم الاستقلال عنهم (ع 14) يشكّل أساسًا لاهوتيًا لنهي بولس عن الطريقة التي كانت بعض النساء الأفسسيات يُهِنّ بها الرجال (ع 12).

287. ولكن حتى لو كانت gar تعني هنا «بسبب»، فإن كلا التفسيرين للآيتين 13-14 اللذين سأقدّمهما بعد قليل يبقيان منطقيين. فعلى سبيل المثال، كون النساء، بحسب القصة النموذجية الأولى لجنّة عدن، مدعوّات إلى إكرام الرجال (ع 13) وإلى عدم الاستقلال عنهم (ع 14) يشكّل أساسًا لاهوتيًا لنهي بولس عن الطريقة التي كانت بعض النساء الأفسسيات يُهِنّ بها الرجال (ع 12).

288. غلاطية 4: 22-24

بالإسرائيليين المساومين في البرية، مثالًا على الخطر الذي كانت تواجهه كنيسة كورنثوس: أن يخلّصها يسوع ويرعاها، ثم تخسر مكافأتها بسبب الفشل الأخلاقي وعبادة الأوثان.[289] وبعد ذلك يستعمل صورة إغواء الشيطان لحواء سابقةً للخطر الذي يواجه الكنيسة نفسها بأن تنحرف عن تكريسها النقي المخلص ليسوع.[290] وفي كل هذه الأمثلة يستعمل بولس مثالًا من العهد القديم تشبيهًا للموقف الذي يعالجه حاليًا.

وعلى النحو نفسه، بعد أن صاغ نهيه الموجَّه إلى النساء الأفسسيات، وإلى جميع النساء اللواتي يتصرّفن على نحو مشابه في كنائس أخرى، يدعمه بتشبيه. والمقارنة التي يعقدها هي بين وضع كنيسة أفسس وقصة آدم وحواء في تكوين 2-3. ولكن ما الذي يحاول بولس أن يبرزه تحديدًا في قصة آدم وحواء؟

يعتقد كثير من التكامليين أن كلمة «أولًا» (باليونانية: protos) تعني ضمنًا الأول في المرتبة، ولكن ماذا لو كان بولس يشير هنا إلى الأول في التسلسل من دون أي دلالة على المرتبة؟ فالكلمة نفسها تُستعمل لوصف يوحنا الذي وصل إلى قبر يسوع الفارغ «أولًا»، وللتعبير عن أن الله أحبّنا «أولًا»، ثم نحبّه نحن ردًّا على محبته.[291] بل إن صيغة من الكلمة نفسها تُستعمل مرتين في المقطع المحيط، قبل عشر آيات وبعد عشر آيات أيضًا، للإشارة إلى الأول في التسلسل: «فأطلب أول كل شيء، أن تُقام طلبات ... لأجل جميع الناس»، و«ليُختبَروا أولًا، ثم يتشمّسوا».[292]

بل إن جون كالفن نفسه يشكّك في منطق التفسير التراتبي: «إن الحجّة القائلة إن المرأة خاضعة لأنها خُلقت ثانيًا لا تبدو قوية جدًا، فيوحنا المعمدان سبق المسيح ... ومع ذلك كان أدنى منه بكثير».[293] (وعلى نحو مشابه، في تكوين 1، خُلق البشر في الأخير، ومع ذلك قيل إنهم يتسلّطون على كل ما خُلق قبلهم.) فهل كان بولس العبقري ليقدّم حجّة كهذه؟

وإن لم يكن بولس يشير إلى تفوّق آدم في المرتبة على حواء، فلماذا لا يشير إلا إلى التسلسل؟ من الأجوبة المقنعة أنه يمهّد في الآية 13 لما سيقوله في الآية 14 (وتذكّروا أن بولس لم يستعمل أرقام الآيات، ولذلك فإن ميلنا إلى فصل الآية 13 عن الآية 14 خاطئ من الأساس). لا أستطيع أن أتصوّر تلخيصًا لتكوين 2 أبسط من التلخيص الذي

289. 1 كورنثوس 9: 24-10: 14
290. 2 كورنثوس 11: 3-4
291. يوحنا 20: 8، 1 يوحنا 4: 18
292. 1 تيموثاوس 1: 2 و3: 10
293. John Calvin, The Epistles of Timothy, Titus and Philemon. وكالفن، الذي يصف حواء في المقطع نفسه بأنها «نوع من الملحق» و«معين أدنى»، يقبل مع ذلك هذا التفسير.

يقدّمه بولس هنا: «آدم جُبل أولًا (كما يقول تكوين 2: 4-20) ثم حواء (كما يقول تكوين 2: 21-25)». ولذلك قد يكون بولس يستحضر في الآية 13 جانبًا ما من خلق آدم وحواء ينبغي أن يُقرأ مقترنًا بالآية 14.

حواء خُدعت، لا آدم

بعد أن قرأت لكثير من الباحثين التكامليين، لاحظت أنهم يضعون ثقل حجّتهم لـ«نظام الخليقة» على الآية 13 (التي أرى أنهم أساؤوا قراءتها على أنها تعني تفوّق آدم في المرتبة على حواء)، لكنهم عادةً ما يعترفون بعد ذلك بأنهم أقلّ يقينًا بشأن الآية 14.

وهم يفسّرون هذه الآية بإحدى طريقتين. الأولى أن حواء (وكذلك بناتها) أكثر عرضة للخداع من آدم (وأبنائه)، ولذلك فالنساء لسن صالحات لأن يكنّ قائدات ومعلّمات روحيات. والثانية، التي تبنّاها أولًا جورج نايت سنة 1977،[294] هي أن حواء تعاونت مع الشيطان بتجاوزها سلطة آدم المشروعة عليها.

هل خداع المرأة أسهل من خداع الرجل؟ على مدى ما يقارب ألفي عام، حتى ستينيات القرن العشرين، كان هذا هو النص البرهاني الذي تستند إليه الكنيسة لإثبات دونيّة المرأة، بما في ذلك افتقارها إلى القدرة العقلية. لكن حركة تحرير المرأة قلبت هذا الافتراض الثقافي رأسًا على عقب — وتخلّى عنه أيضًا جميع المسيحيين المفكّرين تقريبًا. ولهذا لا يكاد أيّ من الباحثين التكامليين، الذين وضعوا بحقّ فكرةَ مساواة المرأة مكان فكرة دونيّتها، يختار هذا التفسير.[295] لكن هذا لا يمنع بعض النفوس الجريئة من محاولة التمسّك به. يقول غرودم: «يرى بولس في حواء شيئًا يمثّل الأنوثة عمومًا»، ثم يقتبس مؤيّدًا باحثًا آخر: «النساء عمومًا أكثر ميلًا إلى العلاقات والرعاية، والرجال أكثر ميلًا إلى التحليل العقلاني والموضوعية. وتعيين النساء في منصب التعليم محظور لأنهن أقلّ ميلًا إلى رسم خطّ فاصل عند الثوابت العقائدية التي لا تقبل التفاوض، ومن ثَمّ سيدخل الخداع والتعليم الكاذب إلى الكنيسة بسهولة أكبر».[296]

لكن هذا الاقتباس يخلص في جوهره إلى أن النساء أدنى عقليًا. كما أنه ينكر حقيقة أن كثيرات من النساء أكثر تحليلًا وعقلانية من كثير من الرجال، وأن كثيرين من الرجال أكثر قابلية للخداع من كثير من النساء. والأخطر من ذلك كلّه أنه ينسى أن الكتاب

294. George Knight, The New Testament Teaching on the Role Relationship of Men and Women

295. في «Women in the Church» (الفصل 6) يقول شراينر: «ينبغي رفض هذا التفسير لأنه يتضمّن أن النساء أدنى وجوديًا وعقليًا».

296. Wayne Grudem, Evangelical Feminism، الفصل 2

المقدس يحيّي بلا لبس تعليم النساء لنساء أخريات وللأطفال أيضًا. فإن كانت المرأة لا تستطيع أن تعلّم لأنها أسهل انخداعًا، فينبغي ألا تعلّم أحدًا، ولا سيما الأطفال!

ولذلك فقد تخلّى معظم الباحثين التكامليين، عن حقّ، عن هذا الرأي التاريخي.[297] لنقيّم الآن رأي نايت المستحدث، الذي يصوغه شراينر هكذا:

يركّز بولس على الحيّة التي اقتربت من حواء وخدعتها، لا من آدم. [وبذلك] قلبت نمط قيادة الرجل، ولم تتعامل أثناء التجربة إلا مع حواء. فأخذت حواء زمام المبادرة في الردّ على الحيّة، وتركها آدم تفعل ذلك. وهكذا فإن الاحتكام إلى تكوين 3 يذكّرنا بما يحدث حين يُقوَّض النمط الذي رسمه الله.[298]

المشكلة في هذا الرأي أنه لا شيء في رواية سفر التكوين ولا في حجّة بولس يوحي بأن طبيعة خداع حواء كانت مرتبطة بأي شكل من الأشكال بخروجها عن رتبتها وتقويضها «النمطَ الذي رسمه الله». بل إن المقطعين كليهما يبرزان كيف أن حواء لم تثق بصلاح الله فعصت أمر الله. فالتكامليون يُقحمون في المقطعين أمورًا ليست فيهما. ففي تكوين 3 لم تكن طبيعة تجربة الشيطان أن يقوّض سلطة آدم على حواء، بل أن يقوّض سلطة الله عليها. ثم إن حواء وآدم كليهما يُعاقَبان على الخطية نفسها: التي لم يُذكر قطّ أنها تتعلّق بـ«الخروج من تحت سلطة آدم»، أو «التخلّي عن قيادة حواء»، بل بـ«الأكل من الثمرة». نعم، لقد «سمع [آدم] لقول [امرأته]»، لكن الخطية لم تكن فعل الإصغاء إليها (وهو أمر ينبغي لكل الأزواج أن يفعلوه)، بل قبول اقتراحها الخاطئ بأن يأكل من الثمرة. وكذلك لم تُلعن الحيّة لأنها قلبت نظام الخليقة، بل لأنها خدعت حواء (ع 13-14). ونتيجة استسلام حواء للخداع أنها صارت «خاطئة» — وحرفيًا «متعدّية» — وهذا لا يشير إلى قلب الأدوار بين الزوج والزوجة، بل إلى الأمر الذي أعطاه الله للزوجين بألا يأكلا من الشجرة المحرّمة. والقلب الوحيد للأدوار في تكوين 3 هو محاولتهما أن يعتليا عرش الله وأن يكون كلٌّ منهما إلهَ نفسه.

وبما أن التفسيرين التكامليين للآية 14 موضع شكّ جدّي، علينا أن نسأل عمّا يمكن أن يقصده بولس أيضًا بقوله: «[و]آدم لم يكن هو المخدوع، بل المرأة هي التي خُدعت

297. لا ينظر التكامليون في ما يترتّب على ذلك. ففي الطبعة الأولى من Women In The Church، وهو أشمل دفاع عن القراءة التكاملية لـ1 تيموثاوس 2، يكتب دانيال دورياني ملحقًا عن تاريخ تفسير المقطع. ويبيّن أن الكنيسة حتى ستينيات القرن العشرين كانت تفترض أن النهي الموجَّه إلى النساء قائم على دونيّة جوهرية في الإناث. فلاحظوا إذن أن التكامليين، لا أنصار التبادلية وحدهم، يقدّمون ما يسمّيه دورياني «إعادة تفسير» للمقطع. فلا يستطيع أيّ من الفريقين أن يدّعي أن رأيه هو الرأي التاريخي. ومما يثير القلق أن الطبعة الثانية تحذف ملحق دورياني، وهو على ما يبدو اعتراف ضمني بأنهم كانوا قد تنازلوا عن الكثير. ومن المضلّل أن الرأي التكاملي يُسمّى في الفصل 5 «الرأي التاريخي».

298. Tom Schreiner. Women in the Church، الفصل 6

فصارت خاطئة». لعلّ هذه من الآيات التي يشير إليها بطرس حين يقول إن بولس يكتب أشياء «عسرة الفهم». وكما تقول وستفول: «يقدّم بولس ببساطة سردًا موجزًا للسقوط من دون مزيد من الشرح للاهوته أو لصلة السرد بالنواهي».[299] وفي حين أن القرّاء الأصليين ربما عرفوا بالضبط ما كان بولس يتحدّث عنه، فإننا، نحن الذين نتناول الرسالة نفسها بعد قرون، لا نطّلع على كل ما كان بولس يعرفه عن قرّائه، ولذلك قد تفوتنا بعض المعلومات المهمة. ومع ذلك أقدّم معنيين محتملين، كلاهما مبني على فكرة أن بولس يوبّخ كثيرات من النساء الأفسسيات بتشبيه سلوكهن الخاطئ بسلوك أمّهن حواء، على ضوء الطريقة التي خُلقت بها حواء بعد آدم.

المعنى المحتمل الأول هو أن بولس، في الآية 13، قد يكون يلمّح إلى الطريقة التي أوصى بها الله آدم قبل أن توجد حواء. فهل تلقّت هي هذه الوصية عن طريق آدم لا من الله مباشرة؟ وإن كان الأمر كذلك، فهل لهذا السبب استهدفها الشيطان؟ هذا يفسّر إذن لماذا يقول النص إن حواء خُدعت في حين أن آدم لم يُخدع. وعلى هذه القراءة، نتجت خطية حواء عن هجوم على مستوى قناعتها الضحل نسبيًا، ومن هنا كانت خداعًا، في حين أن خطية آدم ارتُكبت بعينين مفتوحتين تمامًا، ومن هنا كانت تمرّدًا لا خداعًا.[300] وفي هذه الحالة قد يكون بولس يبرز حاجة النساء الأفسسيات إلى أن يرسّخن فهمهن للإنجيل ولدعوته إلى التقوى. ومع أن رجالًا مثل «هيمينايس والإسكندر» (اللذين كانا أداتين في يد الشيطان) هم الذين جاؤوا بالتعليم الكاذب في البداية، فإن كثيرات من النساء الأفسسيات (اللواتي كنّ مثل حواء) كنّ الأشدّ انجرافًا وراءه، ولذلك لم يكنّ في موضع يسمح لهن بتعليم الآخرين (ع 12)، بل كنّ بحاجة إلى أن يتعلّمن كلمة الله من جديد بخضوع وهدوء (ع 11). وفي المقابل، ثبت الرجال الباقون في الكنيسة، فلم يكونوا بحاجة إلى هذا الأمر.

والاحتمال الآخر هو أن نأخذ عبارة «آدم جُبل أولًا ثم حواء» على أنها دعوة إلى التأمّل في تكوين 2. يقول بولس في موضع آخر إن «حواء صُنعت من آدم، وحواء صُنعت لأجل آدم»[301] — ويعني بذلك أن وجود حواء والغاية منه مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بوجود آدم بوصفه شريكها. وقد يكون بولس يصحّح أسطورة أفسسية تقول إن النساء لا يحتجن إلى الرجال. وإن كان الأمر كذلك، فقد تفاقم خطأ حواء بكونها واجهت التجربة من دون

299. Cynthia Westfall, Paul and Gender، الفصل 4

300. والواقع أن من المعتاد عند بولس أن يستعمل خداع حواء على هذا النحو، لا احتكامًا إلى نظام الخليقة، بل مثالًا على نوع الخداع الذي يجب تجنّبه — كما يقول لإحدى الكنائس: «ولكنني أخاف أنه كما خدعت الحيّة حواء بمكرها، هكذا تُفسَد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح». (2 كورنثوس 11: 3)

301. 1 كورنثوس 11: 8-9

الرجوع إلى آدم أو الاعتماد عليه بوصفه شريكها. وهذه الفكرة تفسّر كيف كانت تُخدع مع أن آدم، الذي كان على مقربة منها، لم يكن يُخدع. وعلى هذا الرأي، يواجه بولس النساء الأفسسيات اللواتي كنّ «يعلّمن» إخوتهن بطريقة مستقلّة أو غير محترمة، ناسياتٍ قصة البدايات التي كان من شأنها، بوصفها النموذج الأول، أن تذكّر بنات حواء بإكرام أبناء آدم والشراكة الوثيقة معهم.

فأيّ المعنيين هو الصحيح؟ مع أنني أفضّل الثاني، لا يسعنا أن نكون متأكّدين. غير أنه يُحسب للمعنيين كليهما أنهما يمدّان خيطًا يربط بين النساء الخاطئات في أفسس، ونهي بولس (ع 12)، والمادة الداعمة (ع 13-14)، على نحو تتماسك فيه الأفكار الواردة في الآية 13 والآية 14.[302]

الخطية المحدّدة للنساء الأفسسيات

ما الذي فعلته كثيرات من هؤلاء النساء الأفسسيات حتى استوجب نهيًا كهذا؟ الجواب نجده في ما يُنهى عنه: «لستُ آذنُ في الوقت الحاضر للمرأة أن تعلّم أو أن تمارس authentein على الرجل».

والسؤال الحاسم الذي ينبغي طرحه هنا هو ما إذا كان بولس ينهى عن فعلين منفصلين (أن تعلّم وأن تمارس authentein)، أم عن فعل واحد له جانبان (أن تعلّم بطريقة تمارس فيها authentein). ومع أن كوستنبرغر يحتجّ لصالح فعلين منفصلين، فإن كثيرين من التكامليين، ومنهم كريغ بلومبرغ (Craig Blomberg) وكاثي كيلر، يحتجّون بأن كلمة «أو» (باليونانية: oude) التي تجمع الفعلين تضمّهما في الواقع في فعل واحد له جانبان متكاملان.

ودراسة فيليب باين لكلمة oude تفنّد حجج كوستنبرغر وتحتجّ بأن هذا هو الواقع.[303] واللافت أن بايبر، مع أنه أساء فهم معنى authentein، اتّبع هذا النهج منذ سنة 1989 حين قال: «كلمة "يعلّم" ... تعني على الأرجح نوعًا من التعليم يرتبط بطريقة ما بالسلطة. فالتعليم وممارسة السلطة متلازمان».[304] وعلى هذه القراءة، لا تقوم كلمة

302. لا يعامل أيّ من هذين المعنيين الآية 13 على أنها سبب أول والآية 14 على أنها سبب ثانٍ، بل يوحّدهما ليقدّما توضيحًا واحدًا متماسكًا يدعم الآية 12، بإعادة سرد قصة آدم وحواء على نحو يرتبط تحديدًا بالوضع في كنيسة أفسس، كما تشهد بذلك الرسالة نفسها.

303. انظروا www.bit.ly/332TPjf. وانظروا أيضًا مقالة جامين هوبنر، التي يدقّق فيها المسألة أكثر ليتبنّى فكرة الفعل الواحد ذي الجانبين: www.bit.ly/3EKqWM8

304. انظروا www.bit.ly/3GOjAce. ويصل شراينر إلى النتيجة نفسها: «إن 1 تيموثاوس 2: 11-15 لا ينهى إلا عن التعليم المقترن بالسلطة».

«يعلّم» بذاتها، كما لا تقوم كلمة «hit» («يصدم») بذاتها في العبارة الإنجليزية hit and run («صدمٌ ثم هروب»). فمعنى كل كلمة وظلّها الدلالي يتحوّلان بوجود الكلمة الشريكة لها، تمامًا كما أن «loud» في loud and clear («عالٍ وواضح») تحمل ظلًّا مختلفًا عمّا تحمله في loud and proud («بصوت عالٍ وبكل فخر»).

ثم إن بولس، في هذا الأصحاح كلّه، يميل إلى أن يقرن الكلمات أو العبارات أزواجًا تعبّر عن مفاهيم مفردة. فهو يتحدّث عن «الملوك وجميع الذين هم في منصب»، و«مطمئنة هادئة»، و«تقوى ووقار»، و«كارزًا ورسولًا»، و«الحقّ أقول في المسيح ولا أكذب»، و«بدون غضب ولا جدال»، و«ورع وتعقّل»، و«بسكوت في كل خضوع». وأنا أقبل أطروحة باين وبلومبرغ وكيلر: كثيرًا ما يقصد بولس أمرًا واحدًا (لا أمرين) حين يستعمل فعلين معًا، كما هو الحال في الآية 12.[305] ولذلك فإن بولس يعالج وضعًا كانت فيه النساء، بتأثير التعليم الكاذب، يُخطئن إذ «يعلّمن الرجال ويمارسن عليهم authentein في آن واحد» أو «يعلّمن الرجال بطريقة يمارسن فيها authentein».

فما هي إذن خطية النساء الأفسسيات؟ لقد تسبّب هجوم التعليم الكاذب على الكنيسة، بطريقة ما، في أن تعامل كثيرات من النساء الرجالَ معاملة سيئة. فبدلًا من أن يكنّ ezer kenegdos للرجال، كنّ يلبسن لباسًا مغريًا أو متباهيًا (ع 9)؛ ويُثرن الفوضى ويرفضن التعلّم (ع 11، 12ج)؛ ويعلّمن الرجال (بدلًا من أن يكنّ مستعدّات للإصغاء إليهم أو التعلّم منهم) بطريقة تفرض السيطرة عليهم (ع 12ب). وفي هذا كلّه لم يحترمن الرجال، وعرّضن أنفسهن لمزيد من الخداع (ع 13-14). والحلّ الذي يقدّمه بولس هو أن ترجع هؤلاء النساء، مثل جميع تلاميذ يسوع الصالحين، إلى موقف المتعلّم المتواضع الخاضع (ع 11). وينبغي أن يكففن عن إملاء أوامرهن على الرجال بهذه الطريقة القسرية، وأن يحافظن بدلًا من ذلك على وئام الكنيسة (ع 12)، بإعادة تأكيد الاعتماد المتبادل المقدّس مع الرجال الذي قصده الله للنساء منذ البدء، بحسب تكوين 2 (ع 13)، وكذلك بتجنّب خطأ حواء حين فصلت نفسها عن آدم، ولا سيما حين يحاول الشيطان أن يخدع، بحسب تكوين 3 (ع 14).

باختصار، تبنّيت الرأي القائل إن المشكلة كانت في كيفية تعامل النساء مع الرجال وتعليمهن لهم. غير أن باحثين آخرين، مثل أندرو بارتليت في كتاب Men and Women in Christ، يحتجّون أيضًا بأن المشكلة كانت في ما كانت النساء

305. إن كنا لا نزال غير متأكّدين من أن بولس يقصد فعلًا واحدًا له جانبان، فلنلاحظ ما هو نقيض «أن تعلّم أو تمارس authentein»، كما صيغ في الآية 11 وفي نهاية الآية 12: نساء يتعلّمن بهدوء وبروح خاضعة (ع 11) — وهو في جوهره استعمال كلمات كثيرة للدلالة على فكرة واحدة. بل إن نهاية الآية 12 تكرّر الفكرة مرة أخرى، لكنها هذه المرة تختزلها فى كلمة واحدة: «بل تكون فى سكوت».

الأفسسيات يعلّمنه.[306] ويحتجّ بارتليت بأن هؤلاء النساء لم يتأثّرن بالتعليم الكاذب فحسب، بل صرن ناشرات له. ولذلك كان على النساء الأفسسيات أن يكففن عن 1) تعليم أيّ أحد و 2) السيطرة على الرجال. وهذا معقول: فقد كان بولس قد أبعد في وقت سابق معلّمَين كاذبَين من الرجال عن الكنيسة (1: 20)، لكن هؤلاء النساء بقين. ونحن نعلم أن الهمّ الأساسي لرسالة بولس هو معالجة التعليم الكاذب (1: 3)، وأن المعلّمين الكذبة في أفسس استهدفوا النساء خاصة.[307] فكثيرات من النساء في الكنيسة صرن الآن «يطفن في البيوت»، «مهذارات ... وفضوليات، يتكلّمن بما لا يجب» (5: 13) (وهذا موازٍ لموضع آخر في إحدى الرسائل الرعوية حيث يسعى بولس إلى إسكات بعض الناس الذين كانوا «يعلّمون ما لا يجب»).[308] لقد تحوّلت هؤلاء النساء إلى التعليم الكاذب (5: 15)[309] — ولذلك فإن بولس يُسكت أيضًا نشرهن لهذه الأفكار الخاطئة إلى أن يُرَدَدن إلى سلامة العقيدة والتقوى.

306. مع أن الباحثين التكامليين جميعًا يحتجّون بأن المشكلة التي يعالجها بولس في 1 تيموثاوس 2 كانت أن النساء كنّ يعلّمن الرجال، فإن الباحثين غير التكامليين يرفضون هذا الرأي، لكنهم يتفرّقون بعد ذلك إلى ثلاثة مناهج: هل كانت المشكلة في ما كانت النساء يعلّمنه للرجال، أم في كيفية تعليم النساء للرجال، أم في الأمرين معًا. وفي هذا الفصل أتبنّى المنهج الثاني: كانت المشكلة في الطريقة القسرية أو المتعجرفة أو غير المحترمة التي كانت بها النساء — اللواتي تأثّرن بالتعليم الكاذب، وإن لم يكنّ بالضرورة ناشرات له — يعاملن الرجال ويعلّمنهم. غير أن المنهج الأول أو الثالث ممكن أيضًا، كما تذكر هذه الفقرة باختصار. ويقدّم أندرو بارتليت في الفصول 11 إلى 13، والملاحق 3-6، من «Men and Women in Christ» أقوى حجّة لذلك وأكملها مما قرأت. فبقبوله تحليل كوستنبرغر القائل إن بولس قد يكون ينهى عن فعلين اثنين منفصلين وإن كانا متداخلين، وهو ما يقرؤه بارتليت هكذا: «لست آذن للمرأة أن تعلّم (أحدًا) ولا أن تمارس authentein على الرجل» (الملحق 4)، يبني حجّته، من شواهد في 1 تيموثاوس، على أن المعلّمين الكذبة من الرجال كانوا قد غادروا الكنيسة، لكن «عددًا من الأرامل الأصغر سنًّا الثريّات اللواتي يعشن للّذّة [كنّ] يطفن من بيت إلى بيت، ينقلن خرافات كاذبة لا نفع فيها تتضمّن فنون السحر والتنجيم، ويتباهين بثرائهن، ويلبسن بغير حشمة، وكلٌّ منهن تبحث عن رجل يُشبع رغباتها الجنسية». (ص. 259) «في رسالته كلّها يشير بولس إلى المعلّمين الكذبة بصيغة محايدة من حيث الجنس. ويمكننا أن نستنتج من 1: 3 و5: 13 أنه كان يقصد عددًا من النساء بوصفهن معلّمات كاذبات ينبغي لتيموثاوس أن يتعامل معهن في الخطوة التالية». (ص. 261) «على تيموثاوس أن يقوّمهن وأن يحرص على ألا تتولّى أيٌّ منهن منصبًا في مجلس الشيوخ أو منصب شمّاسة إلى أن تُثبت أن حياتها قد تقوّمت». (ص. 263) وعلى هذا الرأي، فإن حواء، مثل النساء الأفسسيات، «خدعها الشيطان [أي عن طريق المعلّمين الكذبة] فقبلت معرفة محرّمة، وعلّمت تعليمًا كاذبًا وتغلّبت على رجل، فكانت العواقب وخيمة». (ص. 285) ومع أن منهج بارتليت يختلف عن منهجي، فإننا كلينا نصل إلى المكان نفسه: «إن الأصحاح الثاني من رسالة تيموثاوس الأولى لا يسوّغ حظرًا عامًّا على تعليم النساء في الكنيسة، ولا على ممارسة النساء للسلطة في الكنيسة». (ص. 286) وإن أمكن إثبات (ولا أظنّ أنه يمكن) أن بولس يشير إلى فعلين منفصلين («أن تعلّم» و«أن تمارس authentein على الرجل»)، لا، كما أعتقد، إلى فعلين متشابكين («أن تعلّم بطريقة تمارس فيها authentein»)، فإن منهج بارتليت يُفضَّل على منهجي، لأن رأيه، وإن كان يتضمّن كثيرًا من رأيي، يفسّر أيضًا لماذا قد تُنهى النساء في هذا الموقف (إلى أن يُرَدَدن إلى الصواب) عن التعليم عمومًا.

307. انظروا 2 تيموثاوس 3: 6-8.

308. تيطس 1: 11

309. ويصبح هذا أوضح إذا جمعنا 1 تيموثاوس مع الرسالتين الرعويتين الأخريين. فـ2 تيموثاوس 3: 6-7 تشير إلى نساء يضلّلهن المعلّمون الكذبة، في حين أن تيطس 1: 10-11 تشير إلى من «يتكلّمون بالباطل ويخدعون العقول» و«يجب سدّ أفواههم».

وأيًّا كانت القراءة التي نأخذ بها، فقد يبدو تصحيح بولس للنساء الأفسسيات قاسيًا في نظر حساسياتنا الحديثة، لكننا حين نفهم ما كان على المحكّ، نستطيع أن نقدّر حكمته في هذا التدخّل تقديرًا أفضل. فهذا السلوك الخاطئ، ومعه الأفكار الهرطوقية التي كانت تحرّكه، كان من شأنه أن يجلب الفضيحة على الكنيسة في عيون المجتمع القديم الذي تعيش فيه، والذي كان يُنتظر فيه من النساء بحكم العُرف أن يُكرمن الرجال لا أن يُحرجنهم علنًا. وفي موضع آخر من الرسالة يُبدي بولس قلقه من أن يُلحق سوءُ تصرّف النساء المسيحيات في حياتهن اليومية الضررَ بسمعة الكنيسة، إذ يتصرّفن على نحو يجعلهن «عرضة للّوم» ويعطي الشيطان «فرصة للافتراء».[310] وإن كان هناك يومًا مسوّغ لإسكات فئة من الناس لفترة من الزمن، وأن يُطلب منهم أن يجلسوا بتواضع مرة أخرى عند قدمَي يسوع معلّمنا، فهو هذا.

لماذا يقول بولس إنه لا ينبغي لأيّ امرأة على الإطلاق أن تعلّم الرجال بطريقة تمارس فيها authentein، إن كانت بعض النساء فقط يفعلن ذلك؟ للسبب نفسه الذي جعله، في موضع سابق من 1 تيموثاوس 2، يوصي جميع الرجال بأن يصلّوا بلا جدال، وجميع النساء بألا يلبسن بتباهٍ، مع أنه لا شكّ أن بعض الرجال فقط كانوا يتشاجرون، وبعض النساء فقط كنّ يتبرّجن في لباسهن.

والأهمّ من ذلك كلّه أن بولس لا يقول شيئًا ضد سعي النساء إلى أن يكنّ راعيات أو معلّمات تقيّات. والباحثون التكامليون الذين يعترضون على ذلك، استنادًا إلى أن القسم التالي يتحدّث عن الشيوخ والشمامسة، يذهبون أبعد مما ينبغي. فحين يقول بولس: «صادقة هي الكلمة: إن ابتغى أحدٌ الأسقفية، فيشتهي عملًا صالحًا. فيجب أن يكون الأسقف ...» فهو يبدأ قسمًا جديدًا. وفي كثير من رسائل بولس أقسام مختلفة ليست بالضرورة مرتبطة بعضها ببعض. ففي رسالة 1 تيموثاوس ستة أقسام من هذا النوع، تتناول موادّ مختلفة، وإن كان يجمع بينها جمعًا فضفاضًا سعيُ بولس إلى إصلاح كنيسة أضرّ بها التعليم الكاذب. ولذلك لا يوجد في الأصحاح 2 أي شيء على الإطلاق يتحدّث عن أدوار الخدمة، بل فقط عن الطريقة التي ينبغي أن تُمارَس بها الأنشطة المسيحية (مثل الصلاة واللباس والتعلّم) على نحو أفضل (بلا جدال، وبلياقة، وبخضوع، إلخ). ثم لماذا يقضي بولس، كما يحتجّ التكامليون، على أي رغبة لدى النساء في القيادة، ثم بعد آيات قليلة يؤكّد «ابتغاء الأسقفية» عند (وهو يستعمل لذلك كلمة عامة، ومن ثَمّ شاملة للجنسين) «أحد»؟[311] بل إنه قد دعا للتوّ النساء الأفسسيات إلى

310. 1 تيموثاوس 5: 7، 14

311. يستعمل العهد الجديد لفظة tis للرجال والنساء على السواء. وهي تعني «أيّ أحد» أو «أحد» أو «واحد». فعلى سبيل المثال، تُستعمل وصفيًا لـ«امرأة»، هى «مرثا»، فى لوقا 10: 38.

«أعمال» (ergon) صالحة في 2: 10 — وها هو الآن في 3: 1 يقول إن الأسقفية «عمل» (ergon) صالح من هذا النوع.

الأزواج والزوجات

ومع أن معظم الباحثين يخلصون إلى أن بولس يعالج الطريقة التي كانت بها النساء عمومًا يعاملن الرجال عمومًا معاملة خاطئة في الكنيسة، فإن بعضهم، مثل مارتن لوثر، يقرؤون النص على أن بولس يعالج الطريقة التي كانت بها الزوجات يعاملن أزواجهن معاملة خاطئة. ولأن «امرأة» و«رجل» يمكن أن تُترجما أيضًا «زوجة» و«زوج»، تترجم CEB الآية 12 هكذا: «لا أسمح لزوجةٍ أن تعلّم زوجها أو أن تسيطر عليه». ويلاحظ هؤلاء المترجمون أن بولس ينتقل من صيغة الجمع للرجال (ع 8) وللنساء (ع 9) إلى صيغة المفرد لكلٍّ منهما في الآيتين 11-12. ويسألون: لماذا الانتقال من الجمع إلى المفرد ما لم يكن يشير إلى أشخاص محدّدين (أزواج وزوجات) وإلى علاقات محدّدة (الزواج)؟ ومع أنني ما زلت متردّدًا، أرى أن الحجج المضادة لهذه القراءة للمقطع لا تدحضها.[312]

وهناك أربعة أسباب تدعو إلى الاعتقاد بأن هذا المقطع قد يلمّح إلى الزواج، لا إلى العلاقات بين الرجال والنساء عمومًا. أولًا، صيغة المفرد العامة لكلمة «رجل» لا تستقيم. فإن كان بولس، كما يقول التكامليون، يحاول أن يمنع امرأةً (مفرد) من التعليم في الكنيسة لأن رجالًا (جمع) كانوا حاضرين، فلماذا يقول «رجل» لا «رجال»؟ كان الأطبع أن يقول: «لستُ آذنُ في الوقت الحاضر لامرأة (مفرد) أن تعلّم ... رجالًا

312. يحتجّ عدد من التكامليين ضد هذه القراءة بثلاثة أسباب. أولًا، يقول بعضهم إنه لو كان بولس يقصد الأزواج والزوجات لأضاف إلى الكلمتين ضمير الملكية (أي «أزواجهنّ» و«زوجاتهم»). لكن بولس نادرًا ما يستعمل ضمير ملكية مع «زوجة» و«زوج» في أيٍّ من تعاليمه الرئيسية عن الزواج (انظروا كولوسي 3: 18-19؛ أفسس 5: 22-25؛ 1 كورنثوس 7: 2-4، 11، 14، 33). ثانيًا، يقول بعضهم إنه سيكون غريبًا أن يخاطب بولس الرجال جماعةً (ع 8) ثم النساء جماعةً (ع 9-10)، ثم يتحدّث فجأة إلى النساء المتزوّجات والزوجات المتزوّجات فقط. والواقع أنه سيكون من الطبيعي جدًا أن يتحدّث بولس في موضع ما من رسالته إلى الزيجات التي لا شكّ أنها تأثّرت بالتعليم الكاذب — وهذا الموضع مناسب كأيّ موضع آخر. ثالثًا، يقول بعضهم إن بولس ينتقل اعتباطًا بين الجمع والمفرد في رسالته، ولذلك لا ينبغي المبالغة في تحميل ذلك معنى. فعلى سبيل المثال، يتحدّث بولس عن أسقف عام بصيغة المفرد (3: 2) وعن عامل مستحقّ أجرته (5: 18). وبعد أن يتحدّث عن الشيوخ بصيغة الجمع (5: 17)، ينتقل إلى المفرد مع استمرار المقطع (5: 19). لكن بولس لا يستعمل المفرد العام اعتباطًا قطّ في سائر رسائله. فهناك دائمًا غاية من ذلك. ففي 3: 2 يستعمل المفرد للشيخ لأنه يتحدّث الآن عن نوع الشخص الذي ينبغي لتيموثاوس أن يبحث عنه في الشيخ. ويُستعمل المفرد «عامل» (5: 18) لأن الاقتباس الذي يستعمله بصيغة المفرد. أما الانتقال من الشيوخ بصيغة الجمع (5: 17) إلى المفرد (5: 19)، ففي 5: 17 يتحدّث النص عن قيادتهم الجماعية، في حين أن 5: 19 يشير إلى الشكايات المرفوعة على أفراد من الشيوخ.

(جمع)» — ما لم يكن بولس يريد منا أن نتخيّل اجتماعات كنسية في أفسس لا يحضرها إلا رجل واحد، وهذا مستبعد.

ثانيًا، يبني بولس نهيه على آدم وحواء، وهما الزوجان النموذجيان الأوّلان في الكتاب المقدس (ع 13-14)، ثم يتحدّث أيضًا عن ولادة الأولاد (ع 15)، وهي أيضًا ذات طابع بيتي، ومن ثَمّ أرجح أن تشير إلى سياق الزواج.

ثالثًا، في كل موضع تقريبًا يستعمل فيه بولس الكلمتين اليونانيتين aner وgune معًا، يقصد الأزواج والزوجات. وعادةً حين يريد أن يقارن بين أشخاص بحسب جنسهم (وهو ما يقول التكامليون إن بولس يشير إليه هنا)، يستعمل كلمات يونانية أخرى. فعلى سبيل المثال، في غلاطية 3: 28 («ليس ذكر وأنثى»)، يستعمل الكلمتين arsen وthely، وهما كلمتان استعملهما يسوع أيضًا حين تحدّث عن خلق البشر ذكورًا وإناثًا (انظروا متى 19: 4: «إن الذي خلق من البدء خلقهما ذكرًا وأنثى»).

رابعًا، ذكرُ «امرأة» تعلّم «رجلًا» يوحي بتعامل خاص بين شخصين من جنسين مختلفين. وفي ثقافة قديمة كانت تُعلي من شأن اللياقة، كان هذا لا يحدث عادةً إلا في البيوت.

فإن كان بولس يشير فعلًا إلى الزواج، فقد يعني ذلك أنه قلق من الطريقة التي اعتادت بها الزوجات الأفسسيات، بعد أن تأثّرن بالتعليم الكاذب، أن يعلّمن أزواجهن تعليمًا غير رسمي بطريقة متسلّطة وقسرية، وكنّ، مثل حواء، معرّضات على نحو خطير لمزيد من الخداع إذ انفصلن باستقلال عن الشراكة المتواضعة مع أزواجهن. وعلى هذا التفسير، يتدخّل بولس بحكمة ليوقف ذلك، ويحثّ هؤلاء الزوجات على أن يرجعن إلى الخضوع لكلمة الله تلميذاتٍ متواضعات قابلات للتعلّم، وأن يقفن إلى جانب أزواجهن شريكاتٍ لهم.

واللافت أن الكنيسة الرائدة في حركة Acts 29 (Acts 29 Movement)، وهي حركة تكاملية بقوة، كتبت تحليلًا كتابيًا مطوّلًا لتسويغ إقصاء النساء عن التعليم والقيادة، ومع ذلك لم تجد له إلا حجّة واحدة: قراءة تكاملية لـ1 تيموثاوس 2: 12. لكنهم يعترفون في الورقة (وهم محقّون تمامًا في ذلك) بأن بولس قد يكون يشير إلى الزواج فقط.[313] ولكن انظروا: إن كان بولس يشير إلى الزواج تحديدًا، فإن حجّتهم الوحيدة لإقصاء الإناث عمومًا عن قيادة الرجال عمومًا والوعظ لهم تسقط سقوطًا تامًّا.

313. انظروا الحاشية 160 في "The Role of Women in the Village Church': www.bit.ly/3CFKgJO

الغامض في مقابل الواضح

أنا مقتنع بأن بولس في 1 تيموثاوس 2: 11-14 يعالج وضعًا محدّدًا في أفسس كانت فيه بعض النساء يخطئن. ولذلك لا ينبغي أن تُقرأ الآية 12 على أنها أمر شامل لجميع الكنائس في كل مكان، ما لم يكن في كنيسة ما أيضًا بعض النساء اللواتي يعلّمن الرجال بطريقة يمارسن فيها authentein.

غير أنني أقدّم الآن فكرة لاحقة مهمة: إن المقطع غامض إلى حدّ أنه لا يصلح، في كل الأحوال، أن يكون أساسًا لعقيدة أو لممارسة كنسية.

من قواعد علم التفسير (الهرمنيوطيقا) أن النصوص الغامضة يجب أن تُفسَّر على ضوء النصوص الأوضح.[314] فالنصوص الهامشية، التي لا يرد ما يبدو أنها تقوله في العادة إلا مرة واحدة، مثل التعليمات المتعلّقة بتغطية الرأس «من أجل الملائكة»،[315] أو «الاعتماد من أجل الأموات»،[316] أو كرازة المسيح «للأرواح التي في السجن»،[317] أو «خلاص النساء بولادة الأولاد»،[318] لا يجوز أن يُعطى لها الثقل نفسه الذي يُعطى للنصوص الواضحة المركزية. فبدلًا من أن تتشدّد الكنائس عقائديًا أو تبني عقائد أو ممارسات جوهرية على هذه المقاطع الأكثر غموضًا، ينبغي لها أن تتمسّك بتفسيراتها لها بمزيد من التواضع والمرونة، مع تمسّكها في الوقت نفسه بسلطة الكتاب المقدس بثقة وثبات.

النصوص الكتابية الغامضة ليست أساسًا صالحًا لعقيدةٍ حاسمة. ينبغي أن تكون الأولوية للتعاليم الواضحة. ولحسن الحظ، فإن معظم نصوص الكتاب المقدس واضحة؛ وبعضها فقط غامض.[319] فما الذي يجعل نصوصًا معيّنة غامضة؟ إنها تميل إلى أن تحتوي على عدد غير عادي من المفردات المبهمة؛ أو يبدو أنها تقول عكس ما تقوله مقاطع أخرى؛ أو يصعب تطبيقها بشكل خاص في مواقف ملموسة؛ أو لا يبدو

314. فعلى سبيل المثال، كتب ترتليانوس، أحد آباء الكنيسة في القرن الثاني، أن «الأقوال غير المؤكَّدة ينبغي أن تُحسم بالأقوال المؤكَّدة، والغامضة بالأقوال الواضحة الجليّة». (مقتبس في Gregg Allison, Historical Theology, ص. 122).
315. 1 كورنثوس 11: 10
316. 1 كورنثوس 15: 29
317. 1 بطرس 3: 19
318. 1 تيموثاوس 2: 15
319. نتذكّر أن بطرس اعترف بوجود أمور «عسرة الفهم» في كتابات بولس (2 بطرس 3: 16). وقد استُعملت عبارة بطرس أيضًا فى العالم القديم للحديث عن أقوال العرّافين، التى اشتهرت بأنها تحتمل أكثر من تفسير.

أن هناك أي مقاطع كتابية أخرى تقول الشيء نفسه؛ أو يكون الموقف القديم الذي يعالجه المقطع محيّرًا. ولذلك تفسح المجال لتفسيرات كثيرة متنوّعة، ومن ثَمّ يدور حولها جدال حادّ بين كبار الباحثين.[320] وأنا لا أعرف مقطعًا أكثر إثارةً للجدل في المئة سنة الأخيرة من تاريخ الكنيسة، ولا نصًّا أشدّ غموضًا من هذا النص. فبحسب كل هذه المعايير، يُعدّ النص في 1 تيموثاوس 2: 12-15 نصًّا شديد الغموض.

إن فعله الحاسم، authentein، كلمة ضبابية المعنى، لا ترد في العهد الجديد إلا مرة واحدة، ونادرًا جدًّا ما ترد في الأدب غير الكتابي في أثناء حياة بولس. وولترز واثقٌ (أكثر مما ينبغي) من أن الكلمة «على الأرجح جدًّا» لا تحمل معنًى سلبيًّا، مع أنه يدرس الاستعمالات القديمة الثمانية للكلمة الأقرب إلى زمن بولس، ويجد أن «ندرة استعمال الكلمة وغموضه في هذه المصادر اليونانية أسهما إسهامًا كبيرًا في غياب الإجماع بين الباحثين»، وأنه «من بين هذه الثمانية، معظمها قابل للنقاش بطريقة أو بأخرى، إما لأن النص مشكوك فيه، أو لأن السياق غير واضح، أو لأن التاريخ موضع خلاف». بل إن وولترز يترجم خمسة من هذه الثمانية بمعنى «يتولّى السلطة»، و«يكون أمهر من»، و«يكون هو المُنشئ»، و«يتصرّف من تلقاء نفسه»، و«يرتكب القتل». وتفسيره لهذا التنوّع الجامح في المعاني: «عاشت authentein وجودًا خفيًّا في معظمه (أي شفهيًّا) قبل القرن الرابع، لأنها كانت تنتمي إلى مستوى من اللغة دون المستوى الأدبي».[321] ولهذا سالت أنهار من الحبر، ولا يزال الجدل قائمًا حول معناها الحقيقي في 1 تيموثاوس 2: 12.[322] (والأمر لا يقتصر على authentein — إذ يقول شراينر: «كل كلمة في العدد 12 موضع جدال بين الباحثين».[323]) ويقيّم جامين هوبنر، في أطروحته للدكتوراه، أحدث الدراسات حول الاستعمالات القديمة للكلمة تقييمًا دقيقًا، وينتقد الباحثين التكامليين عن حقّ:

إنه لأمرٌ أن نقول: «لا نعرف بالضبط ما كانت تعنيه “authentein” في القرن الأول أو في 1 تيموثاوس 2: 12». وأمرٌ آخر تمامًا أن نقول: «لا نعرف بالضبط ما كان يعنيه هذا المصطلح في القرن الأول أو في 1 تيموثاوس 2: 12، ولذلك سنفترض أنه لا يوجد سبب خاص لاختيار بولس له، وأنه لا يحمل أي ظلّ خاص من المعنى على الإطلاق،

320. على سبيل المثال، للنص في عبرانيين 6: 4-6 ما لا يقل عن 18 خطًّا تفسيريًّا، وللنص في 1 تيموثاوس 2: 12 اثنا عشر خطًّا.

321. Al Wolters في «Women In The Church»، الفصل 2.

322. لا تزال الدراسات العلمية لكلمة authentein في الأدب القديم خارج الكتاب المقدس تثير مشكلات معجمية وتفسيرية. انظروا www.bit.ly/3EHxZ8a

323. وفي موضع آخر، يناقض هو هذا القول ويبالغ في آنٍ معًا حين يقول: «1 تيموثاوس 2: 12 هو التعليم الواضح لبولس، ويجب أن يكون الدليل لفهم دور النساء». علينا جميعًا أن نعترف بأنه ليس واضحًا على الإطلاق.

وأنه بالتالي يعني ممارسة السلطة بوجه عام» — ثم نمنع نصف الكنيسة في العالم من أن يكونوا رعاة. هذا ليس استدلالًا سليمًا.[324]

كما أن فهم authentein بمعنى «ممارسة السلطة» يجعل تطبيق هذا العدد تطبيقًا متّسقًا في المواقف العملية صعبًا بشكل خاص، إن لم يكن مستحيلًا. هل يجوز مثلًا لمُرسَلة أن تقف وتعلّم الإنجيل لرجال غير مؤمنين؟ لا يقول هذا المقطع شيئًا عمّا إذا كان «الرجل» مؤمنًا أم لا. وإذا كانت المرأة لا تستطيع أن تعلّم رجلًا، ففي أي سنّ يصبح الصبي الذي لم يعد يجوز لأمّه أو لقائدة الشبيبة أن تعلّمه؟ هل يجوز للنساء أن يعلّمن الرجال في كليات اللاهوت، أو في دروس الكتاب المقدس المختلطة، أو في المؤتمرات المسيحية؟ هل يجوز للرجال أن يقرأوا كتابًا يتناول العقيدة أو تفسيرًا كتابيًّا كتبته امرأة؟ هل يجوز لامرأة أن تقود منظمة مسيحية تعمل خارج إطار الكنيسة، أو خدمةً يعمل فيها رجال تحت إشرافها؟ وفي الكنيسة، إلى أي مستوى من القيادة يمكن أن ترتقي المرأة؟ (وبما أن كوستنبرغر يذكّر التكامليين بأن المنع هو ضد قيادة النساء، لا ضد رعايتهن الكنسية فحسب،[325] فمن غير المتّسق أن تُحرم النساء من القيادة في أعلى المستويات، ثم يُسمح لهن بقيادة الرجال في مستويات أدنى، مثل قيادة المجموعات الصغيرة أو قيادة فريق من المتطوعين.) وليست النساء الموهوبات وحدهن من يُركَنّ جانبًا بسبب التفسير التكاملي لـ 1 تيموثاوس 2: 12، الذي يصبح — حين يُقرأ بالطريقة التكاملية — الأساس «الكتابي» الوحيد للتمييز بين تعليم غير رسمي يُزعم أنه بلا سلطة، وتعليم رسمي ذي سلطة يبدو أنه لا يليق إلا بالرعاة. كم من الوعّاظ الرجال الموهوبين في الكنائس التكاملية، ممّن ليسوا رعاة، لم يُسمح لهم بالوعظ بسبب هذا الفصل التفسيري إلى شطرين؟ إن كان هذا التفسير لعدد واحد جزءًا حقًّا من «الحقّ الذي يحرّرنا»، فأيّ تعليمات أخرى في العهد الجديد تولّد هذا القدر من الحيرة والقلق والتخمين والتدقيق المتكلّف في الحالات والألم والانقسام في جسد المسيح؟

هذا هو المقطع الوحيد الذي يبدو أنه يقول ما يقوله. لا يوجد نصّ كتابي آخر يقول إن المرأة يجب ألّا تعلّم رجلًا. لو أراد الله أن يكون لجميع الكنائس إلى الأبد وعّاظ ورعاة من الرجال فقط، أفما كان سيعطينا بالتأكيد عددًا ثانيًا يقول الشيء نفسه؟ ويزداد تفسير النص صعوبةً بسبب معرفتنا المحدودة بالموقف الذي يعالجه بولس. فكل محاولات

324. انظروا www.bit.ly/3BNaSY8 ص. 245

325. «إن اختزال القضية في مسألة "لا شيخات/ناظرات" وحدها قد يكون تبسيطًا مفرطًا. ... فـ 1 تيموثاوس 2: 12 يقوم على حقائق أكثر جوهرية من مجرد منع سطحي لتولّي النساء منصبًا معيّنًا». المصدر: www.bit.ly/3wsFsFr

فهم هذه الأعداد مضطرة إلى أن تملأ، على سبيل التخمين، التفاصيل حول الكيفية التي ربما أخطأت بها بعض النساء أو جميعهن تحديدًا في حقّ الرجال/أزواجهن في أفسس، وكيف ارتبط سوء سلوكهن بالرواية المقتضبة على نحو غريب لقصة آدم وحواء.[326]

وأخيرًا، فإن ترجمة authentein بمعنى «ممارسة السلطة» تجعل هذا المقطع يتعارض مع أمثلة كتابية عديدة تقود فيها النساء الرجالَ و/أو يعلّمنهم، ويبدو أن ذلك بمصادقة الله. وكما سنكتشف في الفصول 10–12، فإن التفسير التكاملي لا يتّفق مع النساء في الكتاب المقدس اللواتي علّمن الرجال أو حكمنهم.[327] إن السعي إلى تفسير نص كتابي واحد — بل حتى كتابة كتاب علمي عنه — دون الاسترشاد بما يقوله الكتاب المقدس في مواضع أخرى عن الموضوع نفسه، ثم الإعلان: «كلمة الله تقول بوضوح ...»، ليس طريقة رشيدة ولا سليمة ولا متينة للتعامل مع الكتب المقدسة. وإن كان علينا أن «نفصّل كلمة الحق بالاستقامة»، كما يقول بولس لتيموثاوس، فإن المقاطع الأوضح ينبغي أن ترشد فهمنا للمقاطع الأكثر غموضًا في الموضوع نفسه.

الخلاص بولادة الأولاد

ولعلّ أوضح علامة على أن هذا المقطع غامض هو أنه يُختم في العددين 14-15 بهذه الكلمات: «[حواء] خُدعت فصارت خاطئة. ولكنّ النساء سيخلصن بولادة الأولاد — إن ثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقّل». يفسّر غرودم هذا العدد بأنه طريقة بولس لتوجيه النساء إلى العودة إلى دورهن المنزلي في تربية الأولاد، بينما يواصل الرجال القيام بالأدوار العامة في التعليم والقيادة.[328] وبصرف النظر عن أن العدد 12 على الأرجح لا يتكلم عن الأدوار العامة في التعليم والقيادة، فإن نقطة الضعف الرئيسية في هذا التفسير هي أن «ولادة الأولاد» (وظيفة بيولوجية مؤقتة) ليست الشيء نفسه مثل «تربية الأولاد» (دور اجتماعي ممتد).

فماذا يعني العدد 15 إذن؟ يقترح كثير من الباحثين أن المفتاح هو أن نتذكّر أن خطية حواء المدوّنة في تكوين 3 تؤدي مباشرةً إلى عاقبة «الولادة» المؤلمة. يلتقط بولس هذا

326. التكاملي دوغلاس مو صريح في هذا: «هذه الأعداد (ع 13-14) تقدّم أقوالًا عن الخليقة والسقوط، لكن ليس واضحًا كيف تدعم الأوامر الواردة في العددين 11-12». (1 Timothy 2:11–15: Meaning and Significance. ص. 68.)

327. أبرز مثال في الكتاب المقدس هو بريسكلا التي علّمت رجلًا العقيدة تحديدًا (انظروا «أمثلة على نساء يعلّمن» في الملحق 4)، وفعلت ذلك بسلطة رعوية (انظروا الفصل 12 للأدلة). وبما أننا نؤمن بوحدة الكتب المقدسة في ظل وحي الروح، فإن الاحتجاج — كما يفعل الباحثون التكامليون — بأن 1 تيموثاوس 2: 12 يشكّل منعًا لامرأة من أن تفعل ما تفعله بريسكلا، يكشف الخطأ في تفسيرهم لـ 1 تيموثاوس 2: 12.

328. وللإنصاف، يخالفه تكامليون آخرون مثل كريغ بلومبرغ.

الارتباط، لكنه يحاول أن يعبّر عنه بطريقة تخاطب النساء بما يبنيهن. وينقسم الباحثون بين ثلاثة تفسيرات ممكنة. الاحتمال الأول هو أن بولس يلمّح إلى وعد الله في تكوين 3 بأن نسل حواء سيسحق يومًا ما رأس الشيطان. بعبارة أخرى، ستخلص النساء بالولادة التي ولدتها مريم الأم، ابنة حواء، وينلن الخلاص الذي سيقود إلى حياة مقدسة.

والاحتمال الثاني هو أن الكلمة اليونانية الأصلية sōzō، التي تشير غالبًا إلى الخلاص الروحي، يمكن أن تشير أيضًا إلى الحفظ الجسدي.[329] بعبارة أخرى، يعطي الله هؤلاء النساء في كنيسة أفسس وعدًا خاصًّا بأن يكون معهن في ذلك الحدث الخطير، أي الولادة.[330]

والاحتمال الثالث هو أن بولس يتصدّى للطريقة التي قاد بها التعليم الكاذب إلى رفض الزواج.[331] فلعلّ نساءً متزوجات ضللن الطريق في كنيسة أفسس — مثل النساء «الفائقات الروحانية» في كنيسة كورنثوس[332] — لم يبدأن فقط بالانسحاب من شراكتهن الزوجية، بل توقّفن أيضًا عن العلاقة الجنسية مع أزواجهن. ولذلك يؤكد بولس من جديد أن (العلاقة الجنسية و) ولادة الأولاد بُعدٌ من أبعاد القداسة والتقديس.[333]

قد يكون المقصود أيًّا من هذه التفسيرات، أو شيئًا آخر. لكن المهم هو أن العدد 15، وهو من أكثر الأعداد إرباكًا في الكتاب المقدس، يؤكّد مدى غموض الأعداد السابقة التي يختمها. وهذا يبرز أكثر فأكثر أن الأعداد 11-15، بحسب كل المعايير، أساسٌ غير مناسب لأي عقيدة من أي نوع، فضلًا عن عقيدة — تقوم على فكرة «نظام الخليقة» — قد تمنع نصف العالم من تعليم النصف الآخر وقيادته.

329. كما تُستعمل في أعمال 27: 20 و2 تيموثاوس 4: 18. وبما أن بقية الكتاب المقدس تقول إن النساء يخلصن روحيًّا بالإيمان بيسوع، لا بوظيفة بيولوجية مثل إنجاب ذرية، فإن هذا الفهم للكلمة يتّفق أكثر مع تعليم الكتاب المقدس عن الخلاص الروحي.

330. في العالم القديم، كانت الولادة السبب الأول لوفاة النساء وإصابتهن بالإعاقات. والإلهة الأفسسية أرطاميس، بعد ولادتها بقليل، كانت قد ساعدت أمّها هي على الولادة. ولذلك كانت نساء أفسس يصلّين لها عادةً لكي تحفظهن في أثناء الولادة. وهذا يعطي وزنًا إضافيًّا لهذه القراءة — فإلى جانب الحياة المقدسة، ينبغي أن يصلّين إلى الله، كما يقول بولس.

331. كما يقول في 1 تيموثاوس 4: 3.

332. يقول غوردون في، في تفسيره الرائد لرسالة كورنثوس الأولى، إن هذه هي خلفية الموقف الذي دفع بولس إلى كتابة 1 كورنثوس 7، حيث ينصح الأزواج والزوجات بأن تكون بينهم علاقة جنسية منتظمة. وفي موضع لاحق من الرسالة ينصح «الحدثات [الأرامل الشابات] أن يتزوّجن ويلدن الأولاد»، وأن يدبّرن بيوتهن، ولا يعطين العدوّ فرصة للافتراء. (1 تيموثاوس 5: 14)

333. يطرح التكاملي كريغ بلومبرغ في «Two Views on Women in Ministry» هذه القراءة: «العدد 15 عدد صعب الترجمة إلى أبعد حد، ولكن الأرجح أنه يُفهم على أفضل وجه بوصفه تصدّيًا للبدعة وموقفها المعادي للزواج». (الفصل 2)

التاريخ يعيد نفسه حين لا يُصغي أحد. ففي تاريخ تفسير الكتاب المقدس، كان من التجارب المتكرّرة للكنيسة أن تبني عقائد على مقاطع منفردة. في أوائل القرن الثالث، احتجّ آريوس بأن ابن الله هو أول خليقة لله، مستندًا إلى أمثال 8: 22: «الربّ أخرج [الحكمة] أولَ أعماله». وفي أوائل القرن السادس عشر رفضت الكنيسة الكاثوليكية عقيدة لوثر في الخلاص بالنعمة وحدها، مستندةً إلى يعقوب 2: 24: «[ب]الأعمال يتبرّر الإنسان، لا بالإيمان وحده». وفي أواخر القرن العشرين احتجّ التكامليون بأن النساء لا يجوز لهن قيادة الرجال أو تعليمهم، متمسّكين بـ 1 تيموثاوس 2: 12. والخطأ في كل هذه الحالات هو أن تفسيرًا خاطئًا لمقطع غامض واحد يُستخدم لتقويض التعليم الأوضح عن الموضوع في مواضع أخرى. إن بنيان الكتاب المقدس واسع ومعقّد إلى درجة أن في جميع العقائد الكبرى للكنيسة تقريبًا بعض الأعداد التي قد تبدو كأنها تقول شيئًا يناقض الإيمان القويم. والطريق إلى الأمام هو أن ندع التعليم الواضح في جزء كبير جدًّا من الكتاب المقدس يضبط تفسيرنا للمقاطع القليلة نسبيًّا الأكثر غموضًا.

والحقّ أن حكمة السماح للمقاطع الأوضح بأن تُلقي نورها على هذا المقطع الغامض تظهر بشكل خاص حين نجيب عن السؤال: «هل يجوز للنساء أن يعلّمن الرجال؟» — وهو سؤال أجيب عنه في الملحق 4.



8

أيتها الزوجات، اخضعن

«ليس شريكا الزواج موضوعَين في علاقة هرمية يعلو فيها أحدهما على الآخر، ولا هما منفصلان كوحدتين مستقلّتين يفعل كلٌّ منهما ما يحلو له. بل إن علاقة الزواج هي علاقة خضوع متبادل». ريتشارد هايز[334]

«علينا أن نربّي بناتنا على الخضوع لأزواجهن يومًا ما». حين سمعتُ مؤخرًا أمًّا تقول هذا لزوجتي، أثار الأمر حماستي حقًّا. هل ينبغي لي حقًّا أن أعلّم آيفي كيف تخضع لزوجها يومًا ما؟ إن موضوع القيادة والخضوع في زواج المرء نفسه شخصيٌّ بما يكفي، ولكن حين أُضطرّ إلى التفكير في التعاليم التي ينبغي أن أنقلها إلى أولادي عن الزواج، أشعر بالتزام أكبر بأن أفهم هذا التعليم فهمًا صحيحًا.

التكاملية ذات النقطة الواحدة

لم أتخلَّ أخيرًا وتمامًا عن فكرة أن مثال الله الأعلى لكل زواج يتضمّن ولو أخفّ أشكال السلطة والخضوع بين الزوج والزوجة، إلا حين بحثتُ في هذا الفصل والفصل التالي وكتبتهما. فبناءً على قراءتي لأفسس 5 قبل ذلك، كنت أتمسّك منذ زمن طويل بفكرة أن قيادة الزوج الباذلة لزوجته يُقصد بها أن تُظهر شيئًا من قيادة المسيح الباذلة لكنيسته.

إن التكاملية ذات النقطة الواحدة ترى أنه يُسمح للنساء بأن يقدن الرجال في الكنيسة والمجتمع، مع أن على الزوجات أن يمارسن نوعًا من الخضوع في اتجاه واحد لأزواجهن.[335] وهذا يختلف عن التكاملية ذات النقطتين، التي تدعو إلى خضوع المرأة

334. Richard Hays، First Corinthians، ص. 116

335. حتى إن وُجدت السلطة والخضوع في زواج ما، فهذا لا يعني أن الزوجة لا يمكن أن تكون لها سلطة حتى على زوجها في مجال آخر. على سبيل المثال، يروي امرأة لفيدوت، في الثقافة الأيونية التي عاشت فيها، ربما كانت (أو

في الزواج وفي الكنيسة. ومن اللافت أن كثيرًا من الباحثين في الكتاب المقدس والكنائس في كل أنحاء العالم يتمسّكون بالتكاملية ذات النقطة الواحدة.[336]

أظنّ أن كثيرين من أتباع التكاملية ذات النقطتين قد يقرأون هذا الكتاب ويقتنعون بالتخلّي عن إقصاء المرأة من القيادة في الكنيسة، لكنهم ربما يظلّون متمسّكين بنوع من السلطة والخضوع في الزواج — ولأنني أنا أيضًا تمسّكتُ بهذا الموقف بضع سنوات، فأنا أقدّره تقديرًا كاملًا.

ومن اللافت أنه حين قادتني دراستي المستمرة لأفسس 5 إلى التخلّي حتى عن التكاملية ذات النقطة الواحدة، لم يتغيّر زواجي تغيّرًا كبيرًا. وكما سأشرح، أدركتُ أنني كنت أصلًا تبادليًّا تقريبًا حتى في الزواج. ذلك لأنه إن كانت خبرتي الزوجية الممتدة نحو عقدين قد علّمتني شيئًا، فهو أن الزواج بين ندّين مرغوب أكثر بكثير من زواج بين قائد وتابع. وهذا على الرغم من كثرة العبارات الموجزة البليغة عن الزواج «المسيحي» التي وعظتُ بها أنا وغيري مرارًا، مثل: «هو يبذل، وهي تخضع؛ هو يقود، وهي تتبع؛ هو يبادر، وهي تؤيّد».[337]

ومع أن يسوع لا يقول كلمة واحدة عن قيادة الزوج لزوجته،[338] يبدو أن لدى بولس الكثير ليقوله، ولا سيما في أفسس 5، وهو محور هذا الفصل. وهذا هو المقطع:

21 اخضعوا بعضكم لبعض توقيرًا للمسيح.

336. على سبيل العيّنة الصغيرة، وجدتُ مواقف تكاملية ذات نقطة واحدة لدى ن. ت. رايت من أوروبا الغربية، وهايك هوفهانيسيان (Hayk HovHannisyan) من أوروبا الشرقية، ومايكل بيرد من أستراليا في وقت من الأوقات. أما المنغمسون في «حروب» المساواتيين والتكامليين في الولايات المتحدة فقد لا يستوعبون هذا الاحتمال. يشرح ن. ت. رايت: «جزء من المشكلة، ولا سيما في الولايات المتحدة، هو أن الثقافات تصبح مستقطبة إلى حدّ أنك إن وضعت علامة في خانة واحدة افترض كثيرون أنه لا بد أن تضع علامة في عشرات الخانات الأخرى في الجانب نفسه من الصفحة — دون أن يدركوا أن الصفحة نفسها اعتباطية للغاية ومقيّدة بالثقافة». حين يُقال لنا شيء مرات كافية، نميل إلى تصديقه. لو أشرتُ إلى نجمين في سماء الليل وقلت: «هذان النجمان متّصلان؛ إنهما كوكبة اسمها المؤشّران (The Pointers)»، فإن سامعي يبدأ في تخيّل حبل غير مرئي يربط بين هذين النجمين. وفي كل مرة ينظر فيها إلى السماء يلاحظ «تلازمهما». والحقيقة أن بينهما ملايين السنين الضوئية، وأنهما نجمان منفصلان. لا يبدوان قريبين إلى هذا الحدّ إلا من زاوية رؤية واحدة في مجرّتنا. والأمر نفسه ينطبق على رئاسة الزوج وعلى خدمة الشيوخ — فهما نجمان منفصلان مستقلّان. ليسا مرتبطين بالضرورة في فكر الله، وهما قطعًا غير مرتبطين في الكتب المقدسة.

337. Beth Allison Barr في «The Making of Biblical Womanhood» (الفصل 6) تقتبس من «Happily Ever After».

338. ومع ذلك يدّعي كبار الباحثين التكامليين خطأً أنه يتكلم عنها! على سبيل المثال، يكتب أندرياس كوستنبرغر في «God, Marriage, Family» (ص. 250): «أكّد يسوع خطة الله الخالق الأصلية للزواج، مقتبسًا كلًّا من تكوين 1: 27 و2: 24 (متى 19: 4-6 والمواضع الموازية). وبهذا أكّد ربّنا بقوة وبشكل قاطع أن تصميم الله الأصلي للزواج مع الزوج بوصفه الرأس والزوجة بوصفها الشريكة الخاضعة المساندة».

22 أيتها الزوجات، اخضعن لأزواجكن كما تخضعن للرب. 23 لأن الزوج هو رأس الزوجة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة، جسدِه، وهو مخلّصُه. 24 فكما تخضع الكنيسة للمسيح، كذلك ينبغي أن تخضع الزوجات لأزواجهن في كل شيء.

25 أيها الأزواج، أحبّوا زوجاتكم كما أحبّ المسيح الكنيسة وبذل نفسه لأجلها 26 لكي يقدّسها، مطهّرًا إياها بغسل الماء بالكلمة، 27 ولكي يقدّمها لنفسه كنيسةً متألّقة، لا دنس فيها ولا غضن ولا أي عيب آخر، بل مقدّسة وبلا لوم. 28 وهكذا ينبغي للأزواج أن يحبّوا زوجاتهم كأجسادهم. من يحبّ زوجته يحبّ نفسه. 29 فإنه لم يُبغض أحدٌ جسده قطّ، بل يغذّيه ويعتني به، كما يفعل المسيح بالكنيسة — 30 لأننا أعضاء جسده. 31 «لهذا يترك الرجل أباه وأمه ويتّحد بزوجته، ويصير الاثنان جسدًا واحدًا». 32 هذا سرّ عظيم — لكنني أتكلم عن المسيح والكنيسة. 33 ومع ذلك، فعلى كل واحد منكم أيضًا أن يحبّ زوجته كما يحبّ نفسه، وعلى الزوجة أن تحترم زوجها.

وبينما كنت أبحث في هذا الفصل، اكتشفتُ صدق ما كتبه سي. إس. لويس: «كثيرون ... يجدون أن القلب يترنّم من تلقاء نفسه بينما هم يشقّون طريقهم في جزء صعب من اللاهوت، والغليون بين أسنانهم والقلم في أيديهم». وفي هذه الحالة، فإن أفسس 5 مقطع صعب مشحون باللاهوت، وقد ظللتُ أمضغه سنوات طويلة. وهناك ثلاثة أسباب جعلتني أصارع معه كثيرًا.

السبب الأول هو أن علاقتي الأرضية الأولى هي مع زوجتي. أريد أن أطيع كلمة الله وأن أطبّق حكمة الله على زواجي، وهذا المقطع من النصوص الكتابية الرئيسية عن الزواج، فالأجدر بي أن أفهمه جيدًا.

والسبب الثاني هو أن قراءة هذا المقطع بمعنى «الزوج يقود والزوجة تتبع» تسير عكس اتجاه خبرتي الشخصية وحسّي الثقافي. دعوني أشرح: أنا متزوج بامرأة متعلّمة وماهرة مثلي، بل أكثر مني في جوانب كثيرة. فهي أبرع مني في إدارة الأموال، وتكسب حاليًّا أكثر مما أكسب؛ وأبرع مني في قراءة الاحتياجات العاطفية والعملية لأولادنا؛ وهي بالفطرة أقدر مني على قيادة مجموعات من الناس. كما يبدو أن الله يكلّمها عن عائلتنا وخدمتنا بقدر ما يكلّمني أنا عنهما. أن أفرض قيادتي عليها يبدو لي ليس اعتباطيًّا فحسب، بل انتهاكًا لعلاقتنا ولكفاءتها. وإن كنت صادقًا، فيبدو لي أفضل بكثير أن أكون شريكًا لها بوصفها ندًّا لي، من أن أقدّم لها قيادتي.

والسبب الثالث لمصارعتي مع هذا المقطع هو أن مفسّرين ممتازين للكتاب المقدس يصلون إلى نتائج مختلفة حول ما يقوله هذا المقطع، وأن الرعاة يصلون إلى نتائج مختلفة حول كيفية تطبيق قناعاتهم على زواج حقيقي. فمهما بدت الكلمات بسيطة عند القراءة الأولى، فإن أفسس 5، عند مزيد من التأمّل، يثير أسئلة أكثر مما يقدّم أجوبة. تأمّلوا الأعداد القليلة الأولى فقط: لماذا يضع بولس العلاقة الزوجية في إطار العدد السابق عن الخضوع المتبادل؟ ماذا تعني «رأس»؟ ماذا يعني «اخضعوا»؟ هل يعني «الخضوع» الشيء نفسه في العدد 21 («اخضعوا بعضكم لبعض»)، والعدد 22 (الزوجات يخضعن لأزواجهن)، والعدد 24 (الكنيسة تخضع للمسيح)؟ ومن الناحية العملية، ماذا يعني أن تخضع الزوجات لأزواجهن «في كل شيء»؟

سأتناول هذه الأسئلة بعرض أربعة تفسيرات مختلفة — أو «مواقف». وبما أن ثلاثة أرباع المقطع في أفسس 5 موجّهة إلى الزوج، فسأعرّف كل موقف بما يُطلب من الزوج المسيحي. ترى هذه المواقف الزوجَ على النحو الآتي: الزوج صاحب القرار (الموقف 1)، الزوج صاحب الكلمة الفاصلة (عند تعادل الرأيين) (الموقف 2)، الزوج خادمٌ لمن تساويه (الموقف 3)، الزوج ربّ الأسرة المفديّ (paterfamilias) (الموقف 4).

الموقف 1: الزوج صاحب القرار (على الدوام)

هذا هو موقف واين غرودم. فهو يرى أن بولس حين يقول «اخضعوا بعضكم لبعض» في أفسس 5: 21، لا يقصد أن جميع المؤمنين يخضعون لجميع المؤمنين، بل فقط أن جميع المؤمنين يخضعون لمن لهم سلطة شرعية عليهم وحدهم. بعبارة أخرى، يتدفّق الخضوع من الزوجة إلى الزوج، ولكن قطعًا ليس في الاتجاه المعاكس.

ويقول إن «رأس» في عبارة «الزوج هو رأس الزوجة» تعني السلطة على. فبولس يحثّ الرجال على تولّي قيادة زوجاتهم، والزوجات على قبول هذه القيادة. وحين يتكلم المقطع عن بذل الزوج حياته لأجل زوجته كما فعل يسوع لأجل الكنيسة، فهذا يعني أن بولس يحثّ الزوج لا على أن يحبّ زوجته فحسب، بل على أن يقودها بطريقة محبّة. وحين يقتبس بولس بعد ذلك تكوين 2: 24 في النهاية، يرى غرودم أن بولس يؤسّس سلطة الزوج هذه على الزوجة على رواية ما قبل السقوط عن سلطة آدم على حواء.

أما عن التطبيق العملي لكل هذا، فيخبرنا غرودم كيف يطبّقه في زواجه:

في كل قرار، كبيرًا كان أم صغيرًا، وسواء توصّلنا إلى اتفاق أم لا، تبقى مسؤولية اتخاذ القرار ملقاة عليّ. (وأنا أتكلم هنا عن القرارات التي تخصّنا نحن الاثنين، لا عن القرارات الفردية التي يتخذها كلٌّ منا في مجالات مسؤوليته الشخصية.) لا أوافق الذين يقولون إن رئاسة الرجل لا تُحدث فرقًا إلا مرة كل عشر سنوات تقريبًا حين يعجز الزوج والزوجة عن التوصّل إلى اتفاق. أعتقد أن رئاسة الرجل تُحدث فرقًا في كل قرار يتخذه الزوجان كل يوم من حياتهما الزوجية. فإذا وُجدت رئاسة حقيقية للرجل، يكون هناك إقرار هادئ وخفيّ بأن محور عملية اتخاذ القرار هو الزوج لا الزوجة. ومع أنه سيكون هناك في كثير من الأحيان نقاش طويل، ومع أنه ينبغي أن يكون هناك احترام متبادل كبير ومراعاة كلٍّ منهما للآخر، إلا أن مسؤولية اتخاذ القرار تقع في النهاية على الزوج.[339]

ويشارك جون بايبر شيئًا من هذا الموقف، إذ يستعيد بحنين زواج والديه، الذي كان فيه أبوه صاحب القرار المعتاد:

حين كان أبي يعود إلى البيت، كان بلا شك ربّ البيت. كان يقود الصلاة على المائدة. كان يجمع العائلة للتأمّلات الروحية. كان يأخذنا إلى مدرسة الأحد وإلى العبادة. كان يقود السيارة. كان يرشد العائلة إلى حيث سنجلس. كان هو من يقرّر الذهاب إلى مطعم Howard Johnson’s لتناول الغداء. كان يقودنا إلى المائدة. كان ينادي النادلة. كان يدفع الحساب. كان هو من نعرف أننا سنُحاسَب أمامه إذا كسرنا قاعدة من قواعد العائلة أو أسأنا الأدب مع أمّنا. كانت تلك أسعد الأوقات لأمّي. آهٍ، كم كانت تفرح بوجود أبي في البيت! كانت تحبّ قيادته. وفيما بعد عرفتُ أن الكتاب المقدس يسمّي هذا «خضوعًا».[340]

ومعظم الكتب المسيحية الشعبية عن الزواج تتبنّى هذا الموقف. يقول أحدها: «الزوج ... مسؤول عن القرارات المهمة في البيت. ... والزوجة المتجاوبة والمتقبّلة ... تتخلّى طوعًا عن حريتها مقابل حبّه وإعجابه وحمايته وإعالته».[341] ويردّد كتاب آخر الشعور نفسه: «قد يكون للرجل رؤساء كثيرون خارج البيت، ولكنه داخل البيت تتاح له الفرصة أن يمارس السلطة بلطف وأن ينال الاحترام الذي يحقّ له».[342]

والآن، قبل أن أنتقل إلى استكشاف المواقف الأخرى، دعوني أقول هذا: حتى ثمانينيات القرن العشرين، كان جميع الباحثين في الكتاب المقدس والمسيحيين

339. Wayne Grudem، Evangelical Feminism، الفصل 1
340. John Piper، Recovering Biblical Manhood and Womanhood، الفصل 1
341. Ed and Gaye Wheat، Intended for Pleasure، الطبعة الرابعة، ص. 30–31
342. Kevin Leman، Sheet Music، ص. 54.

تقريبًا يقرأون المقطع بالطريقة نفسها تمامًا. ولذلك فهو موقف ينبغي أن يُحسب له حساب.

ولكن اسمحوا لي أن أكون صريحًا: هذا النهج كان سيقضي على زواجي! وبصفتي راعيًا، لم أنصح قطّ بهذا الموقف — ولا شك أن خبرة غرودم وبايبر في الحياة تختلف عن خبرتي، لكنني لا أستطيع أن أتخيّل علاقة حميمة تزدهر حين يتخذ شخص واحد كل القرارات التي تخصّ الطرفين أو معظمها. ولا يسعني إلا أن أستنتج أن الأزواج الذين يتبنّون هذا الموقف ويرونه ناجحًا في زواجهم هم إما ممّن يفضّلون، بحكم التنشئة أو الثقافة، «الزواج التقليدي» الذي كان سائدًا في الماضي، وإما زوجان يتألّفان من زوج قائد بالفطرة وزوجة تابعة بالفطرة. غير أنه ليست كل علاقة زوجية مركّبة على هذا النحو، وقطعًا ليس زواجي أنا وجولي. ويسعدني أن رعاةً ولاهوتيين بدأوا في العقود القليلة الأخيرة يقترحون تعديلًا لهذا الموقف، يسمّيه بعضهم «التكاملية الليّنة»، أو ما أسمّيه أنا «الزوج صاحب الكلمة الفاصلة».

الموقف 2: الزوج صاحب الكلمة الفاصلة (نادرًا، عند تعادل الرأيين)

يقدّم تيموثي وكاثي كيلر، في كتابهما الأكثر مبيعًا The Meaning of Marriage، موقفًا أليَن من الزواج التكاملي. فهما يكتبان فصلًا كاملًا عن أن بولس — خلافًا لموقف غرودم — يضع أدوار الجنسين في الزواج في إطار التعبير عن الخضوع المتبادل في العدد 21، الذي يعرّفانه بأنه اختيار خدمة الآخر وإرضائه بتواضع:

في فيلبي 2: 2-3، يقول بولس بصراحة إن على المسيحيين أن يكونوا «بتواضع، حاسبين بعضهم البعض أفضل من [أنفسهم]». ... علينا أن نعتبر مصالح الآخرين أهمّ من مصالحنا ونحسبها كذلك. ويقول في موضع آخر إننا لا ينبغي أن «نرضي أنفسنا»، بل أن «يرضي كل واحد منا قريبه للخير، لأجل البنيان. لأن المسيح أيضًا لم يرضِ نفسه» (رومية 15: 1-3). بل يذهب بولس إلى حدّ أن يقول للمسيحيين أن يكونوا «douloi» بعضهم لبعض (غلاطية 5: 13) — أي حرفيًّا عبيدًا. ... سواء كنا أزواجًا أو زوجات، علينا ألّا نعيش لأنفسنا بل للآخر. وهذه هي أصعب وظيفة في كون المرء زوجًا أو زوجة في الزواج، وهي في الوقت نفسه أهمّها على الإطلاق.[343]

343. Tim and Kathy Keller، The Meaning of Marriage، الفصل 2

وبحسب هذا الموقف، يتدفّق الخضوع المتبادل في الاتجاهين: ففي الأعداد 22-24 يقول بولس للزوجات أن يخضعن لأزواجهن، بينما يقول في الأعداد 25-29 للأزواج كيف يخضعون لزوجاتهم (وذلك في صورة المحبة الباذلة).

وبصرف النظر عن الخضوع المتبادل، لا يزال الزوجان كيلر يدافعان عن الزوج بوصفه قائدًا. ويفعلان ذلك بالانتقال من لغة الزوج الذي يعيش في خضوع متبادل مع زوجته إلى لغة الزوج الذي يخضع «لدور القائد الخادم».[344] (ولا بد أن أشير إلى أن هذا استعمال مشكوك فيه لكلمة «يخضع»، لأنها صارت تعني الآن شيئًا مختلفًا عن استعمالها في فكرة الخضوع المتبادل: فالخضوع لدورٍ ليس على الإطلاق الشيء نفسه مثل الخضوع لشخص.)

ولحسن الحظ، يقدّم الزوجان كيلر نوعًا من القيادة أليَن بكثير مما كان عليه فهم خضوع الزوجة في القرون الماضية: «[حيث] لا يستطيع الطرفان الاتفاق، ولكن لا بد من اتخاذ قرار ما، [يكون للزوج] الحقّ في الإدلاء بالصوت الحاسم، و(بالتالي) تحمّل القسط الأكبر من المسؤولية عن القرار».[345] وفي موضع آخر، يسمّي تيموثي كيلر هذا حقّ الزوج في أن «يتجاوز رأي» زوجته بأن تكون له «الكلمة الأخيرة».[346] بعبارة أخرى، فقط حين يكون هناك خلاف، لا في اتخاذ القرارات اليومية، ينبغي للزوج أن يتخذ القرار.

وبوصفي تكامليًّا ليّنًا مدة طويلة، طبّقتُ أنا وكثيرون غيري من المعلّمين في المعسكر نفسه هذا التعليم، بقول أشياء مثل: «بين حين وآخر، في مناسبات نادرة جدًّا، لا بد من اتخاذ قرار ولا تستطيعان أنتما الاثنان الاتفاق، وحينئذ ينبغي للزوجة أن تطلب من الزوج أن يحسم الأمر». على سبيل المثال، يقول صديقي آلان فرو (Alan Frow)، وهو راعٍ تكاملي مؤثّر في جنوب كاليفورنيا، إن كل القرارات تقريبًا في زواجه تقوم على التعاون: «أنا متزوج منذ 25 عامًا،» يقول، «وفي هذه المدة لم تقل لي زوجتي إلا خمس مرات: "لا نستطيع الاتفاق. أنت القائد، فاذهب واطلب الله"».[347]

وفي زواجي أنا، كانت تمرّ سنوات دون أن أحتاج إلى استعمال «سلطة الكلمة الفاصلة» التي لي، لأننا كنا نتمكّن دائمًا من التوصّل إلى توافق. ولكن انظروا، هذا يعني أن «قيادتي» لجولي وحاجتها إلى «الخضوع» لي لم يكن لهما وجود عمليًّا في خبرتنا المعيشة.

344. Tim and Kathy Keller، The Meaning of Marriage، الفصل 6
345. Tim and Kathy Keller، The Meaning of Marriage، الملحق
346. Timothy Keller، The Timothy Keller Sermon Archive، 2012–2013
347. استمعوا هنا: www.bit.ly/2ZPRZGH

الشكّ في نموذج الكلمة الفاصلة

بالنسبة إلى كثيرين من التكامليين الليّنين، كما كانت حالي سنوات طويلة، فإن العمل الشاقّ لتحديث موقف المرء لاهوتيًّا يبدو بالكاد جديرًا بالعناء. ففي أي يوم من أيام السنة تقريبًا، يكون نوع زواجهم هو نفسه تمامًا مثل الزواج التبادلي. والحقّ أنني ربما كنت سأبقى على موقف الزوجين كيلر مدة أطول مما بقيت (وأنا أتعاطف مع آخرين لا يزالون عليه)، لولا أنني صرت أتساءل عمّا إذا كان حتى الشكل الليّن من السلطة والخضوع هو حقًّا مثال الله الأعلى لكل زواج. والحقّ أن لديّ خمسة شكوك جدّية.

أولًا، إن جعلنا خضوع الزوجة لسلطة زوجها مثالًا أعلى، يصبح من الأسهل بكثير أن نتجاهل إسهاماتها الحيوية في الكنيسة وفي المجتمع. فعلى الرغم من إصرار التكامليين الليّنين على أن خضوع الزوجة هو لزوجها وحده، لا لكل الرجال، لا يزال التكامليون يستعملون هذه النقطة للاحتجاج بأن الزوجة إن كانت تُقاد في البيت، فلا ينبغي أن تقود في الكنيسة.[348] فمثلًا يقول فرو، عن حقّ، إن الأدوار الزوجية في الأسرة البشرية هي «مرآة سرّية»[349] لعلاقة المسيح بالكنيسة، ومع أنه بعد ذلك لا يزال يؤيّد قيادة النساء في المجتمع، فإنه يستنتج أنه «في عائلة الله ينبغي أن يكون هناك أيضًا شيء من الانعكاس السرّي».

ولكن هل من الصواب القيام بهذه القفزة؟ في أفسس 5، يقول بولس إن اتحاد الزوج والزوجة «سرّ» يشير إلى الاتحاد بين المسيح والكنيسة. فلماذا يشعر التكامليون إذن بالحرية في أن يُسقطوا هذا «السرّ» بشكل عام على جماعة بأكملها، بحيث يمثّل الشيوخ الرجال بطريقة ما يسوعَ بوصفه الزوج (ولذلك، بحسب هذه الحجة، يجب أن يكونوا رجالًا)، بينما يمثّل باقي الكنيسة العروس (وهنا يحيد التشبيه على نحو غريب إذ يشمل النساء والرجال)؟ ثم إن فكرة أن الشيوخ يمثّلون زوج الكنيسة فكرة خطيرة وغير كتابية — ولا سيما أن يسوع وحده، وبكل تأكيد، هو من يشغل هذا الدور في الكنيسة. وإن تمسّكنا بتشبيه الزواج والكنيسة، فإن أقصى ما يمكن أن يقترب منه قادة الكنيسة هو أن يكونوا «صديق العريس» ليسوع، مثل يوحنا المعمدان في يوحنا 3: 29.

348. يعرض جون بايبر الحجة هكذا: «في علاقة الرجال والنساء بعضهم ببعض في الكنيسة، على الرجال أن يقودوا، على غرار الطريقة التي يقود بها الزوج في البيت (أفسس 5: 22-33)». ومن اللافت أن إحدى أكبر الكنائس في قارّتي تسمح للنساء بالوعظ وقيادة الكنيسة، ومع ذلك نشأت فيها ثقافة غريبة بسبب تشديدها على خضوع الزوجة: فهؤلاء الواعظات والراعيات يرفضن الزواج، لأنهن ما إن يتزوّجن حتى يميل أعضاء الكنيسة إلى أخذ قيادتهن بجدية أقل.

349. استمعوا هنا: www.bit.ly/2ZPRZGH

ثانيًا، وجدتُ نفسي أتساءل لماذا يجعل بولس، بحسب الموقف التكاملي من الزواج، من الترتيب الهرمي نفسه الذي جاء به السقوط مثالًا أعلى، مع أن الله أعلن عاقبة السقوط لا كوعد بل كنبوءة قاتمة: «[و]هو يسود عليك».[350]

ثالثًا، لا يزال يروّعني مستوى العنف من جانب الشريك الذي ثبت أنه يوجد كثيرًا جدًّا في الزيجات المسيحية. ويرى علماء اجتماع مثل إيلين ستوركي (Elaine Storkey) أن تعليم خضوع المرأة بوصفه قاعدة مقرّرة إلهيًّا لا يساعد في ذلك إطلاقًا. فعلى الرغم من سماع تعاليم عن سلطتهم «الخيّرة»، فإن الأزواج يتشجّعون أحيانًا بفكرة سلطة الرجل المقرّرة إلهيًّا نفسها على التمسّك بـ«اعتقاد صريح أو لاواعٍ بامتياز الرجل وحقّه المكتسب، يفترض الرجال بموجبه لأنفسهم حقوقًا في الحرية والمكانة والرأي لا تنطبق على شريكاتهم».[351] وما لم يكونوا من أكثر الأزواج تقديسًا، فإنهم، إذ لا يرون شريكاتهم ندًّا حقيقيًّا لهم، يظلّون أميل — ولو بقدر ضئيل جدًّا — إلى معاملتهن على أنهن أدنى منهم.[352]

وفي أفريقيا، حيث أعيش، مستوى العنف القائم على النوع الاجتماعي مروّع حقًّا. لقد سمعتُ قصصًا عن أزواج مسيحيين يضربون زوجاتهم بسبب العصيان (بل وعن راعٍ ضرب زوجةً في رعيّته لأنها عصت زوجها). كما تُظهر بعض الأبحاث[353] أن عقيدة خضوع المرأة تزيد من احتمال أن تصبر الزوجة المُعنَّفة على زواج مسيء، ومن احتمال أن الكنائس التي تلجأ إليها طلبًا للمساعدة لا تنصحها بالابتعاد عمّن يسيء إليها. إن كان هذا هو التعليم المثالي من الله، فقد تساءلتُ لماذا يسبّب الأذى في كثير جدًّا من الأحيان حين يقع على آذان مسيحية.

رابعًا، بقدر ما أفضّل التكاملية الليّنة على شكل أشدّ منها، كان عليّ أن أعترف بأنها ابتكار جديد تمامًا. فإن كان التفسير الذي يُفضي إلى الزواج التكاملي الليّن لا يتجاوز عمره نصف قرن أو نحو ذلك، فهو أحدث حتى من التفسير الذي يُفضي إلى الزواج التبادلي. ومع أنني ممتنّ لهذه التكاملية الليّنة الجديدة على طريقة كيلر، لا بد أن أوافق باحثين تكامليين مثل غرودم وراسل مور، اللذين يلمّحان إلى أن هذا النهج الألين هو

350. تكوين 3: 16

351. Elaine Storkey، Scars across humanity: Understanding and Overcoming Violence Against Women، ص. 210

352. الأفكار تنتشر خارج الكنيسة. ولهذا نحتاج أيضًا إلى أن نسأل عن الأثر المتموّج الذي تتركه الأفكار المسيحية في الثقافة الأوسع. فحين تعلّم كنيسةٌ أن خضوع المرأة لزوجها هو مثال الله الأعلى، فإن ذلك لا يفعل شيئًا للحدّ من احتمال العنف القائم على النوع الاجتماعي. أما حين تشدّد الكنيسة على أن مثال الله الأعلى للزواج تبادلي، فإن ذلك يساعد بالتأكيد على تقويض العنف المنزلي.

353. انظروا www.ab.co/3bHZF05 و www.bit.ly/3GNbrVt

في الواقع أقرب إلى الزواج التبادلي منه إلى الزواج التكاملي. فإن كانت القراءة البسيطة للنص تتطلّب أن أتخذ القرارات على الدوام وأن تخضع زوجتي على الدوام، فنحن لم نعش في الحقيقة زواجًا «كتابيًّا» قطّ. بل عشنا زواجًا «يؤكّد الخضوع المتبادل داخل شراكة زوجية متساوية»، تُتّخذ فيه القرارات «من خلال عملية توافق متفاوَض عليه» — وهكذا يعرّف مور الزواج «النسوي»، الذي هو قطعًا ليس زواجًا «كتابيًّا» أو تكامليًّا.[354] فإن كان غرودم (والموقف التاريخي) على حقّ، فإما أن الله يريد أن أغيّر ممارستي وأبدأ في اتخاذ مزيد من القرارات نيابةً عن زوجتي، وإما أنني أحتاج إلى تغيير لاهوتي. أما الاستمرار في العيش على غير انسجام مع ما نؤمن به فهو مجرد عدم اتّساق.

خامسًا، لا يوجد، كما أرى، جواب مُرضٍ عن السؤال: «لماذا ينبغي أن تخضع الزوجة؟» قد يكون الموقف 1 صادمًا لكثيرين منا الآن، لكنه كان منطقيًّا تمامًا طوال قرون: فالثقافة وعقيدة الكنيسة كانتا تعتقدان أن النساء أدنى من الرجال، وأنهن لذلك يحتجن إلى أن يُقَدن لخيرهن. ولكن منذ ستينيات القرن العشرين تخلّت الثقافة والكنيسة عن هذه الأفكار. وكلنا نعرف نساء كثيرات أذكى من أزواجهن وأكثر حزمًا منهم. فلا يمكن إذن أن يكنّ أدنى في اتخاذ القرارات. فلماذا إذن؟

يجرؤ الزوجان كيلر على تقديم جواب: «[إ]ن الجواب عن هذا السؤال هو سؤال آخر: "لماذا صار المسيح هو الذي يتخلّى عن السلطة للآب؟"» ومقصودهما أن خضوع الزوجة لسلطة الزوج يُراد به أن يعكس علاقة المسيح بالآب. ولكن كما شرحتُ في الفصلين 3 و6، فإن هذا يشوّه صورة العلاقة داخل الثالوث، كما يتجاهل أن الكتاب المقدس لا يقارن في أي موضع بين تخلّي الابن عن السلطة للآب وتخلّي الزوجة عن السلطة للزوج.

ويقدّم جون بايبر جوابًا آخر: إن خضوع الزوجة المسيحية لزوجها يمثّل أمام عالم يراقب خضوعَ الكنيسة للمسيح. هذا كلام جميل في الوعظ، ولكن انظروا إليه عن قرب: هذا لا يصحّ إلا في الموقف 1 حيث يقود الزوج زوجته كل يوم من حياتها. أما الموقف 2 فهو تصوير رديء لقيادة المسيح للكنيسة — فإن كان يسوع ربّنا، فنحن نلتزم بقيادته اليومية، لا بعملية تعاونية ليّنة لاتخاذ القرارات، نسمح فيها ليسوع، بين حين وآخر فقط حين لا نستطيع الاتفاق، بأن يلعب ورقته الرابحة.

354. www.bit.ly/3nVy1CK

ومع أن لاهوتيين مثل كيلر وبايبر يحاولون تقديم أسباب لاهوتية واهية، فإن كثيرين من الرعاة، الذين يكونون غالبًا أكثر ميلًا إلى الناحية العملية، يقدّمون هذا التبرير لسلطة الزوج: كل ما له رأسان مسخ، كما يقولون، ولذلك من المهم أن نعرف على مَن تقع المسؤولية الأخيرة. ولكن هذا هو السبب الذي لا أستطيع قبوله. اسمحوا لي أن أشرح لماذا.

«ولكن على مَن تقع المسؤولية الأخيرة؟»

في اتحاد بين شخصين، هل يجب حقًّا أن تقع المسؤولية الأخيرة على شخص واحد فقط وإلا انحرف الزواج عن مساره؟ أستطيع أن أرى الحاجة إلى قائد لفريق رياضي، أو إلى جنرال على جيش، أو إلى مدير تنفيذي في شركة. ولكن شخصين في اتحاد «جسد واحد»، يكونان في الوضع المثالي — كما يقول تكوين 2: 24 — «عريانين»، أي مكشوفين أحدهما للآخر عن قصد، لا يبدو أنهما يحتاجان إلى قائد بقدر ما يحتاجان إلى أن يلتزم كلاهما التزامًا كاملًا بمحبة أحدهما الآخر وخدمته بوصفهما شريكين متساويين.

إن كتاب Love and Respect، وهو أكثر الكتب المسيحية الشعبية عن الزواج تأثيرًا، يعرض الحجة هكذا: «أن تؤسّس زواجًا يقف على رأسه ندّان متساويان يعني أن تؤسّسه للفشل. وهذا أحد الأسباب الكبرى التي تجعل الناس يتطلّقون يمينًا ويسارًا اليوم».[355] ولكنني تساءلتُ: أين الدليل على هذا الادعاء الغريب؟ ومع أنني آمل أن أقرأ مزيدًا من الدراسات حول المسألة، فإن دراسة حديثة شملت 21 ألف امرأة مسيحية متزوجة ومطلّقة ممّن يرتدن الكنيسة توصّلت إلى النتيجة المعاكسة: «الأزواج الذين يتخذ فيهم أحد الطرفين القرارات، حتى لو ناقش قراراته مع شريكه أولًا وطلب رأيه، معرّضون للطلاق بمقدار 7.4 أضعاف مقارنةً بالأزواج الذين يتقاسمون سلطة اتخاذ القرار».[356]

كثير من المسيحيين يعرفون هذا بالحدس (سواء ادّعوا أنهم يؤمنون به لاهوتيًّا أم لا). فمن بين الآلاف الذين شملهم الاستطلاع، اعتقد نحو 40% أن للزوج سلطة الكلمة

355. Eggerichs، Love & Respect، ص. 221. وقد أطلق هذا الادعاء دون الإشارة إلى أي دراسات أو أي تحقّق خارجي.

356. Sheila Gregoire، The Great Sex Rescue، الفصل 2. وتتّفق مع ذلك دراسة علمانية أجراها The Gottman Insitute — إذ يكتب جون غوتمان (John Gottman) في «The Seven Principles for Making Marriage Work» أنه «من الناحية الإحصائية، حين لا يكون الرجل مستعدًّا لتقاسم السلطة مع شريكته، فإن هناك احتمالًا بنسبة 81% أن يدمّر زواجه نفسه».

الفاصلة، بينما اعتقد نحو 60% أن على الزوجة أن تحبّ زوجها بالخضوع له — ومع ذلك «فإن 17.3% فقط من الأزواج يمارسون فعليًّا أن تكون الكلمة الأخيرة للرجل. وفي المقابل، فإن 78.9% من الزيجات تسير دون صاحب كلمة فاصلة — بحيث يتخذ الزوجان القرارات معًا، أو يمتنعان عن اتخاذ القرار إن لم يتّفقا».

ما لدينا هنا معضلتان فضّل رعاة مثلي ألّا يعترفوا بهما. الأولى: هناك عدم تطابق بين المعتقدات والسلوك لدى الناس الذين نقودهم. فبينما تعتقد أغلبية المسيحيين أن الزوج هو صاحب القرار أو صاحب الكلمة الفاصلة، فإن معظمهم لا يمارسون ذلك! والثانية: «مع أن كثيرين من الأزواج المسيحيين يعتقدون أن للأزواج سلطة اتخاذ القرار، فإن هذا الاعتقاد لم يُلحق ضررًا بالزوجين إلى أن طُبّق عمليًّا». فهل ينبغي لرعاة مثلي أن يُصرّوا على أن يبدأ شعب الله في ممارسة ما يؤمنون به، أم نعيد النظر فيما كنا نعلّمهم أن يؤمنوا به؟ إن كنت بصفتي راعيًا أريد حقًّا الأفضل للأزواج الذين أقودهم، فلا بد أن أواجه بعض المعطيات الصعبة:

حين لا تشعر النساء بأنهن مسموعات، بل يشعرن بأن آراءهن ليست بأهمية آراء أزواجهن، تكون زيجاتهن معرّضة للانتهاء بالطلاق بمقدار 26 ضعفًا. ... حتى لو استشار الزوج زوجته، ففي الزيجات التي يملك فيها الزوج سلطة اتخاذ القرار، تكون آراؤه، بحكم التعريف، أهمّ من آرائها. وحين تشعر النساء بأن آراءهن لا تُعطى الوزن نفسه الذي تُعطاه آراء أزواجهن، فإن الزيجات [يزداد احتمال أن] تتصدّع.[357]

وفي المقابل، هناك فوائد واضحة جدًّا للتبادلية في الزواج. «حين يتخذ الزوجان القرارات معًا، تكون احتمالية أن تصنّف الزوجات أنفسهن بين أسعد 20% من الزيجات أكبر بأكثر من أربعة أضعاف من احتمالية أن يصنّفن أنفسهن بين أقلّها سعادةً (20%)، وتزيد احتمالية بلوغهن النشوة في أغلب الأحيان في أثناء العلاقة الجنسية بنسبة 67%».[358] وتؤكّد هذه الإحصاءات أن الزيجات (والحياة الجنسية) التي تحقّق أفضل النتائج هي تلك التي تقرّر أن تحلّ الأمور معًا، وحين تختلف، تمنح المسألة ما تحتاج إليه من الوقت والعناية للتوصّل إلى اتفاق.

أستطيع أن أتفهّم كيف أن القائد، في فريق قيادة من عشرة أشخاص مثلًا، قد يحتاج أحيانًا إلى أن يكون صاحب الكلمة الفاصلة. ولكن لنحذر من استيراد ديناميكيات اتخاذ

357. Sheila Gregoire، The Great Sex Rescue، الفصل 2.
358. Sheila Gregoire، The Great Sex Rescue، الفصل 2.

القرار في المؤسسات إلى الزواج، الذي لا يضمّ إلا شخصين، وهو علاقة شخصية أكثر بكثير مما هو وظيفة، وقد تعاهد فيه الاثنان على اتحاد على مستوى النفس.

ثم كم مرة يجد الأزواج أنفسهم أصلًا في موقف لا بد فيه من اتخاذ قرار حاسم دون أن يكون لديهم وقت للتوصّل إلى توافق؟ عادةً يكون هناك وقت للقرار، أو لأن يحتكم الزوجان إلى صاحب القناعة الأقوى أو الخبرة الأكبر في المجال الذي يمسّه هذا القرار. ولكن إن ظلّ الزوجان مختلفين، فهذا يدلّ على أن كليهما يشعر بقوة تجاه رأيه. وأن يلجأ الزوج حينئذ إلى فرض مكانته، في لحظة الاختلاف الأكبر تحديدًا، يبدو لي أسوأ النتائج! ألا توجد طريقة لأن يتحاور الزوجان في هذا الأمر حتى يحصل التوافق؟ وإلى أن يأتي ذلك الوضوح، فمن الأفضل أن يُمدّد الحوار، بينما يطلب الزوج والزوجة كلاهما أفضل نتيجة في الصلاة، ويطلبان المشورة من آخرين، ويحاولان أن يسمع أحدهما الآخر حقًّا، حقًّا.[359]

تقودني خبرتي إلى هذا الاستنتاج: إن استعمال سلطتي في النقطة نفسها التي تشعر فيها زوجتي بقوة كافية تجاه أمر ما لتخالفني، يبدو تخريبًا للعلاقة. وخلافًا لآلان فرو، الذي يتذكّر خمس مرات طلبت فيها زوجته منه أن يلعب الورقة الرابحة، فليس لديّ إلا ذكرى واحدة لاتخاذ قرار كبير بطريقة تجاوزت تردّد جولي إزاءه. ولكن حتى في تلك المرة بالذات، كانت ثقتها بقناعتي أكبر من مجرد قبولها لسلطتي. والآن وأنا أفكّر في الأمر، لديّ ذكريات أكثر بكثير لمحاولتي اتخاذ قرار نهائي خلافًا لرأيها، فإذا بها تعترض عليّ بشجاعة. ولحسن الحظ، في كل مرة أصغيتُ وأجّلنا اتخاذ القرار النهائي. وبالنظر إلى الوراء، أظنّ أنني كنت سأُلحق الضرر بثقتها لو حاولتُ أن أفرض مكانتي، على الرغم من مخاوفها المشروعة.

كل ذلك لأقول إنني صرت أشكّ شكًّا جدّيًّا في الموقف 2! فكلما تقدّمتُ في السنّ، وكلما رافقتُ مزيدًا من الأزواج راعيًا وصديقًا، صار من الأصعب أن أُخفي هذه

359. في مقابلة ضمن بودكاست، يدافع آلان فرو عن نموذج الكلمة الفاصلة بقوله إنه حين يقدّم المشورة بصفته راعيًا لزيجات مساواتية، يلاحظ أن «هناك توترًا كبيرًا لأنهم لا يعرفون من سيتخذ القرار». استمعوا هنا: www.bit.ly/2ZPRZGH — ولكن هل هذا صحيح على نطاق واسع؟ إن كان لخبرتي في الزواج، ولكل الأزواج الذين قدّمت لهم المشورة، أي وزن، فإن الزوجة إن توقّعت أن سلطة الزوج ستحسم الأمر إذا لم تتّفق هي وزوجها، فإن ذلك سيضيف في الواقع قدرًا هائلًا من التوتر إلى خبرتها في الزواج. ويُصرّ كثير من المرشدين المسيحيين على أن أكثر ما يساعد على التعامل مع التوتر في الزيجات المسيحية التي يسودها النزاع ليس إدخال سلطة كلمة فاصلة للزوج، بل غيابها. بل يحتاج الزوجان إلى أن يتعلّما كيف يصغي كلٌّ منهما إلى الآخر حقًّا، ويحبّه، ويتخلّى عن أجندته في خدمة الآخر. لقد سمعتُ ما يكفي من القصص عن نساء يحاولن، ويحاولن بيأس، أن يخضعن لسلطة الكلمة الفاصلة التي لأزواجهن، لكنهن مع ذلك يتأذّين منها. وحين أحاول أن أتخيّل قلب الأدوار، وأضع نفسي مكان زوجة تشعر بشغف تجاه قرار معيّن يشعر زوجها تجاهه بالشغف نفسه، وهو الذي سيقرّر في النهاية، أدرك أن موقف الكلمة الفاصلة قد يضطرّ الزوج إلى تجاهل كلمات يسوع: «[لا] تفعلوا بالآخرين ما [لا] تريدون أن يفعلوه بكم».

المخاوف تحت البساط. وقد خلصتُ إلى أن الطريقة التي نعيش بها أنا وجولي زواجنا أمام الله، والطريقة التي نربّي بها أولادنا على معاملة شركاء حياتهم والسماح لشركاء حياتهم بمعاملتهم، موضوع محوري إلى حدّ أن الأفضل أن نواجه نقاط الضعف حتى في موقف الكلمة الفاصلة، وأن نكون منفتحين على تفسيرات أخرى ممكنة لأفسس 5. وحين فعلتُ ذلك، اكتشفتُ من جديد فرح عدم الاكتفاء بقراءة سطحية لمقاطع صعبة مثل أفسس 5، بل الحفر أعمق، متسائلًا لا عمّا يقوله المقطع فقط، بل أيضًا لماذا يقول ذلك، ولمن كان يقوله في الأصل.

الموقف 3: الزوج خادمٌ لمن تساويه

قبل أن أبحث هذا الموقف الثالث بحثًا حقيقيًّا، كنت أفترض أنه بوضوح محاولة للالتفاف على التعليم الواضح في أفسس 5. وكنت سأوافق فرو الذي يرى أنه محاولة للقيام بـ«شقلبات» تفسيرية في المقطع. ولذلك دُهشتُ حين أعملتُ فكري أخيرًا في هذا الموقف كما ينبغي، واكتشفتُ كم هو مقنع حقًّا — فهو ليس حالةً من البهلوانيات التفسيرية، بل ثمرة الجهد الشاقّ الضروري الذي يتطلّبه التفسير السليم. ويقدّم الباحث في الكتاب المقدس فيليب باين عدة ملاحظات عن أفسس 5 تجعل من المعقول جدًّا أن بولس يروّج في الواقع للمساواة والتبادلية أساسًا للزواج، لا — كما توحي القراءة السطحية — للقيادة والخضوع.

أولًا، يضع بولس الزواج المسيحي داخل إطار الخضوع المتبادل. يقول باين إن جمع بولس بين كلمة «اخضعوا» (بمعنى أن يضع المرء نفسه تحت آخر) والعبارة التبادلية «بعضكم لبعض» (باليونانية: allelous) هو من أكثر تعاليم بولس ثوريّةً من الناحية الاجتماعية وإبداعًا من الناحية اللغوية. ففي معظم المرات في العهد الجديد تعني كلمة «يخضع» (باليونانية: hypotasso) الامتثال لسلطة آخر، ولكن بإلحاقها بعبارة «بعضكم لبعض»، يجعل بولس هذا الخضوع متبادلًا، ناقلًا معناه من قبول سلطة شخص ما إلى وضع المرء نفسه في خدمته. وهذا ينسجم تمامًا مع ما قاله بولس سابقًا للمسيحيين في أفسس، الذين ينبغي أن يكونوا: «محتملين بعضكم بعضًا في المحبة» (4: 25)؛ «لطفاء بعضكم نحو بعض، شفوقين»؛ و«مسامحين بعضكم بعضًا» (4: 32). والسبب الذي يقدّمه بولس هو أننا نخضع بعضنا لبعض «توقيرًا للمسيح» (5: 21) — وهذا يشير إلى بداية الأصحاح، حيث يظهر المسيح وقد وضع نفسه في خدمتنا: «أحبّنا المسيح أيضًا وأسلم نفسه لأجلنا، قربانًا وذبيحة لله رائحة طيبة» (5: 2).

التكامليون المتشدّدون الذين يتبنّون الموقف 1 يعترضون على هذا. فكلٌّ من واين غرودم وكيفن دي يونغ يحاول دحض المعنى التبادلي لخضوع الزوج لزوجته بالاحتجاج بأن عبارة «بعضكم لبعض» يمكن أن تعني «بعضهم لآخرين». فمثلًا يشير غرودم إلى استعمال العبارة في «أن يقتل [الناس] بعضهم بعضًا» (رؤيا 6: 4)، ويقول إنها تعني أن «بعض الناس سيقتلون آخرين». ولكن لو كان كاتب سفر الرؤيا قد تصوّر ببساطة أن بعض الناس يقتلون آخرين دون أن يُقتلوا هم أنفسهم، لما استعمل هذه العبارة على الإطلاق. ويشير دي يونغ إلى نصوص أخرى تستعمل عبارة «بعضكم بعضًا»[360] يزعم أنها ليست تبادلية — ولكنها عند الفحص الدقيق تبادلية بكل تأكيد، كما هو كل استعمال لعبارة «بعضكم بعضًا» في بقية الرسالة إلى أهل أفسس، وفي العهد الجديد كله. إن محاولات غرودم ودي يونغ لجعل الخضوع «بعضكم لبعض» يتدفّق في اتجاه واحد فقط (من الخاضع إلى صاحب السلطة) تفشل. بل إن لاهوتيين تكامليين روّادًا مثل جورج نايت وتوم شراينر يخالفونهما في هذه النقطة.[361]

ثانيًا، يحدّد بولس نوع خضوع الزوجة الذي يشير إليه. فكما قلتُ للتوّ، هناك نوعان من الخضوع. هناك الخضوع الامتثالي الذي يقدّمه مرؤوس لصاحب سلطة، مثل المواطن تجاه حكومته.[362] ثم هناك الخضوع الخادم — وكما رأينا، هذا ما يقصده بولس حين يتكلم عن الخضوع المتبادل.[363] الأول في اتجاه واحد ويمكن أن يُطالَب به. أما النوع الثاني فيمكن أن يكون متبادلًا، وهو دائمًا طوعي.

حين يقول بولس للزوجات أن يخضعن لأزواجهن، فأيّ النوعين يقصد؟ تتأثّر قدرتنا على الإجابة عن هذا بالترجمات التي بين أيدينا. افتحوا أي كتاب مقدس وسترون نقطة في نهاية العدد 21، ثم تبدأ فقرة جديدة تمامًا. بل إن بعض الترجمات تضع عنوانًا بين

360. متى 24: 10؛ لوقا 12: 1؛ 1 كورنثوس 7: 5. 11: 33

361. ومن الطرق الأخرى التي يعترض بها التكامليون قولهم إنه إن كان الخضوع المتبادل (في أفسس 5: 21) يُقصد به أن يكون إطارًا للثنائيات الثلاث كلها (الزوج والزوجة، الوالدين والأولاد، السادة والعبيد)، فمن الواضح أن بولس لا يمكن أن يقوّض فكرة القيادة والخضوع في الزواج، لأن الثنائيتين الثانية والثالثة هرميتان بطبيعتهما. أما فهمي الخاص لأفسس 5: 21 فهو أنه ليس العدد الذي يؤطّر الثنائيات الثلاث كلها، بل مجرد عدد انتقالي إلى القسم الجديد في رسالة بولس، يطبّقه بولس تحديدًا على العلاقات الزوجية. وهذا نهج أفضل بكثير من نهج التكامليين مثل شراينر ونايت الذين، إذ يقبلون فكرة أن الخضوع المتبادل ينطبق على الأزواج والزوجات كليهما، يعيدون صياغتها على نحو غريب هكذا: «الزوجة تخضع لدورها بوصفها زوجة خاضعة، بينما يخضع الزوج لدوره بوصفه قائدًا باذلًا». ولكن من الواضح أن بولس لا يقول لهم أن يخضعوا لأدوار، بل أن يخضع بعضهم لبعض.

362. رومية 13: 1

363. «لأن hupotassō تحمل فكرة أن يكون المرء في مرتبة أدنى من شخص آخر، فهي مناسبة للخضوع للسلطات وللخضوع في العلاقات الشخصية بين المتساوين على حدّ سواء. ففي الحالة الأولى يوجد ترتيب موضوعي في تراتبية: فالمؤمنون مثلًا تحت سلطة الحكومة المدنية، ولذلك يجب أن يتصرّفوا بخضوع لتلك السلطة. أما في الحالة الثانية فالترتيب ذاتي: إذ على المؤمنين أن يضعوا أنفسهم في مرتبة أدنى من الآخرين كأنهم في تراتبية؛ أي أن يعاملوا الآخرين على أنهم أهمّ من أنفسهم، فهذا جوهر التواضع المسيحي (رومية 12: 10؛ فيلبي 2: 3)». (Andrew Bartlett، Men and Women in Christ، ص. 36)

العددين 21 و22، مثل «Wives and husbands» (أي «الزوجات والأزواج»، في ESV). لكن هذا الفاصل بين الفقرتين أو العنوان المُدرَج يحجب أمرًا مهمًّا جدًّا: في اللغة اليونانية، لا توجد نقطة بين العدد 21 والعدد 22.

بل — وهذا أذهلني — إن أقدم النسخ اليونانية التي لدينا لا تحتوي حتى على كلمة «اخضعن» في العدد 22. وهي لا تحتوي عليها لأن العدد 22 يستعير الفعل من العدد 21.[364] فاليونانية تقول حرفيًّا: «خاضعين بعضكم لبعض في توقير المسيح، الزوجات [لاحظوا الكلمة الغائبة] لأزواجكنّ ...» بعبارة أخرى، حين يقول بولس هنا للزوجات أن يخضعن لأزواجهن، فإنه يشير إلى النوع نفسه تمامًا من الخضوع الذي ينبغي أن يقدّمه جميع المؤمنين بعضهم لبعض. فبولس لا يقول هنا للزوجات أن يكنّ تابعات لأزواجهن بشكل خاص. بل يشير إلى النوع الثاني من الخضوع، الذي تختار فيه الزوجات أن يخدمن أزواجهن ويُرضينهم بتواضع. ويستعمل كلمة «يخضع» مرة أخيرة في الجملة نفسها ليشير بعد ذلك إلى خضوع الكنيسة للمسيح، وهو ما ينبغي لنا، في ضوء استعمال كلمة «يخضع» في العددين 21 و22، أن نقرأه هكذا: «كما أن الكنيسة تخدم المسيح وتُرضيه بتواضع في كل شيء، كذلك ينبغي للزوجات أن يخدمن أزواجهن ويُرضينهم بتواضع في كل شيء» (ع 24).[365]

ثالثًا، «الرأس» (باليونانية: kephalē) في هذه الحالة لا تعني على الأرجح السلطة، بل مصدر الحياة. ففي الإنجليزية الحديثة، تعني كلمة «head» (رأس) حين تُستعمل مجازيًّا السلطة — فالمدير التنفيذي هو «head» الشركة، والضابط القائد هو «head» الفصيلة. وإضافة إلى ذلك، حين نتصوّر رأسًا حرفيًّا لجسد حرفي، نفترض نحن المعاصرين أن الرأس، الذي يحتوي على الدماغ، هو لذلك مركز التحكّم في الجسد. فهو يرسل الأوامر إلى الجسد عبر الجهاز العصبي.

والسؤال الذي يجب أن نطرحه هو ماذا قصد بولس حين اختار كلمة kephalē، وماذا كان قرّاؤه الأصليون سيفهمون منها. يحتجّ الباحثون التكامليون بأنه بما أن بولس يقارن المسيح بوصفه الرأس بالزوج الذي هو الرأس، فلا بد أن سلطة الزوج متضمَّنة. لكن هذا يتجاهل أن بولس حين يستعمل الكلمة مجازًا، لا يكون هذا على الأرجح ما يقصده إطلاقًا. نعم، كان بولس يفهم أن ليسوع المسيح سلطانًا على الكنيسة

364. تكتب Cynthia Westfall في «Paul and Gender» (الفصل 1): «أفسس 5: 18-23 تشكّل جملة واحدة في اليونانية، والوصايا الموجّهة إلى الزوجات في ع 22 تعتمد نحويًّا على الخضوع المتبادل في ع 21 بسبب حذف (إسقاط) الفعل "يخضع" في ع 22».

365. يبدو أن بولس يحمي هذا المعنى لكلمة «يخضع» في رسالته بأن يختار بعد ذلك، في الأعداد التالية، كلمة مختلفة — «أطيعوا» — لعلاقة الوالدين بالأولاد والعبيد بالسادة.

والخليقة، ولكنه حين يختار أن يتكلم عن يسوع بوصفه kephalē لجسد، يُبرز عادةً شيئًا يرتبط بالسلطة لكنه ليس هو نفسه بالضبط. وفي الملحق 3: ماذا تعني kephalē، وهو ملحق لا بد من قراءته، أشرح أن الكلمة، خلافًا لما يدّعيه غرودم، لم تكن تعني السلطة عادةً في زمن بولس.

فما المعنى الذي يقصده بولس هنا في أفسس 5؟ أهمّ مفتاح هو أنه يستعمل الكلمة جزءًا من تشبيه للزواج — وهو ابتكار أدبي جديد تمامًا أيضًا — يكون فيه الزوج رأس الزوجة، التي هي جسده. فالكلمة اليونانية التي تعني «الرأس» لا تُستعمل في سياق العلاقة بين الرجل والمرأة إلا مرتين (هنا وفي 1 كورنثوس 11: 3)، والباحثون منقسمون حول معنى الكلمة في كلتا الحالتين (مع أنني في الفصل 6 أعرض الحجة على أنها تعني مصدر الحياة الجدير بالإكرام في رسالة كورنثوس الأولى). وفي أفسس 5 وحده تُستعمل الكلمة داخل مجاز الرأس والجسد. فهل يعطينا بولس أي مفاتيح لما قد يقصده إذن بعبارة «رأس الزوجة، التي هي جسده»؟

نعم! إن البنية الفعلية للجملة اليونانية في العدد 23، التي تحجبها للأسف معظم الترجمات، هي: «الزوج رأس الزوجة، ... المسيح رأس الكنيسة، هو نفسه مخلّص الجسد». ففي اليونانية نرى ما يقصده بولس بكلمة «رأس». فهذه العبارات الثلاث المتوازية تُبرز أن بولس يستعمل «رأس» مرادفًا لـ«مخلّص». ولو أراد بولس أن يشدّد على سلطة الزوج، لكان بإمكانه أن يستعمل واحدة من الكلمات اليونانية الكثيرة التي تقول ذلك: kyrios (ربّ/سيّد)، أو exousia (سلطة)، أو proestōtes (يدبّر). لكنه بدلًا من ذلك يختار مجاز الرأس والجسد، الذي يقارنه ببذل المسيح نفسه بوصفه مخلّصًا (لا ربًّا في هذه الحالة) لجسده. صحيح أن المسيح، من الناحية اللاهوتية، هو المخلّص (ما يعطينا إياه في الخدمة والرعاية) والربّ (ما يطلبه منا بحقّ) معًا، لكن بولس لا يضمّن هذا التشبيه إلا معنى المسيح بوصفه مخلّص جسده. وإن كان لدينا أي شكّ في أن الزوج بوصفه الرأس هنا يعني رعاية الزوج وخدمته، فإن فكرة الرعاية والخدمة تستمرّ في الأعداد التالية، مع أنها مخفيّة قليلًا بسبب الطريقة التي ينسج بها بولس مجازًا آخر أيضًا، هو زواج المسيح بعروسه، الكنيسة:

بذل المسيح نفسه لأجلها [عروسه/جسده] لكي يقدّسها [عروسه/جسده]، مطهّرًا إياها [عروسه/جسده] بغسل الماء بالكلمة، ولكي يقدّمها [عروسه/جسده] لنفسه كنيسةً متألّقة، لا دنس فيها ولا غضن ولا أي عيب آخر، بل مقدّسة وبلا لوم. وهكذا ينبغي

للأزواج أن يحبّوا زوجاتهم كأجسادهم. من يحبّ زوجته يحبّ نفسه. فإنه لم يُبغض أحدٌ جسده قطّ، بل يغذّيه ويعتني به، كما يفعل المسيح بالكنيسة.

أرأيتم؟ في هذا المقطع كله، لا يشدّد بولس على السلطة بل على الخدمة والرعاية. فحين يتكلم عن الزوج بوصفه رأس الزوجة، لا يلمّح إلى أن على الأزواج أن يفرضوا سلطتهم على زوجاتهم، بل إلى أنه ينبغي للأزواج أن يخدموا زوجاتهم كما يخدم أيٌّ منا جسده.

وبعد أن فكّ بولس في الأعداد 21-30 هذا المجاز ذا الطبقات الثلاث (الرأس والجسد؛ الزوج والزوجة؛ المسيح والكنيسة)، يضيف بعد ذلك طبقة أخرى إلى المزيج: اتحاد آدم وحواء قبل السقوط — وهذا يعقّد الصورة التي يرسمها، لكنه يقدّم مع ذلك فكرة رائعة: «"لهذا يترك الرجل أباه وأمه ويتّحد بزوجته، ويصير الاثنان جسدًا واحدًا". هذا سرّ عظيم — لكنني أتكلم عن المسيح والكنيسة». (ع 31). إن تشبيه بولس للزوج بالرأس، ولزوجته ببقية الجسد، يسمح له بأن يعود بنا إلى أول زواج على الإطلاق بين آدم وحواء، حين تمتّعا أولًا بوحدة «الجسد الواحد» المجازية. وكما رأينا سابقًا في الفصل 4، لم يكن الاتحاد بين آدم وحواء قائمًا على السلطة والخضوع، بل على حميمية وشراكة يُحتفى بهما. فباستعمال مجاز الرأس والجسد، يُبرز بولس في أفسس 5 لا تسلسلًا للأوامر بل رباط محبة.

دعوني أقدّم فكرة أخيرة مبنيّة على قراءة أفسس 5 بوصفه دعوة الله للزوج إلى أن يخدم زوجته (لا أن يقودها): لا توجد في هذا المقطع وصية واحدة للزوج بأن يقود زوجته — لا هنا ولا في أي موضع آخر في الكتاب المقدس كله! هيّا، اقرأوا ذلك مرة أخرى. إنه يغيّر قواعد اللعبة في التفسير.

كل هذا يوصلنا إلى الاستنتاج القويّ بأنه قد لا يكون في أفسس 5 شيء عن سلطة الزوج على زوجة تابعة له. بل إن ما يُبرزه بولس من خلال مجازات حيّة هو أن على الأزواج والزوجات أن يتّحدوا بمحبة، وأن يخدم بعضهم بعضًا ويُرضي بعضهم بعضًا.

فهل يعني هذا أن بولس يقول للأزواج والزوجات أن يعامل بعضهم بعضًا بالطريقة نفسها؟

نعم ولا. نعم، لأن كليهما مدعوّ إلى «الخضوع بعضهما لبعض». ومع أن الأزواج وحدهم يُطلب منهم هنا أن «يحبّوا» زوجاتهم، فإن على كليهما أن يحبّ الآخر — ففي موضع آخر يقول بولس تحديدًا إن على الزوجات أن «يكنّ محبّات لرجالهنّ».[366] ولكن أيضًا لا،

366 تيطس 2:4.

لأن بولس ربما كان يفكّر في الأنماط التي لاحظها في زيجات كثيرة جدًّا في الكنائس في العالم اليوناني الروماني. على سبيل المثال، لاحظوا أن الزوج يوصَف بأنه kephalē أو مصدر الحياة، ولا يُطلب منه أن يكون كذلك. فبولس على الأرجح يتعامل مع حقيقة أن الزوجات في العالم القديم كنّ في الغالب أصغر سنًّا وأقلّ تعليمًا، ومنشغلات بتربية الأولاد، ولذلك كنّ يعتمدن اعتمادًا تامًّا على رعاية أزواجهن الاقتصادية والجسدية. ولم يكن لوصف زوجة معتمدة على زوجها بأنها kephalē أي معنى.

كذلك، إن كان الأزواج في زمن بولس يشبهون ولو قليلًا كثيرين من الأزواج الذين أعرفهم اليوم، فقد كانوا (في المتوسّط) أقلّ استعدادًا من الزوجات لبذل حياتهم بتضحية من أجل شركاء حياتهم.[367] ولهذا يرى بولس أنه يكفي أن يقول للزوجات أن يخضعن لأزواجهن (أي أن يخدمنهم ويُرضينهم بتواضع)، ثم يمضي لينحت في أنانية الزوج بأن يقول له ثلاثة أضعاف ذلك — حاثًّا إياه على أن يضحّي كالمسيح. وهذا الوصف ينطبق عليّ بالتأكيد: ففي زواجي أنا، ليست جولي بل أنا من احتاج إلى أكثر الحثّ من الكتاب المقدس ومن عمل الروح المغيِّر المستمرّ لكي أخدم شريكة حياتي وأُرضيها بتضحية وتواضع. وأظنّ أن صديقي أندرو بارتليت محقّ حين يستنتج: «بولس يدعو الزوج إلى أن يكون السبّاق في إنكار الذات. ومع أن هذا لا يختلف في نوعه عن واجب الزوجة المسيحي في المحبة غير الأنانية لزوجها، فإنه تكثيف لمسؤولية الزوج في المحبة».[368]

وفي العدد 33، يناشد بولس الرجال أن «يحبّوا» زوجاتهم بشكل خاص (لا أن يقودوهن)، والزوجات أن «يحترمن» أزواجهن بشكل خاص (لا أن يتبعنهم تبعية المرؤوس). فلماذا يقول للزوجات أن يحترمن أزواجهن، وللأزواج أن يحبّوا زوجاتهم؟ مع أن معظم الزوجات، في ذلك الوقت كما الآن، يرغبن في أن يُحترَمن، ومعظم الأزواج يرغبون في المحبة، فالأرجح أن بولس يعرف شيئًا عن النفسيات المميّزة لكثيرين من رجال عصره ونسائه.

وحتى وأنا أصف الموقف 3 — الزوج خادمٌ لمن تساويه — أشعر بقوّته. وإن كنت صادقًا، فأنا أرجو أن يكون هذا هو التفسير الصحيح، لأنني أجده ملهمًا جدًّا ومتحدّيًا جدًّا. فإن كنت أجد رأي غرودم في الزوج بوصفه صاحب القرار اليومي خبرًا سيّئًا، ورأي

367. بل هناك تفسير عصبي للطريقة التي يميل بها الأزواج إلى أن يكونوا أكثر أنانية من الزوجات — انظروا www.on.today.com/3CKRlsD

368. Men and Women in Christ، ص. 64

الزوجين كيلر في الزوج بوصفه صاحب الكلمة الفاصلة أفضل، لكنه لا يزال إشكاليًّا وغير متّسق، فإنني أجد هذا الموقف خبرًا سارًّا وقابلًا للتطبيق إلى أبعد حدّ.

ومع ذلك، ماذا لو كان بولس قد قصد في هذا المقطع أن يلمّح — حتى وإن وازن ذلك بدعوة الأزواج إلى التضحية المحبّة — إلى أن على زوجات أفسس أن يعترفن بنوع من السلطة لأزواجهن؟ ففي النهاية، أي مقارنة بين الزواج والزواج الإلهي، الذي يوجد فيه بالتأكيد فرق في المرتبة بين الله/يسوع وبيننا، قد تستدعي إلى الذهن على الأقل تراتبية في العلاقة الزوجية. ولذلك، وأنا مصمّم على فهم هذا المقطع فهمًا صحيحًا، ظللتُ أمضغه أكثر. وتساءلتُ إن كنت قد طبّقتُ على هذه المهمة كل أهمّ مبادئ تفسير الكتاب المقدس — ثم أدركتُ أنني لم أفعل.

الموقف 4: الزوج ربّ الأسرة المفديّ (PATERFAMILIAS)

كما قلت سابقًا، من أكثر الأخطاء شيوعًا التي نرتكبها حين نحاول فهم الكتاب المقدس وتطبيقه أن نتخيّل أن أجزاءه المختلفة كُتبت إلينا مباشرة. لكنها لم تُكتب كذلك: ربما كُتبت من أجلنا، لكنها لم تُكتب إلينا. فقط حين نفهم موقف القرّاء الأصليين، وما كانوا سيفهمونه من الكلمات، نستطيع نحن الذين نعيش في موقف أو ثقافة مختلفة جدًّا أن نبدأ مهمة استخلاص المعنى لأنفسنا من النص. ولحسن الحظ، في كثير من المقاطع أو معظمها، يكون موقفنا المعاصر مشابهًا إلى حدّ بعيد لموقف القرّاء الأوائل، مما يجعل هذه المهمة سهلة. ولكن ماذا عن الحالات التي يكون فيها موقفهم مختلفًا جدًّا جدًّا عن موقفنا؟

إن المسيحي اليوم يفصله عن السامعين الأصليين للكتاب المقدس «نهر» من الاختلافات (مثل اللغة والثقافة والظروف). وهذا النهر يعيقنا عن الانتقال مباشرة من المعنى في سياقهم إلى المعنى في سياقنا. نحن بالتأكيد جزء من القصة العظيمة نفسها، لكن موقعنا في القصة كثيرًا ما يختلف عن موقع أسلافنا الروحيين. أحيانًا يكون النهر واسعًا، يتطلّب جسرًا طويلًا لعبوره. وفي أحيان أخرى يكون جدولًا ضيّقًا، نستطيع عبوره بسهولة. نحتاج إلى أن نعرف بالضبط مدى اتّساع النهر قبل أن نبدأ في محاولة بناء جسر المبادئ فوقه.[369]

369. Duvall and Hays، Grasping God’s word، الفصل 13.

وحين طبّقتُ مفتاح التفسير هذا على دراستي لأفسس 5، أدركتُ خطئي، وخطأ كل من قرأتُ لهم تقريبًا عن هذا المقطع: نفترض أن أفسس 5 جدول ضيّق نستطيع عبوره بسهولة، بينما هو في الحقيقة نهر واسع يتطلّب جسرًا طويلًا لعبوره.

دعوني أشرح. نحن نتخيّل أن الأزواج الحاضرين في كنيسة أفسس كانوا يشبهون الأزواج المعاصرين إلى حدّ ما. نتخيّل أن بولس «يرانا» نحن وزيجاتنا المعاصرة، ولذلك يكتب هذه الرسالة إلينا. لكن لا، فالزيجات التي يخاطبها هي زيجات العالم اليوناني الروماني في القرن الأول، المختلفة جدًّا عن زيجاتنا. ففي ذلك العالم، لم تكن الأسر تتألّف من والدين عاملين وطفلين وكلب وقطة. بل كانت تتألّف في الغالب من رجل، هو الـ paterfamilias (ربّ الأسرة)، يحكم زوجته وأولاده، وأحيانًا عبيده. وبسبب تعليم أرسطو، كانت البيوت مرتّبة ترتيبًا هرميًّا — ففي تلك الثقافة كانت هذه هي الطريقة الفضلى لتكون الأسرة أسرة. (ولم تكن امرأة هي الحاكمة في البيت إلا حين لا يوجد فيه رجل بالغ.) وأنا أستعمل كلمة «الحاكم» عن قصد: فقد قال أرسطو: «حكم الأسرة ملكيّة»[370] — فالزوج والأب كان الملك.

وبما أنني ذكرتُ الأولاد والعبيد في الفقرة السابقة، فربما بدأ شيء ما يتّضح لكم، كما اتّضح لي. فالعلاقة بين الزوج والزوجة في أفسس 5: 22-33 هي الأولى من ثلاث مجموعات من العلاقات يخاطبها بولس. والاثنتان التاليتان تتبعانها مباشرة: الوالدان والأولاد (6: 1-4)، والسادة والعبيد (6: 5-9). وما فاتني أن أراه سابقًا هو أن بولس يطبّق الإنجيل على هذه الأسر القديمة الطبقية، المؤلّفة من تراتبية من الرجال والنساء والأولاد والعبيد. كان للأزواج حقوق وامتيازات وحريات محرومة منها الزوجات،[371] وكانوا يمسكون بزمام السلطة، ويوفّرون معظم الدخل. وفي أغلب الأحيان لم تكن النساء يستطعن امتلاك الأملاك وإدارة الأعمال، ولا إجراء معاملات قانونية أو مالية، دون رجل يتصرّف نيابةً عنهن.

في مجتمع البحر المتوسط، كان متوسّط عمر الرجل عند الزواج ثلاثين عامًا، أما المرأة فكان عمرها عند الزواج ثمانية عشر عامًا أو أقل. وحين كان الرجل يتزوّج، كان رجلًا مجرّبًا يعرف كيف يعيش في المجتمع. كان شخصًا قادرًا على أداء دوره اجتماعيًّا واقتصاديًّا. وحين كانت المرأة تتزوّج، كانت لا تزال فتاة لم يُسمح لها قطّ حتى بأن تجيب طرقًا على الباب الأمامي لبيتها. وكانت المرأة النموذجية تلد طفلًا كل سنتين أو

370. Aristotle، Politics، 1255b.

371. وأنا أفترض أيضًا أنه «في البيئتين اليونانية والرومانية كلتيهما، كان العبيد غير أهل قانونيًّا للزواج. ولذلك فإن ملاحظات بولس عن سلوك الزوجات والأزواج في أفسس 5 موجّهة في المقام الأول إلى الأحرار، ولا سيما الطبقة الاجتماعية التي كانت ترأس أسرًا فيها عبيد». (Andrew Bartlett، Men and Women in Christ، ص. 66)

ثلاثين شهرًا تقريبًا طوال سنوات قدرتها على الإنجاب. كانت دائمًا «حافية وحاملًا» وفي البيت. كانت تلد طفلًا ما إن يُفطم الطفل السابق.[372]

ولم تكن معظم النساء متعلّمات إلا في الواجبات المنزلية. كنّ معتمدات اعتمادًا تامًّا على رجل، وموضوعات طوال حياتهن تحت رجل — أب، أو ربما وصيّ، ثم زوج. كانت التبعية هي القاعدة للأولاد والعبيد والزوجات. وفي هذا السياق وهذه الثقافة، كان يُفترض بالـ paterfamilias أن يكون المسيطر، لا أن يخدم أحدًا بتواضع، ولا سيما مرؤوسيه، الذين كان عليهم هم في الواقع أن يخدموا الـ paterfamilias. وكانت هذه فكرة أرسطو: «[إ]ن الذكر بطبيعته أصلح للأمر من الأنثى ... [و]عدم المساواة دائم. ... وشجاعة الرجل تظهر في الأمر، وشجاعة المرأة في الطاعة».[373]

والآن لاحظوا هذا: بولس لا يُنشئ بنية منزلية يحكم فيها الرجل الأكبر كل من سواه، كما أنه لا يُنشئ البنية الحكومية التي يكون فيها قيصر ربّ الإمبراطورية الرومانية. إنه فقط يخاطب هذه البنية، محاولًا أن يعمل داخل البنى الاجتماعية القائمة بإيجاد طرق لفدائها، لا بالضرورة بمحاولة إسقاطها. وكما يفعل أي مُرسَل صالح اليوم حين يدخل ثقافة جديدة، تكيّف بولس مع ما استطاع أن يتكيّف معه، حتى وإن لم يكن يؤيّده بالضرورة بوصفه مثاليًّا.

الإنجيل يلتقي بالأسرة القديمة

لو كنتم أنتم الرسول بولس في ذلك السياق، كيف كنتم سترعون هذه الأسر الهرمية في كنيستكم؟ لنلاحظ الطرق الثلاث التي يرعى بها بولس أسر أفسس في سياقها.

أولًا، يغمر جميع العلاقات المنزلية في الإنجيل. يرشد بولس الزوجة والزوج إلى أن يعامل كلٌّ منهما الآخر «توقيرًا للمسيح»، ويعمّد كل وصية بعبارات ترتبط بالمسيح: «كما تخضعن للرب»، «كما أن المسيح»، «للمسيح»، «كما أحبّ المسيح»، و«أتكلم عن المسيح». ويواصل النهج نفسه في دفع الوالدين والأولاد، والسادة والعبيد، إلى إعادة تصوّر طريقة تعاملهم بعضهم مع بعض. ويبدو أن كل كلمة ثانية هي «المسيح» أو «الرب». فبولس يحاول ببراعة أن يساعد الجميع — الزوجات والأزواج، والأولاد

372. David Scholer، Journal of the Evangelical Theological Society 30، ديسمبر 1987، ص. 416. www.bit.ly/3bDKpl9
373. Aristotle، Politics، 1259a.

والوالدين، والعبيد والسادة — على أن يروا طريقة تعاملهم مع الآخر ثمرةً لعلاقتهم بالمسيح.

ثانيًا، يقوّض بولس بشكل خاص السلوك الأناني والمتسلّط الشائع جدًّا لدى الـ paterfamilias. ففي قواعد الأسرة القديمة التي كانت تحدّد الأدوار داخل الأسرة، كان يُقال للـ paterfamilias أن يحكم، ويُقال لكل الباقين أن يكونوا تابعين. وكان معظم التركيز في تلك القواعد على التابعين الذين يحتاجون إلى أن يُصلحوا أحوالهم. لكن «قواعد» بولس المطوَّرة تفعل شيئًا لم يُفعل من قبل قطّ: ففي كل ثنائية من العلاقات، يولي معظم الاهتمام لقول الزوج/الوالدين/السادة (والرجل نفسه مشمول في الثلاث كلها!) أن يُصلحوا هم أحوالهم. وإذ يفترض أن الـ paterfamilias يحكم أصلًا بحكم ثقافته، يقول له الآن أن يبذل حياته لأجل زوجته، وألّا يغيظ أولاده، وألّا يهدّد عبيده. ولا بد أن هذا كان تحدّيًا رائدًا تمامًا في زمنه. ففي ثقافة كانت تعطي الأزواج سلطة الحياة والموت على زوجاتهم، يقول بولس للأزواج أن يتخلّوا عن سلطتهم، بل أن يموتوا إن لزم الأمر، لكي تزدهر زوجاتهم.

ثالثًا، يستعمل بولس الإنجيل لتليين تبعية الزوجة والأولاد والعبيد للـ paterfamilias وإعادة تشكيلها. فمن دون أن يقترح أن يصبحوا متمرّدين، يقترح نوع التبعية الذي قد يُحدثه الإنجيل في موقفهم. وكما رأينا، فإن هذا يعني بالنسبة إلى الزوجة ألّا تكتفي بأن تُخضع نفسها على مضض لسلطة زوجها، بل أن تخدمه وتُرضيه بتواضع، بالطريقة نفسها التي تخدم بها المسيح وتُرضيه بتواضع.

لقد صنع تعليم بولس العجائب.

فبالطَّرق المتواصل على الـ paterfamilias، ثم بمخاطبة الأضعف في المجتمع الأبوي بكل هذا الحنان — الزوجات والأولاد والعبيد — ساعد بولس الكنيسة الأولى على اجتذاب الضعفاء أفواجًا. وقد سخر الناقد الوثني كلسوس (Celsus) من الكنيسة في القرن الثاني، قائلًا إن «المسيحية دين للنساء والأولاد والعبيد».[374]

كانت لمسة بولس في طريقة عمل العلاقات المنزلية أمرًا غير مسبوق في تلك الثقافة. وفي كل هذا، لا يمحو التراتبية القديمة — لكنه أيضًا لا يسعى إلى تثبيتها بوصفها مثالًا إلهيًّا من نوع ما. بل إنه، إن صحّ القول، يقوّضها من الداخل بطريقة لا

374. كان كلسوس ناقدًا وثنيًّا عاش في القرن الثاني. وهذا الاقتباس مأخوذ من Ross Shepherd Kraemer في «Her Share of the Blessings» (ص. 128).

تجعل البنية كلها معمّدة في الإنجيل فحسب، بل تجعلها تذوب فيه في النهاية؛ كما حدث في أيامنا.

غير أنه في ذلك الوقت، لم يكن من المرجّح لأي وثني في العالم القديم ينظر إلى أسرة مسيحية أن يظنّ أن بولس يحاول إسقاط القانون الروماني، أو إقامة أسر مساواتية ذات بنية مسطّحة. ما كانوا سيلاحظونه في الـ paterfamilias المفديّ هو الطريقة غير المألوفة التي كان يعتني بها بحنان بمن يقودهم ويضحّي لأجلهم، والفرح في زوجته وأولاده وعبيده.

وهكذا، خلافًا للموقف 3، الذي يقترح أن بولس يعلّم مساواتية خالصة، يرى هذا الموقف أن بولس حين يسمّي الزوج الرأس، ربما يلمّح فعلًا إلى أن للزوج سلطة على الزوجة بوصفها قاعدة ثقافية. وحين يشبّه العلاقة بين الزوج والزوجة بالعلاقة بين المسيح والكنيسة، فمن الممكن أنه يلتقط حقيقة أن أحدهما «صاحب الأمر» على الآخر. ولكن، مع أنه يفترض أن الـ paterfamilias هو صاحب الأمر، فإنه قطعًا لا يفرضه بوصفه نوعًا من «الدور» أو المكانة التي ينبغي أن تكون للزوج على زوجته في كل زمان وفي كل الثقافات. وبدلًا من أن يجعل سلطة الرجل الثقافية على المرأة مثالًا أعلى، يحاول أن يفديها بالإنجيل.

الردّ على حجة جون بايبر

يقدّم بعض التكامليين حجةً مضادة: إذا سلّمنا بأن بولس يعترف بسلطة الزوج ويربطها بعلاقة المسيح بالكنيسة، فإنه في الواقع يجعل من نموذج «الزوج يقود والزوجة تخضع» مثالًا أعلى ويخلّده. ويقول بايبر — وقد ألّف كتابًا كاملًا ليقول ذلك — إن الزواج المسيحي المفديّ، مع بقائه تراتبيًّا، يُظهر الإنجيل للعالم. فهو يقول: «قيادة الزوج المُحبّة لزوجته الخاضعة المعتمدة عليه صورةٌ للمسيح والكنيسة. فإذا فقد الزوج القيادة، لم تَعُد كذلك.»[375]

حجته معيبة من ثلاثة وجوه. أولًا، يقول بولس شيئًا مشابهًا عن العبودية في البيت، حين يأمر العبيد بأن يطيعوا سادتهم كما يطيعون المسيح سيّدهم. وبحسب منطق بايبر، يكون الله قد خلق علاقة السيد والعبد ليُظهر للعالم «جمال» تبعيّتنا ليسوع

375. انظروا John Piper, Momentary Marriage، الفصول 6–8

سيّدنا. كلا! ففي الحالتين يطبّق بولس الإنجيل على وضع واقعي، لكنه ليس بالضرورة وضعًا مثاليًّا.

ثانيًا، ليست تراتبية الزواج هي ما يُظهر الإنجيل، بل فداء مثل هذا الزواج. فما يشدّد عليه بولس في هذا المقطع ليس التراتبية، بل خدمة الزوج لزوجته، التي تخضع له في إطار خضوع متبادل، والتي يتمتّع معها بعلاقة حميمة. أفلا يمكن أن يظهر هذا بوضوح أكبر في زواج تبادلي منه في زواج قائم على التراتبية؟ وكما بيّنتُ في الموقف 3، يقيّد بولس استعماله لكلمة kephalē بتشديده على يسوع بوصفه مخلّص الكنيسة ومَن يقوتها ويعولها، لا ربًّا عليها.

ثالثًا، لن يكون أي زواج تراتبي تراتبيًّا بما يكفي أبدًا، إذا افترضنا أن ما يريد الله أن يُظهره للعالم الذي يراقبنا من خلال الزواج هو ربوبية يسوع على كنيسته. فيسوع ربّ كنيسته، أمّا الزوج فهو قطعًا ليس ربًّا لزوجته.

وبغضّ النظر عن مواطن الضعف في حجة بايبر، فإنني أوافقه على أن الزواج المسيحي يُراد به أن يُظهر شيئًا من الإنجيل. وما يستطيع الزواج المسيحي أن يفعله فعلًا وبامتياز هو بالضبط ما تستطيع الجماعة المسيحية أن تفعله: أن يُري العالم أننا تلاميذ يسوع، بأن نحبّ بعضنا بعضًا محبةً باذلة كما أحبّنا هو. والزيجات التبادلية تستطيع ذلك بالقدر نفسه، إن لم يكن أفضل، من الزيجات القائمة على التراتبية. والأمر الآخر الذي يُحسن الزواج المسيحي فعله هو أن يعكس الاتحاد الدائم والحميم الذي لنا مع المسيح. فتشبيه الرأس والجسد، الذي يسمّيه بولس بعد ذلك «جسدًا واحدًا»، يدلّ على رباط محبة عميق قائم على عهد، وعلى صلة حيوية عضوية. وفي المقابل، لا يزعجنا كثيرًا أن نتخيّل قائدًا يطلّق تابعه، أمّا أن نتخيّل رأسًا يُقطع عن جسده فأمرٌ مزعج للغاية.

أين نُخطئ في فهم أفسس 5

في كتابه الذي يقع في 800 صفحة، يدافع غرودم ببسالة عن تبعية الزوجة في الزواج، ولكنه لا يعترف في أي موضع بالمسافة الشاسعة بين زيجات القرن الأول وزيجاتنا نحن.[376] وكذلك لا يلتفت الزوجان كيلر إلى هذا الأمر في أي موضع من دراستهما

376. لا يورد غرودم كلمة paterfamilias إلا مرة واحدة، في الحاشية 102 من الفصل 7، حيث يحتجّ مؤلف آخر لأهمية العضو الأكبر في الأسرة.

المفضّلة لأفسس 5، ولا يبحثان في وضع الزواج في العالم القديم. ولا مرة واحدة. وهذا خطأ: فهم يعاملون ما هو في الحقيقة نهرٌ عريض كأنه نهر ضيّق.

لا يحاول بولس أن يخلّد بنية البيت القديم. بل يطبّق الإنجيل على وضع ثقافي فريد، مختلف جدًّا عن وضعنا. لم يكن بولس يخاطب عالمي أنا، حيث معظم النساء البالغات متعلّمات مثل الرجال، ويتحكّمن في خصوبتهن، ومستقلّات ماليًّا، ولا حاجة اجتماعية لديهن إلى رجل يكون فوقهن. وكل هذا يُنتج نوعًا مختلفًا من الزواج.

والسؤال التالي هو: الآن وقد عرفنا أن بين وضعهم ووضعنا نهرًا عريضًا جدًّا، كيف «نبني جسر المبادئ»؟ أو بعبارة أخرى: ماذا كان بولس سيقول لزيجات مجتمعنا المعاصر، التي لم تعد قائمة على التراتبية بل على المساواة؟ أقترح ما يلي:

كان سيقول لنا أن نُبقي المسيح محور زواجنا. ينبغي أن تتشكّل طريقة «رؤيتنا» بعضنا لبعض، وتعاملنا وتعاوننا وإكرامنا بعضنا لبعض، بحسب علاقتنا بالمسيح التي لها الأولوية. ينبغي أن يخضع بعضنا لبعض، فنتخلّى عن استقلاليتنا وأنانيتنا، ونسعى إلى علاقة حميمة نكون فيها جسدًا واحدًا، كتلك التي ظهرت في جنة عدن قبل السقوط. وإذا جاز لنا أن نفترض أن الرجال، في المتوسط، أكثر استقلالية ومن ثَمّ أكثر تمحورًا حول ذواتهم من النساء، وأن النساء، في المتوسط، أكثر ميلًا إلى الترابط ومن ثَمّ أكثر توجّهًا نحو الآخرين من الرجال، فليتأمّل الأزواج من أمثالي، بكل تأكيد وبصفة خاصة، في محبة المسيح الباذلة للكنيسة، التي تُثمر ازدهار عروسه وتألّقها.

ولكنني الآن، وقد فهمتُ المسافة بين السياق القديم وسياقنا، لا أستطيع ببساطة أن أتصوّر بولس يأتي إلى زواج عصري عادي، حيث الزوج والزوجة متقاربان في السن، ومتساويان في التعليم، وربما يعمل كلاهما ويحاولان تربية الأولاد، ثم يقول لهذين الزوجين: «أحسنتما في هذه الشراكة كلها. استمرّا على ذلك! لكنني أريد أن أصرّ على أن يكون الزوج هو القائد، وأن تكون الزوجة تابعة له.» كيف يمكن لبولس أن يفعل ذلك وهو يعلّم أن المثال الذي أراده الله للزواج منذ الخليقة هو شراكة كاملة يكون فيها الاثنان جسدًا واحدًا، كما في زواج آدم وحواء في البداية؟

وهذا ليس رأيي الشخصي فحسب. إنه رأي مقبول على نطاق واسع، بل هو في الواقع رأي أغلبية المسيحيين: فالبابا يوحنا بولس الثاني، في رسالته Mulieris Dignitatem، وهي رسالة بابوية عامة مُلزِمة لجميع الكاثوليك، يقول إن سلطة الرجل على زوجته انعكاس لما هو «قديم»؛ فهي تعبّر عن طريقة تفكير «متجذّرة بعمق في

عادات ذلك الزمان وتقليده الديني». أمّا ما هو «جديد» و«تجديد من الإنجيل» فهو أن «الخضوع ليس من جانب واحد بل متبادل».[377] فإذا استطاعت إحدى أكثر الطوائف تشدّدًا في العقيدة في العالم أن تُدخل هذا التحسين على عقيدتها، فعلى سائرنا أن ينتبهوا لذلك.

بالطبع، لا تزال في العالم ثقافات يسود فيها الرجال فعلًا. وبالنسبة إليها، قد يناسبها تعليم بولس تمامًا كما يناسب القفّازُ اليد. ففي المجتمعات الأبوية، يملك الأزواج عادةً سلطة اجتماعية وفكرية وسياسية ومالية أكبر بكثير مما تملكه النساء. حسنًا، فليستخدم الزوج هذه السلطة بروح البذل لخير زوجته، كما يستخدم المسيح سلطته الفائقة لأجل الكنيسة. ولكن إذا فعل آلاف الأزواج في الثقافات الأبوية ذلك بصدق ولمدة كافية، فستنهض النساء والزوجات في النهاية في قدراتهن الاجتماعية والفكرية، ويصبحن أكثر تأهيلًا ليكنّ شريكات مساويات لأزواجهن. وهذا بالضبط ما قادني إليه بحثي. فالموقف 4 — الزوج ربّ الأسرة المفديّ (paterfamilias) — حين يُطبَّق في ثقافات يقوم فيها الزواج على التراتبية، سيقود تلك الثقافة في النهاية إلى أن تتحوّل وتفسح المجال لزواج من نوع الموقف 3، كما حدث بالفعل في بلدان تغلغلت فيها المسيحية منذ زمن طويل.

ومع ذلك، لو أننا فقط وسّعنا نطاق النصوص الكتابية عن الزواج التي نختارها عادةً للدراسة في العهدين القديم والجديد، لكان تفضيل الله للزواج التبادلي واضحًا بما يكفي طوال الوقت.

زوجات يوجّهن أزواجهن

إذا تذكّرنا أن كل زواج يُذكر في العهد القديم كان يجري في بيئة أبوية، أمكننا أن نستنتج بأمان أن الافتراض الثقافي السائد هو أن الزوجات تابعات لأزواجهن. فمن اللافت إذن أنه، باستثناء نبوءة الله بأن «آدم سيسود على حواء»، لا توجد وصية واحدة للزوجات بأن يخضعن لأزواجهن، لا في شريعة موسى، ولا على أفواه الأنبياء.

بل إننا حين نتأمّل اللقطات الصغيرة المتاحة لنا عن موازين السلطة بين الأزواج في العهد القديم، نجد مرةً بعد مرة زوجاتٍ يوجّهن أزواجهن! فعند مفترقات طرق كثيرة في حياتي صلّيتُ إلى الله طالبًا الحكمة، وأرهفتُ أذني نحو السماء لأسمع ما قد يقوله لي.

377. John Paul II, Mulieris Dignitatem، ص. 88.

ومرات كثيرة سمعته يقول لي الكلمات نفسها التي قالها مرة لإبراهيم: «في كل ما تقول لك [امرأتك] اسمع لقولها».[378] يا لها من نصيحة عظيمة. وأنا أعرف ذلك جيدًا؛ فكثيرًا جدًّا ما تسمع الزوجات صوت الله أولًا.

أليس هذا ما حدث مع أمّ شمشون؟ ففي ثقافة كان فيها من غير اللائق أن يقترب رجلٌ من زوجةٍ مباشرةً، يتّخذ ملاكٌ هيئة رجل ويعلن لامرأة عاقر أنها ستلد ولدًا ممسوحًا بالروح. ثم تستدعي الزوجة زوجها لاحقًا: «فأسرعت المرأة وركضت وأخبرت رجلها وقالت له: هوذا قد تراءى لي الرجل الذي جاء إليّ ذلك اليوم.» لاحظوا جيدًا الكلمات التالية: «فقام [منوح] وسار وراء امرأته». وربما لم يكن سعيدًا كثيرًا بأن يخالف رجلٌ غريب الأعراف الأبوية، فيسأل: «أأنت الرجل الذي تكلّم مع امرأتي؟»[379] والواقع أن هذه القصة تشير مسبقًا إلى ولادة أعظم شأنًا بكثير، حين يأتي ملاك، بعد أكثر من ألف عام، إلى مريم أولًا ليخبرها بالأمر نفسه،[380] ولا يُعلم زوجها إلا لاحقًا.[381] ففي الحالتين تكون الزوجة أول من يسمع من الله في أمر ما، ولا يلحق الزوج بالركب إلا لاحقًا (أي بركب زوجته). فإن كان هناك أي نوع من «نظام الخليقة» (وليس هناك)، فيبدو أن الله غافل عنه تمامًا.

ثم هناك المرأة الشونمية التي تبادر إلى استضافة النبي أليشع. فتقول لزوجها: «قد علمتُ أن هذا الرجل الذي يمرّ علينا دائمًا هو رجل الله مقدّس. فلنعمل عليّةً صغيرة على السطح، ونضع له هناك سريرًا وخِوانًا وكرسيًّا ومنارة، حتى إذا جاء إلينا يميل إليها.»[382] ومرة أخرى، يستجيب الزوج فورًا لزوجته، واثقًا بالفطرة في تمييزها الروحي في هذا الأمر.

وهنا تلزم ملاحظة سريعة: على الرغم من التطبيق الشائع جدًّا الذي يفهم عبارة «الزوج هو kephalē الزوجة» بمعنى «ينبغي أن يكون الزوج القائد الروحي للبيت»، يؤسفني أن أخبركم أن هذه الفكرة ليست وصية كتابية. وقد تحتاجون إلى أن تتخلّصوا من تلك الملاحظات التي دوّنتموها يومًا عن أن الرجل (لا الزوجة) هو من ينبغي أن يبادر إلى الصلاة، أو يدعو إلى وقت تأمّل عائلي، أو يختار الكنيسة التي يذهب إليها الزوجان أو الأسرة. ومن دون أن ننتقص شيئًا من أهمية المبادرة الحاسمة التي قد يتّخذها الزوج أو الأب لأجل الصحة الروحية لأسرته، تبقى الفكرة الأفضل أن يبذل كلٌّ من الأزواج

378. تكوين 21: 12
379. قضاة 13: 10-11
380. لوقا 1: 26-38
381. متى 1: 18-21
382. 2 ملوك 4: 8-10

والزوجات كل ما في وسعهم، فريقًا وأفرادًا: في طلب الله؛ وفي اختيار كنيسة والاستقرار فيها؛ وفي السعي إلى الازدهار الروحي لسائر أفراد الأسرة. وردًّا على التعاليم التي تقول إن الزوج ينبغي أن يكون راعي سائر أفراد الأسرة، أوصي بأن يكون الزوج والزوجة معًا فريق القيادة الرعوية للأسرة.

وثمة زوجة أخرى يبدو أنها تتحدّى الأعراف الأبوية (مع أنها تتعامل مع واقع ثقافة متمحورة حول الرجل)، وهي أبيجايل. فنابال، زوجها الثري جدًّا، كان «قاسيًا ورديء الأعمال».[383] وحين يطلب داود ورجاله المسلّحون، وهم هاربون وجائعون، بعض الطعام، يسخر منهم نابال بقسوة ويرفض طلبهم. فيشعر داود بالإهانة الشديدة والغضب، ويعزم على قتل نابال وجميع الرجال الذين في أملاكه — وهذا ليس ردّ فعل يشبه المسيح كثيرًا.

تمنع أبيجايل سفك الدماء بعصيانها زوجها، وبعدم إخباره بما سمعته عن نية داود القاتلة. فتحمّل الطعام على حمارها، وتركب للقاء داود، وتتعامل بدهاء مع كبرياء داود الجريحة قائلة: «أرجوك يا سيدي، لا تلتفت إلى ذلك الرجل الشرير نابال. فهو مثل اسمه — واسمه يعني "أحمق".»[384] وبينما تكشف حقيقة الرجل الرهيب الذي هو زوجها، تستنهض أفضل ما في داود وتلتمس منه الرحمة. فيقرّر داود أن يُلقي سلاحه.

وحين تعود أبيجايل إلى البيت وتخبر نابال بأنها نقضت قراره وبأن داود عفا عن حياته، يموت قلبه في داخله، ويموت بعد عشرة أيام. وحين يرسل داود بعض الرجال ليأخذوها زوجة ثالثة له، تسجد وتقول: «هوذا أمتك، مستعدّة أن تخدمك وأن تغسل أرجل عبيد سيدي.»

إنها قصة عجيبة، لكن لاحظوا أنه لا شيء فيها يدلّ على أن الله يصادق على مناداتها كلًّا من نابال وداود «سيدي». ومع أن الرجلين كليهما يقبلان هذا اللقب من دون أن يرفّ لهما جفن، فمن الواضح أن هذه امرأة تعلّمت أن تنجو من النظام الأبوي بالتكيّف معه. بل إن هذا يعني أحيانًا أن تعصي «السلطة الذكورية» عليها — وهو أمر يمدحه النص. وإن كنّا نجد شيئًا، فإننا نجد مثالًا لامرأة كانت على الأرجح ستزدهر قائدةً في ثقافة أخرى أكثر عدلًا. فما يجذب داود إليها ليس جمالها فحسب، بل قدرتها الاستراتيجية ودبلوماسيتها الآسرة، التي بها تتدارك بسرعة سفك دماء لا داعي له.

383. 1 صموئيل 25: 3
384. 1 صموئيل 25: 25

خلاصة القول: إن قصص العهد القديم لا تؤيّد سلطة الزوج على زوجته بوصفها القاعدة التي يفضّلها الله.

الزواج التبادلي في 1 كورنثوس 7

نشيد الأنشاد هو أطول جزء من الكتاب المقدس يستكشف الديناميكيات الداخلية لاتحاد زوجين قائم على المودّة والحب والعلاقة الجسدية. وليس فيه أي أثر على الإطلاق لنموذج سلطة الرجل وخضوع المرأة. ففي الحب والعلاقة الجسدية، يبادر الاثنان ويستجيب الاثنان؛ يعطي الاثنان ويأخذ الاثنان. وهذا السفر الشعري لا يعيدنا فقط إلى بهجة آدم وحواء العريانين قبل السقوط أحدهما بالآخر بوصفهما متساويين؛ بل له أيضًا نظيرٌ في العهد الجديد.

إن 1 كورنثوس 7 هو بلا منازع أطول مقطع كتبه بولس عن الزواج. ومع ذلك، لا يقدّم بولس، في إرشاده عن العلاقة الجسدية والخدمة والانفصال في الزواج المسيحي، أدنى تلميح إلى أن الزواج المسيحي شيء آخر غير شراكة متبادلة ومُحبّة بين متساويين. بل هذا هو الأصحاح الوحيد في الكتاب المقدس الذي يتناول صراحةً مسألة السلطة في الزواج، وهي سلطة — بالمناسبة — مُعطاة لكلٍّ من الزوجة والزوج.

دعوني أقتبس بعض العباراتِ[385] التي تشدّد على المحبة المتبادلة والسلطة المتبادلة اللتين يريدهما الله في زيجاتنا:

ليكن لكل رجل علاقة جسدية مع امرأته، ولكل امرأة مع رجلها (ع 2).

ليوفِ الزوج زوجته حقّها الزوجي، وكذلك الزوجة زوجها (ع 3).

ليس للزوجة سلطان على جسدها، بل تسلّمه لزوجها. وكذلك ليس للزوج سلطان على جسده، بل يسلّمه لزوجته (ع 4).

لا يحرم أحدكما الآخر إلا ربما بموافقة متبادلة وإلى حين (ع 5).

لا تفارق المرأة رجلها. ... ولا يطلّق الرجل امرأته (ع 10-11).

إن كان أخٌ له امرأة غير مؤمنة، وهي راضية أن تسكن معه، فلا يطلّقها. والمرأة التي لها رجل غير مؤمن، وهو راضٍ أن يسكن معها، فلا تطلّقه (ع 12-13).

385. من ترجمة NRSV

الرجل غير المؤمن مقدَّس في زوجته، والمرأة غير المؤمنة مقدَّسة في زوجها المؤمن (ع 14).

إن فارق غير المؤمن، فليفارق. ليس الأخ أو الأخت مستعبَدًا في مثل هذه الأحوال (ع 15).

كيف تعلمين أيتها المرأة هل تخلّصين زوجك؟ أو كيف تعلم أيها الرجل هل تخلّص زوجتك؟ (ع 16).

ولكن إن تزوّجتَ [أيها الرجل] لم تخطئ؛ وإن تزوّجت العذراء لم تخطئ (ع 28).

غير المتزوّج يهتمّ في ما للرب ... وغير المتزوّجة والعذراء تهتمّ في ما للرب (ع 32، 34ب).

أمّا المتزوّج فيهتمّ في ما للعالم. ... والمتزوّجة تهتمّ في ما للعالم (ع 33-34أ).

ماذا نتعلّم عن خطة الله للزواج في 1 كورنثوس 7؟ يقول ريتشارد هايز: «لا بد أن أجوبة بولس ... قد بدت لسامعيه في القرن الأول استثنائية. فالزوجان ليسا موضوعين في علاقة تراتبية يعلو فيها أحدهما على الآخر، ولا هما منفصلان بوصفهما وحدتين مستقلّتين يفعل كلٌّ منهما ما يحلو له. بل إن علاقة الزواج علاقة خضوع متبادل، يكون فيها كل شريك [مِلكًا] للآخر.»[386]

حين علّمتُ الناس أول مرة كيف يختار المرء شريك حياته، اقترحتُ أن ندع الله يختار لنا. ثم، وأنا أقرأ 1 كورنثوس 7 ذات يوم، أدركتُ فجأة أنني قرأت للتوّ التعليم الواضح الوحيد في العهد الجديد عن هذا الموضوع: «هي حرّة لكي تتزوّج بمن تريد، على أن يكون في الرب» (ع 39). والدرس؟ نحن من يختار، وعلينا أن نختار بحكمة. والآن، وأنا أعيد قراءة 1 كورنثوس 7، مررتُ للتوّ بلحظة آها مشابهة: الآية الوحيدة في العهد الجديد كلّه التي تتكلّم عن كيفية اتخاذ الزوجين للقرارات المهمة (مثل متى تكون بينهما علاقة جسدية، ومتى يطلبان الله معًا) هي: «لا يسلب أحدكم الآخر، إلا أن يكون على موافقة متبادلة.» (ع 5) والدرس؟ حين يحرص الزوجان على أن يقرّرا معًا بوصفهما شريكين متساويين، لا يحتاج الزوج إلى أن يأمر أو أن يحسم أي تعادل في الرأي.

أخلص إلى ما يلي. إن 1 كورنثوس 7 هو الأصحاح الوحيد الذي يتكلّم صراحةً عن سلطة الزوج على زوجته — ولكن، انظروا، إنه يتكلّم أيضًا عن سلطة الزوجة على زوجها. وهو

386. Richard Hays, First Corinthians، ص. 116.

يعزّز في الزواج المساواة بين الجنسين، والخضوع المتبادل، والموافقة المتبادلة بوصفها أساسًا لاتخاذ القرار.

ونظرًا إلى وحدة الكتاب المقدس الذي أوحى به الروح، يمكن لنص 1 كورنثوس 7، بل ينبغي له، أن يوجّه تفسيرنا لأفسس 5. والغريب إذن أن معظم كبار المؤلفين التكامليين إمّا لا يذكرون 1 كورنثوس 7 إلا ذكرًا عابرًا بطريقة تتجنّب تعارضه الفعلي مع تفسيرهم،[387] وإمّا — وهذا هو الأكثر شيوعًا — يتجاهلونه ببساطة.[388]

أيّ موقف إذن؟

دعوني أختم هذا الفصل عن كيفية تفسيرنا لأفسس 5 بأن أسأل: أيّ المواقف الأربعة ينبغي أن يسود في زيجاتنا وكنائسنا؟

أقترح أن نرفض الموقف 1 (الزوج صاحب القرار)، وأن نسمّيه باسمه: لاهوتٌ قمعي.

أمّا الموقف 2 — الزوج صاحب الكلمة الفاصلة (عند تعادل الرأيين) — فقد خدم زواجي أنا وجولي محطةً في منتصف الطريق لسنوات كثيرة، وأنا ممتنّ لذلك. ولكن تحليل المشكلات المرتبطة به، والتفوّق التفسيري للموقفين 3 و4، وقراءة ما يقوله الكتاب المقدس عن الزواج قراءةً أوسع، كل ذلك يعني أنه ينبغي لنا على الأرجح أن نتخلّى عنه أيضًا.

إذن، أيّ الموقفين الباقيين نختار؟

ربما لا نحتاج إلى أن نختار.

387. على سبيل المثال، كُتب عمل غرودم الرئيسي، «Evangelical Feminism and Biblical Truth»، لدحض حجج المساواتيين — ومنها أن 1 كورنثوس 7 يعلّم زواجًا قائمًا على المساواة. ومع ذلك، في قسم قصير جدًّا (6.7)، لا يشغل سوى صفحة واحدة من صفحاته الـ800، يكتفي بالتأكيد أن 1 كورنثوس 7 لا يفعل سوى تنظيم قيادة الزوج ذات السلطة. ولكنه لا يقدّم أي حجة على الإطلاق ضدّ القول بأن هذا الأصحاح لا ينبغي أن ينظّم تطبيق التفسير التراتبي لأفسس 5 فحسب، بل أن يوجّه تفسير أفسس 5 أيضًا. إن مقطعًا مثل 1 كورنثوس 7، يقرّر بوضوح لا لبس فيه أن لكلٍّ من الزوج والزوجة سلطة متساوية على الآخر، وهي حقيقة يتّفق عليها جميع المفسّرين، ينبغي أن يكون له بعض الوزن في تفسير مقطع (أفسس 5) لا يزعم إلا بعض المفسّرين أنه يعطي الزوج سلطة أحادية الجانب.

388. على سبيل المثال، كما بيّن أندرو بارتليت في «Men and Women in Christ» (ص. 18–19)، كتب توم شراينر، ردًّا على كتاب فيليب باين «Man and Woman: One in Christ» الصادر عام 2009، ملخّصًا مفصّلًا ومحاولةً للدحض. ومع أن باين يخصّص فصلًا كاملًا لـ1 كورنثوس 7، فمن الغريب أن شراينر لا يذكر هذا الفصل البتّة. وبالمثل، كتبت كلير سميث (Claire Smith) عام 2012 كتاب «God’s Good Design: What the Bible Really Says about Men and Women». وهدفها أن تتناول «النصوص الكتابية الأساسية» التي «ينبغي أن تحدّد» أفضل نموذج للزواج. وقد زكّاه دون كارسون وآخرون بحرارة، وأثنى كثيرون منهم على شموليته. ومع ذلك، ومن الغريب حقًّا، لا يتناول أيٌّ من فصولها الخمسة عن الزواج 1 كورنثوس 7. لا أقصد أن هؤلاء المؤلفين غير أمناء، بل أشير فقط إلى وجود نقطة عمياء كبيرة، وإلى دليل على «الانحياز التأكيدي»، حيث يأتي الناس إلى الكتاب المقدس من غير أن يشعروا، لا ليكتشفوا كل ما يقوله عن موضوع ما، بل ليجدوا فقط ما يدعم رأيهم المسبق.

فالموقف 3 (الزوج خادمٌ لمن تساويه) يؤكّد الزواج التبادلي، بينما لا يقول الموقف 4 — الزوج ربّ الأسرة المفديّ (paterfamilias) — شيئًا يناقض مثل هذا الزواج (مع أنه يقدّم إرشادًا للزيجات والكنائس التي لا تزال قائمة في ثقافات أبوية بشدّة).

بعبارة أخرى، قد يكون الموقف 4 هو الأفضل لمساعدتنا على فهم المقطع بالطريقة التي فهمه بها قرّاؤه الأصليون. أمّا الموقف 3، ولا سيّما لمن يعيشون منّا في ثقافات أكثر مساواةً، فهو الطريقة الصحيحة لتطبيق أفسس 5.

فحكمة الله للزوجين إذن هي أن يدركا اتحادهما بوصفهما «جسدًا واحدًا» كما تجلّى في حب عدن. وأن يعزّزا هذه الوحدة أيضًا بالتسليم الكامل المتبادل والخدمة المتبادلة، و — عند اتخاذ القرارات — بمراعاة كلٍّ منهما للآخر وبالموافقة المتبادلة. وقد يُلهمنا تشبيهان ونحن نسلك هذا الطريق: محبة المسيح الباذلة لكنيسته، واهتمام كل إنسان بجسده.

فماذا نفعل بما تبقّى من شكوك حول رغبة الله في مساواة حقيقية بين الجنسين؟ ربما يأتي فيما يلي أهمّ سبب للتخلّي عن الافتراض الأبوي في الزواج (وفي الكنيسة وفي المجتمع).



9

الله الذي يتنازل

«هل سنحاول [نحن الأزواج] أن نتمسّك بسلطة على زوجاتنا كانت الثقافة المحيطة قد منحتنا إياها يومًا، ولكننا لم نعد نملكها الآن في معظم الأحوال؟ أم [سنتخلّى] بفرح عن السلطة، وعن ادّعاء السلطة أيضًا، و[نعامل] زوجاتنا بوصفهن مساويات لنا، فنحصد ... علاقة زوجية أكثر حميمية؟» بيتر ديفيدز (Peter Davids)[389]

رعت مؤسسة غيتس (Gates Foundation) مؤخرًا دراسة دولية ضخمة كشفت أن النساء ممثَّلات تمثيلًا ناقصًا إلى حدّ فادح في التغطية الإعلامية. «فعلى سبيل المثال، لم تكن النساء من الأصوات المقتبَسة إلا في 29% من الأخبار الإلكترونية التي حُلّلت في المملكة المتحدة عام 2019. وفي الهند، لم تتجاوز نسبتهن 14%.»[390] وعلى الرغم من كل التقدّم الرائع الذي تحقّق في رفع مكانة المرأة في المجتمع، لا نزال أقلّ ميلًا بكثير إلى أن «نرى» النساء و«نسمعهن» مما نرى الرجال ونسمعهم.

فكم بالأحرى، في الألفيات السابقة حين لم يكن أحد يتحدّى النظام الأبوي، كانت الظروف الاجتماعية تقوّض قدرة النساء على الارتقاء إلى أدوار عامة؟ يشرح عالم الآثار إيان موريس (Ian Morris) لماذا لا يكاد يوجد دليل على أن النساء كنّ موجودات أصلًا في أثينا القديمة: «تبقى النساء والعبيد غير مرئيين»، بسبب «ثقافة المواطنين الذكور الطاغية» فيها، حيث «لم يقهر الرجال النساء فحسب، بل تحكّموا في الأماكن التي عاشت فيها النساء»، مما جعلهن غير مرئيات عمليًّا في ثقافة ذلك الزمان، وكذلك في المكتشفات الأثرية اليوم.[391]

389. مقتبس في «Discovering Biblical Equality»، ص. 238
390. المصدر: www.gates.ly/3bMqqQZ
391. المصدر: Sandra Joshel and Sheila Murnaghan, Women and Slaves in Greco-Roman Culture، ص. 217–20. مقتبس في «Barr, «The Making of Biblical Womanhood (ص. 226)

وفي العالم اليوناني الروماني الأوسع، الذي انتشرت فيه الكنيسة الناشئة، لم تكن الأمور أفضل كثيرًا بالنسبة إلى النساء. ومع وجود بعض الاستثناءات النادرة،[392] لم تكن النساء المحترمات يطمحن إلى أدوار قيادية عامة. فقد كان شرفهن في الأدوار المنزلية وتربية الأولاد في البيت. وفي المسرحيات الإغريقية، كانت أكثر الشخصيات النسائية شيوعًا عادةً الجواري والبغايا، لأن هذه المسرحيات كانت تروي قصصًا تجري «خارج البيت». أمّا نساء المدن المحترمات والفتيات غير المتزوّجات فكان يُتوقّع منهن أن يبقين في البيت، بعيدًا عن الأنظار. فليس من المستغرب إذن قلّة النساء من «النوع القيادي» اللواتي كان يمكن العثور عليهن أصلًا. ففي النهاية، لا بد أن ينال المرء قدرًا من التعليم وأن يُفسَح له المجال ليؤدّي دورًا في الحياة العامة، حتى يُثبت أن لديه موهبة القيادة. ومع إخفاء النساء، لم تحظَ إلا قلّة من النساء اللواتي منحهن الله مواهب التعليم والقيادة بفرصة أن يُعترف بأيٍّ من هذه المواهب وتُنمّى وتُستخدم في الأماكن العامة.[393]

لماذا يندر في العهد الجديد، في نهاية المطاف، ذكر زوجات القادة الذكور؟ إن التشديد الحديث على تمتّع الأزواج المسيحيين بالمساواة والشراكة والمكانة المشتركة لم يكن له وجود يُذكر في الحقبة الأولى من الكنيسة المسيحية، حين كانت الأدوار المنزلية وتربية الأولاد — حتى في الكنيسة — من نصيب الزوجات.

وبالمثل، يمكننا أن نسأل لماذا تقلّ الشخصيات النسائية في الكتاب المقدس قياسًا إلى الرجال. يحتجّ بعض النقّاد اليوم، ممن ينكرون الوحي الإلهي للكتاب المقدس، بأن هذا يثبت أن الكتاب مجرّد نتاج لثقافة أبوية. ويقول بعض التكامليين إن هذه طريقة الله في إبراز الأدوار البارزة الفريدة التي لا يُراد أن يؤدّيها في ملكوت الله إلا الرجال. ولكن الطريقة الأفضل لفهم سلطانه الإلهي وفهم المواقف التاريخية الكثيرة التي يتناولها الكتاب المقدس معًا هي أن نقول: إن الله تنازل في إعلانه إلى الناس في مواقف محدّدة وكيّفه بحسبها، من دون أن يجعل تلك المواقف نفسها بالضرورة مثالًا أعلى. وحين يفوتنا هذا المبدأ التفسيري الحاسم، نقفز بسذاجة من ملاحظة أن النساء كنّ خاضعات للرجال في أماكن مختلفة في أزمنة الكتاب المقدس، إلى فكرة أن على

392. انظروا Susan Hylen, Women in the World of the New Testament

393. لكي ندرك كيف تحدّ الظروف الاجتماعية من أنواع الأشخاص الذين يمكن أن يصبحوا قادة، فكّروا في كنيسة معاصرة يتألّف معظم أعضائها من حَمَلة الشهادات الجامعية في منطقة ميسورة. ثم تأمّلوا كم سيكون مستبعدًا أن يخدم عاملٌ يدوي غير متعلّم قائدًا في الواجهة في تلك الكنيسة، لسبب بسيط هو أن «قابليته لأن يُتّبَع» (ومن ثَمّ قيادته) لدى هؤلاء الناس تحديدًا ستكون موضع تساؤل. ولهذا أيضًا ليس لدينا في الكتاب المقدس أمثلة لعبيد كانوا شيوخًا.

النساء، بوصف ذلك جزءًا من خطة الله الشاملة، أن يخضعن للرجال في كل مكان وكل زمان.

فهم مبدأ التنازل (المواءمة)

في نهاية التاريخ، سيملك الله أخيرًا على مجتمع مثالي. ولكنه منذ السقوط اختار أن يعمل عملًا فدائيًّا داخل المجتمع المكسور، بدلًا من أن يُغرقه كلّه بالدينونة كما فعل مرة. وفي الوقت الحاضر، ينهمر فداء الله بطريقة يكون فيها «الماء الحيّ، أي الروح القدس، منسكبًا على المشهد الاجتماعي [القائم]، فيتشكّل كنهر متعرّج بحسب التضاريس التي يصادفها. ولكنه، فيما يفعل ذلك، كتدفّق الماء الذي لا يُقاوَم، يعيد تشكيل المشهد، فيجعل في النهاية المعوجّ مستقيمًا.»[394]

إن المقاطع القليلة التي يبدو فيها كتّاب العهد الجديد كأنهم يومئون باحترام إلى النظام الأبوي السائد في الثقافة الأوسع هي في الواقع أمثلة على تنازل الله. فهو يعمل بما هو متاح لديه، والرسل يتبعون مثاله — يزرعون بذور الملكوت في تربة لا تزال مليئة بالحجارة والأعشاب الضارة. ونحن نعيش الآن في زمن تتداخل فيه الدهور. فملكوت الله حاضر هنا في وسط عالم ساقط تتغلغل فيه أنظمة اجتماعية ساقطة. وسيأتي يوم يحجب فيه الملكوت تلك الأنظمة حجبًا كاملًا، أمّا الآن فهو يمدّ جذوره في داخلها، ويُزهر منها شيئًا جديدًا.

يحتجّ التكاملي جون ماك آرثر (John MacArthur) بأنه بما أن الرجال وحدهم كتبوا الكتاب المقدس، فهذا دليل على أن الله لا يريد أن يعلّم كلمةَ الله إلا الرجالُ. ومن الواضح أنه يتجاهل الباحثين الذين يرون أن من المعقول أن تكون بريسكلا (وإلى جانبها أكيلا) قد كتبت الرسالة إلى العبرانيين. ولكنه يغفل أساسًا عن أنه في العالم القديم لم تكن تكاد توجد امرأة مُدرَّبة على الكتابة — وكون الرجال وحدهم كتبوا أسفار الكتاب المقدس (أو الرجال في الغالب، إن كانت بريسكلا قد أمسكت القلم) شاهدٌ على أن الله يعمل بما هو قائم، حتى وهو يعد بأن يحقّق في النهاية شالوم، حيث يستطيع جميع الرجال والنساء أن يقرأوا ويكتبوا.

394. John Stackhouse, Finally Feminist، ص. 39

المزيد عن خضوع الزوجات

كان الوضع الاجتماعي القديم للنساء، وهو أسوأ بكثير مما هو عليه الآن (ولا يزال أمامنا طريق علينا أن نقطعه)، يقوم على تفضيل الرجال لا النساء بالسلطة والأدوار العامة؛ وعلى الالتفات إلى ما يقوله الرجال ويفعلونه لا النساء، وعلى حصر النساء في نطاق منزلي ضيّق جدًّا، مما يجعلهن غير مرئيات كالعبيد والأولاد.

وكل امرأة دافعت عن نفسها كانت لا بد أن تدفع الثمن. ففي أستير 1، على سبيل المثال، يقيم الملك أحشويروش (زركسيس) مأدبة لنخبة رجال المملكة، في الوقت نفسه الذي تستضيف فيه زوجته وشتي صديقاتها في حفل للنساء. وفي منتصف الاحتفالات، إذ «طاب قلب الملك بالخمر»، يأمر أحشويروش زوجته الفاتنة بأن تترك حفلها «لتُري الشعوب والرؤساء جمالها، لأنها كانت حسنة المنظر». وحين ترفض وشتي المجيء، يطلب الملك الغاضب، وقد أُحرج علنًا بعصيان زوجته، مشورة حكمائه. فيقرّرون عزل وشتي عن مكانتها ملكةً، فلا تقع عيناها على زوجها مرة أخرى. والسبب الذي من أجله يفعلون ذلك: أن يقضوا على أي احتمال بأن تتبع زوجات أخريات في البلاد مثالها في عدم الامتثال لأمر أزواجهن. والهدف هو أن «تعطي جميع النساء الوقار لرجالهن من الكبير إلى الصغير».

تشهد هذه القصة بأنه في كل ثقافة قديمة تقريبًا — وهي هنا فارس لا إسرائيل — كان الافتراض السائد أن الرجال ينبغي أن يقودوا في الأدوار العامة وأن النساء ينبغي أن يكنّ تابعات لأزواجهن. وهكذا يُظهر الكتاب المقدس نفسه أن النظام الأبوي نتاج السقوط، وليس خليقة خاصة من صنع إله إسرائيل.

ويجد الرسل أنفسهم في عالم مماثل يهيمن عليه الرجال، وهم يكرزون بالإنجيل ويؤسّسون الكنائس في أرجاء الإمبراطورية الرومانية. لقد فحصنا أفسس 5 من قبل، ولكن حتى خارج ذلك المقطع، فإن نصيحة الرسل للزوجات المسيحيات في كنيسة القرن الأول متّفقة بالإجماع. يكتب بولس إلى أهل كولوسي: «أيتها النساء، اخضعن لرجالكن...»[395] وإلى تيطس: «علِّم ... الحدثات ... أن يكنّ خاضعات لرجالهن.»[396] ويقول بطرس الشيء نفسه: «أيتها النساء ... كنّ خاضعات لرجالكنّ...»[397] ولكل من

395. كولوسي 3: 18
396. تيطس 2: 5
397. 1 بطرس 3: 1

يدّعي أنه يعتبر الكتاب المقدس صاحب سلطان، يبدو هذا في القراءة الأولى حاسمًا تمامًا. قد نفترض أن مثال الله لكل زواج هو أن تخضع الزوجة لزوجها، ولكنني في بقية هذا الفصل سأعترض على هذا الاستنتاج، مبيّنًا أن هذا الافتراض الخاطئ يتطلّب قراءة سطحية وخاطئة لهذه النصوص.

فماذا نفعل بما يقوله بولس في كولوسي؟ «أيتها النساء، اخضعن لرجالكن كما يليق في الرب. أيها الرجال، أحبّوا نساءكم، ولا تكونوا قساة عليهن.»؟ أقترح ألّا نصل في تفسيرنا لهاتين الآيتين إلى استنتاجات مختلفة عن تلك التي وصلنا إليها في أفسس 5. فالإجماع بين الباحثين هو أن الرسالتين إلى كولوسي وأفسس كُتبتا في الوقت نفسه، بل إنهما تكشفان عن أسلوب «القصّ واللصق» في مادة أساسية تتكرّر في الرسالتين كلتيهما. والآيات التمهيدية متطابقة تقريبًا في المقطعين. فكلاهما يستعمل هذه العبارات بالترتيب نفسه: «بعضكم بعضًا»، «مزامير»، «تسابيح»، «أغاني روحية»، «بنعمة في قلوبكم»، «باسم»، «الرب»، «يسوع»، «المسيح»، «الله الآب». والفرق أن مقطع كولوسي، الذي لا يتجاوز آيتين، صيغة مختصرة من مقطع أفسس الأطول — المؤلّف من ثلاث عشرة آية. فأفسس 5 يوسّع المادة المقتضبة في كولوسي، ومن ثَمّ يلقي عليها الضوء.

وماذا عن المقطعين الآخرين، في تيطس 2: 3-5 و1 بطرس 3: 1؟ لدينا سبب وجيه للشكّ في أن بولس وبطرس، في هذين المقطعين، يقدّمان وصية شاملة لكل الزوجات على مدى تاريخ البشرية بأن يخضعن لأزواجهن.[398] إنها نصيحة رعوية لأناس

398. لكي لا يطول كتابي أكثر مما ينبغي، قرّرتُ ألّا أشرح 1 بطرس 3: 1-7 شرحًا كاملًا. ولكنني أوصي لهذه المهمة بالفصل 6 من كتاب أندرو بارتليت، «Men and Women in Christ». وعنوان الفصل «Submission and Honour: 1 Peter». ويبيّن بارتليت، بشكل مقنع في رأيي، أن بطرس يسلك في جوهر الأمر الطريق نفسه الذي يسلكه بولس في أفسس 5، فيقوّض الترتيب التراتبي في الثقافة بتعليم عن الخضوع المتبادل. فمثل بولس، لا يُطيح بطرس في 3: 1-6 بدور الزوجة الخاضع المتوقَّع ثقافيًّا ولا يصادق عليه بوصفه شاملًا، بل يعدّله بدوافع إنجيلية جديدة: لا خوفًا من الزوج غير المسيحي، بل رجاءً في الله وسعيًا إلى ربح الزوج للمسيح. ومثل بولس، لا يجعل بطرس دور الزوج المسيحي ذي السلطة المتوقَّع ثقافيًّا مثالًا أعلى ولا يدينه، بل يعدّله تعديلًا قويًّا بثلاث طرق في 3: 7: 1) ينبغي للأزواج أن يتصرّفوا نحو زوجاتهم «كذلك» (وهذه هي العبارة الحاسمة التي يبدو أن كثيرين من الباحثين التكامليين يغفلون عنها)، كما سبق ذكره عن: المؤمنين نحو إلههم وملكهم (2: 13)؛ والعبيد نحو سادتهم (2: 18-25)؛ والمسيح نحو صالبيه (2: 21)؛ والزوجات نحو أزواجهن، بما في ذلك سارة نحو إبراهيم في تكوين 18، (3: 1-6) — أي بطريقة خاضعة متواضعة. 2) ينبغي للأزواج أن يعيشوا مع زوجاتهم بطريقة تراعي أن زوجاتهم أقلّ قوة منهم. 3) ينبغي للأزواج أن يكرموا زوجاتهم، اللواتي (خلافًا للثقافة اليونانية الرومانية) لسن في مكانة أدنى، لأنهن وارثات معهم للخلاص على قدم المساواة. و«الإكرام» هنا هو الكلمة نفسها المستعملة في موضع سابق من الرسالة لوصف الخضوع الذي ينبغي أن يقدّمه جميع المؤمنين لقيصر؛ قارنوا 2: 13 («اخضعوا» للسلطات) و2: 17 («أكرموا الملك»). بعبارة أخرى، يقول بطرس للأزواج، من دون أن يستعمل الكلمات نفسها بالضبط، أن يبادلوا زوجاتهم الخضوع (أي الخدمة المتواضعة المُكرِمة). وإذا فُهم الأمر على هذا النحو، يبدو أن بطرس، مثل بولس في أفسس 5، يعدّل معنى الخضوع في الزواج، فيبتعد به عن مجرّد الامتثال لسلطة الآخر، نحو التزام بالخدمة المتواضعة وإرضاء الآخر. فالامتثال للسلطة لا يمكن أن يسري إلا في اتجاه واحد؛ في حين أن الزيجات المسيحية، كما يتّضح في أفسس 5 و1 بطرس 3، وبغضّ النظر عن البنى الاجتماعية الأوسع التي تجد نفسها فيها، ينبغي أن تُظهر خدمة متبادلة تسري في الاتجاهين. ولاحظوا أيضًا أن بطرس لا يقدّم هنا الخضوع للزوجة كجزء من الزواج

في حوض البحر الأبيض المتوسط في القرن الأول يلتزمون بقواعد الأسرة التي وضعها أرسطو، ومن ثَمّ فدافعها ليس تصميم الخليقة، بل حرصٌ مفهوم على السمعة. دعوني أشرح.

قواعد الأسرة

إننا نخاطر باستعمال آيات «أيتها النساء، اخضعن» نصوصًا للبرهنة حين ننتزعها من سياقها. فلننظر إلى السياق الأدبي، أي المقاطع الأطول التي نجد فيها هذه الآيات وأخرى مثلها:

	الزوجات–الأزواج/ النساء–الرجال	الأولاد–الوالدون	العبيد–السادة
أفسس	5: 21-33	6: 1-4	6: 5-9
كولوسي	3: 18-19	3: 20-21	3: 22-4: 1
1 بطرس	3: 1-7	غير مذكورة	2: 18-25
تيطس	2: 1-8	غير مذكورة	2: 9-10
1 تيموثاوس	5: 1-16	غير مذكورة	6: 1-3

ماذا نلاحظ ونحن نحلّل السياق الأدبي؟ أولًا، في كل مرة يُذكر فيها خضوع الزوجة، يكون ذلك جزءًا مما يُسمّى «قواعد الأسرة»، حيث تُعالَج العلاقات داخل البيوت المؤلّفة من الأزواج والزوجات والأولاد والعبيد. فاتّباعًا لتعليم أرسطو السابق، كان على البيوت بموجب القانون الروماني أن تكون متراتبة تحت حكم الذكر الأكبر. وإن لم يوجد رجل بالغ، كانت الأنثى الكبرى تملأ هذا الدور. وكانت قواعد الأسرة القديمة تتبع تراتبية مذكورة بترتيب تنازلي: ربّ البيت؛ ثم الزوجة؛ ثم الأولاد والعبيد. بعبارة أخرى، لا يُطلق بولس وبطرس حكمة عائمة منفصلة عن أي سياق ينبغي تطبيقها على كل الأزواج طوال بقية التاريخ المسيحي. بل يخاطبان سياقًا محدّدًا جدًّا — أي تحقّق الإنجيل في البيت القديم العادي، كما كان المجتمع الروماني ينظّمه.

ثانيًا، لا يُؤمر الزوج في أيٍّ من هذه المقاطع بأن يقود. فالزوجة وحدها يُقال لها أن تخضع. والرسل يفترضون أن قيادة الذكر قائمة أصلًا. وما يحاولون فعله في أوامرهم هو تليين قيادة الرجل، وإضفاء الكرامة على مكانة الزوجة الأدنى. فبطرس وبولس يدرّبان النساء على أن يتقبّلن الخضوع بوصفه أمرًا طوعيًّا يستمدّ قوّته من الإنجيل، بدلًا من مجرّد احتمال قيادة الزوج.

ثالثًا، في جميع المقاطع، وهذا هو الأهم في حجة هذا الفصل، يسير خضوع الزوجة لزوجها المأمور به بموازاة خضوع العبد لسيّده المأمور به. وفي موضعين منها، يمتدّ هذا التوازي أيضًا إلى طاعة الأولاد لوالديهم، أمّا الصلة بين السيد والعبد فتُعقد في كل مرة.

سأعود إلى التوازي بين العبودية والنظام الأبوي بعد قليل، ولكن النقطة التي أطرحها الآن هي أن بولس وبطرس لا يجعلان من العبودية ولا من تبعية المرأة في الزواج مثالًا أعلى — بل إنهما، كما ينبغي لكل القادة الروحيين الصالحين، يساعدان الكنائس التي يعملان معها على الاستفادة قدر الإمكان من أوضاع بعيدة أحيانًا كل البعد عن المثال. والله يفعل شيئًا من هذا القبيل في تكوين 16، حين تهرب الجارية هاجر من سيّدتها المسيئة سارة. فبعد أن ينقذ الله هاجر ويطمئنها، يقول: «ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها».[399] من منّا يستنتج أن تعليمات الله لها كانت تعبيرًا عن أسمى ما يريده لها وأفضله؟ كلا، بل إن نصيحته الوالدية لها تساعدها على الاستفادة قدر الإمكان من وضع بعيد كل البعد عن المثال. ويبدو أن الخضوع لسارة كان خيرًا لها ولطفلها من الهرب إلى البرية.

وحتى اليوم، يكون من الأفضل أحيانًا أن نستفيد قدر الإمكان من وضع غير مثالي نجد أنفسنا فيه. فعلى سبيل المثال، جُنّد أبي، وكان حديث الزواج، لخدمة إلزامية مدتها سنتان في جيش جنوب أفريقيا. ومع طفل حديث الولادة وزوجة شابة في البيت، كان يعلم أن هذا بعيد كل البعد عن المثال، ولكن يديه كانتا مقيّدتين. فكل ما استطاع أن يفعله هو أن يستفيد قدر الإمكان من وضع سيّئ. فإمّا ذلك وإمّا السجن. وقد ينصح الراعي أحيانًا جماعته بأن تصوّت في انتخابات ديمقراطية، مع أن الديمقراطية غير موجودة في الكتاب المقدس، ومن ثَمّ ليست بالضرورة مثال الله الأبدي للمجتمع البشري. فالوعظ ضدّها سيثير ردود فعل عكسية لا داعي لها — ويمكن أن يقال الشيء نفسه في القرن الأول عن قواعد الأسرة لأرسطو.[400]

399. تكوين 16: 9

400. ثم إن الديمقراطية، مثل قواعد الأسرة لأرسطو والحكم الملكي في ذلك الزمان، ربما تكون أفضل نظام حكم اكتشفه المجتمع حتى الآن.

الحرص على السمعة

وبعيدًا عن مساعدتهم على الاستفادة قدر الإمكان من وضع غير مثالي، لماذا أيضًا ينصح بطرس وبولس الزوجات والعبيد بأن يخضعوا طوعًا لأزواجهم وسادتهم، الذين يُوصَون بدورهم بأن يكونوا لطفاء ومحترمين مع زوجاتهم وعبيدهم؟ في معظم النصوص نجد جوابًا مقنعًا: فبولس وبطرس حريصان على صون مصداقية الكنائس الناشئة وجاذبيتها التبشيرية في أعين عالم يراقبها، وهو عالمٌ تصادف أن طاعة النساء والعبيد فيه لربّ الأسرة (paterfamilias) هي القانون الروماني.

وإليكم الدليل على ذلك في النصوص:

- قبل أن يخاطب بطرس العبيد والزوجات مباشرةً، ينصح بالخضوع للإمبراطور، مضيفًا: «لأن هكذا هي مشيئة الله: أن تفعلوا الخير فتُسكتوا جهالة الناس الأغبياء.»[401]
- ويقول بطرس للزوجات: «كنّ خاضعات لرجالكنّ، لكي إن كان بعضهم لا يطيعون الكلمة، يُربَحون بسيرة زوجاتهم بدون كلمة.»[402]
- ويقول بولس للزوجات في كريت: «[ليكنّ] خاضعات لرجالهن، لكي لا يُجدَّف على كلمة الله.»[403]
- ويقول بولس لعبيد كريت: «[اخضعوا] لسادتكم لكي تزيّنوا في كل شيء تعليمَ مخلّصنا الله.»[404]
- ويقول بولس لعبيد أفسس: «جميع الذين هم عبيد تحت نير فليحسبوا سادتهم مستحقّين كل إكرام، لكي لا يُفترى على اسم الله وتعليمه.»[405]
- وبخصوص كل تعليماته إلى الكنيسة في أفسس عن طريق تيموثاوس، يكتب بولس: «أوصِ الناس بهذه، لكي يكونوا بلا لوم. ... [و]لا يعطوا المقاوم علّة للشتم.»[406]

401. 1 بطرس 2: 15
402. 1 بطرس 3: 1-2
403. تيطس 2: 5
404. تيطس 2: 10
405. 1 تيموثاوس 6: 1
406. 1 تيموثاوس 5: 7، 14

ما الذي يحدث هنا؟ إن رسالة بطرس الأولى خاصةً، وكذلك تيطس و1 تيموثاوس، رسائل كُتبت إلى كنائس صغيرة، كثيرًا ما تتعرّض للاضطهاد وتجتاز الآلام. واستراتيجية الشيطان هي أن يجذب الانتباه السلبي إلى هذه الكنائس. أمّا الرسالة إلى أهل أفسس فهي وثيقة «داخلية»، موجّهة بالكامل إلى المسيحيين من غير اهتمام بمن هم في الخارج (ولهذا لا ذكر فيها للحرص على السمعة)؛ في حين أن الدافع في هذه الرسائل الثلاث هو معالجة همّ خاص بموقف محدّد يتعلّق بالصورة التي تظهر بها الكنيسة في تعاملاتها مع من هم في الخارج. تقول سينثيا وستفول:

كانت ثقافة شرف تؤدّي فيها أدوار الجنسين دورًا مهمًّا. فإذا «تصرّفت امرأة كأنها سيّد» زوجها بأن تتحكّم فيه، عُدّ ذلك تحدّيًا مدمّرًا للتراتبية الكاملة في الإمبراطورية الرومانية ولنظام الرعاية والولاء (patronage). وكانت مخالفات هذه الأعراف تؤخذ بجدّية، ويمكن أن تدمّر سمعة الكنيسة — فقد كان سلوك النساء مادةً للهجمات الجدلية على الكنيسة الأولى وعلى حركات دينية طائفية أخرى.[407]

وفي عالم كان فيه العبيد والزوجات مُجبَرين بحكم القانون على الخضوع لربّ الأسرة (paterfamilias)، دُعيت هؤلاء الزوجات وهؤلاء العبيد إلى أن يتجاوزوا المطلوب، فيُسلّموا حياتهم طوعًا لأزواجهم وسادتهم. ولحسن الحظ، إن كان ربّ الأسرة (paterfamilias) مسيحيًّا، فقد أعطاه الرسل بالمثل تعليماته الخاصة بأن يعتني حقًّا بمن هم في بيته.

خلاصة القول: حين قال بطرس وبولس للزوجات أن يخضعن لأزواجهن، لم يكونا يجعلان من التراتبية بين الجنسين أمرًا مطلقًا في كل الزيجات كنوع من المثال المسيحي. بل كانا يتكيّفان مع وضع غير مثالي. فبطرس، في السطر الافتتاحي لرسالته، لا يخاطب مؤمنين يعيشون في مجتمع المستقبل الكامل، بل «المتغرّبين المشتّتين في الأقاليم» — فنحن غرباء نبذل قصارى جهدنا لنندمج، حتى ونحن نعيش مواطنتنا الحقيقية في ملكوت الله. وحين نفهم الأعراف القديمة الخاصة بالبيت، ينبغي أن تُفهم هذه المقاطع على أنها إرشاد للكنيسة كي تقوّض الأعراف الثقافية من الداخل من دون أن تثور عليها ظاهريًّا. فبطرس وبولس يتعاملان بحكمة مع أنظمة ناقصة، لأنه مع بحث المسؤولين الرومان عن أي ذريعة لسجن المسيحيين، كان أي تحدٍّ سيجلب التدقيق والاضطهاد على هذه الكنائس الصغيرة. ومن اللافت أنه حين

407. المصدر: www.bit.ly/3EL7OgM

كُتبت 1 بطرس وتيطس و1 تيموثاوس، لم يكن يفصل كاتبيها بطرس وبولس سوى سنوات قليلة عن إعدامهما بتهمة الإخلال بالنظام الروماني.

«أيها العبيد، اخضعوا ... كذلك أيتها النساء، اخضعن»

يُطلب من تيطس أن يرشد الزوجات إلى أن يكنّ خاضعات لأزواجهن (2: 3)، ثم بعد ذلك بقليل يُقال له أيضًا إن العبيد يجب أن يخضعوا لسادتهم (2: 9).

ويعكس بطرس ترتيب بولس: فهو يتكلّم أولًا عن علاقة العبد بالسيد، ثم عن علاقة الزوجة بالزوج. ففي 1 بطرس 2: 18، يُقال للعبيد أن يخضعوا لسادتهم بكل هيبة، ليس للصالحين المترفّقين فقط، بل للظالمين أيضًا، ثم نقرأ في 3: 1 أن على الزوجات، بالطريقة نفسها، أن يخضعن لأزواجهن. وصياغة بطرس تؤكّد الصلة بين هذه التعليمات: «أيها العبيد ... اخضعوا ... كذلكنّ أيتها النساء، اخضعن...».

والآن إلى الحجة الرئيسية في هذا الفصل: مع أن التكامليين يفسّرون التعليم الخاص بخضوع الزوجات على أنه تعليم عام صالح لكل زمان، فإننا نحن المعاصرين، وقد صارت العبودية وراءنا، ندرك أن التعليم الموازي له عن خضوع العبيد كان تعليمًا مرتبطًا بموقف محدّد في نهاية المطاف!

ولأن التاريخ يعيد نفسه حين لا يُصغي أحد، فسأفصّل هذه الفكرة بشيء من العمق.

مقاومة المسيحيين لإلغاء العبودية

إن المسيحيين المطالبين بإلغاء العبودية، مدفوعين بإحساس بعدل الله، تغلّبوا أولًا على العبودية بوصفها مؤسسة في المملكة المتحدة عام 1833، ثم امتدّ تحرير العبيد إلى بلدان أخرى مع مرور الوقت. وأشخاص مثل ويليام ويلبرفورس (William Wilberforce)، وجون ويسلي، وجون نيوتن (John Newton)، وتشارلز فيني (Charles Finney)، والأختين غريمكي (Grimke)، وهارييت ستو (Harriet Stowe)، وأولاوداه إكويانو (Olaudah Equiano)، وفريدريك دوغلاس (Frederick Douglass)، أوصلوا مؤسسة العبودية في النهاية إلى نهاية مجيدة بعد كفاح مرير. وكل المسيحيين المعاصرين يحبّون أن يرووا قصص أبطال التحوّل الاجتماعي هؤلاء.

أمّا ما هو أقلّ شهرة، وربما ننساه عمدًا لأنه صار الآن مدعاة خجل للمسيحيين، فهو أن أكبر معارضي إلغاء العبودية في الولايات المتحدة كانوا المسيحيين في الجنوب. بل إن

الطائفة التي هي الآن الأكبر في الولايات المتحدة، أي المعمدانيين الجنوبيين، انفصلت عام 1845 عن المعمدانيين الشماليين بسبب هذه القضية بالذات.

وحتى القرن الثامن عشر، كان معظم المسيحيين يعتقدون أن العبودية كتابية، وكانوا يقصدون بذلك أنها مُعتمَدة من الله. وقد بنى باحثون في الكتاب المقدس في أمريكا، مثل روبرت دابني (Robert Dabney) وج. هـ. ثورنويل (J.H. Thornwell)، دفاعات كتابية قوية عن امتلاك العبيد. وكتب تشارلز هودج (Charles Hodge)، أعظم لاهوتي مُصلَح في عصره، مقالة بعنوان The Biblical Case for Slavery، حاجّ فيها بما يلي:[408]

- الله أسّس العبودية. فبلعنه حامَ ابنَ نوح ليكون عبدًا،[409] أسّس الله نفسه العبودية.
- الله وافق على العبودية. حتى إبراهيم وداود وأيوب كان لهم عبيد.
- شريعة موسى دعمت العبودية. فعلى سبيل المثال، تفترض الوصيتان الرابعة والعاشرة من الوصايا العشر أن شعب الله يمتلكون عبيدًا. كما أن شريعة موسى سمحت باستعباد اليهود المعدمين والمهزومين في الحرب.[410]
- يسوع لم يتكلّم قط ضدّ العبودية. وما لم يُدِنه لا بد أنه أقرّه.
- الرسل أمروا العبيد بأن يخضعوا لسادتهم. فقد نظّموا العبودية من دون أن يدينوها.
- الرسل استخدموا العبودية لتصوير جانب إيجابي من الإنجيل — فنحن «عبيد المسيح» علينا أن نطيع طاعة كاملة السيّد الذي يملكنا.

حاول بعض اللاهوتيين أن يغيّروا رأي هؤلاء اللاهوتيين الذين كانوا يمثّلون الأغلبية، لكنهم أخفقوا. فعلى سبيل المثال، في مناظرة استمرّت أربعة أيام عام 1845، استعرض جوناثان بلانشارد (Jonathan Blanchard)، المطالب بإلغاء العبودية، «المبادئ العامة للكتاب المقدس» و«نطاق الكتاب المقدس كلّه». فقد كان واضحًا له أن «مبادئ الكتاب المقدس هي العدل والبرّ». وحاجّ بأن المرء يستطيع أن يقتبس نصوصًا لتأييد أي شيء تقريبًا، فينتهي إلى تفسيرات تناقض الحقائق الشاملة للكتاب المقدس.

ومن المحزن أن المسيحيين المؤمنين بالكتاب المقدس في الجنوب كانوا مقتنعين إلى هذا الحدّ بأن الله يؤيّد العبودية، حتى إنهم كانوا مستعدّين لحمل السلاح في حرب

408. الفضل في هذا القسم لكيفن جايلز في الفصل 8 من «What the Bible Actually Teaches on Women».
409. تكوين 9: 20-27
410. لاويين 25: 39-41؛ 25: 44-46

أهلية كلّفت أكثر من نصف مليون نفس، دفاعًا عن حقّهم في الإبقاء على العبودية! ومع أن الحرب الأهلية لم تضع حدًّا للعنصرية في الجنوب الأمريكي، فإنها أذلّت المسيحيين الذين كانوا يمتلكون العبيد بما يكفي لضمان أن يعترفوا في النهاية بأن العبودية خطأ. فالتغيّر الثقافي الذي لا يمكن إيقافه — مدفوعًا بإحساس بالعدل — جعلهم يعودون إلى الكتاب المقدس، حيث رأوا ببطء ولكن بثبات خطأ طرقهم. والآن، يكاد كل باحث في الكتاب المقدس يؤمن بأن الكتاب المقدس، مهما كثرت الحجج «الكتابية» السابقة، لا يؤيّد العبودية حين يُفهم فهمًا صحيحًا، وأن هذه الممارسة خطية.

مقارنة بين العبودية والنظام الأبوي

والآن لنتبيّن كيف تسير العبودية بموازاة النظام الأبوي، أي الافتراض الذي ساد طوال تاريخ الحضارة بأن الرجال ينبغي أن يقودوا. لنرَ كم يسهل توليد سلسلة مماثلة من الحجج إذا كان لدى المرء منهج تكاملي في تفسير الكتاب المقدس:[411]

- الله أسّس سلطة الذكر. ففي الجنة قبل السقوط، جعل الله آدم قائدًا لحواء.
- الله وافق على سلطة الذكر. فرؤساء الآباء، لا الأمهات، هم من قادوا شعب الله. والملوك، لا الملكات، هم من يهيمنون على تاريخ إسرائيل.
- شريعة موسى دعمت سلطة الذكر. فالوصية العاشرة تقول إننا لا ينبغي أن نشتهي امرأة قريبنا، ولا حماره، ولا أي شيء آخر مما يملك. والكهنة يجب أن يكونوا ذكورًا لا إناثًا.
- يسوع لم يتكلّم قط ضدّ سلطة الزوج. وما لم يُدِنه لا بد أنه أقرّه.
- الرسل أمروا الزوجات بأن يخضعن لأزواجهن. فقد نظّموا النظام الأبوي من دون أن يدينوه.
- الرسل استخدموا سلطة الزوج لتصوير جانب إيجابي من الإنجيل، حيث كان على الزوج أن يصوّر المسيح السيّد، وعلى الزوجة أن تخضع لزوجها كما للمسيح.

ألا ترون أوجه الشبه اللافتة والمثيرة للتأمّل بين محاولة الاحتجاج من الكتاب المقدس للعبودية ومحاولة الاحتجاج منه للنظام الأبوي؟ حتى أكبر كنيسة في العالم تعترف الآن بالتوازي بين نصوص «أيتها النساء، اخضعن» ونصوص «أيها العبيد، اخضعوا»: ففي

411. الفضل في هذا القسم لكيفن جايلز في الفصل 8 من «What the Bible Actually Teaches on Women».

عام 1988، حاجّ البابا يوحنا بولس الثاني بإيجاز ووضوح بأن استعمال كتابات بولس في أفسس 6 لتبرير العبودية لا يختلف عن استعمال أفسس 5 لتبرير تبعية المرأة في الزواج.[412]

تفاح وبرتقال؟

كيف يردّ اللاهوتيون التكامليون على هذا التشابه؟ يقول جورج نايت إن نصوص «أيتها النساء، اخضعن» و«أيها العبيد، اخضعوا» مختلفة جدًّا — «تفاح وبرتقال». كيف ذلك؟ سأقتطف من مقالة[413] كتبها لاهوتي تكاملي بارز، هو سام ستورمز (Sam Storms)، يقدّم فيها ستة أسباب تجعله يعتقد أننا نستطيع أن ندين العبودية مع الاستمرار في تأييد خضوع الزوجات. سأقتبس كلامه جزءًا جزءًا، واضعًا كلماته بالخط المائل وبين علامات الاقتباس، ثم أردّ على كل جزء:

أولًا، «من المعروف أن الكتاب المقدس ينظّم علاقات غير مرغوب فيها من دون أن يقرّها بوصفها مُثُلًا دائمة (انظروا متى 19: 8، 1 كورنثوس 6: 1-8). وتوصيات بولس بشأن كيفية تعامل العبيد والسادة بعضهم مع بعض لا تفترض صلاح هذه المؤسسة.»

إذن، يفهم ستورمز فعلًا استعداد الله للتنازل والتكيّف مع البنى الاجتماعية. حسنًا! ولكن هذه بالضبط هي الحجة التي ينبغي أن تُقال عن خضوع الزوجة المفروض ثقافيًّا لربّ الأسرة (paterfamilias) في العالم اليوناني الروماني — فالكتاب المقدس ينظّمه من دون أن يقرّه.

ثانيًا، «مؤسسة العبودية ليست متأصّلة في الخليقة، بل هي تشويه ناتج عن السقوط. أمّا الزواج ورئاسة الرجل، من ناحية أخرى، فهما جزء من نظام الخليقة الأصلي السابق للسقوط.»

هنا يتبنّى ستورمز تفسيرًا خاطئًا لتكوين 2 و3، ثم يجعل مثالًا أعلى من شيء يقول تكوين 3: 16 إنه نتيجة مباشرة للسقوط، لا للخليقة.

ثالثًا، «في مناسبات عدّة تُزرع بذور زوال العبودية. انظروا فليمون 16، أفسس 6: 9. ولكن لا شيء في العهد الجديد يوحي بأن الأمر نفسه كان متصوَّرًا للعلاقة بين الأزواج والزوجات.»

412. Pope John Paul II, Mulieris Dignitatem، ص. 24. مقتبس في Barr، ص. 110.
413. المصدر: www.bit.ly/2ZXK1LY

هذا غير صحيح. فغلاطية 3: 28، و1 كورنثوس 7، والقراءة الصحيحة لأفسس 5، ولا سيّما تعليمه عن الخضوع المتبادل، هي في الحقيقة «بذور زوال» سيادة الذكر في الزواج.

رابعًا، «إذا استُعملت الحجة المستمدّة من العبودية لإبطال خضوع الزوجة لزوجها، أفلا تُبطل أيضًا خضوع الولد لوالديه؟ لاحظوا كيف يتناول بولس في أفسس 5-6 العلاقة بين الأزواج والزوجات، والوالدين والأولاد، والعبيد والسادة جميعًا.»

يستعمل ستورمز الكلمة الخطأ: فالأولاد عليهم أن «يطيعوا»، بينما الزوجات والعبيد عليهم أن «يخضعوا». وهذا يربط الزوجات والعبيد بطريقة فريدة. ويبدو أن ستورمز يفترض أيضًا أن الوالدين والأولاد في تلك الثقافة كانوا سيقرأون الآيات المتعلّقة بالوالدين والأولاد بالطريقة نفسها التي نقرأها بها نحن في الغرب اليوم. ولكن من منّا يصرّ على أن يطيع أولادُنا والديهم إلى سنّ متقدّمة من رشدهم؟ إن أفسس 6، في آذان قارئ من القرن الأول، كان سيُفهم على أن بولس يأمر حتى الأولاد البالغين بأن يطيعوا والديهم، لا أن يكرموهم فحسب.[414]

ولكن حتى لو كانت العلاقة بين الوالدين والأولاد آنذاك كما هي الآن (ولم تكن كذلك)، فإن تراتبية قائمة على الجنس في الزواج تختلف اختلافًا كبيرًا عن التراتبية القائمة على الأجيال في التربية. فكون أولادنا الصغار لا يعرفون إلا القليل عن الحياة والحكمة يضعهم في موقع يكون فيه الاعتماد والطاعة أفضل لهم، ولذلك يُراعى هذا حتى في الثقافات القائمة على المساواة. والأمر ليس كذلك في زواج بين راشدَين متعلّمَين. فهدف التربية أن ننقل أولادنا إلى ما بعد الاعتماد والطاعة، حتى يقفوا في النهاية قادةً لأسرهم، وعندئذ يصبحون أندادًا لنا (كما يلمّح بولس في أفسس 5: 31). ولذلك سيكون من الخطأ أن نحاول جعل قيادة الوالد لولده دائمة ما داما حيّيين. فلماذا إذن نكون واثقين إلى هذا الحدّ بأن من الصواب أن نفعل ذلك بشريك حياتنا؟

خامسًا، «لا تُستعمل أي وصية أخلاقية دائمة أو أي مطلق أخلاقي في ما يتعلّق بالعبودية في تعليمات بولس للعبيد.»

هنا يكرّر ستورمز النقطة الأولى. ولكن انظروا إلى الكلمات في 1 بطرس 2-3: «أيها العبيد، اخضعوا لسادتكم ... كذلكنّ أيتها النساء، اخضعن لرجالكنّ». فعلى أي أساس

414. «كانت العلاقة بين الأولاد والوالدين تختلف بطرق مهمة عن ثقافتنا المعاصرة. ففي العالم الحديث، يُفترض أنه في مرحلة ما بعد بلوغ سنّ الرشد، سينال الأولاد الراشدون استقلالهم عن والديهم ولن يعودوا تحت سلطتهم. ولم يكن الأمر كذلك في العالم القديم، حيث كان يُتوقّع من الأولاد البالغين أن يبقوا تحت سلطة والديهم حتى سنّ متقدّمة من رشدهم.» (Howard Marshal, «Discovering Biblical Equality»، ص. 188.)

هو متأكّد من أن الأولى ليست وصية أخلاقية دائمة بينما الثانية كذلك؟ إن رأيه غير متّسق.

سادسًا، «يتصوّر بولس صراحةً إمكانية أن ينال العبد حريته ويؤيّدها (1 كورنثوس 7: 21). ولا يقول أبدًا شيئًا مماثلًا بشأن الزوجات وخضوعهن لأزواجهن.»

ذلك لأن الزواج، بخلاف العبودية، هو بحسب تصميم الله علاقة يصير فيها الاثنان جسدًا واحدًا.[415] لقد كانت الحرية من العبودية أمرًا مرغوبًا فيه لأنها فداء لمؤسسة العمل التي رسمها الله. وبالمثل، فإن الحرية من النظام الأبوي هي فداء لمؤسسة الزواج التي رسمها الله. وهدف بولس من كتابة أفسس 5 هو أن يحقّق، من دون أن يبعث برسالة ثورة على قواعد أرسطو، زواجًا متساويًا بقدر ما كان ممكنًا في تلك الثقافة.

خلاصة القول، وخلافًا لما يدّعيه جورج نايت وسام ستورمز، فإن العبودية والنظام الأبوي متشابهان إلى أقصى حدّ، فهما ليسا تفاحًا وبرتقالًا على الإطلاق، بل ثمارٌ فاسدة على الشجرة الساقطة نفسها. فالعبودية تشبه جدًّا في مبدئها افتراض قيادة الزوج لزوجته. وسواء أكان التعبير عنهما رحيمًا أم وحشيًّا، فإن الممارستين كلتيهما نتيجة لعالم ساقط. ولا معنى لأن ندين حتى العبودية «الرحيمة» — كما يفعل جميع المسيحيين اليوم — بينما نظلّ حصنًا للنظام الأبوي «الرحيم».

بل إنه إذا كان أحد الآثار البعيدة المدى للإنجيل في المجتمع هو قلب العبودية رأسًا على عقب، فإن العصفور الآخر الذي يصيبه بالحجر نفسه هو النظام الأبوي. ولهذا تطرح كلاريس مارتن (Clarice Martin)، في مقالة لافتة عن تفسير الكتاب المقدس بين الأمريكيين من أصل أفريقي، سؤالًا كاشفًا: «كيف يستطيع الوعّاظ واللاهوتيون السود من الرجال أن يستعملوا تفسيرًا تحرّريًّا حين يعظون ويتكلّمون لاهوتيًّا عن العبيد، وتفسيرًا حرفيًّا في ما يتعلّق بالنساء؟»[416]

415. تضيف جين هوكر (Jane Hooker) حجة أخرى، سأضيفها إلى قائمة ستورمز: «توجد فروق مهمة بين ممارسة العبودية في الكتاب المقدس والممارسة الأمريكية الأحدث للعبودية.» (المصدر: www.bit.ly/3GNFnk9) ويبدو أنها تقصد بذلك أن الحركة الاجتماعية لإنهاء العبودية في القرون الأخيرة مفهومة، لكن العبودية في القرن الأول لم تكن بذلك السوء. ولكن العبيد كانوا يُعامَلون معاملة فظيعة في القرن الأول أيضًا. ثم إن هذا يُغفل جوهر المسألة: ففي الحالتين كانت العبودية تعني امتلاك إنسان لأغراض اقتصادية. ولم يكن إلغاء العبودية مجرّد مواجهة لسوء معاملة العبيد، بل كان أيضًا مواجهة لممارستها الرحيمة.

416. Cain Felder (ed), Stony the Road we Trod، ص. 226. مقتبس لدى Barr، الفصل 6.

دروس من الظلم السابق

إن الباحثين التكامليين، بإنكارهم أوجه الشبه بين العبودية والنظام الأبوي، يكرّرون خطأ المسيحيين المعارضين لإلغاء العبودية في الجنوب الأمريكي، ويجرّون الكنائس التي تثق بفطنتهم اللاهوتية إلى إحراج ثانٍ لكنيسة يسوع، وإلى امتداد لاستخفافها بقيمة بعض أبنائها.

وما يجعل هذا كلّه أكثر مأساوية أن أكثر المدافعين تأثيرًا عن رئاسة الرجل في العالم هم المعمدانيون الجنوبيون، جماعة المؤمنين التي تنتمي إليها كنيسة من كل أربع كنائس أمريكية. وهم يواصلون بثّ أفكارهم في العالم من خلال كبار باحثيهم ووسائل إعلامهم. وللأسف، كما حذّر غيورغ هيغل (Georg Hegel)، يبدو أن «الشيء الوحيد الذي نتعلّمه من التاريخ هو أننا لا نتعلّم شيئًا من التاريخ».

فماذا ينبغي للكنيسة اليوم أن تتعلّم بالضبط من إخفاقات المسيحيين المعارضين لإلغاء العبودية؟ أولًا، من الممكن أن يكون المرء مقتنعًا — بل إن طوائف بأكملها ومدارس كاملة من الباحثين في الكتاب المقدس مقتنعة فعلًا — بأعمال «علمية» مفصّلة تتضمّن نصوصًا من أرجاء الكتاب المقدس كلّه، ومع ذلك يكون مخطئًا.

ثانيًا، من الممكن أن تتّجه الثقافة اتجاهًا إيجابيًّا هو في الحقيقة ثمرة مبادئ مسيحية تأصّلت في تلك الثقافة على مدى آلاف السنين. فعلى سبيل المثال، إن الماغنا كارتا للبشرية التي كتبها بولس في غلاطية 3: 28 هي أول مرة في التاريخ يعبّر فيها أحد بهذه القوة عن فكرة المساواة ونهاية التراتبيات الاجتماعية. فإلى أي حدّ ندين فعلًا بإسقاط المجتمع للعبودية ولسيادة الذكر لهذا المقطع بالذات؟ وبدلًا من أن تتّخذ الكنيسة موقفًا مضادًّا من تأثير الإنجيل في المجتمع، ينبغي لها أن تنسبه إلى نفسها وتحتفل به، لا أن تهاجمه.

ثالثًا، من الممكن أن تتحدّى الاكتشافاتُ والتطوّراتُ في المجتمع تفسيرًا قديمًا للكتاب المقدس. فحين كان معظم الناس يظنّون أن العالم مسطّح أو أن الأرض مركز الكون، كانت لدى الكنيسة آيات من الكتاب المقدس تؤيّد ذلك. وحين نقضت الاكتشافاتُ العلمية هذا، أتاح لنا ذلك فرصة لنقرأ الكتاب المقدس بطرق جديدة ونرى ما كان فيه طوال الوقت. وعندما اجتاحت الغربَ الثورةُ الصناعية والموجاتُ الأولى مما سيصبح لاحقًا حركة تحرير المرأة، أُعطيت النساء لأول مرة على الإطلاق فرصة

لإظهار ذكائهن وقدراتهن المماثلة لذكاء الرجال وقدراتهم. وبدلًا من أن نرى في هذا تهديدًا، فإنه في الحقيقة فرصة لنا لنعود إلى الكتاب المقدس نفسه بهذا السؤال: ما الذي فاتنا طوال الوقت؟

رابعًا، يجب تجنّب الأخطاء التفسيرية الشائعة. فتفسير كل جزء من الكتاب المقدس يحتاج إلى الكتاب المقدس كلّه. ومن السهل جدًّا أن نجمع نصوصًا للبرهنة هي نفسها مُساءٌ فهمها. ويجب ألّا ننسى أن أسفار الكتاب المقدس لم تُكتب إلينا، حتى وإن كانت مكتوبة لأجلنا. يجب أن نتشبّع بالسياق التاريخي الذي كُتب إليه النص، قبل أن نحدّد الرسالة الصالحة لكل زمان التي يمكننا بعد ذلك أن نطبّقها على زماننا وسياقنا.

خامسًا، قد تؤدّي المصلحة الذاتية والتفكير الجماعي إلى انحياز قوي لقراءة الكتاب المقدس بطريقة معيّنة. (انظروا الملحق 6 لمزيد عن هذا الموضوع.) وكقاعدة عامة، يقاوم البشر (حتى المسيحيون منهم) كل ما يهدّد مكانتهم أو امتيازاتهم. فهل كان ينبغي أن يُسمح للاهوتيين الذين يمتلكون العبيد بأن يكونوا الصوت الأعلى في المناظرات اللاهوتية في القرن التاسع عشر؟ وهل ينبغي أن يُسمح للذين سيخسرون وظائفهم وسمعتهم بوصفهم رعاةً أو قادةً أو أساتذةً في الكنائس والخدمات والكليات التكاملية بأن يكونوا الأصوات المهيمنة في هذه القضية اليوم؟

سادسًا، تفسير الكتاب المقدس يحتاج إلى الكنيسة كلّها. وليس من الحكمة أبدًا أن تتجاهلوا أو تحتقروا قطاعات من الكنيسة ترى الأمور على نحو مختلف عنكم. فوصف أناس يحبّون الكتاب المقدس بصدق بأنهم «مستسلمون للثقافة» أو «ليبراليون» قد يكون شكلًا من أشكال سدّ الأذنين عن صوت الله. فالذين تستخفّون بهم لأن لديهم «نظرة متدنّية» إلى الكتاب المقدس قد يكون فهمهم لأجزاء منه أفضل بكثير من فهمكم.

وأخيرًا، إن التمسّك بممارسات ثقافية فاسدة حتى عندما تتخلّى عنها الثقافة الأوسع أمرٌ يضرّ بصورة خاصة بمصداقية الكنيسة في المجتمع. فالاستمرار في أن تكون الكنيسة حصنًا للنظام الأبوي هو، في رأيي، تخريبٌ للذات لا يقلّ عن الاستمرار في استعمال الكتاب المقدس للدفاع عن العبودية. ففي تلك القرون التي كانت فيها الثقافة والكنيسة متّفقتين إلى حدّ ما على أن العبودية مقبولة، حتى وإن كانت الكنيسة توصي بأكثر أشكالها رحمة، لم تُلحق مسايرتها ضررًا كبيرًا بسمعة الكنيسة. ولكن تخيّلوا كيف سيُستقبل الأمر لو أن بيتًا مسيحيًّا معاصرًا في الغرب اختار أن «يطيع الله» بامتلاك عبدين وافقا على هذه الممارسة على أسس كتابية؟

وبالمثل، ما دامت الكنيسة توافق على الاعتقاد الثقافي الذي عبّر عنه جان جاك روسو، بأن «[الرجل] ينبغي أن يكون قويًّا وفاعلًا؛ و[المرأة] ينبغي أن تكون ضعيفة ومنفعلة؛ فلا بد أن يكون لأحدهما القوة والإرادة كلتاهما؛ ويكفي الآخر أن يُبدي مقاومة قليلة»،[417] لم يكن ضارًّا كثيرًا بسمعة الكنيسة أن تساير النظام الأبوي. ولكن الآن، وقد بنى مجتمعنا مسلسلًا تلفزيونيًّا كاملًا حائزًا على جوائز، حكاية الجارية (The Handmaid's Tale)، على «فظائع» تبعية المرأة، فإننا نحن الكنيسة لا نبدو مختلفين كثيرًا عن هذه الأسرة المعاصرة المتخيَّلة التي تملك عبيدًا، إذا علّمنا بناتنا أن يخضعن لسلطة أزواجهن الأحادية الجانب، ومنعنا النساء اللواتي لهن مواهب التعليم والقيادة من أن يعلّمن ويقُدن.[418]

وفوق حصاد زواج أكثر حميمية، إذا وسّع المؤمنون مساواة النساء إلى ما وراء البيت لتشمل الكنيسة والمجتمع، فسنحصد أيضًا مصداقية أكبر لإنجيلنا في ثقافتنا. وما نسيه مواطنونا، ولكننا نستطيع أن نذكّرهم به، هو أن رفع ثقافتنا الحالية لمكانة المرأة متجذّر تاريخيًّا في التأثير البطيء العميق لإنجيلنا نحن الذي يمنح الكرامة، وفي معرفة صفات الله المُحبّة والعادلة — ففي النهاية، منذ زمن طويل جدًّا، والله غافل بسعادة عن أي قيود تكاملية، وهو يُنهض النساء ليحلّقن تحليقًا كاملًا في مواهبهن، بل ويستخدمهن ليقُدن الرجال ويعلّمنهم بقوة.

417. Jean Jacques Rousseau, Emile or On Education (1762). مقتبس لدى Barr، الفصل 6

418. يعبّر جون ستاكهاوس في «Finally Feminist» (ص. 56) عن ذلك بحدّة أكبر: «حين كان المجتمع أبويًّا، كما كان في سياق العهد الجديد وكما كان في كل مكان في العالم ما عدا المجتمع الحديث في أيامنا، تجنّبت الكنيسة العثرة بمسايرته. أمّا الآن، وقد صار المجتمع الحديث قائمًا على المساواة رسميًّا على الأقل، فالعثرة هي أن الكنيسة لا تساير المجتمع، ولا تفرح بالحرية غير المسبوقة التي تتيح للنساء والرجال أن يخدموا بحسب المواهب والدعوة من دون خطّ اعتباطي يفصل بين الجنسين. وهذه العثرة تعيق تبشير الآخرين، كما تعيق ... الحفاظ على الذين اهتدوا بالفعل وتنميتهم. ... واستمرار الكنائس في النظام الأبوي في هذا المجتمع يضع حجر عثرة دينيًّا في طريق [كثيرين].»



الجزء الثالث

خدمة النساء

10

نساء مؤثّرات في العهد القديم

«كانت مشيئة الرب أن يستخدم دبورة قائدةً لشعب الله ... ليُظهر أن النساء قادرات على القيادة تمامًا كالرجال». نيجاي غوبتا (Nijay Gupta)[419]

بعد أن يقول الله إن آدم الساقط «سيسود على حواء»، تندفع البشرية خارج الجنة إلى البرّية — وكما أنبأ الله في تنبّؤه القاتم — أينما نظرتم لا تجدون في موقع القيادة إلا الرجال. ويبدو جليًّا أن تعدّد الزوجات والذكورة السامّة ينموان في التربة نفسها التي ينمو فيها النظام الأبوي، إذ لا تمضي إلا صفحات قليلة من قصة البشرية حتى ينافس قايين أخاه هابيل، ويفضّل أن يقتل على ألّا يكون هو صاحب الغلبة. وبعد ذلك بقليل يتّخذ لامك امرأتين لا امرأة واحدة، ويتباهى بأنه قتل رجلًا لم يفعل أكثر من أن جرحه.

تصفّحوا بقية العهد القديم، فتجدوا الرجال لا يزالون يهيمنون على الحياة العامة. فزوج المرأة الفاضلة في أمثال 31 «يجلس بين شيوخ الأرض»[420] في النهار، ثم يكون على الأرجح صاحب الأمر حين يعود إلى بيته أيضًا. ذلك لأن المجتمع العبري القديم كان يتمحور حول العائلة الممتدة، التي يقود فيها رجلٌ نسلَه وأقاربه وعبيده وزوجته، أو زوجاته (كما تُظهر قصص التنافس بين الزوجات في سفر التكوين).[421]

ثم يبقى اسم ربّ العائلة حيًّا في أبنائه، أما اسم أمّهم فيُدفن يوم زفافها. والبنات، لأن منزلتهن أدنى، يُضممن ببساطة إلى عائلات أزواجهن. فالدور الأول للمرأة أن تكون «مثمرة»، وبالمقابل فإن أشدّ إخفاقاتها بؤسًا هو عجزها عن الإنجاب.[422] وفوق ذلك، يلتفّ الشرع والعرف حول النساء كغلاف محكم يكاد يخنقهن. فحتى النساء البالغات يُعامَلن كقاصرات يعشن تحت وصاية رجل؛ وفي الوقت نفسه يملك زوج المرأة

419. www.bit.ly/3BFrpwV
420. أمثال 31: 23
421. فلإبراهيم ويعقوب وكالب وداود وسليمان وجدعون جميعًا أكثر من زوجة واحدة، على سبيل المثال.
422. انظروا خروج 23: 25-26؛ 1 صموئيل 1: 1-2: 10؛ أيوب 24: 21؛ مزمور 113: 9.

السلطة، متى شاء، أن يُبطل نذورها لله وعهوده لها على حدّ سواء.[423]

ومع ذلك، ومع تقدّم القصة، كثيرًا ما يتخطّى الله الأعراف الأبوية ليرفع امرأةً إلى مكانة ذات أهمية استراتيجية أو إلى موقع قيادي في شعبه قبل مجيء المسيّا. وكما سنكتشف في هذا الفصل، فمهما كانت «الأدوار» التي فرضها المجتمع الساقط على النساء، فمن الواضح أن الله لم يشعر بأي التزام بأن يفعل مثله. فلنتعرّف إلى عدد من هؤلاء النساء اللواتي يمكن القول إنهن خدمن بوصفهن ezer kenegdos — نساء قويات يقُدن ويُنقذن ويعلّمن، ويقاومن الرجال إن لزم الأمر.

شفرة وفوعة: مقاومتان للنظام

في العالم القديم، حيث كثيرًا ما كان الآباء يقتلون بناتهم الرضيعات ليضمنوا مستقبلهم بالأبناء الذكور، يأمر فرعونُ مصر القابلات بقتل أبناء الشعب المستعبَد عنده: «حينما تولّدان العبرانيات وتنظرانهنّ على كرسي الولادة، إن كان ابنًا فاقتلاه، وإن كانت بنتًا فلتحيا».[424] خطته أن يُضعف مستقبل العبرانيين. فإذا لم يبقَ رجال يتزوّجون الفتيات اليهوديات حين يكبرن، فسينتهي بهن الأمر إلى الزواج برجال مصريين والذوبان في الثقافة المصرية. تلك هي الخطة على أي حال. لكن قابلتين يهوديتين، شفرة وفوعة، تتحدّيان واحدًا من أقوى رجال الأرض، مخاطرتين بحياتهما، فتصيران من أقدم الأمثلة المعروفة على مقاومة نظام شرير. وفي أثناء ذلك تنقذان حياة الطفل موسى، الذي سيحرّر شعب الله بعد ثمانين سنة.

فماذا يفعل الله لهاتين المرأتين، ezer kenegdos، جزاءً على جهودهما بوصفهما معينتين قويتين، وحاميتين، وشريكتين للرجال، ومقاومتين للرجال الظالمين؟ يُقال لنا إن «الله أحسن إلى القابلتين، ونما الشعب وكثر جدًّا. وكان إذ كانت القابلتان تخافان الله أنه صنع لهما بيوتًا».[425]

423. عدد 30: 3-16، تثنية 24: 1-4
424. خروج 1: 16
425. خروج 1: 20-21

مريم: القائدة والمبشِّرة

بعد ولادة الطفل موسى بقليل، تتسلّم أخته الكبرى مريم من القابلتين عصا التتابع، فتصير هي ezer kenegdo له: تنقذ حياته بدفعه في سلّة على مياه النيل. ويستجيب الله صلواتها من أجل سلامته حين تجده ابنة فرعون — وهي نفسها نوع من ezer kenegdo — فتأخذه إلى القصر، وبذلك تضعه في صفّ الورثة لعرش مصر.

بعد عقود، يختار الله موسى ليقود بني إسرائيل إلى حريتهم، لكنه يضعه ضمن فريق قيادي صغير نوعًا ما: ونعرف ذلك لأن الله دعا أيضًا هارون ومريم ليكونا محرّرَين وقائدَين لإسرائيل إلى جانب موسى. ومن خلال نبيّ جاء بعد ذلك بزمن طويل، هو ميخا، يتأمّل الله في الخروج قائلًا: «إني أصعدتك من أرض مصر، وفككتك من بيت العبودية، وأرسلتُ موسى ليقودك، وهارون ومريم أيضًا».[426]

تقدّم مريم قيادة نبوية. فهي، مثل موسى، تُدعى أيضًا «نبيّة».[427] وعلى الضفة الأخرى من الممرّ الذي شُقّ في البحر الأحمر ثم انغلق، تقود نساء إسرائيل في ترنيمة ورقصة تسبيح.[428] وترنيمتها الظافرة، وهي عظة في صورة نشيد دُوّنت كلماتها في الكتاب المقدس، نموذج أوّلي لإنجيل الكنيسة بعد أكثر من ألف عام. فكلمات ترنيمة مريم وإنجيلنا كلاهما يعلنان صلاح الله ومُلكه، الإله الذي ينقذنا من عدو أقوى من أن نهزمه بأنفسنا، ويعبر بنا من الأسر إلى أرض الموعد. ويشير إعلان مريم أيضًا إلى كل النساء اللواتي سيبشّرن لاحقًا بإنجيل خلاص يسوع الملكي. ونعرف ذلك لأن كاتب مزمور، بعد ذلك بقرون، يعامل مريم وصديقاتها علامةً مبكرة تشير إلى كل قادة العبادة والمبشّرين اللاحقين: «الرب يعطي كلمة. المبشّرات بها جند كثير».[429]

كلمة تحذير: نحن الذين نتوق إلى يوم تكون فيه نساء أكثر على رأس القيادة ووراء المنبر في شعب الله، لا ينبغي أن نتخيّل بسذاجة أنهن سيتغلّبن بسهولة على التجارب الشائعة التي لا يزال القادة الرجال يسقطون فيها. أقول هذا لأن مريم، وهي في ذروة تأثيرها، تنجرف وراء روح التنافس. فإذ تنتقد موسى بغير حق، تعاني البرص سبعة أيام خارج المحلّة، بينما يعاني الشعب الذي دُعيت لقيادته إذ يضطر إلى انتظار شفائها.[430]

426. ميخا 6: 4. العبارة التي تُترجم أحيانًا «أمامك» تعني حرفيًّا «قدّامك»، بمعنى «لكي يقودك».
427. خروج 15: 20
428. خروج 15: 20-21
429. مزمور 68: 11
430. عدد 12: 1-15. ولكي يكون الأمر واضحًا، لا يقول النص في أي موضع إن مريم أخطأت بالالتفاف على سلطة

ومع هذه الزلّة الأخلاقية، تمتدّ إليها رحمة الله، وحين تموت لاحقًا يذكرها شعب الله بمحبة.[431]

خلدة النبيّة

تلخّص المشنا اليهودية التاريخ النبوي للكتاب المقدس العبري: «ثمانية وأربعون نبيًّا وسبع نبيّات تنبّأوا في إسرائيل».[432] فقد كانت لكلٍّ من مريم ودبورة (كما سنكتشف قريبًا) خدمة نبوية اقترنت بأدوار في القيادة العامة. وإشعياء يتزوّج نبيّة.[433] فلنتعرّف الآن إلى النبيّة خلدة.

في عصر ملوك إسرائيل، يُظهر الملك الشاب يوشيا أنه يفوق روحيًّا كثيرين ممّن سبقوه، إذ يجعل الحيوية الروحية لشعبه أولويته، ويقتلع ما قد يضرّ بالصحة الروحية لمملكته. وقد جرت العادة أن «يسأل» الملكُ «الربَّ» باستدعاء أحد أنبيائه. لذلك، حين يطلب من رئيس الكهنة وغيره من القادة أن يلتمسوا فكر الله نيابةً عنه، يتوجّهون إلى النبي الذي يرون أنه أقدر من غيره على مساعدتهم.

واللافت أنهم لا يذهبون إلى إرميا ولا إلى صفنيا، وكلاهما معاصر للملك يوشيا، بل يلجؤون إلى خلدة دون سواها. لا نعرف ما الذي في سجلّ خدمتها جعلها موضع ثقة، لكن يمكننا أن نخمّن أنها كانت معروفة بخطّها الساخن مع السماء. فهي زوجة رجل من رتبة متدنّية هو «حارس الثياب» في الهيكل، فلا يمكن أن يكون زواجها برجل ذي شأن هو ما يسند سمعتها النبوية.

تلتمس الله نيابةً عن يوشيا، ثم تتكلّم باسم الله دون أن تلطّف كلماتها: تدين وثنية الأمة، وتعلن هلاكًا وشيكًا، وتمدح قلب يوشيا، وتقول إنه سيُحفظ من أن يرى الكارثة. وكلماتها حادّة إلى حدّ أن يوشيا يجمع الجميع «من الصغير إلى الكبير»، ويقرأ عليهم كلمة الله، ويهدم مذابح الآلهة الكاذبة، ويقود شعب الله في ما قد يكون أعظم نهضة في تاريخ إسرائيل.[434] ونلاحظ عرضًا أنه لا شيء في القصة يوحي بأن خلدة تتصرّف أو تُعامَل على نحو مختلف عن الأنبياء الرجال.

431. إلى جانب تأمّل ميخا في قيادتها، يدوّن كتبة التوراة موتها ويُدرجونها في سلاسل الأنساب. (عدد 20: 1؛ 26: 59، 1 أخبار 6: 3)
432. Meg. 14a Bar 6. مقتبس في Kevin Giles, What the Bible Actually Teaches on Women (ص. 75).
433. إشعياء 8: 3. وكانت هناك أيضًا نبيّات كاذبات. وللعلم، لم تكن خطيتهن أنهن تجاوزن حدود سلطة الذكر، بل أنهن ناقضن ما كان الله يقوله فعلًا. (حزقيال 13: 17-24)
434. 2 ملوك 22: 11-23: 25

الملكات اللواتي يخدمن مقاصد الله

قرأتُ لكثير من الباحثين التكامليين الذين يُبرزون أن معظم القادة السياسيين في إسرائيل (أي الملوك) كانوا ذكورًا، ويحتجّون بأن هذا تأييد من الله لسلطة الذكر بوصفها مبدأً عامًّا. لكن هذا يغفل أن كون الملك ذكرًا كان أمرًا مفروغًا منه في عالم أبوي. فلم تكن ملكة تقوم حاكمةً منفردة إلا في أحداث استثنائية جدًّا، وعادةً حين يكون زوجها قد مات ولم يكن لها ابن. وقد اتّبع بنو إسرائيل أعراف الأمم المجاورة القديمة في شأن المُلك. فقد كانت صلاتهم بالتحديد، إن تذكّرنا، قبل أن ينالوا ملكهم الأول — وهي فكرة كان الله يعلم أنها ستقود إلى أن يُظلَموا — أن يتوسّلوا قائلين: «بل يكون علينا ملك ... فنكون نحن أيضًا مثل سائر الشعوب».[435]

إذن، حكم في الغالب ملوك ذكور. لكن كانت هناك أيضًا بعض النساء. فهناك عدد من الملكات القويات اللواتي يُمدحن في تاريخ إسرائيل. والملكة أستير هي أشهر الملكات اليهوديات، مع أنها شغلت ذلك المنصب في الإمبراطورية الفارسية لا في أمة إسرائيل. ومع أنها كانت تناقش الأمور مع الملك على انفراد، فلا شك في أنها شغلت منصبًا عامًّا، وهو — إن قرأتم القصة — أمرٌ منحها الله إياه. فبدافع من إدراك نبوي أن الله وضعها في منصبها «لوقت مثل هذا»،[436] تعترض ببراعة قانونًا يقضي بإبادة شعبها. وتفعل ذلك بأن تكشف بشجاعة نوايا هامان الشريرة، ثم بأن تتسبّب في هلاك بيته، ومعه 75,000 من أعداء شعبها.

واحتفالًا بهذا النصر السياسي، تُصدر قانونًا تكتبه هي وعمّها مردخاي «بكل سلطان»، ويُرسَل إلى جميع اليهود في 127 كورة في مملكة أحشويروش. ويقضي هذا القانون بإحياء ذكرى سنوية مدّتها يومان لانقلاب مصيرهم، وهو «لنسلهم» أيضًا.[437]

في هذا كله، تمارس أستير القيادة في أمة فارس وكذلك على شعب الله، بني إسرائيل. وبذلك تصبح مثالًا ملهمًا للنساء المدعوّات إلى ممارسة القيادة في المجتمع، وكذلك لمن قد يمارسن قيادة عملية وروحية لشعب الله.

وليست هي الملكة الوحيدة التي يتقاطع طريقها مع تاريخ إسرائيل. فملكة سبا الأفريقية[438] يمدحها يسوع لأنها أدركت العظمة التي وهبها الله لسليمان وأثنت عليها،

435. 1 صموئيل 8: 19-20
436. أستير 4: 14
437. أستير 9: 29-32

وبذلك، في استباق نبوي، أدركت مُلك يسوع نفسه أيضًا.[439] وكذلك تتذكّر الملكة البابلية في أرض الكلدانيين موهبة النبوّة الروحية التي لدانيال، ويستخدمها الله لتعيده إلى الساحة العامة بعد فترة من الخفاء.[440] أما ملكتا إسرائيل نفسها، إيزابل وعثليا، فكانتا شريرتين، كما كان معظم ملوك إسرائيل. لكن لاحظوا أنه في كل روايات الملكات لا تُقال كلمة سلبية واحدة عن وجود النساء في منصب القيادة، بل عن سوء استعمال ذلك المنصب فقط.

والغريب أن الباحثين التكامليين يعترضون أحيانًا بأن هؤلاء الملكات لم يحكمن وصيّاتٍ منفردات، بل إلى جانب أزواجهن الملوك فقط. لكن الملكات الحاكمات منفردات في الشرق الأدنى القديم كنّ نادرات للغاية. ففي فترة 500 سنة (من عهد شاول إلى عهد صدقيا)، يكاد يكون من المستبعد أن تكون لأي إمبراطورية ولو ملكة واحدة كهذه. ومع ذلك، فإن عثليا بعد موت زوجها ملكةٌ حاكمة بلا زوج، وفي القرن السابق لمجيء يسوع، في عهد السلالة الحشمونية، حكمت سالومي ألكسندرا (Salome Alexandra) تسع سنوات ملكةً منفردة على إسرائيل بعد موت زوجها.

وإلى جانب هؤلاء النساء اللواتي أقامهن الله مقاوماتٍ للأنظمة، وقائدات، ومبشّرات، ونبيّات، وقائدات سياسيات، تشقّ قائدةٌ واحدة على وجه الخصوص طريقًا متوهّجًا لكل القائدات اللواتي سيأتين بعدها في شعب الله.

دبورة القاضية

«ودبورة امرأة نبيّة زوجة لفيدوت، هي قاضية إسرائيل في ذلك الوقت. وهي جالسة تحت نخلة دبورة بين الرامة وبيت إيل في جبل أفرايم. وكان بنو إسرائيل يصعدون إليها للقضاء».[441] ومع أن مريم ربما عملت ضمن الفريق القيادي لشعب الله (وكان موسى القائد الرئيسي)، فإن دبورة كانت لفترةٍ من الزمن القائدةَ العليا لشعب الله: إذ كانت واحدة من قضاته.

مَن كان القضاة؟ في القرون الكثيرة بين موت يشوع وتتويج شاول ملكًا أول على إسرائيل، عاش بنو إسرائيل اتحادًا فضفاضًا من الأسباط يعبد الرب. وفي تلك الحقبة ظلّت دورة واحدة تتكرّر: كان شعب الله يسقط أولًا في تهاون أخلاقي شديد وفي عبادة

439. مرقس 12: 32
440. دانيال 5: 10-12
441. قضاة 4: 4-5

آلهة كاذبة؛ ثم كانت القبائل المجاورة تغزوهم عسكريًّا وتظلمهم؛ ثم كان شعب الله يصرخ إلى الله نادمًا؛ فيقيم الله قاضيًا «ليخلّص إسرائيل من يد أعدائهم».[442] ومع أن هؤلاء القضاة لم يكونوا ملوكًا دائمين، فقد قيل عنهم إنهم «حكموا» أو «ساسوا» شعب الله في نطاقهم.[443]

وما يميّز دبورة عن القضاة الكبار الخمسة الآخرين في سفر القضاة أنها الوحيدة التي كانت أيضًا نبيّة، والتي قدّمت قيادة قضائية في النزاعات الكثيرة بين شعب الله. فالآخرون يبدو أنهم تخصّصوا في النصر العسكري فقط، أما دبورة فتقود الشعب. ويبدو أيضًا أنها لم تصعد بـ«اختيار إلهي مباشر على الفور» (فكّروا في دعوة الله لجدعون). بل لأنه لا ذكر لدعوتها الأولى، يُترك لنا أن نستنتج أن مواهبها الاستثنائية التي وهبها الله لها في القيادة والنبوّة والحكمة فتحت لها الأبواب حتى القمة. والواقع أن أكثر من يشبهها هو صموئيل، الذي كان مثلها نبيًّا وقاضيًا ومستشارًا عسكريًّا.

كانت أعلى سلطة قضائية في البلاد. ولا شيء في النص يوحي بأن دبورة تصرّفت بصفة خاصة بحتة. فبوصفها وسيطة في النزاعات العامة، أدّت، مثل موسى قبلها، دورًا عامًّا في مجال عام. واستمرارًا لوظيفة موسى قاضيًا،[444] تقيم العدل بوصفها العضو الوحيد في أعلى محكمة في إسرائيل. ومثل موسى،[445] تتولّى دور القاضي الوطني إذ يأتي إليها الناس من كل أنحاء البلاد ليفصلوا في نزاعاتهم.

وكسائر القضاة الكبار في سفر القضاة، تقود دبورة شعب الله إلى النصر العسكري. ومثل صموئيل، الذي عيّن شاول ليزحف إلى المعركة دون أن يذهب هو نفسه،[446] خطّطت دبورة أيضًا ألّا تزحف هي نفسها إلى المعركة. بل تأمر باراق بأن يحشد جيش إسرائيل ليهزم الظالمين.[447] ثم توجّه خطط الحملة العسكرية توجيهًا استراتيجيًّا: بما في ذلك حجم الجيش، والموقع المشرف الذي ينبغي أن يتّخذوه، واللحظة الدقيقة للهجوم.

والعدو الذي تستهدفه هو يابين، الذي لا يظلم كل إسرائيل، بل الأسباط في الشمال فقط. ومع أنها تعيش في الجنوب، فإنها تعرف ما يكفي عن قاعدة قوة يابين لتكلّف

442. قضاة 2: 16، 18؛ 4: 10، 14، 24؛ 5: 1-31
443. يكتب دانيال بلوك (Daniel Block) في تفسيره لسفري القضاة وراعوث: «تتحدّث راعوث 1: 1 عن الأيام التي "حكم" فيها القضاة (ESV) أو "ساسوا" (NIV). "والكلمة العبرية shaphat، 'يقضي'، تعني 'يحكم، يدير، يمارس القيادة'"». (ص. 23)
444. تثنية 17: 8-13
445. خروج 18: 13
446. 1 صموئيل 10: 1
447. قضاة 4: 6

باراق، وهو نفسه من الشمال، بأن يهزمه. ويُعجب باراق بعبقريتها الاستراتيجية إلى حدّ أنه يتوسّل إليها أن تقف إلى جانبه على خط المواجهة في المعركة. لا يطلب منها أن تحمل السلاح بنفسها، بل أن تنصحه من موقع تُرى منه المعركة وهي تجري. فعند الاستعداد للمعركة يكون باراق هو القائد العسكري، بينما تقوم هي بدور القائد الأعلى. فتؤكّد له نبويًّا أنه سينتصر، وتعطي الأمر: «انطلق»، فينطلق.[448] ويا للروعة، إذ يعطيهم الله نصرًا يقود إلى أربعين سنة من السلام.[449]

وفور الانتصار في المعركة، ومع باراق شريكًا لها في الإنشاد، تعلّم كل شعب الله ترنيمة كتبتها. فمثل مريم، التي سبّحت الله قبل ذلك بقرن أو قرنين لأنه أنقذ شعبه المحاصَر،[450] يرنّم الاثنان كيف منحهم الله النصر. والترنيمة تسبّح الله، لكنها تكرّم دبورة أيضًا بوصفها إحدى أدوات الله في النصر، مع باراق. فهما يرنّمان: «حين يتقدّم [القادة] في إسرائيل، حين ينتدب الشعب نفسه، [ليبارك الجميع] الرب».[451] ويبدو أن القادة الذين يشيران إليهم هما نفساهما — إذ تتابع الترنيمة قائلة: «امتنع القرويون في إسرائيل عن القتال، تقاعسوا حتى قمتُ أنا دبورة، حتى قمتُ أمًّا في إسرائيل».[452] وإذ نصغي إلى الأمة وهي ترنّم معًا، نُلهَم حتى اليوم أن نكرّم القادة، ومنهم النساء، الذين قادوا قيادة حسنة.

وبما أنها متزوجة من لفيدوت، فهي ليست امرأة عزباء تستطيع أن تتفرّغ كليًّا لخدمة الله والأمة. ومع ذلك، نلاحظ الترتيب في الكتاب المقدس: فهي أولًا نبيّة ثم زوجة. وحتى في ثقافة أبوية ربما كان من الطبيعي فيها أن تكون المرأة تابعة لزوجها، لا يبدي أحد في القصة، لا هي ولا غيرها، أيّ تحفّظ على ممارستها السلطة على الرجال.

في ترنيمتها تُدعى «أمّ إسرائيل». لكن طبيعتها الأمومية لا تنتقص من قيادتها العامة؛ بل تضفي عليها نكهتها الخاصة. فخلافًا للجوع المعتاد إلى المجد لدى كثير من القادة في زمن الحرب، تريد دبورة أن تُسلّم المجد العسكري لغيرها. ومع ذلك، لا ينبغي المبالغة حتى في مسألة أمومتها هذه — ففي سعيها إلى النصر العسكري لشعبها، لا يظهر في ترنيمتها أيّ حنان قد يتوقّعه المرء من امرأة، إذ تسخر من الأمهات

448. قضاة 4: 14
449. قضاة 5: 31
450. خروج 15
451. قضاة 5: 1-2. إستعمال NIV لكلمة «princes» (الرؤساء) بدلًا من «leaders» (القادة) يستبعد دبورة نفسها، مع أنها تُصوَّر مخلِّصةً في ترنيمتها هي في 5: 8. وأرى أن ESV وNLT تلتقطان معنى الكلمة على نحو أفضل بكلمة «leaders» (القادة).
452. قضاة 5: 8

المنكسرات القلوب لجنود العدو القتلى الذين لا يعودون إلى بيوتهم.[453]

ومع أنها شديدة الكفاءة ومتعدّدة المواهب، فإنها تُسند مهامّ كبيرة إلى غيرها. فهي تعرض على باراق مهمة الزحف إلى المعركة وحده، ربما لأنها تظن أن القتال، بسبب قوة الرجال الجسدية الأكبر، عملٌ للرجال. وإذ أكّد لها الله النصر، تريد أن تعطي باراق كرامة أن يفعل ذلك من دونها. لكن باراق يفضّل أن تكون إلى جانبه في المعركة، فتنبّهه حينئذ إلى أنه سينتهي به الأمر الآن إلى أن يقتسم بعض مجد المعركة، الذي هو عادة من نصيب الرجال، مع «امرأة» — وهي إشارة نبوية إليها هي نفسها، وإلى امرأة أخرى، ياعيل، التي ستقتل قائد جيش يابين.[454]

يا لها من قصة مذهلة! في ثقافة تمجّد الذكور، ها هي امرأة هي الناطقة باسم الله، يصغي إليها القادة العسكريون وعامة الناس على السواء بكل سرور.

أما الباحثون التكامليون، الذين يبدو أنهم مصمّمون على تقويض سلطة دبورة الشرعية الممنوحة من الله على الرجال، فيفعلون ذلك عادةً بثلاث حجج: يزعمون أن قيادتها خاصة لا عامة؛[455] وأن الله يختار دبورة لأن الرجال في البلاد كانوا سلبيين، فأراد بذلك أن يُخجلهم؛[456] وأن دبورة تعترف بأن باراق هو القائد الحقيقي.[457] ولا تصمد أيّ من

453. قضاة 5: 28-30. بل إن أمَّا بلا أبناء، في ترنيمة دبورة المؤرّقة، تكتشف بعد ذلك أن بناتها قد يُسبَين قريبًا.
454. قضاة 4: 21. ومثل باراق ودبورة، تُكرَّم هي أيضًا في ترنيمة دبورة في قضاة 5: 24-26.
455. يشيرون إلى أنها تعمل حَكَمًا قضائيًّا لمجموعات صغيرة من الناس يأتون إلى بيتها، وأنها تأمر باراق شخصيًّا. لكن هذا يغفل أن دورها عام حتى لو تعاملت مع أفراد، وأنها تعطي أمرًا يقود إلى أن يحمل 10,000 رجل السلاح. وهي تقود أيضًا جماعة أكبر بكثير في ترنيمة احتفالية يرنّمون فيها جميعًا عن قيادتها التي أقامها الله. والسبب الذي يجعل هؤلاء الباحثين يقدّمون هذه الحجة هو أنهم يحاولون التوفيق بين قيادة دبورة للرجال وتفسيرهم الخاطئ لنصّ 1 تيموثاوس 2: 12 الذي يقولون بحسبه إن المرأة لا يجوز أن تقود الرجال علنًا. وتبدو هذه التمييزات بعيدة الاحتمال واعتباطية.
456. لكن لا شيء في القصة يُظهر رجالًا يرفضون أدوار النبي أو السلطة القضائية أو المخطّط العسكري. فممانعة باراق ليست لأيٍّ من هذه الأدوار — فكل ما يقلقه هو أن يقود الزحف إلى المعركة من دون دبورة، وهو ما يُعاقَب عليه ثقافيًّا بأن يقتسم مجد المعركة مع دبورة وياعيل. وإن كنا نعرف شيئًا عن اختيار الله للقادة، فهو أنه يفضّل أن يختار من لا يُتوقَّع اختياره. فعلى سبيل المثال، مع أن عثنيئيل، القاضي الأول، هو القاضي النموذجي، فإن كلًّا من القضاة الثلاثة الذين يختارهم الله بعده يُظهر تفضيل الله للمفاجآت. فإهود «أعسر» — أي إنه يستطيع أن يفاجئ المقاتل العادي الذي تدرّب على قتال محارب أيمن كما هو شائع. وجدعون هيّاب، ومن عشيرة وضيعة. وبالطبع، دبورة امرأة، وهي بالكاد أول شخص يتوقّع أحد أن يحقّق نصرًا عسكريًّا. ولذلك ينبغي لكل شعب الله من بعدُ أن يكونوا مستعدّين لقبول اختيار الله غير المتوقَّع للقادة. فلا ينبغي أن نرفض القائدات النساء أكثر مما نرفض القادة العُسر أو القادة الهيّابين الآتين من خلفية محرومة.
457. يحتجّ غرودم في «Evangelical Feminism» (الفصل 4) لهذا الرأي بأنها قالت له أن يحشد الجنود، مؤكّدةً بذلك «صواب قيادة الذكر». ويضيف أن توبيخها له لإصراره على أن تأتي معه إلى المعركة يثبت الشيء نفسه. لكن هذا كله استنتاج. والتفسير القائل إنها أدركت عن حق أن قيادة جيش في معركة جسدية تناسب الرجال أكثر هو تفسير أنسب بكثير. فهي امرأة، ولذلك لم تكن مناسبة لعملية عسكرية كانت القوة فيها حاسمة. وليس لديها طموح أن تقود معركة جسديًّا، وهي تؤمن أن المعركة الجسدية مجد الرجال. وبالطبع، باراق يقود، لكن حتى قيادته مفوَّضة إليه منها. فقد كانت استراتيجيتها المفضّلة (مثل صموئيل) أن تكون القائد الأعلى الذي يوجّه القائد العسكري ليخوض الحرب. لكنها تبقى القائدة بالإشراف. فهي لم تتخلَّ عن قيادتها — بل وجّهت رجلًا لينفّذ قيادتها الممنوحة من الله. وحتى لو أمكن إثبات أنها تعترف بباراق قائدًا حقيقيًّا (وهذا لا يمكن)، فإن دورها بوصفها صاحبة

هذه الحجج حقًّا. فما يفعله هذا المقطع هو أنه يُظهر أن امرأة، باختيار الله، تقود شعب الله، بمن فيهم الرجال، في المجالين الديني والمدني كليهما. وبذلك تشقّ الطريق للنساء الموهوبات الأتقياء اليوم اللواتي قد يُدعَين إلى القيادة في أحد هذين المجالين أو في كليهما.

بعض الباحثين لا يعترفون إلا بدورها المدني. فغرودم، إذ يغفل الاعتراف بدورها قائدةً عليا، يشبّه عملها القضائي بعمل مرشد أو قاضٍ مدني اليوم. وباحثون آخرون لا يعلّقون إلا على قيادتها الروحية. فماثيو هنري (Matthew Henry)، المفسّر البيوريتاني، ينكر دورها في المجتمع قائلًا: «لقد قضت، لا كأميرة بسلطة مدنية مُنحت لها، بل كنبيّة، وكفمِ الله لهم، تقوّم المفاسد وتنصف أصحاب المظالم، ولا سيما ما تعلّق منها بعبادة الله».[458] ويعجز كلٌّ من غرودم وهنري عن أن يريا أنها تسير في القيادة الدينية والمجتمعية (بما في ذلك المجالات السياسية والقضائية والعسكرية) على شعب إسرائيل.

هذه القصة سابقة قوية. وما هو واضح بما يكفي أن قيادة المرأة لم تكن بغيضة في ذاتها، لا في نظر الله ولا في نظر العبرانيين القدماء. فها هي امرأة تقود بكفاءة جماعة بأكملها، بمن فيها أقوى رجالها.

وما يجعل خدمة دبورة وثيقة الصلة على نحو خاص بأطر الخدمة الحديثة هو أن اختيار الله للقضاة/المخلّصين هو من أفضل أمثلة العهد القديم على نوع القادة الذين قد يستخدمهم الله اليوم. ذلك لأن الله، في كل حالة، لا يتقيّد بمؤسسات مرتبطة بالثقافة، كحقّ البكورية للذكر في حالة الآباء، أو ناموس موسى المفصّل لمؤسسة الكهنوت، أو المؤسسة الجيوسياسية الشائعة في الشرق الأدنى القديم، وهي المُلك الذكوري. وفي المقابل، يقوم تعيين كل قاضٍ على دعوات ومواهب يمنحها الروح، لا على الخيار الأكثر شعبية أو الأرجح في المجتمع القديم. ومن الرائع أن دبورة، من بين المخلّصين الرئيسيين الستة في سفر القضاة، هي على الأرجح أكثرهم إنجازًا — فهي ليست فقط القائدة السياسية والعسكرية العليا في البلاد، بل هي أيضًا نبيّة وأعلى قائدة قضائية.

أما الباحثون التكامليون الذين يقرّون بهذا، فيزعمون مع ذلك أنها استثناء يؤكّد القاعدة القائلة إن الرجال هم من ينبغي أن يقودوا شعب الله. لكن لا شيء في النص يوجّهنا إلى هذا الاتجاه على الإطلاق. كلا، إنها ليست استثناءً يؤكّد القاعدة. بل إن قيادتها

458. المصدر: www.bit.ly/3bIr6am

الاستثنائية تثبت أنه لا توجد قاعدة كهذه، وبالتأكيد ليس في فكر الله. فهي تتحدّى ما يسمّى «النمط» الثابت لسلطة الحكم الذكورية الذي يزعم كثير من الباحثين التكامليين أنه موجود في فكر الله. إن اختيار الله لامرأة لقيادة بهذه الأهمية في عالم أبوي أمرٌ لافت تمامًا. فهو بمثابة «novum» (شيء جديد وغير متوقَّع في قصة أو نص) يجعل القرّاء الأصليين لسفر القضاة (ونحن أيضًا) يعيدون النظر كليًّا في افتراضاتهم عن الله والجنسين والقيادة. فبالنسبة إلى قارئ قديم لسفر القضاة، كان من المتوقَّع ثقافيًّا أن يقرأ عن رجل يقود، أما التفصيل المفاجئ فكان هو «الرسالة» نفسها. فإن لم نرَ ما رأوه هم في هذه الرواية عن دبورة، ثم وضعنا خطأً القيادة الروحية في الصندوق نفسه مع الجنس الذكري، فلن نفعل في النهاية سوى محاولة حبس الله في صندوق.

الله الذي يتنازل

بغضّ النظر عن خلدة ومريم وأستير ودبورة، يبقى السؤال: لماذا يختار الله في الغالب رجالًا قادةً في العهد القديم؟

كثيرًا ما يعدّد الباحثون التكامليون الشيوخ الذكور، ورؤساء العشائر الذكور، والبطاركة الذكور، والملوك الذكور، وما إلى ذلك في العهد القديم، كما لو أن الله يرسي قاعدة لكل العصور بأن الرجال وحدهم ينبغي أن يقودوا. لكن هذا الاستنتاج يغفل أمرًا حاسمًا في مسارات الله الفدائية: فإسرائيل لم تبتكر أيًّا من هذه الأدوار بصورة خاصة — فكل الأمم في الشرق الأدنى القديم كان لها شيوخ ذكور، ورؤساء عشائر ذكور، وبطاركة ذكور، وملوك ذكور. فلا يجوز أن نفترض أن الله، حين سمح لإسرائيل أن تحذو حذوها، كان يؤيّد ذلك بوصفه مثالًا كونيًّا من نوع ما. إن طول الكتاب المقدس، والمدى الزمني الهائل الذي يغطّيه، يُظهران أن فداء الله للعالم الساقط يحدث ببطء. وإذ يُعلن الله نفسه لجماعات مفديّة ومن خلالها لعالم غير مؤمن، نلاحظ أنه كثيرًا ما يتنازل إلى واقع ثقافي غير مثالي، بل رديء جدًّا أحيانًا، بينما يزرع فيه في الوقت نفسه البذور التي ستقود في النهاية إلى فدائه.

كان الشرق الأدنى القديم ثقافة أبوية بقدر ما هو الشرق الأوسط اليوم. ولهذا كان قادة العشائر والأسباط في العهد القديم ذكورًا دائمًا، ولا ذكر لامرأة ترأس سبطًا أو عشيرة. وشعب الله في العهد القديم هو عائلة إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وحين يسعى موسى إلى توزيع السلطة على رؤساء العائلات والأسباط، يختار 70 رجلًا من الكبار يُدعَون «شيوخًا». وما دمنا نتحدّث عن «الشيوخ»، نتذكّر أيضًا أن الشيوخ الذكور كانوا

يجلسون عند أبواب المدن — لكن انتبهوا، كانت هذه أداة القيادة المعتادة في العالم الأوسع: فحتى مصر كان لها «شيوخ»، على سبيل المثال.[459]

لكن إعلان الله وعمله داخل ممارسة ثقافية قائمة للنظام الأبوي ليس تأييدًا كونيًّا لها، تمامًا كما أن إقامة الآباء الاثني عشر، أبناء يعقوب، من خلال الممارسة الثقافية لتعدّد الزوجات ليست تأييدًا لهذه الممارسة. فنحن نعلم أن تعدّد الزوجات خطأ، ومع ذلك تنازل الله إليه إلى حدّ أن أسباط إسرائيل الاثني عشر مؤسّسوها رجالٌ لهم أب واحد لكن لهم أكثر من أمّ. والأمر نفسه مع العبودية، كما رأينا في الفصل 9. فعمل الله داخل شعب كان تعدّد الزوجات والعبودية والنظام الأبوي هي القاعدة فيه لا يعني أن الله يجعل أيًّا من هذه الممارسات مثالًا أعلى أو يؤيّده. ففي المسار الطويل الذي يُعلن فيه الله نفسه ومقاصده الفدائية الشاملة تدريجيًّا، يبدو أنه مستعد لأن يتحمّل أمورًا يَعِد في النهاية بأن يضع لها حدًّا.

ومع ذلك، حتى لو كان الله قد اختار دائمًا ذكورًا فقط قادةً في العهد القديم (وهذا لم يكن الحال)، فلا ينبغي أن نفترض أن النمط الثقافي العام ينبغي أن يُنقل إلى كنيسة يسوع. والسبب هو هذا: كان شعب الله قبل مجيء يسوع أمة بالمعنى الحرفي، لكنه بعد مجيئه، وخصوصًا بعد اضطهاد الكنيسة الأولى في أورشليم، اتّخذ شكلًا جديدًا. فخطة الله، التي كُشفت الآن، هي أن توجد الكنائس لا بوصفها أمة، بل بوصفها جماعة حيّة داخل الأمم في كل أنحاء العالم. ولم يعد شعب الله اليوم شعبًا جيوسياسيًّا، فلا حاجة به إلى أدوار القيادة القديمة كالملوك ورؤساء العشائر ورؤساء الكهنة والأنبياء الوطنيين. وفي الغالب يشدّد العهد الجديد على الانقطاع بين الإيمان في ظل العهد القديم والإيمان في ظل العهد الجديد. وبإغفال هذه الحقيقة، يقدّم التكامليون حجة أخرى من العهد القديم لقيادة الذكر بوصفها القاعدة التي يفضّلها الله.

الكهنة الذكور

المناصب الثلاثة العظمى في العهد القديم هي النبي والكاهن والملك. ومع أننا نعرف نبيّات وملكات قويات استخدمهن الله، فإن المنصب الوحيد الذي كان محصورًا بالذكور بلا جدال، ومن دون أي استثناء على الإطلاق، هو منصب الكاهن.

بعض الباحثين التكامليين يجعلون من هذا قضية كبرى: «إذا قبل المرء أن هناك استثناءات في كل أدوار القيادة في العهد القديم ما عدا الكهنة، فلا بد أن هناك نمطًا قائمًا: الله يفتح أمام النساء كل أنواع القيادة، باستثناء نوع واحد. وبهذا المعنى، الكهنة

459. تكوين 50: 7

هم الاستثناء في العهد القديم، والشيوخ في العهد الجديد».[460]

ومؤخرًا جدًّا، عزّز باحثون آخرون هذه الحجة بحجّتين إضافيتين، تربط كلٌّ منهما بين كهنة العهد القديم وشيوخ الكنيسة على وجه التحديد. أولًا، يشيرون إلى أن الكهنة الرؤساء، هارون ولاوي، أُمروا بأن يعلّموا الشعب ناموس موسه[461] — وهذا يتوافق إلى حدّ ما مع الشيوخ الذين يجب أن يكونوا «صالحين للتعليم».[462] ثانيًا، يُبرزون أن الكهنة كانوا حرّاس المقدس وأمتعته، وهذا يوازي عمل الشيوخ اليوم، الذين ينبغي أن يكونوا حرّاسًا روحيين وأخلاقيين للكنيسة.

فكيف يُردّ على هذه الحجج؟

مع أن الكهنة كانوا ذكورًا، فلا يجوز أن نستنتج أن الله كان يؤيّد النظام الأبوي، خصوصًا لأن الكتاب المقدس لا يقول ذلك. فربما كانت هناك أسباب محدّدة، قد لا يمكننا معرفتها، لكون الكهنة رجالًا فقط. وهناك ثلاثة أسباب معقولة لاستبعاد النساء من إدارة المقدس. (ولو كان عليّ أن أراهن على واحد منها فقط، لكان الأول.)

أولًا، كان ناموس موسى يعدّ المرأة الحائض نجسة طقسيًّا، ولذلك لم يكن مسموحًا لها حتى أن تطأ الهيكل مدة ربع كل شهر. قد نبتسم لهذا اليوم بسخرية، لكنه كان يشغل حيّزًا كبيرًا في المخيّلة الدينية لبني إسرائيل القدماء. فقد أمر موسى: «وإذا كانت امرأة لها سيل، وكان سيلها دمًا، فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من مسّها يكون نجسًا إلى المساء. ... وكل من مسّ شيئًا تجلس عليه يكون نجسًا؛ يغسل ثيابه ويستحمّ بماء، ويكون نجسًا إلى المساء».[463] وهذا كان سيجعل النساء غير مناسبات لأن يكنّ كاهنات في وظيفة طقسية، ما لم توضع جداول المناوبة بحسب دوراتهن الشهرية المتقلّبة، وهي بالطبع فكرة بعيدة الاحتمال.[464]

ثانيًا، ربما كان وجود كاهنات سيثير ارتباطًا محتملًا بكاهنات الديانات الوثنية اللواتي جمعن بين البغاء والعبادة.[465]

460. Craig Blomberg, “Two Views of Women in Ministry”
461. لاويين 10: 11، ملاخي 2: 7
462. 1 تيموثاوس 3: 2
463. لاويين 15: 19، 22
464. والحمد لله أن يسوع جاء ليضع حدًّا لشرائع الطهارة هذه: تأمّلوا المعجزتين المتتاليتين، إقامة ابنة يايرس وشفاء المرأة نازفة الدم، اللتين صار فيهما يسوع، بحسب ناموس موسى، نجسًا بملامسته لهما. ففي كلتا الحالتين، يجعل يسوع النجس طاهرًا.
465. وهذا ما تحرّمه تثنية 23: 17 — فقد نهى الله إسرائيل مرارًا عن أن يبدو كأنه يتبع الممارسات الفاسدة للأمم المحيطة.

ثالثًا، كان على الكهنة أن يكونوا أقوياء جسديًّا. فقد كان عليهم أن يدافعوا جسديًّا عن الهيكل، وأن يقتلوا إن لزم الأمر كل من يدخله بغير حق؛[466] وكانوا طوال اليوم يقطّعون الحيوانات ويحملونها؛ وفي أول 300–400 سنة من وجود المقدس، كان على الكهنة أن يفكّوا المقدس كله بكل أثاثه ويحملوه من مكان إلى مكان مرةً بعد مرة. وبهذا المعنى، كان استبعاد النساء من الكهنوت في الهيكل قيدًا طبيعيًّا بقدر ما كان استبعاد النساء من جيش إسرائيل.

لكن هناك ما هو أكثر جوهرية يجب قوله عن محاولة استخدام ذكورية الكهنة سابقةً. فالناموس الطقسي لموسى هو الذي قضى بأن يكون الكهنة ذكورًا. وكما لاحظ يسوع نفسه،[467] لم تكن شرائع موسى ترسم مجتمعًا مثاليًّا، بل كانت تنازلات قُدّمت في مجتمع غير كامل. ولذلك فإن كون الكهنة رجالًا فقط (ومن سبط واحد فقط، كما ينبغي أن نلاحظ) لا وزن له في السؤال المطروح علينا عن القيادة في الكنيسة اليوم. لقد كانت قاعدة لثقافة مختلفة ولعهد مختلف. ونحن، مؤمني العهد الجديد، لسنا تحت ناموس موسى. ولم يكن لصيرورة المرء كاهنًا أي علاقة بمواهبه أو تقواه، بل فقط بولادته ذكرًا في سبط لاوي، وبحظّه في ألّا يكون فيه عيب جسدي، ولذلك فإن منصبهم ليس سلفًا للقيادة الروحية.

خلاصة القول، إن الصلة المزعومة بين كاهن العهد القديم وراعي العهد الجديد واهية جدًّا. فالدفاع الجسدي عن ممتلكات يختلف كثيرًا عن حراسة شعب روحيًّا وأخلاقيًّا:[468] فالأول يتعلّق بالقوة الجسدية، وهي أمر موجود في الذكور، أما الثاني فيتعلّق بالنضج الروحي والعمق العقائدي، وهما أمر غير مقصور على الذكور. وصحيح أن الكهنة، مثل الرعاة اليوم، علّموا كلمة الله في العهد القديم، لكن الأنبياء والملوك والآباء والأمهات — وهي أدوار شملت النساء — كانوا أيضًا مسؤولين عن تعليمها.[469]

466. عدد 18: 7

467. متى 19: 8

468. مؤخرًا حاول أحد اللاهوتيين التكامليين أن يقوّي هذه الحجة بأن يضيف إليها حراسة آدم للجنة. فهو يشير إلى أن آدم الذكر كان ينبغي أن يكون كاهن الجنة–الهيكل وحارسها، وأن الكهنة الذكور كان عليهم أن يحرسوا الهيكل المادي، ولذلك ينبغي للشيوخ الذكور أن يحرسوا الكنيسة–الهيكل. ومع أن هناك لاهوتيًّا صلة بين الجنة–الهيكل والهيكل المادي والكنيسة–الهيكل (فهي الأماكن التي يسكن فيها الله)، فإن النمط المزعوم يسقط من ثلاث نواحٍ. أولًا، يعطي الله حواء لآدم معينًا قويًّا لتشاركه في رعاية الجنة–الهيكل (تكوين 2: 18)، فتكون ذكورية آدم غير ذاتِ صلة. ثانيًا، بحسب العهد الجديد، ليس آدم سلفًا لرعاة الكنيسة، بل ليسوع، آدم الأخير (1 كورنثوس 15: 45)، ولكل الذين في المسيح أيضًا، ذكورًا وإناثًا، المدعوّين إلى أن يخدموا كهنةً في بيت الله (1 بطرس 2: 5). ثالثًا، آدم فوق الجنة التي يحرسها وليس جزءًا منها، وكذلك كهنة الهيكل، أما الرعاة فليسوا فوق الكنيسة–الهيكل بل جزء منها.

469. ثم إن الإشارات إلى تعليم لاوى وهارون (لا الكهنوت كله) لا تعنى أن كل كاهن كان معلّمًا.

والأهم من ذلك كله، بحسب بطرس وكاتب الرسالة إلى العبرانيين، أن الكهنة لم يكونوا أسلافًا للرعاة على الإطلاق، بل ليسوع الكاهن الكامل الذي يقدّم نفسه الذبيحة الكاملة،[470] ولجميع المؤمنين، ذكورًا وإناثًا، الذين هم «كهنوت مقدس، لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح».[471] ولا يربط العهد الجديد في أي موضع ربطًا مباشرًا بين الرعاة والكهنة. بل إن أحد الاكتشافات العظيمة للإصلاح البروتستانتي كان أن كهنة العهد القديم لا يقابلون رجال الدين في الكنيسة على الإطلاق، بل يقابلون جميع المؤمنين. فهل نسعى إلى هدم حجر زاوية من أحجار الإصلاح؟

وعودةً إلى الفكرة الرئيسية في هذا الفصل: إن هذه الأمثلة الساطعة لنساء قُدن رجالًا، وعملن بوصفهن ezer kenegdos لهم أو شريكات قويات، على الرغم من هيمنة الذكور التي كانت هي القاعدة في الشرق الأدنى القديم، هي ومضات مسبقة ليوم ستقف فيه النساء إلى جانب الرجال في شراكة كاملة في عمل الله. ونبوّة يوئيل عن رجال ونساء، وبنين وبنات يعملون بكامل قوة الروح،[472] تعبّر تعبيرًا جميلًا عن هذا الترقّب لنهوض أعظم للنساء في المستقبل ليحملن عباءات القيادة والوعظ. ولا ينبغي أن يكون هذا مفاجئًا: فلا شيء في العهد القديم يقوّض إمكانية أن يختار الله نساءً لوظائف قيادية وتعليمية قوية في المجتمع والكنيسة. بل إن الأمثلة الكثيرة لنساء اختارهن الله في الماضي الأبوي القديم ينبغي أن تجعلنا نتوقّع أنه، في اختياره للقادة في المستقبل، سيبقى لا يحابي الوجوه، وهذا يشمل ما إذا كانت صبغياتهم XX أو XY.[473]

وفي النهاية ستُرفع اللعنة كليًّا: فلن يسود آدم على حواء بعد، بل سيملكان جنبًا إلى جنب، وهذا، إن أردنا أن نكون أمناء لتعليم العهد القديم، هو مثال الله الأعلى المعلَن بوضوح في أول أصحاح منه.

470. عبرانيين 8-10
471. 1 بطرس 2: 5
472. يوئيل 2: 28-29
473. أو أيّ تنوّعات أخرى قد يُثبت العلم وجودها لدى ثنائيّي الجنس (intersex).



11

نساء مؤثّرات في الأناجيل

«تُظهر الأناجيل كلها أن تلميذات يسوع كنّ أول من أعلن رسالة قيامة يسوع، وهي محور الإنجيل في الكنيسة الأولى». ديفيد شولر[474]

والحمد لله أن الباحثين التكامليين يعترفون بأن يسوع رفع من شأن النساء. فهذا الجانب من خدمة يسوع، في النهاية، يدعم المبدأ التكاملي القائل إن النساء خُلقن بقيمة وكرامة مساويتين للرجال. لكن هؤلاء الباحثين يميلون بعد ذلك إلى تجاهل الطريقة التي لا يكشف بها يسوع في الأناجيل قيمة النساء فحسب، بل يُطلق أيضًا خدمة النساء، أو إلى التقليل من شأنها. وهذا خطأ. فالمسيحية في جوهرها هي أن نتعلّم أن نرى كل الأمور، بما فيها النساء والخدمة، كما يراها يسوع.

أما الجانب من خدمة يسوع الذي يتلهّف كل تكاملي إلى الإشارة إليه، فهو أن يسوع اختار رسلًا ذكورًا فقط. وكثيرًا ما يبدو أن هذا هو كل ما يلاحظونه في نظرة يسوع إلى خدمة النساء في الأناجيل. فيستنتجون أن يسوع يريد أن تخدم النساء، لكن لا أن يقُدن. وفي نهاية هذا الفصل سأبيّن خطأ معاملة الاثني عشر الذين اختارهم يسوع كأنهم قالب لكل قيادة مستقبلية في كنيسته. أما في معظم هذا الفصل فسأدحض الفكرة نفسها القائلة إن يسوع أيّد أن تكون وظائف الخدمة للذكور وحدهم. ومع أن الأناجيل تتناول في المقام الأول خدمة يسوع، فمن اللافت جدًّا كم من المساحة يعطيها كتّاب الأناجيل لإطلاق يسوع النساءَ في الخدمة، ووضعهن في الصدارة وفي قلب عمل الله من دون أي اعتبار على الإطلاق لإبقائهن ضمن أي نوع من «المجال» الملائم لجنسهن. وفي هذا الفصل سنستعرض بعض النساء اللواتي استخدمهن يسوع عاملاتٍ في ملكوته بطاقة عالية. فلنبدأ بأهمّهن.

474. www.fuller.edu/womeninministry/

مَن هو أول شخص في التاريخ سمع اسم يسوع؟ ومَن أول من سمع وآمن بأنه ابن الله الآتي ليخلّص العالم، والذي سيُطلق ملكوتًا يصير فيه الأصغر أعظم؟ ومَن أول من تسلّم في عصر العهد الجديد الرسالة التي يرسلها الله، وحلّ عليه روح الله بقوة؟ ومَن أول من وعظ (بل رنّم في الحقيقة) عظة عن يسوع وعن ملكوت نعمته الذي يقلب الموازين؟ ومَن أول من تألّم، وتحديدًا اضطُهد، من أجل إيمانه بابن الله؟ وإليكم دليلًا أخيرًا: هذا الشخص هو أيضًا أول من جاء يسوع ليسكن في داخله.

وبالطبع أنا أتحدّث عن مريم، أمّ ربّنا.

مريم الأم

مع أن مريم كانت فتاة مراهقة متدنّية المكانة في أرض خطرة ومحتلّة، فإن ترنيمتها تعلن كم هي مباركة، لأن الله «أنزل الأعزّاء عن الكراسي ورفع المتّضعين».[475] وإذ تثق بالله وتطيعه (لا رجلًا ولا عرفًا ثقافيًّا)، يمنحها قيمة لا يستطيع أي رجل أو ثقافة أن ينتزعها منها أبدًا.

ويتأمّل أوغسطينوس في الأهمية اللاهوتية لولادة مريم ابن الله: «إن الرب يسوع المسيح، الذي جاء ليحرّر البشر، رجالًا ونساءً معًا ممّن قُدّر لهم الخلاص، لم يستحِ من الطبيعة الذكرية، إذ أخذها على نفسه، ولا من الطبيعة الأنثوية، إذ وُلد من امرأة».[476] وتعلّق لوسي بيبيات على قول أوغسطينوس: «حين اختار الله أن يأتي إلى الأرض، اختار خفاء رحم امرأة. وحين اختار الله أن يتّخذ جسدًا، اختار أن يأخذ هذا الجسد من امرأة. ... فمن خلال رجل يُعلن الله نفسه لنا، ومن خلال امرأة يصنع الله الصلة بالبشرية».[477]

وبعد أن صار يسوع رجلًا بزمن طويل، تبقى مريم ناشطة في خدمتها له وفي استعدادها لأن تتألّم من أجله: «مَن غيرها يواجه يسوع ليخبره أن الخمر قد نفدت، أو أنه سيوقع نفسه في المتاعب إن استمرّ في إغضاب القادة الدينيين؟ ومَن غيرها يجوز في نفسها سيفٌ وهي تشهد الحارس يطعن جنب ابنها في تلك الجمعة العظيمة الأولى الرهيبة — إتمامًا لنبوّة قيلت لها حين كان يسوع مجرّد رضيع ملفوف بأمان في القماط؟»[478]

475. لوقا 1: 52
476. مقتبس في Thomas Oden, Classic Christianity: A Systematic Theology، ص. 266
477. Lucy Peppiatt, Rediscovering Scripture’s Vision for Women، الفصل 2.
478. Lucy Peppiatt, Rediscovering Scripture’s Vision for Women، الفصل 2.

مَن، بعد يسوع، صنع أكثر من غيره من أجل ملكوت الله؟ جوابي ليس إبراهيم، ولا موسى، ولا داود، ولا بولس. إنها مريم بلا منازع. وأشكّ في أنه كانت في تاريخ البشرية خدمة أعظم من أن تحمل امرأةٌ المسيّا في رحمها وتحفظه حيًّا مدة كافية حتى يقف على قدميه.

وليس ابنها وحده عظيمًا؛ فهي أيضًا قوية مهيبة: فنحن نميل إلى التفكير في تواضعها وهشاشتها، لكننا ننسى أنها قوة يُحسب لها حساب إلى حدّ أن يوحنا، الابن البديل الذي ترك يسوع أمّه في رعايته، يصوّرها نبويًّا وهي تنجو من صراع مع تنّين أحمر شيطاني وهي تلد.[479]

حنّة النبيّة

«وكانت نبيّة، حنّة، [وكانت] لا تفارق الهيكل، عابدةً بأصوام وطلبات ليلًا ونهارًا. وإذ تقدّمت إلى مريم ويوسف والطفل، في تلك الساعة عينها، شكرت الله».[480]

حنّة هي أول شخص يُدعى نبيًّا في عصر العهد الجديد. بل إنه ليس لدينا في الكتاب المقدس أي سجلّ لنبيّ أعلن كلمة الله طوال نصف الألفية الكاملة التي سبقت هذه اللحظة المقدسة. وبعد أن فقدت زوجها بعد سبع سنين فقط من الزواج، تقضي بقية حياتها في الهيكل. ومع مرور السنين يفسح شوقها إلى شريكها الراحل المجال لتوقٍ إلى مخلّص العالم. وفي يوم من الأيام، حين تصل مريم ويوسف إلى الهيكل ليقدّما طفلهما، تُعطى عينين تريانه، تريانه حقًّا. لقد انتهى الانتظار أخيرًا. وتتلاشى كل خيباتها وهي تنفجر في الحال بالتسبيح، وتتمّم خدمتها بأن تتكلّم «عن الطفل مع جميع [الذين] ينتظرون فداء أورشليم».[481]

وفي أروقة الهيكل، وهي غافلة على نحو رائع عن أي تعليم تكاملي يقول إنها غير مخوّلة أن تعلّم رجالًا مؤمنين في مكان ديني عام، تذكّر نساءً ورجالًا من أهل الإيمان بالوعود النبوية في الكتاب المقدس. فتعلن لهم الخبر السارّ عن الطفل الذي سيكون الملك المخلّص — وكل ذلك من دون زوج «يغطّيها» أو يقف إلى جانبها.

479. رؤيا 12: 1-6
480. لوقا 2: 36-37
481. لوقا 2: 38

المرأة عند البئر

إن سألتم أي قارئ للكتاب المقدس عن أول مسيحي أعلن يسوعَ مسيّا أمام جمع كبير من الناس بنجاح تبشيري عظيم، فعلى الأرجح سيقول إنه بطرس في يوم الخمسين. لكن كان هناك من سبقه إلى ذلك بسنوات.

في الفصل 5 تحدّثتُ عن انخراط يسوع في حوار لاهوتي فردي، وهو أطول حوار من هذا النوع مسجّل لدينا، مع المرأة السامرية. ودعوني أُبرز هنا أنها لا تصل فقط إلى الإيمان بأنه المسيّا؛ بل تصبح أيضًا أول مبشّرة تقود نهضة علنية من نوعٍ ما.

هذا تحوّل لافت في حياة إنسان. فحين يقدّم يسوع نفسه إليها بأن يطلب ماءً، لم تكن سوى نفس عطشى أخرى. وكانت أيضًا في أسفل سلّم المكانة في بلدتها. فعادةً كانت النساء يأتين إلى البئر في الصباح الباكر، ومع نساء أخريات، لكن ها هي — وحدها تمامًا وفي حرّ النهار — وهذا علامة على وصمتها في عيون النساء الأخريات، اللواتي ربما كنّ يذممنها لأنها دخلت في علاقات مع رجال كثيرين جدًّا وخرجت منها.

أما يسوع فيتحدّث معها. ويحاورها لاهوتيًّا. وفي أثناء ذلك تختبر تدريجيًّا إعلانه عن نفسه، فيما هي تكشف نفسها له. وحين يبلغ يسوع بالحديث ذروته قائلًا: «أنا هو المسيّا»، تأخذ جرعة مطهِّرة من الماء الحيّ، وتُلقي دلوها القديم، وتركض عائدة إلى البلدة لتقدّم للآخرين الماء نفسه الذي نالته هي للتوّ. يُقال لنا: «فتركت المرأة جرّتها ومضت إلى المدينة وقالت للناس: "هلمّوا انظروا إنسانًا قال لي كل ما فعلت. ألعلّ هذا هو المسيّا؟" فخرجوا من المدينة وأتوا إليه».[482]

والنتيجة أن «كثيرين ... آمنوا به بسبب كلام المرأة التي كانت تشهد». وبعد أن التقوا يسوع بأنفسهم، قالوا للمرأة: «إننا لسنا بعدُ بسبب كلامك نؤمن، لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة مخلّص العالم».[483] فهي ليست فقط أول شخص في التاريخ يسمع الكلمات «أنا هو المسيّا»، بل هي أيضًا الأولى، بعد حنّة، التي تذيع هذا الاكتشاف لكل من يصغي إليها، رجالًا كانوا أم نساء! واختيار يسوع لها وإكرامه إياها يعنيان أن هويتها المنبوذة تفسح المجال للمكانة الرفيعة بأن تكون مبشِّرة يسوع.

482. يوحنا 4: 28-30
483. يوحنا 4: 39-42

أما الباحثون الذين يقلّلون من شأن خدمتها التبشيرية — «لقد شاركت بشهادتها فحسب» — فيتجاهلون الحقائق: فقد ذهبت ووجدت الناس؛ واستخدمت الكلمات لتوجّه الناس إلى يسوع؛ وأعلنت أنه المسيّا، فكانت النتيجة أنهم آمنوا بيسوع. بل إن يسوع يستخدم مثالها الحيّ في تلك اللحظة في تعليم قصير عن التبشير لتلاميذه. فبعد أن يشبّه الجموع بحقل نضج للحصاد، يشير إليها قائلًا: «منذ الآن الحاصد ... يجمع ثمرًا للحياة الأبدية».[484] وتنتهي عظته فيما المبشّرة تصعد التلّ نحو يسوع وأصدقاؤها الجدد في إثرها. ربما «تعجّب» التلاميذ قبل ذلك «أنه يتكلّم مع امرأة»[485] (ع 27)، لكن كم كانوا أشدّ تعجّبًا حين رأوا خدمتها التبشيرية تنطلق في الحال على نحو فاق أيّ خدمة لهم في ذلك الوقت.

مرثا الشاهدة

حين نسمع اسم «مرثا»، يتذكّر كثيرون منّا كيف أخطأت في إحدى المرّات حين وبّخها يسوع لأنها فوّتت فرصة أن تتعلّم منه، إذ اختارت أن تكون مساعدته المنزلية بدلًا من أن تكون تلميذته. وكان خطؤها أنها أعدّت له وجبة مادية لم يطلبها قطّ، بينما كان هو يقدّم لأختها وجبة روحية.

لكن قليلين منّا يتذكّرون كيف أصابت إصابة باهرة في مناسبة أخرى، واستخدمها الله لتعلّم كل من يملك اليوم كتابًا مقدسًا. فإنجيل يوحنا، أكثر من الروايات الأخرى عن يسوع، يصوّر لقاءات يسوع الفردية بحيث يدرك كل شخص أمرًا محوريًّا عنه — فينفتح هذا الإعلان لنا نحن القرّاء أيضًا. فعلى سبيل المثال، اكتشاف المرأة عند البئر أن يسوع هو المسيّا يُعلَن الآن، من خلال إنجيل يوحنا، لأناس وأماكن أبعد بكثير من أهل بلدتها في القرن الأول. لكنها ليست الشاهدة الوحيدة ليسوع التي يُبرزها يوحنا في كتابته: فمرثا أيضًا تشهد بأمر حاسم عن يسوع.

ملاحظة سريعة قبل أن نصل إليها: يعرف معظم قرّاء الكتاب المقدس أهمية إقرارات الشهادة هذه في الأناجيل. وأشهرها حين يسأل يسوع تلاميذه: «وأنتم، مَن تقولون إني أنا؟» فيجيب بطرس: «أنت المسيّا».[486] بل إن قول بطرس يعمل كمفصل يربط النصف الأول من إنجيل مرقس (عن هوية يسوع) بالنصف الثاني (عن عزم يسوع على

484. يوحنا 4: 36
485. يوحنا 4: 27
486. مرقس 8: 29

أن يموت على الصليب من أجلنا). والأهم من ذلك أن إقرار بطرس هو صخرة الإعلان التي ستُبنى عليها الكنيسة.

ما يدركه قليلون هو أن يوحنا يستثمر إقرار مرثا بيسوع بالطريقة نفسها التي يستثمر بها مرقس إقرار بطرس. ففي يوحنا 11 نقرأ كيف يصل يسوع فيجد مرثا تبكي على أخيها الذي مات حديثًا. فيقول لها يسوع (وهذا هو الموضع الوحيد في الأناجيل الذي نجد فيه شيئًا كهذا): «أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا ... أتؤمنين بهذا؟»

«نعم يا سيد»، تجيب (وهنا يأتي إقرارها)، «أنا قد آمنت أنك أنت المسيّا ابن الله، الآتي إلى العالم».[487] ويدوّن يوحنا كلماتها للأجيال اللاحقة — وهكذا ببساطة، يصير ما تراه في يسوع وما تقوله عنه أساسًا راسخًا يستطيع ملايين من قرّاء إنجيل يوحنا أن يبنوا عليه حياتهم ومصيرهم الأبدي.

النساء في دائرة يسوع المقرّبة

تذكر الأناجيل بالاسم 23 شخصًا في الدائرة المقرّبة من تلاميذ يسوع. فهناك الاثنا عشر، ويوسف يسطس، ولعازر، ونيقوديموس، ويوسف الرامي. وما يدركه قليلون هو أن التلاميذ السبعة الباقين المذكورين بأسمائهم كلهم نساء: مريم أمّه، ومريم المجدلية، ومريم «الأخرى»، ومريم من بيت عنيا، ويونّا، وسوسنّة، وسالومة. خذوا على سبيل المثال هذا المقطع:

وكان يسوع يسير من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية، يكرز ويبشّر بملكوت الله. وكان معه الاثنا عشر، وبعض النساء اللواتي كنّ قد شُفين من أرواح شريرة وأمراض: مريم (التي تُدعى المجدلية) التي خرج منها سبعة شياطين؛ ويونّا امرأة خوزي وكيل بيت هيرودس؛ وسوسنّة؛ وأُخر كثيرات. وكانت هؤلاء النساء يساعدن في الإنفاق عليهم من أموالهن.[488]

يوحي هذا المقطع بأن ليسوع دائرة مقرّبة أوسع من الاثني عشر وحدهم، وكان كثيرون فيها نساءً. فبعد أن اختبرت هؤلاء النساء الجليليات لمسة يسوع المحرِّرة، انضممن إلى يسوع والاثني عشر من وقت إلى آخر، وقطعن الرحلة الشاقة جنوبًا إلى أورشليم.

487. يوحنا 11: 25-27
488. لوقا 8: 1-3

لقد اختار يسوع هؤلاء النساء تلميذاتٍ له، ورفيقاتٍ في الإرسالية، وداعماتٍ موّلن الإرسالية من أموالهن الخاصة. وفي الثقافة القديمة، كان قبول الدعم من محسن يعني أن يضع المرء نفسه في موقع التبعية والمديونية. ولهذا لا بد أن يسوع قد أكرم هؤلاء النساء إكرامًا كبيرًا.

في لوقا 10 يُقال لنا إن «الرب عيّن اثنين وسبعين آخرين أيضًا، وأرسلهم اثنين اثنين أمام وجهه إلى كل مدينة وموضع حيث كان هو مزمعًا أن يأتي». لاحظوا أن يسوع لم يجمع فقط الناس الذين كانوا على مسمع منه، بل اختار هذا الفريق الإرسالي اختيارًا خاصًّا ثم أعدّه. ومن المحتمل جدًّا أن كثيرات من النساء في دائرته المقرّبة، إن لم يكن كلهن، كنّ بين الأزواج الستة والثلاثين الذين أرسلهم يسوع في حملته الإرسالية الخاطفة عبر الموطن اليهودي.[489] وهكذا لا بد أن هؤلاء النساء — طاعةً لتعليمات يسوع — أعلنّ حضور ملكوت الله للبيوت والقرى المتقبّلة؛ وشجبن بشجاعة من رفضوا دعوة يسوع وملكه؛ وأظهرن قوته الملكية بإخراج الشياطين.

لكن بعض الباحثين يحتجّون بأن الفريق المتقدّم المؤلّف من 72 كان كله من الذكور، على أساس أن كلمة «آخرين» (باليونانية: heterous) مذكّرة. لكن هذا يسيء فهم الطريقة التي اعتاد بها المتكلّمون القدماء في اللغات المتمحورة حول الذكر أن يستخدموا صيغة المذكّر للكلمة لوصف جماعات مختلطة الجنس. (فالكلمة نفسها، على سبيل المثال، تُستخدم أيضًا لكل «العرج والعمي والشلّ والخرس وآخرين [heterous] كثيرين»[490] الذين طُرحوا عند قدمي يسوع ليُشفَوا — ولا شك في أن كثيرين من مرضى الشافي كانوا نساءً.)

ولاحقًا ستصبح كثيرات من هؤلاء النساء في دائرة يسوع المقرّبة الشاهدات الرئيسيات؛ وسيكنّ آخر تلاميذه مغادرةً للصليب في تلك الجمعة المأساوية؛ وأول من يصل إلى قبره في أحد الفصح. وإحدى هؤلاء النساء مكرّمة فوق الأخريات.

489. من غير المرجّح أن يكون يسوع قد وجد مجموعة أخرى من 72 من أكثر تلاميذه تكريسًا لا تضمّ معظم التلاميذ المذكورين بأسمائهم في الأناجيل أو كلهم. لكن السبب الذي يجعلني لا أجزم أكثر بوجود هؤلاء النساء بينهم هو أنه ربما، بالنسبة إلى يسوع الذي كان كثيرًا ما يتّبع نهجًا استراتيجيًّا في الإرسالية، كانت إسرائيل، بنظامها الأبوي الشديد، أكثر ميلًا إلى قبول الخدمة العلنية للرجال.

490. متى 15: 30

مريم المجدلية

لعلّكم أدركتم الآن أن في قلب الإنجيل المسيحي الادّعاء بأن يسوع، بحسب وقائع التاريخ، صُلب ودُفن وأُقيم من بين الأموات. فإن كانت لدينا أي شكوك في هذه الأحداث التاريخية، فلدينا شكوك في المسيحية نفسها.

والحمد لله أن يسوع حرص على أن يشهد كلَّ حدث من هذه الأحداث التاريخية الخطيرة — موته ودفنه وقيامته — أناسٌ كثيرون. لكن ما قد يفاجئكم هو أنه اختار النساء، في المقام الأول، شاهداتٍ على هذه الأحداث! بل إن مريم المجدلية وصديقاتها وحدهن شهدن هذه الأحداث الثلاثة كلها. فقد كنّ آخر من بقي عند الصليب، وبقين هناك طويلًا بعد أن هرب التلاميذ الرجال.[491] بل إن بعضهن ساعدن في دفنه.[492] وكنّ عند القبر عند أول ضوء يوم الأحد — يُقال لنا إن «الملاك قال للمرأتين: "لا تخافا أنتما، فإني أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب. ليس هو ههنا، لأنه قام ... اذهبا سريعًا قولا لتلاميذه: 'إنه قد قام من الأموات'"».[493] فكّروا في ما يعنيه هذا: لم يرَ أيّ رسول ذكر جسد يسوع يدخل القبر ثم يجده فارغًا بعد ثلاثة أيام. بل إن الله يأتمن مريم وصديقاتها على مهمة أن يشهدن كل هذه الأحداث وأن ينقلن ما رأينه. بل إن هؤلاء النساء، طوال جزء كبير من أحد الفصح الأول ذاك، كنّ الحاملات الوحيدات على كوكب الأرض لرسالة القيامة. فكّروا في ذلك — في هذه المرحلة الحرجة من تكشّف أعظم قصة في الكون، كانت صحة الإيمان المسيحي كلها بين أيدي هؤلاء النساء القليلات. يا لثقة الله بالنساء!

ومن بين هؤلاء النساء، منح يسوع مريم المجدلية أول لقاء فعلي به بوصفه الرب القائم: «فظنّت تلك أنه البستاني، فقالت له: "يا سيد، إن كنت أنت قد حملته فقل لي أين وضعته، وأنا آخذه"». وحين يناديها يسوع باسمها، تلتفت إليه وتصرخ بالآرامية: «ربّوني!» (الذي تفسيره: يا معلّم). ثم تذهب مريم إلى التلاميذ بالخبر المذهل: «قد رأيت الرب!»[494]

491. متى 27: 55-56؛ مرقس 15: 40-41
492. متى 27: 57-61؛ مرقس 15: 42-47؛ لوقا 23: 50-56
493. متى 28: 5-6
494. يوحنا 20: 15-18

لا بد أن نسأل: لماذا اختار يسوع النساء، مع أنه كان يعلم أن شهادة المرأة أقلّ مصداقية، إن لم تُرفض على الفور؟[495] ولماذا يفعل ذلك وهو يعلم أن التلاميذ الرجال أنفسهم على الأرجح لن يصدّقوهن؟ وهذا ما حدث بالمناسبة — إذ يروي لوقا أنه «تراءى كلامهنّ لهم كالهذيان، ولم يصدّقوهنّ».[496] وبالطبع، حين يلتقي الرجال يسوع بأنفسهم في وقت لاحق من ذلك اليوم، يدركون كم كان من الحماقة أن يشكّوا في رسالة النساء. وكون يسوع يوبّخهم لاحقًا توبيخًا صريحًا على إخفاقهم في الإصغاء إلى أخواتهم[497] يجعل الدرس الذي يحاول أن يعلّمنا إياه، نحن الرجال، أمرًا لا يقبل الشك، وذلك في بداية انطلاق الكنيسة في العالم: تعلّموا أن تقبلوا كلمة الله في أفواه أخواتكم. وكون يسوع ينسج هذه البصيرة الحاسمة في أهم يوم في التاريخ، وكون كتّاب الأناجيل يدوّنونها، يعني أنها درس ذو أولوية لا يجوز لنا نحن جماعات أتباع المسيح اللاحقة أن ننساه أبدًا.

وفي هذا الموضوع، ما أول كلمة خرجت من فم الرب القائم؟

إنها: «يا امرأة ...»

لا تفوّتوا هذا. يخبرنا إنجيل يوحنا أن يسوع أُقيم في «اليوم الأول»، وهي إشارة إلى الخليقة الجديدة. فيسوع يعيد تمثيل قصة آدم الذي يستيقظ من سباته العميق في الجنة ليجد حواء على الفور، فيبتهج بها ويدعوها «امرأة»، ثم لاحقًا «حواء ... أمّ كل حيّ». وهكذا تمثّل مريم المجدلية، في لحظة déjà vu هذه، كل النساء في عصر الخليقة الجديدة اللواتي ينبغي أن يُحتفى بهن مبشِّرات، يحملن الحياة إلى كل من يعلنّ له أن يسوع حيّ.

ربما أخفقت حواء في جنة الخليقة الأولى، حين حملت رسالة الشيطان المستعبِدة إلى آدم. لكن في جنة القبر الفارغ والخليقة الجديدة، تنقلب اللعنة — فابنة حواء تحمل الآن رسالة الله المحرِّرة إلى بني آدم. وهكذا ببساطة، يقتحم عالمٌ جديد كليًّا قلب هذا العالم القديم المكسور — حاملًا معه الإمكانية المجيدة أن تقف النساء كتفًا إلى كتف إلى جانب الرجال في الخطوط الأمامية لإرسالية الله. فيسوع القائم لا يعطي النساء أول خدمة حاسمة في الحقبة الجديدة لواقع القيامة فحسب، بل يكرّمهن أيضًا بمستوى جديد من المساواة ومن التأثير المحتمل في الخدمة. «إن رفع النساء إلى دور خدمي

495. فعلى سبيل المثال، كانت الشريعة الحاخامية اليهودية تعدّ شهادة مئة امرأة غير مساوية لشهادة رجل واحد.
496. لوقا 24: 11
497. مرقس 16: 14

هو علامة على الملكوت المقتحم، تُظهر أن النظام القديم قد انتهى وأن مجموعة جديدة من العلاقات قد بدأت».[498]

وتؤدّي مريم أيضًا دورًا رسوليًّا من نوعٍ ما. ففي الأصحاحات الأولى من سفر أعمال الرسل، صارت خدمة «الشاهد للقيامة» طريقة لتعيين الرسل.[499] فالرسل هم الذين التقوا يسوع القائم وأرسلهم ليخبروا الآخرين بالخبر السارّ. ولهذا دعا آباء الكنيسة مريم المجدلية بمحبة «رسولة الرسل». ويوافق ن. ت. رايت على ذلك: «إن كان الرسول شاهدًا [مُرسَلًا] للقيامة، فقد كانت هناك نساء استحققن هذا اللقب قبل أيّ من الرجال».[500] ولكي يكون الأمر واضحًا، فهي ليست، بالمعنى الدقيق، من الاثني عشر، لكنها تبدو، في تلك اللحظة على الأقل، جزءًا من دائرة أوسع من «المُرسَلين» الذين هم شهود لقيامة يسوع (وهذا ما تعنيه كلمة رسول).

نستنتج إذن: منذ اليوم الذي أشرقت فيه الخليقة الجديدة بمجيء يسوع، يتّضح أن رغبة الله هي أن يعلن الحقَّ عن يسوع لا الرجال فقط، بل النساء أيضًا. لا لغير المؤمنين فقط، ولا في الخفاء فقط، ولا للنساء فقط، بل أيضًا (خلافًا للتعليم التكاملي) لكل من له أذنان للسمع — للنساء والرجال، ولغير المؤمنين والمؤمنين، في الخفاء وفي العلن.

لماذا كان الرسل ذكورًا فقط؟

ومن التبريرات الأخرى التي يقدّمها الباحثون التكامليون لاستبعاد النساء من فرق القيادة العليا في الكنائس المعاصرة أن يسوع، مع أنه أكرم دور النساء في عمل الله، استبعدهن مع ذلك حين اختار رسله الاثني عشر. وإنصافًا، لا يعطي كل التكامليين هذا الأمر وزنًا كبيرًا: «لن نحتجّ بأنه لمجرّد أن يسوع اختار اثني عشر رجلًا ليكونوا رسله، فلا بد أن يسوع كان يفضّل أن يكون شيوخ الكنيسة رجالًا فقط»،[501] كما يكتب بايبر وغرودم. ومع ذلك، يستخدمه كثيرون حجةً جوهرية. والذين قرأتُ لهم ممّن يطرحون هذه القضية يستخدمون إلى حدّ بعيد المنطق الأساسي نفسه، وسأحاول أن أختزله باحترام إلى جوهره:

498. Grant Osborne, Women in Jesus' Ministry، ص. 289-90.
499. أعمال الرسل 1: 22؛ 2: 32
500. www.bit.ly/3k5tah6
501. Recovering Biblical Manhood and Womanhood، ص. 62

هناك سببان محتملان لاختيار يسوع رجالًا فقط رسلًا، سيقودون لاحقًا كنيسة أورشليم. الأول أنه كان يحافظ على الأعراف الاجتماعية في ثقافة أبوية. والبديل أنه كان يقدّم للكنيسة المستقبلية نموذجًا لمبدأ قيادة شعب الله بالذكور وحدهم. ونحن نعلم أن يسوع لم يجد أي مشكلة في قلب الأعراف الاجتماعية (فكّروا في حديثه مع امرأة على انفراد، أو في خدمته يوم السبت)، وهذا يعني أنه لا بد أن يكون السبب الثاني. ولذلك، اتّباعًا لممارسة يسوع، ينبغي أن يخدم الرجال وحدهم في فرق القيادة الرعوية في الكنائس.

للوهلة الأولى يبدو هذا التعليل مقنعًا. لكنه عند التحليل الدقيق يتهاوى ويصير غبارًا.

بدايةً، قد نسأل لماذا يركّز الباحثون التكامليون على ذكورية الرسل وحدها. هل يمكننا حقًّا أن نقول إن نمط يسوع في اختيار الرسل ينبغي أن يحدّد نمط كل كنيسة محلية في نوع الرعاة أو الشيوخ الذين تختارهم؟ لقد اختار يسوع اثني عشر. فهل ينبغي أن يكون لكل الكنائس اثنا عشر؟ واختار يهودًا لا أممًا؛ فهل ينبغي أن تحذو كل الكنائس حذوه؟ واختار يسوع رجالًا أحرارًا لا عبيدًا؛ فهل ينبغي أن نمنع أدوار القيادة عن الفقراء؟ وكانوا شبابًا؛ فماذا ينبغي أن تفعل الكنائس في هذا، لأننا هنا نصطدم بعقبة: فكلمة «شيخ» تعني شخصًا مسنًّا؟ والمشكلة التي تثيرها هذه الأسئلة هي أننا إن أخذنا اختيار يسوع لاثني عشر رجلًا يهوديًّا قالبًا حرفيًّا لكل اختيار لاحق للرعاة أو الشيوخ، فعلينا أن نستنتج أيضًا أن يسوع ليس متحيّزًا جنسيًّا فقط، بل متحيّز عرقيًّا أيضًا (يهود لا أمم) وطبقيًّا (أحرار لا عبيد). والأرجح أن اختياره لاثني عشر شخصًا خدم غاية محدّدة ولحظة محدّدة في تاريخ الفداء.

إن نقطة الضعف الأساسية في الحجة التكاملية هي أنه لا يوجد سببان فقط لاختيار يسوع رجالًا — بل هناك في الواقع سبب رمزي واضح جدًّا، وربما أيضًا بعض الأسباب الاستراتيجية، لاستبعاد النساء من الاثني عشر.

تأمّلوا أولًا السبب الرمزي. كان يسوع يستخدم ببراعة أعمالًا رمزية ليتمّم صور العهد القديم ووعوده عن المسيّا الآتي. فعلى سبيل المثال، يصعد يسوع إلى جبل ليعلّم أتباعه، ويُطعم الجمع خبزًا. وبذلك يُظهر نفسه موسى الحقيقي، الذي تسلّم الناموس على جبل وقاد شعب الله لينالوا خبزًا من السماء. وحين يدخل يسوع العاصمة راكبًا على حمار، يتمّم نبوّة زكريا عن المسيّا الوديع الذي يأتي، بعيدًا عن الأضواء، ليُهلك أعداءه المتكبّرين. وحين يقلب الموائد في الهيكل، يعبّر بالصورة عن أن الله يهدّد بتطهير فساد عبادة إسرائيل. وتوقيت موته ومكانه غنيّان بالرموز أيضًا — فقد كان

يمكن أن يُصلب في أي يوم وفي أي مكان، لكنه يموت في عيد الفصح في المدينة نفسها التي تُذبح فيها آلاف الحملان إحياءً لذكرى إنقاذ الله السابق لشعبه من الطغيان والعبودية.

والآن إلى ما أريد قوله: ربما كان اختيار يسوع لاثني عشر رجلًا يهوديًّا أبرز أعماله الرمزية على الإطلاق، وهو عمل كان العارفون بالكتب المقدسة العبرية سيدركونه حتى لو فاتنا نحن المعاصرين. فباختياره اثني عشر رجلًا يهوديًّا حرًّا، يُظهر ليهود ذلك الزمان أنه يعيد تكوين شعب الله المتصدّع والساقط تحت قيادته. وبحسب تفسير يسوع الصريح،[502] فهم يرمزون إلى إسرائيل الجديد، أو أسباط إسرائيل الاثني عشر، وتحديدًا إلى أبناء يعقوب الاثني عشر الذين تنحدر منهم الأمة كلها. وليس من قبيل المصادفة أيضًا أن يسوع يعلن دور الاثني عشر قضاةً لإسرائيل في أثناء عشائه الأخير[503] — وهو حدث مشحون بالرموز إن كان هناك حدث كذلك.

خلاصة القول، إن ما أراد يسوع أن تدركه إسرائيل هو أن فريقه الصغير من اثني عشر تلميذًا يهوديًّا ذكرًا كان طليعة شعب الله في مرحلته المسيّانية. فاختياره رسلًا ذكورًا يتوافق مع اختياره أن يكونوا اثني عشر، وأن يكونوا أيضًا يهودًا وأن يكونوا أحرارًا.[504] فهو لا يقول شيئًا على الإطلاق عن أي فريق قيادي سيقود لاحقًا أيّ كنيسة محلية تنشأ. بل إن يسوع، في إشارته الوحيدة إلى الكنيسة المحلية، يُبرز السلطة الروحية الممنوحة للجماعة كلها لا لبضعة قادة فقط.[505]

ومن منظورنا اللاحق، ربما كنا نفضّل لو أن يسوع نوّع فريقه قليلًا أكثر، لكن علينا أن نقبل أن الأهمية الرمزية لم تكن بالدرجة الأولى من أجل الأمم (مثل معظمنا نحن الذين ستصلنا البشارة لاحقًا في سائر العالم)، بل من أجل حقل إرسالية يسوع الأصلي — اليهود، الذين شكّل الكتاب المقدس العبري نظرتهم إلى العالم تشكيلًا تامًّا. ربما كنا نفضّل أن يدعو يسوع ستة رجال وست نساء، أو ستة يهود وستة من الأمم، أو ستة

502. في متى 19: 28 ولوقا 22: 30
503. لوقا 22: 14-30
504. يشرح مايكل بيرد في «Evangelical Theology» أهمية الناس الذين استهدفهم يسوع في البداية في إرساليته — أي اليهود في إسرائيل: «كان العدد 12 رمزًا لأسباط إسرائيل الاثني عشر. لكن الجميع في إسرائيل كانوا يعلمون أن اتحاد الأسباط اليهودي قد زال منذ زمن بعيد. فقد سبى الأشوريون الأسباط العشرة الشمالية في القرن الثامن، وذهب السبطان الباقيان إلى بابل في القرن السادس، ولم ترجع إلى اليهودية إلا بقية. وكان من أكبر الآمال أنه حين يشرق عصر الخلاص، سيرافقه اجتماع الأسباط الاثني عشر معًا من جديد في مملكة يهودية متجدّدة (مثلًا إشعياء 34: 10؛ 43: 5؛ 56: 8). وباختياره 12 تلميذًا ... كان يسوع يقول في الواقع إن استعادة إسرائيل قد بدأت الآن حوله وحول أتباعه الاثني عشر. لقد كانوا طليعة إسرائيل الجديد. ولهذا اختار يسوع 12 تلميذًا ليملكوا على أمة متجدّدة (متى 19: 28/لوقا 22: 30)، ولهذا ركّز خدمته على إسرائيل وحدها (متى 10: 5-6؛ 15: 24)، ولهذا أعلن أن كثيرين سيأتون قريبًا من المشارق والمغارب ليشتركوا في هذا الحدث العظيم (متى 8: 10-12/لوقا 13: 28-30)».
505. متى 18: 17

مسنّين وستة شبّان، أو ستة عبيد وستة أحرار، لكن الرمزية كانت ستضيع كليًّا على من قُصدت لهم.

ولعلّ أعظم دليل على أن يسوع كان مهتمًّا بالرمزية، لا بإعداد قادة المستقبل فقط، هو أن معظم الاثني عشر يتوارون عن الخدمة البارزة بعد سنوات قليلة فقط. صحيح أن بطرس ويوحنا ويعقوب يظلّون قادة بارزين في سفر أعمال الرسل، لكن بقية الرسل لا تُذكر أسماؤهم مرة أخرى أبدًا. ومن البراهين الأخرى على أولوية الرمزية أن بطرس كان شديد الحرص على إيجاد بديل ليهوذا في أعمال الرسل 1. لا لأنه يظن أن 11 شخصًا لا يستطيعون أن يقوموا بالعمل الذي يستطيعه 12. بل لأنه يعلم أن من المهم أن يقف اثنا عشر رجلًا أمام أورشليم ليدعوها إلى مسيّاها. ولهذا يُقال لنا، في العظة الافتتاحية للكنيسة أمام المدينة، إن «بطرس وقف مع الأحد عشر»[506] وهو يعلن الإنجيل. ولو كان «وقف بطرس مع العشرة»، لضاعت الرسالة الرمزية — البالغة الأهمية عند يسوع.

في البداية عمل بطرس والأحد عشر فريقًا قياديًّا لكنيسة أورشليم، لكنهم أدركوا أيضًا أن عملهم هو أن يعلنوا الإنجيل لليهود بوصفهم طليعة إسرائيل الجديد، أكثر من أن يخدموا رعاةً للكنيسة الجديدة. ولهذا، حين ازداد عبء عملهم ليشمل معالجة التحدّيات الرعوية، سمحوا للكنيسة أن تختار سبعة قادة يعملون معًا فريقًا في قيادة الكنيسة.[507] ويتأكّد هذا العزم على التحرّر من الجوانب العملية للقيادة الرعوية بحقيقة أن الشيوخ، لا الرسل، صاروا بعد مدة يقودون كنيسة أورشليم. ولاحظوا أن سفر أعمال الرسل واضح في أن الاثني عشر جماعة متميّزة عن هؤلاء الشيوخ اللاحقين.[508] فيتساءل المرء إذن، ما دام الاثنا عشر متميّزين هكذا عن الشيوخ، لماذا يستخدم الباحثون التكامليون ذكورية الرسل حجةً لذكورية الشيوخ.[509]

ومع بدء انتشار الإنجيل خارج إسرائيل، يقيم الله دائرة أوسع من الرسل تتجاوز الاثني عشر، منهم بولس وبرنابا وسيلا. ولم تعد هذه الجماعة الأكبر تحمل الرسالة الرمزية الكامنة في الاثني عشر. فلا عجب إذن أن تكون امرأة، يونيا، من بين عددهم.[510] (المزيد عنها في الفصل التالي.)

506. أعمال الرسل 2: 14
507. أعمال الرسل 6: 1-6
508. انظروا أعمال الرسل 11: 30؛ 15: 2
509. بل إن يسوع لا يقول شيئًا على الإطلاق عن شيوخ الكنائس المستقبلية. والشيوخ الوحيدون الذين تحدّث عنهم، وتحدّث عنهم كثيرًا، هم شيوخ أورشليم الأشرار الذين سيصلبونه في النهاية.
510. رومية 16: 7

وبعيدًا عن الرمزية، ربما كانت هناك أسباب استراتيجية محتملة لاختيار يسوع ذكورًا فقط لفريقه المؤلّف من اثني عشر. فمع أن يسوع لم يمانع في كسر الأعراف الاجتماعية أحيانًا، فهذا لا يعني أنه فعل ذلك عشوائيًّا. فكثيرًا ما كان يسوع استراتيجيًّا في مساعيه — على سبيل المثال، في إعطائه ما لقيصر لقيصر؛[511] وفي اختياره التقليل من الاعتراف العلني بمسيّانيته في المراحل الأولى من خدمته؛ وفي تخطيطه للتوسّع الجغرافي للكنيسة في إرساليتها مرحلةً بعد مرحلة.[512] ربما كان يسوع نفسه بسيطًا كالحمامة، لكنه، إذ عمل بما علّم به، كان أيضًا «حكيمًا كالحيّات»، ومن ثم غير ساذج، وعمليّ التفكير، واستراتيجيًّا.

وبما أن أولوية يسوع الإرسالية كانت الوصول إلى إسرائيل أولًا،[513] فقد كان على الأرجح أكثر حكمة من الناحية الاستراتيجية أن يختار يهودًا لا أممًا رسلًا له، وهذا ما فعله. فاختياره رجالًا يهودًا فقط يتلاءم أكثر مع أولوياته المباشرة في الوصول إلى إسرائيل. ثم إن إسرائيل، بنظامها الأبوي الشديد، كانت أكثر ميلًا إلى قبول الخدمة العلنية للرجال. ولو كانت النساء هنّ القائدات الرئيسيات العلنيات للحركة، لكان ذلك على الأرجح سيلقي شكًّا لا داعي له على مصداقية الحركة الجديدة ورسالتها في عالم أبوي إلى حدّ كبير. (فكّروا كم قاوم تلاميذ يسوع شهادة امرأة في يوم قيامة يسوع — فكم بالحري سيكون نفور الذين لم يتبعوا يسوع؟) ولهذا السبب، فإن الشهود العلنيين الرئيسيين للقيامة في سفر أعمال الرسل هم الرسل الذكور.

لا يمكننا أن نجزم، لكن هناك أسبابًا عملية أخرى ربما جعلت يسوع يختار رجالًا: فيسوع، حين دعا تلاميذ صاروا يدعونه «رابّي»، كان يستخدم عن قصد المؤسسة اليهودية لتلمذة الرابّيين، وكانت هذه المؤسسة مقتصرة على الذكور. كذلك كانت الرسولية في بدايتها تعني أن يترك المرء عائلته من أجل الرسالة، وأن يتوقّع الاستشهاد على الأرجح، وهو أمر ربما لم يُرد يسوع أن يطلبه من الأمهات.[514]

511. مرقس 12: 17

512. أعمال الرسل 1: 8

513. انظروا متى 10: 5-6؛ 15: 24.

514. على سبيل المثال، في لوقا 14: 26 لا يُذكر ترك الأزواج، بل الزوجات والأولاد فقط، وكان يسوع يعلم أن الرسولية ستؤدّي على الأرجح إلى الاستشهاد (فبحسب التقليد الكنسي، استُشهد أحد عشر من الرسل الاثني عشر). ومع أن نساءً كنّ يسافرن معه من حين إلى آخر في بعض رحلاته الخدمية (لوقا 8: 1-3)، فربما رأى يسوع أن من المبالغة أن يطلب من الأمهات، اللواتي كنّ في تلك الثقافة المسؤولات الأساسيات عن تربية الأطفال، أن يتركن أولادهن نهائيًّا ويسافرن معه. كان يسوع يعلم أن بعض رسله سيسافرون في النهاية إلى ما هو أبعد كثيرًا من إسرائيل. وفي العالم القديم كان تنقّل النساء أندر بكثير. فقد كنّ أكثر عرضة للخطر، كما كنّ مرتبطات أكثر بكثير بالمسؤوليات المنزلية وتربية الأطفال في البيت. فليس من المستغرب إذن أنه لا توجد سوى أربع نساء مذكورات بالاسم نعلم يقينًا أنهن سافرن في الجزء الذي يلي القيامة من العهد الجديد: زوجة بطرس، في مرحلة لاحقة من خدمته (هل كان الأولاد قد كبروا؟)، وفيبي، وهي مُحسِنة ثرية كان بإمكانها بلا شك أن تتحمّل كلفة حرّاس شخصيين، ويونيا وبريسكلا، اللتان سافرت كلٌّ منهما مع زوجها (ولا يُذكر أولاد). والمثير للاهتمام أن يوحنا الذهبي

وفوق ذلك، لا ينبغي أن نجعل أمرًا مطلقًا ما لا نستطيع في أحسن الأحوال إلا أن نستنتجه من ممارسة يسوع. لم يقل يسوع شيئًا على الإطلاق عن جنس الأشخاص الذين سيقودون لاحقًا الكنيسة التي كان يبنيها. بل إن تعليمه الصريح عن القيادة في الكنيسة، الذي صار أساسًا تقوم عليه أولويات القيادة الرعوية في الكنائس، ركّز على تبنّي روح الخدمة بوصفها أساس قيادتهم ومحورها.[515] وقد أعطى أيضًا أولوية واضحة للكرازة بالإنجيل وتلمذة أناس «يحفظون كل ما أوصاهم به»[516] — لكن انظروا: لا تقتصر أيٌّ من هاتين الوظيفتين الخدميتين على الذكور، كما أنها لا تقتصر على الاثني عشر الأوائل.

إن إقحام أفكار واستنتاجات في اختيار يسوع للاثني عشر لا يتّفق مع الطريقة القوية التي أطلق بها النساء للخدمة. كما أنه يقوم على قراءة غير متّسقة للنص (قراءة تختار أن تتجاهل كل الصفات الأخرى الملازمة للاثني عشر ما عدا جنسهم). كان يسوع مناصرًا للنساء مناصرةً جذرية، ومناصرًا لخدمة النساء، أكثر بكثير من أي شخصية عامة سبقته في التاريخ. لقد هدم بصورة منهجية النظام الأبوي الذي قصّ أجنحة أخواته، وفتح لهن الأبواب لدخول أدوار كانت حكرًا على الرجال، إن كانت الرسالة تقودهن إلى هناك. ولذلك يخطئ التكامليون حين يستنتجون من الصمت سببًا لاستبعاده النساء من الاثني عشر، سببًا لم يصرّح به يسوع قط ولم يُلمّح إليه. ومدُّ هذا النوع من الاستبعاد لمنع النساء من القيادة في كل زمان يناقض مناقضةً صارخة ممارسة يسوع، الذي كثيرًا ما تحدّى الأعراف الأبوية بإطلاقه النساء في الخدمة دون أدنى اكتراث بمجالات مخصّصة لكل جنس.

النساء أولًا

مع أن اختيار يسوع لاثني عشر رجلًا، إذا أُخذ وحده، لا يمكن أن يُستخدم سندًا لقيادة المرأة، فإنه لا يمكن أيضًا أن يُستخدم حجّةً ضد قيادة المرأة، متى اكتشف المرء سبب اختياره اثني عشر رجلًا يهوديًّا، واكتشف أيضًا الطريقة التي أطلق بها يسوع النساء للخدمة دون أي اعتبار للقيود الخاصة بكل جنس التي كانت قائمة في إسرائيل في القرن الأول.

في عالمٍ كان يضع النساء دائمًا في المرتبة الأخيرة، كثيرًا ما وضعهن يسوع في المرتبة الأولى. فامرأةٌ كانت أول من سمع بتجسّده وبشّر بالإنجيل؛[517] وأول من اهتدى من

515. مرقس 10: 42-45
516. متى 28: 19
517. لوقا 1: 32-35

السامريين وأول من بشّر علنًا بينهم؛[518] وأول من اهتدى من الأمم؛[519] وأول من نال إعلانًا عن يسوع بأنه «القيامة والحياة»؛[520] وأول من أدرك مركزية الصليب في رسالة يسوع؛[521] وأول من شهد قيامة يسوع.[522] يُكثر الباحثون التكامليون من الكلام عن أن «آدم جُبل أولًا ثم حواء»، إذ يخلطون خطأً بين أن يأتي المرء أولًا وأن يكون هو القائد الشرعي — غير أني أتساءل ماذا يقولون في كل هذه الأوّليات.

ومع ذلك عاملت الكنيسة على مدى قرون إخوةَ الأسد الذي من سبط يهوذا كأسود، بينما روّضت أخواته حتى صيّرتهن قططًا صغيرة. ورغم تقليد طويل ومحزن لم يُعتبر فيه أهلًا للسلطان إلا الرجال، فإن عالمنا وكنيستنا يحتاجان إلى الرجال والنساء المسيحيين على السواء ليمارسوا السلطة في الخدمة.

في عالمٍ يقمع النساء، كانت معاملة يسوع للنساء وإشراكه إياهن تقدّميةً إلى حدٍّ مذهل، حتى إنه لا معنى عندي أن يدعونا يسوع الآن إلى التراجع — في زمنٍ من تاريخ العالم صارت فيه مواهب النساء في القيادة والتعليم تُكرَّم أخيرًا وتُطلَق مساويةً لمواهب الرجال.

ثم إن تكريم يسوع لهوية المرأة وخدمتها هو أحد الأسباب الجذرية الكبرى لما يشهده المجتمع اليوم من رفعٍ لشأن المرأة وتحريرٍ لها. وأرى أن على المسيحيين أن ينسبوا هذا إلى أنفسهم بوصفه الأثر البعيد المدى لإنجيلهم في المجتمع، لا أن يقاوموه استنادًا إلى الحجج المعيبة التي يقدّمها التكامليون، مهما كثر عددها. بل إن النظر إلى النساء بعيون هذه الحجج إخفاقٌ في رؤية النساء كما رآهن يسوع.

والحقّ أنه إخفاق أيضًا في رؤيتهن كما رآهن كثيرون في الكنائس الأولى.

518. يوحنا 4: 7-42
519. متى 15: 21-28
520. يوحنا 11: 23-27
521. متى 26: 7-11
522. يوحنا 20: 16



12

نساء مؤثّرات في الكنيسة الأولى

«بينما ينقسم المؤمنون المعاصرون حول رسامة النساء، وتعليم النساء للرجال، وما شابه ذلك، [يوحي الأصحاح 16 من رسالة رومية] بأن مثل هذه الاعتراضات كانت ستحيّر بولس ... [الذي] لا يجد أي مشكلة في أن تكون النساء معلّمات أو قائدات أو مناديات بالبشارة السارّة أو مُرسَلات لها. هل مارست النساء في فترة العهد الجديد خدماتٍ ستُسمّى لاحقًا مناصب كنسية؟ تشير الأدلة كلها إلى أن الجواب هو نعم.»
ويليام ويت[523]

سرير بروكرست

هل سمعتم عن بروكرست (Procrustes)؟ تقول الأسطورة اليونانية إنه كان يستضيف المسافرين المتعبين، ويدعهم ينامون على سرير في بيته. وبينما هم نيام، كان إمّا يمطّ أطرافهم وإمّا يقطع أقدامهم حتى تلائم أجسامهم سريره تمامًا. ومن هنا نشأ تعبير في مجال الجدل يُسمّى سرير بروكرست، وفيه يتبنّى المرء رأيًا في مسألة ما، ثم يُكره هذا الرأي على التوافق مع مصادر معلومات أخرى هي في الواقع تدحضه. ويفعل ذلك بأن يُقحم في هذه المصادر أفكارًا ليست فيها — إمّا بمطّها وإمّا بقطع جوانب منها.[524]

وأنا أدرس الحجج التكاملية المضادّة للروايات الكتابية عن النساء الخادمات في العهد القديم والأناجيل وبقية العهد الجديد، أدهشني كيف يسعى الباحثون التكامليون بلا كلل إلى التقليل من دور نساء مثل مريم وخلدة ودبورة ومريم المجدلية وفيبي وبريسكلا ويونيا ومن إسهامهن. وبالطبع هم يفعلون ذلك لسبب. في رأيي، قراءتهم للنص في 1

523. William Witt, Icons of Christ, ص. 99
524. يُسمّى هذا عادةً «مغالطة التذرّع الخاص» (special pleading)، وفيها، بدلًا من الاعتراف بأن اعتقادًا سابقًا تتحدّاه بحقّ معطياتٌ معارضة، يحاول المرء «إبطال هذه المعطيات بالتأويل».

تيموثاوس 2: 12 هي سرير بروكرست لكل النساء في الخدمة. فبإساءة قراءتهم له على أنه يقول: «لست آذن للنساء المسيحيات أن يعلّمن بسلطان أو يمارسن سلطة رعوية على الرجال المسيحيين»، يستخدمونه لا لتقييد خدمة النساء اليوم فحسب، بل لتقييد خدمة كل امرأة في الكتاب المقدس وإعادة صياغتها. الأمر الوحيد الذي لا يحتمله التكامليون هو امرأة مؤمنة في زمن الكتاب المقدس تفعل بالضبط ما يقول تفسيرهم إنها لا تستطيع فعله: أن يستخدمها الله لتقود رجلًا أو تعلّمه روحيًّا. فقبل أن تُفحص الأدلة الكتابية فحصًا لائقًا، يكون التكاملي قد قرّر سلفًا أن دبورة لا يمكن أن تكون القائدة العلنية لشعب الله، أو أن بريسكلا (كما سنرى في هذا الفصل) لا يمكن أن تكون قد رعت كنائس وعلّمتها إلى جانب زوجها، أو أن يونيا لا يمكن أن تكون حقًّا رسولةً رائدة، بل ومتميّزة أيضًا.

وفي دراستي الشخصية لهؤلاء النساء الكتابيات ولغيرهن، لم أستطع أن «أراهن» حقًّا إلا حين أدركت أن المشكلة لم تكن في حجم خدمتهن، بل في الحجم الاعتباطي للسرير الذي هو التفسير التكاملي لـ 1 تيموثاوس 2: 12. فهذا ما يدفع الباحثين التكامليين إلى استنتاجات من كل نوع «تُبطل بالتأويل» المعطيات الكتابية المتاحة لنا. فعلى سبيل المثال، اسمعوا خلاصة كيفن دي يونغ لخدمة بريسكلا: «ربما كانت متعلّمة وحكيمة وذات نفوذ، ولكن لا يوجد ما يدل على أنها مارست سلطة تعليمية على الرجال».[525]

مهما يكن ما يقوله الأصحاح الثاني من 1 تيموثاوس، علينا أن نفسّره في ضوء بقية الكتاب المقدس، وهذا يعني أن نأخذ بجدّية «القوس الفدائي للقانون الكتابي، ومسار خدمة يسوع، وصورة حياة الكنيسة الأولى التي نالها من بولس نفسه».[526]

كان جزء مما دفعني إلى كتابة هذا الكتاب أنني أردت أن أدافع عن مواهب القيادة والتعليم المشروعة لدى أخواتي في كنائس اليوم والغد. ولكن بينما كنت أدرس كيف يقتطع الباحثون التكامليون من مواهب القيادة والتعليم لدى النساء في الكتاب المقدس، وجدت نفسي مدفوعًا إلى الدفاع عن أخواتي في الكتاب المقدس أيضًا.

هل علينا أن نصدّق أن بريسكلا، وهي تعلّم رجلًا، كانت تحرص على أن تكون تحت غطاء زوجها، أو أن ذلك كان يحدث على انفراد وخارج أي اجتماع مسيحي رسمي، أو أنها لم تتكلّم بأي سلطان عقائدي، بل وجّهته إلى الرعاة الذكور في الكنيسة الذين هم

525. المصدر: www.bit.ly/3nXd763
526. هذا ما تقوله إيمى إتيكسون (Amy Etikson). المصدر: www.bit.ly/2ZQo0Pj (ص. 61)

أدرى؟ هل علينا أن نصدّق أن دبورة قادت بطريقة تضمن أن تبقى قيادتها خاصة، أو أن تبقى منضويةً تحت باراق، الذي كان اختيار الله الحقيقي للقيادة؟ كلا، فالقراءة المباشرة للمقاطع التي تصف خدمات بريسكلا ودبورة وغيرهما تُظهر أنهن إمّا كنّ في حالة خطيّة من عدم الانسجام مع ما يُسمّى التفضيل التكاملي لدى الله، وإمّا — وهذا أرجح بكثير — أن هؤلاء النساء الكتابيات لم يكنّ يعلمن البتة بأي قاعدة إلهية تقضي بألا تعلّم المرأة رجلًا أو تقوده روحيًّا.

ألا توجد راعيات؟

اقرأوا سفر أعمال الرسل، ولا بد أن تلاحظوا الإشارات المتعددة إلى نساء كنّ من أبرز المهتدين في كل مرحلة من مراحل انتشار الإنجيل في أورشليم، ثم في السامرة، ثم في المدن الأوروبية واحدةً تلو الأخرى: فيلبي وتسالونيكي وبيرية وأثينا وكورنثوس.[527] غير أن لوقا يروي قصة هذه الكنائس الأولى بطريقة تركّز أولًا على خدمة بطرس، قائد الاثني عشر (في أعمال 1-12)، ثم على بولس، الأكثر نجاحًا في الدائرة الأوسع من الرسل (في أعمال 13-28)، مع اهتمام ثانوي باستفانوس وفيلبس وبرنابا مثلًا؛ ولهذا يميل معظم قرّاء الكتاب المقدس العابرين إلى عدم ملاحظة أدوار الخدمة القوية التي أدّاها آخرون، ومنهم نساء كثيرات.

الباحثون التكامليون يدركون على الأقل معظم إسهامات النساء هذه — أمّا ما يركّزون عليه بدلًا من ذلك فهو أن أيًّا من هؤلاء النساء لم تُسمَّ صراحةً من الشيوخ أو الرعاة في الكنائس. ويقولون إنه مهما بلغ ما فعلته هؤلاء النساء في تقدّم الإنجيل ونموّ الكنيسة، فإنهن لم يمارسن سلطة رعوية أو تعليمية عليا في كنيسة. أو بكلماتهم هم، وإليكم عبارة شراينر البروكرستية: «كانت خدمة النساء في الكنيسة لافتة ومهمّة، لكنها لم تحلّ قطّ محلّ قيادة الرجال؛ بل كانت تعمل دعمًا لقيادة الرجال».[528]

وأردّ على هذا الادعاء في هذا الفصل باستعراض بعض الإسهامات القوية التي قدّمتها النساء في الكنيسة الأولى. وسأتحدّى أيضًا مباشرةً الادعاءين التكامليين: أنه لا تُذكر بالاسم في العهد الجديد أيّ قائدة كنسية؛ وأنه لم تقف أي امرأة جنبًا إلى جنب مع رجال آخرين في أعلى مستويات الإسهام في عمل الملكوت.

527. أعمال 5: 14؛ 8: 12؛ 16: 13-15؛ 17: 4، 12، 34 و18: 2.
528. “Recovering Biblical Manhood and Womanhood”، ص. 216.

ولكن أولًا، توضيح سريع بشأن لفظَي «شيخ» و«راعٍ». فبحسب نظام الحكم الذي تتبعه كنيسةٌ ما اليوم، نميل إلى قراءة الآيات المتعلقة بالرعاة والشيوخ قراءات مختلفة. ومع أن بعض الطوائف تفصل بين دورَي «الراعي» و«الشيخ»، فإنني في هذا الفصل أعتبر أن العهد الجديد يستعمل ألفاظ «شيخ» و«راعٍ» و«ناظر» بالتبادل للإشارة إلى وظائف مختلفة للشخص نفسه.[529]

يطبّق العهدان القديم والجديد كلاهما صورة الراعي الذي يعتني بالغنم على دور القائد الروحي. ومع أنه كانت في الكتاب المقدس راعيات غنم،[530] فإن التكامليين يميلون، على نحوٍ ما، إلى الجزم بأنه لا توجد في الكتاب المقدس راعيات للكنيسة. طوال عقد من الزمن كنت أقدّم للأعضاء الجدد في كنيستنا هذا التفسير لسبب عدم رسامتنا راعيات: «لا توجد في العهد الجديد راعيات ولا شيخات (نساء في مجلس الشيوخ)، ولا نريد أن نتجاوز الكتاب المقدس في طريقة ممارستنا للحياة الكنسية». وإن لم تخنّي الذاكرة، فقد أخذت ذلك عن لاهوتي معروف قاله بقوة أكبر: «لا توجد في أي مكان في العهد الجديد إشارة إلى شيخة. قد ترغب في الاعتراض مشيرًا إلى أن هذه حجّة من الصمت. نعم، إنها كذلك. ولكنه صمتٌ يصمّ الآذان».[531]

خلال بحثي، صرت أتساءل من هم الشيوخ أو الرعاة الذكور المذكورون بالاسم في الكنيسة الأولى. كنت أتوقّع أن أجد عشرة على الأقل. فيا لصدمتي حين لم أجد سوى شيخ واحد مذكور بالاسم: بطرس الرسول يخاطب «رفقاءه الشيوخ»،[532] ويبدو أنه يُلمّح بذلك إلى أنه ربما جمع إلى رسوليته دور الشيخ في مرحلة لاحقة من خدمته، مع أنه كان رسولًا في المقام الأول، وإن كان بعض علماء الكتاب المقدس يرون أنه ربما لم يكن يشير إلى منصبه، بل إلى سنّه فقط.

وما يتّضح فورًا هو أن العهد الجديد لا يذكر اسم أي راعٍ أو شيخ غير بطرس، بل ربما لم يكن هو نفسه واحدًا منهم! ومع ذلك نعلم أن كثيرًا من الكنائس المذكورة في العهد الجديد، بل على الأرجح معظمها، صار لها في النهاية فريق من هؤلاء الأشخاص يقودها.[533] أمّا لماذا لا يُسمّى أحدٌ شيخًا، ما عدا بطرس احتمالًا، فهذا لغز. ومن الواضح أن هذه المعلومة كانت خارج نطاق كتّاب العهد الجديد المختلفين وخارج غرضهم. ومع

529. انظروا أعمال 20: 17، 28؛ 1 بطرس 4: 1-2 وتيطس 1: 5-7.
530. تكوين 29: 9؛ نشيد الأنشاد 1: 5-8
531. سام ستورمز. المصدر: www.bit.ly/3CL3GNt
532. 1 بطرس 5: 1-2. ويُدعى يسوع «راعي نفوسنا وأسقفها» (1 بطرس 2: 25)، لكن هذا يشير إلى قيادته الفريدة للكنيسة كلها. ويدعو يوحنا نفسه «الشيخ» (2 يوحنا 1: 1) وهو يكتب إلى شخص بعينه، وهذا على الأرجح إشارة إلى سنّه وحكمته بوصفه رسولًا محنّكًا.
533. انظروا أعمال 14: 23، و1 تسالونيكى 5: 12 و1 تيموثاوس 5: 17.

ذلك يبقى أن نتساءل: مَن مِن الأشخاص الكثيرين المذكورين بالاسم في الكنائس الأولى في العهد الجديد كانوا على الأرجح رعاةً أو شيوخًا؟ ولحسن الحظ، توجد بعض الأدلة على من قد يكونون.

معايير التعرّف على الشيوخ المحتملين

لا أظن أن أي باحث تكاملي يستطيع أن يقول قاطعًا إنه لم تكن هناك شيخات في الكنيسة الأولى. أقصى ما يمكنهم قوله هو أنه من غير المرجّح أن تكون قد وُجدت أيٌّ منهن. لكنني، خلافًا لهذا الرأي، على وشك أن أحاجّ بأنه من المرجّح جدًّا أنهن وُجدن.

ومع أنه لا لوقا في أعمال الرسل ولا بولس في رسائله يذكران بالاسم أي شيوخ أو رعاة، فإنهما يقدّمان قرائن قوية على من قد يكون هؤلاء الشيوخ. وأقترح أن هناك خمسة مؤشرات رئيسية على أن شخصًا مذكورًا بالاسم في العهد الجديد قد يكون راعيًا يخدم في فريق القيادة العليا لكنيسة ما.

أولًا، الأشخاص الذين اعتُقلوا كانوا على الأرجح قادةً في الواجهة أو معلّمين أو رعاة. فإذا اعتُقل شخص في كنيسة ما خلال اضطهاد في وقت ما من تاريخ الكنيسة، فإننا نفترض بحقّ أن ذلك كان على الأرجح لأنه كان يُنظر إليه بوصفه زعيمًا محرّكًا أو متحدّثًا علنيًّا باسم الجماعة المشتبه بها.

ثانيًا، المهتدون الأوائل أو الأعضاء الذين تلقّوا التعليم الرسولي مسبقًا كانوا في الغالب الخيار الأول للرسل في رعاية المهتدين اللاحقين وتلمذتهم. وفي سفر أعمال الرسل، ورسالة بولس إلى أهل كورنثوس، وكتابات أب الكنيسة كليمندس، دليلٌ على أن هذه كانت ممارسة شائعة.

ثالثًا، رؤساء البيوت الذين استضافوا الكنيسة كانوا على الأرجح قادةً في تلك الكنيسة. فعلى خلاف الكنائس الحديثة التي تجتمع في مبانٍ مخصّصة لها، كانت الكنائس الأولى في معظمها تتّخذ مقرّها في بيوت أكبر من المعتاد، وتتألّف من أهل البيت كلهم ومن آخرين يأتون للاجتماعات. ويرى بولس في 1 تيموثاوس 3 أنه من الحكمة اختيار الشيوخ من بين رؤساء البيوت هؤلاء، فيمكننا أن نفترض أن كثيرين من قادة الكنائس البيتية كانوا فعلًا قادةً للكنيسة.

رابعًا، الأشخاص الذين أسّسوا كنيسة، فجمعوا فيها المهتدين وثبّتوهم وعلّموهم، كانوا على الأرجح قادةً كنسيين. وأعترف أن هذا لا يحتاج إلى عبقرية. ففي بعض الحالات، كان المبشّرون مثل فيلبس والرسل مثل بولس يؤسّسون كنيسة، ثم يمضون ويسلّمونها إلى قادة آخرين، لكن أحيانًا كان أناسٌ يؤسّسون كنيسة ثم يواصلون قيادة أهلها وتعليمهم.

خامسًا، كثيرون ممن في قائمة بولس في رومية 16 كانوا على الأرجح قادةً في كنيسة رومية. ففي ختام رسالته، يذكر بولس نحو 27 شخصًا بأسمائهم. إنها أطول قائمة أسماء في العهد الجديد. وهو ينسب إلى كثيرين منهم الألقاب نفسها التي يطلقها على نفسه وعلى أقرب من عملوا معه في العمل الريادي لرسالته إلى الأمم. ومن المعقول جدًّا أن بعض هؤلاء الموصوفين كانوا في فريق قيادة كنيسة رومية.

فإن استطعنا أن نقبل هذه المعايير الخمسة مؤشراتٍ صحيحةً على القيادة في الكنيسة الأولى، فهذا ما نكتشفه عند مراجعة الرسائل وسفر أعمال الرسل: مقابل كل رجل مذكور بالاسم كان على الأرجح شيخًا أو راعيًا، نجد امرأة أو أكثر مذكورة بالاسم تضاهي هؤلاء الرجال خطوةً بخطوة، من حيث المؤهّلات أو الوظيفة. دعوني أُريكم.

التركيز على الاضطهاد

تكاد الطريقة المتّبعة في كل مكان لاضطهاد أي جماعة من الناس تكون استهداف قادتها وترهيبهم أو اعتقالهم. ولهذا يُستهدف في سفر أعمال الرسل بطرس ويوحنا، ثم بولس وسيلا، بالاعتقال والسجن. وهذا منطقي: فقد كانوا جميعًا القادة والمعلّمين والمبشّرين الرئيسيين في الكنائس التي كانوا يخدمونها آنذاك.

فما أعجب إذن أنه، في أعقاب إعدام القائد الكنسي استفانوس في أورشليم، سعى شاول إلى مواصلة الاضطهاد ضد المسيحيين في المدن المجاورة. يُقال لنا: «وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة ... ويجرّ رجالًا ونساءً ويسلّمهم إلى السجن».[534] بل صار هذا جزءًا من شهادته — فحين حوكم هو نفسه، تذكّر لاحقًا أنه اضطهد، و«اعتقل رجالًا ونساءً على السواء».[535] ففي ذهن بولس، كانت لكثير من النساء في الكنائس الناشئة التي اضطهدها خدماتٌ مهمة بما يكفي (لا مجرد الطبخ والتنظيف وتربية الأطفال) حتى إنه خلص إلى أنه لا يستطيع إيقاف الحركة من دون أن يأخذهن أسيرات.

534. أعمال 8: 1، 3
535. أعمال 22: 4

ويلاحظ ن. ت. رايت: «لا يكون لهذا معنى إلا إذا كانت النساء أيضًا يُعتبرن قائدات، وشخصيات ذات نفوذ داخل الجماعة».[536] ليس هذا برهانًا قاطعًا على أن أيًّا من هؤلاء النساء كانت جزءًا من فرق القيادة العليا في كنائسهن، ولكن، مع ذلك، لا يبرّر استهدافهن إلا أن يكنّ نساءً يمارسن أدوارًا بارزة في التبشير أو التعليم أو القيادة.

نساءٌ من «باكورة» الكنيسة

كان بولس والرسل يختارون عادةً المهتدين الأوائل أو الأعضاء الأوائل في كنيسة ناشئة قادةً لها. ومع أن الكنائس الناضجة كانت تتمتّع بترف اختيار قادة «غير حديثي الإيمان»، فإن الكنائس الجديدة كليًّا كانت لا تزال تحتاج إلى نوع ما من القيادة.

يسجّل كليمندس الروماني سنة 95 م أن الرسل اعتادوا أن يختاروا «باكورتهم» قادةً للكنيسة.[537] ويتأكّد هذا في أعمال 14: 23، حيث يرسم بولس، في زيارته الثانية، رعاةً من مجموعة المهتدين الذين ربحهم في رحلته السابقة قبل بضعة أشهر فقط. ولهذا أيضًا يعتبر كثير من المفسّرين أن استفاناس كان شيخًا في كورنثوس، حين يحثّ بولس الكنيسة هناك قائلًا: «كي تخضعوا ... لمثل هؤلاء» الذين كانوا «أول المهتدين» (حرفيًّا «باكورة») وكانوا أيضًا أمثلة عظيمة في «خدمة القديسين».[538] فلم يكن الشيخ إذن بالضرورة أكبر سنًّا من سائر الناس، بل أكثر نضجًا روحيًّا (ولو بقليل). وكان أيضًا حاضرًا حين تلقّت الكنيسة الدفعة الأولى من التعليم من الرسول الذي أسّسها.

واللافت إذن أنه في مرات كثيرة كانت أول من اهتدى أو أول عضو في الكنيسة امرأة — فليدية، مثلًا، كانت أول من اهتدى على يد بولس في أوروبا، وأول عضو أيضًا في كنيسة فيلبي، التي كانت تجتمع في بيتها.[539]

نساء على رأس بيوتهن ومضيفات للكنائس

من يستطيع أن ينكر أن فليمون، رئيس البيت الثري المحترم الذي كانت في بيته كنيسة، كان على الأرجح شيخًا في كنيسة كولوسي؟ فنحن نعلم في النهاية أن بولس

536. انظروا www.bit.ly/3BEnYqo
537. «ولما كان الرسل يجولون في الأقاليم والبلدات كارزين، أقاموا أول المهتدين — بعد أن امتحنوهم بالروح — نُظّارًا ... للمؤمنين في المستقبل». (رسالة كليمندس الأولى 42)
538. 1 كورنثوس 16: 16-17
539. أعمال 16: 13-40

قاده إلى الرب،[540] على الأرجح في أفسس،[541] وبعد أن ثبّته بتعليمه، أرسله إلى كولوسي ليخدم في تلك الكنيسة، حيث أثنى عليه بولس بوصفه «العامل معنا» الذي يحبّ القديسين.[542]

ولكن مهلًا، إن كان بإمكاننا أن نقول (كما قال بعض آباء الكنيسة[543]) إن فليمون كان شيخًا في كولوسي، فماذا عن نمفا؟ فنحن نعلم في النهاية أنها كانت تقود الكنيسة البيتية الأخرى في كولوسي.[544] يركّز سفر أعمال الرسل على عمل التبشير في المناطق الجديدة وعلى الرسالة العالمية التي قام بها الرسل، لكنه يعطينا أيضًا تلميحات كافية عن أهمية الخدمة في الكنائس المحلية. فاللافت إذن أن هذه الكنائس البيتية كانت تستضيفها، ويُفترض أنها كانت تقودها، لا رجالٌ فقط، بل نساءٌ أيضًا.

يرفض الباحثون التكامليون هذه النقطة عادةً بمقارنة خاطئة بين قائد الكنيسة البيتية ومضيف مجموعة صغيرة حديثة قد يسأل: «في بيت مَن نجتمع الأسبوع المقبل؟» لكن هذا يكشف جهلًا بطبيعة البيت (الأسرة الممتدّة) في القرن الأول. كان رئيس البيت في العصر اليوناني الروماني ذكرًا في العادة، ويُدعى paterfamilias (ربّ الأسرة)، أمّا إذا مات الزوج وكان أكبر أفراد البيت امرأة، فكانت هي تقوده بوصفها materfamilias (ربّة الأسرة). وكانوا تلقائيًّا يُشرفون على من يعيشون في بيوتهم، ومنهم الأولاد والأقارب والعبيد والمستأجرون. وكانوا يحتاجون إلى مهارات جيدة في العلاقات والتنظيم والإدارة،[545] وإلى القدرة على التعليم والتأديب والرعاية وإدارة الموارد المادية. لذلك يمكن للمرء أن يفترض أن كون الشخص رئيسًا لبيت، في بعض الحالات على الأقل، كان يجعله مرشّحًا أوّل لقيادة الكنيسة التي تجتمع فيه. لقد فعلت نمفا أكثر من مجرد فتح أبوابها. فالكنائس البيتية كانت في النهاية قاعدةً للتبشير المحلي ولتلمذة المهتدين — وكل ذلك تطلّب قيادةً وتدريبًا وتوفيرًا للموارد. «كان نوع الاستضافة الجاري في فترة العهد الجديد تأسيسًا لقاعدة عمليات استراتيجية طويلة الأمد، كان فيها صاحب البيت عنصرًا حاسمًا في نجاح أهداف الكنيسة أو إخفاقها».[546]

540. فليمون 3، 8–9، 19
541. أعمال 19: 9-10
542. فليمون 1، 5، 7
543. انظروا مثلًا الفقرة XLVI في www.bit.ly/3CN1tRo
544. كولوسي 4: 15. أولئك الباحثون الذين يحاجّون بأن نمفا ربما كانت رجلًا لا يعتمدون أفضل النصوص اليونانية الموجودة، التي تقول إن «الكنيسة كانت تجتمع في "بيتها" (autēs)».
545. ولهذا يشجّع بولس ربّة الأسرة (materfamilias) على «تدبير بيتها»، أي حرفيًّا أن تكون «سيّدة مطلقة» (despot) على البيت، في 1 تيموثاوس 5: 14.
546. جامين هوبنر. المصدر: www.bit.ly/3BNaSY8

فإن كان لهم سجلّ في التقوى وكانوا راسخين في الإنجيل، لكانوا مرشّحين مثاليين للقيادة الرعوية. تأمّلوا وظائف الرعاة الثلاث المذكورة في 1 تسالونيكي 5: 12: «الذين يتعبون» (باليونانية: kopiōntas)، و«الذين يعتنون بكم» (باليونانية: proistamenous)، و«الذين ينذرونكم» (باليونانية: nouthetountas). «التعب» يدل على الجهد الجسدي اللازم لدعم الخدمة عمليًّا وروحيًّا.[547] و«الاعتناء» يعني توجيه الجماعة وإدارتها وتحمّل المسؤولية عن خيرها.[548] و«الإنذار» ينطوي على تعليم تقويمي.[549] واستعمال صيغة المضارع يعني أن هذه المسؤوليات لم تكن متقطّعة بل مستمرة. لكن انظروا — كانت هذه بالضبط المهارات والقدرات التي يتفوّق فيها رئيس البيت الجيد. وفضلًا عن ذلك، كان أصحاب البيوت مسؤولين أيضًا أمام المجتمع المحيط عمّا يجري في البيت.[550] وهكذا، كقاعدة عامة، «يبدو أن صاحب البيت كان يكتسب سلطة قيادية في الكنيسة».[551]

ويلاحظ براين كابر (Brian Capper)، وهو خبير في البيئة اليونانية الرومانية المبكرة وفي شكل كنائس القرن الأول، أن الكنيسة في مدينة ما كانت تتألف من كنيسة بيتية واحدة أو أكثر، ويستنتج ما يلي:

[مِن] البنية «الخلوية» للجماعات البولسية ... يبرز سبب تعدّد القادة المحليين. فكل مجموعة فرعية كانت تجتمع في بيت أحد القادة في الجماعة المسيحية؛ وكل قائد من هؤلاء هو شيخ/ناظر، وكان منهم عدد في كل مدينة. ... ويمكننا أن نتيقّن أنه في العالم القديم كانت السيطرة النهائية على أي اجتماع يُستضاف تُمنح لصاحب البيت. كان هذا عُرفًا وأدبًا عامًّا. وبما أن أصحاب البيوت المسيحيين الأوائل الذين استضافوا اجتماعات الكنيسة في بيوتهم كانوا دائمًا أقدم في الإيمان، وكانوا الداعمين المحليين للإنجيل، فقد صاروا الشخصيات الآمرة في الجماعة على المستوى المحلي. فالمكانة الاجتماعية والنضج والسخاء والجاذبية الروحية والتكليف الرسولي اجتمعت لتمنح هؤلاء الداعمين المحليين للإنجيل سلطانًا. ... فبالنسبة إلى الشيخ، كانت الكنيسة ببساطة امتدادًا لبيته، إذ كان يستضيف الكنيسة في بيته.»[552]

547. انظروا 1 تسالونيكي 2: 9 و3: 5.
548. الكلمة نفسها مستعملة للوظيفة المتعلقة بـ«موهبة القيادة» في رومية 12: 8، وكذلك لما كان يُنتظر من كل رؤساء البيوت المجتهدين الذين «يدبّرون» بيوتهم حسنًا.
549. انظروا 1 كورنثوس 4: 14
550. انظروا أعمال 17: 5-7 مثالًا على ذلك.
551. www.bit.ly/3bHJPmo
552. www.rb.gy/cmxtqm

وهذا يفسّر لماذا تردّد قرّاء أبويّون لاحقون، أقرب إلى السياق القديم، أمام ذكر نساء يستضفن كنائس بيتية. فعلى سبيل المثال، وجد النسّاخ دور القيادة الواضح لنمفا فاضحًا إلى حدّ أن بعضهم جعلوا اسمها مذكّرًا، جاعلين منها «رجلًا» اسمه نمفاس. فبالنسبة إليهم، كان تغيير جنس شخصية كتابية أهون من الاعتراف بامرأة راعية.

خلاصة القول: رغم المكانة المتدنية عمومًا للنساء في المجال العام، فإن materfamilias لها بيت يتّسع لاستضافة الناس كانت ستصلح لعمل القيادة الكنسية بقدر ما يصلح له paterfamilias، إذ تملك المهارات نفسها. فما ينبغي أن يثير فضولنا إذن هو أن العهد الجديد يذكر أسماء نساء أكثر من أسماء رجال حين يفصّل البيوت التي كانت الكنائس تجتمع فيها — لا نمفا وليدية فحسب، بل أيضًا مريم أم مرقس، التي كان بيتها قاعدةً لكنيسة أورشليم؛[553] وخلوي، التي يُدعى أهلها حرفيًّا «أهل خلوي»، وقد سافروا إلى بولس ليخبروه ببعض المخاوف بشأن كنيسة كورنثوس؛[554] وبريسكلا،[555] التي سأعود إليها قريبًا؛ ومن المحتمل جدًّا أيضًا قائدة كنيسة بيتية غير مسمّاة تُدعى «السيدة المختارة».[556]

امرأة تؤسّس كنيسة

ومن الرعاة المرجّحين أيضًا شخص أسّس كنيسة وقادها ومع ذلك ليس رسولًا. لنبدأ بمثال ذكوري — والمثال الأبرز في سفر أعمال الرسل هو أكيلا. فقد ساعد في تأسيس الكنيسة مع بولس في كورنثوس، مستضيفًا إياها في بيته، ومموِّلًا عملها.[557] وبعد أن تدرّب على يد بولس مدة 18 شهرًا، أبحر مع بولس. «فأقبلوا إلى أفسس، حيث ترك بولس أكيلا»،[558] على ما يبدو ليعتني ببعض المهتدين من رسالة تبشيرية واحدة ألقاها على اليهود في المجمع المحلي.[559] وخلال الأشهر الستة إلى الاثني عشر التي غاب فيها بولس، استضاف أكيلا في بيته كنيسة تتألف من عدد متزايد من «الإخوة

553. أعمال 12: 12
554. 1 كورنثوس 1: 11
555. رومية 16: 3
556. يصرّ التكامليون على أن «السيدة المختارة» تشير إلى الكنيسة نفسها، ولكن إنصافًا، لا يفسّر هذا لماذا تُميَّز «السيدة المختارة» عن «أولادها» (2 يوحنا 1)، ولا لماذا تُخاطَب «هي» بالطريقة نفسها التي يحيّي بها يوحنا الفرد غايس، الذي يكتب إليه رسالة يوحنا الثالثة. انظروا Scott McKnight, “The Elect Lady,” Patheos (blog), September 18, 2014, www.bit.ly/3CMNSd1
557. أعمال 18: 1-3
558. أعمال 18: 18
559. أعمال 18: 19-21

والأخوات».[560] وواصل التردّد على المجمع، باحثًا عن أناس متقبّلين يمكنه أن يحدّثهم بالإنجيل. ونحن نعرف ذلك لأنه في أحد السبوت التقى رجلًا لافتًا يُدعى «أبلّوس، إسكندري الجنس»، الذي «كان رجلًا متعلّمًا، ذا معرفة دقيقة بالكتب. وكان قد تعلّم طريق الرب، ... ويعلّم بتدقيق ما يختصّ بيسوع، مع أنه لم يكن يعرف إلا معمودية يوحنا. وابتدأ يجاهر في المجمع. فلما سمعه ... أكيلا، دعاه [هو] إلى [بيته] ...»[561]

ومع أن أبلّوس كان يعرف العهد القديم، وقد سمع على ما يبدو ما يكفي عن يسوع ليدرك أنه المسيح الموعود به في العهد القديم، فقد بقيت في لاهوته ثغرات لاحظها أكيلا. فدعاه إلى بيته و«شرح له طريق الله بأكثر تدقيق». وكلمة «شرح» (باليونانية: exethento) مرادفة لكلمة «علّم»، وهي تُستعمل لوصف خدمة بولس في رومية، حيث كان «من الصباح إلى المساء» «يشرح ملكوت الله».[562] وبما أن أولوية أكيلا لم تكن مجرد جمع المهتدين، بل إرسال سفراء للإنجيل، فقد شجّع أبلّوس على الذهاب إلى مدينة أخرى، حيث أثمر تدريب أكيلا اللاهوتي له ثمرًا عظيمًا.[563]

أفلا يكون أكيلا بالتأكيد شيخًا أو راعيًا في كنيسة كورنثوس، وبتأكيد أكبر في كنيسة أفسس؟ ومع أن العهد الجديد لا يستعمل في أي مكان مصطلح «زرع» كنيسة أو «قيادة كنيسة» لأي شخص، فإن هذا هو بالضبط العمل الذي يقوم به أكيلا.

والآن إلى المفاجأة في الحبكة: مع أنني تعمّدت إغفال اسمها في الفقرات السابقة، فإن الأصحاح 18 من أعمال الرسل يقرن اسمه بدقّة باسم زوجته بريسكلا. كل ما فعله أكيلا فعلته بريسكلا أيضًا. كلاهما استضافا الكنيسة في كورنثوس، داعمَين إياها بعملهما المشترك في صنع الخيام. كلاهما أبحرا مع بولس. وترك بولس كليهما في أفسس ليؤسّسا حضورًا للإنجيل. كلاهما جمعا مهتدين جددًا في بيتهما. كلاهما تواصلا مع من لم يؤمنوا بعدُ في المجمع المحلي. كلاهما علّما أبلّوس.

استنادًا إلى الأدلة في أعمال 18 ونصوص أخرى،[564] يمكننا أن نقول بشبه يقين إن أكيلا كان شيخًا أو راعيًا في أفسس. إنه المرشّح الأرجح لدينا في العهد الجديد! ومع ذلك، واستنادًا إلى الأدلة النصية نفسها، ليس لدينا أي سبب للظن بأنه حاز مكانة في

560. أعمال 18: 27
561. أعمال 18: 24-26
562. أعمال 28: 23
563. أعمال 18: 27-28
564. مع أنني لا أتناول أعمال 18 بعمق هنا، فإنني أقدّم في موضع آخر أدلة أكثر بكثير على أدوار هذين الزوجين في التعليم وتأسيس الكنائس وقيادتها في كنيسة أفسس، كما أعالج الأدلة المضادّة المزعومة — انظروا مقالتي “Was Priscilla a pastor?” على www.terranwilliams.com في www.rb.gy/ttr2do، التي أفنّد فيها محاولة مارك إليس (Mark Ellis) «نزع صفة الراعية عن بريسكلا» (disabuse Priscilla as a pastor).

القيادة الروحية أو الكنسية أعلى من مكانة زوجته. بل كانا — مثل آدم وحواء قبل السقوط — يعملان بوصفهما نظيرين وشريكين في الدعوة والخدمة.

العاملون مع بولس في رومية 16

في رومية 16 يسلّم بولس بالاسم على 27 شخصًا في كنيسة رومية. وبما أن كثيرًا من هذه الكنائس الأولى كانت صغيرة جدًّا، فلا بد أن بعض هؤلاء الأشخاص كانوا جزءًا من فريق قيادة تلك الكنيسة. ولكن أيّهم؟ أفضل قرينة هي العبارتان المميِّزتان «الذين يتعبون في الرب» (باليونانية: polla ekopiasen en kyriō) و«العاملون معي» (باليونانية: synergos)، اللتان ينسبهما بولس إلى بعض الأفراد فقط في القائمة. ونحن نعرف ذلك لأن بولس يستعمل هذه الألفاظ نفسها في مواضع أخرى لأهم العاملين في فريقه. فهو يدعو تيموثاوس وأبلّوس وأوربانوس وتيطس وأبفرودتس ومرقس وأبفراس ولوقا «العاملين معه»[565] — وهؤلاء هم شركاؤه الرئيسيون في مشروعه لنشر الإنجيل. كما يستعمل بولس كثيرًا فعل «تعب» ليصف من يستحقون القيادة، ووظيفةً أساسية من وظائف الشيوخ.[566] وهو أيضًا طريقته المفضّلة في وصف خدمته هو.[567]

ومن الواضح أن بولس لم يكن معتادًا استعمال ألقاب خدمية مثل «راعٍ» (لمن يخدمون في كنيسة) أو «مُرسَل» (لمن يُرسَلون إلى مناطق جديدة)، بل يتحدث عنهم بوصفهم «العاملين معه» الذين «يتعبون في الرب». بل إنه في رسالته إلى أهل كورنثوس يستعمل كلا اللفظين ليصف من ينبغي للكنيسة أن تخضع لهم.[568]

والمثير للاهتمام أن في قائمة رومية 16 عشرة أشخاص موصوفين بهذه الألفاظ وبألفاظ أخرى تتعلّق بالإسهام الجادّ في الخدمة. وربما تحتاجون إلى الجلوس قبل أن تسمعوا ما سأقوله: سبعة من هؤلاء العشرة نساء! لنعدّدهم: بريسكلا تُدعى «العاملة معه» (ع 3)، بينما يُقال عن مريم (ع 6)، وتريفينا وتريفوسا وبرسيس (ع 12) إنهن «تعبن في الرب». ومن الإشارات اللافتة الأخرى يونيا، وهي رسولة (ع 7)، وفيبي، وهي شمّاسة في كنيسة كنخريا (ع 1)[569] ومُحسِنة إلى بولس ونصيرة له (ع 2). وفيبي أيضًا

565. انظروا رومية 16: 21، 1 كورنثوس 3: 9، رومية 16: 9، 2 كورنثوس 8: 23، فيلبي 2: 25، كولوسي 4: 11، فليمون 24.
566. 1 تسالونيكي 5: 12
567. 1 كورنثوس 4: 12؛ 15: 10؛ غلاطية 4: 11؛ فيلبي 2: 16؛ كولوسي 1: 29؛ 1 تيموثاوس 4: 10
568. 1 كورنثوس 16: 16.
569. احتفاء سريع بفِيبى: إنها أول «شمّاسة» مسجّلة فى تاريخ المسيحية، مع أن بعض الباحثين يجادلون فى ما

هي من ائتمنها بولس على السفر إلى رومية حاملةً — وليُقرَع الطبل من فضلكم — الرسالة إلى أهل رومية.

وبعض هذه الألفاظ يُنسب إلى نساء أخريات في كنائس أخرى أيضًا. فبولس يكرّم امرأتين، أفودية وسنتيخي، ويمدحهما بوصفهما من «العاملين معه» اللتين «جاهدتا [إلى جانبه] في سبيل الإنجيل».[570] والكلمة اليونانية المترجمة «جاهدتا» (synēthlēsan) تستعمل تشبيه الرياضي أو الجندي الذي يشدّ كل عضلة لينال النصر. بعبارة أخرى، يضع بولس تفانيهما في قضية المسيح على قدم المساواة مع تفانيه هو.[571]

يقول ن. ت. رايت: «كنت أظن أن رومية 16 هو أكثر أصحاحات الرسالة إملالًا، أمّا الآن، وأنا أدرس الأسماء وأفكّر فيها، فيدهشني كيف كان تعليم يسوع وتعليم بولس كلاهما يُطبَّق عمليًّا بقوة».[572] وتُظهر قائمة النساء الموصوفات هذه، بما لا يدع مجالًا للشك، أنه لم يكن هناك تمييز في المكانة أو الخدمة بينهن وبين الرجال.

أليس من الممكن، بل من المرجّح، أن بعض هؤلاء النساء على الأقل في كنيسة رومية، اللواتي كرّمهن بولس بألقاب خدمية، كنّ في فريق القيادة العليا لكنيستهن؟ ولا سيما أنهن كنّ في الغالب مقيمات في تلك الكنيسة لا مُرسَلات متنقّلات؟ تقول سينثيا وستفول: «في مسيحية القرن الأول، تتطابق هذه الألفاظ تطابقًا وثيقًا مع ما سيصبح لاحقًا الإكليروس المرسوم. ويبدو أن بولس يستعمل هذه الألفاظ باتّساق حين يكرّم القادة».[573]

في مجتمع البحر المتوسط القديم، لم يكن للنساء إلا القليل من السلطة الاجتماعية. ومع ذلك، في ذلك العالم الشوفيني إلى أبعد حدّ، حيث نادرًا ما أتاحت الظروف الاجتماعية للنساء صوتًا عامًّا أو دورًا ذا معنى في قيادة المجتمع، انظروا كم امرأة كانت تتقدّم من أجل المسيح في خدمة مهمة، ويحتفي بها الرسول بولس لأجل ذلك. فإن كانت النساء قد استطعن أن يزدهرن في الخدمة في ثقافة معادية للمرأة كهذه، فكم بالأحرى تستطيع النساء أن ينهضن بإسهامات قوية في عمل الملكوت الآن، وقد كفّت الظروف الاجتماعية في ثقافتنا عن مقاومة ذلك؟

570. فيلبي 4: 3

571. كانت هاتان المرأتان بارزتين في كنيستهما إلى حدّ أنه حين تخاصمتا، استدعى ذلك أن يكتب بولس رسالة كاملة — الرسالة إلى أهل فيلبي — عن أهمية الوحدة.

572. www.bit.ly/3URMrTN

573. Cynthia Westfall, Paul and Gender, الفصل 8.

لكنني أسبق فكرتي. دعوني أُلخّص. لا يذكر العهد الجديد أسماء رعاة كنائسه، لكنه، كما أحاجّ، يقدّم خمس قرائن رئيسية على من قد يكون هؤلاء: من تعرّضوا لأشدّ الاضطهاد؛ ومن كانوا أوائل في الإيمان فكانوا قادرين على تلمذة الآخرين؛ ومن حوّلوا بيوتهم إلى قاعدة للكنيسة؛ ومن أسّسوا كنيسة؛ و/أو من وُصفوا في رومية 16 بأرفع ألقاب التكريم على إنجازهم في الخدمة.

ليس شيء من هذا برهانًا لا يُدحض، لكن كل قرينة تجعل من المقنع إلى حدّ بعيد أن مثل هذا الشخص كان في فريق القيادة في كنيسته. والآن، أرجو أن تكونوا لا تزالون جالسين، لأن هناك امرأة واحدة يبرز اسمها في الفئات الخمس كلها.

بريسكلا

هل كانت بريسكلا هدفًا رئيسيًّا للاضطهاد؟ نعم. يخبرنا بولس أنها «خاطرت بحياتها»[574] بمشاركتها إياه في الإنجيل، وهذه إشارة إلى أن حضورها في الخدمة الكنسية كان بارزًا بما يكفي ليلفت انتباه السلطات المعادية.

هل كانت من «الباكورة» القادرة على تلمذة المؤمنين الأحدث؟ نعم. فقد كانت، مع زوجها، أول عضو على الإطلاق في كنيستي كورنثوس وأفسس كلتيهما، ومن أكثر الناس نضجًا روحيًّا في كلتيهما. وفضلًا عن ذلك، كانت في أفسس مؤهّلة على نحو فريد، في غياب بولس، لرعاية أول المهتدين القلائل وتلمذتهم، وهؤلاء، بعد أن آمنوا خلال زيارة بولس القصيرة للمجمع المحلي، يبدو أنهم صاروا لاحقًا رعاةً (آخرين) في أفسس.[575]

هل كانت رئيسة كنيسة بيتية؟ نعم. بل لدينا دليل كتابي على أنها حوّلت بيتها إلى قاعدة لعمل الكنيسة في ما لا يقل عن ثلاث كنائس مختلفة: كنيسة كورنثوس، وكنيسة أفسس، وكنيسة رومية.

هل أسّست كنيسة؟ نعم. ففي أفسس خصوصًا، فعلت هي وزوجها كل ما قد يفعله مؤسّسو الكنائس المعاصرون: انتقلا إلى منطقة جديدة للمساعدة في بدء عمل؛

574. رومية 16: 3

575. انظروا مقالتي “Was Priscilla a pastor?” في www.rb.gy/ttr2do، التي أحاجّ فيها، استنادًا إلى أعمال 18: 17-19، 27 و20: 18، بأن بولس ترك أول المهتدين من مجمع أفسس في رعاية بريسكلا وأكيلا إلى أن صاروا رعاةً لكنيسة أفسس، إلى جانب بريسكلا وأكيلا.

وبشّرا؛ وجمعا المهتدين؛ وعلّماهم لاهوتيًّا؛ وأعدّاهم للخدمة؛ وأرسلاهم في مهمّة إرسالية.

هل تُدعى «العاملة معه» في قائمة رومية 16؟ نعم مرة أخرى. بل إنه من بين جميع الأشخاص الذين سُلِّم عليهم في كنيسة رومية جاء اسمها أولًا! وكانت خدمتها معروفة إلى حدّ أن بولس لا يعبّر عن امتنانه لها فحسب، بل ينقل إليها أيضًا شكر «جميع كنائس الأمم»![576]

أقدّم هذا خلاصةً: إن وجود بريسكلا في الفئات الخمس كلها يكاد يكون أقوى دليل نصي على أنها خدمت في فريق القيادة العليا لكنيسة واحدة أو أكثر. بل أذهب إلى حدّ القول إن هذا شبه يقين.

وبينما أؤكّد هذه النقطة، دعوني أصرّح بما يترتّب عليها: إن استطعنا أن نجد ولو تلميذة واحدة ليسوع في القرن الأول كانت، رغم السياق الأبوي الصارم الذي عاشت وعملت فيه، راعيةً بشبه يقين، فمن البديهي أنه في السياقات المساواتية بشدّة التي نجد أنفسنا فيها في القرن الحادي والعشرين، ينبغي أن نكون مستعدين لأن نطلق بفرح النساء الموهوبات والمدعوّات للخدمة في فرق القيادة الرعوية.

اعتراضات على كون بريسكلا راعية

إن كنت قد أسرعت أكثر مما ينبغي، فدعوني أعود خطوة إلى الوراء. ربما لديكم بعض التحفّظ على استنتاجي أن بريسكلا كانت حقًّا قائدة كنسية عليا مثل زوجها. والحقيقة أن هناك أربعة اعتراضات شائعة على ما يُرى من دورها القيادي والتعليمي الرفيع. الأول هو أن 1 تيموثاوس 3 يتحدث عن الناظر بوصفه «أمينًا لزوجته». سنتناول ذلك بتوسّع في الفصل التالي، ولكن دعوني أعالج الاعتراضات الثلاثة الأخرى الآن.

الاعتراض الأول هو القول إن بريسكلا كانت مجرد داعمة لأكيلا. ففي الأوساط التكاملية اليوم، من الشائع الحديث عن «الأزواج الخادمين». ومهما كان هذا المصطلح رائعًا، فإنكم حين تختزلونه إلى جوهره، تجدون أن ما يقصدونه به حقًّا هو أن الزوج هو بحقّ القائد وأن الزوجة هي مُعينته القديرة (بما يتّفق مع ادعاء جون بايبر أن حواء كانت «مساعدة آدم الوفية»). ومن دون أن تفتح مواهب الزوج القيادية الباب أمام الزوجين،

576. رومية 16: 3

لا تكاد الزوجة تملك فرصة لممارسة مواهبها القيادية الخاصة. وفي هذه الحالة إذن، كان أكيلا هو الراعي، بينما كانت بريسكلا مجرد مساعدته القديرة الرائعة.

ومع ذلك فإن نموذج «القائد والمُعين» مستبعد جدًّا في حالة بريسكلا وأكيلا. فمن بين المرات الست التي يُذكر فيها الزوجان في الكتاب المقدس، يُذكر اسمها أولًا أربع مرات. قد لا يعني هذا الكثير للآذان الحديثة، لكن في الأدب الأبوي القديم من النادر أصلًا أن تُذكر زوجة الرجل (فكّروا، مثلًا، في قلّة الزوجات المذكورات بالاسم في العهد الجديد). ومن الأندر أن يُذكر اسم الزوجة أولًا.

يقول بعضهم إن هذا مجرد مصادفة. لكن كون كلٍّ من بولس ولوقا يذكرانها أولًا في كتاباتهما، وكونهما يفعلان ذلك أربع مرات (لا مرة أو مرتين فقط) من ست، يُظهر أن هذا ليس مصادفة. وفي المقابل، بعد ذكر بريسكلا وأكيلا في رومية 16 ببضع آيات، يذكر بولس زوجين آخرين ويعود إلى الممارسة المعتادة بوضع اسم الرجل أولًا.

ويقول بعض الباحثين إن هذا لا يُظهر إلا أنها كانت ذات مكانة اجتماعية بارزة. فربما كانت من أصل رفيع، وأكيلا من أصل وضيع، أو ربما كانت مواطنة رومانية وهو ليس كذلك؟ لكن هذا يتجنّب المعنى الأوضح. فحيثما يذكر كتّاب العهد الجديد شخصًا أولًا باستمرار، يكون ذلك عادةً شاهدًا على بروزه في الخدمة (وهذا بدوره يتعلّق بموهبته الخاصة). ولهذا يذكر لوقا وكتّاب الأناجيل الآخرون بطرس دائمًا أولًا في قائمة أسماء الرسل. ولهذا يذكر لوقا برنابا قبل بولس حين يشير إلى شراكتهما في الخدمة في كنيسة أنطاكية، ولكن حين انطلقا أخيرًا في الطريق التبشيري وبلغت كرازة بولس وخدمته المعجزية مستوى آخر، صار يذكر بولس أولًا من ذلك الحين فصاعدًا.[577]

وفي استعراضي للأزواج المذكورين بالاسم في الكتاب المقدس، وجدت أن الزوجة لا تُذكر قبل الزوج إلا في ثلاثة أزواج آخرين: القاضية دبورة تُذكر قبل لفيدوت؛[578] والنبيّة خلدة تُذكر قبل شلّوم؛[579] ومريم تُذكر قبل يوسف.[580] وفي كل هذه المواضع، يؤكّد ذكرهن أولًا بوضوح خدمتهن الأبرز. فلماذا لا يقودنا هذا إلى الاستنتاج نفسه بشأن بريسكلا؟ ومع أننا لا نستطيع إلا أن نخمّن ما المواهب التي كانت لدى بريسكلا

577. في أعمال 11: 26، 30؛ 12: 25؛ 13: 1-2 الترتيب دائمًا «برنابا وشاول/بولس». ولكن بعد خدمته المثيرة في جزيرة بافوس، أولى مراحل رحلته التبشيرية مع برنابا، يبدأ بولس يُذكر أولًا — انظروا مثلًا أعمال 13: 13، 42، 43، 46، 49؛ 14: 1، 3. وحين يصف لوقا تأسيس أكيلا وبريسكلا للكنيسة في أفسس، ينبغي إذن أن ننتبه إلى أنه يضع اسمها أولًا ثلاث مرات — انظروا أعمال 18: 18، 19، 26.

578. قضاة 4: 4

579. 2 ملوك 22: 14

580. متى 1: 18

وجعلتها أبرز من أكيلا، فإن الأمر الوحيد الذي يمكننا قوله قاطعين هو أنها لم تكن مجرد تابعة في خدمة زوجها. خلاصة القول: كانت على أقل تقدير ندًّا لأكيلا، مُطلَقةً في موهبتها العلنية بقدر ما كان هو (إن لم يكن أكثر).

الاعتراض الثاني هو التركيز على كون «شيخ» و«راعٍ» كلمتين مذكّرتين، ومن ثَمّ، مهما بلغت موهبة بريسكلا ومكانتها، فإن الأمر الوحيد الذي لا يمكن أن تكونه هو أن تكون رجلًا، وبالتالي شيخًا.

يُسيء هذا الاعتراض فهم أن اليونانية القديمة، مثل كل اللغات القديمة، كانت ذكورية المركز (androcentric)، أي متمحورة حول الذكر. بل إن اللغة الإنجليزية، التي تتخلّى الآن بسرعة عن مركزيتها الذكورية، لا تزال تستعمل أسماء مذكّرة للجنسين: فالضمير العام «he» (هو) يمكن أن يقوم مقام «he or she» (هو أو هي)؛ وكلمتا «mankind» (البشرية) و«manmade» (من صنع الإنسان) تشملان الإناث؛ وكذلك ألفاظ مثل «chairman» (رئيس) و«fireman» (رجل إطفاء).

وفي اليونانية القديمة تبرز هذه المركزية الذكورية أكثر بكثير، لأن أسماء الأشخاص إمّا مذكّرة وإمّا مؤنّثة، دون خيار محايد. والمرات الوحيدة التي تُستعمل فيها صيغة المؤنث هي حين يشير الاسم إلى امرأة فقط أو إلى جماعة من النساء. أمّا حين يشير إلى رجل أو رجال فقط أو إلى جماعة مختلطة من الرجال والنساء، فتُستعمل صيغة المذكر.[581]

فحين يخاطب بطرس الآلاف من الرجال والنساء في الجمع يوم الخمسين، يدعوهم بالأسماء المذكّرة «الإخوة» (adelphoi) و«الرجال» (andres). وبالمثل، حين يُشار إلى «التلاميذ» في سفر أعمال الرسل، تُستعمل صيغة المذكر، حتى حيث يكون حضور الإناث واضحًا. أو حين يُشار إلى الأنبياء الكثيرين الذين يشاركون في اجتماعات الكنيسة الموصوفة في 1 كورنثوس 14، تُستعمل صيغة المذكر، مع أننا نعلم أن النساء كنّ يتنبّأن أيضًا.[582] أو تأمّلوا هذا: «بولس وسيلا ... دخلا عند ليدية، حيث التقيا adelphoi (حرفيًّا "الإخوة") وعزّياهم»[583] — وطوال ذلك كانت ليدية ونساء أخريات كثيرات جزءًا من تلك الجماعة المختلطة، التي توصف مع ذلك باسم جمع مذكّر. وكان هذا الاستعمال الذكوري المركز للغة متطرّفًا إلى حدّ أنه أحيانًا كانت حتى امرأة منفردة

581. يوضح السياق أحيانًا أن الكاتب يشير إلى الرجال فقط، وأحيانًا أخرى إلى الرجال والنساء، وأحيانًا لا يستطيع القارئ أن يتيقّن إن كانت النساء مشمولات أم لا.
582. انظروا 1 كورنثوس 11: 2؛ 14: 29.
583. أعمال 16: 40

في منصب قيادي تُوصف بالاسم المذكّر — فمثلًا، كما ذكرت سابقًا، فيبي، رغم أنها أنثى، تُدعى في رومية 16: 1 شمّاسًا بصيغة المذكّر، لا شمّاسة.

وهذا يعني أننا حين نقرأ أن بولس «عيّن شيوخًا ... في كل كنيسة»،[584] فربما كان بينهم نساء، أو على أقل تقدير، فإن استعماله كلمة «شيوخ» ليس في حد ذاته علامة على أنه لم يعيّن شيخات. وبالطبع، في الثقافة الأبوية جدًّا في ذلك الزمن، كان من المرجّح جدًّا أن يكون لكثير من الكنائس فريق من الذكور فقط. لكن لم يكن الأمر بالضرورة هكذا دائمًا، ولا سيما إن كانت بريسكلا في الكنيسة في ذلك الوقت.

إليكم مشهدًا متخيَّلًا قصيرًا يوضّح فكرتي: بعد أن عاد بولس إلى كنيسة أفسس، تركها مرة أخرى، ثم بعد مدة كان مسافرًا مارًّا بأفسس حين قرّر ألا يدخل المدينة، بل أن يستدعي شيوخ الكنيسة وحدهم إلى بلدة قريبة، هي ميليتس، ليقضي يومًا يستعيد فيه سنتي خدمته ويجدّد إلهامهم للخدمة الرعوية. ووصف هذا اللقاء بأنه «المرة الأخيرة التي سيرون فيها وجهه».[585] وانتهى اللقاء وهم ملتفّون حوله، باكين، بينما كانوا يصلّون ويودّعونه. ولكن لاحظوا: لم يُستدعَ كل من في الكنيسة، بل الشيوخ وحدهم.[586] والآن، هل يمكنكم أن تتخيّلوا أكيلا يقول لبريسكلا، وهي تحاول أن ترافقه في الرحلة إلى ميليتس: «يا عزيزتي، قال بولس الشيوخ فقط. سيكون عليكِ أن تبقي هنا»؟ أنا لا أستطيع. وسأخبركم لماذا: كانت بريسكلا قد قامت بدور الراعية في تلك الكنيسة بقدر ما قام به زوجها تمامًا.

الاعتراض الأخير هو إبراز أن كنيسة أورشليم الأصلية كان يقودها ذكور فقط. صحيح أن الرسل الذكور قادوا كنيسة أورشليم (في أعمال 1-5) ثم عيّنوا سبعة رجال لمساعدتهم في القيادة (في أعمال 6-8)، لكن أيًّا من الأمرين لا يصلح قالبًا عامًّا لكل الكنائس. فبصرف النظر عن الأهمية الرمزية لكون الاثني عشر ذكورًا (وقد تناولت ذلك في الفصل السابق)، علينا أن نتذكّر أن كنيسة أورشليم، مثل كل كنيسة، تشكّلت بحسب وضعها المحلي. ففي أعمال 6، مثلًا، كانت الكنيسة، لا الرسل، هي التي اختارت سبعة رجال لمعالجة الخلافات الكبيرة بين النساء الأرامل المستضعفات من اليهود الناطقين باليونانية ومن كنّ من اليهود العبرانيين. ففي تلك الثقافة اليهودية، كان من المتوقّع أن تختار نساءٌ مهمّشات يحتجن إلى من يحميهن ويدافع عنهن رجالًا أحرارًا (لا نساءً أخريات ولا عبيدًا) ليقوموا بذلك.

584. أعمال 14: 23
585. أعمال 20: 38
586. أعمال 20: 17

ويمكن قول المزيد عن التمركز الذكوري الظاهر في كنيسة أورشليم. فالحقائق اللاهوتية الجديدة، التي أطلقتها قيامة يسوع وعطية الروح، استغرقت مع ذلك، على ما يبدو، بضع سنين حتى تتشرّبها الكنيسة الناشئة في القرن الأول. وحين نقرأ سفر أعمال الرسل من أوله إلى آخره، نلاحظ تطوّرًا ما في الممارسات، إذ تحتاج الكنيسة الأولى إلى وقت لتطبّق الإنجيل الذي نالته حديثًا. وعلى خطر التبسيط المفرط، تنقسم حقبة «الكنيسة الأولى» الموصوفة في العهد الجديد إلى مرحلتين. في العقد الأول، كانت الكنيسة في المقام الأول شيعةً يهودية في أورشليم. ثم انتشرت بسرعة خارج قاعدتها اليهودية إلى آسيا الصغرى وأوروبا، حيث صارت في المقام الأول جماعة من الأمم. وتبعًا لهذا التطوّر داخل الكنيسة الأولى، نرى انتقالًا واضحًا من قيادة يهودية فقط إلى قيادة من اليهود والأمم، وهي عملية استغرقت وقتًا مع أنه منذ البداية، من الناحية اللاهوتية، «ليس يهودي ولا أممي». فشيء مشابه يمكن افتراضه بشأن التقدّم البطيء الذي أحرزته الكنيسة في إطلاق النساء للخدمة إطلاقًا أكمل، مع أنه منذ البداية، من الناحية اللاهوتية، «ليس ذكر وأنثى». فأيّ هاتين المرحلتين في كنيسة العهد الجديد أكثر صدًى في الكنائس المعاصرة؟ مع أننا قد نستلهم من كنيسة أورشليم سنة 35 م، فالأرجح أن كنيسة رومية سنة 57 م تهدينا على نحو أفضل — إذ لم تعد شيعةً يهودية (وهذه هي الفكرة الكبرى في رومية 1-15)، ولم يعد الذكور يهيمنون عليها (وهذه هي الفكرة الكبرى في رومية 16).

خلاصة القول: هناك أسباب وجيهة كثيرة تدعونا إلى الاعتقاد بأن بريسكلا كانت راعية، ولا يوجد سبب سليم واحد يدعونا إلى عدم الاعتقاد بذلك. ولكن ربما ركّزنا أكثر مما ينبغي على بريسكلا. فهناك امرأة أخرى مذكورة في رومية 16 تشكّل أوراق اعتمادها في الخدمة توبيخًا قويًّا لتقليل شأن خدمة النساء في الكنيسة عبر التاريخ وفي الكنيسة المعاصرة.

يونيا الرسولة

بعد أن يسلّم بولس على بريسكلا وأكيلا، يمدح زوجين آخرين في كنيسة رومية: «سلّموا على أندرونكوس ويونيا، ابنَي قومي من اليهود، اللذين كانا في السجن معي. إنهما بارزان بين الرسل، وقد كانا في المسيح قبلي».[587]

587. رومية 16: 7

نفترض أحيانًا أن كل الخدمة المهمة التي جرت في العقود الأولى للكنيسة في العالم موصوفة في سفر أعمال الرسل. لكن هذه الآية تحطّم هذا التصوّر. فهنا زوجان لا يذكرهما سفر أعمال الرسل على الإطلاق، ومع ذلك يبدو أنهما قاما بخدمة بالغة الأهمية ورائدة، وبثمن باهظ: فقد سُجنا من أجلها.

حين يكتب بولس إلى كنيسة رومية، لم يكن قد زار تلك المدينة ولا الكنيسة بعد. فهي من الكنائس القليلة في أوروبا التي لم يؤسّسها. ويبقى لنا أن نخمّن من أسّسها، وهذان الزوجان، كما يعتقد كثير من الباحثين، هما المرشّحان الأرجح. فيونيا وأندرونكوس، وهما يهوديان مثل بولس، آمنا قبل بولس، وهذا يعني أنهما صارا من أتباع يسوع في كنيسة أورشليم. وربما كانا جزءًا من الدائرة الداخلية من المؤمنين في أورشليم الذين شهدوا يسوع القائم، والذين دُفعوا إلى العالم الأوسع حين قُتل استفانوس.

وكما في حالة بريسكلا وأكيلا، لا يترك لنا بولس أي فرصة لإقحام «نمط القائد والمُعين» التكاملي في زواجهما، بل يعاملهما بوصفهما زوجين خادمين حقيقيين، إذ ينسب إلى كليهما معًا المديح نفسه — كلاهما رسولان؛ وكلاهما بارزان في خدمتهما الرائدة؛ وكلاهما سُجنا. ومن المؤسف أن المفسّرين القائلين بالتراتبية يحاولون منذ زمن طويل التقليل من شأن خدمتها، بإحدى ثلاث طرق.

أولًا، يحاجّ بعضهم بأن يونيا لم تكن أنثى. فمع أنها عُرفت امرأةً حتى أواخر العصور الوسطى،[588] فإن جيلز الروماني (Giles of Rome) في القرن الرابع عشر عدّها ذكرًا لأنها دُعيت رسولة. لكن «تغيير الجنس» هذا كان، كما يقول أحد الباحثين، «من نسج خيال شوفيني».[589] فاسم Junia (يونيا) كان اسمًا مؤنثًا شائعًا في الإمبراطورية الرومانية، وهو مشتقّ من اللاتينية. وفي المقابل، يُظهر بحث شامل في قاعدة بيانات الأسماء القديمة أنه لم يُعثر على مثال واحد للاسم الذكوري المزعوم Junias (يونياس).[590] وبعد موجة متجدّدة في القرن العشرين من اعتبارها رجلًا، أكّد الإجماع العلمي منذ قرابة أربعة عقود مرة أخرى أنها كانت امرأة[591] (وإن كان بعض الباحثين

588. انظروا Paul Jewett, Romans, ص. 961–62. والاستثناء هو إپيفانيوس (315-403)، الذي يشير إلى رجل اسمه يونياس (Junias)، لكنه يظن أيضًا أن بريسكلا المذكورة في رومية 16: 3 رجل، ونحن نعلم أن هذا غير صحيح. ولذلك يبدو من الآمن استبعاده بوصفه شاهدًا موثوقًا. انظروا Junia, Eldon Epp, ص. 34.

589. Paul Jewett, Romans, ص. 962.

590. Kevin Giles, What the Bible Actually Teaches on Women, ص. 276

591. فمثلًا، يتبنّى هذا الرأي مفسّرون حديثون لرسالة رومية مثل M.J. Lagrange، Leon Morris، John Ziesler، J. A. Fitzmyer، C. E. B. Cranfield و James Dunn.

التكامليين لا يزالون يحاجّون بخلاف ذلك[592]).

ثانيًا، يقول بعضهم إنها لم تكن رسولة. ففي سنة 2001، كتب باحثان تكامليان[593] مقالًا استُخدم لتبرير ترجمة ESV التي اختارت: «كانت يونيا مكرَّمة جدًّا عند الرسل»، أي إنها ليست واحدة من الرسل. لكن ادعاء هذين الباحثين (ومن ثَمّ ترجمة ESV للآية) لم يصمد أمام مبدأ المراجعة من قِبل الأقران. فبعد فحص قاعدة البيانات وتحليل المفردات والقواعد، سرعان ما فنّد علماء النصوص مثل ليندا بلفيل (Linda Belleville) وإلدون إب (Eldon Epp) وريتشارد بوكهام هذا الادعاء، مُبيّنين أن الأكثر إقناعًا بكثير أن تُفهم الآية على أن يونيا كانت امرأة ورسولة معًا، بما يتّفق مع فهم الكنيسة الأولى.[594]

وحججهم مقنعة إلى حدّ أن توم شراينر نفسه اعترف أخيرًا بأنها كانت أنثى ورسولة،[595] وإن كان قد أثار في الوقت نفسه اعتراضًا آخر.

لم تكن رسولة بالمعنى الكامل. يقول شراينر إن «كلمة "رسل" هنا تشير على الأرجح إلى "مؤسّسي كنائس" أو "مُرسَلين"، ولذلك لا تضع يونيا وأندرونكوس في مستوى الاثني عشر أو بولس».[596]

لكن يبدو أن فهم شراينر للرسولية قاصر. فمع أن كلمة «رسول» تعني مُرسَل، هناك ثلاثة أنواع من «الرسل» في العهد الجديد. فهناك رسول النوع الأول، أي الاثنا عشر الذين اختارهم يسوع وهو بعدُ على الأرض. ثم هناك رسول النوع الثاني. ويشير هذا إلى الدائرة الأوسع من الرسل، ومنهم بولس وبرنابا ويعقوب، الذين قد يقيمهم يسوع ويرسلهم الآن وهو في السماء.[597] وتكاد كل الإشارات إلى الرسل في العهد الجديد

592. غير أن معظم كبار الباحثين التكامليين وتقريبًا كل المفسّرين الحاليين، مثل Andreas Köstenberger و Douglas Moo، يقرّون بأنها كانت أنثى.

593. Michael Burer و Daniel Wallace في "Was Junia Really an Apostle? A Re-examination of Romans 16:7" NTS 47 (2001)، ص. 76–91.

594. انظروا Linda Belleville, "A Re-examination of Romans 16:7 in Light of Primary Source Materials," NTS 51 (2005): ص. 231–49؛ Eldon Epp, Junia: The First Woman Apostle؛ Richard Bauckham, Gospel Women, ص. 165–85.

595. في كتاب "Recovering Biblical Manhood and Womanhood" الصادر سنة 1995 (ص. 221) يشكّك في أي يقين بأن يونيا رسولة، بينما في كتاب "Two Views of Women in Ministry" الصادر سنة 2005 (الفصل 1) يصل إلى موافقة رأي غالبية الباحثين. وبالمثل، في مراجعته لكتاب فيليب باين "One in Christ"، يوافق باين قائلًا: «كانت يونيا بشبه يقين امرأة، ويعرّفها بولس بأنها رسولة». (المصدر: www.bit.ly/3qaJctI) وهو ليس وحده — فمن كبار الباحثين التكامليين الآخرين الذين يوافقون على ذلك دوغلاس مو في تفسيره لرسالة رومية (ص. 923) وكوستنبرغر في "God's Design for Man and Woman" (ص. 153).

596. هذا ما يقوله شراينر في "Two Views of Ministry"، ص. 105. ويقدّم دوغلاس مو حجّة مشابهة في تفسيره لرسالة رومية، ص. 922.

597. انظروا أعمال 14: 14، 1 كورنثوس 9: 5-6، وغلاطية 1: 19.

تندرج تحت هذين الاستعمالين، مع أنه حين كُتبت رسالة رومية، بعد بضعة عقود من بدء قصة الكنيسة، لم يعد لفظ «الرسل» يشير إلى الاثني عشر، بل إلى الجماعة الأوسع. وكانت هذه هي الطريقة التي استعمل بها بولس اللفظ عادةً.

وأخيرًا، هناك رسول النوع الثالث، أي الذين تختارهم كنيسة معيّنة وترسلهم في مهمة ذات شأن، ولا سيما مهمة نقل عطية مالية. ففي موضعين فقط في العهد الجديد تُستعمل الكلمة لوصف شخص قد ترسله كنيسة محلية بمهمة خاصة هي أن يمثّل الكنيسة لدى شخص ما أو لدى كنيسة أخرى: فكنيسة فيلبي ترسل أبفرودتس «مُرسَلًا» ليعزّي بولس ويسدّ حاجته،[598] بينما تختار عدة كنائس كلٌّ منها شخصًا وترسله للمساعدة في حمل عطية مالية كبيرة إلى كنيسة أورشليم[599] — وتترجم NIV الكلمة هنا بـ«ممثّلين».

فأيّ معنى يقصده بولس حين يقول إن يونيا واحدة من «الرسل»؟ واضح أنه لا يمكن أن يقصد رسل النوع الأول الذين يسمّيهم بولس في موضع آخر «الاثني عشر».[600] ومن شبه المؤكّد أنهما ليسا مجرد ممثّلين للكنائس من النوع الثالث في مهمة خاصة. ونحن نعرف ذلك لأن بولس، في الموضعين اللذين يستعمل فيهما اللفظ بمعنى الممثّل المُرسَل، يقيّده بضمائر الملكية: فأبفرودتس هو «رسولكم»، بينما حاملو المال هم «رسل الكنائس». وفي المقابل، رسول النوع الثاني ليس مجرد ممثّل لكنيسة محلية ما — بل يرسله المسيح نفسه. وكون بولس يدعو الزوجين ببساطة «رسولين» يدل على أنهما لم يُرسَلا من كنيسة في مهمة فحسب. فلا أبفرودتس ولا حاملو المال تعرّضوا لخطر السجن بأدائهم تلك المهام، أمّا يونيا وزوجها فقد سُجنا — والأرجح أن ذلك كان بسبب قيامهما بعمل رسول النوع الثاني. فمثل بولس، كُلِّفا مباشرةً من يسوع المسيح بخدمة رائدة باهظة الثمن، تشمل الكرازة بالإنجيل، وتأسيس الكنائس وتثبيتها، ووضع تعليم هذه الكنائس، وإعداد الرعاة ورسامتهم.

ومع أن رسولية بولس فريدة من نوعها داخل الدائرة الأوسع من الرسل، لأنه يكتب أيضًا أسفارًا من الكتاب المقدس، كما فعل بعض الاثني عشر، فإنه مع ذلك يستعمل لغة تُماهي بين الزوجين الرسوليين وبينه هو. فهما «ابنا قومي من اليهود». وقد كانا في السجن «معي».

598. فيلبي 2: 25
599. 2 كورنثوس 8: 23
600. 1 كورنثوس 15: 5

ونتساءل كيف يجعلها وصف شراينر ليونيا بأنها مجرد «مؤسِّسة كنائس» أو «مُرسَلة» أقلّ من بولس، الذي كان هو بالضبط ذلك. بل إن بولس يستعمل لغة تعبّر عن أن يونيا، في نظره، نظيرته. فماذا يمكن أن يعني غير ذلك بقوله إنها «بارزة [أي في رأس الصف] بين الرسل»، وهي جماعة تشمله هو نفسه؟ ولعلّ جزءًا على الأقل مما أثار إعجاب بولس بيونيا هو أنها كانت، على ما يبدو، تقوم بالعمل الرسولي مدة أطول منه. فكما يقول هو، كانت «في المسيح قبلي».

وهنا يكمن خطأ شراينر: فمحاولته جعل يونيا أقلّ من بولس تناقض محاولة بولس جعلها أشبه به، بل وأعظم منه. ولعلّه يحسن بشراينر أن يصغي إلى كلمات أب الكنيسة يوحنا الذهبي الفم في تفسيره القديم لرومية 16: «أن يكون المرء رسولًا أمر عظيم. ولكن أن يكون بارزًا بين الرسل — فكّروا فقط أيّ نشيد مديح رائع هذا! لقد كانا بارزَين على أساس أعمالهما وأفعالهما الفاضلة. حقًّا، ما أعظم حكمة هذه المرأة حتى إنها حُسبت أهلًا للقب رسول».[601]

نخلص إلى أن يونيا كانت امرأة، وكانت رسولة — بل رسولة من النوع الثاني. ولكن هل ترون ما يعنيه هذا كله؟

مع أن معظم الطوائف الكنسية الحديثة لا تعترف بخدمة الرسولية، فإن العهد الجديد يقول في موضعين إنها أهمّ خدمة على الإطلاق. بل إن بولس يستعمل كلمة «أولًا» حين يصف الطريقة التي يؤسّس بها الروح القدس مزيدًا من الكنائس في العالم. فهو يقول: «وضع الله في الكنيسة أولًا رسلًا، ثانيًا أنبياء، ثالثًا معلّمين، ثم قوات، وبعد ذلك مواهب شفاء، أعوانًا، تدابير، وأنواع ألسنة».[602]

وهذا يطرح سؤالًا بسيطًا: إن كانت رومية 16: 7 تذكر امرأة كانت رسولة، وبالتالي جزءًا من أرفع الخدمات وأهمّها وأكثرها تأسيسًا وسلطانًا في العالم، فهل يكون من المشكل أن تقود امرأة في أي مستوى أدنى من الخدمة، بما في ذلك أن تكون قائدة لكنيسة محلية؟ إن الجواب يناقض الاعتقاد التكاملي بأن النساء لا يستطعن ممارسة سلطة عليا في الكنيسة إلى حدّ أننا صرنا نفهم الآن الأشواط التي يبدو أن باحثيه يقطعونها للتشكيك في جنس يونيا ورسوليتها.[603]

601. يوحنا الذهبي الفم، العظة 31 على رسالة رومية
602. 1 كورنثوس 12: 28-29. انظروا أيضًا أفسس 4: 11.
603. والنتيجة الأخرى المترتّبة على هذا كله أن لدينا سببًا إضافيًّا لقبول بريسكلا راعيةً، فإن كانت يونيا قد شاركت زوجها منصب الرسولية، فيمكننا أن نفترض أنه كان من الطبيعي أن تشارك بريسكلا زوجها أكيلا منصب القيادة الرعوية.

النبيّات

في العهد الجديد لدينا رسولة (يونيا)، ومبشّرة (المرأة السامرية)، وراعية ومعلّمة (بريسكلا). وهذا يذكّرنا بمناصب القيادة الخمسة المذكورة في أفسس 4: 11 («والمسيح نفسه أعطى الرسل، والأنبياء، والمبشّرين، والرعاة والمعلّمين، ليجهّز شعبه».[604])، وهو ما يوجّهنا بدوره إلى خدمة أخرى بالغة الأهمية لم نتناولها حتى الآن في هذا الفصل: الأنبياء.

واستمرارًا لتقليد النبيّات في الكتاب العبري (ومنهن مريم ودبورة وخلدة)، وتحقيقًا لنبوءة يوئيل عن تنبّؤ النساء والبنات، هناك عدة نبيّات مذكورات بالاسم في العهد الجديد: حنّة، ومريم أم يسوع، وبنات فيلبس الأربع.[605] ويمدح بولس أيضًا نساءً غير مسمّيات يتنبّأن في كنيسة كورنثوس.[606] وفي سفر الرؤيا، يواجه يسوع نبيّةً ومعلّمة، وربما قائدة، في كنيسة ثياتيرا، بل يعطيها وقتًا لتتوب، لا لأنها كانت تحاول أن تعلّم وتتنبّأ بوصفها امرأة، بل لأنها كانت شخصًا منحلًّا أخلاقيًّا يروّج للانحلال.[607]

ومع أنه يبدو أن في العهد الجديد فرقًا بين المنصب القيادي للنبي، وهو أقل شيوعًا (ومذكور في أفسس 4: 11)، وموهبة التنبّؤ الأكثر شيوعًا، فلا يوجد في النص أي شيء على الإطلاق يوحي بأن النساء لم يكن يستطعن أن ينلن إلا الموهبة دون المنصب، ولا سيما في ضوء النساء اللواتي شغلن بوضوح منصب النبيّ في العهد القديم. والآن تأمّلوا كم هذه البصيرة حاسمة.

كان الأنبياء معلّمين أيضًا — وإلا فلماذا يقول بولس في 1 كورنثوس 14 إنهم قد يأتون بـ«كلمة تعليم»[608]؟ وبعد تحليل 1 كورنثوس 14، يستنتج ديريك مورفيو: «النبوّة عند بولس لفظ يشمل أنواعًا معيّنة من التعليم الموحى به. فتعليم النبي يتداخل مع تعليم المعلّم، ولا يمكن التمييز بينهما إلا بالطريقة التي يُقدَّم بها، أو بالمكانة المعترف بها للمعلّم بوصفه نبيًّا».[609]

604. مع أن 1 كورنثوس 12 ورومية 12 تشيران إلى المواهب بوصفها وظائف تُعطى لأشخاص مختلفين (ومنهم النساء)، فإن أفسس 4: 11 يتحدث عن قادة معيّنين هم أنفسهم عطايا يسوع للكنيسة.
605. لوقا 2: 36؛ أعمال 1: 14 و2: 17؛ أعمال 21: 9
606. 1 كورنثوس 11: 4
607. رؤيا 2: 20-24
608. 1 كورنثوس 14: 26
609. ديريك مورفيو في "Equal but Different" يستشهد بـ E.E. Ellis في "Prophecy and Hermeneutics in Early Christianty" (ص. 141).

أمّا الطوائف الحديثة التي تميل إلى رسم حدّ فاصل واضح بين المعلّمين والأنبياء، وإلى وضع المعلّمين في رتبة أعلى من الأنبياء، فتحاول أن تُسقط معتقداتها على العهد الجديد بقولها إن التعليم جدير بالثقة ومن ثَمّ له سلطان، بينما قد تكون النبوّة أكثر عفوية ومن ثَمّ ليس لها سلطان. وفي الواقع، يُنتظر من تعاليم المعلّمين ومن تعاليم الأنبياء على السواء أن تكون صادقة ومُرشَدة بالروح، لكنها كلها معرّضة لخطر أن تكون غير صادقة، ولذلك يجب أن تمتحنها الكنائس.[610] بل إن بطرس يخلط بين التعليم الكاذب والنبوّة الكاذبة، ومن ثَمّ بين التعليم والنبوّة: «[و]كان أيضًا في الشعب أنبياء كذبة، كما سيكون فيكم أيضًا معلّمون كذبة».[611] ومع هذا التداخل المفهومي بين التعليم والنبوّة، «حاجّ اللاهوتيون والمفسّرون البروتستانت قبل ظهور التكامليين على الساحة بأن النبوّة شكل من أشكال الوعظ [الكتابي]، [الذي كان] من أهم الخدمات في الكنيسة الأولى. بل إن جون كالفن نفسه رأى النبوّة "تفسيرًا للكتاب المقدس مطبَّقًا على الحاجة الحاضرة"».[612]

إن العهد الجديد ببساطة لا يدعم الطريقة التي يقول بها الباحثون التكامليون إن التعليم خدمة «رسمية» بينما النبوّة خدمة «غير رسمية».[613] فخارج مناصب القيادة الخمسة التي يذكرها بولس في أفسس 4: 11، أقرب ما نجده إلى تعبير بولس عن أي شيء يمكن أن يُسمّى خدمة «رسمية» هو أفسس 2: 20، حيث يقول بولس إن الكنائس يجب أن تُبنى على خدمات «الرسل والأنبياء» (دون ذكر للرعاة أو المعلّمين)، و1 كورنثوس 12: 28 حيث يرتّب بولس المناصب من الأبرز والأكثر أهمية استراتيجية إلى الأدنى: «وضع الله، أولًا، رسلًا، ثانيًا أنبياء، ثالثًا معلّمين». فليس لدينا أي مسوّغ كتابي لإعطاء التعليم رتبة أعلى من التنبّؤ — بل إن كان من شيء، فيمكننا أن نحاجّ بأن الأنبياء أعلى رتبة من المعلّمين. فالتعليم والنبوّة كلاهما لهما سلطان بقدر ما تكون الرسالة التي يحملانها صادقة ومن الله. خلاصة القول: إن الحجّة التكاملية القائلة بأن الإناث يمكن أن يكنّ نبيّات لا راعيات أو معلّمات، لأن هؤلاء لهم سلطة أعلى في خدمتهم «الرسمية»، قد تبدو منطقية في كثير من البيئات الكنسية الحديثة، لكنها تناقض لاهوت بولس.

610. 1 كورنثوس 14: 29؛ رؤيا 2: 20، 24
611. 2 بطرس 2: 1
612. Kevin Giles, What the Bible Actually Teaches on Women, الفصل 6.
613. يقتبس كيفن جايلز قول باحث تكاملي: «إن الوظيفة ذات السلطان للنبوّة لا تكمن في منصب مؤسّسي، بل في القول نفسه بوصفه كلمة الله». (الفصل 6) لكن هذه الحجّة تعمل في الاتجاهين. فيمكنكم أيضًا أن تقولوا: «ليس للمعلّم ولا للتعليم سلطان ذاتي؛ فما له سلطان، كما في النبوّة، هو "القول نفسه بوصفه كلمة الله"».

الحجّة من تاريخ الكنيسة

ومن الطرق الأخرى التي يسعى بها الباحثون التكامليون إلى دحض كون بريسكلا راعية ويونيا رسولة، الإشارة إلى أن آباء الكنيسة، على حدّ علمنا، لم يعيّنوا نساءً قائدات أو معلّمات منذ القرن الثاني فصاعدًا. بل إنهم، مع مرور الزمن، ضيّقوا على ذلك أكثر فأكثر.[614] فماذا نقول في هذا؟

في الفصل 2، استعرضنا من جديد مواقف كراهية النساء الظاهرة لدى كثيرين جدًّا من آباء الكنيسة. وكما رأينا، فقد غابت عنهم للأسف رؤية يسوع للنساء، وقرأوا الكتاب المقدس من خلال عدسة ثقافتهم الأبوية بدلًا من أن يقرأوا ثقافتهم من خلال عدسة الكتاب المقدس. وهكذا، قبل أن يجفّ حبر العهد الجديد المحتفي بالمرأة، تسرّبت كراهية النساء إلى الكنيسة. دعكم من رسامة راعيات، فقد صارت الكنيسة على يقين من دونية المرأة وتبعيتها إلى حدّ أن قلّة نادرة من الكنائس في القرون الغابرة رسمت حتى شمّاسات.

ومع أن لدينا الكثير لنتعلّمه من تاريخ الكنيسة، فعلينا أيضًا أن ننتقده بفهم أفضل للكتاب المقدس وللتعليم الكتابي في شتّى المواضيع. فمثلًا، مع أن الكنيسة في قرونها الأولى أحرزت تقدّمًا كبيرًا في تحديد العقائد المتعلقة بالثالوث وبيسوع المسيح، يبدو أنها سرعان ما حادت عن تعليم العهد الجديد بشأن القيادة الكنسية. فبحلول نهاية القرن الأول، تُخُلّي عن القيادة الجماعية التي يؤكّدها العهد الجديد. وقد وجّه أب الكنيسة إغناطيوس كل كنيسة إلى أن تُقاد بنظام الأسقفية الأحادية (الملكية) — أي براعٍ منفرد، وهي فكرة لا تزال تُمارَس على نطاق واسع.

ولم يحدث إلا بعد الإصلاح أن استعادت جماعات، مثل المشيخيين، فكرة تعدّد القيادة. ومع أن طوائف بأكملها تتبنّى هذا مرة أخرى اليوم، فإننا نلاحظ أن هذا كان انحرافًا عن أكثر من ألف سنة من «تاريخ الكنيسة»، انحرافًا قائمًا على إعادة اكتشاف ما علّمه العهد الجديد طوال الوقت. وبالمثل، فإن رفض دونية المرأة وتبعيتها كلتيهما، وقد كانتا متفشّيتين في تاريخ الكنيسة، يجد مسوّغه في إعادة اكتشاف ما علّمه العهد الجديد طوال الوقت.

614. إن وجود بعض النساء على الأقل اللواتي رُسمن شيوخًا (presbyters) للكنائس في عصر الآباء واضح من تحريم هذه الممارسة في مجامع مثل مجمع لاودكية سنة 370 م.

ومع أن التاريخ البشري، في معظمه خلال القرن الماضي، أتاح لعدد متزايد من النساء أن ينضممن إلى الرجال على رأس المجتمع، فإن المفارقة هي أن كثيرًا من الكنائس ذات القيادة الجماعية سارت في الاتجاه المعاكس. ففي قرون الأسقفية الأحادية، كان رجل واحد يقود الكنيسة، وهذا يعني على الأقل أن كثيرًا من النساء كان بإمكانهن من حيث المبدأ أن يقفن إلى جانبه في خدمات من الدرجة الثانية. ولكن حين افترض الذين استعادوا القيادة الجماعية أيضًا أن كل من في فريق القيادة يجب أن يكون ذكرًا، صارت هذه الكنائس خاضعة لهيمنة الذكور أكثر من أي وقت مضى!

إنني ممتنّ جدًّا لأنني أحيا في زمن أعاد فيه عدد متزايد من الباحثين اكتشاف التعليم الشامل للكتاب المقدس — فإن كانت بريسكلا راعية، ويونيا رسولة، وكانت هناك نبيّات، فلا يوجد سبب وجيه لإقصاء النساء عن أي مجال من مجالات عمل الملكوت. ومع أنه لا ينبغي أن نتعامل مع التقليد باستخفاف، فإن يسوع يعلّمنا أن نجدّد تقاليدنا بناءً على فهمنا المتجدّد للكتاب المقدس، ويحذّرنا من استعمال التقاليد للتهرّب من العمل بما يقتضيه الإنجيل.[615]

الكتابيّ في مقابل النصّيّ الحرفيّ

وحتى بعد كل ما قلته، لا يزال بعضهم يتشبّث بموقفه قائلًا إنه ما لم يكن لدينا يقين بنسبة مئة في المئة بأن بريسكلا أو امرأة أخرى كانت راعية، فينبغي أن نميل إلى جانب الحذر وألا نرسم راعيات اليوم.

والمشكلة الأولى في هذا هي أنه ليس لدينا يقين مطلق بأن أيّ أممي أو عبد رُسم شيخًا في العهد الجديد. فنحن لا نعرف إلا رجلًا واحدًا ربما كان راعيًا — بطرس، وهو رجل يهودي حرّ. فهل نمنع الآن، باسم اليقين، الأمم والناس من ذوي المكانة المتدنية من القيادة العليا في الكنائس؟[616] علينا أن نكون متّسقين. فإن كنا متوجّسين من

615. متى 15: 2-6

616. لماذا نرتاح إلى هذا الحدّ لرسامة الأمم في الكنيسة الحاضرة؟ لا أريد أن أُحمّل هذه الحجّة، القائلة بعدم وجود برهان على شيوخ من الأمم، وزنًا كبيرًا، لكنني سأتوقّف عندها لأُبيّن أننا ننتهي إلى حالة عدم الحسم نفسها التي نجدها في المحاجّة لصالح وجود شيخات أو ضدّه. من هم القادة اليونانيون في الكنيسة الأولى؟ تيطس اليوناني لم يكن شيخًا بل مندوبًا رسوليًّا. وتيموثاوس، الذي علّمته الكتبَ أمٌّ وجدّة يهوديتان، كان يهوديًّا أكثر منه غير يهودي. وحتى لو كان من الأمم، فقد كان أيضًا مندوبًا رسوليًّا لا شيخًا. ومن المشكوك فيه أن لوقا كان من الأمم، وحتى لو كان كذلك، فقد كان رفيق سفر وكاتبًا، لا شيخًا. ومن المعقول على الأقل أنه بما أن استراتيجية بولس كانت أن يذهب إلى اليهود أولًا في أي بلدة، وبعد ذلك فقط إلى الأمم، فقد كان يختار الشيوخ من الجماعة اليهودية الذين يعرفون الكتب جيدًا. ومع ذلك، مَن منّا، إذ يسمع كل هذا، سيمنع الأمم لذلك من أن يكونوا شيوخًا؟ لست أنا، وعلى الأرجح لستم أنتم. فلماذا إذن يرغب كثيرون جدًّا في منع النساء من خدمة الشيوخ بحجّة أنه لا يمكن الاستشهاد بمثال كتابي حاسم؟ ولو حاول أحد أن يدافع عن جواز أن يكون الأمم شيوخًا، فكيف سيفعل ذلك؟ أظن

وجود شيخات لأنه لا يمكن الاستشهاد بأمثلة صريحة، فينبغي أن نكون متوجّسين بالقدر نفسه من شيوخ من الأمم.

لكنّ المشكلة الأكبر هي أنّ هذه ليست على الإطلاق الطريقة التي يُراد لنا أن نطبّق بها الكتاب المقدس! إنه نهجٌ نصّيّ حرفيّ، لا نهجٌ كتابيّ. فالأول لا يسمح بشيء ما لم يجد المرء آيةً تؤيّده، أمّا الثاني فيسعى إلى التصرّف بما يتّفق مع مبادئ الكتاب المقدس، حتى لو عنى ذلك أنّ المرء لا يجد نصًّا داعمًا يفرض تلك الممارسة بعينها. وأنا أقترح أنه حين يتعلّق الأمر برسالة الكنيسة التي يقودها الروح وتراعي السياق، علينا، بدلًا من أن نتّخذ موقفًا نصّيًّا حرفيًّا خائفًا لا يفعل شيئًا ما لم يجد نصًّ إثبات، أن نتّخذ موقف مَن هو حرّ في أن يعمل بما يتّفق مع مبادئ الكتاب المقدس.

والحقّ أنّ هذه هي أصلًا طريقتنا المعتادة في العمل في مئة أمر تفعله اليوم الكنائس الحديثة ذات الحسّ الإرساليّ: فقد نستخدم الآلات الموسيقية وأنظمة الصوت، وننظّم فرقًا متخصّصة للتشفّع، ونوزّع نشرات تبشيرية، ونبني مسارات لتنمية القادة، ونوظّف عدّة عاملين، ونطبع نسخًا من الكتاب المقدس ونوزّعها، وننشئ مواقع إلكترونية، ونشتري مباني، أو نفصل الأطفال والمراهقين بعضهم عن بعض وعن البالغين. وطوال ذلك، لا يُفرَض أيّ من هذه الأمور في العهد الجديد، بل لا يوصَف حتى.

إنّ حرية رسامة نساء راعيات اتجاهٌ له ما يوازيه من تأكيد في الكتاب المقدس: فبما أنه كان في الكنيسة بالتأكيد مبشّرات، ونساء على رأس بيوتهنّ، ومعلّمات، ونبيّات، وشمّاسات، ورسولات، وفي غياب نهيٍ كتابيّ واضح عن ذلك، فمن المعقول، لا من غير المعقول، أن نُقرّ بوجود شيخات (نساء في مجلس الشيوخ) في الأحوال التي يُقيمهنّ فيها الله ويكون ذلك نافعًا للرسالة — وهذا هو الحال في معظم الثقافات المساواتية اليوم. وكما يقول جامين هوبنر، لا معنى لأن «تُحال مشيخة الكنيسة أو الوظيفة الرعوية إلى فئة مستقلّة خاصة منفصلة عن هذه الوظائف الأخرى — بحيث يمكن أن يُستبعَد أحد الجنسين تلقائيًّا وعالميًّا ودائمًا من دور واحد، ومع ذلك يؤدّي جميع الوظائف الأخرى».[617] ويصحّ هذا بنوع خاص حين لا يستطيع المرء أن يكون متيقّنًا من أنّ الشيوخ في عصر العهد الجديد كانوا رجالًا فقط؛ وحين لا يوجد أيّ حظر صريح لمشيخة النساء؛ وحين يمكننا أن نكون شبه متيقّنين من أنّ بريسكلا، مثل زوجها، كانت راعية.

617. يقول جامين هوبنر في أطروحته للدكتوراه، “A New Case for Female Elders.” (المصدر: www.bit.ly/3BNaSY8 ص. 171)

ثم إنّ السبب الذي جعل كنيسة رومية مستعدّة لإفساح المجال لقائدات ومعلّمات في وسطها هو أنها فهمت جيدًا المبدأ الموجِّه القائم على الاعتراف بالمواهب الروحية.

13

الموهبة (رومية 12) مقابل الجنس (1 تيموثاوس 3)

«حين يُستخدم الجنس لإجراء الفرز الأول، فإنّ ما وهبه الله ... للنساء من مواهب وقدرات قد ينتهي به المطاف على رفّ في خزانة. والإحباط الذي قد يولّده إنكار هذه المواهب نتيجةٌ واحدة، لكنّ الأشدّ منه هو الغضب أو الحزن الذي يُختبَر حين يُستهان بجزء أصيل من كياننا الشخصي.» أليس ماثيوز (Alice Mathews)[618]

إنّ من أثمان النظام الأبوي في المجتمع أنه لا يكبت إسهام نصف السكان فحسب، بل يجعل أيضًا الإسهام المتواضع أكثر احتمالًا لدى أولئك في النصف الآخر الذين كثيرًا جدًّا ما يشعرون بأنّ لهم حقًّا في الترقّي، مع أنّ غيرهم قد يكونون أكفأ منهم للوظيفة. وفي كتابها الصادر عام 2019 عن المرأة في القيادة، تشرح ميليندا غيتس (Melinda Gates) رأيها في إعادة التوازن إلى كفّتَي المساواة بين الجنسين، فتقول:

لم أرَ قطّ أنّ النساء أفضل من الرجال، ولا أنّ أفضل طريقة لتحسين العالم هي أن تنال النساء سلطة أكثر من الرجال. أعتقد أنّ هيمنة الذكور مضرّة بالمجتمع لأنّ أيّ هيمنة مضرّة: فهي تعني أنّ المجتمع تحكمه تراتبية زائفة تُمنح فيها السلطة والفرص بحسب الجنس والعمر والثروة والامتياز — لا بحسب المهارة والجهد والموهبة أو الإنجازات.[619]

ويمكن قول شيء مشابه عن الكنيسة حين تختار قادتها ومعلّميها على أساس الجنس. طبعًا، في سياق أبويّ إلى حدّ بعيد (كبلد إسلامي متشدّد)، حيث قد يُعدّ ذلك عثرة شديدة أمام قبول الذين من خارج للإنجيل، قد يكون من النافع للرسالة ألّا يُختار قادةً في الكنيسة إلا الرجال. أمّا حين لا تبقى عثرة كهذه، فيبدو لي واضحًا أنّ الموهبة يجب أن تكون لها الكلمة الأخيرة.

618. Alice Mathews, Gender Roles and the People of God، الفصل 13
619. Melinda Gates, The Moment of Lift: How Empowering Women Changes the World

تأمّلوا قوائم بولس الكثيرة للمواهب الروحية[620] في رسائله إلى كنائس رومية وأفسس وكورنثوس (وهي، ويا للمصادفة، الكنائس التي ساعدت بريسكلا في مراحل معيّنة على قيادتها)، فستجدون أنّ الروح يوزّع هذه المواهب دون أيّ اعتبار لجنس الإنسان أو مكانته في المجتمع. يبدو أنّ الروح واهب المواهب لا يلتفت إلى الجنس.

والسبب في أنّ كنيسة رومية كانت مرتاحة إلى هذا الحدّ لإفساح المجال للنساء في أدوار ذات إسهام كبير، كما يتّضح في رومية 16، هو أنه كان لديها فهم راسخ للمواهب بوصفها أساسًا لتوزيع الأدوار، كما يتّضح في رومية 12:

لنا مواهب مختلفة بحسب النعمة المعطاة لكلّ واحد منّا. فإن كانت موهبتك نبوّةً، فلتكن النبوّة بحسب الإيمان؛ وإن كانت خدمةً، فلتكن الخدمة؛ وإن كانت تعليمًا، فليكن التعليم؛ وإن كانت تشجيعًا، فليكن التشجيع؛ وإن كانت عطاءً، فليكن العطاء بسخاء؛ وإن كانت قيادةً، فلتكن القيادة باجتهاد؛ وإن كانت رحمةً، فلتكن الرحمة بسرور.[621]

لو كان بولس يعتقد أنّ أدوارًا معيّنة محصورة بحسب جنس الإنسان، لكان هذا الموضع المثاليّ ليقول ذلك. لكنه لا يقوله. ليس في هذا المقطع شيء على الإطلاق يوحي بأنّ بولس ربما يستثني النساء من أيّ من هذه المواهب.[622] وحين نقرأ حتى نهاية رسالته ونجد ذكره لبريسكلا مثلًا، التي قادت الرجال وعلّمتهم بحسب الأدلة، يكون لدينا تفسير: لا بدّ أنّ بريسكلا كانت تملك موهبتَي التعليم والقيادة الروحيتين.

المواهب الروحية أداةً للمساواة

إنّ إطلاق الناس في المناصب والوظائف على أساس المكانة أو العِرق أو الجنس يفرّق الناس من غير قصد، أمّا القيام بذلك على أساس المواهب الروحية فيوحّدهم. فالأول قائم على تفضيلات بشرية، أمّا الثاني فقائم على اختيار إلهيّ. تأمّلوا التزام بولس بالوحدة العملية بين اليهود والأمم في رسالتيه البديعتين إلى أهل أفسس وإلى أهل رومية. ففي أفسس 1-3 ورومية 1-11 يبدأ بالأساس اللاهوتي للوحدة، ثم في أفسس 4-6 ورومية 12-15 يفصّل التقوى اللازمة لعيش تلك الوحدة عمليًّا. لكن لاحظوا أنّ تعليمًا عن المواهب الروحية التي تُظهر المساواة في رومية 12: 3-8 وأفسس 4: 11-

620. انظروا أفسس 4: 11؛ 1 كورنثوس 12 و14؛ رومية 12: 6-8.
621. رومية 12: 6-8
622. لا يوجد فيه حتى ضمير مذكّر واحد، كأن يُقال: «إن كان تعليمًا، فليعلِّمْ هو».

16 هو الغراء الذي يربط القسم الأول بالقسم الأخير. يبدو أنّ بولس يقول إنه بما أنّ الروح يقسم المواهب، ومنها مواهب القيادة والتعليم، بغضّ النظر عن عِرق الإنسان، فهذه طريقة أخرى يوحّد بها أناسًا من أعراق مختلفة. وبالمثل، في 1 كورنثوس، وإن لم تكن مقسّمة بدقّة إلى هذه الأقسام نفسها، نلاحظ كيف أنّ معالجة بولس اللاهوتية للتفاوت بين الذكر والأنثى، والغنيّ والفقير، يقوّيها تعليمه عن الطريقة التي يوزّع بها الروح المواهب بسيادة (ومن ثمّ دون اعتبار لمكانة الإنسان في المجتمع أو لجنسه).

وفي هذا كلّه يقدّم بولس ثلاثة أسباب محفّزة للوحدة التي يتوقّع أن يراها بين اليهود والأمم (ويمكننا أن نضيف: بين الغنيّ والفقير، والعبد والحرّ، والذكر والأنثى): فهمٌ للإنجيل الموحِّد الذي يهدم حواجز المجتمع؛ والتزامٌ يبني الوحدة بمحبة الناس المختلفين عنّا وخدمتهم؛ واعترافٌ بالمواهب التي يعطيها الله لمن يشاء. وفي مقابل «حرب الجنسين»، فإنّ حلّ الله الذي يوحّد الجنسين هو أن ننضمّ نحن الكنيسة إليه في كونه «لا يحابي الوجوه»، وأن نفسح المجال للقيادة والتعليم لأولئك الذين يمنحهم الله بسيادته المواهب ويدعوهم إلى ذلك.

خطر كبت المواهب

إنّ مأساة إساءة تفسير 1 تيموثاوس 2: 12 على أنه حظر عالميّ يمنع أيّ امرأة من تعليم أيّ رجل أو قيادته هي أنه يصير سترةَ تقييدٍ للنساء اللواتي يمنحهنّ الروح هذه المواهب. فأن تقول لهؤلاء النساء أن يستخدمن مواهبهنّ مع الأطفال والنساء الأخريات فقط لا يهينهنّ فحسب، بل — وهذا ما يقلقني حقًّا — يحرم الكنيسة التي تحتاج أشدّ الحاجة إلى كلّ قنوات النعمة التي يعطيها الله لها.

ومع ذلك، فإنّ إحدى المؤسّسات للتكاملية تنصح النساء فعليًّا بأن يُسدلن حجابًا على مواهبهنّ حين يكون رجل في الغرفة: «المرأة الحكيمة تفضّل أن تتخلّى عن فرصة لإظهار موهبتها واستخدامها إن كانت باستخدام تلك الموهبة ستخاطر بجلب العار على كلمة الله، ومن ثمّ عليه هو.»[623] وبالمثل، فإنّ كيفن دي يونغ، بعد أن يُقرّ بأنّ «للنساء مواهب روحية حيوية، منها مواهب التعليم والقيادة»، يصرف هذه المواهب مع ذلك بعيدًا عن الرجال: «من المؤكّد أنّ تعليم الأطفال والنساء الأخريات ليس هدرًا لمواهب المرأة، أليس كذلك؟»[624] لكنّ تعليم بولس عن قبول إسهامات المؤمنين

623. تقول ذلك دوروثي باترسون (Dorothy Patterson) في "Women in the Church" (2nd Edition)، الفصل 6

624. المصدر: www.bit.lv/3k2AA4x

الآخرين باتّضاع يحذّر من هذه المشاعر المؤذية: «لا تقدر العين أن تقول لليد: "لا حاجة لي إليكِ!" أو الرأس أيضًا للرجلين: "لا حاجة لي إليكما!"»[625]

جلستُ للتوّ لاحتساء القهوة مع قائدة موهوبة على نحو رائع تركت الخدمة الكنسية المأجورة. أخبرتني عن ألم تهميش إسهامها في الكنيسة، وعدم الثقة به، بل وإسكاته في بعض الحالات، على أيدي رجال في الكنيسة. وبالمثل، تروي أليس ماثيوز، وهي لاهوتية وعميدة أكاديمية سابقة في الثمانينيات من عمرها، عن عذاب ركن مواهبها على الرفّ معظم حياتها:

قبل سنوات كثيرة، حين كنّا أنا وزوجي نخدم مرسَلَين في أوروبا، كنت جالسة على سريرنا ذات صباح أقرأ متى 25. وحين وصلت إلى نهاية مثل الوزنات، وجدت نفسي أبكي. وصلّيت: «يا ربّ، هلّا تساهلت معي لأنني لا أستخدم ما أعطيتني إياه، لأنّ أصحاب السلطة لا يسمحون لي؟» لقد تغلّب الجنس على الموهبة، وشعرت بالعجز عن فعل أيّ شيء حيال ذلك. وهذه ليست تجربة نادرة لدى كثير من النساء المسيحيات.[626]

والكنيسة التكاملية لا تخاطر بإيذاء الأفراد فحسب، بل تعيق أيضًا الفاعلية الإرسالية للكنيسة كلّها. ففي مدينتي، حظيت بامتياز أن أشهد كنيسة قريبة تنمو بسرعة حتى بلغت الآلاف، إذ تفسح المجال للرجال والنساء بحسب المواهب، ودون اعتبار للجنس. الرجال والنساء يقودون على السواء. والنساء والرجال يعظون على السواء.

قد يجد جون بايبر وتوم شراينر أنّ قيادة الرجال وحدهم ودعم النساء لهؤلاء الرجال أمرٌ «جميل»، لكنني أجد أجمل بكثير أن أرى الرجال والنساء يقودون ويعلّمون جنبًا إلى جنب.

في مرّات قليلة خلال الفترة الماضية، أعتقد أنّ روح الله شاركني بعضًا من حزنه هو على كبت إسهام النساء. ففي إحدى المناسبات، في مؤتمر للقيادة تابع لحركة تكاملية، تحدّثت امرأة مدة 15 دقيقة عن كلّ ما تعلّمته في الوصول إلى أصدقائها من أجل يسوع. دوّنتُ الملاحظات بحماسة، واستمددت منها إلهامًا كبيرًا. لكن بعد ذلك علّق أمامي صديق متقدّم في اللاهوت، وذلك على الرغم من أنها التزمت بالتكليف بألّا تعلّم أيّ لاهوت: «يقشعرّ بدني حين تقف امرأة وراء المنبر.» أحزنتني ملاحظته — فإذ عجز عن أن يراها كما يراها الله، لم يستطع حتى أن يسمع كلام الله من خلالها.

625. 1 كورنثوس 12: 21
626. Alice Mathews, Gender Roles and the People of God، الفصل 13

أليس فرضُ تفسيرٍ خاطئ لنصّ واحد على كنيسةٍ مخاطرةً روحية لا تُحصى بالنسبة إلى الناس الذين كانوا سيستفيدون، لولا ذلك، من خدمات مختلطة بين الجنسين في التبشير والتلمذة والرعاية والقيادة وغرس الكنائس؟ ففي الكنيسة المحلية نحتاج إلى أن تعمل كلّ موهبة بطريقة قد تنفع كلّ شخص آخر، لكي «تنمو الكنيسة وتبني نفسها في المحبة، إذ يقوم كلّ جزء بعمله».[627] على المرء أن يكون متيقّنًا تمامًا من تفسيره للنصّ في 1 تيموثاوس 2: 12 لكي يبرّر الحدّ من الاستخدام الكامل للمواهب التي يوزّعها الروح القدس على النساء. لكن كما اقترحتُ في الفصل 7، لا ينبغي لأيّ شخص منفتح الذهن وصادق حقًّا أن يكون متيقّنًا إلى هذا الحدّ.

إنّ الحدّ من المواهب يضع سترةَ تقييدٍ لا على النساء فحسب، بل على الله نفسه أيضًا. فإيجاد تبرير لاهوتيّ مشوّه لأن يقشعرّ بدن المرء بينما يستخدم روح الله امرأةً لتخدمه، يُحزن الروح القدس الذي «يهبّ حيث يشاء»[628] والذي من عادته أن يعيّن أيّ ناطق باسمه يراه مناسبًا.[629] ويقول غوردون في:

إنّ شهادة العهد الجديد هي أنّ الروح القدس يشمل الجنسين، إذ يمنح المواهب للرجال والنساء كليهما، ومن ثمّ قد يحرّر الجسد كلّه لكي تخدم جميع الأعضاء وتقدّم القيادة للآخرين بطرق شتّى. ولهذا فإنّ قضيتي في النهاية ليست برنامجًا لخدمة المرأة. بل هي برنامج للروح، ورجاءٌ أن يُحرَّر الروح من قيودنا وهياكلنا لكي تخدم الكنيسة نفسها والعالم بفاعلية أكبر.[630]

هناك طريقتان نكبت بهما عادةً المواهب التي يعطيها الله للنساء والتي تدفع الملكوت إلى الأمام: فإمّا أن نضع لها سقفًا؛ وإمّا أن تمنعها الظروف الاجتماعية من أن تُكتشف أصلًا.

حين تُهدر الزقاق العتيقة الخمر الجديدة

مع أنه حدثت في تاريخ الكنيسة اندفاعات عابرة لخدمة نسائية بارزة، فإنّ الأمثلة قليلة جدًّا في تاريخ الكنيسة قبل عام 1900 على نساء قُدن في الكنائس لفترة متواصلة من الزمن. فلماذا؟ لقد حذّر يسوع من خطر أن تُتلف الزقاق العتيقة الخمر الجديدة. ومن

627. أفسس 4: 16
628. يوحنا 3: 8
629. خروج 15: 20؛ قضاة 2: 16؛ 4: 4؛ أستير 4: 14
630. المصدر: Discovering Biblical Equality, 2005، ص. 254.

الطرق التي يحدث بها ذلك أن يتحرّك الروح بقوة فيُبرز إلى الواجهة كلّ أنواع الموهوبين، ثم تأتي لاحقًا قوى المؤسّسية فتضع سياسات وإجراءات مفرطة في التحديد لتحلّ محلّ ما وَلَده الله. فيحلّ الالتزام بالأوصاف الوظيفية محلّ ما كان في السابق مدفوعًا بالمواهب.

فحين يستعرض المرء قرونًا من النهضات مثلًا، يجد في المراحل الأولى انسكابًا لخمر جديدة — حيث يندفع إلى الساحة كلّ أنواع الناس «غير المعتمَدين»، ومنهم النساء، بقوة الروح، فيقودون ويعظون ويبشّرون ويغرسون الكنائس أو يرعونها. فكّروا في الحركة الخمسينية في أوائل القرن الماضي، حيث كانت جموع من النساء ينلن من الروح مواهب قوية في التبشير والوعظ والقيادة الرائدة. لكن بعد مرور ما يكفي من الوقت، تتسلّل المؤسّسية، وترتدّ الكنيسة إلى زقاقها العتيقة من الخدّام «المحترفين» (قلّة نخبوية تقوم بمعظم عمل الله) ومن تبعية المرأة (لرجال أقلّ موهبة منها أحيانًا). وتلخّص ماريا بوتشيا (Maria Boccia) في Hidden History of Women Leaders of the Church هذا النمط المحزن المتكرّر في تاريخ الكنيسة: «حين كانت القيادة تقوم على اختيار الله الكاريزماتي للقادة من خلال مواهب الروح القدس، كانت النساء مشمولات. ومع مرور الوقت، صارت القيادة مؤسّسية، وتسرّبت الثقافة الأبوية العلمانية إلى الكنيسة، واستُبعدت النساء.»[631]

ويعود هذا إلى القرن الثاني. فعلى حدّ علمنا، لم يكن هناك قطّ فريق قيادة مختلط بين الجنسين في الكنيسة بعد الفريق الموصوف في رومية 16. ففي غضون عقود من كتابة بولس رسالته إلى كنيسة رومية، التفّت نزعة أبوية ومؤسّسية قوية بإحكام حول الكنيسة. فترتليانوس مثلًا أعاد تصوّر الكنيسة على أنها صورة مصغّرة عن المجتمع الروماني، بطبقاته من المسؤولين المتدرّجين في الرتب، حتى صار الرعاة حكّامًا. وزال الاستخدام الحيّ للمواهب، ووُلد مكانه الانقسام بين الإكليروس والعلمانيين، مع حقوق خاصة للإكليروس، وكذلك الافتراض بأنّ الرجال وحدهم يمكن أن يكونوا من الإكليروس.

حين تقرّر كنيسةٌ ألّا تقود امرأة أو تعظ، فإنها تنزف جزءًا من طاقتها الفدائية. والحمد لله أنّ الله يظلّ يعمل فيها (فلم تكن لديه قطّ كنيسة كاملة). لكن إن كانت كنيسة (أو حركة كنائس) لا تريد أن تخسر شيئًا من مؤازرة الروح، فعليها أن تتخلّص من الزقاق العتيقة التي تركّز على تراتبية في الحكم أو التي تبني القيادة والتعليم على الجنس. وإن

631. المصدر: Journal of Biblical Equality, September 1990، ص. 58.

كانت الكنيسة الأولى ونهضات كثيرة لاحقة دليلًا يُعتدّ به، فإنّ الزقّ الأفضل هو الذي يكتشف المواهب التي يعطيها الروح لجميع الناس ويوظّفها: الصغار والكبار، الأغنياء والفقراء، السود والبيض، الرجال والنساء. ومع ذلك، هناك أمر أشدّ وطأة من وضع سقف لمواهب النساء. إنه العجز عن اكتشافها أصلًا.

الظروف الاجتماعية قد تمنع نموّ المواهب

أحتفي بنجاح حركة تحرير المرأة، ولا سيّما في سعيها إلى تكافؤ الفرص في التعليم والعمل. فمن منظور تاريخيّ واسع، لا يزال العالم في بداية اكتشافه لمدى قدرة النساء حين يُطلَقن في جميع مجالات المجتمع. والحقّ أنه حتى ستينيات القرن العشرين كان يكاد يُجمَع على أنّ النساء لا يستطعن فعل ما يفعلنه الآن بالملايين! فليكن المجد لله على القدرات والمواهب والفرص التي أعطاها للرجال والنساء!

وهذا لا بدّ أن يدفعنا إلى التوقّف والتأمّل في كلّ القدرات والمواهب التي ضاعت هدرًا في تاريخ العالم، لأنّ الظروف الاجتماعية كانت بحيث لم تكد النساء يُمنحن قطّ التعليم أو الفرص لتحقيق إمكاناتهنّ. وينطبق هذا أيضًا على تاريخ الكنيسة — كم من رسولةٍ ونبيّةٍ ومعلّمةٍ لم ترَ النور قطّ؟ كم من عطايا الله الصالحة لكنيسته لم تُفتح قطّ؟ ومن المحزن أنّ كنائس الماضي ليست وحدها التي خسرت الكثير. بل كذلك كنائس اليوم التي لديها لاهوت يحدّ من دور أحد الجنسين، فإمّا أن يعميها عن النساء الموهوبات في وسطها، وإمّا، إن لوحظت هذه المواهب ونُمّيت، أن يحصرها في غرف يغيب عنها الرجال.

أشكر الله لأنني أعيش في ثقافة مساواتية، حيث الظروف الاجتماعية تجعل ابنتي أكثر قدرة على أن تقدّم في المجتمع أيّ إسهام مهنيّ يهبها الله أن تقدّمه. وأرجو من كلّ قلبي أن يصحّ الأمر نفسه على خدمتها في الكنيسة.

غير أنه يجب أن أعترف بأنني لم أعالج بعدُ اعتراضًا شائعًا يطرحه الباحثون الذين يتبنّون التراتبية: إن لم تكن قيادة الكنيسة قائمة على الجنس، فلماذا تقول 1 تيموثاوس 3: 2 إنّ الراعي يجب أن يكون «أمينًا لزوجته»؟ إنه سؤال يقود المرء إلى أن ينظر بعناية لا إلى الآية نفسها فحسب، بل أيضًا إلى منهجه هو في التفسير.

رومية مقابل 1 تيموثاوس — رسالة معيارية مقابل رسالة تصحيحية

هذا هو المقطع الذي ترد فيه:

مَن يطمح إلى أن يكون ناظرًا (أسقفًا) يشتهي مهمة نبيلة. فيجب أن يكون الناظر بلا لوم، **أمينًا لزوجته**، صاحيًا، متعقّلًا، محترمًا، مضيفًا للغرباء، قادرًا على التعليم، غير مدمن للخمر، غير عنيف بل حليمًا، غير محبّ للخصام، غير محبّ للمال. يجب أن يدبّر بيته حسنًا، وأن يحرص على أن يطيعه أولاده، وأن يفعل ذلك بطريقة تستحقّ كلّ احترام. (إن كان أحد لا يعرف كيف يدبّر عائلته [حرفيًّا: «بيته»]، فكيف يعتني بكنيسة الله؟) يجب ألّا يكون حديث الإيمان، لئلّا يتكبّر فيسقط في الدينونة نفسها التي سقط فيها إبليس. ويجب أيضًا أن تكون له شهادة حسنة من الذين هم من خارج، لئلّا يسقط في العار وفي فخّ إبليس.[632]

يشبه هذا المقطع إلى حدّ كبير قائمة بشروط الشيوخ أُعطيت لتيطس في خدمته الرسولية في جزيرة كريت.[633] والفرق بين الاثنين أنّ مقطع تيموثاوس يضيف بعد ذلك قائمة مشابهة، لكنها أقصر، بشروط الشمامسة.[634] والأقسام الثلاثة كلّها، أي القسم الذي في تيطس عن الشيوخ، والقسمان اللذان في تيموثاوس عن الشيوخ والشمامسة، تتضمّن عبارة «أمينًا لزوجته» شرطًا من الشروط.

يبدو هذا في ظاهره متعارضًا مع رومية 12 و16، حيث الموهبة والدعوة، لا الذكورة ولا الحالة الزوجية، هما المعيار الوحيد. فنسأل: «هل علينا أن نفسّر رومية 12 و16 في ضوء 1 تيموثاوس 3، أم العكس؟»

لو كتبتُ رسالة إلى ابني عبّرت فيها عن محبّتي له وشاركته فيها أفضل ما عندي من حكمة لحياته، ثم كتبت رسالة أخرى عبّرت فيها عن قلقي من الطريقة السيئة التي تعامل بها مع موقف معيّن ونصحته كيف يصحّحه، لرجوت، مع مرور السنين، أن يسمح ابني للرسالة الأولى الإيجابية بأن تؤطّر الرسالة التصحيحية اللاحقة. وبالمثل، علينا أن نسمح لرومية 12 و16 بأن تؤطّرا 1 تيموثاوس 3. وكما بيّنتُ في الفصل 7، فإنّ رسالة 1 تيموثاوس كلّها تصحيحية في نبرتها أساسًا، إذ تحاول إصلاح كنيسة أصابها الأذى من المعلّمين الكذبة. ومع أنّ في مقاطعها حكمةً لا يحدّها زمن، فإنّ هذه

632. 2 تيموثاوس 3: 1-7
633. تيطس 1: 6-9
634. 1 تيموثاوس 3: 8-12

الحقائق تحتاج إلى أن تُستخرج بعناية من قِبل كنائس اليوم، التي قد تواجه أوضاعًا مختلفة تمامًا.

أعود إلى تشبيهي: لو قرأت ابنتي، وهي في وضع مختلف تمامًا، الرسالةَ التي كتبتها إلى أخيها عن كيفية ترتيب الفوضى في حياته، لرجوت ألّا تطبّق دون تفكير كلّ ما قلته في الرسالة. وبتطبيق هذا التشبيه، فإنّ رسالة رومية أشبه برسالة دورية أكتبها إلى أولادي الخمسة جميعًا بغضّ النظر عن أوضاعهم. ومع أنها تعالج وضعًا فريدًا يتعلّق بدمج اليهود والأمم، فإنها ليست تصحيحية في طبيعتها أساسًا — بل يعلّم بولس بطريقة تجعل كلّ ما يقوله تقريبًا قابلًا للتطبيق مباشرة على أيّ كنيسة في أيّ مكان. وذلك لأنه لم يكن قد زار تلك الكنيسة أصلًا، ولذلك يكتب في معظم الأحيان كما لو كان يكتب إلى أيّ كنيسة عامة.

وفي المقابل، فإنّ رسالة 1 تيموثاوس، مثل الرسالة إلى تيطس، موجّهة أساسًا إلى فرد واحد. ومع أنّ جماعة محدّدة قد تطّلع على محتواها، فإنّ كونها مكتوبة إلى قائد محدّد يتعامل مع تحدّيات محدّدة جدًّا يعني أنه ينبغي توخّي حرص إضافيّ عند تطبيق محتواها على جميع الكنائس.

وأخيرًا، يجب أن نتذكّر أنّ المقاطع الواضحة ينبغي أن تُستخدم لتفسير المقاطع الأكثر غموضًا. فمع أنّ 1 تيموثاوس 3 قد يبدو واضحًا بما يكفي عند القراءة الأولى، فإنّ قليلًا من التأمّل يُظهر كيف يبدو متعارضًا مع ما تعلّمه بوضوح مقاطع أخرى كثيرة جدًّا في الكتاب المقدس. وسأقدّم أمثلة بعد قليل. وبما أنّ الكتاب المقدس يفسّر الكتاب المقدس، وبما أنّ المقاطع الواضحة يُقصد بها أن تلقي الضوء على المقاطع الأكثر غموضًا، فإنّ محاولتنا استخراج حقّ قابل للتطبيق عالميًّا من 1 تيموثاوس 3 يجب أن تهتدي برومية 12 و16.[635]

طريقتان لقراءة 1 تيموثاوس 3 وتيطس 1

هناك طريقتان لتفسير 1 تيموثاوس 3 (وتيطس 1) فيما يتعلّق بالجنس وقيادة الكنيسة. الطريقة الأولى أن نقرأه على أنّ بولس يأمر بأن يكون الشيوخ في كنائس أفسس (وكريت) رجالًا، ومن ثمّ في جميع الكنائس في كلّ مكان. والطريقة الثانية أن

635. أرجو ألّا تسمعوا ما لا أقوله. فنحن نحتاج إلى مجمل الكتاب المقدس لتفسير أيّ قسم محدّد منه، ومع ذلك قد يكون من الأفضل أن نقرأ 1 تيموثاوس، وهي رسالة تصحيحية، من خلال عدسة رومية، وهي رسالة معيارية، بدلًا من العكس.

نقرأه على أنّ بولس يفترض أنّ الشيخ الأكثر احتمالًا، وربما الأنسب، في تلك الكنائس اليونانية الرومانية سيكون ربّ أسرة (paterfamilias)، أي رجلًا يقود بيته، وإن كانت الاستثناءات ممكنة.[636]

وأنا أقترح أنّ الطريقة الثانية في القراءة هي الطريقة الأفضل. وكما يقول ن. ت. رايت: «[مع أنّ] بولس يشير إلى [الناظر] على أنه رجل ... فذلك لأنّ قواعد اللغة اليونانية تشير عادةً إلى الجنسين معًا، ولأنّ قادة معظم الجماعات في الأيام الأولى للكنيسة كانوا على الأرجح رجالًا. ولا أرى في ذلك ما يمنع النساء من هذه الخدمة وهذه الدعوة بعينها.»[637]

يصيب رايت حين يقول: «قواعد اللغة اليونانية تشير عادةً إلى الجنسين». فعلى خلاف ترجماتنا الإنجليزية، فإنّ الصياغة التي يستخدمها بولس شاملة للجنسين في الأساس. ففي الأصل اليوناني، الكلمة التي يستخدمها بولس بمعنى «مَن» (tis) في «مَن يطمح إلى أن يكون ناظرًا»[638] شاملة للجنسين. بل والأهمّ من ذلك، لا توجد ضمائر مذكّرة في أيّ من القائمتين في 1 تيموثاوس 3 أو تيطس. قارنوا ذلك بترجماتنا الإنجليزية لقائمة النظّار في 1 تيموثاوس — «... he ... his ... he ...him ... his ... his ... He ... he ...» (أي ضمائر المذكّر: «ـه ... هو ... ـه ...») — التي تضلّلنا فنتخيّل رجلًا في كلّ سطر تقريبًا، على نحو لم يكن القرّاء الأصليون ليتخيّلوه.

وتتعزّز إمكانية الشمول هذه حين نفهم أنّ عبارة «أمينًا لزوجته» (حرفيًّا: «رجل امرأة واحدة») هي الجزء الوحيد من القائمة الذي يوحي، عند القراءة السطحية، بالذكورة. ومع ذلك فهي في الواقع عبارة تُستخدم في هذا السياق لأيّ شخص بوجه عامّ، ذكرًا كان أو أنثى. صحيح أنه لو كان الخطاب موجّهًا إلى الإناث وحدهنّ، لاستخدم بولس عبارة «امرأة رجل واحد» (كما يفعل في 1 تيموثاوس 5: 9). لكن بما أنّ بولس، مثل أيّ كاتب يونانيّ قديم متمركز حول الذكر، استخدم الصيغة المذكّرة للعبارة حين كان الجنسان كلاهما مشمولين في مجموعة، يمكننا أن ندرك كيف يمكن أن يكون هذا هو الحال هنا. ويفعل يسوع شيئًا مشابهًا حين يقتبس الناموس المصوغ بصيغة متمركزة حول

636. بعد أن أنهيت كتابي، قرأت كتاب أندرو بارتليت “Men and Women in Christ”، واكتشفت في الصفحات 315–327 طريقة ثالثة: بولس يستخدم عن قصد لغة عامة، ومن ثمّ شاملة للجنسين، ولذلك لا يفترض حتى أنّ النظّار سيكونون رجالًا. ولولا ذكر «النساء» الغامضات في العدد 11، اللواتي أحاول أن أفهم أمرهنّ في الملحق 5، لانتقلت إلى رأيه. أمّا والحال هذه، فأنا متردّد بين الطريقة الثانية والطريقة الثالثة. وأيًّا كانت الطريقة، فينبغي ألّا يُقرأ المقطع على أنه يستبعد الإناث من الدور الرعوي.

637. Tom Wright, Paul for Everyone: The Pastoral Letters، ص. 29

638. الكلمة نفسها «مَن» أو «أحد» (tis) ترد مرة أخرى في العدد 5، وكذلك في تيطس 1: 6. وهي لا تعني «أيّ رجل» بل «أيّ شخص» — فمثلًا يقول يسوع: «إن أراد أحد (tis) أن يتبعني، فليحمل صليبه.» (متى 16: 24)

الذكر الذي ينهى عن اشتهاء «امرأة قريبك»[639] — وهو ناموس ينطبق أيضًا على الزوجات اللواتي ينبغي ألّا يشتهين زوج قريبتهنّ.

إن لم تكن الذكورة هي المقصود من «أمينًا لزوجته»، فما المقصود؟ تعني العبارة أن يكون المرء أحاديًّا في الزواج وفي العلاقة الجنسية. فهي تستبعد الأشخاص الذين لهم أكثر من زوج أو زوجة، وكذلك الأشخاص غير الأمناء جنسيًّا لأزواجهم.[640] بل إنّ باحثين تكامليين مثل شراينر (وغيره) يقرّون بهذه الإمكانية: «إنّ شروط الشيوخ في 1 تيموثاوس 3: 1-7 وتيطس 1: 6-9، بما فيها القول إنهم يجب أن يكونوا رجالَ امرأة واحدة، لا تستبعد في حدّ ذاتها بالضرورة أن تخدم النساء شيخات.»[641]

لكن لنفترض (وإن لم يكن هناك سبب جوهريّ لذلك) أنّ بولس كان يشير تحديدًا إلى الرجال وحدهم في هذه القائمة. حسنًا، لا يزال لدينا سبب وجيه لنستنتج أنّ بولس، في أقصى الأحوال، يفترض أنّ الشيوخ في ذلك السياق سيكونون على الأرجح ذكورًا، دون أن يجعل ذلك بالضرورة قاعدة صارمة لجميع الكنائس في جميع الأزمنة.

وهذه بالكاد فكرة مبتكرة. فقد خدمتُ عقودًا في كنائس «يقودها شيوخ» كانت تدّعي أنها تطبّق 1 تيموثاوس 3 حين تختار الرعاة. ومع ذلك، لم يأخذ أحد منّا نحن قادة الكنيسة شروط بولس الأكثر ارتباطًا بالظروف على أنها تشريع صارم بشأن مَن يمكنه أن يقود. أمّا الصفات المتعلّقة بالشخصية («حليمًا، غير محبّ للخصام، غير محبّ للمال»)، وبالكفاءة القيادية في العلاقات («قادرًا على التدبير»)، وبالمعرفة العقائدية («قادرًا على التعليم»)، فقد اتّفقنا جميعًا على أنها عالمية. لكنّ العوامل الأكثر ارتباطًا بالظروف المذكورة في العددين 4 و5 ليست كذلك. بل إنّ أخذها أمرًا ملزمًا سيحصر الكنائس في رسامة أشخاص مسنّين فقط (فكلمة «شيخ» تتضمّن التقدّم في السنّ)، ومتزوّجين، ولديهم ولدان بالغان أو أكثر، كلّ واحد منهم يخدم المسيح بحماسة ويطيع والديه في كلّ أمر. فمن المؤكّد أنّ بولس لا يمنع على نحو عالميّ إمكانية رسامة رعاة قد لا يكونون مسنّين، ولا متزوّجين، ولا لديهم أكثر من ولد واحد، ولا لديهم أولاد حسنو

639. مرقس 10: 12

640. «رجل امرأة واحدة» تعبير اصطلاحيّ يجب أن يُفهم على أنه مجموع أجزائه. وبالمثل، كانت لدينا في الإنجليزية ألقاب فيها كلمة «man» (رجل)، مثل «mailman» (ساعي البريد) و«chairman» (رئيس الجلسة)، لم تكن تدلّ على أنّ المشار إليه ذكر، بل على أنّ الذكر هو الجنس الافتراضي. انظروا النقاش في Philip Payne, Man and Woman, One in Christ، الفصل 24.

641. المصدر: www. bit.ly/31ls4qR ص. 36. وبالمثل، يقول دوغلاس مو، وهو من مؤيّدي قصر القيادة على الرجال، مع ذلك: «سيكون من المبالغة أن نحتجّ بأنّ العبارة [رجل امرأة واحدة] تستبعد النساء بوضوح.» (The Interpretation of 1 Timothy 2: 11-15: A Rejoinder.) وكذلك يقول كريغ بلومبرغ: «إنّ 1 تيموثاوس 3: 1-7 وتيطس 1: 5-9 ليسا وثيقَي الصلة بالموضوع كثيرًا.» (Two Views on Women in Ministry، الفصل 1).

السلوك أو مؤمنون، ولا لديهم بيت خاصّ بهم (يضمّ عادةً عبيدًا وأقارب ومستأجرين)، وبامتداد هذه الحجّة، لا يكونون ذكورًا؟

هل علينا حقًّا أن نصدّق أنّ بولس يرى أنّ يسوع وتيموثاوس وبولس نفسه — وكلّهم غير متزوّجين — لا ينبغي أن يُسمح لهم بأن يكونوا في فريق القيادة الرئيسيّ لكنيسة؟ بقليل من الحسّ السليم ندرك أنّ ما لدينا في هذه القائمة هو افتراض بولس لأكثر الشيوخ احتمالًا و/أو ملاءمةً لكنيسة أفسس في ذلك الوقت — لا وصفته العالمية لأنواع الناس الذين يمكنهم أن يقودوا الكنائس إلى آخر الزمان.

وكما قلت، فإنّ الصفات الشخصية في 1 تيموثاوس 3 وتيطس 1 مادة كتابية حاسمة تساعدنا على اختيار الشيوخ، لكن حتى قائمة الصفات هذه مصوغة بحسب الوضع: فقد نسأل: لماذا تهتمّ القائمة إلى هذا الحدّ بالصفات الخارجية — أي بالانطباع عن البرّ — لا بالداخلية؟ لماذا لا تذكر ولو صفة واحدة تتعلّق بمحبّة الإنسان لله وللناس؟ لماذا لهذه القائمة نظائر لافتة في الأدب اليوناني في ذلك الزمن، بحيث إنه، باستثناء «غير حديث الإيمان» (ع 6)، كانت كلّ صفة من الصفات المذكورة متوقّعة في موظّف عامّ غير مسيحيّ في العالم اليوناني الروماني؟ لماذا يؤدّي العجز عن إظهار هذه الصفات إلى «العار» (ع 7)؟[642] لماذا لا يطبّق بولس كلّ تعليماته هو حين رسم شيوخًا — فمثلًا، مع أنه يقول هنا إنّ المسيحيين الجدد لا ينبغي أن يُعيَّنوا شيوخًا (ع 6)، فإنه هو وبرنابا رسما أحيانًا شيوخًا من بين مجموعة من المؤمنين الجدد؟[643]

يبدو أنّ الجواب عن كلّ سؤال هو أنّ الكنيسة في أفسس كانت قد اختبرت العار بسبب المعلّمين الكذبة والقادة الساقطين الذين مزّقوا سمعة الكنيسة. ووراء هذه القائمة يكمن همّ بولس المحرِّك: أن تستعيد الكنيسة، من خلال مصداقية قادتها، مصداقيتها وشهادتها في محيطها.[644] ففي تلك الثقافة، كانت الكنيسة التي يقودها كبار السنّ تبعث برسالة أفضل من كنيسة يقودها شباب — وفضلًا عن ذلك، كانت الذكورة والزواج ووجود أفراد خاضعين في البيت كلّها صفات مفضّلة وملحوظة في قادة أيّ كيان ناشئ في ذلك الزمن. لكن ينبغي ألّا نفترض أنّ كلّ هذه العوامل الظرفية

642. إنّ همّ بولس بالمصداقية الثقافية محرّك رئيسيّ لرسالته كلّها إلى تيموثاوس. فبولس يريد أن تكون لقادة الكنيسة «شهادة حسنة من الذين هم من خارج، لئلّا يسقط في العار». وبالمثل، تكشف 1 تيموثاوس 2: 10، 15؛ 3: 4، 8، 11؛ 5: 10؛ و6: 1 عن همّ واسع الانتشار بسمعة الكنيسة لدى الذين من خارج.

643. أعمال 14: 8-23

644. يبيّن ويليام ماونس في تفسيره لرسالتَي تيموثاوس الأولى والثانية ورسالة تيطس أنه حين يجمع المرء قائمتَي 1 تيموثاوس 3 وتيطس 1 معًا، ويضع قائمة بما نعرفه من هاتين الرسالتين عن خصوم بولس والمعلّمين الكذبة وتأثيرهم في الكنيسة، يجد أنّ لكلّ وصف تقريبًا في قوائم بولس نقيضًا مقابلًا لدى الخصوم. وبعبارة أخرى، يحثّ بولس تيموثاوس وتيطس على البحث عن قادة لا يشبهون فى شىء الخصوم الذين خرّبوا الكنيسة (أو الكنائس).

ستكون قائمة دائمًا في ثقافات وسياقات أخرى. بل إنّ القادة الذين بلا أولاد، أو العزّاب، أو الأصغر سنًّا، أو النساء، لا يقوّضون في ثقافتنا نحن مصداقية الكنيسة. لقد صرتُ راعيًا وأنا رجل حديث الزواج، بلا شيخوخة تُذكر (كنت ما أزال في العشرينيات من عمري) وبلا أولاد، ولم يظنّ الذين رسموني أنهم ينتهكون تعليم الكتاب المقدس، ولا ظنّ ذلك الناس في الكنيسة الذين قبلوا قيادتي الروحية.

إن كان هناك ما نتعلّمه عن القراءة الصحيحة لرسالة 1 تيموثاوس، فهو مدى ارتباط كثير من تعليماتها بالأوضاع. فليس كلّ ما فيها تشريعًا عالميًّا. فمثلًا، لم أنتمِ قطّ إلى كنيسة تحتفظ بـ«قائمة أرامل»، ومع ذلك تقول 1 تيموثاوس 5: 3-9 إنّ الأرامل من النساء وحدهنّ (لا الأرامل من الرجال) اللواتي تجاوزن سنّ 60 (لا 59 أو أقلّ) ينبغي أن يتلقّين دعمًا ماليًّا من الكنيسة. ومع ذلك فإنّ كنائس كثيرة مستعدّة لدعم الأرامل من الرجال أيضًا، ممّن هم دون سنّ 60! وحين نسألهم لماذا يتجاهلون «التعليم الواضح» في 1 تيموثاوس 5، يجيبون بحقّ بأنه في وضعهم — المختلف عن وضع أفسس — من الصواب أن يفعلوا ذلك. وبالمثل، إن سألنا لماذا قد تضيف كنيسة اليوم إلى فريق قيادتها الرئيسيّ شخصًا موهوبًا تقيًّا، رجلًا أعزب كان أو امرأة متزوّجة، على الرغم من «التعليم الواضح» في 1 تيموثاوس 3، فإنهم يجيبون بحقّ بأنه في وضعهم — المختلف كثيرًا عن وضع الكنيسة المتألّمة في أفسس — من الصواب أن يفعلوا ذلك.

«هل من شيء لا تستطيع أن تفعله؟»

كثيرًا ما أتعجّب من براعة زوجتي اللافتة بوصفها إنسانةً متكاملة الجوانب ومحترفةً ذات خبرة، فأطرح على نفسي هذا السؤال. لكن حين يتعلّق الأمر بالرعاية، فإنه سؤال يستحقّ أن يُطرح بشأن النساء التقيّات الموهوبات على النحو المناسب.

يفصّل العهد الجديد الصفات والوظائف المطلوبة من الشيوخ أو الرعاة على السواء. وما يلفتني وأنا أستعرض هذه التفاصيل هو أنّ كلّ واحدة منها في متناول النساء أيضًا.

لنبدأ بقائمة الشروط المتعلّقة بالشخصية في 1 تيموثاوس 3 (والتي يتردّد صداها في تيطس 1). باستثناء عبارة «رجل امرأة واحدة» (التي بيّنتُ سابقًا أنها ينبغي أن تُقرأ بمعنى عامّ: «أحاديّ في الزواج وفي العلاقة الجنسية»)، ليس في القائمة شيء قد يعدّه القارئ الحديث في متناول الذكور حصرًا. ومع ذلك قد نسأل: هل كان بولس يرى

ذلك؟ لا نحتاج إلى التخمين في الإجابة عن هذا: ففي مواضع أخرى من رسائله إلى تيموثاوس وتيطس، يتصوّر تحديدًا نساءً تقيّات يجسّدن هذه الصفات نفسها:

إنّ المشيخة عمل صالح (3: 1)؛ والنساء مدعوّات إلى العمل الصالح (5: 10). ويجب أن يكون الشيوخ، وكذلك النساء كما يُذكر في مواضع أخرى: بلا لوم (3: 2؛ 5: 7)؛ صاحين (3: 2؛ 3: 11)؛ متعقّلين (3: 2؛ 2: 9، 15)؛ محترمين (3: 2؛ 2: 9)؛ مضيفين للغرباء (3: 2؛ 5: 10)؛ رزينين (3: 3؛ تيطس 2: 3)؛ مدبّرين حسنين لبيوتهم (3: 4؛ 5: 14)؛ وذوي سمعة حسنة عند الذين من خارج (3: 7؛ 5: 7، 10). يجب أن يكون الشيوخ قادرين على التعليم (3: 2)، والنساء ينبغي أن يعلّمن الصلاح (تيطس 2: 3). يجب ألّا يحبّ الشيوخ المال (3: 3)؛ والنساء ينبغي ألّا يلبسن الذهب واللآلئ والثياب الكثيرة الثمن (2: 9). ينبغي أن يُظهر الشيوخ وقارًا في الطريقة التي يُبقون بها أولادهم تحت السيطرة (3: 4)؛ والنساء أيضًا مدعوّات إلى إظهار الوقار (3: 11). يجب ألّا يكون الشيوخ مؤمنين جددًا يسقطون بكبرياء في الدينونة (3: 6)؛ والنساء مدعوّات إلى أن يكنّ متواضعات وألّا يكنّ تحت الدينونة (5: 10، 12).[645]

بعيدًا عن الصفات الشخصية، ماذا عن الكفاءة المطلوبة من الراعي أو الشيخ؟ باختصار، عليهم أن «يرعوا القطيع ويرشدوه ويعلّموه وينذروه ويسهروا عليه. ويشمل ذلك الاحتراس من المعلّمين الكذبة. وعليهم أيضًا أن يكونوا قدوة حسنة وأن يصلّوا من أجل شفاء المرضى. وقد يشاركون في النبوّة وفي وضع الأيدي لنقل المواهب الروحية.»[646] فهل في هذه الوظائف ما هو، على الإطلاق، خارج نطاق قدرة نساء موهوبات ومدرَّبات ومتمرّسات بما يكفي للقيام بها؟

في غياب مقطع كتابيّ يمنع بوضوح أن تكون النساء راعيات (وقد بيّنتُ حتى الآن في هذا الكتاب أنه لا يوجد مقطع كهذا)، سيكون من المعقول أن نفترض أنه ليس في قائمتَي الشروط والوظائف كلتيهما ما يستبعد امرأةً من السعي إلى الدعوة نفسها التي يفتحها بولس أمام «مَن» يطمح إليها، حين يكتب: «مَن يطمح إلى أن يكون ناظرًا يشتهي مهمة نبيلة» (3: 1). خلاصة القول، إنه بالتأكيد في الثقافة المساواتية التي أجد

645. نبّهني أندرو بارتليت في "Men and Women in Christ" (ص. 318–319) إلى هذه النقاط. ويضيف: «يذكر بولس ثلاثة شروط أخرى: حليمًا، غير عنيف (قارن 1: 13)، وغير محبّ للخصام (3: 3). ولا خلاف في أنّ هذه قد توجد في النساء.»

646. أعمال 20: 28؛ 1 تيموثاوس 3: 5؛ 17؛ 1 بطرس 5: 2-3؛ أعمال 20: 28-31، يعقوب 5: 14-15، 1 تيموثاوس 4: 14. شكرًا لأندرو بارتليت في "Men and Women in Christ" (ص. 294) على قائمة الوظائف هذه، التي أقتبسها حرفيًّا تقريبًا.

نفسي فيها، من الصواب والحكمة أن تُرسَم أيضًا للقيادة في الكنيسة نساء ذوات شخصية متينة، مدعوّات وكفؤات.

(فضلًا عن كلمات بولس «أمينًا لزوجته»، هناك حجّتان إضافيتان من 1 تيموثاوس 3 يستخدمهما التكامليون للدفاع عن أن يكون الشيوخ من الرجال وحدهم. وأعالجهما في الملحق 5: حجّتان أخريان من 1 تيموثاوس 3.)

المواهب أساسًا للتعليم والقيادة

أكرّر: في رسالة رومية، وهي رسالة معيارية، يشدّد بولس على الموهبة أساسًا للقيادة والتعليم في الكنيسة، بينما في 1 تيموثاوس، وهي رسالة تصحيحية، يهتمّ أكثر بتقويم وضع في كنيسة أفسس.

لكنّ ذلك لا يعني أنّ 1 تيموثاوس تتخلّى تمامًا عن أهمية الاعتراف بالمواهب عند اختيار القادة والمعلّمين. فعددٌ محوريّ قرب نهاية الرسالة يكشف ذلك: «الشيوخ الذين يدبّرون شؤون الكنيسة حسنًا يستحقّون كرامة مضاعفة، ولا سيّما الذين عملهم الوعظ والتعليم.»[647] لاحظوا إشارتين ضمنيتين إلى المواهب في هذا العدد. الأولى هي موهبة القيادة. فبعض الشيوخ بارعون على نحو خاص، كما يقول بولس، في «تدبير الكنيسة». والكلمة اليونانية للتدبير (proestōtes) هي الكلمة الأكثر استخدامًا لقيادة الكنيسة.[648] ومع ذلك — وهذا ينبغي أن يهزّنا — يستخدم بولس الكلمة نفسها لـ«موهبة القيادة» التي لا تخصّ جنسًا بعينه في رومية 12. والنقطة التي أريد قولها هي أنّ أوثق علامة على أنّ الله قد يريد لشخص أن يكون ناظرًا هي أن يُظهر موهبة قيادة معطاة من الله.

والثانية هي موهبة التعليم. ففي موضع سابق من الرسالة، يقول بولس إنّ جميع الشيوخ ينبغي أن يكونوا «قادرين على التعليم»، لكنه بكتابته «ولا سيّما الذين عملهم الوعظ والتعليم» يوضّح أنّ بعض الشيوخ ينبغي على الأرجح أن يقوموا منه بأكثر بكثير ممّا يقوم به غيرهم. وخبرتي في حياة الكنيسة تجعلني أوافق: فبعض الوعّاظ ببساطة أكثر موهبة فيه من غيرهم. وبحسب 1 تيموثاوس، نعرف أنّ فرق القيادة الرعوية يُراد لها أن تكون واعية بعمق للمواهب المعطاة من الله (فيما بينهم وفي الآخرين)، لأنّ

647. 1 تيموثاوس 5: 17
648. ترد في 1 تيموثاوس 5: 12، الذي يستخدم كلمة من جذر الفعل نفسه لوصف قيادة الكنيسة.

بولس يذكّره: «لا تُهمل موهبتك التي أُعطيت لك بالنبوّة حين وضع مجمع الشيوخ أيديهم عليك.»[649]

لنختم هذا الفصل حيث بدأنا: إنّ «زقّ الروح» الذي ينبغي أن نسعى إلى تطبيقه هو الاعتراف بالمواهب، وبالتأكيد ليس الحصر على أساس الجنس. ينبغي للكنائس أن تبحث عن أشخاص أتقياء موهوبين لتدريبهم وإطلاقهم في خدمات التعليم والقيادة العظيمة التأثير. فبولس، في نهاية الأمر، يأمر بذلك مباشرة: «إن كانت موهبتك ... تعليمًا، فليكن التعليم؛ ... وإن كانت قيادةً، فلتكن القيادة باجتهاد.»[650] وبدلًا من أن نشعر بالتهديد من النساء الموهوبات، ينبغي أن نسبّح الله من أجلهنّ. وقد يكون في هذه الخلاصة من الحقّ أكثر ممّا نحبّ، وهي لبن ويذرينغتون، الباحث في العهد الجديد الذي كتب أطروحته للدكتوراه عن خدمة المرأة في الكنيسة الأولى: «[إنّ] المشكلة في الكنيسة ليست النساء القويات، بل ... الرجال الذين يشعرون بالتهديد من النساء القويات، والذين حاولوا بوسائل شتّى، بل حتى بتفسير مشكوك فيه، أن يمنعوهنّ من ممارسة مواهبهنّ ونعمهنّ في الكنيسة.»[651]

يروي لورين كانينغهام (Loren Cunningham) من منظمة YWAM (شبيبة ذات رسالة) شيئًا قاله له الراحل ديفيد يونغي تشو (David Yonggi Cho) ذات مرة: «كلّ الكنائس [في كوريا] صغيرة [لأنها] تكبح نساءها، ولا تسمح لهنّ بأن يفعلن ما يدعوهنّ الله إليه. لقد قلت لهم أن يُطلقوا نساءهم، لكنهم يصرّون على أنّ هذه ليست المشكلة. يسألونني: "ما سرّ كنيستك؟" فأقول لهم مرة أخرى: "أطلقوا نساءكم"، لكنهم ببساطة لا يسمعونني!»[652]

وقبل مدة قصيرة كنت أتحدّث إلى صديق أعاد هو وزوجته غرس كنيسة بخمسين بالغًا، ورآها تنمو حتى بلغت الآلاف. وبما أنهما يقودان أيضًا عائلة كبيرة من الكنائس في الجنوب الأفريقي، فضلًا عن عائلة متكاثرة من الكنائس سبق أن غرساها في زامبيا، سألته كيف يتعامل مع هذا العبء. فأجاب بطريقة تُظهر أنه يتبنّى الاعتراف بالمواهب، بغضّ النظر عن الجنس، في زواجه وفي خدمته على السواء، بوصفه الزقّ الذي تُصبّ فيه بركة الله في العالم:

649. 1 تيموثاوس 4: 14
650. رومية 12: 6-8
651. المصدر: www.bit.ly/3BJj5wh
652. Loren Cunningham, Why Not Women? A Biblical Study of Women in Missions, Ministry, and Leadership

أنا وزوجتي نقود معًا. وهذا بالنسبة إلينا له أثر مضاعِف في ما نفعله. فكلانا يقود ويعمل ضمن فريق، وكلانا يقود ويخضع للآخر في مجالات شتّى بحسب نقاط قوّتنا. نحاول أن نُخرج أفضل ما في كلّ منّا، وأن يدعم أحدنا الآخر. وحين نغرس كنائس في زامبيا، تكون لدينا فرص أكثر ممّا لدينا من قادة كنسيين رجال. وكثيرًا ما تكون النساء هنّ الأكثر موهبة وصاحبات أفضل شخصية. وحين نضع كنائس في رعايتهنّ، نراهنّ مرة بعد مرة يزدهرن، وتزدهر الكنائس التي يقدنها.

إننا نخسر الكثير جدًّا من نعمة الله حين ندفع النساء الموهوبات جانبًا أو نقلّل من شأنهنّ. فنحن لا نحرم النساء الموهوبات أنفسهنّ فحسب، بل نحرم أيضًا الكنائس التي نقودها، والعالم الذي نخدمه، والرجال، من الشراكة التي يحتاجون إليها أشدّ الحاجة.



الجزء الرابع

إطلاق طاقات المرأة

14

الأنوثة والرجولة في الكتاب المقدس

«ضعوا جانبًا الفكرة التقليدية القديمة عن الأنثى بوصفها راعيةً حانية والذكر بوصفه قائدًا. وضعوا جانبًا أيضًا الأفكار الجديدة عن الأنثى بوصفها امرأة خارقة والذكر بوصفه ظالمًا. وابدأوا بأكثر الأشياء كلّها إثارةً للرهبة: صفحة بيضاء.» **آنا كويندلن (Anna Quindlen)**[653]

يقول جون بايبر: «تحتاج الكنيسة إلى جواب عمّا تقوله لصبيّ أو بنت في الثامنة يسأل: "ماما، ما معنى أن أكبر وأكون رجلًا لا امرأة؟" ... لا تكلّمني عن فضائل إنسانية عامة. قل لي ما معنى أن تكون رجلًا لا امرأة.»[654] لكنني قد أسأله الشيء نفسه. ماذا كان سيقول لأولادي الذين هم في هذه السنّ تقريبًا؟ اعذروني الآن إن وضعتُ كلامًا على لسانه في ما يلي، لكنه كلامه هو.

إنّ بيان دانفرز الذي كتبه ينصّ على أنّ الله يدعو جميع الرجال إلى قيادة النساء وإعالتهنّ وحمايتهنّ. والنساء بدورهنّ مدعوّات إلى الخضوع لهذه القيادة والإعالة والحماية وقبولها، وإلى التركيز بنوع خاص على البيت والأولاد. ولو سألني أولادي ما معنى أن يكون الرجل رجوليًّا كما ينبغي وأن تكون الأنثى أنثويّة كما ينبغي، فإنّ بايبر يغامر بجواب:

في صميم الرجولة الناضجة شعورٌ بمسؤولية خيّرة عن قيادة النساء وإعالتهنّ وحمايتهنّ بطرق تلائم علاقات الرجل المختلفة ... و... في صميم الأنوثة الناضجة استعدادٌ يحرّر لتأكيد القوة والقيادة من رجال جديرين بها وقبولهما ورعايتهما بطرق تلائم علاقات المرأة المختلفة.[655]

653. خطاب حفل التخرّج في كلية ماونت هوليوك (Mount Holyoke) عام 1999
654. انظروا www.vimeo.com/44525286.
655. المصدر: Recovering Biblical Manhood and Womanhood، الفصل 1.

لكن انظروا، إنّ بايبر يُسقط الآن فهمه لأدوار الزواج على كلّ العلاقات بين الجنسين. فإن كان محقًّا، فعليّ أن أرشد ابنتي ذات الأعوام الثمانية إلى أن تبدأ في «قبول قيادة» إخوتها الأربعة. أهذا حقًّا ما يتوقّعه الله من أبنائي وابنتي؟ لنعالج مسألة ما يعلّمه الكتاب المقدس عن الرجولة والأنوثة بأكبر قدر ممكن من الشمول.

التكامل عقيدةً

إنّ أول آية عن البشرية في الكتاب المقدس، في أصحاحه الأول، تخبرنا أنه «ذكرًا وأنثى خلقهم». فمن الناحية البيولوجية، خلق الله الجنس البشري ثنائيّ الشكل جنسيًّا. وفي موضع سابق من تكوين 1، قد تقدّم لغة الليل والنهار، والشمس والقمر، نموذجًا لتكامل الذكر والأنثى. فكلّ منّا نظير الآخر. ومثل قطعتين من أحجية، يملأ كلّ منّا فراغات الآخر. وقد شدّد يسوع على التمييز بين الجنسين بالإشارة إلى تكوين 1: «أما قرأتم أنّ الذي خلق من البدء "خلقهما ذكرًا وأنثى"؟»[656]

ويُظهر الأصحاح الثاني من الكتاب المقدس أيضًا تكامل الجنسين. فإن اعتبرنا آدم وحواء نموذجين أوّليين للرجال والنساء عمومًا، فنحن «مِثْلٌ ومقابِل» (kenegdo) — يكمّل أحدنا الآخر بوصفنا نظيرين، ونتشارك معًا لنُخرج أفضل ما في كلّ منّا. (وإذا جمعنا هذه الأفكار معًا، فنحن «نظراء شركاء».)

إذن فالتكامل فكرة الله! كلّ شيء حسن حتى الآن. لكن حين نسأل هذه الأصحاحات الافتتاحية من الكتاب المقدس عن الفرق بالضبط بين الرجال والنساء، خارج فروقهم البيولوجية الواضحة، نجد صعوبة في الحصول على أجوبة. من المؤكّد أنّ الرجل لا يستطيع أن يحمل الأولاد ويلدهم ويرضعهم، لكن ما الذي لا يستطيعه أيضًا، أو لا ينبغي أن يفعله؟ وباستثناء أن يجعل امرأةً تحبل، ما الذي لا تستطيع المرأة أن تفعله؟ أرى أنّ الأصحاحات الافتتاحية من الكتاب المقدس لا تقدّم إلا أجوبة واضحة قليلة.

إنّ أقرب ما يمكن أن نصل إليه من أيّ نوع من «تحديد الأدوار» هو الطريقة التي يوزّع بها الله العقوبات في تكوين 3. فالمرأة ستختبر الألم في الولادة — فهل هذه طريقة الله للاعتراف بأنّ توجّه حياتها سيكون تربية الأولاد؟ والرجل سيعاني الإحباط من الحقل — فهل هذه طريقة الله لتأكيد أنه سيكون المعيل المالي؟

656. متى 19: 4. ومن اللافت أنّ يسوع الغنوصيّ الزائف وحده هو الذي يُذيب الفرق: «حين تجعلون الاثنين واحدًا ... بحيث لا يكون الذكر ذكرًا ولا الأنثى أنثى ... حينئذ تدخلون [الملكوت]» (إنجيل توما 22).

هل ينبغي لنا أصلًا أن نجرؤ على استخلاص هذا القدر من الاستنتاجات عن أدوارنا من هذه العقوبات؟ ففي النهاية، هل يصف هذا المقطع أم يفرض؟ حين نأخذ في الحسبان القرّاء الأصليين لسفر التكوين، ندرك أنّ ما يُعرض على الأرجح هو وصف لا فرض. فهو مكتوب لثقافة زراعية، كان الرجال فيها يقومون بالجانب الشاقّ جسديًّا من العمل الزراعي، بينما كانت الزوجات يرضعن طفلهنّ السادس.

والحقّ أنه ليس في هذه العقوبات ما يفرض مجالات حصرية لكلّ جنس على جميع الرجال والنساء، عزّابًا كانوا أم متزوّجين، في جميع الثقافات. بل إنّ تكوين 1 يشدّد على أنّ الذكر والأنثى كليهما مشتركان في تربية الأولاد («أثمروا»). قد تلد حواء الأولاد، لكنّ آدم أيضًا يعتني بأولادهما ويربّيهم. (ففي تكوين 2 يستنتج الراوي أنّ خطّة الله هي أن يُربّى الولد على يد أبٍ وأمٍّ كليهما.[657])

وهما كلاهما مشتركان في العمل في الحقول («أخضعوا الأرض»). قد يكون صحيحًا أنّ آدم، قبل مجيء حواء، وُضع في الجنّة ليعملها، لكننا نُخبَر أنّ حواء أُعطيت له معينًا نظيره وشريكة، ممّا يتضمّن أنها تشاركه عبء العمل.[658] ولا يعني هذا أنّ في أدوار المعيل والراعية هذه أيّ خطأ، لكن حين يفرضها التكامليون على جميع الرجال والنساء، فإنهم يتجاوزون التعليم الواضح لهذا المقطع.

باختصار، قد يكون ازدواج الشكل الجنسي وفكرة التكامل ظاهرين في تكوين 1-3، أمّا الوصفات المتعلّقة بأدوار الذكر والأنثى ومجالاتهما، أو تعريفات الرجولة والأنوثة، فليست كذلك.

الرجولة والأنوثة: بناء اجتماعي؟

إنّ الأسئلة عن معنى أن يكون المرء «رجلًا حقيقيًّا» أو «امرأة حقيقية» تزداد تعقيدًا في ثقافتنا الحديثة بسبب أنّ فكرة ما بعد الحداثة التي ترى النوع الاجتماعي (الجندر) «بناءً اجتماعيًّا» قد انتصرت. فبصرف النظر عن الجنس البيولوجي، يُدّعى الآن على نطاق

657. انظروا تكوين 2: 24

658. اقترح ألستير روبرتس (Alastair Roberts) مؤخّرًا أن نقرأ في النصّ أكثر عن الفروق بين الجنسين: فإن قرأنا تكوين 2 في ضوء تكوين 1، فإنّ دعوة الرجل، كما يصفها تكوين 2، تقابل في الأساس مهامّ الأيام الثلاثة الأولى من الخلق: التسمية والترويض والفصل والحكم. أمّا دعوة المرأة فتشمل في المقام الأول الملء والتمجيد والتوليد وإقامة الشركة وإخراج حياة جديدة — وهي مهامّ مرتبطة بالأيام الثلاثة الثانية من الخلق. ومهما كانت هذه الطريقة في القراءة مثيرة، فهي مقاربة مستحدثة وقد تكون مثالًا على تفسير إسقاطيّ خياليّ يُقحم في النصّ ما ليس فيه. وإن كان لا بدّ من قبولها (وأنا أشكّ في أنه ينبغي لنا ذلك)، فإنني سأحسّن ما يقدّمه روبرتس بإدراج «الحكم» في دعوة النساء أيضًا: ففي النهاية، اليوم السادس يتعلّق بشكل قاطع بالحكم والإخضاع.

واسع أنّ أفكارًا مثل الرجولة والأنوثة هي نتيجة لتنشئة الإنسان وثقافته أكثر بكثير ممّا هي نتيجة لجيناته.

وجزء من قوة حجّة ثقافتنا هو أنّ كثيرًا من التحليلات الإحصائية الجامعة لدراسات عن الرجال والنساء تُظهر الاستنتاجات نفسها: خارج الفروق البيولوجية، يتشابه الرجل العاديّ والمرأة العادية تشابهًا لافتًا. ويستنتج كثير من الباحثين أنه حين تؤخذ المؤثّرات الثقافية في الحسبان، تكون الفروق طفيفة إلى حدّ لا يستحقّ أن تُطبَّق تعميمًا.

وقبل أن نُغرى بطرح هذا الاستنتاج جانبًا بوصفه أجندة نسوية تشوّه نتائج العلوم الاجتماعية، لنتذكّر أنه يتوافق إلى حدّ ما مع تعليم تكوين 1 و2: فالرجال والنساء مخلوقون على الكوكب نفسه (لا أحدهما من المرّيخ والآخر من الزهرة)؛ ومن المادة نفسها («عظم» و«لحم»)؛ وعلى الشبه والصورة نفسيهما (شبه الله وصورته). و«الشبه» الذي يشترك فيه الرجل والمرأة مع الله في تكوين 1 يجد ما يماثله في «الشبه» بين الرجل وامرأته في تكوين 2. ثم إنّ كلمة kenegdo قد لا تشدّد على الاختلاف بقدر ما تشدّد على التماثل، ومن هنا جاءت ترجمتها بـ«مناسب» (suitable). فهناك تطابق بين الرجل والمرأة، «تماثل» إنسانيّ، لم يستطع آدم، مهما حاول جاهدًا، أن يجده في أيّ من حيوانات الجنّة. وهذا كلّه يساعدنا على ألّا نبالغ في الفروق بين الرجال والنساء.

درست تيكفا فريمر-كنسكي (Tikva Frymer-Kensky) النساء في العهد القديم، ولاحظت أنّ ما يُشدَّد عليه هو إنسانيتهنّ لا أنوثتهنّ:

حين نستعرض ما يسجّله الكتاب المقدس عن أهداف النساء واستراتيجياتهنّ، تبرز حقيقة مذهلة. فليس هناك شيء «أنثويّ» على نحو مميّز في الطريقة التي تُصوَّر بها النساء في الكتاب المقدس، ولا شيء أنثويّ على نحو خاص في أهدافهنّ أو استراتيجياتهنّ. فأهداف النساء هي الأهداف نفسها التي تحملها الشخصيات الذكورية في الكتاب المقدس ومؤلّفو القصص.[659]

ومع ذلك، هناك في رأيي ما يكفي من الدراسات لدعم الفكرة القائلة إنّ لدى الذكور والإناث، في المتوسّط، فروقًا إدراكية ونفسية وعاطفية، مهما كانت طفيفة. ولأستخدم عبارة سمعت الباعة المتجوّلين في الشرق يستخدمونها: الرجال والنساء «same, but different» («متشابهون، متشابهون، لكن مختلفون»).

659. Tikva Frymer-Kensky, In the Wake of the Goddesses: Women, Culture and the Biblical Transformation of Pagan Myth، الفصل 11

الفروق

فكّروا في الفروق بين أدمغتنا. فأدمغتنا مصمَّمة لتعمل ذهابًا وإيابًا بين الدماغ الأيمن الحدسيّ المبدع والدماغ الأيسر الواقعيّ التحليليّ. في أدمغة الذكور، تتّجه الوصلات العصبية، في المتوسّط، من الأمام إلى الخلف في كلّ نصف، ممّا يمنحهم أفضلية في الإدراك والأفعال المنسّقة. أمّا أدمغة الإناث، في المقابل، ففيها مسارات أكثر بكثير عبر النصفين، ممّا يهيّئهنّ بشكل أكثر طبيعية للتواصل والإدراك. ويبدو أنّ هذا هو السبب في أنّ الرجال كثيرًا ما يهتدون إلى الاتجاهات وينجزون المهامّ المفردة على نحو أفضل، بينما تتفوّق النساء في تعدّد المهامّ وحلّ المشكلات ضمن مجموعة. وهو السبب أيضًا في أنّ الرجال، في المتوسّط، يفكّرون بطريقة أكثر خطّية، والنساء بطريقة أكثر شمولًا وثنائية الجانب وارتباطًا بالسياق.[660] وربما يفسّر هذا تصنيفًا شائعًا مفاده أنّ الرجال، في المتوسّط، يسعون إلى النضج بالانفصال، بينما تفعل النساء ذلك بالارتباط بالآخرين.[661]

كما تكشف صور مسح الدماغ عن فروق في كمّية المادة الرمادية (حيث تُعالَج المعلومات) والمادة البيضاء (حيث تُنقل المعلومات كهربائيًّا إلى أجزاء أخرى من الجسم). فالرجال، بما لديهم من مادة بيضاء أكثر، يتفوّقون بسهولة في التنسيق الجسدي، بينما تعالج النساء المعلومات بسرعة أكبر ويلتقطن الإشارات الاجتماعية.[662]

وأكثر ما يثير اهتمامي هو كيف حدّد علماء الاجتماع عشرة أطياف في أنماط الشخصية — يقيس كلّ منها مدى انخفاض أو ارتفاع درجة الشخص في التعاطف، واللطف، والخيال، والاجتهاد، والحماس، واستقرار المزاج، والنظام، والحزم، والتفكير التحليلي،

660. انظروا مقالتين عن الموضوع: www.bit.ly/2ZR6n12 و www.cbsn.ws/2YaJ7L6

661. Carol Gilligan, In a Different Voice. مقتبس لدى Tim and Kathy Keller: "The Meaning of Marriage"، الفصل 6.

662. Alice Mathews, Gender Roles and the People of God، الفصل 13

والقدرة على الحفاظ على الهدوء — ووجدوا أنّ الرجال والنساء، في المتوسّط، يقعون في مواضع مختلفة على كثير من هذه الأطياف، وهو ما يبيّنه الجدول التالي.[663]

	المئين لدى النساء	المئين لدى الرجال
التعاطف	61	39
اللطف	59	41
الخيال	56,5	44,5
الحماس	55	45
النظام	54,5	45,5
الاجتهاد	50	50
الحزم	48	52
التفكير التحليلي	45	55
استقرار المزاج	42,5	57,5
الحفاظ على الهدوء	40	60

ولفهم الجدول، تخيّلوا أنّ مئة ثنائيّ من رجل وامرأة تكوّنوا من مئة رجل ومئة امرأة اختيروا عشوائيًّا. فبالنسبة إلى الاجتهاد، فإنّ الاحتمال الإحصائي هو أنه في نصف الثنائيات ستكون المرأة أكثر اجتهادًا من الرجل، وفي النصف الآخر سيكون الرجل هو الأكثر اجتهادًا — وهذا يُظهر أنهما يميلان إلى الاجتهاد بالقدر نفسه. أمّا بالنسبة إلى التعاطف، ففي 61 من الثنائيات ستكون المرأة أكثر تعاطفًا من الرجل، لكن في الثنائيات الأخرى، وعددها 39، سيكون الأمر على العكس.

ومع التعادل في الاجتهاد، لاحظوا أنّ النساء، في المتوسّط، يسجّلن درجات أعلى بقليل في التعاطف واللطف والخيال والحماس والنظام، بينما يسجّل الرجال درجات أعلى في الحزم والتفكير التحليلي واستقرار المزاج والحفاظ على الهدوء.[664]

مثير جدًّا للاهتمام! لكن مع ذلك ينبغي أن نسأل: ماذا نفعل بهذه المتوسّطات؟ بالتأكيد ينبغي ألّا نُسقطها توقّعًا على كلّ فرد أو زوجين. فقد يحدث لأحد الوالدين أن تكون ابنته أكثر تفكيرًا تحليليًّا من أخيها، الذي هو أكثر تعاطفًا منها. وبالمثل، حين نوزّع الوظائف، ينبغي ألّا نحصر المرشّحين تلقائيًّا على أساس الجنس. قالت دوروثي سايرز:

663. المصدر: www.bit.ly/3pZn7OU

664. انظروا www.bit.ly/3q6HGJh. وإنصافًا، لم تثبت العلوم الاجتماعية بعدُ على وجه اليقين إلى أيّ حدّ تنتج هذه المتوسّطات عن الطبيعة أو عن التنشئة.

قليلات هنّ النساء اللواتي يولدن ميكانيكيات بالفطرة؛ لكن إن وُجدت واحدة، فلا فائدة من محاولة إقناعها بأن تكون شيئًا آخر. ... إن كانت [هي] قادرة على أن تصير محامية أو طبيبة أو مهندسة معمارية أو مهندسة من الطراز الأول، فيجب أن يُسمح لها بأن تجرّب حظّها في ذلك. والقاعدة [ينبغي أن تكون] أنّ الوظيفة تأتي أولًا، ثم [تُفتح] لكلّ فرد، رجلًا كان أو امرأة، سمينًا أو نحيفًا، طويلًا أو قصيرًا، قبيحًا أو جميلًا، قادرًا على أداء تلك الوظيفة أفضل من بقية العالم.[665]

وهذه مشكلة كبرى في الحجّة التكاملية لفرض أدوار الجنسين. صحيح أن نحتجّ بأنّ الله خلق الرجال والنساء متمايزين. ففي المتوسّط، قد يكون الرجال أقدر بطبيعتهم على تولّي القيادة بسبب حزمهم، بينما قد تكون النساء، في المتوسّط، أكثر تأهّلًا لتنظيم البيت والعناية بالأطفال الصغار بسبب نظامهنّ وتعاطفهنّ. لكن بالنسبة إلى أولئك الرجال والنساء الذين تجعلهم مواهبهم استثناءات خارجة عن المألوف، فإنّ فرض هذه الأدوار عليهم سيكون غير مفيد على الإطلاق.

بل إنني أشكّ في أنه من الممكن أصلًا استخدام الكتاب المقدس لدعم الصور النمطية للجنسين.

رجال في الكتاب المقدس يتحدّون الصور النمطية للجنسين

ادرسوا شخصيات الكتاب المقدس، وقد تجدون أنّ معظم افتراضاتنا الثقافية الحالية عن الرجولة والأنوثة لا وجود لها فيه.

حين يمسح الله الرجلين بصلئيل وأهوليآب من أجل «نقش حجارة» و«نجارة خشب»، قد نظنّ أنّ هذا يؤكّد عملًا خاصًّا بجنس معيّن، يقوم فيه الرجال بالأعمال الثقيلة. لكن ماذا نفعل بحقيقة أنهما وُهبا أيضًا أن يصنعا «تصاميم فنية» وأن يخيطا «ثيابًا منسوجة»؟[666] أو حين يندفع الملك داود إلى الحرب، أو يقذف حجره نحو رأس عملاق، قد نصفّق لاختيار الله رجلًا لهذه المهمة، لكن ماذا نفعل بعزفه على قيثارته وكتابته شعرًا مليئًا بالعاطفة؟ أو حين يقلب يسوع الموائد في الهيكل، نحبّ أن نعلّق على شجاعته الرجولية، لكن ماذا نقول في رغبته في أن يجمع شعبه تحت جناحيه كما تجمع الدجاجة فراخها؟[667] الرجال الحقيقيون لا يبكون؟ لقد بكى يسوع. الرجال الحقيقيون

665. Dorothy Sayers, Are Women Human? Essays on the Role of Women in Society، ص. 19، 29. مقتبس في William Witt, Icons of Christ، الفصل 17

666. خروج 31: 1-10

667. متى 21: 12-17؛ 23: 27

يحملون السلاح؟ قال يسوع لبطرس أن يردّ سيفه. الرجال الحقيقيون لا يُظهرون المودّة؟ ترك يسوع يوحنا يسند رأسه إلى صدره. الرجال الحقيقيون لا يقومون بالأعمال المنزلية؟ طبخ يسوع وأعدّ الطعام لتلاميذه وغسل أرجلهم.[668]

كثيرًا ما نحبّ أن نظنّ أنّ بولس يجسّد صفات «رجولية» مثل العزيمة التي لا تتوقّف، والطموح الذي لا ينضب، واحتضان كلّ أنواع الخطر. ومع ذلك، حين يمدّ يده إلى الاستعارات التي تحرّك خدمته وتشكّلها، كثيرًا ما يتمسّك باستعارات أنثوية. فيقول لكنيسة: «يا أولادي الذين أتمخّض بكم أيضًا إلى أن يتصوّر المسيح فيكم.»[669] ويقول لأخرى: «كما تربّي المرضعة أولادها، 8 هكذا اعتنينا بكم.»[670]

أو اقرأوا كلمات بولس عن الزواج في أفسس 5 بضع مرات أخرى، ولاحظوا ما يفعله يسوع، الزوج المثالي، لعروسه: فهو يحمّمها ويكسوها ويطعمها ويرعاها ويغسل لها ثيابها — وفي تلك الثقافة كانت هذه أعمالًا منزلية.[671] ولا ننسَ أنّ كلّ قارئ ذكر في تشبيهات بولس عن المسيح/الزوج والكنيسة/الزوجة يُشبَّه بعروس يسوع. فالرجال، الذين كثيرًا ما يسعون إلى الاستقلال والعزلة بحكم «ذكورتهم»، ينبغي أن يتعلّموا السعي إلى الحميمية مع المسيح، زوجهم، إذ يقبلون رعايته وقد كشفوا ضعفهم. يا له من تحدٍّ للصورة النمطية عن الرجل!

نساء في الكتاب المقدس يتحدّين الصورة النمطية للجنسين

ونحن أيضًا نخلط بين الأنوثة «التقليدية» والأنوثة «الكتابية». فليس الرجال وحدهم مَن يقتلون لحماية شعبهم. لقد رأيت كثيرًا من كتب الكتاب المقدس للأطفال تتضمّن قصة داود وجليات، لكنّ أيًّا منها لا يروي قصة ياعيل وسيسرا، التي تدقّ فيها المرأة ياعيل بلا خوف وتدًا في رأس قائد جيش عدوّ هارب — فتضمن لشعب الله نصرًا أكثر تأكيدًا.[672] أو ماذا عن المرأة التي تنقذ مدينتها المحاصرة بتدبيرها أن يُقطع رأس رجل ويُلقى من فوق السور، فتُرضي بذلك الأعداء المعسكرين حولها؟[673]

668. شكرًا لصديقتي مارغو ديفيز (Margo Davies) على هذه الأفكار في مدوّنتها: www.bit.ly/3mLLnlK
669. غلاطية 4: 19
670. 1 تسالونيكي 2: 7-8
671. قد يشير العدد 27 أيضًا إلى حصوله على ثوب عرس زوجته واعتنائه به.
672. قضاة 4. وبالمثل، فإنّ يهوديت في كتب الأبوكريفا، واسمها يعني ببساطة «امرأة يهودية»، تستخدم دهاءها لتقطع رأس قائد عدوّ، هو هولوفرنيس (Holophernes).
673. 2 صموئيل 2: 22

كم تختلف هؤلاء النساء عن النساء «الأنثويات» على الطريقة الكلاسيكية في رواية لجين أوستن (Jane Austen)، اللواتي «يكتبن باستمرار في مذكّراتهنّ عن مشاعرهنّ، ويخطّطن لأفضل فرصهنّ في الزواج، ويُغمى عليهنّ عند كلّ ضيق عاطفيّ تقريبًا، ويلبسن طبقات فوق طبقات من الثياب، منها مشدّ ضيّق، ولا يُتوقّع منهنّ أن يعملن.»[674] إنهنّ لسن أبدًا النساء اللواتي كانت إليزابيث إليوت (Elisabeth Elliot) تقصدهنّ حين رسمت صورة مثالية غير دقيقة للأنوثة الكتابية: «النساء يستسلمن ويساعدن ويستجبن، بينما الأزواج يعيلون ويحمون ويبادرون. المرأة الكتابية امرأة خاضعة.»[675]

طبعًا، في العالم الأبويّ القديم (وفي الثقافات التقليدية اليوم) كان على النساء أن يعتنين بالأولاد، وأن يدعن الرجال يقودون بخضوع، وأن يوفّرن وسائل الراحة من طعام وجنس للرجال الذين كانت حياتهم منشغلة بالمجال العام. لكن مع أنّ الكتاب المقدس يتكيّف مع عالم كهذا، فإنه لا يجيزه بوصفه المثال الأعلى لله — وهي حقيقة تزداد تأكيدًا بكلّ النساء الكتابيات اللواتي تحدّين هذه الأدوار الكلاسيكية. وأحيانًا لا نستطيع أن نقبل هذا. فمثلًا، يظهر انحياز في الترجمة في ثلاثة مقاطع[676] عن النساء: تخبرنا ترجماتنا للكتاب المقدس أنّ راعوث كانت امرأة «ذات خُلق نبيل»؛ وأنّ الزوجة «ذات الخُلق النبيل تاج لزوجها»؛ وأنّ امرأة أمثال 31 تفوق «الأعمال النبيلة» التي تقوم بها النساء الأخريات. لكنّ الكلمة العبرية nayil تُترجَم «نبيلة» في كلّ من هذه المقاطع، مع أنها في مواضعها الأخرى في الكتاب المقدس، وعددها 95، حين تُستخدم للرجال، تُترجَم «جبّار بأس» أو «محارب» أو «قوة».

النساء في الكتاب المقدس باسلات أيضًا! فإن كان بولس في أفسس 5 يدعو لا النساء فقط بل الرجال أيضًا إلى التماهي مع عروس المسيح (وأيضًا إلى القيام بالأعمال المنزلية مثل زوج الكنيسة الصالح، يسوع)، فلا ينبغي أن يدهشنا أنه في أفسس 6 يدعو لا الرجال فقط بل النساء أيضًا إلى أن يكونوا محاربين في جيش المسيح، يحملون تروسهم وسيوفهم ويدفعون الظلمة إلى الوراء.

أنا كلّيًّا مع الرجال الأقوياء في المسيح، لكنني لا أرى سببًا لأن نريد من النساء غير أن يكنّ هنّ أيضًا قويات في المسيح — يتّخذن موقفهنّ إلى جانبنا نحن الرجال. ومع كلّ ما تسيطر عليه الظلمة في عالمنا، نحتاج إلى أن نطلق النصف الآخر من الجيش

674. لا أستطيع أن أجد أين صادفت هذا الاقتباس أول مرة، لكنه ليس من كلامي.
675. Elisabeth Elliot, Let Me Be A Woman، ص. 50. مقتبس في Barr، Introduction
676. راعوث 3: 11، أمثال 31: 29، أمثال 12: 4

لينضمّ إلينا نحن الرجال منتقمين من الظلم والخداع، ومقاتلين من أجل الحرية يسعون إلى إنقاذ المظلومين والمصدومين، وحاملي مشاعل وأبطالًا في قضية المسيح. ولا أتحدّث هنا عن مستقبل مأمول فحسب. فمرة بعد مرة، أحدثت محاربات من أجل المسيح أثرًا هائلًا ليسوع بالفعل. كان ويليام بوث (William Booth)، مؤسّس جيش الخلاص، يقول إنّ «أفضل رجاله كنّ نساءً». وبالمثل، يسجّل كتاب Life and Work on the Mission Field أنه «كلّما كان العمل أصعب وأخطر، ارتفعت نسبة النساء إلى الرجال».[677]

تجاهل الصور النمطية

إنّ كون الكتاب المقدس لا يقدّم تعريفات للأنوثة والرجولة يقول لي إننا ربما ركّزنا على هذه الأفكار أكثر ممّا ينبغي. نعم، البشر ذكور وإناث، وعلينا أن نعيش في انسجام مع هويتنا الجنسية المتجسّدة، لكنّ الكتاب المقدس لا يكاد يقول شيئًا عن طبيعة الأنوثة أو الرجولة. ودراسة تيكفا فريمر-كنسكي لشخصيات الكتاب المقدس تكشف ما يلي:

[الكتاب المقدس] لا يقدّم أيّ سمات للسلوك البشري على أنها «أنثوية» أو «ذكورية»، ولا تقسيمًا للصفات بين قطبَي «الأنثويّ» و«الذكوريّ»، ولا أيّ تلميح إلى تمييزات من قبيل هذه الثنائيات: عدوانية الذكر — تقبّل الأنثى، تجديد الذكر — محافظة الأنثى، اندفاع الذكر إلى الخارج — احتواء الأنثى ... أو أيّ من الثنائيات الأخرى التي اعتدنا أن نفكّر بها في التمييز بين الجنسين.[678]

وأنا أكتب هذا، أفتح تويتر وأقرأ لأستاذ في معهد لاهوتي معمدانيّ. ففي أحد الأيام القريبة، استعدادًا لعيد الأمّ حين يكون من المألوف لبعض الكنائس أن تدعو امرأةً متحدّثة، كتب: «اسمعوني جيدًا. إن كانت في كنيستكم امرأة تعظ ولو أحيانًا، فعليكم أن تتركوا تلك الكنيسة.»[679] ثم يبدو أنه يستبق سؤالنا عن الأنشطة التي يُفترض بالنساء أن يقمن بها إذن، لأنّ تغريدته التالية تمتدح النساء اللواتي يغسلن الثياب ويخطن ويحكن، ويعتنين بالأولاد — وكلّها أنشطة، كما يقول، إن أحسنت الإناث القيام بها فسيكافئهنّ المسيح عليها.[680] وبينما أنظر إلى صفحته، تظهر تغريدة أخرى عن أنّ

677. Herbert Kane, Life and Work on the Mission Field، ص. 143. مقتبس في Bessey, Jesus Feminist، الفصل 8.
678. Frymer-Kensky, In the Wake of the Goddesses: Women, Culture and the Biblical Transformation of Pagan Myth، ص. 141.
679. www.bit.ly/2ZNt9ai
680. www.bit.ly/3nQAwpC

«الرياسات والسلاطين تكره نظام الخليقة، وتكره الرجولة والأنوثة الكتابيتين، وتكره الله.»[681] إنّ قناعاته مضلَّلة: ماذا لو كانت خطّة الشيطان أن يجعل نصف الجيش يحبس النصف الآخر في البيت؟ إنّ ما يكرهه الشيطان فعلًا هو رجال ونساء متّحدون في القوة، يقفون جنبًا إلى جنب في المعركة الروحية وفي المناداة بالإنجيل.

يقول بيان دانفرز إنّ «الفروق في الأدوار الذكورية والأنثوية مرسومة من الله، وينبغي أن تجد صدى في كلّ قلب بشري». لكن فكّروا كم هذا القول غير مفيد. فبما أنّ كاتبه يعرّف «الذكوري» في موضع آخر بأنه «القوة والقيادة» و«الأنثوي» بأنه «تأكيد قوة الذكر وقيادته»، فماذا يستتبع هذا إن كان أحدكم رجلًا ومع ذلك يستطيع أن يؤكّد قوة امرأة وقيادتها، أو إن كانت إحداكنّ امرأة قوية ترغب في أن تقود؟ إنه يوحي بأنّ شيئًا ليس من الله يعمل فيكم.

العلامة الحقيقية لعمل الله في الرجال والنساء على السواء هي أن كليهما يسعى إلى التشبّه بالمسيح. وليس سرًّا كيف هو يسوع. ولعل سفر الرؤيا 5 يلخّص على أفضل وجه طبيعة يسوع التي تتحدّى كل الصور النمطية. ففيه يُقال ليوحنا أن ينظر إلى «الأسد الذي من سبط يهوذا» الذي قد غلب، ولكنه حين يرفع رأسه ليراه، يُفاجأ بأنه يرى «خروفًا قائمًا كأنه مذبوح». يسوع هو الأسد الذي لا يهاب، وهو الحمل المذبوح معًا. يحمل صولجان السلطان، لكنه يحمل أيضًا آثار الجراح من تسميره على الصليب. هو مهيب ووديع معًا. هو ملك وخادم معًا. يقف شامخًا، مرفّعًا إلى السماوات، لكنه أيضًا ينحني ليضمّنا إلى صدره. هو قوي، ومع ذلك معرَّض للجراح؛ صاحب سلطان، ومع ذلك قريب المنال؛ مقدام، ومع ذلك مُذعِن؛ يزأر، ومع ذلك يبكي؛ لا يُكسَر، ومع ذلك مكسور.

إلى أولئك الرجال (والنساء) الحازمين، وإن كانوا أحيانًا عدوانيين، الذين قد يميلون بطبعهم إلى صفات يسوع الشبيهة بالأسد، تأتي دعوة يسوع: «تعلّموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب».[682] وإلى أولئك النساء (والرجال) اللطيفات، وإن كنّ سريعات الارتباك، اللواتي قد يملن بطبعهن إلى صفات يسوع الشبيهة بالحمل، تأتي دعوة يسوع: «ملكوت السماوات يتقدّم بقوة، وأصحاب العزم يستولون عليه».[683] ولكي نكون واضحين: الكتاب المقدس لا يأمرنا أبدًا بأن نسعى إلى مستويات أعلى من الرجولة أو

681. www.bit.ly/2ZS465M
682. متى 11: 29
683. متى 11: 12

الأنوثة. بل نحن مدعوون إلى مستويات أعلى من التشبّه بالمسيح. فلا نسأل: «هل أتمّم تكليفي بأن أصير امرأة أو رجلًا "كتابيًّا"؟» بل نسأل: «هل أقتدي بالمسيح؟»

ولهذا يكتب بولس: «لمّا صرتُ رجلًا أبطلتُ ما للطفل»، وليس: «أبطلتُ ما للأنوثة». فبدلًا من أن نقابل الأنوثة بالرجولة، كما نفعل كثيرًا، لعلّنا مدعوون إلى أن نقابل كلتيهما بالطفولة. فالأطفال يميلون إلى انتظار التعليمات، وإلى التمركز حول الذات، وإلى الخوف والاعتماد الشديد على الآخرين. أما نحن فنعرف أننا نضجنا في الأنوثة والرجولة حين نكون قد تعلّمنا أن نخدم الآخرين، وأن نعتمد بعضنا على بعض، وأن نبادر أكثر ونتحمّل مزيدًا من المسؤولية.

ولكن هل توجد أيّ وصايا خاصة بأحد الجنسين على الإطلاق؟ أقترح أن هناك وصية واحدة للنساء، ووصية واحدة للرجال.

حُسن الوكالة على الجمال والقوة

لنبدأ بتعليم للنساء يتعلّق بجمالهن: «أريد ... أن النساء يُزيِّنَّ ذواتهن بلباس الحشمة، مع ورع وتعقّل، لا بضفائر أو ذهب أو لآلئ أو ملابس كثيرة الثمن، بل كما يليق بنساء متعاهدات بتقوى الله بأعمال صالحة».[684]

لاحظوا أن بولس لا ينتقد رغبة المرأة في أن تكون جميلة، بل يؤكّدها. بل إنه في موضع آخر يلمّح إلى أن جمال المرأة هو ذروة الخليقة.[685] لكن ما يقلق بولس هو أن نساء كثيرات يكتفين بسهولة بالغة بجمال لا يتعدّى سطح البشرة. فالمرأة في الأمثال 31 تُمدَح لا لجمالها السطحي الزائل، بل لمحبتها المشرقة لله. ويبدو أنه كانت في كنيسة أفسس نساء ثريات سعين إلى لفت الأنظار إلى أنفسهن بزينتهن الباذخة. ويقول بولس إن عليهن أن يركّزن بالأحرى على ذاك الذي لا يحكم عليهن بحسب مظهرهن الخارجي، بل بحسب أعمالهن النابعة من المحبة. وربما كان بولس يتحدّى أيضًا نساء مسيحيات يلبسن لباسًا مغريًا وسيلةً لاستغلال جمالهن. ولست أقصد بأي حال أن طريقة لباس المرأة ينبغي أن تحدّد كيف يعاملها الرجال، أو أن على النساء أن يشعرن يومًا بأنهن مسؤولات عن طهارة الرجال الجنسية. فكل امرأة حرّة أن تلبس كما تشاء، لكن على النساء التقيّات أن يكتسين، أولًا، بالمحبة. وهذه المحبة ينبغي أن تتّجه أولًا إلى أنفسهن. فعلى الرغم من احتفاء ثقافتنا المزعوم بالتعبير عن الذات، لم تكن النساء والفتيات الصغيرات قطّ مُبتلَيات بطغيان المثال الجسدي كما هنّ اليوم. وبفضل تأثير

684. 1 تيموثاوس 2: 9-10
685. 1 كورنثوس 11: 15

وسائل التواصل الاجتماعي إلى حدّ ليس بالقليل، ترتفع معدلات الاكتئاب والقلق واضطرابات الأكل بين الشباب ارتفاعًا هائلًا.[686] وفي السعي الذي لا ينتهي نحو الكمال ونحو مزيد ومزيد من «الإعجابات»، تشوّهت رغبتنا الطبيعية في الجمال. فمظهرنا الجسدي لم يُقصد به قطّ أن تكون له علينا، أو على الآخرين، مثل هذه السطوة.

والآن اسمحوا لي أن أقول شيئًا عن هذا من منظور رجل. ففي موعظته على الجبل يوصي يسوع الرجال بألّا ينظروا إلى النساء نظرة شهوة — ولا يوصي النساء بأن يمتنعن عن أن يكنّ موضوعًا للشهوة. وبصفتي رجلًا، أعرف أنني أستطيع أن أنظر بشهوة حتى إلى امرأة محتشمة اللباس. وبصفتي رجلًا مسيحيًّا، أدركت أن علاج الشهوة ليس في تجنّب النظر إلى النساء. فيسوع، في نهاية الأمر، كان ينظر إلى النساء طوال الوقت. بل إن أفضل استراتيجية في معركتي من أجل الطهارة هي أن أرى حقًّا النساء كما يراهن الله — لا موضوعات للإشباع الجنسي، بل شريكات لي في حمل صورة الله.

والآن لنتأمّل وصية أُعطيت للرجال قد تتعلّق بقوتهم الجسدية. يدعو بطرس الرجل إلى أن يستعمل قوته الجسدية استعمالًا صحيحًا في حضور النساء: «أيها الرجال ... كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناء النسائي كالأضعف، معطين إياهن كرامة، كالوارثات أيضًا معكم نعمة الحياة، لكي لا تُعاق صلواتكم».[687] ومهما نفرت النساء من كلمات بطرس هذه، فهي لم يُقصد بها الانتقاص منهن. إنه لا يفعل أكثر من التعليق على حقيقة عامة: الذكور البالغون أقوى جسديًّا من الإناث في كل الأحوال تقريبًا. وعلى الرجال أن يستعملوا قوتهم خاصةً للحماية، وألّا يستعملوها أبدًا للأذى.

ومن المروّع أن العنف الأسري لم يُعَدّ أمرًا غير مقبول وجريمةً إلا في منتصف القرن الماضي. وكما أكّدت سابقًا في الفصل 2، لم يبدأ النظر إلى النساء بوصفهن مساويات للرجال إلا في ستينيات القرن العشرين، وعندئذ فقط صارت تبعية النساء موضع تساؤل. بل إنني وجدت مقالًا من ستينيات القرن الماضي في صحيفة New York Daily Mirror بعنوان: «إن كانت المرأة تحتاج إليه، فهل ينبغي أن تُضرَب ضربَ تأديب؟»[688] وبحسب الرجال الأربعة الذين كتبوا ردودهم، كان الجواب بالإجماع: نعم! «إنه يعلّمهن مَن هو صاحب الأمر»، يكتب أحدهم واسمه تيدي غاليل (Teddy Gallel). «كثير من النساء يملن إلى نسيان أن هذا عالم رجال، وكثير من الرجال الذين

686. www.bit.ly/3bIo4mc
687. 1 بطرس 3: 7
688. www.bit.ly/3EI1Tcr

تنحّوا عن كونهم أصحاب الأمر في أسرهم يتمنّون لو أنهم لم يفعلوا.» أنا أعيش في بلد ستتعرّض فيه نسبة صادمة تبلغ 50% من الإناث للاغتصاب أو للاعتداء الجنسي في أثناء حياتهن. وكل قصة مأساوية من هذه القصص مثال على رجل يستعمل قوته ليفترس النساء بدلًا من أن يحميهن. يا له من سوء استعمال لقوة الرجل الجسدية!

وفي حروب العهد القديم ومعاركه، حين كانت القوة الجسدية المحضة مطلوبة، كان الرجال هم الذين يُرسَلون إلى خطوط المواجهة الأمامية.[689] وحين كانت حياتهما في خطر، استطاعت مريم والطفل يسوع أن يثقا بيوسف ليكون درعهما الجسدي.[690] بل إن بولس يتوقّع من جميع الأزواج أن يكونوا مستعدّين لبذل حياتهم من أجل زوجاتهم.[691] ومرة أخرى، لا أريد أن أصنع تعميمًا. فقد تأتي أوقات ترى فيها امرأة عجوز على قارب يغرق أن الأفضل أن تعطي آخر سترة نجاة لشاب، أو تحمي فيها زوجة أقوى جسديًّا زوجها المعاق من خطر بجسدها، أو تعبّر فيها امرأة مثل راحاب عن إيمانها بالله بإخفاء رجال هاربين أبرياء في بيتها.[692]

والأهم جدًّا أن بطرس لا يستنتج، كما يفعل كثير من الباحثين التكامليين، من ضعف المرأة الجسدي ضعفًا عاطفيًّا أو روحيًّا — فعلى مرّ تاريخ الكنيسة اعتُبرت النساء خطأً أضعف من الرجال عاطفيًّا وفكريًّا وأخلاقيًّا وروحيًّا. لكن ليس هذا ما يقوله بطرس، ولا ينبغي بالتأكيد أن يُستعمل كلامه لإقصاء النساء عن أدوار الخدمة. قرأت مؤخرًا حجة طرحها اللاهوتي الأبرز في حركة تكاملية تضم آلاف الكنائس، يلاحظ فيها بحق أن الرجال مجبولون على أن يكونوا الحماة الجسديين، ثم يقول بحق إن من أهم مهام الرعاة أن يحموا القطيع روحيًّا. ولكنه بعد ذلك يستنتج خطأً أن الرجال لذلك أنسب لمهمة قيادة الكنائس.[693] والحقيقة أنه حين يتعلّق الأمر بجوانب الحياة غير الجسدية، فإن المرأة قادرة مثل الرجل على حماية الآخرين، بمن فيهم الرجال.

استعادة التكامل بلا تراتبية

689. تثنية 20: 7-8؛ يشوع 1: 14
690. متى 2: 13-14
691. أفسس 5: 25 وما بعدها
692. يشوع 2
693. وبالمثل يجادل أوين ستراكان في «The Grand Design» بأن الشجاعة والجرأة الهجومية المطلوبتين للوقوف في وجه الظلمة الروحية صفتان ذكوريتان في الأصل. ولذلك ينبغي أن يقود الرجال. لكن النصوص التي يستعملها للاحتجاج لذلك — 1 كورنثوس 16: 13-14، وإشعياء 19: 16، و1 ملوك 2: 2، وحزقيال 22: 30 — لا تدعم ادعاءه. صحيح أن المعارك الجسدية تتطلّب قوة جسدية، لكن المعارك الروحية لا تتطلّب قوة جسدية، ولذلك تستطيع النساء أيضًا أن يخدمن بشجاعة فى الخطوط الأمامية لعمل الله.

يبدأ التكامليون من المكان الصحيح حين يؤكّدون حقيقة أن الرجال والنساء خُلقوا مختلفين ويحتاج بعضهم إلى بعض. ولكنهم بعد ذلك يتجاوزون النص ويدّعون أن الفروق «التي رسمها الله» تُختزَل في جوهرها إلى ثنائية السلطة والخضوع. فالتكامل عندهم تراتبي، وهو لذلك يؤدّي إلى فقدان التكامل، لأنه يخلق في الكنيسة مناطق حكرًا على الرجال، مثل إدارة الكنيسة والوعظ من على المنبر، حيث لا يُسمَع إلا صوت الرجل. وهم بذلك يقوّضون التكامل بين الجنسين، الذي كان سيعكس صورة الله على نحو أشمل.

في هذا الفصل حاولت أن أنتزع التكامل من التكاملية، وأن أقرنه لا بالتراتبية بل بالتبادل. فخطة الله ليست أن يقود الرجال النساء بوجه عام، بل أن يقود الرجال بوجه عام جنبًا إلى جنب مع النساء. لا شيء في الكتاب المقدس يربط القدرات الفكرية أو القيادية بأيٍّ من الجنسين. وأقصى ما يمكننا قوله هو أن النساء في المتوسط سيفكّرن أو يقدن بطريقة، والرجال بطريقة أخرى.

وإذا أخذنا بنى الدماغ المختلفة لدى الرجال والنساء، أو النقاط العشر في الجدول الوارد سابقًا في هذا الفصل، حيث النساء في المتوسط أكثر تعاطفًا وإبداعًا، والرجال في المتوسط أكثر حزمًا وتحليلًا، أفلا تكون زيجاتنا وخدماتنا وأماكن عملنا أغنى بكثير لو جمعنا نقاط قوتنا معًا؟ نحن نحتاج إلينا جميعًا لكي نصير كل ما قُصد لنا أن نكونه. وإذا كان النساء والرجال، في المتوسط، مجبولين على نحو مختلف، فإن فريق قيادة من رجال ونساء سيقدّم، في المتوسط، قيادة أكثر توازنًا وشمولًا بكثير لأي كيان أو جماعة يقودها.

إنه لأمر محزن حقًّا أن المجتمع يسبق الكنيسة في هذا الأمر، لكن فائدة إشراك النساء في أعلى مستويات القيادة، وإن كان تبنّيها بطيئًا في بلدان كثيرة، تؤتي نتائج لافتة. ففي دراسة شاملة،[694] تبيّن أن فرق الإدارة العليا في الشركات حين تتألّف من ذكور فقط تتخذ قرارات جيدة في 58% من الحالات. أما إذا أُضيفت نساء إلى تلك الفرق، فإن احتمال اتخاذ قرارات جيدة يقفز إلى 73%![695]

حين نحاول أن نركض في سباق وإحدى رجلينا في الجبس، فإننا نعرج ونقفز. أما برجلين سليمتين فنستطيع أن نخطو خطوات أوسع بكثير ونبلغ مسافات أبعد بكثير. وهكذا الحال مع الإسهامات المتكاملة الفريدة للرجال والنساء. فبعد أن يصف راوي

694. www.bit.ly/3BKuImw

695. وإذا تألّف الفريق من تنوّع في الجنس والعمر وأماكن النشأة والدراسة الجامعية، يرتفع الرقم إلى 87%.

سفر التكوين 1 خلق الله للذكر والأنثى حاملَين لصورته، يقول إن الله «رأى كل ما عمله فإذا هو حسن جدًّا». ومنذ وقت ليس ببعيد، ربما بدا في الغرب أن من المعقول أن نستعمل رجلًا واحدة فقط (فالأخرى، في نهاية الأمر، كانت تُعَدّ أدنى: عرضة للاعقلانية وعدم الاستقرار والخوف). أما الآن وقد اكتشفت ثقافتنا خلاف ذلك، واستُعيد المعنى والقصد الأصليان للكتاب المقدس، فإننا نستطيع، بل ينبغي لنا، أن نركض برجلينا كلتيهما.

ينتظرنا الكثير مما نتطلّع إليه كلما ازدادت شراكتنا معًا، لكن كوننا مختلفين يعني أن الطريق لن يكون دائمًا ممهّدًا. فالتنوّع يؤدّي إلى نموّ وإنتاجية أكبر، لكنه يؤدّي أيضًا إلى تعقيد وسوء فهم أكبر. وأحكامنا المسبقة القديمة عنيدة على نحو خاص. وهذا على الأقل جزء من السبب الذي يجعل الزواج صعبًا إلى هذا الحد. ومع ذلك، فالصعب ليس خطأً — بل هو في أحيان كثيرة جدًّا الفرصة نفسها التي نحتاج إليها لننمو في التشبّه بالمسيح.

ففي نهاية الأمر، ليس هدف الحياة كما يحدّده الكتاب المقدس أن نصير أكثر رجولة أو أكثر أنوثة، بل أن نصير أكثر شبهًا بيسوع، الذي هو الأسد والحمل معًا.



15

حواء ليست للبيت وحده

«إنه لَمن الحماقة التامة أن نسلب النساء مهنهن التقليدية ثم نشتكي لأنها تبحث عن مهن جديدة. كل امرأة إنسان — ولا يمكن أن نكرّر ذلك بما فيه الكفاية — والإنسان لا بدّ له من عمل يشغله، لئلّا يصير هو أو هي عبئًا مزعجًا على العالم.» دوروثي سايرز[696]

مؤخرًا، حين سُئل أحد أبرز معلّمي الكتاب المقدس عن الكلمتين اللتين يقولهما لأشهر واعظة معمدانية جنوبية، أجاب: «Go home» («عودي إلى البيت»). ولم يكن ذلك منه تحقيرًا شخصيًّا لبيث مور فحسب، بل كان أيضًا نصيحة أمينة للاهوته التكاملي.

في عام 1998، وبعد سنوات من النقاش، أقرّ المعمدانيون الجنوبيون حصر النساء في البيت بوصفه مصيرهن الذي رسمه الله: «الزوجة ... عليها مسؤولية من الله أن تحترم زوجها وأن تكون معينة له في تدبير شؤون البيت وتنشئة الجيل التالي».[697] وبحسب التكامليين، يستطيع آدم أن يحلّق قائدًا في المجتمع والكنيسة والبيت. أما حواء فيُفترض أن تبلغ كامل تحليقها داخل البيت — بل حتى هنا لا تفعل أكثر من مساعدة آدم، «رأس البيت»، بتدبير المنزل ورعاية أولاده. وكما لاحظنا من قبل، ليس هذا النوع من الشوفينية الذكورية أمرًا جديدًا. ففي القرن الخامس، شرح أحد آباء الكنيسة هذا المفهوم لإخوته الأزواج:

ليس للزوجة إلا واجب واحد: أن تحفظ ما جمعناه، وأن تصون دخلنا، وأن تعتني بأهل بيتنا. ... إن حياتنا مؤلّفة من مجالين من النشاط، العام والخاص. وحين قسم الله هذين المجالين، أسند تدبير البيت إلى المرأة ... فهي لا تستطيع أن تبدي رأيًا في المجلس العام، لكنها تستطيع أن تبدي رأيها في البيت.[698]

696. Dorothy Sayers, Are Women Human? ص. 32.
697. Barry Hankins, Uneasy in Babylon، ص. 214–215. مقتبس في Barr، الفصل 1.
698. يوحنا الذهبي الفم، On Marriage and Family Life

إن هذا النوع من العقيدة يقلّص كل ما تستطيع المرأة أن تقدّمه في المجتمع والكنيسة، و— بدرجة أقل — في البيت. وبالطبع ينبغي للأمهات (وللآباء) أن يحبّوا أولادهم من كل قلوبهم، وأن يربّوهم في بيت آمن، ولكن ماذا عن النساء العازبات؟ أو عن اللواتي لا أولاد لهن؟ بل حتى في عقود حياة الأم الكثيرة، لا تدوم سنوات تربية الأطفال المكثّفة (إن اختارت أن تكرّس نفسها لها بدوام كامل) إلى الأبد. فبتمجيد الدور المنزلي، تقلّل التكاملية من ثقل كل دور آخر قد يكون للمرأة في كل مرحلة أخرى من مراحل الحياة.

تروي سارة بيسي أنها نشأت في كنيسة تعلّمت فيها لاهوتًا رحبًا عن الطرق التي تستطيع بها أن تخدم يسوع، فكانت لذلك تتوق إلى «حياة من صنع السلام الفادي والسعي إلى العدالة». ولكن حين انتقلت إلى الجنوب الأمريكي، حيث كانت خدمة النساء تتمحور أساسًا حول الأمومة المتفرّغة في البيت، اختبرت «فهمًا لاتّباع يسوع يصغر يومًا بعد يوم».[699] وبالفعل، فإن عقيدة حصر المرأة في البيت هذه، بإخفاقها في رؤية كل ما يراه الله في المرأة، عقيدة تجعل نساء كثيرات يعشن مع مرور الوقت حياة أصغر وأضيق لم تتحقّق إمكاناتها، لا حياة أكبر وأرحب.

في مديح الأمهات

أرجو ألّا تسمعوا ما لا أقوله. فحين أقترح أن النساء قد انتُقص منهن بعقيدة تقول إن إسهامهن الأساسي يكمن في الأمومة، فإنني بالتأكيد لا أريد أن أنتقص من دور الأمهات أيضًا. فهنّ حجر الأساس للأسرة وللمجتمعات السليمة. وينبغي لنا أن نكرم هذا الدور وأن نضعه في أرفع منزلة. وإنني أشعر باستمرار بالتواضع والامتنان للطريقة التي تسكب بها جولي حياتها من أجل أولادنا الخمسة. فمن بين كل أدوارها في الحياة، هذا هو الدور الذي تعتزّ به أكثر من غيره، وأولادنا والعالم أغنى بسببه.

ومع ذلك، فإن بيان دانفرز، الذي يدعو الأمهات إلى التركيز أساسًا على البيت والأولاد، هو نتاج ثقافي أكثر منه كتابي. فكثيرًا جدًّا وبسهولة بالغة خلطت الكنيسة بين ما هو تقليدي — أبٌ يكسب العيش وأمٌّ ربّة بيت — وما هو كتابي. فالأسرة التقليدية اختراع ثقافي حديث. فلم يبدأ الآباء بمغادرة البيت أفواجًا إلى العمل إلا منذ الثورة الصناعية. وقد انتشر ذلك على نحو خاص في الطفرة التي تلت الحرب العالمية الثانية، حين كان الأب يستطيع أن يكسب من العمل على خط التجميع دخلًا يكفي لتغطية كل نفقات

699. Sarah Bessey, Jesus Feminist، الفصل 3.

أسرته. وباستثناء أغنى المناطق، اختفت مثل هذه الأسرة من المشهد الاقتصادي العالمي. وبالفعل، ففي بلدي أنا، حيث يُربّى 60% من الأطفال على يد أمهات عازبات، وحيث تُربّى نسبة أعلى منهم على يد أمهات مضطرات إلى إيجاد عمل خارج البيت، فإن المبالغة في التشديد على أن الأمهات التقيّات ينبغي في الوضع المثالي أن يكرّسن أنفسهن كليًّا للدور المنزلي، وتوقّع ذلك منهن، أمرٌ عفا عليه الزمن، بل هو قاسٍ أيضًا. فالأمهات المكافحات لا يحتجن حقًّا إلى مزيد من الشعور بالذنب. ثم إن أم الأمثال 31 نفسها «تتأمل حقلًا فتأخذه»، وبهذا المال «تعطي أكلًا لأهل بيتها».[700]

هل هو أمرٌ بالبقاء في البيت؟

يقدّم كوستنبرغر ما يُسمّى «الأساس الكتابي» لحصر التكامليين المرأة في البيت:

في رسالة بولس إلى تيطس، تُدعى النساء إلى أن يكنّ «عاملات في البيت» وأن «يحببن رجالهن ويحببن أولادهن». وأفضل ما تُعاش فرحة حياة المرأة وعملها حين تجعل محور حياتها أساسًا أسرتها وبيتها. وفي الوقت نفسه، لا تستبعد التكاملية أن تعمل المرأة خارج البيت أبدًا. [ومع ذلك] لا حاجة إلى التراجع عن تدبير الله للنساء بأن يكون محورهن الأسرة والبيت، ما لم تكن هناك عوامل استثنائية مثل مرض الزوج، إلخ.[701]

بعبارة أخرى، يجوز للنساء أن يعملن خارج البيت، ولكن ينبغي ألّا يفعلن ذلك إن أمكن. فهل يعلّم تيطس 1 ذلك حقًّا؟ يغفل كوستنبرغر عن النظر في السياق اليوناني الروماني للكنيسة التي كُتبت إليها هذه الرسالة. وبانتزاع النص من سياقه، يقدّم لنا ذريعة لا نصًّا.

قال أفلاطون (Plato) إن على الرجل أن «يدير شؤون الدولة» (أي المجال العام) وعلى المرأة أن «تدبّر بيتها، وتحفظ ما في داخله، وتطيع زوجها».[702] وكان فيلون (Philo) أشدّ تضييقًا:

ينبغي للمرأة ألّا تكون فضولية تتدخّل في أمور خارج شؤون بيتها، بل عليها أن تطلب حياة العزلة. ولا ينبغي لها أن تستعرض نفسها كالمتشرّدة في الشوارع أمام أعين الرجال الآخرين، إلا حين يتعيّن عليها أن تذهب إلى الهيكل، وحتى حينئذ عليها أن

700. أمثال 31: 15-16
701. www.bit.ly/3SHnecQ
702. أفلاطون، Meno، الفقرة 71e–f

تحرص على الذهاب لا حين تكون السوق مزدحمة، بل حين يكون معظم الناس قد عادوا إلى بيوتهم.[703]

إلى عالم كهذا حثّ بولس النساء في الكنيسة على أن «يكنّ عاملات في البيت».[704] وبالمناسبة، هذا هو التعليم الوحيد من نوعه في الكتاب المقدس. كان بولس حريصًا على الحفاظ على مصداقية الكنيسة لدى أهل كريت، حيث كان يُتوقَّع من النساء «المحترمات» أن يبقين في البيت. فالإخفاق في ذلك، كما يشرح بولس مباشرة، كان سيجعل كلمة الله «يُجدَّف عليها»[705] في أعين المراقبين الذين كانوا يحاولون أن يكوّنوا رأيهم في هذه الجماعة المسيحية الناشئة. وفي موضع آخر يقول بولس إن البقاء في البيت يمنع الانطباع بأن النساء المسيحيات «بطّالات يطفن في البيوت»، وأنهن «فضوليات يتكلّمن بما لا يجب».[706] فهذا التعليم بأن «يكنّ مشغولات في البيت» ليس مثالًا عامًّا ولا مرسومًا شاملًا. إنه حكمة خاصة بموقف معيّن لخير الإنجيل.[707]

والنص الآخر الذي يقدّمه التكامليون دليلًا على جعل البيت وتربية الأطفال محور حياة النساء (لا الرجال) هو 1 تيموثاوس 5. ومرة أخرى يُغفَل السياق الظرفي. فبالطبع ينبغي للأرامل المعدمات المخاطَبات في ذلك الأصحاح، اللواتي يعتمدن على إحسان الكنيسة، أن يستعملن وقتهن وطاقتهن في رعاية أولادهن وأحفادهن.[708] والأرامل الشابات اللواتي يتزوّجن ثانية، فيعيلهن بالتالي ربّ أسرتهن (paterfamilias)، ينبغي لهن بدورهن أن يدبّرن بيوتهن، بما في ذلك العبيد والأولاد.[709] وفوق ذلك، يتجاهل التكامليون إمكانية أن تكسب بعض النساء دخلًا: فبولس يقول لكل «أحد» (وهذا يشمل النساء) يستطيع أن يعمل أن يفعل ذلك، لكي «يعتني بخاصته».[710]

703. فيلون. المصدر: www.bit.ly/3kquueP
704. تيطس 2: 5. ترجمة NIV «busy at home» («مشغولات في البيت») تفوّت معنى أن النساء كنّ قادرات على أكثر من مجرد الأعمال المنزلية وتربية الأطفال. فالبيت اليوناني الروماني كان المكان الذي يمكن أن يُنجَز فيه معظم العمل المنتج اقتصاديًّا.
705. تيطس 2: 5
706. 1 تيموثاوس 5: 13
707. صحيح أن عددًا قليلًا جدًّا من نساء الطبقة العليا شاركن في أدوار عامة راعياتٍ وصاحباتِ أعمال وموظفاتٍ عامّات. لكن هذا النوع من السلوك لم يكن مقبولًا إلا من نساء النخبة — أما الغالبية العظمى من النساء فكنّ سيتعرّضن للانتقاد إذا تصرّفن كالرجال خارج البيت. فعلى سبيل المثال، كانت هؤلاء النساء الثريات نادرات جدًّا في الكنائس الأولى حتى إن لوقا، حين اهتدت إحداهن، رأى ذلك جديرًا بالذكر (أعمال الرسل 13: 50؛ 17: 12، 34).
708. 1 تيموثاوس 5: 3-4
709. 1 تيموثاوس 5: 14
710. 1 تيموثاوس 5: 8

وخلاصة القول، إن تيطس 1 و1 تيموثاوس 5 ليسا بالتأكيد أساسًا كتابيًّا كافيًا لعقيدة صارمة الصياغة كهذه تُفرض على الجميع بمقاس واحد. فليست كل النساء في كل مكان مأمورات بأن يجعلن البيت محور حياتهن أساسًا.

نساء يعملن

ليست معظم الأمهات في العالم مضطرات إلى العمل فحسب، بل كثيرات منهن يرغبن في العمل. ففي الثقافات السابقة للعصر الصناعي، كما في جزء كبير من أفريقيا الريفية اليوم، كانت النساء محدودات في نوع العمل الذي يستطعن القيام به، لأنهن كنّ ينجبن أولادًا كثيرين ليكونوا أيدي عاملة. فطوال جزء كبير من حياتهن، كانت هؤلاء النساء في العادة حوامل أو مرضعات لصغارهن، مما يعني أنهن لم يكنّ قادرات على القيام بالأعمال الشاقة، ولا على السفر بعيدًا عن البيت. وكان العمل القريب من البيت الذي استطعن القيام به يشمل صنع الملابس، وإطعام الصغار والمرضى والمسنّين ورعايتهم. أما الرجال، لكونهم أقوى ومتحرّرين لمغادرة البيت، فكانوا يستطيعون القيام بكل نوع آخر من العمل، بما في ذلك أداء الأدوار العامة في المجتمع.[711]

في مقالتها الشهيرة سنة 1971، Are Women Human? (هل النساء بشر؟)، تشير دوروثي سايرز إلى أنواع الأعمال المدرّة للمال التي كانت نساء ما قبل العصر الصناعي يستطعن القيام بها، مثل الغزل والصباغة والنسيج وإعداد الطعام وتخمير الجعة وحفظ الأطعمة والتخليل وإدارة الضياع. ثم تأتي الثورة الصناعية و...

> لا بأس في أن يُقال إن مكان المرأة هو البيت — لكن الحضارة الحديثة أخرجت كل هذه الأنشطة اللطيفة والمربحة من البيت، حيث كانت النساء يتولّينها، وسلّمتها إلى الصناعة الكبرى، ليوجّهها وينظّمها رجال على رأس مصانع كبيرة. إنه لَمن الحماقة التامة أن نسلب النساء مهنهن التقليدية ثم نشتكي لأنها تبحث عن مهن جديدة. كل امرأة إنسان — ولا يمكن أن نكرّر ذلك بما فيه الكفاية — والإنسان لا بدّ له من عمل يشغله. ... فالعمل ليس في المقام الأول شيئًا يفعله المرء ليعيش، بل هو الشيء الذي يعيش المرء ليفعله. ... كل صانع وكل عامل مدعوّ إلى أن يخدم الله في مهنته أو حرفته

711. Carrie Miles, The Redemption of Love: Rescuing Marriage and Sexuality from the Economics of a Fallen World، ص. 43-46. مقتبس فى Witt, Icons of Christ، الفصل 7.

— لا خارجها.[712]

في هذا القول تكشف دوروثي سايرز التفسير التكاملي الخاطئ القائل إن «البقاء في البيت» كان يعني أن المرأة التقيّة في كريت أو أفسس القديمتين لم تكن تكسب رزقها: ففي القرن الأول كان «البيت» هو المكان الذي تعمل فيه النساء لكسب الدخل — «الغزل والصباغة والنسيج وإعداد الطعام وتخمير الجعة وحفظ الأطعمة والتخليل وإدارة الضياع». ومع ذلك، حتى في أزمنة الكتاب المقدس، كانت بعض النساء يعملن بعيدًا عن البيت: فقد كانت دبورة قاضية وخبيرة في التخطيط العسكري، وأستير ملكة وواضعة قوانين.

وفي العهد الجديد نلتقي بسيدة الأعمال ليدية من ثياتيرا، وهي مدينة في تركيا كانت معروفة بصناعة الصبغ الأرجواني وبيعه. هناك كانت تشتري الصبغ، وتنقله إلى بيتها الآخر في اليونان، الذي كان على الأرجح يُستعمل أيضًا مقرًّا لتجارتها. وفي حلم سمع بولس «رجلًا مقدونيًّا» يدعوه. فيا لها من مفاجأة أن نجد أن هذا «الرجل» كان في الواقع ليدية، امرأة، بل امرأة عزباء أيضًا. ولم تكن أيّ امرأة، بل كانت أول مَن اهتدى على يد بولس في أوروبا. وبعد أن فتحت قلبها للإنجيل، فتحت بيتها ومقرّ عملها، الذي صار الآن يُستعمل لغرض ثالث أيضًا: مكانًا لاجتماع الكنيسة الجديدة في المدينة.[713] وكل امرأة، ولا سيما العازبات، تستطيع أن تستلهم من روح ليدية المبادِرة، ونجاحها المهني، وإثمار خدمتها (وأن ترفض أيضًا أن يخنقها أيّ اعتقاد تكاملي بأن الزواج هو الغاية النبيلة حقًّا للنساء).

ثم نلتقي في سفر أعمال الرسل بطابيثا، أو غزالة، التي تخصّصت في جمع الأموال لكي تصنع ثيابًا للأرامل في مدينة يافا. وحين أقامها بطرس من الموت، كان أول مَن جاؤوا ليحتفلوا بالمعجزة هؤلاء الأرامل اللواتي كسَتهن الثياب.[714] وقد ألهم مثالُها — الذي لا يسبقه إلا مثال السامري الصالح — كنائسَ تخدم احتياجات الأكثر ضعفًا، كما ألهم إنشاء الجمعيات الخيرية وأعمال الإغاثة والمنظمات غير الربحية.

كل هؤلاء النساء في الكتاب المقدس صنعن فرقًا بحياتهن خارج بيوتهن. ومع ذلك، فإن المسيحيين الإنجيليين في أمريكا هم من الناحية الإحصائية الفئة «الأكثر تردّدًا» في ما يخص عمل النساء خارج البيت[715] وهم أيضًا الأقل ارتياحًا لامرأة في منصب

712. Dorothy Sayers, Are Women Human? ص. 32؛ و Dorothy Sayers, Why Work? (المصدر: www. bit.ly/31wL85K)

713. أعمال الرسل 16: 11-16، 40

714. أعمال الرسل 9: 32-43

715. وجدت دراسة أجرتها مؤسسة بارنا (Barna) عام 2017 أن الإنجيليين هم الفئة «الأكثر تردّدًا» في تأييد عمل

الرئيس التنفيذي أو في الرئاسة. ولا شك في أن هذا القلق الواسع الانتشار يرجع إلى الشعور السائد بين كثير من التكامليين الذين يعتقدون أن سبب سلطة الرجل هو أن آدم جُبل أولًا، قبل حواء. فإن كانت التراتبية بين الرجل والمرأة مبدأً من مبادئ الخليقة حقًّا، فلا يمكن أن تُطبَّق في الكنيسة وحدها دون أن تُطبَّق أيضًا في المجتمع — ومن هنا التردّد الإنجيلي الواسع في أن تقودهم امرأة في أيّ مجال من مجالات الحياة.

ولكن من الرائع أن بولس، على ما يبدو، لم تصله هذه المذكّرة! فمع أنه يُفترَض أنه هو مَن صاغ «نظام الخليقة» هذا، يبدو غافلًا عنه تمامًا حين يقول للعبيد، الذين كان نصفهم من الذكور، أن يخضعوا لسادتهم،[716] وكثيرون من هؤلاء السادة كنّ نساءً ربّاتِ أسر (materfamilias). فالأرامل كان لهن سلطان منفرد لا يشاركهن فيه أحد، أما الزوجات فكان لهن سلطان مفوَّض على عبيدهن. وبالمثل يبدو أن بولس لا يعرف شيئًا عن قلق بايبر من أنه «حين يكون تأثير المرأة على الرجل شخصيًّا وتوجيهيًّا، فإنه ... يناقض النظام الذي خلقه الله». وكون بولس كان يتوقّع من ربّة الأسرة (materfamilias) أن تمارس على العبيد الذكور سلطانًا مثل سلطان السادة الذكور، دليلٌ على أنه لن يجد مشكلة في أن يخضع رجال لرئيساتهم في العمل، كما فعل باراق ذات يوم مع دبورة.

وإلى جانب هذه العقبات الخفية التي لا تُنكَر مع ذلك، كان على النساء العاملات أيضًا أن يواجهن مهانة فجوة الأجور بين الجنسين وظلمها. فمع أن الثورة الصناعية أدخلت نساء كثيرات إلى سوق العمل، حيث استطعن كسب الدخل خارج البيت، فإنها رسّخت أيضًا الحطّ من قيمة هؤلاء النساء أنفسهن بدفع أجور لهن أقل مما يُدفَع لنظرائهن من الرجال. ففي عام 1833 قدّم جيمس ميتشل (James Mitchell)، وهو مفوّض بريطاني لشؤون المصانع، هذا التبرير: «إن أجرها المنخفض لا يغريها بأن تترك رعاية أولادها. وهكذا تتكفّل الطبيعة بألّا تخيب مقاصدها.»[717]

ومن الطرق التي تُديم بها التكاملية هذا الظلم في كنائس كثيرة طريقةُ توظيف العاملين القياديين في الخدمة. فالرجال يميلون إلى أن يُكافَؤوا ماليًّا على الطابع «التدبيري» لعملهم، أما النساء، اللواتي قد تقع عليهن مسؤوليات قيادية مساوية في ثقلها، فكثيرًا ما يتقاضين أجرًا أقل، لأن عملهن، بحسب قناعة لاهوتية، يُعَدّ مساندًا أكثر منه صاحب سلطة.

716. أفسس 6: 9؛ كولوسي 4: 1
717. Beth Allison Barr, The Making of Biblical Womanhood، ص. 164

يسوع وبولس لا يمدحان الدور المنزلي أبدًا

ومن اللافت أن يسوع وبولس هما الشخصيتان الكتابيتان اللتان تتحدّيان أكثر من غيرهما تركيز التكاملية الحالي على حصر المرأة في البيت. لاحظوا مثلًا كيف يقلب يسوع هوية المرأة القائمة على الأمومة. ففي تلك الثقافة كانت الغاية الأساسية للمرأة أن تلد الأولاد، ويُفضَّل أن يكونوا ذكورًا. وكان الرحم العاقر يُعَدّ علامة على عدم رضا الله. لكن يسوع لم يوافق على ذلك. فنحن نقرأ أنه في إحدى المرات، بينما كان يسوع يعلّم، «رفعت امرأة صوتها من الجمع وقالت له: "طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما"». وبدلًا من أن يتقبّل المديح نيابةً عن مريم، أجاب: «بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه».[718] فلماذا هذا الجفاء الظاهر من يسوع؟ لأنه أراد أن ينقل مركز القيمة الأساسية للمرأة من دورها المنزلي ودورها في تربية الأطفال إلى علاقتها بالله. فبحسب يسوع، ليست علاقة المرء بزوج أو بولد هي الأكثر مركزية في كيانه الشخصي. بل كونه تلميذًا ليسوع. فليس الإنجاب، بل الخليقة الجديدة بكلمة الله هي ما يهمّ أكثر من كل شيء. وليس أن يكون للمرء ابن أو ابنة، بل أن يكون ابنًا لله أو ابنة له — تلك هي الجائزة الحقيقية في الحياة.

وبصفتي ربّ أسرة أنا أيضًا، أقدّر كل إلهام أستطيع الحصول عليه في كيفية سكب حياتي من أجل أسرتي — لكن علينا أن نعترف بأن يسوع كان يتحدّى باستمرار صنم تركيز الجزء الأكبر من حياتنا على أسرنا البيولوجية. فمع أنه الابن الحبيب، يقول أيضًا: «من أحب أبًا أو أمًّا أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابنًا أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني».[719]

وعلى المنوال نفسه يقول بولس إن الزواج قد يعوق الأولوية الأعلى منه، أي خدمة الله:

المرأة غير المتزوجة أو العذراء تهتمّ في ما للرب لتكون مقدسة جسدًا وروحًا. وأما المتزوجة فتهتمّ في ما للعالم: كيف ترضي رجلها. هذا أقوله لخيركم، ليس لكي ألقي عليكم وهقًا، بل لأجل اللياقة والمثابرة للرب من دون ارتباك.[720]

وكلام بولس هذا ليس مطلقًا، لأنه يذكر ما يسمّيه «الضيق الحاضر»،[721] ولكن بالنظر إلى مشاعره هذه، أرى أنه من المستبعد جدًّا أن يوقّع، كما لن يوقّع يسوع، على بيان

718. لوقا 11: 27-28
719. متى 10: 37-38
720. 1 كورنثوس 7: 34-35
721. 1 كورنثوس 7: 26

دانفرز — الذي ينبغي أن يُرى على حقيقته: محاولة توفيقية لتزويج التعليم الكتابي بصنم الأسرة التقليدية المخترَعة حديثًا.

وحين أفتّش في كتابات بولس الواسعة، لا أجد إلا ثناءً واحدًا على أمّ. ففي رومية 16 يسلّم على أم روفس «التي كانت أمًّا [له] أيضًا». وأنا أيضًا أسبّح الله من أجل أولئك الأمهات في الكنيسة اللواتي أخذنني أحيانًا تحت أجنحتهن! ولكن حتى هنا، لا يمدحها بولس بوصفها أمًّا بيولوجية، بل بوصفها امرأة تخدم شعب الله بطريقة أمومية.

سيناريوهات لم يكتبها الروح قط

مع أن التطوّر التدريجي لأيّ ثقافة قد يطرح تحدّيات جديدة على المسيحية، فإن الاتجاهات الحديثة في المجتمع الغربي المعاصر إلى رؤية مزيد من النساء في أماكن العمل، ومزيد من الآباء المنخرطين مباشرة في تربية الأولاد، لا ينبغي، في اعتقادي، أن تُرفَض وكأنها أمر سيّئ.

فلا البيت اليوناني الروماني القديم، ولا الأسرة التقليدية في خمسينيات القرن العشرين، سيناريوهات كتبها الروح لكل النساء ولكل الرجال. فالروح ببساطة لا يقود كل الرجال إلى أن يكونوا كاسبي العيش وأصحاب القرار، كما أنه لا يقود كل النساء إلى أن يكنّ ربّات بيوت ومربّيات أولاد. قد يؤدّي الرجال والنساء بعض هذه الأدوار أو كلها، لكن دعونا لا نزوّج الأسرة التقليدية بالدعوة الروحية، كما يفعل التكامليون. فهذا لا يؤدّي إلا إلى خنق كل ما تستطيع النساء تقديمه، وإلى إضعاف استعداد الرجل وقدرته على إفساح المجال لإسهام النساء وصوتهن في الكنيسة والمجتمع.

ومع أن نساء كثيرات قد يزدهرن في الأدوار التقليدية، ويجدن دعوتهن فيها، فإن افتراض أن كل النساء سيفعلن ذلك أو ينبغي أن يفعلنه ليس خاطئًا فحسب، بل غير كتابي أيضًا. فبالنسبة إلى بعض النساء، تتحوّل هذه الأدوار التقليدية إلى «نير عبودية» إن افترضن أن الله كتب السيناريو الذي يعلّم أن «أسمى دعوة للمرأة [هي] أن تُثري حياة زوجها وأولادها، ... وأن على النساء أن يمارسن نكران الذات والطاعة؛ [و]أن يكبتن رغباتهن وأحلامهن الشخصية من أجل أسرهن».[722]

ومن الجوانب المثيرة في أن أرى زوجتي شريكتي، لا مجرد مساندة لي في تربية الأولاد والخدمة، وكذلك في العمل وكسب المال، أن ذلك يتيح قدرًا كبيرًا من التنوّع في رحلتنا معًا. ففي معظم سنواتنا حتى الآن بصفتنا والدين، كنت أكسب نصيب الأسد

722. Beth Allison Barr, The Making of Biblical Womanhood، الفصل 7.

من الدخل كل شهر. أما الآن فنجد أنفسنا في وضع تكسب فيه زوجتي أكثر مني، وبينما يتيح لي ذلك أن أكتب الكتب وأدرس للحصول على شهادة أخرى، نلت أيضًا امتياز تولّي مزيد من المهام المتعلّقة بالبيت والأولاد. وقد كان ذلك حقًّا امتيازًا (وإن كان أولادي قد لا يوافقون تمامًا — فوجبات أمهم دائمًا أكثر شعبية من وجباتي). ومع ذلك، فإنني بالتأكيد أختار هذه الشراكة الأكثر حيوية على أن أكون محصورًا في أدوار جامدة عقدًا بعد عقد.

وفي الوقت نفسه، لا عيب في الأزواج الذين يختارون النهج الأكثر تقليدية. فهناك سعادة معيّنة يجدها كثيرون في مجرد اختيار سيناريو أكثر محافظة. لكن يجب ألّا نجعل هذا الترتيب مثالًا وكأنه مشيئة الله الشاملة لكل زوجين. فلاهوت الكتاب المقدس كله لا يسمح بهذا الاستنتاج. ومهما وُجدت من تعميمات، فهناك من الاستثناءات ما يكفي لرفض فكرة أن كل الأمهات أنسب لصنع الخبز، بينما كل الآباء أنسب لكسب الخبز. أما ما يعلّمه الكتاب المقدس فعلًا، فهو أهمية أن يعمل الزوجان معًا فريقًا واحدًا نحو خيرهما المشترك ونحو أقصى خدمة للآخرين.

وحين أتأمّل في الأزواج الذين أعرفهم، أجد أن بعض الزوجات يتقن إلى البقاء في البيت، بينما ترتعب أخريات من مجرد التفكير في ذلك. بعضهن يتشوّقن إلى مزيد من الوقت مع أولادهن، وأخريات يصلّين من أجل مزيد من الوقت خارج البيت. بعضهن يتخلّين بسعادة عن طموحاتهن المهنية؛ وأخريات مصمّمات على مواصلة التقدّم في مجال عملهن. لا يوجد نموذج مثالي. ومع ذلك، أيًّا كان النموذج الذي يتبنّاه المرء، يبدو أن بولس يلمّح إلى أنه، ما لم يكن المرء والدًا وحيدًا، ينبغي أن ينخرط كلٌّ من الزوجات والأزواج في الحياة المنزلية وفي تربية أولادهم[723] — فتنشئة الجيل التالي مهمة بالغة الأهمية تستحق أن نجمع لها قوانا وتضحياتنا.

723. يشير 1 تيموثاوس 5: 14 إلى الزوجات اللواتي يربّين الأولاد ويدبّرن بيوتهن، بينما يشير 1 تيموثاوس 3: 4، 12 إلى الأزواج الذين يدبّرون بيوتهم ويربّون أولادهم.



16

تطبيقات عملية للكنائس

«المسألة اللاهوتية، على أهميتها، ليست في الواقع المؤشّر الأول على ما إذا كانت النساء يستعملن مواهبهن القيادية ومواهبهن الأخرى استعمالًا كاملًا في الخدمة أم لا. فالأمر كله يرجع إلى الثقافة التي نصنعها. هل نحن ثقافة ترى الموهبة قبل الجنس؟ هل نحن مستعدّون لأن ندعو الجميع إلى الفرص، أم أننا لم نفكّر في الأمر؟» كادي كول[724]

من الأمور التي أيقظتني على الخطأ العقائدي في التراتبية بين الجنسين في كنيستي أنا التنافرُ المعرفي المتزايد الذي كنت أعيشه. فعلى الرغم من المواهب الروحية الكبيرة، بل المتفوّقة أحيانًا، الظاهرة في نساء كثيرات كنت أعرفهن — لم يكن يُرسَم للقيادة العليا إلا الرجال، ولذلك لم يُسمَح إلا لهم بالإسهام بسلطان روحي حقيقي.

وكلما تعمّقت في استكشاف الأساس الكتابي المزعوم لهذا الحظر الشامل، بدأت أرى خطوط الصدع في الحجج المستعملة دفاعًا عن إقصاء النساء. وبينما كنت أغربل كل نص بعناية، اكتشفت أيضًا نصوصًا وحججًا إضافية كثيرة بدا أن دائرتي التكاملية تجاهلتها لأنها لا تناسبها. وبدلًا من قراءة ثنائية السلطة والخضوع بين الرجل والمرأة على أنها التفسير الجامع للكتاب المقدس، اكتشفت شيئًا أفضل بكثير: منهجًا تفسيريًّا منسجمًا ومحرِّرًا قوامه التبادل بين الرجل والمرأة في خدمة الكنيسة، وفي الزواج، وفي البيت، وفي المجتمع أيضًا.

وفي خبرتي، بدأت كنائس كثيرة ترى خطوط الصدع نفسها في لاهوتها القائم على إقصاء المرأة، ومع ذلك تشعر بالشلل عن تغيير موقفها بسبب التبعات العملية. وكثيرًا جدًّا ما أثبتت البراغماتية أنها قوة أشدّ من التفسير الخالص للنص.

724. www.bit.ly/2ZRzaCO

لذلك، في هذا الفصل، لنكن عمليين قدر ما نستطيع، فنتناول همومًا عملية أقل لاهوتية لكنها حقيقية جدًّا، تتعلّق بعيش لاهوت أكثر انفتاحًا على الجنسين في قيادة الكنيسة.

تخلَّوا عن افتراضاتكم

في خبرتي، قد تعاني معظم الكنائس، بغضّ النظر عن موقفها من قيادة المرأة، في الوصول إلى الرجال وإعدادهم للقيادة. ولذلك من المفهوم أن يخشى بعضهم أنه إذا كُلِّفت نساء (أكثر) بالقيادة والوعظ، فستفقد الكنيسة مزيدًا من قدرتها على اجتذاب الرجال والاحتفاظ بهم.

ومع ذلك، وكما أن الكنائس ذات فرق القيادة المتقدّمة في السن تحتاج إلى أن تسعى إلى إضافة قادة أصغر سنًّا، دون أن تزيل كل القادة الأكبر سنًّا، كذلك ينبغي للفرق المؤلّفة من رجال فقط أن تسعى إلى إضافة نساء موهوبات دون إزالة رجال موهوبين بالقدر نفسه.

وفوق ذلك، لا يلزم أن تكون للقائدات دائمًا شخصية «ناعمة وحسّاسة» — فمع أن نساء كثيرات لطيفات (مثل يسوع)، فإن أخريات كثيرات قويات وحازمات في التوجيه (مثل يسوع). ولا ينبغي أن نفترض أن أيّ قائدة تُضاف لن تجلب إلا جانبًا أكثر عاطفية وتعاونًا إلى رسائل الكنيسة وقراراتها (وإن كانت قد تجلبه فعلًا).

وفي الوقت نفسه، نحتاج إلى أن نعلّم الرجال أنه حين تتقدّم مزيد من النساء للقيادة إلى جانبهم، فليس ذلك بأي حال دعوة لهم إلى التنحّي. وكما تقول زميلتي في مجلس الشيوخ جين بيدرسن (Jen Pedersen): «حين يكون الرجال سلبيين، يسهل جدًّا علينا نحن النساء أن نتقدّم — لكن مثال الله الأعلى هو أن يقف رجال أقوياء ونساء قويات معًا».

وحتى بعد أن تغيّر الكنيسة لاهوتها لتشمل النساء في مستويات أعلى من الخدمة، قد يستغرق الأمر بعض الوقت حتى تنهض النساء إلى هذه الفرص الجديدة. وبدلًا من أن نترك الأمر للنساء وحدهن ليفعلن ذلك، نستطيع أن نتخذ خطوات نحو تغيير ثقافة الكنيسة في ما يتعلّق بقيادة المرأة.

وفي هذا الصدد، قد نحتاج إلى أن نعترف بالمعايير المزدوجة المتحيّزة جنسيًّا وأن نتخلّى عنها. وهذا صحيح لا في الكنيسة وحدها بل في كل قطاعات المجتمع. وأتذكّر محاولة تايلور سويفت (Taylor Swift) أن تتحدّى الأمر نفسه في مجالها: «هناك مفردات مختلفة للرجال والنساء في صناعة الموسيقى. الرجل يفعل شيئًا، فيكون ذلك استراتيجيًّا. والمرأة تفعل الشيء نفسه، فيكون ذلك مدبَّرًا بحسابات. الرجل يُسمَح له بأن يتفاعل. أما المرأة فلا تستطيع إلا أن تبالغ في ردّ فعلها.»[725]

وتقول كادي كول في Developing Female Leaders، إنها حين تجري مقابلات مع نساء في أدوار قيادية في الكنيسة، يذكرن أنهن لاحظن في كنائسهن أن «الحماسة لدى الرجل، ولا سيما حول قضايا القيادة المشحونة عاطفيًّا، تُرى قوية ومفيدة وإيجابية. لكن الحماسة نفسها من امرأة قد تبدو غاضبة ومتسلّطة ومتشبّثة برأيها وسلبية. وبالمثل، يُعَدّ الرجال الذين يعطون تعليمات وتوقّعات واضحة قادة جيدين، بينما كثيرًا ما تُعَدّ النساء اللواتي يفعلن الشيء نفسه متحكّمات».[726]

ولعل الطريقة الأولى لتحسين ثقافة كنيستنا هي أن نكتشف ما هي الثقافة الحالية حقًّا — بأن نطرح على نساء موهوبات ومدعوّات بعض الأسئلة الكاشفة، مثل: ما شعورك وأنتِ قائدة في هذه الكنيسة؟ ما الذي يمنعك، إن وُجد شيء، من أن تُكلَّفي بدور أكمل؟ كيف نستطيع أن نحسّن هذا كله؟ وقد يفترض الرجال القادة خطأً أنهم يعرفون أجوبة هذه الأسئلة مسبقًا، لكن هذا الافتراض التلقائي هو بالضبط جزء من المشكلة. فإن أردنا أن نعمل فريقًا على نحو أفضل وأن نبني ثقافات كنسية أكثر صحة، فالخطوة الأولى ألّا نفترض شيئًا، بل أن نطرح أسئلة أصعب.[727]

وفي خبرتي الشخصية، كثيرًا ما وجدت نساء موهوبات استراتيجيًّا صامتات على نحو مفاجئ في اجتماعات القيادة. ويروي جورج سورات (George Surrat) تجربة مشابهة. ومع أن تجربته قد لا تنطبق على ثقافتكم، فإنني أشاركها لأنها بالتأكيد تجد صدى في تجربتي. فحين سأل عن سبب صمت العضوة الجديدة في الفريق، قالت: «كان من الصعب في أحيان كثيرة أن أجد فرصة لكلمة، والرجال يقاطع بعضهم بعضًا باستمرار ويعلو كلام أحدهم على كلام الآخر. "ثم إنني"، قالت، "لست متأكدة أن رأيي ضروري حقًّا"». وردًّا على ذلك، شارك سورات هذه القائدة المفرطة في التهذيب ملاحظتين: «أولًا، في غرف مليئة بالرجال، إن انتظرتِ أن يُطلَب منكِ الكلام، فعلى الأرجح لن

725. www.cbsn.ws/3wNUpSk

726. Kadi Cole, Developing Female Leaders، الفصل 3.

727. تكشف هذه المحاكاة الساخرة الطريفة الخطأ الذي يرتكبه الرجال حين يتكلّمون نيابةً عن النساء بدلًا من أن يتركوا النساء يتكلّمن عن أنفسهن: www.bit.ly/3bKamzu

يُطلَب منكِ أبدًا. وسواء أكان ذلك حسنًا أم سيّئًا، عليكِ أن تتكلّمي. وثانيًا، لو لم يكن رأيك ضروريًّا، لما كان لكِ مقعد إلى الطاولة. الكنيسة تحتاج إلى مساهمتك.»[728] وخلاصة القول إنه حين تُدعى النساء أول مرة إلى فرق قيادة يغلب عليها الرجال، فقد يحتجن إلى بعض التشجيع الشخصي ليبدأن بالتكلّم حقًّا.

درِّبوا القادة الرجال على القيادة جنبًا إلى جنب مع النساء

لنستقِ مزيدًا من الحكمة من سورات، الذي له زوجة وابنة كلتاهما قائدتان ممتازتان، لكنهما تعرفان أيضًا الألم الذي يسبّبه رجال لا يتقبّلون وجودهما في حلقات القيادة، فيقدّم أربع نصائح للرجال الجدد على العمل مع النساء:[729]

استمعوا: كثيرًا ما يكون لدى النساء أسلوب تواصل أغنى بالفروق الدقيقة من أسلوب كثير من الرجال. فهنّ أميل إلى إدخال السياق والمشاعر والعلاقات في النقاش. ورفض هذا النسيج الأكثر تعقيدًا خطأ.

لا تقاطعوا: كثيرًا ما يقاطع الرجال بعضهم بعضًا، ولا سيما حين يصير الحديث مشحونًا عاطفيًّا. ومع أن هذا قلّة تهذيب دائمًا، فإنه يجعل مشاركة كثير من القائدات في النقاش صعبة على نحو خاص.

اطرحوا أسئلة توضيحية: من المفيد دائمًا طرح أسئلة بقصد الفهم، لكن ذلك مفيد على نحو خاص حين يقود الرجال والنساء معًا. فنحن ندرك العالم بطرق مختلفة ونصل إلى الاستنتاجات بطرق مختلفة. وبدلًا من رفض رأي لا تفهمونه، اطلبوا السياق.

ثِقوا: النساء الجديدات على طاولة القيادة في كنيستكم يحتجن إلى أن يعرفن أنكم تثقون بهن للقيادة. لا تعاملوهن كشريكات صغيرات أو كأطفال يحتاجون إلى الحماية. ثقوا بالنساء ليقدن بصفتهن راشدات ذكيات، وعزّزوا هذه الثقة بأقوالكم وأفعالكم.

ويحذّر سورات من أنه قد تأتي أوقات يكون فيها رجال (وربما نساء) مذنبين بالشوفينية الذكورية أو بكراهية النساء. وهذا لا ينبغي التسامح معه، بل ينبغي تحدّيه. وإن لم يتب الشخص عن ذلك، فلا ينبغي أن يقود. يقول سورات: «قد يبدو هذا متطرّفًا، لكن هل كنتم ستُبقون عنصريًّا في القيادة؟ هل كنتم ستتسامحون مع قائد يعامل [أشخاصًا من

728. George Surrat, Why Women Don’t Lead in your Church, www.bit.ly/2YgL4FR
729. www.bit.ly/2YgL4FR

عرق آخر] على نحو مختلف عن الجميع، فيقوّض قيادتهم؟ إن لم يكن التمييز ضد عرق مقبولًا، فليس التمييز ضد جنس مقبولًا.»

وفي أوقات أخرى، قد تكون المشكلة أن القادة الرجال يجدون صعوبة في التخلّي عمّا اعتادوه. ومن الاعتراضات الشائعة التي سمعتها من فرق قيادة مؤلّفة من رجال فقط تحدّثت إليها أنه حين تحضر النساء «تتغيّر الأجواء في الغرفة». ويوحي هذا التعليق بأن الحديث، كما يكتب سورات، «أكثر صدقًا وإثمارًا حين لا يحضر إلا الرجال». لكن الحقيقة هي أنه حين يكون في فريق القيادة طيف متنوّع من الناس، فقد تكون الأحاديث أكثر تعقيدًا قليلًا، لكنها ستكون دائمًا أغنى بكثير وأقدر على توليد منظور أوسع، وبالتالي قرارات أفضل أيضًا.

قودوا الكنيسة إلى قبول خدمة النساء

إن إحداث أيّ تغيير في الكنيسة سيتطلّب دائمًا بعض الحنكة القيادية. وأهم طريقة، كما أقترح، لقيادة كنيسة عبر التغيير هي أن نعلّمها من الكتاب المقدس. فمن الخطأ أن يخوض فريق القيادة وحده رحلة كتابية ولاهوتية تقوده إلى البدء بإفساح المجال للنساء كي يقدن ويعظن، دون أن يأخذ الكنيسة كلها أيضًا في رحلة مماثلة. وأرجو أن توفّر محتويات هذا الكتاب مادة لمثل هذه الرحلات في الوعظ وفي المجموعات الصغيرة.

وبعد التعليم عن القيمة التي يضعها الكتاب المقدس ويسوع والروح معًا على قيادة النساء وتعليمهن، ابدأوا بتعريض الكنيسة، ربما ببطء وشيئًا فشيئًا، لنساء يقدن ونساء يعظن. فمجرد تعليم الناس عن الإسهامات الكبيرة التي تستطيع النساء تقديمها، دون أن تُروهم إياها، لا يكفي. فبالنسبة إلى كثيرين، ليس الخبر كالمعاينة. ولا يبدأون بقبول الأمر على أنه قاعدة كتابية إلا حين يسمعون امرأة تعظ أو يرون امرأة تقود. فعلى سبيل المثال، رأى جيش الخلاص في القرن التاسع عشر نفسه رائدًا في قيادة المرأة. ففي عام 1929 قال براموبل بوث (Bramwell Booth)، ابن الزوجين المؤسِّسين، هذا بعينه:

لا شك في أن نساء الجيش أدّين دورًا في التحرّر العام للمرأة الذي نراه جاريًا في الأمم الغربية. فالنساء اللواتي سرن في السنوات الماضية على رأس الفرق الصغيرة من جنود جيش الخلاص المحتقَرين كنّ يعوّدن الذهن العام على مشهد امرأة في موقع القيادة،

وامرأة تأخذ نصيبًا فاعلًا لا يتهيّب في الواجب العام، وتتغلّب بنعمة الله على ما يُزعَم من دونيّتها. ولذلك نستطيع أن نقول بحق إننا كنا نفتح بابًا تستطيع النساء من خلاله أن يحملن رسالة المحبة والحياة إلى جموع ما كانت لتقبلها قطّ [إلا] من شفتي امرأة. وذلك الباب لن يُغلَق ثانية أبدًا.[730]

ومن الأمور التي فعلها جيش الخلاص أنه عيّن النساء علنًا في مناصب القيادة نفسها التي للرجال. وفي هذا ما يستحق أن نفعل مثله في الكنيسة. فبعض الكنائس التكاملية الاستثنائية مستعدّة لأن تعطي النساء وظائف مماثلة لوظائف الرجال — فتستطلع آراءهن في فرق القيادة الرعوية، أو تدعهن يعظن — لكنها مع ذلك لا تعترف بالمنصب الكتابي أو بالدعوة التي للرجال الذين يؤدّون الوظائف نفسها. غير أن إفساح المجال لشخص كي يقود أو يعلّم في الكنيسة، دون الاعتراف بمنصبه الذي أعطاه الله إياه، يقلّل من إسهامه دون قصد. ففي نهاية الأمر، من الطرق التي يعلّمنا بها يسوع أن ننال أقصى قدر من النعمة ممّن يخدموننا أن نعترف بالنعمة وبالمنصب اللذين أعطاهما الله لهم: «من يقبل نبيًّا باسم نبي فأجر نبي يأخذ».[731] وفي كنيستي السابقة، مع أنها كانت تكاملية، سمحنا للنساء بأداء أدوار رعوية، لكننا لم نعترف رسميًّا بمنصبهن الرعوي. ومع أن هذا أفضل بكثير من كبت النساء كليًّا، فقد صرت أعتقد أنه كان لا يزال له أثر في التقليل من النعمة التي على حياة نساء كثيرات.

دعوني أقدّم مثالًا شخصيًّا من خدمة زوجتي في الكنيسة التي أسّسناها. فحين أتأمّل في وعظها وإسهامها القيادي على مدى عقد من الزمن، أدرك الآن أنها لو كانت قد رأت نفسها راعيةً رسمها الله بحدّ ذاتها (لا مجرد متزوجة من راعٍ)، لكانت على الأرجح قد ارتقت إلى إسهام أكبر في الكنيسة. ولو كان الناس الذين يتبعونها ويستمعون إليها قد رأوا الأمر نفسه، لكانوا على الأرجح قد استفادوا أكثر مما قدّمته. أما كما جرى الأمر، فقد استمدّت نصيبًا كبيرًا لكنه غير كامل من نعمة الله التي عليها، وكذلك الذين قبلوا خدمتها.[732]

730. Bramwell Booth, Echoes and Memories، ص. 172

731. متى 10: 41

732. أشارك هذه القصة بإذنها، ولا بدّ أن أؤكّد أنها، علامةً على تواضعها في رأيي، لم تمدّ يدها إلى المزيد. لكن عليّ أن أكون صادقًا وأقول إنه، بعد التأمّل، كان لديها المزيد لتقدّمه.

استثمروا في القائدات والواعظات وتعهّدوهن بالإرشاد

إن أردنا أن نرى في المستقبل مزيدًا من القائدات والواعظات الرفيعات المستوى، فنحن نحتاج إلى أن نبدأ بتدريبهن اليوم. وبعد عقود من إعداد قادة وواعظين عظماء بنفسي، أعرف أنهم يُصنَعون ولا يولَدون. فحين كان القادة الحاليون مثلي يكتشفون قادة محتملين، كنا نرسلهم عبر مسار تطوير ندرّبهم فيه ونكلّفهم بالمهام تدريجيًّا.

ولكن حين أتأمّل في سنواتي بصفتي تكامليًّا، أرى أن عينيّ اللتين كانتا تبحثان عن المواهب كانت عليهما غمامة: كنت أبحث عن رجال موهوبين، ولا شك أنني فوّتّ نساء موهوبات كثيرات. والنتيجة الصافية لذلك أن كنيستنا، بعد سنوات، امتلأت بقادة وواعظين رجال مجرَّبين ومختبَرين، لكن بقليل جدًّا من النساء المماثلات لهم. وهذا يُديم حلقة من الانحياز التأكيدي في الكنيسة التكاملية. فنسأل أنفسنا: «لو أراد الله أن نفسح المجال لنساء موهوبات في مستويات أعلى من الإسهام، فلماذا هنّ قليلات جدًّا؟» ومع ذلك فقد يكون الروح القدس قد أعطى امرأة في وسطنا مواهب قيادية وتواصلية مماثلة (أو متفوّقة)، لكن أخاها وحده هو الذي اكتُشف ودُرِّب وأُعطي الفرص ونال التوجيه وكُلِّف بالمهام. وسرعان ما يبدو أكثر موهبة منها بكثير. وفي الحقيقة، هذا نتيجة تمييزنا نحن، لا تمييز الله، ونتيجة إخفاقنا في أن نرى فيها ما يراه الله.

لي صديقة في خدمة النساء. تقول لي إنها اختبرت لسنوات نساء يتناوبن على القيادة أو على الوعظ لنساء أخريات، ولكن — على حدّ ما استطاعت أن ترى — دون أيّ تدريب من رعاة الكنيسة. وتقول لي: «كان من المحتّم أن تخدم هؤلاء النساء بمواهب نصف ناضجة، وألّا يحقّقن الكثير، بالضبط لأنهن لم يتلقّين تدريبًا. فالقادة الرجال المدرَّبون كانوا يتركون القائدات غير المدرَّبات يعرجن في طريقهن.»

وأتذكّر صديقة أخرى، وهي متحدّثة استثنائية في عالم الأعمال. ومع ذلك، وعلى الرغم من رغبتها الممتدّة لعقود في الوعظ، كان الرعاة لا يدعون إلا الرجال، ومنهم زوجها، إلى «تدريب الواعظين». وإذ تحطّم قلبها لأنها لم تُدعَ، طلبت من زوجها أن يسجّل التدريب صوتيًّا لكي تدرّب نفسها سرًّا.

يحتاج القادة إلى الإرشاد لكي ينتقلوا إلى المستوى التالي. فقد أجرت كادي كول مقابلة مع قائدة قالت: «أهم ما فعلته الكنيسة لتطويري قائدةً أنها وضعتني في مواقع شدّتني

إلى ما هو أبعد من قدراتي، وفي الوقت نفسه أرشدتني خلال ذلك كله. لم أُترَك وحدي قطّ في أوقات النموّ الكبرى.» ويجب أن يكون المرشد في متناول من يرشده من الناحية العلائقية.

وهنا كثيرًا ما تتعطّل الأمور — فالمرشدون الرجال يتوجّسون من قضاء وقت وجهًا لوجه مع المسترشَدات من النساء. والفكرة المعروفة باسم قاعدة بيلي غراهام (The Billy Graham Rule) (نسبةً إلى أحد أوائل الداعين إليها) هي أن القادة المسيحيين الرجال ذوي النزاهة ينبغي ألّا ينفردوا بامرأة أبدًا. ومع أن بيلي ربما التزم هذه القاعدة، فمن الجدير بالذكر أن يسوع لم يلتزم مثل هذه القاعدة.[733] وبالطبع لا تزال هناك حاجة إلى الحكمة العملية: فغداء إرشادي أحكم على الأرجح من عشاء إرشادي؛ وأخذ شخصين في رحلة خدمة أفضل من أخذ شخص واحد فقط؛ وإرشاد شخصين في الوقت نفسه قد يكون أسلم من الاستثمار في شخص واحد فقط. ولكن لنعترف أيضًا بأن حفظ القواعد لا يكبت الرغبة الخاطئة — فمن يريد أن يقيم علاقة غير مشروعة سيجد طريقة لإقامتها! وفي النهاية، ينبغي أن نعدّ قادة يتحلّون بالشخصية والحكمة والعمق الروحي والحدود العلائقية المناسبة التي تساعدهم على تقليل التجربة و/أو التغلّب عليها. ففي مرحلة ما، يجب أن ينمّي المرء النضج الذي يمكّنه من التعامل مع التجارب بحكمة دون تجنّب كامل.[734]

أعيدوا التفكير في خدمة الزوجين

من نقاط ضعف التكاملية مقاربتها ذات المقاس الواحد للجميع في ما يخص المتزوجين الذين يخدمون الله في الخدمة. فالقالب الأساسي، بل الوحيد في بعض الحالات، هو ما أسمّيه نموذج «بطرس وزوجته».[735] في هذا النموذج يكون الزوج هو القائد، والزوجة هي المعينة. فالرجل، مثل بطرس الرسول، قائد و/أو واعظ في الواجهة،

733. فعلى سبيل المثال، يوضح يوحنا 4: 8 أن يسوع والمرأة السامرية كانا وحدهما. وبدلًا من تجنّب هذا الموقف (كما كان سيفعل كثير من الرجال التكامليين)، يبدو أن يسوع سعى عمدًا إلى هذه اللحظة، وانتهز الفرصة لا ليتواصل معها تواصلًا سطحيًّا فحسب، بل ليتصل بها على أعمق المستويات.

734. أوصي بشدة بفصل كادي كول «Create a safe environment» في «Developing Female Leaders» للحصول على جواب أشمل عن هذه المسألة. وهي تتناول أيضًا مسألة التحرّش الجنسي والعلاقات غير اللائقة في مكان العمل والكنيسة.

735. يبدو أن زوجة بطرس لم تكن تقدّم إلا المساندة لبطرس، ولم تكن لها خدمة خاصة بها في الواجهة. ففي بداية خدمة يسوع، شفى حماة بطرس في بيت بطرس. (لوقا 4: 38-40) ونحن نفترض أن كثيرين من الرسل الآخرين، إن لم يكن كلهم، كانوا متزوجين أيضًا. لكنها تبقى غير مذكورة إلى ما بعد ذلك بعقود، حين سافرت مع بطرس إلى أوروبا في جولاته الخدمية (1 كورنثوس 9: 5) — ربما لأن أولادهما كانوا قد كبروا وصارت حرّة لتسافر أكثر.

بينما زوجته (التي تبقى بلا اسم في هذه الحالة) سعيدة بأن تسانده من وراء الكواليس في خدمته. ولا عيب في هذا! فلأزواج كثيرين جدًّا، وربما لمعظمهم، ينجح هذا النموذج نجاحًا باهرًا. لكن المشكلة أنه بالتأكيد لا ينجح مع كل المتزوجين في الخدمة. وأقترح أن هناك ثلاثة نماذج أخرى ممكنة.

هناك نموذج «دبورة ولفيدوت».[736] في هذه الحالة تكون الزوجة هي القائدة في الواجهة، بينما يكون زوجها مساندها الأول. وحتى في الأوساط التكاملية، هناك نساء كثيرات دُعين إلى خدمات علنية واسعة الأثر، بينما يفخر أزواجهن، الذين ربما كانوا أكثر موهبة في الأعمال التي تجري وراء الكواليس، بمساندة زوجاتهم في عملهن لله.

وهناك أيضًا نموذج «بريسكلا وأكيلا». في هذه الحالة تجمع الزوجة والزوج مواهبهما القيادية بالعمل معًا — على النحو نفسه تقريبًا الذي اشترك به هذان الزوجان الكتابيان في التجارة وتدبير البيت وقيادة الكنيسة. وهذا هو النموذج الذي يصف على أفضل وجه ما لديّ في زواجي أنا. فأنا متزوج من شخص يفضّل أن يعمل معي فريقًا في الخدمة على أن يسعى وراء دعوة منفصلة. وهي تضمّ مواهبها القيادية إلى مواهبي بسعادة. وأنا أبادلها ذلك بفرح مساوٍ.

ولا ننسَ نموذج «أستير وأحشويروش»[737] أيضًا. ومع أن أستير الملكة ربما ساندت بعض المساعي القيادية لزوجها، فقد ركّزت قدرتها القيادية على فرص ومجالات مختلفة، وطلبت مساندته ونالتها وهي تفعل ذلك. ومثل بريسكلا وأكيلا، يشمل هذا النوع من الزواج في الخدمة ثنائيًّا من المواهب القيادية العلنية، إلا أنهما في هذه الحالة يقودان كيانين مختلفين.

وكما نرى، هناك صيغ كثيرة ممكنة لانخراط المتزوجين في الخدمة. ولكن للأسف، لا تساند النظرة التراتبية إلى الزواج إلا النموذج الأول («نموذج بطرس وزوجته»)، وتلقي بظلال من الشك والقلق على آلاف الأزواج المجبولين على نحو مختلف. أما الرؤية التبادلية فعلى العكس تفسح المجال لكل نموذج وتحتفي به.

736. انظروا قضاة 4: 4.

737. مع أن أحشويروش ليس نموذجًا للرجل التقيّ، ومع أن زيجاته لم تكن متساوية، فإن ما يبدو أنه فعله، وهو قابل للتكرار في الزيجات التقيّة اليوم، هو أنه سمح لزوجتيه (وشتي أولًا، ثم أستير) بأن تسعيا وراء مبادراتهما الخاصة بينما سعى هو وراء مبادراته — فقد أقامت وشتي وليمة للنساء، بينما كتبت أستير قوانين. وكان هذا الترتيب الزوجي نادرًا جدًّا في العالم القديم، لا يتاح إلا للنخبة العليا، حتى إن هذا هو المثال الوحيد عليه في الكتاب المقدس. وفي ثقافات حديثة كثيرة، حيث تتساوى النساء على نحو متزايد مع الرجال فكريًّا واجتماعيًّا، صار من الأيسر أن يسعى الشريكان في الزواج وراء أهداف أو مهن أو خدمات مختلفة مع البقاء في شراكة حيوية.

ويمكن أن يكون هذا التنوّع في نماذج الزواج في الخدمة أساسًا أيضًا لفرق قيادة كنسية منفتحة على الجنسين.

فرق مختلطة من الجنسين

لن يتطابق فريقا قيادة تمامًا في كنيسة تؤكّد تبادلية الرجل والمرأة، لأن كل فريق سيتألّف من مزيج مختلف من المواهب القيادية المتاحة في تلك الكنيسة. ومع ذلك نستطيع أن نحدّد الأنواع المختلفة من الأشخاص الذين قد يخدمون في فريق كهذا:

- قد تكون هناك ليدية، أو تيموثاوس، أو اثنان. هؤلاء نساء عازبات ورجال عزّاب لهم مواهب قيادية. وبما أن العهد الجديد ينسب إلى العزّاب والمتزوجين دعوة متساوية، فلا ينبغي للحالة الاجتماعية أن تستبعد أحدًا من القيادة. بل إن بولس يلمّح إلى أن العزّاب قد يستطيعون أن يستثمروا في الكنيسة بتركيز فريد.[738]
- قد يكون هناك ثنائي مثل بريسكلا وأكيلا، أو اثنان. هؤلاء أزواج لكلا الطرفين فيهم الدعوة القيادية نفسها، وكلاهما في الفريق.
- قد يكون هناك بطرس أو أحشويروش، أو اثنان. هؤلاء رجال متزوجون لهم مواهب قيادية، ولهم زوجات يفضّلن أدوارًا أكثر مساندة، أو لهن مواهب قيادية مستثمرة بالكامل في مكان آخر، فلسن لذلك متاحات لفريق القيادة. وأعتقد أنه من غير العدل أن نستنفد القدرة التطوّعية المحدودة لهؤلاء الزوجات بجعلهن يجلسن ساعات في الاجتماعات، وبوضع مطالب عليهن قد لا تكون لهن الرغبة فيها أو القدرة عليها أو الطبع الملائم لها، بينما من المرجّح أن يجدن فرحًا أكبر في الخدمة في الكنيسة أو خارجها بطرق لهن فيها الرغبة والقدرة والطبع الملائم.
- وبالمثل، قد تكون هناك دبورة أو أستير، أو اثنتان. هؤلاء نساء متزوجات لهن مواهب قيادية، ولهن أزواج إما يفضّلون أدوارًا أكثر مساندة، وإما لهم مواهب قيادية مستثمرة بالكامل في مكان آخر، فليسوا لذلك في فريق القيادة.

والكنائس التبادلية التي تبني فرق قيادة مختلطة من الجنسين قد تجرّب طرقًا عديدة للجمع بين هذه الأنواع من الأشخاص. والتحدّي الرئيسي الذي أراه في نموذج القيادة المنفتح على الجنسين هذا هو رعاية زوجة بطرس وزوج دبورة وإبقاؤهما على صلة. ومن طرق إبقاء هؤلاء الأزواج والزوجات مشمولين، حتى حين لا تُطلب منهم القيادة، جوانبُ الترابط العلائقي في الفريق الرعوي. فدعوتهم إلى يوم ترفيهي، أو إلى عشاء

738. 1 كورنثوس 7: 32-34

خاص، أو إلى وقت صلاة مكثّفة من أجل الكنيسة، ستساعد كثيرًا في إبقائهم داخل الدائرة لا خارجها.

وبالطبع، لكل تشكيلة من تشكيلات فريق القيادة بعض نقاط القوة وبعض نقاط الضعف المحتملة. وبدلًا من اختيار بنية بسيطة لكنها قد تكون عقيمة، مثل نموذج تكاملي لا يتألّف إلا من أمثال «بطرس»، فمن الأفضل بكثير أن نتقبّل تعقيدات التنوّع، وأن نعتمد على روح الحكمة، الذي سيقود كل فريق قيادة بعينه إلى أن يجد ممارسة بعينها في مرحلته بعينها.

تعلَّموا من الكنائس الأخرى

لقد غيّرت فرق قيادة كنسية كثيرة عقيدتها من التكاملية إلى التبادلية، أو هي تفكّر في تغييرها. ولكن كيف ينبغي أن يتمّ ذلك؟ ففي سنوات قيادتي الكنسية، شاركت مرتين في إحداث تعديل رسمي على لاهوت كنيسة. وما تعلّمته بالطريقة الصعبة هو أن تصحيح لاهوت المرء أمر؛ وإقناع الكنيسة كلها بالانضمام أمر آخر. وهنا يصبح التعلّم من الكنائس الأخرى التي سبق أن انتقلت بالغ الأهمية. وأنا ممتنّ للدكتور روب ديكسون (Rob Dixon) ولإبريل فييت (April Fiet) على وضعهما خريطة طريق للكنائس التي تنتقل نحو تبادلية الرجل والمرأة، مبنية على مقابلات مركّزة أجرياها مع كنائس سبق أن قامت بهذا التحسين.[739]

فعلى سبيل المثال، نستطيع أن نتعلّم من كنيسة Bent Tree Bible Fellowship، وهي كنيسة بارزة في دالاس، تكساس. فمع أنها قاومت في البداية تبادلية الرجل والمرأة، فقد تبيّن قادتها أن الله ربما أرسل إليهم محفّزَين للتغيير — قائدًا لاهوتيًّا موثوقًا في وسطهم اقترح لاهوتًا أفضل، وتقديرًا راسخًا منذ زمن طويل للقيادة المشتركة بدا متنافرًا على نحو متزايد مع إقصائهم النساء عن فريق القيادة العليا. فقد أمضى مجلس شيوخ Bent Tree، المؤلّف من رجال فقط، سنة كاملة في دراسة النصوص ذات الصلة، وكان يجتمع دوريًّا لمقارنة الملاحظات. واستشهدوا بكتب قرأوها. وحين اجتمعوا أخيرًا ليتشاركوا ما توصّلوا إليه، كانت المجموعة بالإجماع على رأي واحد في دراستها للكتاب المقدس وفي إحساسها بتوجيه الروح للكنيسة: لا ينبغي بعد اليوم أن يكون أيّ منصب في الكنيسة محظورًا على النساء.

739. www.bit.ly/3nECNFR

ثم أشركوا الجماعة في هذا التحوّل العقائدي بشفافية ودون عجلة. وقد فعلوا ذلك بطرق كثيرة: من خلال بيانات صادرة عن الشيوخ؛ وعظة؛[740] وورقة لاهوتية أعدّوها؛ والأهم من ذلك كله، بأن جعلوا أنفسهم متاحين عبر فرص متعدّدة للإجابة عن الأسئلة أو معالجة المخاوف التي يثيرها أفراد في الكنيسة. وتعلّموا كم هو حاسم أن تُدار هذه المحادثة مع أعضاء الكنيسة المعارضين أو القلقين بطريقة ودودة ومُحِبّة وصبورة ورعوية.

والكنائس التي تنتقل تروي القصة نفسها: فمع أن الغالبية العظمى من أعضاء الجماعة يقومون بالتحوّل، فإن قلة من الناس لا يستطيعون قبول هذا التعديل العقائدي. وهذا أمر لا مفرّ منه، ومع ذلك ينبغي لنا نحن قادة الكنائس أن نصلّي لكي يبقى معنا كل الذين معنا؛ وأن نفعل كل ما في وسعنا لمساعدتهم.

وهذا الانتقال ليس نهاية رحلة. بل هو بداية رحلة. فبعد إجراء التغيير العقائدي، حان الوقت لأن نشكر الله ونأخذ نفسًا عميقًا؛ ثم نبدأ بتطبيق تحوّلات بنيوية وثقافية، بينما نتبيّن طرقًا جديدة، جماعةً وقادةً، لنكون حقًّا شركاء معًا نساءً ورجالًا — وذلك كله لكي يتقدّم الإنجيل بقدر أعظم في كنيستنا ومن خلالها.

740. مرّروا إلى الأسفل واستمعوا إلى هذه العظة هنا: www.bit.ly/3xbsb4h

17

الشعب ضد النظام الأبوي

«هذه الرواية التي تقول إن الرجال يحملون سلطان الله رواية مخيفة، وهي ليست مسيحية.» بيث أليسون بار[741]

«خبرتي بصفتي راعيًا منذ أربعين عامًا هي أنه حين تُقَرّ قيادة المرأة في حياة الكنيسة، يصير كل شيء أفضل.» كيفن جايلز[742]

ذات صباح منذ وقت قريب ساعدتني زوجتي على أن أرى أن نظرة الرجال إلى المرأة (ونظرة النساء إلى أنفسهن) هي أكبر فكرة في هذا الكتاب. أنا الذي بدأت الحديث: «الكنائس التكاملية ماضية في طريقها دون أن تدرك ما يفوتها، لأن فيها ما يكفي من الرجال الموهوبين الذين لهم زوجات داعمات جدًا، وهؤلاء تناسبهم التكاملية كما يناسب القفازُ اليد. المشكلة أن هذا كثيرًا ما يقيّد أو يُقصي الزوجات والنساء العازبات اللواتي هنّ قائدات بحق، واللواتي يفضن بالكثير مما يمكن أن يقدّمنه، أبعد من خدمة النساء والأطفال والأعمال الإدارية والمشورة.»

هزّت زوجتي رأسها. وشرحت: «لا، ليست هذه هي المشكلة. أو على الأقل ليست المشكلة الرئيسية»:

المشكلة الرئيسية هي الطريقة التي يدرّب بها اللاهوتُ والممارسةُ التكامليان الرجالَ على النظر إلى المرأة، و — وهذا ربما أشدّ حزنًا — الطريقة التي يدرّبان بها النساء على النظر إلى أنفسهن. مهما كانت الرسالة خفيّة، فهي أن المرأة أقل من الرجل بشكل ما، ولذلك فما لديها لتقدّمه أقل. وما دامت هذه العقلية اللاواعية قائمة، فمهما كان الرجال لطفاء مع النساء و«مكرِّمين» لهن، فإنها ستضمن نبرة خفية من الوصاية الأبوية

741. مقابلة في The New Yorker، 25 يوليو/تموز 2021. المصدر: www.bit.ly/2YjaG4Z
742. Kevin Giles, What the Bible Actually Teaches on Women، الفصل 8

في أحسن الأحوال، أو من الاستعلاء في أسوئها، في طريقة تعامل الرجال مع النساء، وفي الطريقة التي تسمح بها النساء للرجال بأن يتعاملوا معهن.

زوجتي تعرف ما تقول — فقد بذلت نفسها في كنائس تكاملية طوال حياتها كلها وهي تتبع المسيح. والعجيب أنه كان لها من الطبع والفرص والثقة بالنفس ما جعلها لا تشعر بأنها ظُلمت ظلمًا كبيرًا. ومع ذلك فقد أصابت لبّ المسألة: اللاهوت هو المشكلة. فلاهوت الكنيسة ليس، كما نفترض، وثيقة مغلقة من الحجج الكتابية محفوظة في مكان ما على «غوغل درايف». إنه شيء أقرب إلينا من ذلك بكثير: اللاهوت هو إدراكنا ورؤيتنا وطريقتنا في رؤية الواقع. ولذلك فإن لاهوتنا عن المرأة هو طريقتنا الأساسية في رؤية المرأة.

والواقع أن الأثر الرئيسي لتخلّيَّ أنا عن اللاهوت التكاملي كان التغيّر الخفيّ، لكنه لا يُنكر، في إدراكي للنساء. باختصار: أنا أرى في النساء أكثر مما كنت أرى من قبل. ببطء ولكن بثبات، يُخرج الله برحمته الخشبَ من عينيّ. وأنا ألاحظ الآن، وبالتأكيد أكثر من أي وقت مضى، كم لدى النساء ما يقدّمنه — أفكارًا ووجهات نظر وتمييزًا وصياغات وتوجيهات — في البيت وفي الكنيسة وفي المجتمع. وكلما رأيت فيهن أكثر، شعرت أكثر بثقل كلمات الله لآدم (ولأبنائه) وبقوة إقناعها: «ليس جيدًا أن يكون [الرجال] وحدهم».

أسقف زجاجية وأقفاص مذهّبة

لقد تعجّبت من كثرة الناس الذين لا يزال الله يضعهم في طريقي ليرووا لي قصصهم المفجعة. لم أذهب أبحث عن أيّ منها — يبدو أنها هي التي تأتي باحثة عني!

مؤمنة ناضجة وموهوبة تحكي لي كيف أخبرت قادة كنيستها، بسذاجة، عن الاختبارات الروحية التي شعرت فيها بأن الله يدعوها إلى أن تستعد لقيادة كنيسة والوعظ فيها، فما كان منهم إلا أن قالوا لها إنها لو كانت رجلًا لكانت دعوتها هذه موضع ثناء بوصفها شيئًا مشروعًا، أما وهي ليست رجلًا فيجب أن تُوجَّه إلى مكان آخر. لقد تركت تلك الكنيسة منذ ذلك الحين، وأسّست كنيسة أخرى بنجاح.

وامرأة أخرى، لا تزال تكاملية ملتزمة، بعد عقود من الجهد المضني لتخضع لزوجها، تجد أنها كادت تفقد صوتها هي، ولهذا صار زواجها في وضع حرج. وهي تتساءل كيف يمكنها يومًا أن تستعيد إحساسها بذاتها فيه.

وصديق راعٍ يخبرني أن زوجته، بعد أن شاركت في قيادة كنيستهما عقودًا، صارت الآن تعطي نفسها لسوق العمل بحماسة كبيرة، ولم يبق لديها إلا القليل جدًا من الدافع لخدمة الكنيسة — وهي تفسّر ذلك بأن موهبتها هناك تُحترم، وأن الرجال يعاملونها معاملة الندّ.

وصديقة أخرى، قائدة موهوبة، انضمت أخيرًا، بعد أن عملت في الكنائس طوال حياتها، إلى كنيسة ترى النساء مساويات للرجال. وهي تخبرني أنها، للمرة الأولى في حياتها، لا تتساءل هل يتجاهل الآخرون أفكارها الاستراتيجية بسبب جنسها، ولا تخشى أن يُنظر إليها كأنها نوع من إيزابل بسبب قوة قناعاتها ورؤيتها.

ومنذ بضع سنوات، بعد مؤتمر لقادة الكنائس دام ثلاثة أيام، أسرّت إليّ قائدة متمرّسة بأنها في كل يوم من أيام المؤتمر كانت تشعر بأنها تصغر وتصغر، وبأن طموحها لملكوت الله يقلّ. في البداية اتخذت موقف الدفاع، لكنها بعد ذلك أشارت إلى كل الطرق، الخفيّة منها وغير الخفيّة، التي أُفهمت بها أن القيادة المسيحية شأن رجالي. حاولت أن أكتفي بالإصغاء، وأخيرًا سمعتها حقًا — لا كلماتها فحسب، بل خيبة الأمل العميقة والجرح المختبئين تحتها.

ومنذ وقت أقرب حضرت مؤتمرًا للرعاة، واخترت فيه أن أنضم إلى ورشة عمل عن المرأة في الخدمة. أصغيت إلى امرأة تلو أخرى وهن يعبّرن عن عذاب محاولة استخدام مواهبهن لخدمة الله في أوساط يهيمن عليها الرجال. «أنا مدعوّة من الله — لكنني أُترَك لأشكّ في تلك الدعوة مرة بعد مرة. أما إخوتي فلا يُشجَّعون أبدًا على الشك في دعواتهم.» وأخرى تتحسّر على الكيل بمكيالين: «كثيرون جدًا من الرجال في القيادة مذنبون فعلًا بالعدوانية، لكن لأنهم رجال يتسامح معهم الجميع. أما إن كانت المرأة حازمة فقط، فيُفترض أنها لا بدّ تخطئ.»

أضيفوا إلى هذه قصص النساء اللواتي يحكين لي عن لجوئهن إلى قادة ذكور في الكنيسة، يبدو أنهم، رغم كل جاذبيتهم ونجاحهم في الخدمة، لا يستطيعون أن يسمعوا همومهن سماعًا حقيقيًا. ومما له دلالته أن بعضهن وجدن أن الأجدى أن يطلبن من الرجال في حياتهن — أزواجهن وآبائهن وأبنائهن — أن يتكلموا نيابة عنهن. وهكذا يكتب لي صديق اليوم عن صعوبة إبقاء زوجته وابنته منخرطتين في كنيسته. فهما، وهما امرأتان موهوبتان، تقولان له إنهما لا تشعران بأنهما مرئيتان في كنيستهما، ولا يبدو أنه قادر على إقناعهما بغير ذلك.

تذكّروا: كل هذه القصص التي صادفتها، من نساء تحلّين بشجاعة كافية ليشاركنني بها، حدثت كلها في أوساط تكاملية ليّنة.

في مدينتي تعوي الريح الجنوبية الشرقية، أحيانًا أسابيع متواصلة. والنتيجة أن أشجارًا كثيرة انحنت انحناءً دائمًا نحو الشمال الغربي. وقد لاحظت، في عقود حياتي الكنسية، أن «لاهوت» الكنيسة — أي منظومة معتقداتها وطريقتها في تفسير الكتاب المقدس في موضوع أساسي — يشكّل مواقف الكنيسة وافتراضاتها وممارساتها أكثر من أي شيء آخر. والتكاملية واحدة من هذه الرياح — فإذا تعرّضت لها امرأة مدة كافية، وعاشت في هذه الريح السائدة، صارت أكثر عرضة للانحناء: فتُكبَح إمكاناتها في الخدمة، ويتعرّض سلامها الشخصي للخطر. (لا، لست أبالغ في كلامي — فهناك بيانات صلبة تُظهر ذلك.[743])

حين أنظر إلى الوراء، لم يخطر لي قطّ أنني فعلت أو قلت شيئًا يقيّد النساء في خدمتهن للمسيح — إلى أن ضبطت نفسي أفكّر في مستقبل أولادي في الخدمة. ومع أنني أثق بأن الله سيقودهم كما يرى، وجدت نفسي أتمنى أن يصبح أبنائي رعاة يومًا ما، وأن يتمتعوا بفرحة العمل مع آخرين في فريق يعلّم الكنائس ويقودها. ثم نظرت إلى ابنتي الوحيدة، آيفي، وهي تلعب إلى جانب إخوتها، فتمنيت أن تتزوج رجلًا كهذا.

في تلك اللحظة أدركت فجأة أن الأسقف الزجاجية التي تصطدم بها نساء كثيرات نادرًا ما يصنعها مهندسون ماكرون للنظام الأبوي عازمون على إبقاء النساء في مكانهن. لا، هذه الأسقف تُبنى بخفاء شديد من لاهوتنا عن الجنسين. ها أنا، الأب المحبّ لابنة موهوبة، أفرض حدودًا غير مرئية، لكنها لا تُخترق، على إمكاناتها وعلى إسهامها في شعب الله. وكل ذلك لأنني كنت أؤمن بأنها لن تتمتع بالمستوى نفسه من الإسهام الذي لإخوتها إلا إذا تزوجت الرجل المناسب.

«اجعلْه يتوقف!»

بينما كنت أكتب الفصول الأخيرة من هذا الكتاب، انضممت إلى فريق قيادة مختلط من الجنسين في كنيسة في مدينتي. وهنا أحاول أن أمارس الانضباط الروحي المتمثل في «رؤية» النساء في ذلك الفريق، و(وهذا لا يقلّ أهمية) «سماعهن». في اجتماع قيادي حديث، كنت أحكي كيف أن كتابة الأجزاء الأخيرة من هذا الكتاب كانت تشبه

743. دراسة شملت 2234 امرأة متوسط أعمارهن 47 عامًا، اعتمادًا على استطلاعات من السنوات الخمس عشرة الأخيرة، تؤكد أن عدد النساء اللواتي يعانين مشكلات صحية أكبر حين يرتدن كنائس تكاملية مقارنة بالكنائس الشاملة. (Patricia Holman and Amy Burdette, “When Religion Hurts: Structural Sexism and Health in Religious Congregations,” American Sociological Review, 2021, Vol. 86 (2): 234–55.)

جرّ شاحنة صعودًا على تلّة: قلت: «أنا أواصل لأنني أريده أن يتوقف!» وكنت أقصد بـ«ـه» العمل المرهق والمستنزف للوقت والمشاعر الذي هو كتابة كتاب.

فقالت إحدى النساء في الفريق: «اجعلْه يتوقف!» وكرّرت هذا الأمر القصير مرتين أخريين، بثقل نبوي. احترت قليلًا، ثم فهمت ما كانت ترمي إليه: «اجعل هذه الطريقة التي يرى بها المسيحيون والكنائس النساءَ ويعاملونهن بها تتوقف!» كان في رجائها صدقٌ بدا وكأنه مرسل من السماء تقريبًا. وبينما كنت أصلّي طالبًا المثابرة لإتمام هذا الكتاب، ظل الروح القدس يذكّرني بكلماتها: «اجعلْه يتوقف! اجعلْه يتوقف!» وهذا الكتاب هو تقدمتي الصغيرة في هذا الاتجاه.

فما الذي يجب أن يتوقف بالتحديد؟

حتى لو كانت التكاملية تخطئ الهدف من حيث تفسيرٍ سليم للمسألة يأخذ الكتاب المقدس كله في الحسبان، فقد نتساءل: هل هي حقًا مؤذية إلى هذا الحد؟ ألا نعرف جميعًا كنائس تكاملية تساعد أناسًا كثيرين جدًا؟ وربما نحن أنفسنا في واحدة منها. وبصفتي قائدًا تكامليًا لسنوات طويلة، أعرف من خبرتي المباشرة أن التكاملية، كالخميرة، لا تعمل في كل عجين (أي في كل كنيسة) بالدرجة نفسها. فالكنائس التكاملية الليّنة، مثل الكنيسة التي ساعدت في قيادتها، تبذل قصارى جهدها لتمزج العقيدة التي تُقصي النساء بالعقيدة التي تفسح لهن المجال، بحيث تشعر معظم النساء بأنهن مكرَّمات حقًا. ليست هناك كنيسة كاملة، والله قادر تمامًا على أن يستخدم حتى الكنائس غير الكاملة ليصنع أمورًا رائعة. ومع ذلك فقد عشت ما يكفي من الوقت لأرى الجوانب السلبية تظهر حتى في أكثر الكنائس التكاملية ليونةً.

التكاملية تُخفي المواقف المتحيّزة ضد المرأة بسهولة مفرطة. التحيّز ضد المرأة، سواء أكان عدائيًا (وكارهًا للنساء) أم «لطيفًا» (وبالتالي وصائيًا أبويًا)، يُضعف قدرة الرجل على أن يصغي إلى المرأة إصغاءً حقيقيًا. فقد قالت رايتشل دنهولاندر (Rachael Denhollander)، وهي الأولى بين ضحايا كثيرات أعلنَّ على الملأ اتهاماتهن ضد المعتدي عليهن، لاري نصار (Larry Nassar)، طبيب اتحاد الجمباز الأمريكي، هذا الكلام لطائفتها المعمدانية الجنوبية: «أرى أن من البليغ الدلالة أنني سمعت مئات، مئات حرفيًا، من العظات عن دائرة الهدوء والخضوع التي ينبغي أن تكون للمرأة. ولم أسمع عظة واحدة عن كيفية تقدير صوت المرأة.»[744]

744. المصدر: www.bit.ly/3COpaJc

لم تستطع الكنائس البيضاء في جنوب أفريقيا أن تبدأ حتى بالتوبة عن المواقف العنصرية إلا بعد أن تابت عن التعليم الكاذب لنظام الفصل العنصري (الأبارتهايد). ومن المحزن في نظري أنه بينما يعترف رجال كثيرون جدًا من غير المسيحيين في ثقافتي بمواقفهم الخاطئة المتعالية على المرأة، يكتفي رجال مسيحيون كثيرون جدًا بالاختباء وراء لاهوتهم التكاملي.

التكاملية تصنع كنيسة تفكّر بنصف دماغ. فبإقصاء النساء عن فرق القيادة العليا وعن فرق الوعظ، تضمن الكنيسة لنفسها نقاطًا عمياء — أي عجزها عن استخدام جانبي الدماغ كليهما في اتخاذ قراراتها، وفي نهجها الرعوي، وفي تفسيرها للكتاب المقدس، وفي خدمتها للرجال والنساء على السواء. يقول آلان هيرش (Alan Hirsch): «لقد آن الأوان لموازنة هيمنة الرجال في الخدمة والقيادة الكنسية. فإن لم نفعل، فلنتوقع المزيد من النتائج نفسها (التي تأتي إلى حد ما من نصف دماغ) التي نحققها حاليًا.»[745]

وهذه هي المفارقة الكبرى في الكنائس التكاملية — فمع أنها تدّعي أنها تعزّز التكامل بين الرجال والنساء، فإنها في الواقع لا تخصّص إلا للرجال الدورين الرئيسيين اللذين يوجّهان الكنيسة ويعلّمانها — أي دوري الوعظ والقيادة الرعوية — وبذلك تقطعنا عن صوت النساء وعن زوايا رؤيتهن التي نحن في أمسّ الحاجة إليها. والكنائس التكاملية الليّنة تحاول على الأقل أن تخفّف من ذلك بدعوة النساء إلى اجتماعات القيادة وإلى المنبر — لكنها في الوقت نفسه، بحسب فهمي، لا تمنحهن سلطانًا كافيًا ليتكلمن حقًا بصراحة.

التكاملية تُسبّب ألمًا هائلًا لبعض النساء الموهوبات والمدعوّات والمهمَّشات. ما زلت أسمع القصة نفسها: نساء مدعوّات أو موهوبات يُتجاهلن، أو يُدفعن جانبًا بلا اكتراث لصالح الرجال. وما يزيد الطين بلّة أن للتكاملية آلية مدمجة فيها للتلاعب النفسي (gaslighting): فهي توبّخ المرأة التي ترغب في القيادة أو الوعظ لأن لديها أصلًا هذه الرغبة في غير موضعها، إن لم تكن رغبة خاطئة. فإن قبلت هذا الاتهام، صارت تلوم نفسها. لا بدّ أن فيّ خللًا لأنني أرغب أصلًا في ما يبدو أن الله يمنعه. تقول لي صديقة موهوبة: «حين كنت شابة، سمعت الله يدعوني إلى قيادة شعبه — لكن بعد أن قيل لي إنني أخطأت في سماع الله، صرت لا أثق إطلاقًا بقدرتي على تمييز صوت الله.»

ولكن كيف ينبغي أن تتصرف النساء اللواتي يرفضن هذا الحكم، واللواتي صار لديهن الآن شعور مشروع بالظلم؟ هل يدفنّ الألم ويواصلن الخدمة؟ هل يرفعن أصواتهن

745. Alan Hirsch and Dave Ferguson, On the Verge، الفصل 3.

ويواجهن احتمال السخرية أو مزيدًا من التلاعب النفسي؟ أم يتركن الكنيسة ويبحثن عن أخرى؟ الخيارات الثلاثة كلها مؤلمة إلى أبعد حد.

قد يكون ألم المرأة المتجاهَلة — خوفها وغضبها وإحباطها — شديد الوقع، لكن الكنيسة في معظم الأحيان غافلة تمامًا عن الثمن الذي تدفعه حين تهمّش عطيةَ الله المتمثلة في شخص موهوب، لا لسبب إلا جنسه. فليس في سوق العمل فقط، بل في الكنيسة أيضًا، تكون الرداءة هي الثمن حين يُرقّى أناس أقل كفاءة على حساب آخرين بسبب جنسهم.

التكاملية تُسهم في خنق الإمكانات القيادية لدى المرأة. أقتبس في هذه النقطة مستشارة القيادة كادي كول:

حين يكون لديكم نساء أمينات ناضجات مستعدات، وينبغي أن يتولّين جوانب من القيادة، أيًّا كانت، سواء إدارة فريق من المتطوعين، أو تعليم صف في مدرسة الأحد، أو دورًا قياديًا رسميًا من نوع ما، فقد يفاجأ [الرجال] حين يعرفون كم من الطاقة والجهد تبذل هؤلاء النساء المسيحيات التقيّات في التساؤل هل يغتصبن السلطة. فالنساء التقيّات حسّاسات جدًا لاحتمال وجود خط في مكان ما ينبغي أن يعشن تحته. والمشكلة أنه إذا كان ذلك الخط عند السبعة مثلًا، [بينما هو عند العشرة بالنسبة للرجال]، فإن معظم النساء التقيّات سيعشن عند الأربعة تقريبًا حتى لا [يتجاوزنه] عن غير قصد.[746]

وجدت أن ملاحظة كول هذه تفسّر الكثير. ففي الكنائس التكاملية الليّنة التي قدتها، كنت أتساءل لماذا كان رجال كثيرون يحلّقون قادةً، وهو أمر مفهوم، بينما النساء اللواتي شُجّعن على القيادة في مجال معيّن كثيرًا ما لم يرتفعن إلا إلى مستوى متوسط. فحين يوجد سقف زجاجي، أي خط تقييد خاص بجنس معيّن، فإن قلة قليلة جدًا من النساء يقتربن منه أصلًا — والمشكلة ليست فقط أن هناك سقفًا زجاجيًا؛ المشكلة أن السقف الزجاجي يصنع أرضية لاصقة.

التكاملية تُسهم في إسكات أصوات النساء. يقول آدم غالينسكي (Adam Galinsky) في محاضرته على منصة TED بعنوان How to Speak Up for Yourself[747] إن الجرأة على رفع الصوت تتطلب عدة شروط مسبقة: قناعة أخلاقية بأن رفع الصوت أمر صائب، ودعم الجماعة، والقوة أو المنبر للقيام بذلك، والتحرّر من الخوف من العقاب.

746. www.bit.ly/3wvNjlD

747. www.bit.ly/3k7dsSF. أشكر ويليام ويت على توجيهي إلى هذه المحاضرة.

ولهذا تشعر نساء كثيرات جدًا في الكنيسة بأنهن مُسكَتات أو غير مسموعات في الكنائس التكاملية: فعقيدة خضوع المرأة وصمتها تجعلهن يشككن في أن رفع الصوت صائب أصلًا؛ ولذلك لا تدعمهن الجماعة في ذلك؛ ولا يُعطَين منبرًا أو قوة ليرفعن أصواتهن؛ وحين يرفعن أصواتهن فعلًا، يواجهن عواقب اتهامهن بموقف غير خاضع أو بتجاوز الخط المناسب لجنسهن.

وفي تلك الكنائس التكاملية القليلة التي تسمح للنساء بالوعظ يوم الأحد، تُوجَّه هؤلاء النساء إلى أن يعلّمن، ولكن ليس أن «يعلّمن بسلطان» (بناءً على تفسيرها الخاطئ لـ1 تيموثاوس 2: 12). لكن هذا يبثّ الرعب في قلب كثير من الواعظات اللواتي يظنن أنهن في أي لحظة أثناء الوعظ قد يُظهرن قدرًا زائدًا من القناعة، أو ربما يتعثرن في صياغة عقائدية من أي نوع، فيخطئن بذلك.

كتبت ماري كاسيان (Mary Kassian)، وهي من الأعضاء المؤسسين للتكاملية، مقالة على موقع جون بايبر بعنوان Women Teaching Men—How Far Is Too Far? («النساء يعلّمن الرجال — إلى أي حد يكون الأمر مبالغًا فيه؟»)[748] وتقول إن النساء كثيرًا ما يسألنها هل يجوز لهن أن يعظن صباح الأحد، أو مساء الأحد أو مساء الأربعاء. وهل يجوز لهن أن يشاركن بشهادتهن. أو أن يتكلمن في درس كتاب مقدس مختلط، أو أمام جمهور مختلط في مؤتمر ديني. أو أن يعلّمن في حلقة دراسية أو في معهد لاهوتي بحضور رجال. أو أن يقدن اجتماع صلاة. أو أن يتلمذن رجالًا على انفراد. أو أن يعظن على التلفاز أو الإذاعة. أو أن يعلّمن رجالًا من خلال المقالات والكتب. وتجيب: «[إن] مسألة كيف ينبغي لي — بصفتي امرأة لها موهبة روحية في التعليم — أن أكرم رئاسة الرجل في الكنيسة، فيها أوجه شبه كثيرة بمسألة كيف ينبغي لشابة [مع صديقها] أن تكرم مبدأ العفة [الجنسية].»

ومع أنها تعترف بأن الخط في الحالتين غير واضح صراحة في الكتاب المقدس، فإنها بتشبيهها تعليمَ المرأة لرجل بارتكاب الخطية الجنسية معه، وبإيحائها بالتالي بأن عليها أن تبقى أبعد ما يمكن عن الخط، قد ألصقت مقالتُها الواسعة الانتشار، بلا شك، نساءً كثيرات جدًا بأرضية الصمت. فإما أنهن سيتجنبن ببساطة فرص الكلام التي تذكرها كاسيان، وإما أنهن، إن تكلمن، سيحرصن أشد الحرص على تجنّب قول الشيء الخطأ، أو قول الشيء الصواب بأي قدر من المباشرة والقناعة.

748. www.bit.ly/3fxTcKC

التكاملية تقيّد كثيرين من الحصّادين الذين أعطاهم الله. قال يسوع إن الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون. ينبغي أن نصلّي لكي يأتي فعلة أكثر، ثم نحرص على أن نضع أولئك الفعلة في العمل. فرسالة الكنيسة في التبشير والتلمذة أهم من أن نُسقط من حسابنا، ولو احتمالًا، نصف مواهبها في القيادة والوعظ، والكنيسة المحلية ومنبر الأحد أداتان أساسيتان جدًا لتحقيق هذه الرسالة. تقول كارولين كَستيس جيمس (Carolyn Custis James): «حين يتراجع نصف الكنيسة — سواء باختياره أو لأنه لا خيار لنا — يخسر الجميع، وتُصاب رسالتنا بالانتكاسات.»[749]

التكاملية تُعمينا عن القائدات الناشئات في وسطنا. حين فكرت أول مرة في الانتقال من الكنيسة التي ساعدت في قيادتها عشرين عامًا، كنت مدركًا حاجة الكنيسة إلى مزيد من مواهب القيادة المحفِّزة — فقد أنعم الله عليّ سنوات طويلة بأن أكون واحدًا من هؤلاء، وكنت أصلّي طالبًا مواهب أكثر تشبه موهبتي لتحلّ محلي. ومرة وقفت في مؤخرة الجماعة الأصغر سنًا — مئات من الشباب في العشرينيات من أعمارهم — وتساءلت أيّ الرجال في هذا الجمع قد يكون استجابة صلواتي. وفجأة شعرت بالروح القدس يقول لي: «ماذا لو كانت المواهب المحفِّزة التالية نساءً؟» فانفتحت عيناي فجأة على النصف الآخر من الجمع. وأدركت في تلك اللحظة قدرة اللاهوت المقيِّد على أن يهيئنا مسبقًا لئلا نرى كثيرًا من المواهب الموجودة أمامنا مباشرة.

التكاملية تضع سقفًا لأحلام النساء من أجل الملكوت. ليس كل طموح سيئًا. هناك طموح يولد من الروح، يشتعل في بعضنا، لتمجيد الله وللقيام بأعمال عظيمة من أجله. في العشرينيات من عمري كنت جزءًا من حركة لزرع الكنائس كانت تنمو بسرعة. وبصفتي شابًا، كنت أنظر بإعجاب ورهبة إلى الرجال الأكبر سنًا الذين يقودون الطليعة في هذه الحركة. قلت في نفسي: سيكون عليّ أن أنتظر إلى الأبد لأفعل ما يفعلونه لأجل الله. إلى أن شرح قائد الحركة أن العمر ليس معيارًا للقيادة، بل التقوى والموهبة فقط. وبإزالته العوامل الظرفية من المعادلة، حرّكني إلى أن أبذل كل ما عندي، وهذا ما فعلته.

وشيء مشابه يحدث حين نقول للشابات إنه لا عمرهن ولا جنسهن، بل تقواهن وموهبتهن فقط، هي العوامل الأساسية في تحديد مدى نفعهن المحتمل لله في الكنيسة وفي العالم. وحتى إن لم ينتهِ بهن الأمر واعظاتٍ وراعياتٍ، فالأرجح أنهن سيتفوّقن في أي مهمة أخرى للملكوت يدعوهن الله إليها.

749. Carolyn Custis James, Half the Church، ص. 162. مقتبس في Bessey، الفصل 10.

قد تكون التكاملية قاسية بشكل خاص على الرجال الألطف طبعًا، ومفرطة في الثناء على الرجال الحازمين أو العدوانيين بطبعهم. في الأوساط التكاملية، اطّلعت على أحاديث كثيرة عن مشكلة «الرجال الضعفاء» الذين لا يستطيعون قيادة «نساء قويات». ولكن هل هذه حقًا هي المشكلة الأساسية؟ أم قد تكون هناك خشبة أكبر بكثير في أعيننا نحن:

بعض الرجال قادة بطبيعتهم. وبحسب اللاهوت التكاملي، فالرجل الذي يقود جيدًا يعمل مشيئة الله. أما إن كان الرجل لا يقود جيدًا، فهو يستسلم لطبيعته الخاطئة الساقطة. فإن كنت رجلًا وتجد أنه من الطبيعي والمريح لك أن تكون القائد في البيت، فمن السهل أن تظن أنك مسيحي أفضل من ذلك الرجل هناك الذي لا يحب ببساطة أن يكون القائد وليس بارعًا في ذلك. ولكن هل هذه روحانية حقًا — أم مجرد شخصية؟ 750

وفي المقابل، قد تكون التكاملية قاسية بشكل خاص على النساء الحازمات، ومفرطة في الثناء على النساء الخاضعات بطبعهن. لاحظت أن النساء اللواتي يحظين بامتياز البقاء في البيت بينما يعمل أزواجهن، أو النساء الميّالات بطبعهن إلى الامتثال، كثيرًا ما لا يجدن أي مشكلة على الإطلاق في الوضع القائم. لقد كانت الافتراضات الأبوية القديمة تؤكد نفسها بنفسها: فالنساء اللواتي كان تركيزهن منصبًّا على الأولاد، واللواتي كنّ معتمدات اعتمادًا كاملًا على أزواجهن ماليًا، كنّ يخضعن لأزواجهن بشكل طبيعي، بينما كان هؤلاء الأزواج طوال الوقت يزدادون ثقة في تعاملهم مع المجتمع. وحتى اليوم في الكنيسة، تتبنّى أمهات كثيرات ماكثات في البيت الافتراضَ نفسه بسهولة. فخضوع الزوجة يبدو لهن صائبًا. ويُمدَحن أيضًا بوصفهن أمثلة على الأنوثة التقيّة.

وفي الغالب تكون النساء العاملات، ولا سيما النساء اللواتي يُمنَحن سلطة في أماكن عملهن ولديهن مواهب قيادية، هنّ اللواتي يبدأن بالامتعاض من ظلم هذا الوضع. فإن رفعن أصواتهن احتجاجًا، فسرعان ما يُنظر إلى قوة رأيهن وإلى استعدادهن للكلام كليهما على أنهما علامتان على روح غير خاضعة.

فكّروا في مدى ظلم هذا التمييز بين الجنسين: فحين تكون العقلية التكاملية قائمة، يُنظر إلى الرجل الواثق المستعد للتعبير عن رأيه في الأمور على أنه قائد محتمل؛ بينما يُنظر إلى المرأة الواثقة التي ترفع صوتها على أنها تهديد محتمل.

750. كريستن روسر (Kristen Rosser) في "The Consequences of Complementarianism for Men."" www.bit.ly/3BNNCsL

التكاملية تُفقد الكنيسة بعضًا من قدرتها على مواجهة التراتبيات المدمّرة بين الجنسين في المجتمع. للأفكار عواقب. ووراء الآفة العالمية المتمثلة في العنف ضد المرأة تكمن خطية عدم المساواة بين الجنسين. والكنيسة مدعوّة إلى أن تكون ملحًا ونورًا في مجتمع دمّرته الخطية، فتواجه المواقف والأنظمة الظالمة والخاطئة التي تسبّب الألم. ومع ذلك فقد أثبت علماء الاجتماع داخل حركة تحرير المرأة إثباتًا مقنعًا أنه

[ف]ي المجتمعات التي تكون فيها الأسبقية للرجال، وتكون النساء تابعات لهم، نجد: تفضيلًا للذكور يؤدي إلى إجهاض عشرات الملايين من الأجنّة الإناث؛ وعدم مساواة للنساء في التعليم والصحة والدخل وتملّك العقارات والعمل؛ وعنفًا واسع الانتشار ومقبولًا ضد النساء؛ [و]الاتجار بالنساء، وأساسًا لأغراض البغاء.[751]

ومع أنه لا يوجد تكاملي واحد يؤيد علنًا أيًّا من هذه المظالم، فإن عقيدة التبادلية بين الجنسين — التي ترفع النساء إلى مكانة مساواة حقيقية مع الرجال — هي عطية أفضل بكثير للمجتمع، إذ تُسهم في فدائه بدلًا من أن تقدّم بذور تحيّز قد تؤدي إلى إدامة الظلم.

ففي أفريقيا وآسيا، على سبيل المثال، تتحدد نوعية حياة الفتاة الصغيرة العادية، بسبب العقليات الأبوية، تحديدًا كاملًا بحسب إحسان أبيها وأعمامها وإخوتها أو إساءتهم. فالثقافات التي لا مساواة فيها بين الجنسين، حيث للنساء قليل من القدرة على الفعل، تضعهن تحت رحمة الرجال. وبما أن هذه الثقافات تميل إلى أن تكون متديّنة، وتستمد طريقتها في معاملة النساء من جماعاتها الدينية، فإن هؤلاء الفتيات أيضًا، وبشكل غير مباشر، تحت رحمة ما يُعلَّم. ومن المحزن أن تحليلًا شمل 50 بلدًا وجد أن لمستوى المساواة بين الجنسين علاقة عكسية بمستوى التديّن.[752] والتعاليم التكاملية حين تُطبَّق في العالم الأول لا تؤذي النساء إلا أحيانًا، لأن المجتمع الأوسع يوازن آثارها، أما حين تشق هذه التعاليم طريقها إلى ثلثي العالم الآخرين، كما يحدث فعلًا، فإن أثرها السلبي يتضاعف. وتُظهر الدراسات أن الدين «عامل مهم في تشكيل أعراف المجتمعات وتطلعاتها بالنسبة للنساء والفتيات. ويمكن أن يكون حافزًا للعمل على تحسين حياة النساء، أو يمكن أن يكون مصدرًا للصراع وكابحًا للتغيير.»[753] فما

751. Giles, 549
752. المصدر: www.bit.ly/3xSsK5k
753. Berkeley Center for Religion, Peace and World Affairs; Georgetown University (2008). Challenges of Change: Faith, Gender and Development, ص. 5

أشدّ المأساة إذن حين لا يُطلق أتباع يسوع نداءً واضحًا من أجل المساواة بين الجنسين، لأجل ملايين النساء المتألمات، بسبب عقيدة مضلَّلة عن تبعية المرأة.

التكاملية تُضعف قدرات الكنيسة اللاهوتية والتفسيرية. كما حاولت أن أبيّن في هذا الكتاب، فهي تجعل التفسير الرديء أمرًا عاديًا. فهي تبني عقائد كبرى على نصوص غامضة، وتسمح بتفسيرات للنصوص الغامضة تناقض تعليم النصوص الأوضح. وتأخذ قضايا ثانوية وتجعلها عقيدة جوهرية — وإلا فلماذا يجب على أساتذة معاهد اللاهوت المعمدانية الجنوبية أن يوقّعوا «بيان دانفرز» كل سنة، وإلا خسروا وظائفهم؟ وهي تشيطن المؤمنين بالكتاب المقدس الذين يفكّرون ويرون الأمور بشكل مختلف، فتتهمهم بأنهم لا يأخذون الكتاب المقدس بجدية وبأنهم يستسلمون للثقافة. وهي تشجّع ردّ الفعل لا الأرثوذكسية الناقدة في التعامل مع المجتمع. وحتى وقت قريب، جرّت الثالوث نفسه إلى النقاش، وأبدت استعدادًا لإعادة تصوّر العلاقات الأزلية داخل الذات الإلهية، وكل ذلك لدعم التزامها المسبق بالتراتبية بين الجنسين.

التكاملية لا تخدم الجيل القادم خدمة جيدة. حين كنت أقرر هل تستحق مواجهة التكاملية جهدي حقًا، كان اهتمامي بكنيسة المستقبل هو ما شجّعني. ومع أن هياكل السلطة والتحالفات الحالية داخل معظم الكنائس أو الطوائف التكاملية قد تجعلها، وهذا مفهوم، منحازة ضد تصحيح لاهوتها في هذا المجال — فإننا حين نُخرج أنفسنا من الصورة، ونتخيّل أولادنا بعد عقدين يقودون الكنيسة نفسها، تصير الأمور أوضح. أتخيّل أولادي أنا جالسين يومًا ما في فرق قيادة كنائس، وأتخيّل الاحتمال المحزن أن يضطروا هم إلى الدفاع عن هذه العقيدة التي يزداد الدفاع عنها استحالة. فما أقصر نظرنا إن تركنا لهم أن يصلحوا الفوضى التي صنعناها. وإن فعلنا، أظن أنهم قد ينظرون إلى زمننا فيجدون أنه لا عذر لنا في أننا كنا مستعدين إلى هذا الحد للدفاع عن لاهوت تراتبي قائم على حجج واهية إلى حد ما وعلى اعتبارات عملية مبهمة.

يمكنني أن أواصل. فالتكاملية قد تصغّر أحلام فتاة صغيرة في تغيير العالم من أجل يسوع. وهي تعطي غير المسيحيين، والمسيحيين الذين يشكّون، سببًا إضافيًا لرفض المسيحية. وقد تجعل النساء العازبات يشعرن بأن عدم وجود زوج يقلّل من صوتهن ونفعهن وإسهامهن، في الكنيسة وفي المجتمع على السواء. وهي تؤدي إلى الممارسة الظالمة التي تُمنح فيها النساء المتزوجات من قادة ذكور في الكنائس التكاملية مستويات أعلى من الإسهام مما تُمنح نساء ربما أكثر موهبة وتفانيًا، لكنهن عازبات، أو غير متزوجات من قائد. وهي تجعل النساء اللواتي قد يكنّ مدعوّات حقًا من الله (وربما

أُفسح لهن المجال في كنيستهن) إلى القيادة والتعليم يختبرن الألم الذي لا داعي له، ألم أن يُدنَّ بدلًا من أن يُشجَّعن من أتباع يسوع الآخرين. وقد تصنع ملاذات آمنة للرجال المسيئين. وهي تزيد احتمال أن يتخذ الزوج نيابة عن أسرته قرارات محدودة تُتخذ بنصف دماغ. وقد تعزّز زيجات من نوع «الوالد والطفل» تخنق النموّ الشخصي، بدلًا من زيجات من نوع «الراشد والراشد» فيها إمكانات لا تنتهي للنمو. وقد تضاعف الشعور بالذنب والضغط لدى الأم المسيحية العاملة: الذنب، لأنها وهي تعمل تشعر بأن المكان الذي يُفترض أن تكون فيه هو البيت؛ والضغط، لأنه بعد يوم عمل كامل يقع عليها أكثر مما يقع على زوجها واجبُ تدبير البيت وتنظيم شؤون الأولاد. وقد تجعل الزوجة تتخلى عن بعض قدرتها على الفعل، فازدهارها في النهاية يبدو قائمًا أساسًا على مدى جودة قيادة زوجها لها.[754]

قال يسوع: «من الثمر تُعرف الشجرة».[755] ومع أن هذه القاعدة تركّز أساسًا على الناس وأعمالهم، فيمكن تطبيقها على العقائد وآثارها أيضًا. فالعقيدة السليمة الصحيحة ينبغي أن تؤدي إلى اختبارات إيجابية داخل الكنائس ولدى المسيحيين. ومع ذلك فحين أنظر إلى الثمار المرّة للتكاملية، يجعلني ذلك أشكّ في صحتها مضاعفًا. وفكّروا: طوال الوقت، يوجد بديل كتابي قابل للحياة لهذا النظام الأبوي «المسيحي» — بديل يتبنّاه عدد كبير جدًا من كبار علماء الكتاب المقدس في العالم.

أيديولوجيا اليسار المتطرف أم منحدر زلق؟

قد يخشى كثيرون أن تكون التبادلية رضوخًا للتأثير المنتشر لأيديولوجيا اليسار المتطرف، بسياسات الهوية التي تتبنّاها، والتي يبدو، ومن المفارقة، أنها تأخذ ضحايا الصور المسيئة من النظام الأبوي سابقًا وتجعلهم المضطهِدين الجدد. «"الرجال حثالة"، فلتقُدِ النساءُ إذن!»

لكن أولئك الذين يحاولون قلب موازين القوة لصالح من جُرّدوا من القوة سابقًا، هم أقرب إلى حرّاس السلطة الكارهين للنساء مما قد يبدو في البداية. فأن تتسلّط على

754. كما شرحت جولي، زوجتي: «في التكاملية كان من السهل جدًا عليّ أن أذعن لزوجي وأن آخذ مبادرة أقل. وكثيرًا ما "انسحبت" من الشعور بالمسؤولية الحقيقية عن حياتي وخدمتي ومسار كليهما — ليس علنًا طبعًا، بل في شتى أنواع القرارات الصغيرة، ولكن البالغة الأثر، لمجرد أنني، بمعنى خفيّ جدًا ولكنه قويّ، كنت أستطيع ذلك!»

755. متى 12: 33

من كانوا يتسلّطون من قبل هو أن تجازي عن الشرّ بشرّ — بل وأن تزيد تفاقم انهيار العلاقات بين الرجال والنساء.

أما تبنّي تبادلية الرجل والمرأة فيقوم، على العكس من ذلك، على القناعة الكتابية بأنه لا الرجال ولا النساء، لا السود ولا البيض، لا الضحية ولا الجاني، لا أصحاب الامتيازات ولا المحرومون منها، لهم أي حق أصيل في التسلّط على الآخر. وبدلًا من أن ترى طرفًا متفوقًا بشكل ما، تسعى إلى اعتماد متبادل متجذّر في الاعتراف المتواضع بقيمة الآخر الحقيقية، وفي الوعي بضعفاتنا ونقاطنا العمياء وخطايانا نحن.

كثيرًا ما تُتهم الحجج التي يقدّمها هذا الكتاب لصالح التبادلية بأنها حجج «المنحدر الزلق»، أي أن ثقافتنا تدفعنا بها إلى قبضة أكثر ارتخاءً على الأرثوذكسية المسيحية الأساسية. ولكن لا. قد تكون ثقافتنا المساواتية هي التي وضعت هذا الحوار على الطاولة، لكن الكتاب المقدس، لا الثقافة، هو صاحب الحق في أن يقرر كيف ينبغي أن يجري الحوار، وإلى أين ينبغي أن ينتهي. وكما أثبتّ في هذا الكتاب، فإن الكتاب المقدس في الواقع يمنح الطاقة المحفِّزة لاستعادة كرامة النساء وإسهامهن — وهذا ليس بالإنجاز الصغير حين نتأمل كيف هيمن كره النساء والنظام الأبوي على الثقافات البشرية آلاف السنين. والسؤال هو: كيف يشارك المؤمنون أفرادًا في هذا التحوّل على مستوى الكنيسة كلها؟

أن نصبح صُنّاعَ تغيير

إن وجدتم أنفسكم في كنيسة تُقرّ التبادلية على المستوى العقائدي، فقد يساعدكم هذا الكتاب على تعميق قناعاتكم في هذه المسألة.

أما إن كنتم في كنيسة تكاملية، ووجدتم أن معظم الحجج في هذا الكتاب مقنعة وصحيحة، فكيف يمكنكم أن تعملوا على تشجيع التحوّل من التراتبية بين الرجل والمرأة إلى تبادلية الرجل والمرأة في كنيستكم؟ الجواب عن هذا أكثر تعقيدًا بعض الشيء.

ارفعوا أصواتكم. لقد وعظ يسوع: «طوبى لصانعي السلام». وأحيانًا تكون الطريقة الوحيدة لتصبحوا صانعي سلام حقيقيين هي أن تبدوا كأنكم تُخلّون بالسلام. سيتطلب رفع الصوت شجاعة. وقد يكون مكلفًا. ولكن ربما تستطيعون أن تستمدوا الإلهام من قصة مخبّأة في سفر العدد. فإن كان هناك أي شك في الأهمية الروحية لتحدّي

القوانين والأعراف التي تُديم عدم المساواة بين الجنسين، فلدينا بنات صلفحاد ليؤكدن لنا تأييد الله. في الشرق الأدنى القديم كانت الأرض هي الثروة الأساسية للإنسان. وبحسب قوانين الميراث في إسرائيل، كان المُلك ينتقل من الأب إلى الابن، ولا ينتقل أبدًا إلى البنات. لكن خمس نساء اتّحدن بشجاعة ليواجهن هذا النظام الظالم، ومع أنهن لم يُلغين طبيعته الأبوية، فقد نجحن في إقرار بند استثنائي.

حين يموت أبوهن، تتوسل بناته الخمس إلى موسى: «لماذا يُحذف اسم أبينا من بين عشيرته لأنه ليس له ابن؟ أعطنا مُلكًا بين إخوة أبينا». فيعرض موسى المسألة على الله بلطف، والله (ويا للروعة) يوافق النساء. ويُسَنّ قانون أعدل: «أيّما رجل مات وليس له ابن، تنقلون مُلكه إلى ابنته. ... فصارت لبني إسرائيل فريضة قضاء، كما أمر الرب موسى».[756]

وحتى اليوم، حيث تقوّض الأعراف أو السياسات في الكنائس، أو القوانين لدى الحكومات والإجراءات في الشركات، المعاملة المتساوية للنساء، فمن المشروع أن تحتجّ النساء على هذا الظلم بالتوجّه إلى القادة، الذين ينبغي لهم عندئذ، مثل موسى، أن يأخذوا همومهن بجدية.

وفي سياق كنائس اليوم، يمكن للنساء أن يعترضن على أن الرجال يميلون إلى الهيمنة على أهم وظائف الخدمة فيها — كالقيادة والتعليم. ففي النهاية، إن فكرة العهد القديم عن وراثة الأرض تأخذ لاحقًا في الكتاب المقدس معنى روحيًا، فتتكلم عن الميراث الروحي للإنسان أو عن خدمته الفريدة بين شعب الله.[757] ومع أن الله هو الذي يُدخلنا في النهاية إلى ميراثنا، فمن الممكن تمامًا أن يكون المرء في نظام اجتماعي أو ديني يقوّض وصوله إلى الإمكانات التي أعطاه الله إياها، على نحو يُفقر كنيسته هو ويحدّ من قدرتها على الوصول إلى مزيد من الناس البعيدين عن الله.[758] وهذا ليس صوابًا، ونحن بحاجة إلى بعض الشجعان الذين يرفعون أصواتهم بلطف جذّاب وباحترام.

كونوا واقعيين. اللاهوتي الكندي جون ستاكهاوس مفيد جدًا في هذه النقطة:

756. عدد 27: 4، 8، 11

757. في مزمور 2: 8، الأرض كلها، بما فيها كل شعب الله، هي الميراث الفريد ليسوع. وفي مزمور 16: 6، يشير داود إلى ممارسة تقسيم أرض الموعد وتخصيص قطعة الأرض لكل عشيرة وعائلة بإلقاء القرعة. «حبال وقعت لي في النُّعماء، فالميراث حسن عندي». ويقول بولس لمجموعة من الشيوخ إن الله يريد أن يعطيهم «ميراثًا مع جميع المقدسين». (أعمال 20: 3) وعلى كل واحد منا أن يتمثّل «بالذين بالإيمان والأناة يرثون المواعيد». (عبرانيين 6: 12)

758. لا ينبغي أن يتم هذا بطريقة تُحدث انقسامًا. فمن الممكن أن يكون المرء على حق في أمر ما، لكنه يتصرف فيه بالطريقة الخطأ. وهؤلاء البنات الخمس مثال على أهمية التوجّه إلى القادة مباشرة، بدلًا من بثّ استيائهن أو شعورهن بالظلم، بطريقة تُحدث انقسامًا، لكل من يريد أن يسمع.

أوصانا يسوع بأن نحب الله وأن نحب قريبنا. لكننا بحاجة إلى أن نرى، بأوضح ما نستطيع، ما معنى أن نحب الله وأقرباءنا في موقف معيّن. ففي ظل مجموعة معيّنة من الظروف، ما الذي يريد الله أن يحدث؟ وفي ظل القيود الظاهرة، ما هي أولويات الله؟ وبالنظر إلى هوية الأقرباء، بأي طرق يمكنني أن أحبهم، وبأي طرق سيسمحون لي بذلك؟ إن واقعية كهذه ستساعدنا على اتخاذ القرارات الصعبة اللازمة في عالم لا نستطيع فيه عادة أن ننجح في كل ما نحاوله، عالم كثيرًا ما يتعيّن علينا فيه أن نرضى بنصف رغيف، عالم كثيرًا ما نواجه فيه تعارضًا بين القيم، ويتعيّن علينا أن نعمل من أجل القيمة الأعلى على حساب الأدنى.

نحتاج إلى أن نفكر في ما يستطيع فرد أو مجموعة معيّنة أو فئة من الناس أن ينجزوه فعلًا في موقف معيّن. فالشيوخ في كنيسة معيّنة لن يسمعوا كثيرًا من الشباب، على سبيل المثال، مهما كانوا على حق. ورجال كثيرون لن يسمعوا النساء. هذا ليس عدلًا، وليس جيدًا، لكنه الواقع. وعلى هؤلاء المسيحيين أن يقرروا، من بين خياراتهم الحقيقية، كيف يمكنهم على أفضل وجه أن يكرموا الله ويقدّموا ملكوته. وعليهم في أقرب وقت ممكن أن يتخلّصوا من أي وهم بأنهم سيُسمَعون لمجرد قوة حججهم، وبغض النظر عن الحقائق الاجتماعية للموقف.

ولئلا يُساء فهمي في هذه النقطة، دعوني أؤكد إيماني بأن الروح القدس يستطيع أن يغيّر القلوب، وأنه يفعل ذلك أحيانًا بطرق مفاجئة. لكننا بحاجة إلى أن نرى بواقعية أن ما نتحدث عنه الآن هو تعليق للعلاقات البشرية العادية، وهو ما أسمّيه «معجزة اجتماعية».[759]

في كنيستي السابقة، التي كانت تتألف من عشر جماعات مملوءة بآلاف الناس، كنت آمل أن أنتقد نقدًا جوهريًا لاهوتَ زملائي من صانعي القرار: فريق القيادة العليا المؤلف من عشرة أشخاص تقريبًا. وكان مفهومًا أن يُنظر إليّ على أنني تهديد لوحدة الكنيسة. فماذا كان سيحدث لو غيّر نصف هؤلاء الأشخاص فقط آراءهم؟ كان ذلك سيقسم الكنيسة كلها إلى قسمين. وماذا لو غيّر اثنان أو ثلاثة منهم فقط آراءهم؟ ربما كان ذلك سيؤدي إلى فقدانهم وظائفهم ومكانهم على الطاولة. لقد كنت آمل بسذاجة في «معجزة اجتماعية». فما هي احتمالات أن يغيّر جميع هؤلاء الأشخاص أو معظمهم آراءهم، لا فقط أن يغيّروها، بل أن يغيّروها في الوقت نفسه؟ تبيّن أنها ضئيلة جدًا.[760]

759. John Stackhouse, Finally Feminist، ص. 99–100.

760. قد يتساءل بعضهم لماذا لا تقبل بعض الكنائس ببساطة التكاملية والتبادلية كلتيهما. لكن هذه المسألة تندرج ضمن نوع خاص من العقائد يُسمّى «معتقدًا محدِّدًا». دعوني أشرح. هناك ثلاثة أنواع من العقائد. هناك العقائد الجوهرية — وهي الثوابت الحقيقية غير القابلة للتفاوض في الأرثوذكسية المسيحية. فكّروا في قانون إيمان

ومع ذلك، ورغم القلق الذي سبّبته هذه المسألة لكثيرين من إخوتي، أعتقد أن إثارتها كانت صوابًا. وما زلت ممتلئًا بالرجاء، بفضل النقطة التالية.

انظروا إلى المدى البعيد. ويتابع ستاكهاوس:

قد تكون هناك بعض المواقف التي يؤدي فيها الدفع نحو [التبادلية] بسرعة مفرطة وإلى حد بعيد جدًا إلى تمزّق زواج أو جماعة كنسية بل وإلى تدميرهما. ولا يبدو أن هذه، على الأقل بوجه عام، هي مشيئة الله. فقد يستمد صاحب الأيديولوجيا رضًا شخصيًا من نقائه وحماسته، لكن الله يهتم بالناس الحقيقيين أكثر بكثير مما يهتم بالمبادئ المجرّدة.[761]

هذا صحيح جدًا! فكّروا كم كان الله صبورًا تجاه كل واحد منا، إذ يسير بنا في مشيئته وطرقه بأسرع ما نستطيع أن نسير، لكن نادرًا ما يسير بنا أسرع مما نقدر. ولهذا ينبغي أن يقترن الدفع البطيء الثابت للكنيسة لكي تعيد التفكير في المسألة بدعمٍ مقدِّرٍ لكل العمل الحقيقي الذي يعمله الروح فيها.

فكّروا في خياراتكم. «إن لم تكن لدينا أسباب قوية لتوقّع معجزة في حالة معيّنة، فعلينا أن نتخذ خيارات أخرى — قبل أن نصبح مرّي النفس، لا على إخوتنا أعضاء الكنيسة بسبب عنادهم فقط، بل على الله أيضًا لأنه لم يصنع المعجزة التي طلبناها.»[762] فإن صرتم لا توافقون على اللاهوت التكاملي في كنيستكم، فاجمعوا بين الاستعداد لرفع أصواتكم وبين ما يسمّيه ستاكهاوس «التريّث النبوي».

نحن نقرّ بأولوية الانتظار حين نتريّث قبل أن نعمل. نتذكر محدوديتنا وخطيتنا ونذكّر أنفسنا بأن المبادرة ليست للبشر. ... وفي غمرة العمل نتوقف ونكرر ... علامةً على الاحترام — لله وللخلائق التي نشاركها الأرض. وهذا يعبّر عن التواضع: فهناك قيم وحقائق تفوق فهمنا وسيطرتنا.[763]

وينبغي أيضًا أن نغمر كل جهودنا بالصلاة. وبينما نفعل ذلك، علينا أن نثق بأن تعبنا، مثل صبر المرأة الحامل، سيحمل في النهاية ثمر كنيسة أفضل.

إن كان عليكم أن تقرروا هل تبقون في الكنيسة رغم ذلك أم تتركونها بسبب هذه المسألة، فأيهما الأفضل؟

761. John Stackhouse, Finally Feminist، ص. 100.
762. John Stackhouse, Finally Feminist، ص. 100.
763. Glenn Tinder, The Political Meaning of Christianity، ص. 164. مقتبس في Stackhouse، ص. 97.

قد يكون البقاء أفضل. فأتباع يسوع الملتزمون ليسوا أحرارًا في أن يتركوا الكنيسة كلما اختلفوا مع جانب من نهج كنيستهم في الأمور. لقد فقد كثيرون منا، في ثقافاتنا الفردية الحديثة، فكرة العهد التي هي في أصل ترابط جماعتنا. قد نستطيع أن نختار أصدقاءنا، لكننا لا نختار عائلتنا. وفي معظم الحالات، ينبغي أن نفترض أن الله هو الذي اختار لنا عائلة الكنيسة هذه — بكل عيوبها.

وفوق ذلك، لو أن كل شخص يرجو يومًا أفضل لعقيدة كنيسته تركها ببساطة، فأي رجاء سيبقى في أن تغيّر تلك الكنيسة عقيدتها يومًا ما بتأنٍّ وتفكير؟ وفي الأثناء، بينما ننتظر التغيير بروح الصلاة، يمكننا أن نقتدي بتواضع يسوع وطول أناته بأفضل ما نستطيع، وأن نتعلّم الانضباط الروحي المتمثل في الاحتفاء بكل ما يمكن الاحتفاء به في كنيستنا.

إن عملية التقديس في زيجات كثيرة جدًا تقود أحد الزوجين في أحيان كثيرة إلى نقطة يجد فيها شيئًا في شريكه لا يحبه حقًا، ومع ذلك يجد النعمة والرحمة ليبقى في ذلك الزواج، ويجد فيه معنى حقيقيًا وسعادة. وقد ينطبق المبدأ نفسه على كنيستنا.

ومع ذلك، قد يكون البقاء في كنيسة لا تدعم تبادلية الرجل والمرأة أمرًا لا يُحتمل أو غير حكيم بالنسبة لبعض الناس. وحين يسألني أنصار التبادلية هل ينبغي أن يبقوا في كنيستهم أم يتركوها، أطرح عليهم سؤالين. الأول هو: «هل هناك أي كنائس تبادلية في منطقتكم من العالم يمكنكم أن تتخيلوا أنفسكم تذهبون إليها؟» فبالنسبة للناس في البلدات الصغيرة، قد لا تكون هناك ببساطة أي كنيسة كهذه.

والسؤال الآخر الذي أطرحه هو: «لو وضعتم قائمة، من الأعلى إلى الأدنى، بعشرة أمور مهمة جدًا لكم في الكنيسة، فأين ستضعون تبادلية الرجل والمرأة: في البنود الخمسة الأولى، أم في الخمسة الأخيرة؟» والقاعدة العملية عندي، التي لا يجوز إطلاقًا أن تُعتبر قيادة من الروح، هي أنه إذا كانت هذه القيمة في الخمسة الأولى عندكم، فقد يكون بقاؤكم في تلك الكنيسة أمرًا لا يمكن الاستمرار فيه. أما إذا كانت في الخمسة الأخيرة، فهي على الأرجح ليست مهمة بما يكفي لتكون عاملًا حاسمًا في اختيار الكنيسة التي ترتادونها.

وإن لم نستطع البقاء، ولم تكن هناك كنائس مناسبة في منطقتنا من العالم ننضم إليها، فقد يكون هناك خيار آخر هو أن نؤسس كنيسة جديدة — وطبعًا فقط إن وجّهنا

الله إلى ذلك. فأحيانًا قد يكون من الأفضل أن نجعل الخمر الجديدة في زقّ جديد، بدلًا من الضغط على زقّ قديم خِيط من أوله إلى آخره بخيط تكاملي.



خاتمة: كيف يرى يسوع المرأة

يسوع هو اللاهوت الكامل. إنه إعلان الله عن ذاته. فإن أردنا أن نعرف كيف يرى الله المرأة، فلا نحتاج إلى أن نذهب أبعد من قراءة الأناجيل لنكتشف كيف يرى يسوع المرأة.

في لوقا 13، كان يسوع يعلّم يوم السبت في مجمع، حين صادف امرأة أقعدها الشيطان ثماني عشرة سنة. ويُقال لنا إنها «كانت منحنية ولم تقدر أن تنتصب البتة. فلما رآها يسوع ...»

والآن، ببطء ...

يسوع ...

رأى ...

المرأة.

وفي موضع سابق من إنجيل لوقا نجد يسوع يحاول أن يساعد رجلًا على أن يرى في امرأة ما يراه هو: «ثم التفت [يسوع] إلى المرأة وقال لـ[الرجل]: "أتنظر هذه المرأة؟"»[764] وسؤاله لا يزال يتردد صداه لكل واحد منا اليوم.

إن نظرة يسوع إلى المرأة المنحنية تذكّرنا برؤية الله لهاجر في سفر التكوين. فكما فعل الله لهاجر، كذلك يفعل يسوع هنا. إنه لا يكتفي بأن يراها. بل يحرّرها. ويستدعي عظمتها. ثم «دعاها وقال لها: "يا امرأة، إنك محلولة من ضعفك"».[765] ويلمسها؛ فتنتصب في الحال، أطول مما كانت في أي وقت، وتمجّد الله!

هل تستطيعون أن تروا الحاضرين يفرحون معها؟

764. لوقا 7: 44
765. لوقا 13: 11-13

ليس بهذه السرعة: فرئيس المجمع يغتاظ لأن يسوع يشفيها يوم السبت. وهذا يُغضب يسوع، فيتهم الرجل بأنه يهتم ببهائمه أكثر مما يهتم بهذه المرأة.

توقفوا هنا.

ها هي امرأة ظلت، قرابة عقدين من الزمن، تحضر هذه الجماعة الإيمانية، مشوّهة ومنحنية من الألم. والقائد الروحي، الذي مهمته أن يرى الناس في جماعته كما يراهم الله، لا يبدو أن حالتها البائسة تزعجه.

ولا يغتاظ إلا حين تنتصب قائمة.

ثم يرسل يسوع موجات صدمة أخرى في الجمع حين يمنح هذه المرأة لقبًا لم يُعطَ من قبل قط: «[إن] هذه [المرأة هي] ابنة إبراهيم». وتعلّق سارة بيسي على هذه اللحظة: «لم يكن الناس قد سمعوا قط إلا عن "أبناء إبراهيم" — ولم يسمعوا أبدًا عن بنات. لكن مع وقع كلمات يسوع "ابنة إبراهيم"، أعطاها مكانًا تقف فيه إلى جانب الأبناء، ولا سيما أولئك الذين كانوا يزمجرون بشعورهم بالملكية والحصرية على كل ذلك.»[766]

وليس اسمها الجديد وحده هو ما يعيد إليها مكانها في عالم الله. بل قامتها المستعادة أيضًا. فيسوع بارع في الأفعال الرمزية. فكّروا في إذلالها، وفي عذابها النفسي وألمها الجسدي. ففي عالم أبوي، كل النساء منحنيات بطريقة ما، يكدحن تحت الفكرة الخاطئة أنهن أحيانًا أقل من الرجال، أو تحت الرجال. وحتى إن رأين أنفسهن مساويات للرجال حقًا، فكثيرًا جدًا ما لا يشعرن بالحرية في أن يمتددن إلى ملء موهبتهن وإسهامهن.

أخبرني مؤخرًا راعٍ نرويجي من الجيل الثالث عن حديثه مع جدّه البالغ من العمر ثمانين عامًا. قال الرجل المحتضر والدموع في عينيه: «لديّ ندم واحد فقط، وما أكثر ما أتمنى أن أعود فأغيّره. لم تُطلَق زوجتي قط إطلاقًا كاملًا في موهبتها. كان يمكنني أن أغيّر ذلك. كان يمكنني أن أواجه الثقافة الكنسية التي أبقتها في الظل.»

ينبغي للخليقة والفداء كليهما أن يستنهضانا لنقف في وجه حيل الآباء المتسلّطين التي تمنح السيادة للرجال وحدهم وتروّض النساء. فبحسب تكوين 1، على أمثال بيتر وسوزان وإدموند ولوسي أن يتسلّطوا جنبًا إلى جنب. والإناث المفديّات يحملن طبيعة أسد يهوذا القائم نفسها. ومع أن كثيرين منا يتنبّهون لخطر ترويض يسوع وتحويله إلى

766. Sarah Bessey, Jesus Feminist، الفصل 1.

حيوان أليف في البيت، فإننا مع ذلك نُخضع أخواته الملكيّات اللواتي يجري فيهن دم الأسد.

وكما فعل يسوع لابنة إبراهيم هذه منذ كل تلك القرون، لا يزال يفعل اليوم: يواجه الذين يفضّلون أن تبقى النساء منحنيات؛ ويأتي بمرهم الشفاء للقصبات المرضوضة؛ ويحوّل الغراس المنحنية إلى أشجار برّ شامخة. وإنه لامتياز ومسؤولية لنا أن نشاركه في هذا العمل المقدس — داعين كل امرأة إلى أن تمتد وتنتصب، إلى جانب الرجال، لتبلغ كل ما يقصده الله لها.

الملحق 1: هل الله ذكر؟

يعلن الله نفسه في الكتاب المقدس بطرق ذكورية في الغالب. وإن كان يسوع هو أسمى إعلان لله عن ذاته، فإن ذكورته تزيد هذا الانطباع لدينا حدة. وكثيرات من النسويات يرفضن الكتاب المقدس على هذا الأساس وحده — فالإله الذكر، بحسب قولهن، هو بوضوح صنيعة أبوية من صنع الرجال، وأداة تحابي تفوّق الذكور وسلطتهم على النساء. وصحيح أن الرجال المسيحيين استخدموا هذا عبر التاريخ حجة لحقهم في البقاء في السلطة. فالكتاب المقدس، في النهاية، معرَّض لأن يُستعمل في دعم هذه النتيجة (كما هو معرَّض لذلك في كل شكل آخر من أشكال الظلم تقريبًا). فهل هناك طريقة لقبول الكتاب المقدس على أنه كلمة الله، بما في ذلك تصويره لـ«ذكورة» الله، دون أن نجعل من النظام الأبوي مثالًا أعلى؟

بالتأكيد! ولكن فقط إن طبّق المرء قراءة متأنية للكتاب المقدس.

لقد رفض معظم اللاهوتيين الجادّين في كل عصر فكرة أن لله أعضاء تناسلية أو أي دلائل أخرى على الذكورة البشرية. فبمعنى ما، ليس الله ذكرًا ولا أنثى، ومع ذلك فهو، في الطريقة التي يختار أن يعلن بها نفسه لنا، ذكر وأنثى معًا. وأفضل دليل على ذلك هو الأصحاح الأول من الكتاب المقدس: «فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم».[767] لاحظوا أن الذكر والأنثى معًا هما اللذان يجسّدان شيئًا من جوهر الله ويعبّران عنه على أفضل وجه. فليس الأمر كأن حامل الصورة الذكر هو نفسه مثل الله، بينما حاملة الصورة الأنثى غريبة عن الله. فالنساء والرجال كلاهما يستمدون جوهرهم من الله، ويرتبطون بشكل ما بشبهه.

صور أنثوية لله

يؤكد معظم قادة الكنائس ووعّاظ الكتاب المقدس أن الله ذكر وأنثى معًا، مع أنه يُعلَن في الكتاب المقدس بطرق ذكورية في الغالب. لكنني لاحظت، في التقاليد الكنسية التي كنت جزءًا منها، أننا كثيرًا جدًا ما نقدّمه بوصفه ذكرًا دائمًا، ولا نقدّمه بوصفه أنثى أبدًا.

767. تكوين 1: 27

وفي الوقت نفسه، يقدّم الكتاب المقدس صورًا أنثوية كثيرة لله. فمارغو هاوتس (Margo Houts) في The IVP Women's Bible Commentary[768] تعرض نماذج من الأوصاف التي يُقدَّم فيها الله أمًّا تلد بني إسرائيل؛ وترضع أولادها؛ ولا تنسى رضيعها؛ وتعزّي أولادها؛ وتنادي صغارها وتعلّمهم وتحملهم وتشفيهم وتطعمهم.[769] وفي مواضع مختلفة من القصة الكتابية، الله خيّاطة تصنع ثيابًا يلبسها إسرائيل؛ وقابلة تحضر ولادة؛ وامرأة ذات سلطة «تتطلع إليها جاريتها طالبة الرحمة»؛ وامرأة تخلط الخميرة في العجين؛ وامرأة في المخاض أنفاسها القوية صورة للقدرة الإلهية.[770] وحين ينظر يسوع إلى الجموع التي ستصلبه عمّا قريب، يصرخ: «يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا!»[771] وبهذا يستخدم لنفسه صورة متكررة لله بوصفه أنثى طائرٍ تحتضن صغارها تحت جناحيها،[772] وكثيرًا ما يُحدَّد بأنه نسر[773]. وفي موضع آخر تُشبَّه محبة الله الضارية بدبّة هائجة: «أصادمهم كدبّة مُثكِل، وأشقّ شغاف قلبهم».[774]

أقرأ حاليًا مع أولادي مقاطع مختارة من الكتاب المقدس. وحين قرأت أول مرة أمثال 8، الذي يشخّص الحكمة امرأةً تولد الخليقة من خلالها، سألتهم أي جزء من الأصحاح أحبّه كل واحد منهم أكثر — فسرّت ابنتي أن تقول إنها أحبّت أن الله امرأة. فصحّحت لها بلطف، وشرحت لها أن المقطع في الواقع يتكلم عن الحكمة بوصفها نوعًا من الشخصيات الوسيطة، ليست الله ولا الخليقة.

ولكن عند مزيد من التأمل، لاحظ بولس نفسه، ومن بعده كثيرون من آباء الكنيسة الأوائل واللاهوتيين القدامى، أن في هذا المقطع ما هو أكثر مما نميل إلى الاعتراف به. فبولس يعلّم صراحة أن يسوع هو «حكمة الله»، وأنه هو «المذخَّر فيه جميع كنوز الحكمة»[775] فالمسيح، تجسّد الحكمة نفسه، هو الله ذاته وهو الذي به خُلقت الخليقة. وبالمثل فسّر أبو الكنيسة إيريناوس (Irenaeus) هذه المرأة الغامضة بأنها جانب من كيان الله، يشير إما إلى الروح القدس وإما إلى يسوع بوصفه الكلمة (وهي إشارة إلى

768. Margo G. Houts, "Images of God as Female," in The IVP Women's Bible Commentary، ص. 356-58. مقتبس لدى Peppiatt، الفصل 1.
769. عدد 11: 12؛ تثنية 32: 18؛ إشعياء 49: 14-15، 66: 12-13؛ هوشع 11: 1-4
770. نحميا 9: 21؛ مزمور 22: 9-10؛ 71: 6؛ إشعياء 66: 9؛ مزمور 123: 4؛ لوقا 13: 20-21؛ إشعياء 42: 14
771. متى 23: 37
772. مزمور 17: 8؛ 36: 7؛ 57: 1؛ 91: 1، 4؛ إشعياء 31: 5
773. تثنية 32: 11-12؛ خروج 19: 4؛ أيوب 39: 27-30
774. هوشع 13: 8
775. 1 كورنثوس 1: 30 وكولوسى 2: 3

يسوع في يوحنا 1: 1-3 وعبرانيين 1: 1-2). لا يمكننا أن نجزم، لكن كون كتّاب العهد الجديد وإيريناوس يربطون تلك الـ«هي» بالابن والروح يتحدى محاولاتنا لمحو أسرار الله، المصوَّرة هنا بطريقة أنثوية.

الله يُناغي

تصارع اللاهوتي المصلح جون كالفن مع الطريقة التي ينسب بها الكتاب المقدس إلى الله «فمًا وأذنين وعينين ويدين وقدمين». وشرح أن هذه لا ينبغي أن تؤخذ حرفيًا: «كما تفعل المرضعات مع الأطفال، "يُناغي" الله حين يكلّمنا. فمثل هذه الصيغ في الكلام لا تعبّر بوضوح عمّا هو الله عليه بقدر ما تكيّف معرفته على قدر استيعابنا الضئيل. ولكي يفعل ذلك لا بدّ أن ينزل إلى ما هو أدنى بكثير من علوّه.»[776]

والمصطلح اللاهوتي لاستعداد الله لأن يقدّم نفسه لعقولنا بطرق بشرية هو التشبيه بالإنسان (anthropomorphism)، ومعناه اتخاذ هيئة بشرية. ويقصد كالفن بكلمة «يكيّف» أن الله ينحني من علوّه الذي لا يُسبَر و«يُناغي»، لكي نبدأ نحن المخلوقات المحدودة بإدراك المزيد عنه. فلدى الله الكثير ليُرينا إياه، لكنه مضطر إلى أن يكتفي بلغتنا وأنماط تفكيرنا ونطاق اختباراتنا البشرية. وهذه التكييفات، مع أنها تكشف الكثير، لا تحيط بكل ما يمكن معرفته عن إله غير محدود وقدّوس هو، بحكم التعريف، أعظم من أن يُحصَر في حدود عقول المخلوقات. صحيح أن الله صاحب كرم، وصخرة ملجأ، ومحارب ضارٍ، وزوج، وأمّ، وأب، وفخّاري، وراعٍ، وبنّاء، وملك — وكل واحدة من هذه تخبرنا بشيء حقيقي عن الله، لكنها لا تخبرنا بـكل شيء عنه. ولا ينبغي أن ندفع هذه الاستعارات أبعد مما يجب — فحتى أفضل التشبيهات لا تنقل كل شيء عن الله نقلًا كاملًا.

وبالمثل، حين يعلن الله نفسه ذكرًا، فهو يُناغي. فبخلاف الآلهة الهندوسية، التي لها جنس بالمعنى الحرفي وقادرة على ممارسة الجنس مع آلهة أخرى، ليس يهوه ذكرًا بالمعنى الحرفي. فذكورته تشبيه. ولكل تشبيه يستخدمه الله حدوده. فعلى سبيل المثال، تُذكر ذراعا الله وعيناه، لكن تشبيه الذكورة لا يقودنا إلى أن نتخيّله أيضًا تحت الخصر. لقد علّم يسوع أن الله روح.[777] ولذلك فليس له جسد ذكر بأعضائه. والاستعارات البشرية ستكون في أحسن الأحوال محاولة لوصف جانب ما من إله هو،

776. John Calvin, Institutes of the Christian Religion, 1.13.1. مقتبس لدى Peppiatt، الفصل 1.
777. يوحنا 4: 24

في الحقيقة، لا يوصف. والصور الذكورية لله المنتشرة جدًا في الكتاب المقدس لا توحي في الواقع بأن لله جنسًا أو جسدًا أو جنسانية، كما أن الكنيسة ليست في الواقع عروسًا عذراء تنتظر زوجها. ومع ذلك فهذا يقودنا إلى سؤال.

لماذا تطغى ذكورة الله إلى هذا الحد؟

إن لم يكن الله ذكرًا في الواقع، فلماذا اختار إذن أن يعلن نفسه في الكتاب المقدس ذكرًا في الغالب؟ لماذا يعلن الله لنا نفسه بصيغة المذكّر (himself) لا بصيغة المؤنث (herself)؟

كل سفر من الأسفار التي يتألف منها الكتاب المقدس كُتب لأجلنا، لكنه لم يُكتب بالضرورة إلينا. فكل كاتب — موسى، عاموس، داود، بطرس — كتب إلى أناس معيّنين في زمن معيّن وفي موقف معيّن. ولا نستطيع أن نفهم كلمة الله لأجلنا إلا بعد أن نفهم فهمًا صحيحًا كلمة الله إليهم. ولهذا، لكي نفهم كلمة الله، نحتاج إلى أن نضع جانبًا حساسيات ثقافتنا وافتراضاتها، وأن نبذل قصارى جهدنا لندخل إلى إطار ثقافتهم. وهذا يقودنا إلى جزء من جوابنا: في معظم مواضع الكتاب المقدس، رأى الله أن الأفضل أن يتكيّف مع ثقافة أبوية قديمة بأن يظهر ذكرًا. واللاهوتي الكندي جون ستاكهاوس يتحدانا أن نفكر في سبب ذلك. وهذا ما يقترحه:

في الكتاب المقدس، يسعى الله إلى إيصال نقطتين رئيسيتين عن نفسه إلى البشر. الأولى أنه متعالٍ، قادر على كل شيء، قائم بذاته؛ الخالق[778] والحافظ لكل شيء، صانع التاريخ، حامي البرّ، ديّان الأرض، مُتمّم الدهور. فكيف يوصل الله هذه النقطة على أفضل وجه إلى الناس في ثقافات العهدين القديم والجديد؟ باستخدام صورة السيد والحاكم والملك والقاضي والمولى — وهي صور لمناصب كان يشغلها الذكور عمومًا في تلك الثقافات.

والنقطة الثانية، المكمِّلة، التي سعى الله إلى إيصالها إلينا هي أنه يهتم اهتمامًا عميقًا بالبشر وببقية الخليقة كذلك. فالله صنعنا، ويعتني بنا، ويؤدّبنا، ويجتذبنا إلى شركة متجددة معه. وعلى وجه الخصوص، يختار الله شعبًا ويعزّه، ويقيم معه عهد رعاية،

778. اسمحوا لي أن أتوسع في فكرة الله بوصفه خالقًا ذكرًا. بما أن العهد القديم يشدد على فكرة أن الله مختلف عن الآلهة الكاذبة، وأنه منخرط في خليقته، ولكنه متميّز عنها، فإن إعلان الله المكيَّف بوصفه خالقًا ذكرًا يوصل الفكرة على نحو أفضل مما لو كان الله خالقًا أنثى. ففي التناسل مثلًا، تخلق الأمهات الحياة من داخلهن، بحيث إن هذه الاستعارة كانت ستؤدي إلى ضياع الفصل القاطع بين الخالق والخليقة.

ويسعى إلى أن يصوغ معه رباطًا أبديًا من التكريس الأمين المتبادل. فكيف يوصل هذا إلى الناس في ثقافات العهدين القديم والجديد؟ باستخدام صورة المحبّ — صورة الوالد، نعم، ولكن أكثر من ذلك صورة الخاطب والزوج. والجمع بين فكرتي السيد والمحبّ يتطلب بالتأكيد صورًا ذكورية في معظم الأحيان. ففي الثقافات التي كان الرجال فيها يأخذون المبادرة في الخطبة، وكان عليهم أن يتودّدوا إلى العروس ويفوزوا بها (عادة بموافقة والديها)، كانت صورة الخاطب الذكر هي الأكثر طبيعية. وفي الثقافات التي كان الأزواج والآباء فيها يحكمون بيوتهم ويعولونها ماديًا ويدافعون عنها، كانت الصورة الذكورية هي الأكثر طبيعية.

في «المناغاة» قد يُساء فهم المتكلم. فالتكييف هو المخاطرة التي يقبلها الله. وتكييفه إعلانَه عن ذاته على قدر أنماط تفكيرنا وأفهامنا الثقافية لا يعني أنه يقرّها إقرارًا تامًا. فعلى سبيل المثال، كون الله يعلن نفسه ملكًا لا يعني أن الحكم الملكي أفضل من الحكم الديمقراطي. بل يُظهر فقط إلى أي مدى يذهب الله ليلاقينا حيث نحن.

ويمكن قول الشيء نفسه عن إعلان الله عن ذاته — وهنا تُستخدم الصور الذكورية مرة أخرى — آبًا وابنًا. فعلاقة الآب والابن هذه استعارة قوية وغنية للطرق التي يكون فيها يسوع فعّالًا جدًا في إعلان يهوه؛ وللطريقة التي يصوّر بها العهد القديم إسرائيل والملك الموعود من نسل داود كليهما بوصفه «ابن الله»؛ وللعلاقة الوثيقة التي يتشاركها الابن والآب (وللطريقة التي نُستقبَل بها نحن، إخوة يسوع وأخواته بالتبنّي، في رعاية الآب). لكن هذا يبقى تشبيهًا. فليس كل بُعد من أبعاد الاستعارة صحيحًا — فالآب ليس أبًا حرفيًا لابن وُلد بتناسل جنسي.

«ستلدين ابنًا»[779]

هذه كلمات جبرائيل للعذراء مريم. وبعد آلاف السنين، قد يقود تحقيق تلك الكلمات — أي كون يسوع ابنًا لا ابنة — إلى استنتاج أن الله يقرّ النظام الأبوي. فإلى الأبد، المخلّص والرب الوحيد الذي لنا ذكر.

حين يحاول الرسول يوحنا أن يصف أعظم عمل إعلاني قام به الله، يقول: «والكلمة صار جسدًا».[780] فعطية الله الرئيسية للجنس البشري هي شخص. وفي تلك السنوات الثلاث والثلاثين على الأرض، فاق حضور يسوع المتجسّد معنا، بوصفه يهوديًا من

779. كلمات جبرائيل للعذراء مريم في لوقا 1: 31
780. يوحنا 1: 14

الناصرة، كل الطرق الأخرى التي أعلن الله بها نفسه، لأن يسوع هو تواصل الله المباشر غير المتوسَّط. وهذا تشبيه بالإنسان حرفي — فقد أخذ الله فعلًا عينين ويدين وفمًا وجسدًا ذكرًا.

فلماذا كان يسوع ذكرًا إذن؟[781]

ربما لأن ذلك، في عالم أبوي، كان يعكس على نحو أفضل هويته ربًّا للكنيسة وعريسًا لها، وقدرته على أن يعول ويحمي. وذكورة يسوع أيضًا تبلغ بموضوعات من العهد القديم إلى ذروتها، وهي موضوعات تُعلن المسيّا رأسًا لبشرية جديدة (آدم الجديد)، ولخروج جديد (موسى الجديد)، ولمملكة جديدة (داود الجديد). وذكورته تدعم أثر اختياره أن يكون خادمًا لنا. ففي ثقافة الشرف والعار التي دخلها ابن الله، كانت النساء أصلًا خاضعات للرجال. وكان المخلّص الذكر أقدر على هزيمة هياكل السلطة الكامنة فيها: فهو يخلّص بأن يضع سلطانه جانبًا ويأخذ طوعًا دور الخادم، الذي يضع قدراته جانبًا ليخلّصنا ويخدمنا جميعًا.

وفيما يتجاوز هذه الموضوعات الكتابية والحقائق السياقية، لا ينبغي أن نبالغ في معنى ذكورة يسوع. ومن جهة أخرى، لا ينبغي أيضًا أن نعامله ككائن خنثوي. ومع ذلك، حين صار ابن الله واحدًا منا، لم يكن يأخذ الذكورة بقدر ما كان يأخذ الطبيعة البشرية. فمن الناحية اللاهوتية، أكدت الكنيسة دائمًا أن يسوع لم يكن يتّخذ الجنسانية الذكرية بقدر ما كان يتّخذ الطبيعة البشرية بكاملها، ذكرًا كانت أم أنثى. ولهذا فهو قادر على أن يخلّص، في جسده الأرضي المصلوب والقائم، الذكور والإناث على السواء. ولهذا يستطيع الرجال والنساء كلاهما أن يكونوا جزءًا من جسده الروحي، الكنيسة.

ومن الخطأ أن نختزل معنى ابن الله في جسديته وحياته الأرضية. فقد نقرأ الأناجيل قراءة سريعة من فوق، لكن يفوتنا مع ذلك الكثير عنه. قد يكون يسوع أهم ما نعرفه عن الله، ولكن كم نعرف حقًا عن ابن الله؟ حتى التلاميذ الذين مشوا معه وتحدثوا معه أدركوا أنهم إنما يلامسون سطح الشخص الذي أمامهم. خذوا التجلّي مثلًا: قبل أن يتغيّر يسوع أمام أعينهم، ربما عرفوه يهوديًا من اليهودية يصنع المعجزات. لكن بعد ذلك صاروا يقولون: «قد كنا معاينين عظمته»، و«الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد، الإله، الذي هو في حضن الآب هو خبّر».[782] وتتأمل لوسي بيبيات في اختبار التلاميذ وفي معناه لنا: «يمكننا أن نقول إن في يسوع أكثر مما تراه العين. ... لذلك نحتاج إلى

781. أشكر لوسي بيبيات على فصلها الأول في "Rediscovering Scripture's Vision of Women"، الذي ساعدني في الجواب الذي يلي عن هذا السؤال.
782. 2 بطرس 1: 16 ويوحنا 1: 18

أن نحرص على أن نقدّم يسوع بطريقة لا يُختزَل فيها الكلمة الذي يأتي في الجسد إلى الجسد. ... باختصار، نحن نعلم الآن أننا نعرف بعض المعرفة، وننظر كما في مرآة، في لغز.»[783] صحيح أن يسوع على الأرض هو إعلان الله الأساسي عن ذاته، لكن من المؤكد أنه ليس صحيحًا أن جسد يسوع الأرضي هو إعلان الله الحصري عن ذاته. ففي ابن الله أكثر بكثير من ذكورة يسوع، وهذه حقيقة تساعدنا على أن نفكر بتأنٍّ في اعتراض شائع على قيادة المرأة في الكنيسة.

هل يمثّل القائدُ الذكرُ المسيحَ الذكرَ تمثيلًا أفضل؟

بعض الكنائس البروتستانتية، ومعظم الكنائس الكاثوليكية، تقدّم هذه الحجة لإقصاء الإناث عن القيادة الكنسية العليا أو عن الكهنوت: «الذكر، بحكم ذكورته، يقوم بعمل أفضل في تمثيل يسوع أمام الكنيسة.»

والسبب الذي يجعل الكاثوليك يتبنّون هذا الرأي هو أن الكاهن في تقليدهم يؤدي دور الوسيط بين الله والجماعة. وخصوصًا حين يترأس الإفخارستيا، فإن الكاهن يمثّل المسيح.[784]

وحتى لو كنت أعتنق فكرة أن الراعي/الكاهن يمثّل يسوع تمثيلًا خاصًا (وأنا لا أعتنقها، لأنه لا أساس لها في الكتاب المقدس)، لظلّت الحجة غير متماسكة. فلماذا يجب أن تُجسَّد ذكورة يسوع في القائد الكنسي، ولا تُجسَّد أيضًا يهوديته (فيُقصى بذلك الأمم)، أو سلامة جسده (فيُقصى بذلك ذوو الإعاقة)، أو عزوبيته (فيُقصى بذلك المتزوجون)؟ (وبالمناسبة، فإن البند الأخير في القائمة هو بالفعل حجة رئيسية لـبتولية الكهنة في الكاثوليكية.[785]) ومع أن الكاثوليكية تستمد عقائدها لا من الكتاب المقدس فقط، بل من آباء الكنيسة أيضًا، فإن هذه الفكرة غير موجودة في أي مكان حتى في كتابات آباء الكنيسة.[786]

783. Lucy Peppiatt, Rediscovering Scripture’s Vision for Women، الفصل 1.
784. تُسمّى هذه العقيدة «in persona Christi» (في شخص المسيح).
785. الفضل لجون ستاكهاوس في “Finally Feminist” في هذه الحجة.
786. «هناك مقطع واحد (لدى كبريانوس [Cyprian]) استُند إليه بوصفه مثالًا مبكرًا على لاهوت للخدمة الكهنوتية المرسومة يقوم على مبدأ in persona Christi، لكن هذه، بشبه يقين، قراءة خاطئة.» وادعاء الكاردينال راتسينغر (Ratzinger) في “Responsum Ad Propositum Dubiu” أن العقيدة «مؤسسة على كلمة الله المكتوبة، ومحفوظة ومطبّقة باستمرار منذ البدء في تقليد الكنيسة» يفتقر إلى سند يمكن التحقق منه. وقد أُدخل هذا التعليم أول مرة فى العصور الوسطى على يد توما الأكوينى. (William Witt, Icons of Christ، الفصل 10.)

والأهم من ذلك كله أن الادعاء بأن القائد الذكر يمثّل المسيح الذكر تمثيلًا أفضل يخفق في التمييز بين الكاهن/القائد الكنسي بوصفه ممثِّلًا للمسيح وبين كونه تمثيلًا للمسيح، أي شبهًا جسديًا به. فلا يوجد سند كتابي للقول بأن القائد أو الواعظ يحتاج إلى أن يشبه يسوع جسديًا — بينما توجد أدلة كتابية وفيرة على أن أي شخص يمكن أن يكون ممثِّلًا ليسوع بوصفه الناطق باسمه.[787]

787. انظروا مثلًا 1 بطرس 4: 11، الذى يستخدم كلمة «أحد» (anyone) — وهى لفظة تشمل الجنسين.

الملحق 2: آدم وحواء قبل السقوط (تابع)

عندما يقرّر القارئ مسبقًا أن جزءًا قصصيًا من الكتاب المقدس يعلّم أمرًا ما، حتى لو لم يكن يعلّمه، يصبح من الممكن أن يدعم هذا الاستنتاج المسبق بالتخمين في شتّى أنواع الاستنتاجات التي تتجاوز التعليم الواضح للنص. في الفصل 4 عرضتُ خمسة استنتاجات شائعة يُقحمها الباحثون التكامليون على تكوين 2-3، وانتقدتُها. وفي هذا الملحق سأردّ على بضع حجج أخرى شائعة.

«خلق الله "الإنسان" (MAN) على صورته»

يحتجّ بعض التكامليين بأنه بما أن الجنس البشري يُسمّى "man" (رجل/إنسان) (في تكوين 1: 27)، فلا بدّ أن الله يفضّل أن يقود الرجالُ لا النساءُ. هكذا يحتجّ راي أورتلوند (Ray Ortlund): «تسمية الله الجنسَ البشري "man" تهمس برئاسة الرجل». غير أن هذه الحجة لا تقرأ نصّها البرهاني في سياقه. أولًا، تغفل السياق الأدبي. صحيح أن تكوين 1: 27 يقول: «فخلق الله الإنسان (man، أو mankind) على صورته». لكن الآية نفسها توضّح أن "man" يشمل الذكر والأنثى معًا.[788]

ثانيًا، تغفل السياق المتمركز حول الذكر (androcentric). فكلمة الله تأتينا في القالب اللغوي لثقافة نموذجية من ثقافات الشرق الأدنى القديم، كانت الأسماء المذكّرة فيها تُستعمل كثيرًا للدلالة على الجنسين كليهما. وفي العقود القليلة الماضية حلّت محلّ الكلمة "mankind" الكلمةُ الأشمل "humankind" (البشر). وذلك لأننا نعيش في عصر جديد تُنقّى فيه اللغة نفسها من نزعاتها المتمركزة حول الذكر. أما القرّاء الأوائل فكانوا يعيشون في ثقافة كانت فيها اللغة المتمركزة حول الذكر أمرًا طبيعيًا لا يُسأل عنه.

ثالثًا، منطقها معيب. فالكلمة العبرية ha'adam (التي ينبغي ألا تُخلط بالاسم آدم أو بالكلمة الدالة على الذكر) في تكوين 1 تعني البشر، لا جنس الذكور. لو قصد الله بـha'adam «جنس الذكور» (وهو لم يقصد ذلك)، لجعل ذلك المرأةَ مجرّد فكرة لاحقة، أو شيئًا أدنى من الإنسان. ومع ذلك لا يؤمن أيّ من التكامليين بهذا الآن — فقبل

788. انظروا أيضًا تكوين 5: 2، حيث يشير الاسم "man" (أو "mankind") إلى الجنسين كليهما.

ستينيات القرن العشرين كان الاعتقاد السائد أن النساء أدنى، أما اليوم فلم يعد الأمر كذلك؛ وهذا ما يجعل من الغريب والاعتباطي وغير المتّسق أن يحتجّوا بعد ذلك، كما يفعل أورتلوند، بأن هذا لا يعني دونيّة المرأة، بل مكانتها التابعة فقط.

آدم يمثّل الجنس البشري

في الجنة قبل السقوط، كان هناك وقت وُجد فيه آدم بوصفه الإنسان الوحيد، ولذلك كان في ذلك الوقت يمثّل البشرية كلّها الآتية بعده — كلّ الذين هم «في آدم». بل يمكن للمرء أن يستخلص من تكوين 2 أن حواء نفسها كانت «في آدم». فمثلًا، جسدها مأخوذ من جسده (كما هي أجسادنا أيضًا). وكذلك، مع أن الله أعطى الوصية للرجل قبل أن توجد حواء، فقد كانت مسؤولة أمام الله عن إخفاقها في حفظها. ومع أن آدم وحده صدر عليه الحكم بالموت ثم بالطرد في تكوين 3، فقد خرجت حواء أيضًا من الجنة في خزي، وعادت إلى التراب — فمن الواضح أنها هي أيضًا ماتت «في آدم».

ولعلّ هذا هو السبب في أن دور آدم التمثيلي يكتسب أهمية رمزية خاصة في كتابات بولس، حيث يُبرز مرتين دور آدم في تمثيل البشرية كلها في اختياراته: «بمعصية الإنسان الواحد جُعل الكثيرون خطاة»، و«لأنه كما في آدم يموت الجميع ...»[789]

هل يعني هذا أن بولس يرى آدم ممثّلًا وحيدًا للبشر في إخفاقه؟ ربما لا — فقد لا يستبعد فكرة أن حواء شاركته في تمثيل البشرية اللاحقة.[790] ولكن إن افترضنا أن بولس يشير فعلًا إلى آدم بوصفه الممثّل الوحيد، فماذا نستنتج من ذلك؟ هل آدم إذن — كما يزعم بعض التكامليين — قائد البشر وقائد حواء؟

كلا. فدور آدم التمثيلي لا يقول شيئًا عن أيّ سلطة وظيفية مزعومة له على حواء. وإن كانت في سفر التكوين تلميحات إلى دور فريد لآدم، فهي أنه الإنسان الأول على الإطلاق، النموذج الأول لنا جميعًا — رجالًا ونساءً، بمن في ذلك المرأة الأولى حواء.

كونه السبّاق لا يعني أنه ملك على كل البشر الذين جاؤوا بعده، ولا على حواء أيضًا. واستنتاج أن آدم كان قائد البشر (أو قائد حواء) من كونه ممثّلًا لهم هو خلطٌ خاطئ بين

789. رومية 5: 9؛ 1 كورنثوس 15: 22

790. ربما يختار بولس آدم ببساطة، لا حواء، لا لأنه ممثّل البشرية كلها، بل لأنه يعقد مقارنة بينه وبين يسوع، فيكون من الأنسب أن يختار الذي هو ذكر أيضًا، والأول من نوعه. وكذلك قد يشير بولس إلى آدم قبل أن «يتكاثر» إلى آدم وحواء — فمع أن آدم وحواء كليهما أخطآ، فإن «آدم» اختصار لـ«آدم-وحواء»، الأبوين المتّحدين للجنس البشري.

فئات لاهوتية مختلفة. فالتمثيل ليس هو القيادة على الإطلاق.

قد يمثّل آدم حواء، لكنه ليس الحاكم على حواء ولا علينا. وللتوضيح: عندما حارب داود الشاب جليات بوصفه ممثّلًا لإسرائيل، لم يكن بعدُ قائدهم. بل كان شاول هو القائد. (ولم يصبح داود ملكًا إلا بعد عقود.) وبالطريقة نفسها، لم يكن آدم الحاكم الذي يملك على حواء (أو على أيّ أحد آخر)، مع أنه كان الممثّل الساقط أو النموذج الأول لحواء (ولكل أحد آخر).

والأهمّ من ذلك كله أن آدم لم يعد ممثّلنا. ففي كلا المقطعين يقابل بولس بين آدم ممثّلنا الساقط والمسيح سابقنا المُقام. ربما نشأ الموت والنظام الأبوي من سقوط آدم، لكن فداء العلاقة بين الجنسين يبدأ من قيامة يسوع من بين الأموات.

حجج أخرى لسلطة آدم على حواء

إن الالتزام اللاهوتي المسبق بالاعتقاد أن آدم كان بطريقة ما صاحب الأمر على حواء قبل السقوط يولّد أربع حجج أخرى، كلها قائمة على التخمين:

آدم وحده يتكلّم في الجنة. فهو يعلن أنها عظم من عظامه ولحم من لحمه، ولا تقول هي شيئًا في المقابل. ويقول بعض التكامليين إن هذا يدلّ ضمنًا على قيادته لحواء. فهو يبادر إلى العلاقة، وهي تتلقّى مبادرته. غير أن هذا يحجب مجرى القصة الذي نرى فيه آدم، قبل أن تُخلق حواء، يبحث عن شريكته المناسبة. فلا عجب أن يكون لديه ما يقوله حين يجدها أخيرًا! وليس في ما يقوله أيّ شيء يدلّ على قيادة أو سلطة، بل على التعرّف والفرح فقط. وأن نقرأ فيه أكثر من ذلك هو بالضبط ما تقوله العبارة — أن نُقحم عليه أكثر مما يقدّمه النص. ثم إن كون آدم وحده يتكلّم في تكوين 2 (قبل السقوط) لا يكشف عن قيادته للمرأة، تمامًا كما أن كون حواء وحدها تتكلّم في تكوين 4 (بعد السقوط) لا يدلّ على قيادتها للرجل.

الله يعطي الوصية لآدم لا لحواء. يحتجّ التكامليون بأنه، مع أن ذلك غير مذكور صراحةً، يبدو أن على آدم مسؤولية أن يعلّم زوجته الوصية التي تلقّاها من الله حين تأتي إلى الوجود — ولذلك فهو قائدها. وحتى لو كان هذا صحيحًا، فإن كونك في موقع يتيح لك نقل معلومة، حتى لو كانت وصية سمعتها، لا يجعلك في ذاته صاحب سلطة على الشخص الذي تُبلغه بها. وبحسب هذه الحجة، تكون الزوجة التي تسمع الإنجيل قبل زوجها قائدةً له. لكن المشكلة الكبرى في هذه الحجة أنها غير صحيحة. فإذا قرأنا

الصياغة العبرية بعناية، نجد أن تكوين 3: 3 يدلّ ضمنًا على أن الله كرّر الوصية التي أعطاها لآدم من قبل، وهذه المرة في حضور حواء، لأنها تقول للحيّة: «قال الله: "لا تأكلا [مثنّى] من ثمرها ... ولا تمسّاه [مثنّى]، لئلا تموتا [مثنّى]"».

تكوين 2: 24 يقول إن «الرجل يترك أباه وأمه» ليتزوّج. يقول بعض التكامليين إن هذا يعني ضمنًا أنه يخرج من تحت السلطة ليصبح رأس العائلة الجديد. ولكن ما أغرب أن يترك الرجل أمّه وأباه — ففي الثقافات الأبوية القديمة كانت النساء هنّ اللواتي يتركن بيوتهن اعترافًا بسلطة الزوج. وهذا النص يقلب ذلك. والواضح أن الرجل، في عائلته السابقة، كان تحت سلطة أبيه وأمّه.

جوهر السقوط كان انقلابًا في أدوار الجنسين. هذه الحجة، التي طرحها في البداية مؤسّس التكاملية جورج نايت سنة 1977، تناولتُها في الفصل 7 تحت عنوان «حواء خُدعت، لا آدم». وما سأقوله هنا هو أن المأساة في الجنة لم تكن أن حواء كان يُفترض أن تقف تحت آدم بوصفها تابعة له، فأخذت مكانه بدلًا من ذلك. فبالقراءة الصحيحة، كانت الكارثة أنها كان يُفترض أن تقف إلى جانب آدم شريكةً ومعينةً له، لكنها بدلًا من ذلك أطعمته سمًّا.

ما هو صريح ينبغي أن يحدّ ما يمكن استنتاجه

دعوني أوسّع زاوية النظر وألاحظ أهمّ الأفكار في هذا الملحق وفي الفصل 4، «شراكة صُنعت في الفردوس».

القصص الكتابية معرّضة بشكل خاص لسوء التفسير. بل إن كل الحجج التكاملية لقيادة آدم المزعومة لحواء في تكوين 2 و3 مُقحَمة على قصة شحيحة التفاصيل.

ولحسن الحظ، كثيرًا ما يُدرج كتّاب القصص الكتابية في نصوصهم بعض الضوابط التفسيرية. ففي حالة تكوين 1-3 هناك عبارات منسوجة في القصة تُعدّ إطارًا لما يمكن، وما لا ينبغي، أن يُستنتج من القصة بشأن الرجال والنساء.

تأمّلوا ما يعلّمه تكوين 1-3 صراحةً عن العلاقة بين الجنسين:

- خُلق الرجل ليتسلّط على الأرض إلى جانب المرأة (1: 26-28).
- أُعطيت المرأة للرجل شريكةً ونظيرةً له في التسلّط على عدن/الأرض (2: 18، 23-25).

- بعد السقوط، سيسود الرجل الآن على المرأة (3: 16).

لذلك ينبغي التخلّي عن كل الحجج المبنية على تلميحات مزعومة في قصة التكوين، والتي تُخضع النساء للرجال كأنّ ذلك نوع من مثال الخالق.

هل ترون ما يعنيه هذا؟ يقول غرودم إن أنصار التبادلية قد يشتكون من أنه «ليس من العدل أن يكون للرجال دور قيادي ... لمجرّد أنهم رجال. ولكن إن كان هذا مبنيًّا على توزيع الله للأدوار منذ البدء، فهو عادل».[791]

ولكن إن لم يوزّع الله أيّ «أدوار منذ البدء» من هذا النوع، أدوار سلطة وخضوع، فذلك ظلمٌ فعلًا. فحين تستبعد الكنيسة النساء من القيادة لأنهن نساء، من دون أسباب ظرفية خاصة تدعو إلى ذلك، فإنها تعكس أمام عالم يراقبها صورةً سيئة عن الإله الذي ندّعي أننا نخدمه، الإله الذي «ليس عنده محاباة».[792]

791. Wayne Grudem, Evangelical Feminism and Biblical Truth، الفصل 1.
792. رومية 2: 11

الملحق 3: ماذا تعني KEPHALĒ

ماذا يقصد بولس حين يستعمل الكلمة اليونانية kephalē؟ في الإنجليزية الحديثة، كثيرًا ما تعني كلمة "head" (رأس)، حين تُستعمل مجازيًا، السلطةَ، كما أن المدير التنفيذي هو رأس الشركة، أو الضابط القائد هو رأس الفصيلة. ثم إننا، نحن المعاصرين، حين نتصوّر رأسًا حرفيًا لجسد حرفي، نفترض أن الرأس، الذي يحتوي الدماغ، هو لذلك مركز التحكّم في الجسد. فهو يرسل الأوامر إلى الجسد عبر الجهاز العصبي. والسؤال الذي يجب أن نطرحه هو: ماذا قصد بولس حين اختار كلمة kephalē، وماذا كان قرّاؤه الأصليون سيفهمون منها؟

حين أتتبّع سنوات الجدل والأخذ والردّ بين الباحثين من كل الأطراف، أجد أن غرودم يحتجّ بأن الكلمة تعني دائمًا تقريبًا السلطة على، في حين يحتجّ باحثون آخرون بأنها نادرًا ما تعني ذلك، هذا إن عنته أصلًا. وأنا أنتهي إلى أنها في زمن بولس، وبالتأكيد في استعمال بولس، لم تكن تدلّ على السلطة إلا في مناسبات نادرة.[793] وككل

793. كيف كانت الكلمة اليونانية kephale تُستعمل قبل القرن الأول وخلاله في العالم اليوناني الروماني؟ كانت تشير في كل الحالات تقريبًا إلى رأس جسدي حرفي، وإن كانت تُستعمل أحيانًا مجازيًا. ويختلف أفضل الباحثين في الاستعمالات المجازية للكلمة، ويرجع ذلك أساسًا إلى أن الكلمة المجازية تبدو مستعملة بطرق كثيرة مختلفة: 1) في القرن الأول كانت تشير في الغالب إلى الشخص الأبرز الذي يؤدّي دورًا تمثيليًا (كما أن رأس الإنسان هو الممثّل الظاهر للجسد كله). وبهذا المعنى تعني «الأبرز». 2) وبصورة أندر، كانت تشير إلى من هو في موقع «السلطة» (كما أن الدماغ يوجّه الجسد). 3) ونادرًا أيضًا، كانت تشير إلى من يقدّم الغذاء أو الوجود (كما أن الفم يغذّي الجسد، أو كما أن الرأس يموت بلا جسد). وبهذا المعنى تعني «المصدر». ولكن كيف استعملها بولس؟ حتى سبعينيات القرن العشرين افترض معظم علماء الكتاب المقدس أن بولس قصد «السلطة» — لكن يمكن أن يُعزى هذا إلى 1) أن الكلمة الدالة على الرأس في اللغات اللاتينية والألمانية والإنجليزية (وهي اللغات الرئيسية التي نشأ فيها اللاهوت التاريخي) تشير إلى صاحب السلطة، و2) أن الكنيسة، مثل المجتمع، كانت تؤمن حتى ستينيات القرن العشرين بدونيّة المرأة، ولذلك كانت تبعية المرأة أمرًا مفترضًا لا يُسأل عنه. وكما يتجلّى في التفسير الرائد الذي وضعه غوردون في على 1 كورنثوس، حدث في الربع الأخير من القرن الماضي تحوّل كبير في رأي الباحثين نحو معنى «المصدر». لكن رأي الباحثين تحوّل مرة أخرى نحو معنى «الشخص الأبرز» — كما يشهد على ذلك التفسير المرجعي المماثل على 1 كورنثوس الذي وضعه أنتوني ثيسلتون. غير أن ثيسلتون، مع أنه مقتنع مثل غوردون في بأن بولس لا يقصد «السلطة»، يختار «الشخص الأبرز» على «المصدر»، لكنه يعترف بأنه هو وفريق زملائه الباحثين اتخذوا هذا الخيار بهامش «ضئيل». وبعد أن درستُ كل الحجج، أتّفق مع غوردون في وثيسلتون على أنها لا تعني «السلطة»، وأتفهّم ملاحظة ثيسلتون أنها، خارج كتابات بولس، نادرًا ما كانت تُستعمل في القرن الأول بمعنى «المصدر». غير أنني، بمساعدة العمل الحديث لسينثيا وستفول في «Paul and Gender»، أجد نفسي متّفقًا مع غوردون في على أن بولس يقصد «المصدر»، بمعنى «الشخص الذي يستمدّ منه آخر وجوده أو إمداده». ومن الواضح أن استعمال بولس المجازي للكلمة كان جديدًا، لا سيّما لأنه، بخلاف كل الكتّاب اليونانيين القدماء الآخرين، طبّقها بشكل فريد على العلاقة بين الرجال والنساء، وبين الزوج وزوجته. وكذلك فإن معنى «المصدر» في كلٍّ من 1 كورنثوس 11: 3 وأفسس 5: 23 هو الذي يجعل المقاطع التي تليهما مفهومة على أفضل وجه. وقد يتضمّن 1 كورنثوس 11: 3 ظلّ معنى «الشخص الأبرز»، لأن بولس في الآيات التالية يشدّد على الإكرام الواجب لرؤوس المرء الحرفية والمجازية. وفي أفسس 5: 25 يشير بولس إلى الزوج اليوناني الروماني القديم بوصفه kephale، وكان هؤلاء الأزواج القدماء بالفعل أصحاب الأمر على زوجاتهم، لكن لا يجوز لنا أن نخلط بين الكلمة نفسها والشخص الذي تشير إليه — انظروا «الموقف 4: الزوج ربّ الأسرة المفدىّ (paterfamilias)» في الفصل 8 للمزيد.

الاستعارات، يمكن أن يكون لها معنى مختلف في سياقات مختلفة، وربما تتضمّن في بعضها فكرة السلطة. ومع ذلك، اسمحوا لي أن أعرض الحجج التي تبيّن لماذا يكون هذا معنًى نادرًا جدًا.

في زمن بولس، كان للكلمة اليونانية الدالة على رأس الإنسان الجسدي معنى مجازي يختلف عن معنى كلمتنا الإنجليزية. ففي القرون السابقة لميلاد بولس، كان الرأس يُفهم أحيانًا على أنه مصدر الحياة للجسد. فقد علّم أرسطو أن الرأس مثل نبع أو مصدر إمداد للجسد كله،[794] وهي نظرة شاركه فيها كثير من الكتّاب في الطب. فمثلًا علّم فيثاغورس (Pythagoras) أن الرأس الجسدي هو مصدر المنيّ عند الذكر، الذي ينزل عبر الحبل الشوكي إلى الأعضاء التناسلية. وزعم فيلون، وهو معلّم يهودي ناطق باليونانية، أن الرأس يستمدّ القوة من السماء ويوزّع قوّته الحيوية على الجسد كله.[795] فحين كان اليونانيون القدماء يتحدّثون عن شخص بوصفه «رأسًا» لآخر أو لجماعة من الناس، لم يكن ذلك بالضرورة إشارة إليه بوصفه صاحب سلطة، بل الأرجح إشارة إلى كونه مصدر حياة أو أصلًا تحدّروا منه.

الكلمة العبرية الدالة على رأس الإنسان هي rosh، وكما في الإنجليزية، كانت تعني في العبرية السلطةَ حين تُستعمل مجازيًا. والمثير للاهتمام إذن أن الكتب المقدسة العبرية تُرجمت قبل زمن بولس إلى اللغة اليونانية (في ما يُسمّى الترجمة السبعينية أو LXX). وقد درست سينثيا وستفول المواضع الـ171 في السبعينية التي يثبت فيها بشكل موثوق أن الكلمة rosh تعني السلطة، ولاحظت أن المترجمين اليونانيين لا يستعملون كلمة kephalē إلا أربع مرات، ويختارون في كل الحالات تقريبًا كلمات يونانية أخرى تدلّ على السلطة بوضوح أكبر.[796]

فكّروا في ذلك. كان المترجمون اليونانيون يقرؤون الكلمة العبرية rosh، فإذا كانت تشير إلى رأس جسدي اختاروا kephalē. أما في 97.7% من الحالات التي تشير فيها

794. Aristotle, Problems 10 867a

795. «الإنسان الفاضل سيكون kephale الجنس البشري، وكل الآخرين مثل أعضاء تستمدّ حياتها من قوى الرأس». (Philo Det. Pol. Ins. 85)

796. يبلغ أحدث إحصاء لغرودم 14 موضعًا. غير أن وستفول قالت لي في مراسلة معها ما يلي: «يحتجّ غرودم بأن بولس تأثّر بمقاطع في السبعينية تُرجمت فيها rosh بـkephalē حيث كانت تعني السلطة. فمن بين 171 موضعًا يبدو فيها أن rosh تشير إلى "السلطة" في الكتاب المقدس العبري، لم تكن هناك إلا أربعة مقاطع تُرجمت فيها إلى kephalē من دون قراءات مختلفة (2 صموئيل 22: 44؛ مزامير 18: 43 [17: 44 LXX]؛ إرميا 31: 7 [7 :38 LXX]؛ مراثي إرميا 1: 5). وقد تكون هذه المواضع خيارات ترجمة رديئة من مترجمي السبعينية (عبرانيات)، أو قد يعكس بعضها علاقة تكافلية بين ملك قديم وشعبه أو أرضه. وليس لهذه المقاطع الأربعة أيّ روابط تناصّية أو دلالية باستعمال بولس لـkephalē، ولذلك فإن حجة غرودم بأن مقاطع السبعينية تفسّر استعمال بولس لـkephalē غير مقنعة». ويدعم مقال ر. س. سيرفين (R.S. Cervin) استنتاج وستفول: «لقد بولغ في تقدير السبعينية دليلًا على أن kephalē تحمل معنى القائد أو السلطة». انظروا www.bit.ly/3GOWjqB

rosh مجازيًا إلى شخص ذي سلطة، فقد اختاروا بدلًا منها كلمات يونانية أخرى.[797] ومعنى هذا أن السلطة لم تكن معنًى مجازيًا شائعًا لكلمة kephalē في أذهان اليونانيين قبيل زمن بولس، وإلا لكانت هي الكلمة الأكثر طبيعية في الاستعمال. وهذا أمر معروف على نطاق واسع. فمعجم The LSJ Greek–English Lexicon، وهو أشمل معجم لليونانية القديمة بين أيدينا، يذكر 48 معنًى مجازيًا ممكنًا — وليس بينها معنى واحد هو السلطة. ويحذو حذوه المعجم الحديث Cambridge Greek Lexicon.[798]

وحين ندرس استعمالات بولس المجازية العديدة للكلمة، يتّضح أنه يعرف هذا. فبما أنه نشأ يهوديًا من يهود الشتات في آسيا الصغرى، لا بدّ أنه كان متمرّسًا في التعابير اليونانية والفكر اليوناني. وهو أيضًا يكتب رسائله إلى أناس ناطقين باليونانية. وبصفته الكاتب الكتابي الوحيد الذي يستعمل الكلمة مجازيًا، فهو يستعملها في الغالب جزءًا من تشبيه الرأس والجسد، حيث يُتحدَّث عن يسوع بوصفه مصدر الحياة الذي ترتبط به الكنيسة ارتباطًا عضويًا بالخلاص وبالروح. اسمعوا كيف يعبّر عن ذلك في أفسس 4: 15-16: «[ف]ننمو لنصير من كل وجه الجسدَ الناضج لذاك الذي هو الرأس، أي المسيح. الذي منه كل الجسد ... ينمو ويبني نفسه في المحبة». ثم يقول بولس في كولوسي 2: 19 إن لنا «اتصالًا بالرأس، الذي منه كل الجسد، مدعومًا ومتماسكًا بمفاصله وربطه، ينمو كما يُنميه الله». وبعبارة أخرى، حين يشرح بولس استعارة الرأس والجسد، فإن يسوع الرأس يمنح جسده، الكنيسة، على وجه التحديد النموَّ والاتصال، المحبة والحياة، القوت والقوة. ونحن المعاصرين، بفهمنا نحن للوظيفة التنفيذية للدماغ، نفترض أن بولس سيشير أيضًا إلى ما يقدّمه يسوع من قيادة وتوجيه. غير أن بولس، بفهمه هو للرأس، لا يفعل ذلك.

أما غرودم، فمع أنه يعترف بأن استعارة الرأس والجسد قد تتضمّن فكرة «المصدر»،[799] فإنه يعترض على فكرة أن kephalē نادرًا ما كانت تعني السلطة، ويجمع قائمة مثيرة للإعجاب من الأمثلة في الأدب يكون فيها القادة العسكريون والملوك kephalē الجيش أو الشعب. لكنه في ذلك يلجأ أساسًا إلى أدب متأخّر. ثم إن اليونانيين القدماء

797. وذلك على الرغم من أن مترجمي السبعينية أظهروا ميلًا قويًا إلى تفضيل الترجمات الحرفية، وإلى توسيع الكلمات اليونانية إلى ما وراء معانيها المعتادة حتى يبقوا قريبين من النص العبري.

798. Philip Payne, Man and Woman, One in Christ، ص. 121. وفضلًا عن ذلك، فإن معاجم اليونانية الكلاسيكية غير الدينية منذ القرن الثاني عشر تذكر عادةً أن kephalē («رأس») تعني «المصدر»، لكنها لا تورد أيّ أمثلة سابقة للعهد الجديد تعني فيها «السلطة».

799. «إنها حقيقة أولية من حقائق الحياة أننا نتلقّى الغذاء عبر أفواهنا، وبالتالي بمعنى ما عبر رؤوسنا، وكانت هذه الفكرة واضحة للعالم القديم أيضًا؛ ولذلك فإن فكرة أن ترد استعارة تعني فيها كلمة "رأس" "المصدر" ليست مستحيلة»، كما يكتب غرودم في Evangelical Feminism and Biblical Truth (ص. 567).

ربما فهموا أن قائدهم هو أيضًا مصدر حياتهم. اقطعوا رأس حيوان أو إنسان فيموت. وكذلك الأمر مع جيش أو أمة: اقتلوا القائد أو الملك فيهلك الشعب. فالملوك والقادة رؤوس بمعنى أن مملكتهم تتماسك تحتهم. ويبدو أن هذه هي الطريقة التي يستعمل بها بولس كلمة مرتبطة بـkephalē في أفسس 1: 10 ليشير إلى يسوع، حيث يقول إن تدبير الله هو أن يجمع كل الأشياء (أي اليهود والأمم) معًا، ويضمّها تحت رأس واحد، يسوع المسيح. لا شكّ أن يسوع هو الربّ صاحب السلطان، لكن بولس هنا يبدو أنه يستعمل استعارة الرأس ليُبرز لا سلطانه، بل دوره بوصفه مصدر الحياة الموحِّد لشعبه.[800] وكذلك حين يقول بولس في كولوسي 1: 16-17 إن يسوع «قبل كل شيء؛ وفيه يقوم الكل؛ رأس الجسد، الكنيسة؛ والبداءة». فهذه الأوصاف لا تركّز على سيادته، بل تصف جوانب من خدمة يسوع مختلفة عن مُلكه — غير أن كلًا منها يدعم أهليته واستحقاقه لأن يكون صاحب الأمر، وهذه هي نقطة بولس حين يقول: «لكي يكون هو متقدّمًا في كل شيء». ومع أن بولس هنا يضع جنبًا إلى جنب أفكار يسوع بوصفه الحافظ ومصدر الحياة والمُبدئ مع القول بتقدّمه، فلا يجوز لنا أن نخلط بين المعاني ببساطة. فيسوع بوصفه رأس الكنيسة ورأس الأشياء التي نشأت فيه وتتماسك فيه، ليس هو تمامًا الشيء نفسه الذي هو يسوع بوصفه ربّ شعبه وربّ الأشياء التي صُنعت به ويحفظها هو.

وماذا عن الموضعين اللذين يبدو فيهما بولس فعلًا خالطًا بين المعنيين — أفسس 1: 22 وكولوسي 2: 10؟ حتى في هذين المقطعين، قد يضع بولس جنبًا إلى جنب، وعن قرب، فكرة يسوع صاحب السلطان وفكرة يسوع بوصفه kephalē، لكنه لا يدمجهما بالضرورة.[801]

في أفسس 1: 22 ترد عبارة «kephalē فوق كل شيء». والكلمة اليونانية المترجمة «فوق» (hyper) تعني عادةً لأجل أو لمنفعة، كما في القول: «أسلم [المسيح] نفسه لأجلنا (hyper) قربانًا» (أفسس 5: 2). أما في أفسس 1: 22 فتعني فوق أو أعلى من، لكنها لا تعني الإضافة («رأسُ كذا») — فهي تقدّم صورة مكانية ليسوع على عرش فوق كل الأشياء. والمفاجأة، حين نقرأ هذه الآية في سياق 1: 18-2: 6، هي أن الجالس على

800. في ما يسمّيه اللاهوتيون تعليم بولس عن «الرئاسة الاتحادية» (federal headship)، هناك «رأسان» ممكنان للبشرية: آدم أو يسوع. فآدم، بوصفه الخاطئ الأول، ليس قائدنا، لكنه للأسف مصدرنا: فنحن نرث منه حاله المستعبدة للخطية وطبيعته الفاسدة. والحمد لله أن يسوع يصبح رأسًا جديدًا للجنس البشري المفديّ: فنرث منه مكانته الرفيعة وصورته.

801. أستعين هنا بسينثيا وستفول، التي أجابت عن سؤالي بشأن معنى kephalē في أفسس 1: 22 وكولوسي 2: 10 في مراسلتها معي، بأن اقتبست من مقالة كتبتها للطبعة الثانية من «The IVP Dictionary of Paul and his Letters».

العرش ليس يسوع-بوصفه-الرأس فحسب، بل يسوع-والكنيسة، أي الرأس-والجسد. يقول بولس إن يسوع بوصفه kephalē فوق كل شيء هو «للكنيسة، التي هي جسده». وكل الأشياء «تحت قدميه» — لكننا نحن قدماه. وخلاصة القول إن كون يسوع kephalē هنا لا يعني تحديدًا أن له سلطانًا علينا، أو حتى على كل الأشياء (وهو له ذلك بالطبع) — بل يفسّر بالأحرى كيف أن يسوع، وهو الربّ الحقّ على كل الأشياء، يشاركنا ذلك السلطان؛ فجسد الملك كلّه، لا رأسه فقط، هو صاحب الأمر في النهاية.

يشير كولوسي 2: 10 إلى أن يسوع هو kephalē «كل رياسة وسلطان» — أي رأسُها بالإضافة ("of")، لا رأسٌ «فوقها» ("over") كما تضعها بعض الترجمات. وهذا أحد مقطعين يتحدّثان عن يسوع بوصفه kephalē لشيء غير الكنيسة. ففي 1 كورنثوس 11: 3 يُقال إنه kephalē «كل رجل» — ومعنى ذلك أن الله خلق آدم بالمسيح (وبالتبعية خلق أبناءه). وبالمثل، فإن يسوع بوصفه رأس كل الرياسات والسلاطين في كولوسي 2: 10 يأتي في أعقاب 1: 16، الذي يقول إن هذه الرياسات والسلاطين نفسها خُلقت بالمسيح، ولذلك فهي تتماسك فيه. وبوصفه رأسها، فيسوع إذن هو المصدر الخالق لكل قوة روحية — ولهذا يقول بولس إن على أهل كولوسي أن يتطلّعوا إلى يسوع لا إلى الملائكة لكي يكتملوا، لأن المسيح الخالق يستطيع أن يفعل لنا ما لا تستطيعه حتى المخلوقات الملائكية.

كل مقطع فريد يميل إلى إبراز معنى دقيق لكلمة kephalē، خاص بسياقه. فمثلًا، يجري آلان جونسون دراسة شاملة لـ17 دراسة رئيسية، من كل الأطراف، عن كلمة kephalē، ويخلص إلى أنه «يبدو أن هناك اتفاقًا متزايدًا على أن kephalē بوصفها استعارة يمكن أن يكون لها معنى مختلف في سياق مختلف».[802] وهذا يقودنا إلى المشكلة في عيّنة غرودم من القادة والملوك بوصفهم kephalē لغيرهم: فبولس، حين يطبّق kephalē على العلاقات الإنسانية، لا يطبّقها إلا على العلاقة بين رجل وامرأة، لا بين ملك ورعاياه، ولا بين قائد وجيشه، ولا بين والد وأولاده، ولا بين سيد وعبيده. فهذه سجلّات مختلفة تمامًا، وكل سجلّ سيُخرج ظلًّا مختلفًا من المعنى. بل إن بولس، بين كل الكتّاب القدماء حتى زمنه، هو الوحيد الذي نعرف أنه طبّق هذه الاستعارة على رجل وامرأة — ففي 1 كورنثوس 11: 3 يُقال إن آدم هو kephalē حواء، وفي أفسس 5: 25 يُقال إن الزوج هو kephalē زوجته.

802. انظروا www.bit.ly/3GJ9Vnc

لكن حتى في هاتين الحالتين لا يستعمل بولس الكلمة بالطريقة نفسها تمامًا. ففي 1 كورنثوس 11: 3 يشير إلى الطريقة التي صُنعت بها حواء من جسد آدم، ولذلك ينبغي لآدم (ولأبنائه) أن يكرم صورته هو في حواء، بينما ينبغي لحواء (ولبناتها) أن تكرم آدم بوصفه الذي منه نشأت. فيبدو أنها تعني هنا لا السلطة بل مصدر الحياة الجدير بالإكرام. (انظروا الفصل 6 للمزيد.)

وفي أفسس 5: 25 يعقد بولس مقارنة بين يسوع بوصفه الرأس أو مصدر الحياة لجسده، والزوج بوصفه مصدر الحياة لزوجته، ولذلك ينبغي للأزواج أن يحبّوا زوجاتهم اللواتي هم وإياهنّ «جسد واحد» ويعتنوا بهنّ، بالقدر نفسه تمامًا الذي يعول به الرأس جسده ويعتني به كما ينبغي. حتى جون بايبر يعترف (من دون أن يقصد) بأن kephalē هنا قد تحمل هذا المعنى أيضًا.[803] فيبدو أنها تعني هنا لا السلطة بل مصدر الرعاية والخدمة المتّصل اتصالًا حيويًا وحميمًا. (انظروا الفصل 8 للمزيد.)

803. في لحظة من عدم الاتساق، في الحاشية 15 من الفصل الأول في «Recovering Biblical Manhood and Womanhood»، يحاول جون بايبر أن يقدّم أساسًا كتابيًا لتأكيده الذي لا يستند إلى الكتاب المقدس، وهو أن على الرجال أساسًا أن يعيلوا زوجاتهم ماليًا. فهو يستشهد بالطريقة التي يسمّي بها الله الرجل «رأسًا» في أفسس 5: 25، ومن ثمّ عليه أن يعولها بالطريقة نفسها التي يعول بها يسوع الكنيسة. ويكتب: «صورة الرأس تعني ضمنًا أن المسيح هو المعيل ...». والمفارقة هنا أن بايبر، من دون أن يقصد بلا شكّ، يعترف بأن kephale، من بين أمور أخرى، قد تعنى أيضًا المصدر أو المُمِدّ فى نهاية المطاف — مع أن التكاملية التى يتحدّث باسمها تنكر هذا بإصرار.

الملحق 4: هل يجوز للنساء أن يعلّمن؟

إن التطبيق الصارم للقراءة التكاملية لـ1 تيموثاوس 2: 12 لا يسمح للنساء بأن يعلّمن الرجال في الكنيسة. ومن المؤسف أن The Gospel Coalition (ائتلاف الإنجيل) تتبنّى هذا الرأي.[804] وكثير من الكنائس لا تسمح للنساء بالتعليم في المجموعات الصغيرة، أو في اجتماعات الصلاة، ولا بالتأكيد في اجتماعات العبادة الأسبوعية. بل إن بعضها لا يسمح للنساء حتى بقراءة الكتاب المقدس في الاجتماع.[805] ولا يؤيّد جون بايبر أن تُلقي النساء محاضرات على الرجال في التدريب الخدمي واللاهوتي (مع أنه يقبل أن تكتب اللاهوتيات، لأن ذلك «يُبعد المرأة بوصفها مؤلّفة عن نظر القارئ، ويُزيل بمعنى ما بُعد شخصيتها الأنثوية».[806])[807]

ومع ذلك، يسعى بعض الباحثين التكامليين الليّنين إلى إيجاد طريقة تسمح للنساء بالتعليم في الكنيسة. وإليكم الطرق الثلاث التي يفعلون بها ذلك: أولًا، يسمح بعضهم للنساء بأن يعلّمن الرجال خارج اجتماعات العبادة. ففي الصفوف والدورات الخاصة يجوز للنساء أن يعلّمن الرجال، لكن لا في الاجتماع الرئيسي يوم الأحد. ويبرّرون ذلك بالاحتجاج بأن بولس يتحدّث تحديدًا عن اجتماع الكنيسة في 1 تيموثاوس 2، ولذلك فإن منعه مقتصر على ذلك الإطار.

ثانيًا، يسمح بعضهم للنساء بالتعليم تحت سلطة الشيوخ أو الرعاة، وضمن الحدود العقائدية التي يضعونها. ولنستعمل تشبيهًا: قائد الأوركسترا وعازف الكمان كلاهما «يفسّران» بيتهوفن. لكن عازف الكمان إنما يقدّم التفسير، تحت إشراف شخص آخر وتوجيهه. وبالطريقة نفسها، يحدّد كبار القادة الرعويين العقيدة، بينما يجوز لآخرين، ومنهم النساء، أن يقدّموا العقيدة.

ثالثًا، يسمح بعضهم للنساء بأن «يتنبّأن» و«يعظن» في العظة، لكن لا بأن «يعلّمن». فهم يعرّفون «التعليم» بأنه «إرساء العقائد الرسولية الأساسية». ويقولون إنه ليس كل

804. يواصل كيفن دي يونغ، وهو من كبار كتّابها، التصدّي لأيّ تحدّيات في العالم الإنجيلي لوعظ النساء، ويسعى إلى تصحيحها. انظروا www.bit.ly/3BHFz0N.

805. انظروا www.bit.ly/3ENSkc4.

806. انظروا www.bit.ly/3wqsGXW.

807. تأمّلوا كم هي جارحة قناعة بايبر الواسعة الانتشار، بالاستماع إلى معلّمة من الطراز العالمي تروي أثرها فيها: «شعرتُ بحزن وإحباط يفوقان الوصف. أبقى دائمًا عاجزة عن الكلام للحظات حين أرى آراء كهذه مطبوعة. أنا مربّية لاهوتية ومديرة كلية لاهوتية (متخصّصة في التنشئة الروحية للحياة والقيادة والخدمة). ولي خدمة تعليم ووعظ في الكنيسة منذ أكثر من عشرين سنة». www.bit.ly/31xWCWF

العظات المعاصرة «تعليمًا» بهذا المعنى. فبولس نفسه يميّز بين «الوعظ» و«التنبّؤ» و«التعليم». وبولس يتوقّع من النساء أن «يتنبّأن» في الجماعة، ولم يمنع النساء قطّ من «وعظ» الجماعة.

بقدر ما أقدّر هذه المحاولات الثلاث الحسنة النيّة لتبرير تعليم النساء للرجال، فإنها محاولات ملتوية للالتفاف على سوء تفسيرهم هم أنفسهم لـ1 تيموثاوس 2: 12.[808] ولهذا يواصل الباحثون التكامليون تفنيدها.[809] ولكن، كما أبيّن في الفصل 7، حين نتخلّى عن القراءة التكاملية لـ1 تيموثاوس 2: 12، يمكننا أن نعالج الموضوع بطريقة أفضل بكثير. فيمكننا حينئذ أن نسأل: مَن، بحسب الرسائل الرعوية، يجب ألا يعلّم؟ وما النصوص الكتابية الواضحة عن تعليم النساء التي يمكن أن تساعدنا على تفسير المقطع الغامض في 1 تيموثاوس 2: 12 تفسيرًا أفضل؟

أناس يجب ألا يعلّموا

أما عن السؤال الأول، فهناك ثلاثة أنواع من الناس يجب ألا يعلّموا. أولًا، يجب ألا يعلّم المعلّمون الكذبة. يقول بولس لتيطس إن هؤلاء «يجب سدّ أفواههم، فإنهم ... يعلّمون ما لا يجب».[810] ثانيًا، يجب ألا يعلّم الذين لا يقبلون التعلّم والذين لا يشبهون المسيح. وكما احتججتُ في الفصل 7، ينبغي أن نفسّر 1 تيموثاوس 2: 12 على أنه يمنع جماعات من الناس تأثّرت بتعليم منحرف من أن تتّخذ تجاه الآخرين مواقف متكبّرة، أو مستقلّة، أو تفرض ذاتها، أو متسلّطة. فما يحتاج إليه هؤلاء هو جرعة جديدة من الجلوس بتواضع تحت كلمة الله وتلقّي التعليم.

ثالثًا، يجب ألا يعلّم الذين لم يتعلّموا. يقول بولس لتيموثاوس: «وما سمعته مني بشهود كثيرين، أودعه أناسًا أمناء، يكونون أكفاء أن يعلّموا آخرين أيضًا».[811] فبعد أن

808. الطرح الأول خاطئ، لأن 1 تيموثاوس 2 لا يتحدّث عن اجتماع العبادة فقط، ولأن العهد الجديد لا يميّز تمييزًا حادًا بين الأنواع المختلفة من الاجتماعات التي قد تعقدها الكنيسة في أيّ أسبوع. والثاني يخطئ لأنه، إن كان الله (كما يعتقدون) يقول للكنائس إن النساء يجب ألا يعلّمن، فلا يمكن للشيوخ أن يسمحوا بالعكس. أما الخلل في الثالث، الذي كان رائده جون ديكسون (John Dickson) في كتابه «Hearing Her Voice»، الرائع في ما عدا ذلك، فهو أن كلمة «يعلّم»، حتى في الرسائل الرعوية، تشير إلى نقل العقيدة الرسولية، لا — كما يقول ديكسون — إلى «إرساء [العقيدة]» بسلطان؛ ومن الناحية العملية، لا أستطيع أن أتخيّل كيف يمكن لأحد أن يلقي عظة مدّتها ثلاثون دقيقة، مهما كانت نبوية أو وعظية، من دون أن ينقل العقيدة الرسولية.

809. يتصدّى دي يونغ لرأي جون ديكسون: www.bit.ly/3wqsXtW وبالمثل، يسعى شراينر إلى تفنيد أندرو ويلسون (Andrew Wilson): www.bit.ly/2ZTCIoH

810. تيطس 1: 11

811. 2 تيموثاوس 2: 2. تترجم NIV هؤلاء الأفراد ترجمة صحيحة بـ«people» (أناس) لا بـ«men» (رجال) (كما في ESV)، لأن المصطلح اليوناني «anthropos»، مع أنه مذكّر في صيغته، يُستعمل استعمالًا يشمل النساء. فمثلًا، حين يقول لنا يسوع أن نغفر للآخرين الذين أخطؤوا إلينا يستعمل «anthropos» للدلالة على الآخرين (مت 6:

علّم بولس تيموثاوس العقائد الرسولية، يطلب منه أن يعلّمها لآخرين، لكي يعلّموها هم بدورهم لمزيد من الناس. ولاحظوا أن هؤلاء المعلّمين المتدرّبين «أناس» لا رجال — فبولس يستعمل الكلمة العامة anthrōpois، فيشمل بذلك الرجال والنساء.[812] ومع أن بولس يتصوّر أن الشيوخ يقومون بالكثير من التعليم، فإنه لا يقصر خدمة التعليم عليهم وحدهم قطّ.[813] وبالمثل، يتمنّى كاتب الرسالة إلى العبرانيين أن تكون الجماعة كلها، رجالًا ونساءً، بناءً على تعليمهم السليم ونضجهم الروحي، مؤهّلة لخدمة التعليم، حين يقول: «مع أنه كان ينبغي أن تكونوا في هذا الوقت معلّمين، تحتاجون أن يعلّمكم أحد الحقائق الأولية ... من جديد».[814] (وبالمناسبة، يعطينا هذا رجاءً بأن نساء أفسس أنفسهنّ قد تُستعاد لهنّ في المستقبل القدرة على التعليم.)

أمثلة على نساء يعلّمن

ما النصوص الكتابية الواضحة عن تعليم النساء التي يمكن أن تساعدنا على تفسير المقطع الغامض في 1 تيموثاوس 2: 12 تفسيرًا أفضل؟ هناك نصوص كثيرة: فبولس يأمر الرجال والنساء كليهما بأن يستعملوا مواهب التعليم التي لهم؛[815] وبأن يعلّموا وينذروا بعضهم بعضًا حين يجتمعون للعبادة؛[816] وبأن يأتوا بكلمة تعليم في اجتماعات الكنيسة.[817] وكل هذه المقاطع تستعمل الكلمة اليونانية didaskein المستعملة أيضًا في 1 تيموثاوس 2: 12. وكل هذا يتّفق مثلًا مع المرأة السامرية التي بشّرت الرجال،[818] ومع مقاطع كثيرة غنيّة بالتعليم في الكتاب المقدس صاغتها نساء،[819] ومع رواية

812. فمثلًا، تُستعمل الكلمة صراحةً للنساء في 1 بطرس 3: 4.
813. قرأتُ لعدد من الباحثين التكامليين الذين يحتجّون بأن الرسائل تقول إن الشيوخ وحدهم هم الذين يعلّمون. قد تكون هذه قاعدة في طوائف معيّنة، لكنها ليست قاعدة في الكتاب المقدس. وهؤلاء الباحثون يكدّسون عادةً المراجع التالية لدعم قولهم: 1 تيموثاوس 2: 12؛ 3: 2؛ 4: 11-13؛ 5: 17؛ 2: 24-26؛ 4: 1-5؛ تيطس 1: 5-6؛ 15، ويعقوب 3: 1. لكن هذه المراجع لا تدعم استبعاد غير الشيوخ من التعليم. فبغضّ النظر عن أن 2 تيموثاوس 2: 2 يوحي بأن أيّ شخص تعلّم يمكن أن يعلّم، فإن الفحص الدقيق للقائمة الطويلة من آيات «البرهان» يكشف أن ثلاثًا منها فقط تتحدّث تحديدًا عن قيام الشيوخ بالتعليم (1 تيموثاوس 3: 2، 5: 17 وتيطس 1: 5-6). وأربعًا منها تتحدّث عن مندوبين رسوليين، لا عن شيوخ، مثل تيموثاوس وتيطس، يقومون بالتعليم (2 تيموثاوس 4: 11-13، 2 تيموثاوس 2: 2، 4: 1-5، تيطس 2: 1-6، 15). أوَليس من الممكن أن تكون امرأة مندوبة رسولية؟ فكّروا مثلًا في فيبي التي حملت بنفسها رسالة رومية نيابةً عن بولس (رومية 16: 1-2). وبشكل أوضح، فكّروا في يونيا التي كانت (مع زوجها) رسولة (أي في مستوى أعلى بدرجة من المندوب الرسولي). وأخيرًا، فإن يعقوب 3: 1 (حيث تعني «الإخوة» «الإخوة والأخوات») يترك الباب مفتوحًا أمام أيّ شخص، لا الذكور أو الشيوخ فقط، لكي يكون معلّمًا.
814. عبرانيين 5: 14
815. رومية 12: 7، 1 كورنثوس 12: 28-30
816. كولوسي 3: 16
817. 1 كورنثوس 14: 26
818. يوحنا 4: 39
819. انظروا مثلًا قضاة 5: 2-31؛ 1 صموئيل 2: 1-10؛ 25: 24-31؛ لوقا 1: 25، 42-45، 46-55.

بريسكلا وأكيلا اللذين، بعد أن دعَوا أبلّوس إلى بيتهما، «شرحا له طريق الرب بأكثر تدقيق».[820]

أما عن خدمة بريسكلا التعليمية، فإن الكلمة «شرحا» (باليونانية: exethento) مرادفة لكلمة «علّم»،[821] وهي مستعملة لوصف خدمة بولس في رومية، حيث كان «من الصباح إلى المساء» «يشرح شاهدًا بملكوت الله».[822] ومع ذلك، يُعتّم الباحثون التكامليون على المعنى الواضح لتعليم بريسكلا لأبلّوس، لكي يتّفق مع سرير بروكرست الذي يمثّله تفسيرهم الخاطئ لـ1 تيموثاوس 2: 12، الذي يعتقدون أنه يمنع المرأة من أن تعلّم رجلًا بسلطان في الكنيسة. فهم يزعمون أن تعليمها كان خاصًا وغير رسمي، لا علنيًا ورسميًا. لكن هذا الزعم لا يعترف بأن اجتماعات كنيسة أفسس كانت تُعقد على الأرجح في البيت نفسه، وأنها (ما لم نحاول أن نُسقط ممارسات كنسية متأخّرة جدًا على منتصف القرن الأول) كانت حميمة وغير رسمية.[823]

أما عن الحجة القائلة إن نوع تعليمها لا علاقة له بنوع التعليم «الرسمي» أو «ذي السلطان» الذي يذكره بولس في رسائله الرعوية إلى تيموثاوس وتيطس، ففي الواقع إن بريسكلا مثال كامل لخدمة التعليم التي يطلب بولس من تيموثاوس أن يضاعفها في «أناس أمناء [يكونون] أكفاء أن يعلّموا آخرين».[824] لم تكن بريسكلا تشارك مجرّد خواطر تعبّدية — فبعد أن علّمها بولس، كانت تمارس نوعًا قويًا من التعليم، إذ كانت تعلّم أبلّوس العقيدة وتصحّح أفكاره الخاطئة والقاصرة. ولاحظوا ثمر تعليمها: فأبلّوس، بعد أن تلقّى خدمتها التعليمية، أُرسل لاحقًا مجهّزًا تمامًا، ليكون واحدًا من المعلّمين العظام في عصر الكنيسة الأولى.[825]

خلاصة القول: بحسب تفسير للكتاب المقدس يأخذ الكتاب كله في الحسبان، هل ينبغي أن يُسمح للنساء اليوم بالتعليم والوعظ في الكنائس؟ نعم، بلا شك. ولكن بثلاثة شروط تنطبق على الرجال أيضًا: يجب أن يكنّ أناسًا أمناء، تعلّموا وصاروا الآن أكفاء أن يعلّموا آخرين؛ ويجب أن تكون لهنّ موهبة التعليم؛ و(نشكر 1 تيموثاوس 2: 12 على هذه الفكرة المستخرجة بعناية) يجب أن يعلّمن بطريقة لا تُظهر كبرياء أو عداءً خاطئًا

820. أعمال 18: 26
821. www.bit.ly/3q7sZpi
822. أعمال 28: 23
823. يلاحظ كيفن جايلز في «What the Bible Actually Teaches about Women» (الفصل 6) أن الباحثين التكامليين يميلون إلى إغفال حقيقة أن «المسيحيين الأوائل كانوا يجتمعون في البيوت بأعداد صغيرة. ولأنهم لا يعترفون بهذه الحقائق، فإنهم يُقحمون على العهد الجديد فهمهم الثقافي الحديث للكنيسة ولقيادة الكنيسة، ثم يحتكمون إلى هذا لدعم استنتاجاتهم بشأن ما ينبغي أن يكون ملزمًا لحياة الكنيسة اليوم».
824. 2 تيموثاوس 2: 2
825. انظروا www.rb.gy/ttr2do لدراسة مفصّلة لخدمة بريسكلا في أفسس ولخدمتها التعليمية لأبلّوس.

تجاه أناس معيّنين في الكنيسة. وممّا يقوّي الاستنتاج بأن النساء يستطعن الوعظ للرجال أن العهد الجديد يحتفي بالنبيّات في الكنيسة، وهي خدمة إعلانية كانت تتداخل مع وظيفة التعليم، بل أُعطيت أهمية استراتيجية أعلى من التعليم.[826] فلا معنى إذن لاستبعاد النساء من المنبر اليوم.

826. انظروا الفصل 12، «النبيّات»، للمزيد عن هذا.

الملحق 5: حجّتان أخريان من 1 تيموثاوس 3

في الفصل 12 أتناول الحجة التكاملية القائمة على وصف بولس، في تيموثاوس 3، للناظر (الأسقف) بأنه شخص «أمين لزوجته». وفي هذا الملحق أتناول حجّتين أخريين، قائمتين أيضًا على 1 تيموثاوس 3، يقدّمهما التكامليون لاستبعاد النساء من قيادة الكنيسة.

لغز «النساء» في 1 تيموثاوس 3: 11

بعد أن يعدّد بولس مؤهّلات الشيخ، يفعل أمرًا مشابهًا للشمامسة. افتحوا أعينكم جيدًا لذكر «النساء»:

كذلك يجب أن يكون الشمامسة جديرين بالاحترام، مخلصين، غير مدمنين الخمر الكثير، ولا ساعين وراء الربح القبيح. يجب أن يتمسّكوا بحقائق الإيمان العميقة بضمير طاهر. ويجب أن يُختبروا أولًا، ثم إن لم يوجد عليهم شيء، فليخدموا شمامسة.

كذلك يجب أن تكون **النساء** جديرات بالاحترام، غير نمّامات، بل رصينات وأمينات في كل شيء.

يجب أن يكون الشمّاس أمينًا لزوجته، وأن يدبّر أولاده وبيته حسنًا. فالذين خدموا حسنًا يقتنون لأنفسهم مكانة رفيعة وثقة كثيرة في الإيمان الذي بالمسيح يسوع.[827]

بعد 1 تيموثاوس 2: 12-15، هذا هو المقطع الثاني الأكثر إثارة للجدل في هذه الرسالة. ويتعلّق اختلاف الباحثين في الرأي بهويّة هؤلاء «النساء». هل يشير إلى زوجات الشمامسة أم إلى الشمّاسات؟ لسبب ما، لا يوضّح بولس ذلك. ويظهر عدم الوضوح هذا في عمل المترجمين — فمن بين 28 ترجمة إنجليزية، تختار 18 «زوجات الشمامسة»، و2 «الشمّاسات» (deaconesses)، وتترك الترجمات الثماني الباقية الكلمة «نساء» (لكي يقرّر القارئ). وأنا شخصيًا أعتقد أن غالبية المترجمين محقّون في استعمال كلمة «زوجات»، لأن بولس يستعمل الكلمة نفسها تمامًا، gunaikas، بمعنى «زوجة» في عبارة «أمين لزوجته»، التي ترد قبل ذلك ببضع آيات (ع 2)، وكذلك

827. 1 تيموثاوس 3: 8-13

في الآية التي تليها مباشرة (ع 12). ومن غير المرجّح، وهي محاطة عن قرب بهذين الاستعمالين الآخرين، أن يكون لها معنى آخر هنا.

ويحتجّ الباحثون التكامليون بأن هذا، سواء فُهم على أنه زوجات الشمامسة أو الشمّاسات، يُظهر أن بولس لم يسمح بالشيخات (نساء في مجلس الشيوخ). فإن كان يشير إلى زوجات الشمامسة، فهم يقولون إنه يعني ضمنًا أن بولس تصوّر فئتين: شيوخًا رجالًا، وشمامسة رجالًا مع زوجاتهم. ومن ناحية أخرى، إن كان يشير إلى الشمّاسات، فهذا يعني، كما يقول بعض الباحثين التكامليين، أن بولس يتصوّر ثلاث فئات: شيوخًا رجالًا، وشمامسة رجالًا، وشمّاسات (لكن لا شيخات). وكلتا القراءتين تستبعد إمكانية وجود شيخات.

بدايةً، حتى لو قبلنا الاحتمال الأخير، يبقى السؤال: هل يفرض بولس إذن أن تكون هناك ثلاث وظائف في كل كنيسة محلية بلا استثناء، أي شيوخ رجال، وشمامسة رجال، وشمّاسات؟ أم أنه يفترض أو يعرف أن هذه هي الوظائف الموجودة في كنيسة أفسس وقت كتابته، فيكتفي في 1 تيموثاوس 3 بأن يحدّد أنواع الناس الأنسب لهذه الوظائف؟ أعتقد أن الأمر افتراض لا فرض. ثم إن كان بولس يشير إلى شمّاسات، فهذا يعني أنه في الآية التالية مباشرة، حين يقول بولس إن الشمامسة (ومنهم النساء) يجب أن يكونوا «أمناء لزوجاتهم» (ع 12)، فإن هذا لا يفعل أكثر من أن يؤكّد الاستعمال الشامل للجنسين لهذا التعبير الاصطلاحي، الذي نجده مثلًا في مؤهّلات الشيوخ في تيطس 1، حيث لا يتصوّر بولس إلا الشيوخ، لا الشمامسة، وظيفةً رسمية في كنائس كريت.[828] ومعنى هذا أن مواصفات الشيوخ في تيطس 1، الخالية من كل الضمائر أو التعابير التي تقصر الأمر على جنس واحد، تسمح برسامة شيخات.

غير أن رأي الأغلبية هو أن بولس يقصد أن هؤلاء النساء لسن شمّاسات بل زوجات الشمامسة. وفي هذه الحالة يبدو أنه لا يتصوّر إلا شيوخًا رجالًا وشمامسة رجالًا. لكن ضعف هذا الرأي أنه يقدّم لنا عندئذ دليلًا إضافيًا على أننا لا ينبغي أن نأخذ هذه القوائم في 1 تيموثاوس 3 قاعدةً تشريعية لكل الكنائس، لأن رومية 16: 2، المكتوبة في الوقت نفسه تقريبًا الذي كُتبت فيه هذه الرسالة، تذكر امرأة اسمها فيبي يوصي بها بولس بوصفها شمّاسة من كنيسة كنخريا.[829]

828. رأى يوحنا الذهبي الفم هذا. ففي العظة 11 على 1 تيموثاوس 3 يكتب: «بعل امرأة واحدة . . . يليق أن يُقال أيضًا عن الشمّاسات».
829. انظروا الحاشية المتعلّقة بفيبي تحت عنوان «العاملون مع بولس في رومية 16» في الفصل 12، للدليل على أنها كانت شمّاسة.

وبعبارة أخرى، أيٌّ من الرأيين في هؤلاء النساء ينقض الاعتقاد التكاملي بأن مقطع بولس في 1 تيموثاوس 3 يستبعد إمكانية وجود راعيات في كل الكنائس.

هل هناك طريقة أخرى لفهم «النساء» في الآية 11؟ أجد أكثر إقناعًا الرأي القائل إن هؤلاء النساء يشملن في الواقع لا زوجات الشمامسة أو الشمّاسات فقط (أيًّا كان فهمكم)، بل أيضًا زوجات الشيوخ أو الشيخات. دعوني أوضّح. كما يشرح مايكل إيتون (Michael Eaton) في تفسيره لـ1 تيموثاوس، وكما كان شائعًا في الكتابة القديمة، يضع بولس قائمتين متشابهتين (واحدة للشيوخ وواحدة للشمامسة)، لكنه، تجنّبًا للتكرار المفرط، يوزّع على القسمين بعض المحتوى المقصود أن يُطبَّق على كليهما.[830] ونقطته متينة، لا سيّما في هذا المقطع. لاحظوا مثلًا أن الآية 1، في قسم الشيوخ، تتحدّث عن رغبة المرء في القيام بالعمل، وأن الآية 7 تتحدّث عن الحاجة إلى شهادة حسنة من الذين هم من خارج. ثم في قسم الشمامسة، تتحدّث الآية 9 عن الحاجة إلى التمسّك بحقائق الإيمان العميقة، والآية 10 عن الحاجة إلى الاختبار قبل الإطلاق في الدور، والآية 13 عن مكافأة الله للذين يخدمون حسنًا. ومع ذلك فإن هذه النقاط الخمس كلها تنطبق على الشيوخ والشمامسة كليهما. وكان القرّاء القدماء سيدركون هذا أسرع منّا نحن المعاصرين. وبعد أن استعملتُ هذا المقطع عقودًا لتدريب الشيوخ والشمامسة، هكذا رتّبتُ شرحي له بالفطرة. أليس على الشمامسة، لا الشيوخ فقط، أن يرغبوا في خدمة الله بهذه الطريقة، وأن تكون لهم شهادة حسنة من الذين هم من خارج؟ وأليس على الشيوخ، لا الشمامسة فقط، أن يتأمّلوا الكتاب المقدس بعمق، وأن يُختبروا قبل رسامتهم، وأن ينتظروا المكافأة من الله على قيادتهم الحسنة؟[831]

لكن انظروا: إن هذه الطريقة في قراءة بعض المؤهّلات على أنها تنطبق على الفئتين كلتيهما قد تكون التفسير الوحيد لكون بولس يكتب «الزوجات/النساء» فقط، لا «زوجات الشمامسة» أو «النساء الشمّاسات» — فهو لا يريد أن يقصر تطبيقها على الشمامسة وحدهم.

لذلك، إن كان بولس يقصد الزوجات في الآية 11، فهو يشير إلى صفات الشخصية المطلوبة في زوجات الشمامسة والشيوخ كليهما. وإذا وضعنا في اعتبارنا وجود

830. «بعض الأمور التي تنطبق على الشيوخ تنطبق على الشمامسة، والعكس بالعكس. فمن المعتاد في أسلوب الكتابة العبري أنه حين يريد المرء أن يقول أمورًا متشابهة عن موضوعين، يقسّم المسألة إلى فقرتين، ويقول شيئًا عن أحد الجزأين وشيئًا آخر عن الجزء الآخر. لكن الأسلوب العبري يريد منّا أن نطبّقه على الجزأين كليهما». (Michael Eaton, Preaching Through the Bible: Timothy)

831. قد نسأل مع ذلك لماذا يكون بولس مستعدًا لتكرار كثير من المحتوى في الفئتين. والجواب أنه يفعل ذلك خصوصًا فى ما يتعلّق بصفات الشخصية، التى تستحق تشديدًا إضافيًا.

الشمّاسة فيبي، فإن الحقيقة الصالحة لكل زمان التي نستخلصها من هذا المقطع هي أن تقوى شركاء حياة الشيوخ والشمامسة (لا الزوجات فقط) أمر مهمّ.

وإن كان بولس يقصد في الآية 11 الصيغة النسائية للوظيفة، فهو يشير إلى صفات الشخصية المطلوبة في الشمّاسات والشيخات كلتيهما. ويزيد من معقولية هذا التفسير أن بريسكلا وزوجها أسّسا هذه الكنيسة نفسها وقاداها في وقت ما.

وأيًّا كان الفهم، فكلما أطلنا التأمّل في هذا المقطع، قلّ يقيننا بشأن هويّة هؤلاء النساء الغامضات، وازداد يقيننا بأن الآية 11 إما غامضة جدًا أو مرتبطة بسياقها جدًا، بحيث لا تكاد تكون، بحسب أيّ منهج تفسيري سليم، أساسًا كافيًا لمنع رسامة النساء دائمًا وفي كل مكان.

هل الشيوخ آباء؟

نشر ب. ج. سميث (P. J. Smyth)، وهو قائد سابق لإحدى الحركات الكنسية، حجةً جديدة مؤخرًا لقصر مجلس الشيوخ على الرجال، أعتقد أنها تستحق النقد. وأقتبسها في ثلاثة أجزاء، وأقيّم كل جزء على حدة.

في عالمنا الحديث الذي شكّلته التكنولوجيا، نميل إلى التفكير في الناس بطرق آلية. وهذا يعني أننا نميل إلى قراءة كلمة «شيخ» على أنها تعني ما تعنيه كلمة «قائد» في الأعمال أو السياسة أو الصناعة. ففي تلك المجالات، من المنطقي أن يُعطى منصب المدير التنفيذي أو الرئيس أو المدير للشخص الأكفأ — بصرف النظر عن جنسه. لكن الكتاب المقدس، حين يصف دور الشيوخ، لا يضع في الحقيقة نصب عينيه نماذج القيادة المؤسسية المعاصرة لدينا. بل إن الصورة هي بالأحرى صورة الكنيسة بوصفها عائلة يشرف عليها الآباء ويحمونها.

يحتجّ سميث بأن الأب هو الذي يقود دائمًا في العائلة. وبما أن الكنيسة عائلة، فلا بدّ أن يتغلّب الجنس مرة أخرى على الموهبة، بحيث يجب أن يقود فريقٌ من الرجال، بصرف النظر عن أيّ نساء قد يكنّ موهوبات للقيادة بالقدر نفسه. لكن حجة سميث قائمة على افتراضين خاطئين.

أولًا، على الآباء والأمهات كليهما أن يقودوا الأولاد. وأيّ إشارة في العهد الجديد إلى قيادة الآباء لعائلاتهم هي وصفٌ للعالم اليوناني الروماني، الذي كان فيه ربّ الأسرة

(paterfamilias) يقود كل بيت، ما لم يكن قد مات. ولكن حين نبحث عمّا يفرضه الكتاب المقدس (لا ما يصفه فحسب) بشأن مَن يقود الأولاد، يتّضح أن الأمهات والآباء يعملون معًا فريقًا بوصفهم قادة عائلتهم. وفي قطاعات كنسية معاصرة كثيرة سمعنا أن «الأب يجب أن يكون رأس البيت»، ومارسنا ذلك على نطاق واسع جدًا، حتى إننا لم ندرك أنه في الحقيقة يفتقر إلى سند كتابي.

قد يكون الزوج رأس الزوجة (مع أننا رأينا في الفصل 8 أن هذا على الأرجح لا يشير إلى السلطة على أيّ حال)، لكنه لا يقود البيت إلا بالاشتراك مع زوجته: «أيها الأولاد، أطيعوا والديكم في الرب لأن هذا حق. أكرم أباك وأمك».[832] وبالمثل، يؤكّد الكتاب المقدس في ما لا يقلّ عن أربعة مواضع القيادة المزدوجة للأم والأب بهذه الصيغة: «لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته».[833] تُظهر هذه الصيغة ابنًا يترك عائلة يقودها الوالدان كلاهما ليؤسّس (كما يُفترض) عائلة جديدة يقودها، مرة أخرى، الوالدان كلاهما.[834] وبدلًا من تصوير الأم قائدةً من الدرجة الثانية، تقع في منتصف هرم السلطة بين الأب والأولاد، يفرض الكتاب المقدس أن تعمل الأم والأب معًا فريقًا بوصفهما «جسدًا واحدًا» في قيادة البيت. وتجربتي الشخصية تعزّز هذه الفكرة: هناك شيء واحد أفضل من أب يقود أولاده — إنه أب وأمّ يعملان معًا فريقًا لقيادة أولادهما.[835]

ومع أن كثيرين يقفزون خطأً من فكرة أن الزوج رأس الزوجة إلى فكرة أن الزوج رأس العائلة، فإن أحدًا من كتّاب العهد الجديد لم يفعل ذلك. وأول موضع مسجّل لدينا وقع فيه هذا الخطأ هو في القرن الثاني، في الكتاب الثالث من «راعي هرماس».[836]

ثانيًا، يستعمل سميث استعارة واحدة للكنيسة (بوصفها عائلة) بطريقة تُلغي استعارة أخرى (الكنيسة بوصفها جسدًا). ومع ذلك، يقدّم لنا العهد الجديد استعارتين رئيسيتين تقوم عليهما الطريقة التي ينبغي أن ننظّم بها الكنائس. ويقلّل سميث من شأن الكنيسة بوصفها جسدًا متعدّد الوظائف، بربطه فكرة الموهبة نفسها بالشركة أو الأمة.

832. أفسس 6: 1

833. انظروا تكوين 2، مرقس 10، متى 19، أفسس 5

834. وبالمثل، في سفر الأمثال يعلّم الأمهات والآباء كلاهما أولادهم ويرشدونهم: «اسمع يا ابني تأديب أبيك، ولا ترفض شريعة أمك» (أمثال 1: 8). «اسمع لأبيك وأمك اللذين أعطياك الحياة، ولا تحتقر أمك» (أمثال 23: 22). وفي آيات أخرى كثيرة أيضًا، تعمل الأمهات والآباء معًا لممارسة القيادة في رعاية أولادهم وتدريبهم وتأديبهم وتعليمهم (خروج 20: 12؛ لاويين 19: 3؛ تثنية 6: 6-9، 21: 18-21، 27: 16؛ أفسس 6: 1-4؛ كولوسي 3: 20؛ 2 تيموثاوس 1: 5؛ انظروا أيضًا لوقا 2: 51).

835. ثم إنه، حتى لو كانت مشيئة الله أن يكون الأب «رأس البيت»، فإنها قفزة غريبة، استنادًا إلى أن بولس يتصوّر تعدّدًا في القادة، أن نقول إن عددًا من الآباء، يعملون معًا فريقًا، يجب أن يكونوا «رأس» الكنيسة.

836. في هرماس، الأمثال 7.3 (Similitudes 7.3)، يُقال للرجل إن «عائلتك لا يمكن أن تُعاقَب بأيّ طريقة أخرى إلا إذا تألّمتَ أنت، رأس البيت».

صحيح أن الكنيسة، كما يقول، عائلة قائمة على الانتماء، لكن صحيح أيضًا أن الكنيسة جسد حيّ (لا مجرّد مؤسسة) قائم على المواهب. ومع أن هذا التوجّه نحو المواهب أمر عضوي ويقوده الروح أكثر بكثير مما يمكن أن يجده المرء في شركة أو مؤسسة دنيوية، فإن الكنيسة تشبه الشركة الحديثة في أمر واحد على الأقل: ففي كلتيهما، لا علاقة للاعتراف بالموهبة بجنس الإنسان.

وفي الرسالة إلى تيموثاوس، ليست الصورة، كما سيوحي سميث في ما يقوله بعد ذلك، «أكثر بكثير عن الكنيسة بوصفها عائلة» — بل إن آية واحدة فقط في الرسالة تساوي مباشرة بين الكنيسة والعائلة.[837] وإنما تركّز رسالة بولس أساسًا على كنيسة أفسس بوصفها مجموعة من البيوت اليونانية الرومانية. فتيموثاوس يُوصى بأن يخدم بحكمة الفئات المختلفة من الناس في هذه البيوت القديمة — المسنّين والشباب، العبيد والأحرار، الأغنياء والفقراء، الرجال والنساء، الأرامل والمتزوّجات.

ويضيف سميث طبقة أخرى إلى حجته:

[إن] الكنيسة [هي] عائلة يشرف عليها الآباء ويحمونها، [و]مؤهّلهم الأول هو صفاتهم التقيّة بوصفهم آباء. ويتّضح هذا بشكل خاص في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس، أن الرجل لا ينبغي أن يُعترف به شيخًا إلا إذا كان أبًا صالحًا لعائلته البيولوجية. وهذه نقطة لا يمكن التشديد عليها بما يكفي: يجب أن يكون الشيوخ آباء.[838]

وهذا الجانب من حجته يقوم مرة أخرى على مقدّمتين خاطئتين. أولًا، لا يركّز بولس على الشيوخ بوصفهم آباء فقط، بل بوصفهم قادة بيوت. فسميث، إذ يسيء فهم السياق القديم للقرّاء الأصليين لهذه الرسالة، يتخيّل بيت هؤلاء القادة مكوّنًا من مجرّد «عائلة بيولوجية» — ربما طفلين أو ثلاثة. لكن بولس يقول في 1 تيموثاوس 3 إن على الراعي أن «يدبّر بيته حسنًا». والأفضل في هذا المقطع أن تُترجم الكلمة اليونانية (oikos) لا بـ«العائلة» بل بـ«أهل البيت» — الذي قد يشمل العبيد والمستأجرين والأقارب الآخرين. ولكن إن اتّفقنا مع سميث على أنه، بما أن الرعاة كانوا آباءً لأولادهم، فينبغي إذن أن يكونوا آباءً للكنيسة، فعلينا أن نكون متّسقين، ونقول أيضًا إن على الرعاة أن يكونوا أزواجًا للكنيسة، وسادة على الكنيسة، وملّاكًا للكنيسة يؤجّرونها — لأن هذه الأدوار أيضًا جزء من تدبير البيت.[839]

837. 1 تيموثاوس 3: 1

838. يقدّم آلان فرو الحجة الدائرية نفسها: «الشيخ مثل الأب، وزوجة الشيخ مثل الأم. ومع أنهما يقومان معًا بدور الوالدين للكنيسة، فإن الكنيسة، كما في العائلة الكتابية حيث يقود الآباء لا الأمهات، يقودها الشيوخ. ولن أتوقّع أن يكون الشيوخ نساءً، كما لا أتوقّع أن تكون الأمهات آباءً». www.bit.ly/2ZPRZGH

839. يساعدنا هذا على فهم مدى اختلاف وضع البيت القديم عن عائلاتنا النووية الحديثة. لا شكّ أن جانبًا رئيسيًا

ثانيًا، وهي نقطة ذكرتُها سابقًا في الفصل 12، فإن ربّة الأسرة (materfamilias) مؤهّلة أيضًا! فالكفاءة القيادية المطلوبة لتدبير بيت لم تكن، حتى في العالم القديم، أمرًا يختصّ به الذكور. ويتحدّث بولس لاحقًا في هذه الرسالة عن امرأة متزوّجة تدبّر بيتها؛[840] ونعرف أيضًا أن أول جماعة من المؤمنين أسّسها بولس في أوروبا كانت في البيت الذي كانت تديره ليدية.[841]

ثم يختم سميث حجته: «لا بدّ أن هذا يعني أنهم قادرون على أن يكونوا آباءً للكنيسة. ينبغي ألا تكون النساء شيوخًا لأن النساء لا يمكن أن يكنّ آباء».[842]

بعد أن اختُزل تدبير البيت إلى الأبوّة، يستعمل سميث هذا الاختزال ليصنع استعارة جديدة كليًا للخدمة الرعوية: الأبوّة. ومع ذلك، نرى بولس، في هذه الرسالة نفسها، يكسر العرف الثقافي السائد في التراتبية القديمة للبيت، بأن يجعل رجلًا أصغر سنًّا، تيموثاوس، مسؤولًا عن رجال أكبر منه سنًّا — وهو أمر فعله يسوع نفسه حين اختار شبّانًا رسلًا. وخلافًا لافتراض سميث، يُطلب من تيموثاوس صراحةً أن يقود روحيًا لا بوصفه أبًا، بل بوصفه ابنًا لمن هم أكبر منه سنًّا، وأخًا لأقرانه.[843] فالاستعارة الكتابية الأولى للخدمة الرعوية، في نهاية المطاف، ليست الأبوّة بل رعي الغنم. يسوع هو رئيس الرعاة، والرعاة «رعاة مساعدون».[844] لكن لا يوجد نصّ كتابي، في أيّ مكان، يوحي بأنه بما أن الله هو أبو الكنيسة، فينبغي أن يكون الرعاة «آباءً مساعدين».[845] بل ينبغي أن نكون حذرين بشكل خاص من التشديد على الشيوخ الرجال بوصفهم آباء الكنيسة، في حين يأمر يسوع بالقاعدة المعاكسة: «ولا تدعوا لكم أبًا على الأرض، لأن أباكم واحد الذي في السماوات».[846] ومن الناحية اللاهوتية، فإن الاستعارة الكتابية للكنيسة بوصفها عائلة، إذا طُبّقت تطبيقًا صحيحًا، تجعل الله، لا أيّ راعٍ أرضي، أبانا الحقيقي الوحيد، وتجعل قادتنا إخوة وأخوات في المسيح (أكبر منّا سنًّا في الغالب).

ثم إننا، إن قبلنا رأي سميث في الكنيسة بوصفها أساسًا عائلة يقودها الآباء (وأنا أشكّ، مع كامل الاحترام، في أنه ينبغي لنا ذلك)، فمن المنطقي أكثر أن يكون لدينا فريق من

840. 1 تيموثاوس 5: 14
841. أعمال 16: 14-15، 40
842. P.J. Smyth, Elders، الفصل 12.
843. 1 تيموثاوس 5: 1-2
844. 1 بطرس 5: 1-4
845. لا يدعو الكتاب المقدس قائدًا روحيًا «أبًا» لآخرين إلا في مناسبات نادرة: في حالات علاقته 1) بخلفائه الرسوليين (2 تيموثاوس 1: 2)، 2) بكنيسة أسّسها من لا شيء (1 كورنثوس 4: 14-15)، أو 3) بكنيسة تحت رعايته الرسولية، لا سيّما إن كان الرسول قد صار شيخًا مسنًّا (1 يوحنا 2: 1).
846. متى 23: 9

«الوالدين» — رعاة رجال وراعيات معًا — يعملون معًا على القيادة، كما هو الحال في أيّ عائلة سليمة.

الملحق 6: لماذا قد لا تغيّر الحقائق آراءنا

«معظم الناس لا يريدون معلومات دقيقة، بل يريدون معلومات تؤكّد ما يعتقدونه. والنموّ يتطلّب منكم أن تكونوا منفتحين على التخلّي عن أفكار خدمتكم في السابق». جيمس كلير (James Clear)

حين صرتُ مسيحيًا، وقبلتُ الإنجيل على أنه، ببساطة، حقّ لا ريب فيه، أذكر أنني كنت أفكّر: «انتظر فقط حتى أخبر أصدقائي غير المسيحيين بما اكتشفتُه! سيؤمنون هم أيضًا جميعًا». ومن الرائع أن بعضهم آمن. لكن، لدهشتي، معظمهم لم يؤمن.

ولا بدّ أن أعترف بسذاجة مشابهة في مقاربتي الأولى لتغيير رأيي (ثم محاولة تغيير آراء الآخرين) بشأن التراتبية بين الجنسين.

في حالتي، كانت هذه اليقظة مؤلمة. فبقدر ما كنت أرى، لم يكن ما آمنتُ به لعقود أكثر من ثياب الإمبراطور غير الموجودة. فتساءلت: لماذا إذن لا يزال أناس عظماء يرون الثياب غير المرئية، حتى حين لا تكون موجودة ببساطة؟ حيّرني هذا كثيرًا، لكنني عثرتُ في النهاية على تفسير محتمل: التحيّز المعرفي.

وكما تبيّن، فإن نوع الحوارات اللاهوتية التي تخوضها كنائس كثيرة يوفّر الظروف المثالية لعمل شتّى أنواع التحيّز. فلا أحد منّا — وأنا منهم — موضوعي بالقدر الذي يظنّه.

حتى «عقلانيتنا» تحرّكها العاطفة

قد نقول لأنفسنا إننا كوّنّا آراءنا بناءً على الحقائق وحدها، لكن حتى أكثر اختياراتنا موضوعية تسندها العاطفة في الواقع. قد لا نعبّر عن هذه الذاتية، بل قد لا نكون واعين لها، لكنها موجودة مع ذلك.

في كتاب The Righteous Mind، يسمّي جوناثان هايدت (Jonathan Haidt) التفكير العاطفي «الحدس». ويكتب: «أفضل طريقة للتفكير في الدورين النسبيين للحدس والعقلانية عند البشر هي أن نشبّههما بالعلاقة بين فيل وراكبه. فالحدس هو الفيل الأخلاقي، والعقلانية راكبته. والراكبة تظنّ خطأً أنها توجّه الفيل، في حين أنها في

الواقع تخدمه، عادةً بتقديم تبريرات لاحقة لأحكام الشخص الحدسية».[847]

وبعبارة أخرى، كل تفكير عقلي له دافع عاطفي. فبعض الأفكار وأنواع المعلومات تجذبنا. وبعضها الآخر يرعبنا. ولهذا لا نؤمن بالضرورة بما هو حقّ. ففي الغالب نؤمن بما نفضّل أن نؤمن به. ومن دون أن ندرك ذلك عادةً، نلتزم مسبقًا بمعتقد، ثم نولّد «تبريرات ذكية» أو نتشبّث بها. ويطبّق ستاكهاوس هذا المبدأ على لاهوتنا في مسألة الجنسين تحديدًا:

لنكن صريحين مع أنفسنا: لا أحد يكوّن رأيه في مجموعة من المسائل الحاسمة كهذه على أساس الحجة اللاهوتية وحدها. ولا نجرؤ على أن نخدع أنفسنا بأننا نجلس على قمّة فكرية ما، نزن كل مسألة بهدوء في ميزان عقولنا المضبوطة بدقّة ونفوسنا المقدّسة تمامًا. فنحن جميعًا متورّطون، بلا حول ولا قوة وبشكل كامل، في مجموعة معيّنة من الافتراضات عن الجنسين، أيًّا كانت هذه المجموعة. ونحن جميعًا متشابكون في بنى اجتماعية تكافئنا أو تعاقبنا بسبب آرائنا. ولا يمكننا ببساطة أن نكون محايدين ونحن نتّخذ قرارنا في هذه المجموعة الضخمة، والبالغة الأهمية، من المسائل. لذلك ... لنسأل أنفسنا: ما الذي أريد حقًا أن أؤمن به عن الجنسين؟

التحيّز التأكيدي

التحيّز التأكيدي هو البحث الانتقائي اللاواعي عن أدلّة تؤكّد معتقداتنا الحالية، بدلًا من البحث عن معلومات تتحدّى معتقداتنا. فعلى مستوى ما دون الوعي، نضخّم الأدلّة المؤكّدة، ونتجنّب المعلومات المعاكسة أو نستبعدها أو نقلّل من شأنها. ونتبنّى بكل قلوبنا الحجج المؤيّدة لموقفنا حتى حين تكون حججًا ضعيفة — بل نحن عميان عن احتمال أن تكون ضعيفة. فنحن «نفرض» عليها القوة بإرادتنا حتى حين لا تكون قوية.

وكما يقول الاقتصادي ج. ك. غالبريث (J.K. Galbraith): «حين يُخيَّر المرء بين أن يغيّر رأيه وأن يثبت أنه لا حاجة إلى ذلك، ينشغل الجميع تقريبًا بالإثبات».[848]

وهذا التحيّز التأكيدي هو السبب في أننا نميل إلى بناء روايات مبسّطة أكثر من اللازم بمعلومات ناقصة. ثم نصدّق هذه الرواية ما دامت متماسكة في أذهاننا. وتبدأ المشكلة حين نربط معًا نقاط بيانات شحيحة، وربما غير مترابطة، لنصنع صورة أكبر لا

847. Jonathan Haidt, The Righteous Mind، ص. 32.
848. John Galbraith, Economics, Peace and Laughter

تسندها في الواقع تلك النقاط القليلة. صحيح أنه لا بدّ من العمل بالمعلومات التي لدينا، لكننا نخطئ حين نعامل تلك المعلومات كأنها كل ما يمكن معرفته.

وهذا بالضبط هو السبب في أن التكاملية بوصفها رواية كانت منطقية في نظري ذات يوم. فسيرًا على درب مؤسّس التراتبية المعدّلة بين الجنسين، أي كتاب جورج نايت الصادر سنة 1977، كنت قد جمّعت حفنة من الآيات في الكتاب المقدس، أو بعبارة أدقّ، استنتاجات تخمينية عن تلك الآيات، لأكوّن منها رواية. لكن حين تفحّصتُ نقاط البيانات تلك بتعمّق أكبر، أدهشني كم كانت شحيحة، وكم كانت غير مترابطة بعضها ببعض. فالتكاملية تعمل إلى حدّ كبير مثل كوكبة في السماء: يتأمّل المرء سماء الليل المتلألئة، ويربط معًا مجموعة من النجوم، متخيّلًا صلة بينها (ومكمّلًا بعض النقاط الناقصة في أثناء ذلك)، ثم يسمّيها برج العذراء أو برج القوس. والكوكبات، مثل التكاملية، موجودة في عين الناظر.

وبمجرّد أن نربط النقاط بطريقة معيّنة، يكاد يستحيل علينا أن «نكفّ عن رؤية» الكوكبة. كتب ليو تولستوي (Leo Tolstoy) ذات مرة: «يمكن شرح أصعب المواضيع لأبطأ الناس فهمًا إن لم يكن قد كوّن عنها أيّ فكرة من قبل؛ أما أبسط الأمور فلا يمكن توضيحها لأذكى الناس إن كان مقتنعًا اقتناعًا راسخًا بأنه يعرف من قبل، من دون أدنى شكّ، ما يُعرض عليه». حقًا، إن رؤية ما ليس موجودًا نوع غريب من العمى. فمثلًا، بمجرّد أن «نرى» القيادة والخضوع في آدم وحواء قبل السقوط في تكوين 2، نصبح عميانًا عن الجمال الحقيقي لمساواتهما وتبادليّتهما.

ومن أسباب ازدهار التحيّز التأكيدي، لا أننا نستعمله لدعم ما نؤمن به أصلًا فحسب، بل أيضًا أننا لا نحبّ أن نشكّك في أنفسنا. فبحسب نمط شخصيتنا، يحتاج كثيرون منّا حاجةً أكبر إلى الحسم — أي الوصول إلى قرار نهائي في مسألة ما. وبما أننا مجبولون على هذا النحو، فإننا لا نحبّ الغموض، ولا إعادة النظر في استنتاجاتنا السابقة. ونفقد صبرنا مع العمليات الطويلة من الحوار حول مسألة ما. ونميل إلى التفكير بالأبيض والأسود، ونرضى بأن نسمع جانبًا واحدًا فقط من المسألة. فإن كان مقنعًا لنا، فإننا (بحكم حاجتنا إلى الحسم) نرضى بأن نلتزم بذلك الجانب.

لا شيء يشوّه تفكيرنا مثل الخوف من الخسارة

إن الفيل الذي تحرّكه العاطفة، والذي يتحدّث عنه هايدت، يتجنّب التهديدات ويسعى وراء الفرص في جوهره. غير أن الخوف من التهديد، من بين هذين الدافعين العاطفيين، أعظم من احتمال المكافأة. فنحن لا نخاف التغيير بقدر ما نخاف الخسارة. ففي ظاهرة تُسمّى التحيّز السلبي (أو تحيّز الوضع القائم)، تكون أدمغتنا مبرمجة على أن تعطي ما قد نخسره وزنًا أكبر مما قد نكسبه.

فمثلًا، هناك الكثير جدًا مما يمكن كسبه في كنيسة، أو في زواج، حين تحلّ تبادلية الرجل والمرأة محلّ التراتبية بين الرجل والمرأة. لكن الشخص العادي لا يركّز على ما قد يُكسب. بل يتسمّر نظره على ما قد يُخسر. فحين يستكشف موقفًا لاهوتيًا جديدًا، لا يسأل في المقام الأول: «هل هذا صحيح؟» بل يسأل، من دون وعي: «لو آمنتُ بهذا، فماذا قد أخسر؟» ومع أنه قد تكون لتغيير الرأي ثمار إيجابية هائلة على المدى الطويل، فإن تلك المكاسب تتضاءل أمام احتمال الخسارة على المدى القصير، وهو احتمال يزداد وقعًا بسبب الميل الطبيعي لدى معظم الناس إلى تجنّب التغيير الجذري.[849]

ولعلّه لا يوجد خوف من الخسارة أعظم من الخوف من فقدان المرء مكانه في قبيلته. وكما لاحظ ستاكهاوس: «نحن جميعًا متشابكون في بنى اجتماعية تكافئنا أو تعاقبنا بسبب ... آرائنا في الجنسين».[850] ففي الغالب نؤمن بما تؤمن قبيلتنا، أي دائرة علاقاتنا الأساسية، بأنه صواب وحق. والخوف من أن نخيّب أمل قائد نعتزّ بتأييده، أو الرعب من أن نكون على غير وفاق مع دائرة حلفائنا، خوفٌ دافع يتغلغل في تفكيرنا كله. وما لم نعترف بهذا، لن نتمكّن أبدًا من الاقتراب من التفكير الصحيح، ولن تغيّر الحقائق آراءنا أبدًا.

وقد عبّر عالم نفس من جامعة هارفارد عن ذلك هكذا: «يُحتضن الناس أو يُدانون بحسب معتقداتهم، ولذلك قد تكون إحدى وظائف العقل أن يتمسّك بالمعتقدات التي تجلب لصاحبها أكبر عدد من الحلفاء أو الحماة أو الأتباع، بدلًا من المعتقدات الأرجح أن تكون صحيحة».[851] ولهذا يحرص الناس حرصًا شديدًا على المعتقدات التي

849. إحدى الطرق التي صرتُ أفهم بها طبيعتي وطبيعة الآخرين هي «منحنى روجر الجرسي» (Roger's Bell Curve) — فبينما أنا من بين الـ16% من الناس الذين يميلون إلى أن يكونوا مبتكرين ومتبنّين أوائل حين يبدو لي المنطق سليمًا، يحتاج معظم الناس إلى أن يتردّدوا ويتداولوا مدة أطول بكثير.
850. John Stackhouse, Finally Feminist، ص. 102.
851. Steven Pinker, Language, Cognition and Human Nature

هي علامات هوية — فهي المطلوبة لكي نُقبل في دائرة من العلاقات. ولهذا أيضًا فإن محاولة تغيير رأي شخص ما هي في الحقيقة عملية محاولة إقناعه بأن يغيّر قبيلته. ففي اللحظة الأولى من إعادة التفكير في معتقداته القائمة، يقيّم ما إذا كان تغيير معتقده سيفقده روابطه الاجتماعية. ويشير ستاكهاوس إلى ديناميكية مثيرة للاهتمام على نحو مشابه تعمل في جماعات تكاملية كثيرة:

بالنسبة إلى بعض الجماعات المسيحية، صارت مسائل الجنسين علامات «حدود» و«هوية» مرتبطة بأمور أكثر جوهرية أيضًا، مثل السلطة الدينية، والمنهج اللاهوتي، ومقاومة روح العالم. وهكذا تصبح مسائل الجنسين أكبر من أن تُخضَع لإعادة فحص جادّة، إلى حدّ يكاد يكون مستحيلًا — ولذلك لا تُخضَع لها.[852]

وبما أنهم قرّروا مسبقًا أن معتقدات جماعتهم صحيحة، فكل ما يحتاجون إليه هو أن يعودوا إلى وثائق الدفاع التي وضعتها الجماعة عن معتقدها، أو أن يطلبوا من «كبار الباحثين» في الحركة أو الطائفة أن يردّوا على هذا التهديد الجديد — وهو ما يفعلونه حتمًا. والمشكلة أنه لا أحد أكثر رسوخًا في جماعة من «الخبراء» الذين يحدّدون معتقداتها ويدافعون عنها بحكم مهنتهم، ولذلك لا أحد لديه ما يخسره أكثر منهم إن اعترفوا بالعيوب في تفكيرهم. وما لم تحدث معجزة، أظنّ أن قلّة قليلة جدًا من هؤلاء الباحثين ستستطيع حتى أن تغيّر رأيها. فالثمن — فقدان الاحترام في دائرتهم، والفقدان المرجّح لوظائفهم — باهظ جدًا.

وليس الباحثون في الحركات التكاملية، أو صائغو العقيدة في الكنائس التكاملية، هم وحدهم من سينهضون للدفاع عن هذا التعليم، بل ستنهض للدفاع عنه أيضًا نساء كثيرات — لا سيّما زوجات القادة الرجال. ومع أن بعض هؤلاء النساء مقتنعات بالحقائق وحدها (كما يرينها)، فإنني أظنّ أنه في حالات كثيرة يجري شيء أكثر بقليل في ما دون الوعي. وكما يقول كيفن جايلز:

في أيّ أيديولوجيا حاكمة، هناك دائمًا نسبة من المحرومين من السلطة يؤيّدون الوضع القائم. ففي نظام الطبقات الهندوسي وفي الأرستقراطيات الكلاسيكية، مثلًا، يكون بعض أقوى المدافعين عن النظام الاجتماعي التراتبي السائد هم الذين في أسفله. وما يحدث هو أنهم يستبطنون هذا النظام؛ فيؤمنون بأن الذين فوقهم يحكمونهم بحقّ، وبأن مكانتهم الأدنى معطاة من الله.[853]

852. John Stackhouse, Finally Feminist، ص. 103، الحاشية 35.
853. Kevin Giles, What the Bible Actually Teaches on Women، ص. 225.

وإذا فكّرنا في الأمر، فقد يكون هناك سبب مفهوم جدًا لدفاعهنّ عن التراتبية: فبوصفهنّ زوجات تكامليات، تعهّدن منذ زمن بعيد بدعم خدمة أزواجهنّ (وآرائهم). وتحدّي ذلك سيتطلّب شجاعة هائلة، بل ربما يهدّد انسجام جماعتهنّ الأساسية، أي زواجهنّ نفسه.

التفكير بعقلية الجندي

حين تكون معتقداتنا التي تميّز هويتنا موضع تساؤل، نعود بسهولة إلى وضع الجندي. فحين نواجه مجموعة من الحقائق غير المريحة، نميل جميعًا إلى التشبّث أكثر بموقفنا الحالي بدلًا من الاعتراف بأننا قد نكون مخطئين. ولأن هذا النقاش حول لاهوت الجنسين يهدّد كثيرين إلى هذا الحدّ (فقد يخسرون وظائفهم إن غيّروا آراءهم)، فمن المفهوم (وإن كان لا يزال مأساويًا) أن يُسقَط بهذه السرعة.

والواقع أن كثيرين ممّن يحاولون أن ينقلوا هذا الحوار إلى كنائسهم يحملون جراحًا تشهد على ذلك. وذلك لأنه من الصعب جدًا أن نفصل الشخص الذي يأتي بالفكرة المهدِّدة عن الفكرة نفسها. وفي أسوأ لحظاتنا، قد لا نكتفي بإطلاق النار على حامل الرسالة، بل نتلاعب بإدراكه أيضًا (gaslighting): فنقول لأنفسنا إن ألمه لا يمكن أن يكون لأننا كنّا مخطئين. بل الأرجح أنه لأنه هو أساء إلينا. أو هكذا نظنّ.

ومع ذلك، وبما أن العقيدة التكاملية مثيرة للجدل إلى هذا الحدّ، فلدى معظم القادة التكامليين المخضرمين الآن قائمة طويلة من أناس في كنائسهم غيّروا رأيهم في هذه المسألة، وتركوهم نتيجة لذلك. ومع هذا العدد الكبير من الضحايا، يتساءل المرء لماذا لا يتوقّف هؤلاء القادة أكثر لمراجعة لاهوتهم بعناية. ويأتي الجواب مرة أخرى في صورة تحيّز معرفي يظهر أوضح ما يظهر في الحرب: كلما ازداد الثمن الذي دفعناه للدفاع عن خطّ ما، ازداد احتمال أن نواصل دفع الثمن نفسه. ففي معركة فردان سنة 1916، التي دامت سنة كاملة، اختار الفرنسيون والألمان خطًّا قُتل عنده أو جُرح جروحًا خطيرة ما يقارب مليون رجل. ومع أنه كان من الأفضل لأحد الطرفين أو لكليهما أن يتخلّى ببساطة عن خنادقه، فكلما ازداد عدد الأرواح التي فُقدت، ازداد عدد الأرواح التي كانوا مستعدّين لمواصلة فقدانها.

وفضلًا عن ذلك، حين نشعر، بوصفنا جماعة، بالتهديد من أناس خارج الجماعة قد يحملون رأيًا مختلفًا، نستسلم بسهولة أكبر لـالتفكير الجماعي، وهو تحيّز جماعي

يضمن أن تبقى نقاطنا العمياء بمنأى عن أيّ هجوم. وحين نحمي رأينا الجماعي ونستبعد الآراء البديلة قبل الأوان، نتّخذ قرارات سيئة. وهناك ما يكفي من الأمثلة العلنية على هذا لتكون تحذيرات: سواء قرار إدارة بوش غزو العراق بناءً على الاعتقاد الخاطئ غير المطعون فيه بامتلاكه أسلحة دمار شامل، أو دوائر اللاعبين الماليين الذين غذّوا انهيار مشتقّات الرهن العقاري. وفي كلتا حالتي التفكير الجماعي الكارثيتين كانت هناك جماعات معزولة من صنّاع القرار تجاهلت «البيانات التي تنقض رأيها، في دوّامة هابطة من تأكيد الذات».[854]

ولحسن الحظ، هناك طريقة أفضل بكثير من الارتداد تلقائيًا إلى وضع الجندي:

حرّاس الأبواب والكشّافة

لا شكّ أننا، نحن الذين نقود الكنائس ونقف عند الأبواب، نحتاج إلى حماية عقيدة كنيستنا. لكننا لسنا مدعوّين إلى أن نكون جنودًا يطلقون النار على كل من يقترب من أسوار المدينة. فبوصفنا شيوخًا صالحين عند باب المدينة، لا نلتزم مسبقًا بألّا ندع شيئًا يدخل: بل نقيّم كل زائر وحمولته، لنرى إن كان فيها شيء قد نحتاج إليه. لسنا أسوار أريحا، نغلق على ما نؤمن به أصلًا، ونغلق الباب في وجه ما لا نؤمن به. بل ينبغي أن نُظهر انفتاحًا ذهنيًا على احتمال أن نكون مخطئين في بعض الأمور، وتقييمًا نقديًا للمسألة في آن معًا.

إن تاريخ اللاهوت المسيحي هو تاريخ تفاعله مع ثقافة دائمة التطوّر. ففي أحد الطرفين تقف الكنائس التي تؤمن بأن الثقافة مخطئة دائمًا. وفي الطرف الآخر، يبدو أن بعضهم يفترض أن الثقافة محقّة دائمًا. ومعظمنا يقف في مكان ما في الوسط، وهذا يعني أننا منفتحون على الأفكار الجديدة، نظريًا على الأقل. ولهذا، مع أنه قد يكون هناك وقت لنكون فيه جنودًا، فلا ينبغي أن نعيش دائمًا في وضع الدفاع؛ وتحتجّ جوليا غاليف (Julia Galef)، في محاضرة من محاضرات TED، بأننا ينبغي أيضًا أن نتعلّم العيش والتفكير في وضع الكشّاف: «مهمّة الكشّاف ليست الهجوم ولا الدفاع. مهمّة الكشّاف هي أن يفهم. فالكشّاف يريد أن يعرف ما هو موجود حقًا، بأكبر قدر ممكن من الدقة. وفي جيش حقيقي فعلي، الجندي والكشّاف كلاهما ضروري».[855]

854. Daniel Goleman, Focus: The Hidden Driver of Excellence، الفصل 7.
855. www.bit.ly/3BKjApP

وحين يكون عقلنا في وضع الجندي، يحرّكنا شعور بالدفاعية والقبلية، كما تقول غاليف، في حين أن:

الكشّافة فضوليّون. فهم أميل إلى القول إنهم يشعرون بالمتعة حين يتعلّمون معلومات جديدة، أو يشعرون بتوق إلى حلّ لغز. وهم أميل إلى الشعور بالفضول حين يصادفون شيئًا يناقض توقّعاتهم، [و]أميل إلى القول إنهم يرون من الفضيلة أن يختبر المرء معتقداته، وهم أقلّ ميلًا إلى القول إن من يغيّر رأيه يبدو ضعيفًا.

وبعبارة أخرى، الاستكشاف استراتيجية مضادّة للتحيّز. وهو في جوهره الاعتقاد المتواضع بأن استنتاجاتنا السابقة قد تكون خاطئة، وبأننا قد يفوتنا شيء ما — ولعلّ هذا ما يسمّيه بطرس أن يكون للمرء «فكر متواضع».[856]

تحوّل النموذج الفكري

في تاريخ العلم والفلسفة واللاهوت، جاءت الاختراقات الكبرى وتحوّلات النماذج الفكرية بفضل هذا النوع من الانفتاح الذهني. فقد يحكم مجالًا ما، طوال قرون، نموذج فكري راسخ يهيمن على افتراضات الجميع. ثم يبدأ بعض الناس يلاحظون بعض الشذوذات الخطيرة. ويشرح عالم الإرساليات آلان هيرش هذا جيدًا:

ينشأ من داخل النموذج الفكري شعور متزايد بالشذوذ، شعور بأن شيئًا ما ليس على ما يرام. أو على الأقل، لا يستطيع نمط التفكير السائد أن يحلّ كل المشكلات التي يواجهها النموذج نفسه. ومن المفارقات أن الذين أتقنوا النموذج السائد هم في أغلب الأحيان أول من ينفصل عن الإجماع — مثل أينشتاين وهايزنبرغ في العلم، أو كالفن وبارت في اللاهوت. فالخبراء الحقيقيون هم الأقدر والأرجح على إدراك الخلل حين يقع! وهكذا يبدأ ما يسمّيه كون (Kuhn) «تجوال العقل»، وهو إحساس جديد بالحرية في التعامل مع الشذوذات من دون الرجوع إلى الافتراضات المسبقة ومجموعة الحلول الجاهزة.[857]

وهذا بالضبط ما حدث مع نشوء التبادلية من رحم النموذج الفكري للتراتبية. وهو يصف أيضًا شيئًا من رحلتي أنا نحو شراكة أكمل بين الجنسين — فحين شرعتُ في إثبات التكاملية بالتعمّق أكثر في حججها الداعمة الكثيرة، شعرتُ قليلًا مثل نيو (Neo) وهو يصادف، لا باختياره، مزيدًا ومزيدًا من الأعطال في «المصفوفة» (the matrix).

856. 1 بطرس 3: 8

857. Alan Hirsch, On the Verge، الفصل 2.

وكلما استطعت أن أشرح بشكل أوفى لماذا كنت أؤمن، بوصفي تكامليًا، بما كنت أؤمن به، قلّت قدرتي على الإيمان به.

وكان جزء من هذه العملية أنني تعلّمت أن أقرأ الكتاب المقدس بوصفي كشّافًا لا جنديًا. ففي كتابه Models for Interpretation of Scripture، يحذّر جون غولدينغاي (John Goldingay) من معاملة الكتاب المقدس على أنه وثيقة دفاع تسند معتقداتنا القائمة: «ومن طرق اختبار ما إذا كان الأمر كذلك أن يسأل المرء: متى كانت آخر مرة غيّر فيها رأيه (أو الأفضل، سلوكه) بسبب شيء قرأه في الكتاب المقدس؟ فنحن جميعًا، بوجه عام، نستعمل الكتاب المقدس لكي نؤكّد [معتقداتنا] لا لكي نواجهها، ولمجرّد أن "نستنسخ أنفسنا"».

من الطبيعي أن نفضّل مشاعر الثقة واليقين على الشعور المقلق الذي يكسر كبرياءنا حين ندرك أننا كنّا مخطئين في أمر ما. بل حتى حين نتعرّض لأدلّة قوية على أن شعورنا بالثقة في معتقداتنا قد يكون في غير محلّه، نجد صعوبة في التخلّص من الشعور بأن معتقدنا لا يزال صحيحًا. ويسمّي دارسو التحيّز المعرفي هذا النوع من التحيّز وهم الصلاحية.

ويشرح هيرش كيف يبدأ النموذج الفكري القديم، الذي كان الجميع يدافعون عنه بشدّة ذات يوم، في التفكّك: «ببطء، يدرك مزيد ومزيد من الناس أن شيئًا ما خطأ في التصوّر السائد للأمور؛ وفي النهاية تُبلغ نقطة التحوّل».[858]

لكن في العادة، حين يبزغ فجر النموذج الفكري الجديد، يعود القديم ليفرض نفسه في معارضة شديدة. فكون المرء على حقّ لا يكفي لضمان تغيّر سريع في الرأي. (فمثلًا، لم ينجُ غاليليو بعنقه إلا بتراجعه عن «هرطقة» كون الشمس مركز الكون.) ويشرح هيرش أن ذلك «لأن بعضهم استثمروا إحساسهم بذواتهم في النموذج الفكري، ولذلك يستمدّون منه شرعيتهم».[859]

ومع ذلك، إذا مضى وقت كافٍ، فإن النموذج الفكري الجديد يحلّ في النهاية محلّ القديم. وكما قرّر الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور (Arthur Schopenhauer) في القرن التاسع عشر: «تمرّ كل حقيقة بثلاث مراحل: أولًا، يُسخَر منها. ثانيًا، تُقاوَم. ثالثًا، تُقبَل بوصفها بديهية». حين تعرّفتُ أول مرة إلى تفسير تبادلي للكتاب المقدس قبل عقود، كان انطباعي آنذاك أنه يقف على الحدّ الفاصل بين السخرية منه ومقاومته. أما

858. Alan Hirsch, On the Verge، الفصل 2.
859. Alan Hirsch, On the Verge، الفصل 2.

حين أتلفّت حولي الآن، فأراه يتأرجح بين مقاومته واعتباره بديهيًا. وعلى الرغم من خوف الكنيسة الإنجيلية الأمريكية من الليبرالية، الذي يجعلها تميل إلى أكثر التفسيرات محافظةً للأمور، فإن ربع أكبر الكنائس في الولايات المتحدة يسمح الآن بالفعل بالراعيات والواعظات.[860] لقد تمّ تجاوز نقطة التحوّل، وصار الجدول الصغير سيلًا جارفًا، وأظنّ أنه لا رجوع الآن.

أمر آخر بشأن التحيّز ينطبق خصوصًا على من انتقلوا منّا من التراتبية إلى التبادلية: احذروا التحيّز بأثر رجعي. وهو أننا، بمجرّد أن نغيّر آراءنا، نفقد بسرعة شديدة تعاطفنا مع الذين يؤمنون بما كنّا نؤمن به سابقًا. فحين يغيّر الناس معتقداتهم في ضوء معلومات جديدة (وهو إنجاز نادر!)، يجدون بعد ذلك صعوبة في تذكّر مضمون معتقداتهم القديمة، فيظنّون أنهم كانوا يميلون إلى الرأي الصحيح طوال الوقت. وبفعل هذا التحيّز، تتشوّه ذاكرتنا لتاريخ معتقداتنا. بل أليس التحيّز بأثر رجعي هو تفسير نزعة إدانة الآخرين التي كثيرًا ما تظهر في حركات اجتماعية كثيرة في السنوات الأخيرة؟ فقبل أقل من سنة ربما كان شخص ما يؤمن بشيء آخر، والآن غيّر رأيه، وصار مستعدًا لأن يشجب بشدّة «المتعصّبين» الذين ما زالوا يؤمنون بما كان هو يؤمن به في السنة الماضية! ولهذا من المهم جدًا أن تبقوا متواضعين حتى بعد أن يقودكم تواضع فكركم إلى تغيير رأيكم.

وبهذه الملاحظة أختم كتابي، وألخّص معتقدًا لم يكن لديّ في معظم سنوات خدمتي، لكنه صار لديّ الآن، بعد أن سبرتُ أغوار الكتاب المقدس بأفضل ما أستطيع، وهو رأي أقدّمه لكم لتنظروا فيه:

تتبنّى تبادلية الرجل والمرأة الموقف اللاهوتي، المستنير بالكتاب المقدس، بأن الرجال والنساء متمايزون ومع ذلك متساوون، خُلقوا ليخدموا ويتشاركوا جنبًا إلى جنب في كل مجالات الحياة. ويمكن، بل ينبغي، الاعتراف بالسلطة والموهبة والخبرة التي أعطاها الله لكل شخص والاحتفاء بها، بصرف النظر عن جنسه.

860. www.bit.ly/3COXZxW

شكرًا جزيلًا

أعظم شكري لعائلتي الأقرب وفريقي — جولي، وإيلاي (Eli)، وفين (Fynn)، وآيفي، وتشارلي (Charlie)، وسام (Sam) — لقد احتملتم زوجًا وأبًا كرّس لهذا الكتاب قدرًا مبالغًا فيه من عقله وقلبه ووقته. ومهما كان الأثر الصالح الذي يحدثه، فقد صنعناه معًا.

شكرًا لوالدَي زوجتي، جوي (Joy) وكيث (Keith)، ولعائلتي الثانية في Nest Deli. فمع أفضل قهوة في يدي، ومناظر جبلية مذهلة، وأناس لطفاء من حولي، وفّر لي هذا المكان الفسحة الآمنة الرحبة التي احتجت إليها لكتابة هذا الكتاب.

إلى الذين صلّوا من أجلي — ولا سيّما شاي والتون (Shae Walton) وإدوينا هانسلو (Edwina Hanslo) — شكرًا لكم، شكرًا. لن أنسى أبدًا اليوم الذي شعرت فيه بوحدة تامة وأنا أكتب بلا توقّف، ثم وصلتني رسالتكما الصوتية: «لقد وضعك الرب على قلبينا يا تيران. مهما كان ما تعمل عليه الآن، فاستمرّ! إنه معك وأنت تعمله، ويشجّعك».

إلى علماء الكتاب المقدس الذين لا يُحصَون، والذين شقّوا لي طريقًا إلى قراءة أفضل للكتاب المقدس — ومنهم مثلًا الدكاترة لوسي بيبيات، وجامين هوبنر، ووِيليام ويت، وأليس ماثيوز، وديريك مورفيو، وكاتيا آدامز — أنا ممتنّ لكم إلى الأبد. وفي رأيي المتواضع، هناك أربعة من علماء الكتاب المقدس على وجه الخصوص يستحقّون جوائز إنجاز العمر لكونهم أصواتًا نبوية منفردة لزمن طويل: الدكاترة سينثيا وستفول، وكريغ كينر، وفيليب باين، وكيفن جايلز. لقد عوملتم أحيانًا كهراطقة لأنكم وقفتم إلى جانب الحق، وأنتم حقًا أبطال الكنيسة. وفي يوم ما سيشكر كثيرون آخرون الله على محبتكم للكنيسة، وعلى مواهبكم في الفكر والتمييز، وعلى أعماق شجاعتكم، وعلى كل الدموع التي زرعتموها على الأرجح. إن جهودكم لم تذهب سدى.

رايان بوثا (Ryan Botha)، شكرًا لك على تسخير موهبتك الاستثنائية في التصميم، التي وهبك الله إياها، لغلاف هذا الكتاب وشعاره. ولزوجتي جولي، ولكريستين فان ويك (Christine Van Wyk)، وكريغ ماكيلار (Craig McKellar)، على مهاراتكم في التحرير والتدقيق اللغوي — أنا ممتنّ جدًا. وأخيرًا، للأصدقاء الذين شجّعوني وصلّوا من أجلي — بول فان كولر، وسارة وستيف بينوس (Sarah and Steve Binos)، وديفيد

تشايلد (David Child)، وجين بيدرسن، وغاريث وأنجيلا ماريلييه (Gareth and Angela Marillier)، وجوليان وكاتيا آدامز، وكيلي وغاي تشينلز (Kelly and Guy Chennells)، وسو وآنت رايان (Sue and Ant Ryan)، ومايك داي (Mike Day)، وتوم وجيس باسون، وأختي ماندي (Mandy) وأخي ريتشارد (Richard) — لولاكم لاستسلمت منذ زمن بعيد في هذا المشروع.

مراجع مختارة

Barr, Beth Allison, 2021, “The Making of Biblical Womanhood: How the Subjugation of Women Became Gospel Truth.” Brazos Press

Bartlett, Andrew, 2020: “Men and Women in Christ: Fresh Light from the Biblical Texts.” Intervarsity Press.

Beck, James R. (ed), 2005: “Two Views on Women in Ministry (Counterpoints: Bible and Theology).” Zondervan

Bessey, Sarah, 2013: ”Jesus Manifesto: An Invitation to Revisit the Bible's View of Women.” Howard Books

Davidson, Richard, 2012, “Flame of Yahweh: Sexuality in the Old Testament.” Baker Academic

Frymer-Kensky, Tikva, 1992, “In the Wake of the Goddesses: Women, Culture and the Biblical Transformation of Pagan Myth.” Ballantine Books

Giles, Kevin, 2019: “What the Bible Actually Teaches on Women.” Cascade Books

Gregoire, Sheila; Lindenbach, Rebecca; Sawatsky, Joanna, 2021: “The Great Sex Rescue.” Baker Books

Grudem, Wayne, 2012: “Evangelical Feminism and Biblical Truth: An Analysis of More Than 100 Disputed Questions.” Crossway

Hübner, Jamin, 2013: “A New Case For Female Elders: An Analytical Reformed-Evangelical Approach.” PhD Thesis www.bit.ly/3BNaSY8

Hübner, Jamin, 2015: “Translating Authentein in 1 Timothy 2:12a.” www.bit.ly/3EKqWM8

Keller, Kathy, 2012: “Jesus, Justice and Gender Roles: A Case for Gender Roles in Ministry.” Zondervan

Keller, Timothy and Kathy, 2016: “The Meaning of Marriage.” Penguin Group

Knight III, George, 1977: “The New Testament Teaching on the Role Relationship of Men and Women.” Baker Books

Köstenberger, Andreas: Köstenberger, Margaret, 2014: “God's Design for Man and Woman: A Biblical-Theological Survey.” Crossway

Köstenberger, Andreas; Schreiner, Thomas, 2016: “Women in the Church: An Analysis and Application of 1 Timothy 2:9-15.” Baker Academic

Mathews, Alice, 2017: “Gender Roles and the People of God.” Zondervan

Payne, Philip, 2015: “Man and Woman, One in Christ: An Exegetical and Theological Study of Paul's Letters.” Zondervan Academic

Peppiatt, Lucy, 2019: “Rediscovering Scripture’s Vision for Women.” IVP Academic

Pierce, Ronald; Groothuis, Rebecca; Fee, Gordon (eds), 2005: “Discovering Biblical Equality: Complementarity without Hierarchy.” IVP Academic

Piper, John; Grudem, Wayne (eds), 2021: “Recovering Biblical Manhood and Womanhood: A Response to Evangelical Feminism.” Crossway

Stackhouse, John, 2005 “Finally Feminist: A Pragmatic Christian Understanding of Gender.” Baker Academic

Storkey, Elaine, 2018: “Scars Against Humanity: Understanding and Overcoming Violence against Women.” IVP Academic

Westfall, Cynthia, 2016: “Paul and Gender: Reclaiming the Apostle's Vision for Men and Women in Christ.” Baker Publishing Group

Westfall, Cynthia, 2014: “The Meaning of Authentein in 1 Timothy 2:12.” www.bit.ly/3EL7OgM

Witt, William, 2020: “Icons of Christ: A Biblical and Systematic Theology for Women’s Ordination.” Baylor University Press

Wojtyła, Karol, 2002: “Mulieris Dignitatem: On the Dignity and Vocation of Women.” Catholic Truth Society

خطوات تالية للكنائس: مصادر موصى بها

Cole, Kadi, 2019: “Developing Female Leaders: Navigate the Minefields and Release the Potential of Women in Your Church.” Thomas Nelson

Dixon, Rob, 2021: “Together in Ministry: Women and Men in Flourishing Partnerships.” IVP Academic

Williams, Terran, 2022: “How God Sees Women: End of Patriarchy, 10 Session Group Study Guide.” قوموا برحلة من 10 جلسات في هذا الكتاب مع آخرين؛ نزّلوا هذا Study Guide (دليل الدراسة الجماعية) المجاني من www.bit.ly/37FBBfQ

كتب أخرى لتيران ويليامز

What's So Amazing About Scripture? How To Read It Right And Tap Into Its Power

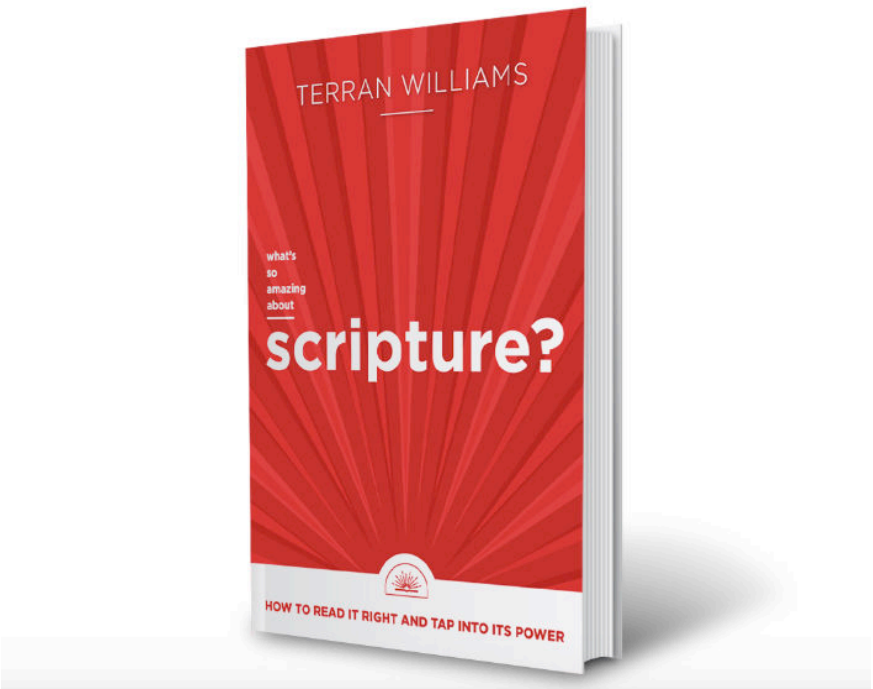

يكتب تيران ويليامز بعمق تحت البساطة. فالكتاب سهل وفي متناول الجميع، لكن وراءه قراءة حديثة لأهمّ الأدبيات اللاهوتية. وهو يكتب أيضًا بشغف. ويستطيع المرء أن يلمس في كل فصل أنه يحبّ موضوعه ببساطة. إنه يحبّ الكتاب المقدس، ويحبّ القصة الكبرى، ويحبّ بطلها المحوري. أصلّي أن «تُعدَوا» بشغفه بالكتاب المقدس وأنتم تقرؤون.

—د. ديريك مورفيو، مؤلّف Breakthrough وThe Kingdom Reformation، ومؤسّس Vineyard Bible Institute الدولي

بوصفي راعيًا يحاول أن يساعد الناس على التفاعل مع الكتاب المقدس، بحثتُ عن الكتاب الذي يبلور ما هو الكتاب المقدس وما موضوعه، ولماذا وكيف لا يزال يكلّمنا، وكيف نشأ، وكيف نقرؤه ونطبّقه، وكيف نقترب من الله من خلاله. كتاب مكتوب لقرّاء الكتاب المقدس المتمرّسين وللرعاة مثلي، ولكن أيضًا للمبتدئين والمتشكّكين. مطلب صعب، لكنني وجدته أخيرًا!

—غرانت كلارك (Grant Clark)، راعي One Harbour

يقوم تيران ويليامز بعمل عبقري وهو يجمع، بحيوية وبأسلوب في متناول الجميع، أعمال علماء الكتاب المقدس المعقّدة. استعدّوا لرحلة العمر، إذ تجدون الإلهام للتنقيب في الكتب المقدسة، وتتجهّزون لاكتشاف الكتاب المقدس بأنفسكم.

—مينا كويلا، راعية ومديرة تنفيذية لـBeautiful Gates

معظم الكتب عن الكتاب المقدس إما بسيطة وجذّابة لكنها لا تتناول الديناميكيات الكتابية الأكثر تعقيدًا، وإما معقّدة وأكاديمية لكنها لا تساعد القارئ العادي. وهذا الكتاب النادر والرائع يفعل الأمرين كليهما.

—ستيفن بولمان (Stephen Pohlman)، مؤلّف The Reason For Everything.

أعتقد أننا نشهد بروز مفكّر ومتحدّث وكاتب بالغ الأهمية في شخص تيران. فلديه قدرة مذهلة على إيصال حقّ الله بدقّة، بأسلوب جذّاب جدًا ونبوي، نحتاج إليه كثيرًا في ثقافة «ما بعد الحقيقة» التي نعيش فيها.

—كريغ بوثا (Craig Botha)، مدرّب رعاة

«What's So Amazing About Scripture? How to Read it Right and Tap Into Its Power» متوفّر بغلاف ورقي على Amazon وككتاب إلكتروني على Kindle.

www.terranwilliams.com